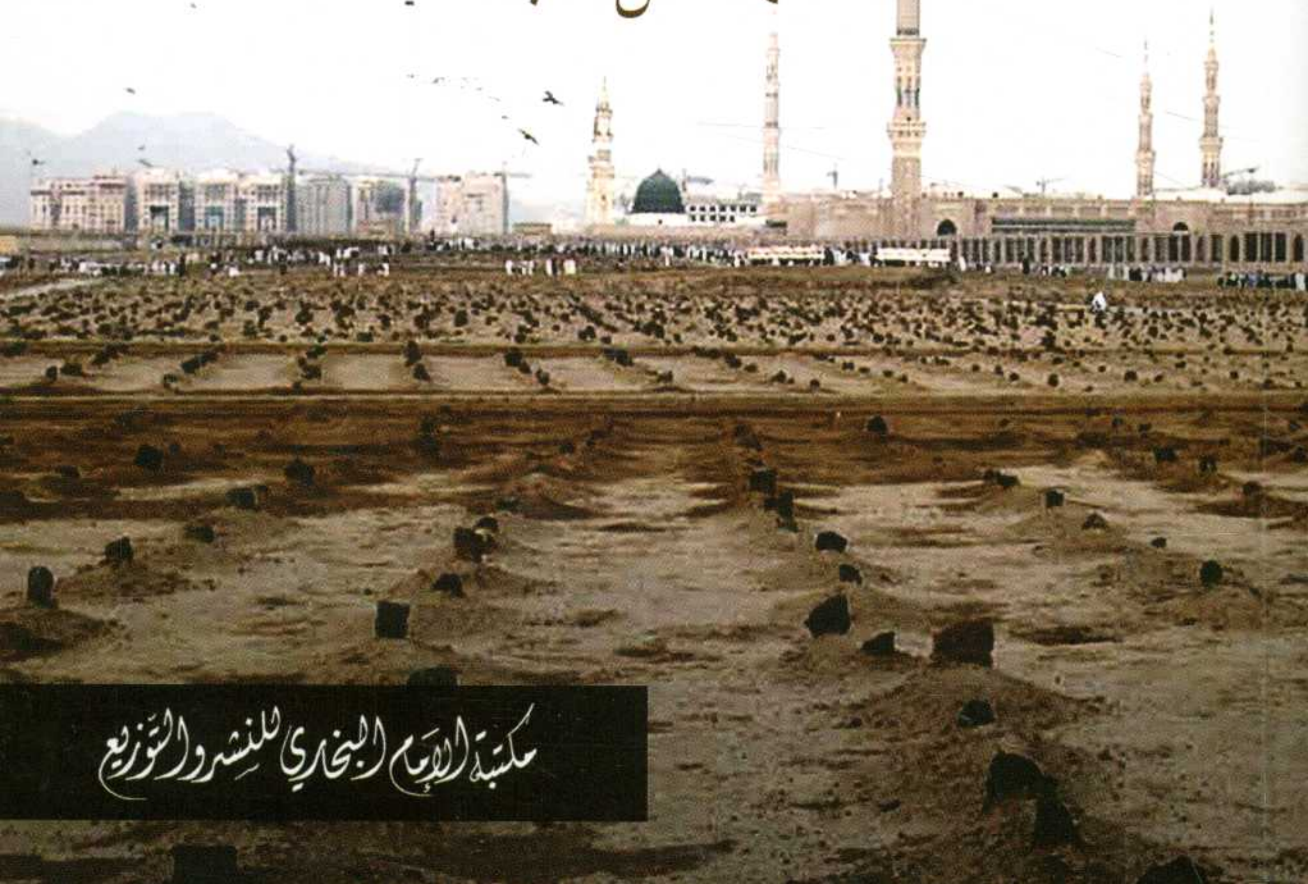
المراثي النبوية

في أشعار الصحابة
توثيق ودراسة

محمد شمس عقاب



مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

المراثي النبوية

في أشعار الصحابة

توثيق ودراسة

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلُ هذا الكتاب رسالة ماجستير نُوقشت فى قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية سنة ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م بإشراف الأستاذ الدكتور سعيد حسين منصور الأستاذ بالقسم، وعضوية كلٍّ من : الأستاذ الدكتور فوزى سعد عيسي رئيس القسم ، والأستاذ الدكتور محمد أبو المجد علي وكيل كلية دار العلوم بالفيوم. ونالت تقدير (ممتاز)

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢١٧٨٠ / ٢٠١٣

ISBN
٩٧٨ ٩٧٧ ٤٨١ ١٠١ ٢

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر - إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق المصرية
إدارة الشئون الفنية

المراثي النبوية في أشعار الصحابة : توثيق ودراسة / محمد شمس عقاب . مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٣ .

٥٢٨ ص ؛ ٢٤سم .

تدمك ٢ ١٠١ ٤٨١ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الشعر العربي - تاريخ - صدر الإسلام
٢- الشعر العربي - تاريخ ونقد
أ- العنوان ديوي ٨١١,٢

مكتبة الإمام البخاري
الإسماعيلية ٤٦ شارع الجمهورية - الثلاثيني - بعد السنترال
تليفون ٠١٢٢٢٣٦٧٦٧٩٧

مُقَدِّمَة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وأصلِّي وأسلِّم على رسول الله محمَّدٍ، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه، أمَّا بعد؛ فإن أعظم مصيبة أصابت المسلمين قاطبةً هي مصيبة فقد الرَّسول ﷺ، وإن أعلم الناس بهول المصيبة - أيِّ مصيبةٍ - هم أولئك القومُ الذين نزلت بهم فنالت منهم، وكان الصحابة أوَّلَ من ابتُلي بموت الرَّسول ﷺ، وأولَ مَن رثاه. قال أنس بن مالك: لمَّا كان اليومُ الذي قَدِمَ فيه رسولُ الله ﷺ المدينةَ؛ أضاءَ منها كلُّ شيءٍ، فلمَّا كان اليومُ الذي مات فيه؛ أظلمَ منها كلُّ شيء. وما نفَضْنا عن رسول الله ﷺ الأيديَ حتى أنكرْنا قلوبَنا[1].

والمراثي النبويَّةُ في أشعار الصحابة ديوانٌ بِكْرٌ منثور في أشتات الكتب المتقدِّمة، ولعلَّ أحدًا لم يفرده ببحثٍ إلا الدكتور محمد أبو المجد عليّ في كتابه «مراثي النَّبيِّ ﷺ»[2] الذي جمع قدرًا حسنًا منها بلغ إحدى وستين مرثيةً ما بين قصيدة ومقطَّعةٍ وبيت، وقد خرَّج الدكتور كلَّ ذلك وقابله، وقدَّم له بدراسةٍ خصَّ جزءًا منها للحديث عن الوضع والانتحال[3] أشار فيه بإشارات دقيقة، وللدكتور أبي المجد كتابٌ آخر في شعر صفيَّة بنت عبد المطلب، جمع فيه مراثيَها، ودرسها ضمن بقية أغراض

(١) انظر: المسند، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني ٣٣٠/٢١ (تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢/١٤٢٠هـ).

(٢) مراثي النبي ﷺ: جمع وتحقيق ودراسة (مكتبة الآداب، القاهرة، ط٣). ولعلَّ الأستاذ محمد عبد الغني حسن أوَّلُ من نبَّه إلى هذا الموضوع حين نشر بحثًا في مجلَّة مجمع اللغة العربية بالقاهرة عنوانه: المراثي النبوية وشعراؤها (الجزء التاسع والأربعون ص٤٦، رجب ١٤٠٢ هـ - مايو ١٩٨٢م)، أشار فيه إلى نحو عشرين مرثية، وكتب عليها تعليقًا مجملاً من غير تفرقةٍ بين الصحيح منها والضعيف، إلا أنه قال مرَّة معقِّبًا على بعض المراثي: « أحسن الله إلى من يدلُّنا على وجه الصواب في هذه الأبيات، فيما نقلناه قبلَ ذلك من شعرٍ في رثاء نبيّ هذه الأمة الكريمة، محمد بن عبد الله » (ص٦١)، وقال مرَّة أخرى معقِّبًا على بعض مراثي النساء: « وأغلب الظن أن التكلف والانتحال يبدوان على هذا الشعر » (الصفحة نفسها)، وقد صنع الدكتور محمد أبو المجد صنيعًا جميلاً حين أهدى إليه كتابه هذا معترفًا بفضل فتحه لهذا الباب.

(٣) أنظر: ص٤٤ - ٥١.

شعرها الأخرى واقفًا وقفة خاصَّة عند ما يُشكُّ فيه من نسبة شعر لها[١].

فأردتُ أن أُخلِص هذه الدراسةَ لتوثيق تلك المراثي، وإبانة صحيحها عن زائفها، ثم تبيين الخصائص الفنيَّة لهذا الذي صحَّ منها؛ رغبةً إلى إعمال منهجٍ مفصَّلٍ يتحاشى الإجمالَ ما وسعه ذلك؛ لكي تخرج الأحكامُ صادقةً على الشعر والشاعر والعصر[٢].

وقد وقع لي حين شرعتُ في هذه الدراسة زوائدُ على ما جمعه الدكتور محمد أبو المجد، إمّا مراثٍ بنفسها، وإمّا أبياتٌ زائدةٌ على مراثٍ مجموعة، فجمعتُ المراثيَ كلَّها، وأثبتُّ الزوائد فيها، وضبطتُها، واجتهدت في تخريج أبياتها في ما تيسر لي من قديم الكتب دون جديدها، ثم قابلتها، وصنعت لذلك هامشًا تخيَّرت فيه مصدرًا عمدةً عارضت البقيَّة عليه، ثم رتَّبتُ فيه المصادر على عدد الأبيات الواردة فيها، الأكثرَ فالأقل، وقد يتغيَّر ذلك لعارض، ثم صنعت آخر للتعليق وشرح الغريب من الألفاظ؛ لئلا يتوزَّع القارئ بين الفروق والمعاني.

هذا، وإن يكن عمل الدكتور أبي المجد لبنةً في بناء المراثي النبويَّة؛ فأرجو أن يكون هذا العمل لبنةً أخرى عليه، يبدأ من حيث انتهى إليه.

على أن الجمع - مع ذلك - ليس غاية البحث، وما هو إلا خطوة واحدة في سبيله، وإنَّ الذي يصبو إليه البحثُ التوثيقُ؛ لأنه قد وقع في هذه المراثي خلطٌ شديدٌ، ونحلٌ، وزيادةٌ، وخطأُ نسبةٍ؛ جرَّ إلى سوء حكم على بعض الشعراء، وكان سببًا من أسبابٍ دفعت إلى توهين الشعر الذي أُنشد في ذلك العصر،

---

(١) انظر: شعر صفية بنت عبد المطلب: جمعٌ وتحقيقٌ ودراسة، للدكتور محمد أبو المجد علي ص٢٥-٢٩، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١/١٤٢٣هـ).

(٢) رأى الدكتور محمد أبو المجد أنَّ أهمَّ ما أثمر عنه الجدال في قضية الوضع والانتحال في شعرنا القديم؛ هو المبدأ الذي يدعو إلى لزوم الحيطة والحذر، لا الشكّ على الإطلاق، ويوجّه الجهد إلى « البحث عن الروايات، والتمييز بين الصحيح منها وغير الصحيح، وعن الرواة، والفصل بين الثقات منهم وغير الثقات، والمصادر التي تعامل معها، وطبيعة كلٍّ منها، وعلى الإجمال (التوثيق) أو (التحقيق) للوصول بهذا الشعر إلى أفضل صورة يمكن الاطمئنان إليها » (المرجع السابق ص٢٦).

عصرِ النبوة. والدراسةُ تريد بالتوثيق تنقيةَ أشعار المراثي النبويَّة من ذلك كلِّه.

وليست مشكلة البحث في أدب عصر النبوة كامنةً في التوثيق وحده، بل إنَّ الدراسات التي اتجهت إلى ذلك العصر كثيرًا ما رجعت بأحكامٍ محرَّفةٍ ومجحفةٍ، يمدُّها بذلك أسبابٌ أكبرها نقص الاستقراء، والرضى بأقوالٍ مشهورةٍ قد لا تصح، وقلَّما وجدت دراسةً لأدب عصر النبوة وقضاياه مثلَ تلك التي كتبها أستاذنا العالم الجليل الدكتور سعيد حسين منصور في كتابه «حركة الحياة الأدبيَّة بين الجاهلية والإسلام»(١) الذي نهج فيه منهج استقراءِ الأقوال وتقليبِها على أوجهها عساها تُظهر من الحقائق ما توارى؛ وكتابه «رؤية جديدة في دراسة الأدب العربيّ في عصر صدر الإسلام»(٢) الذي قرأ به بردة كعب بن زهيرٍ قراءةً لم يُسبق إليها من قبل، نهج فيها منهجَ التتبُّع والرَّصَدِ لا الركونِ إلى ما استقرَّ واشتُهر، وكانت دراسات الناس لهذه القصيدة وأشباهها من أشعار الصَّدر لا ترى فيها وجهةً إسلاميَّةً صحيحة، بل تعدُّها امتدادًا عاديًّا لأشعار الجاهلية. وقد ابتغيت في هذا الكتاب تلمُّس سبيل أستاذي التي إخالها منصِفةً مستقيمة.

وسلكتُ بالدراسة إلى توثيق الشعر هذا المسلك :

جعلتُ مراثيَ كلِّ فصل في أوَّله مخرَّجةً، مقابلَةً، مرتَّبةً على حرف الرويّ ترتيبًا هجائيًّا، ولم ألتزم ذلك في دراسة الأشعار؛ لأن مصلحة التوثيق قد تقتضي تقديم مرثيَةٍ على أخرى.

وفي داخل الفصول رتَّبتُ الصحابة على حروف الهجاء، إلا من غلبت كنيتُه أو لقبُه؛ فإني أقدمهما، ثم رتَّبت مراثيَ الصحابيِّ الواحد إن زادت على واحدة على حرف الرويّ ترتيبًا هجائيًّا أيضًا، على أنني قد لا ألتزم بهذا الترتيب عند الخوض في دراسة الأشعار إذا استدعى المقامُ الإخلالَ به.

(١) حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام، لأستاذنا الدكتور سعيد حسين منصور (دار القلم، الكويت، ط١/١٩٨١م).

(٢) رؤية جديدة في دراسة الأدب العربي في عصر صدر الإسلام، لأستاذنا الدكتور سعيد حسين منصور (الدوحة ١٩٨١م).

وعرَّفت بالشعراء عند مراثيهم بما يمَسُّ مسألة التوثيق، غيرَ مثقِلٍ الحواشيَ بالكتب التي ترجمت الشاعر؛ بل أقتصر منها على ما فيه إفادةٌ للبحث.

ثم أَلِج إلى المرثية للنظر في صحَّة نسبتها إلى الشاعر، وذلك بنقدها نقدًا خارجيًّا لمصادرها ورواتها، يعضده نقدٌ داخليٌّ للنصِّ نفسِه، بكل الوسائل المُجْدِيَة في ذلك، كلغة الشاعر ولغة عصره، وعلمِ النقد التاريخيّ، وعلم التحقيق، وعلم الرجال، مراعيًا في ذلك ما تختلف به الرواية الأدبية عن رواية الحديث، ومعرِّجا كذلك على الجهود المحدَثة التي سلكت في درب التوثيق هذا.

وقد انتهجتُ في التوثيق المنهج التاريخيَّ القائمَ على التتبُّع والاستقراء.

ثم بنيتُ القراءة الفنيَّة على هذا الأساس التوثيقيّ؛ لأطمئنَّ إلى صفاء النَّص، فدقَّةِ الحكم.

فعمدتُ إلى المراثي التي صحَّحها التوثيقُ، فأظهرت منها خصائصها العامةَ التي اشتركت في بنائها، ولغتها، ومعانيها الإسلاميَّة، وصورها، وموسيقاها، دون كبير تفصيلٍ إلا تفصيلاً تقتضيه الدِّلالة على هذه الخصائص؛ ذلك أن نقد قصيدةٍ واحدة، أو نقدَ شعر شاعرٍ واحدٍ؛ أهونُ من نقد شعرٍ لشعراء مختلفين، وأبلغُ في النظر فيه نظرًا كُلِّيًّا، وأدعى إلى طرد الأحكام على أجزائه، وأصدقُ في تبيُّن عاطفته؛ وإنَّ أشعار الشاعر الكثيرة ليأخذ بعضُها برقاب بعض؛ وإنّ التلطُّف للكشف عن طيَّات نفسٍ واحدةٍ لا يكون كالشتات بين مشاعر نفوس شتَّى يُطلب إلى الناظر فيها إطلاقُ أحكامٍ جامعةٍ عليها.

لذلك رضيتُ المنهجَ التحليلي أصلاً لإبراز هذه الخصائص مقرونًا بوقفات نقدية تمثِّل لما في هذه الأشعار من الفنّ.

وقصدتُ بالمرثية في هذا الكتاب كلَّ شعر قيل حُزنًا لوفاة الرَّسول ﷺ، غيرَ ملتزم بما ذهب إليه

بعض الباحثين من تقسيم المراثي بين ندب وتأبين وعزاء[١]؛ فإنها قسمة موضوعيَّة مختلفة عما ترمي هذه الدراسة إليه.

وآثرتُ الصحابة بالاختيار؛ لأنَّ مصيبتهم بالمصطفى ﷺ كانت أوجعَ في نفوسهم، وآلم، ولا غرْو؛ فقد كان الحبيب محمدٌ ﷺ يغدو بين ظهرانيهم، ثم لم يَعُد.

وجاء الكتابُ في خُطَّته على تمهيدٍ، وثلاثة أبواب، وخاتمة:

أمَّا التمهيد فكان للكلام على المصادر الجديدة، ثم التعريف بالمرثية، ثم ضبط حدِّ مصطلح الصحابي في هذه المراثي ؛ قطعًا للمعاني الكثيرة التي تعنيها هذه الكلمة.

وأمَّا الأبواب فهي على النحو الآتي:

الباب الأول: توثيق مراثي الصحابة - رضوان الله عليهم، وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: توثيق مراثي أبي بكر الصدِّيق.

الفصل الثاني: توثيق مراثي حسَّان بن ثابت.

وخصصتُ كلَّ واحدٍ منهما بفصلٍ لكثرة ما ينسب إليهما.

الفصل الثالث: توثيق مراثي من لهم غيرُ مرثية - رضي الله عنهم وهؤلاء عدد مراثيهم أقل مما نسب لأبي بكرٍ وحسَّان؛ فجمعتهم في فصلٍ واحد. وهم: عليّ بن أبي طالب، وله أربع مراثٍ، وكعب بن مالك، وله ثلاث مراثٍ، وعمرو بن العاص، وله ثلاث مراثٍ، وعمر ابن الخطاب، وله مرثيتان.

الفصل الرابع: توثيق مراثي أهل اليمن - رضي الله عنهم، جعلتهم في فصل واحد لاشتباه القول في مراثيهم، ولتشابه هذه المراثي في كثيرٍ من السمات. وأصحابها هم: عامر ابن الطُّفيل

---

(١) انظر: الرثاء، للدكتور شوقي ضيف (دار المعارف، ط٤).

الأزديّ، وسواد بن قارب، وابن ذي أُصبح، وامرؤ القيس بن عابس، وعبد الله بن مالك الأرحبيّ، وعبد الحارث بن أنس بن الديَّان، وعبد الله بن سلمة الهَمْدانيّ، وابنُ النعمان العتكيّ، وابن ذي المشعار، ومسروق بن ذي الحارث الهَمْدانيّ، وعمرو بن الفُحيل الزُّبيديُّ، وذو الكَلاع، ومُرَّان بن عُمير، وشدَّاد بن مالك بن ضَمْعَج.

الفصل الخامس: توثيق مراثي طائفة من العرب - رضي الله عنهم، وهو فصل لأصحاب المفردات من الرجال. وهم: ابن أبي عَزَّة، وأبو ذؤيب الهذليُّ، وسالمُ الغطفانيّ، وأبو الهيثم بن التيّهان، وقيس بن غُنيم، وعديُّ بن حاتم، وعبد الله بن أُنيس، وعمرو بن سالم الخزاعيّ، وأبو سفيانَ بنُ الحارث، والزِّبرقان بن بدر، ولَبيد بن ربيعة.

الباب الثاني: توثيق مراثي الصحابيَّات، وفيه فصلان:

الفصل الأول: توثيق مراثي صفيَّة بنت عبد المطلب - رضي الله عنها؛ خصصتها به لكثرة ما ينسب إليها من المراثي.

الفصل الثاني: توثيق مراثي طائفة من الصحابيَّات - رضي الله عنهنّ، وهنَّ صواحب مراثٍ أقلَّ من مراثي صفيَّة. وهنَّ: فاطمة بنت النبيّ - على أبيها وعليها السلام، ولها ستُّ مراثٍ، وعاتكة بنت عبد المطلب، ولها ثلاث مراثٍ، وهند بنت أُثاثة، ولها مرثيتان، وأمُّ أيمن، وهند بنت الحارث بن عبد المطلب، وأمُّ رَعْلَة، وأروى بنت عبد المطلب، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل، ولكلّ واحدةٍ منهنَّ مرثيةٌ واحدة.

الباب الثالث: الخصائص الفنيَّة في المراثي النبويَّة، جعلتُ تحته الحديث عن البناء، واللغة، والمعاني الإسلامية، والصورة، والموسيقى.

وعرضت في الخاتمة أهمَّ نتائجِه.

ومـا كان لهـذا الكتاب أن يكون لولا فضل الله - سـبحانه وتعالى - ثم قومٌ كثيرٌ من الناس لهم عليَّ فيه يدٌ، ولكنَّ أجودهم علـيَّ، واللهِ، من غير مَيْنٍ هو أسـتاذي الكبيرُ الدكتور سـعيد حسـين منصور - أدام الله عليه العافية، وجعل حظَّه السـعادة، وأناله ممَّا يحب ؛ فقد كنتُ أتعلَّمُ من علمه العلمَ ، كما أتعلَّمُ من أدبه الأدب.

ولئن كان في هذا الكتاب من حسنةٍ فإنه لم يصلْ إليها إلا من طريق أستاذنا على أيّ وجه مـن الوجوه؛ فقد كان - رفع الله قـدره - دائمَ التعهُّد لي، كثيرَ النصح لي، صبورًا على عجلي، حليمًـا في أمـره كلِّه، وكان لا يَني يمنعُني من غائلة بعض الحماسـة، وينفخُ فيَّ من روح العلم الجليل ، وللشباب خلطٌ بين هاتين.

محمد شمس عُقاب

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الإسكندرية

في يوم الأربعاء ٧ شوال ١٤٣٤هـ

الموافق ١٤ أغسطس ٢٠١٣م.

إهداء

إلى أُمِّي مُعَلِّمِي الأَوَّل

وأبي الذي علَّمني الحرية

إحدى ثمار غرسكما القديم

رضي الله عنكما

ابنكما محمد

***

تمهيد

ممَّا استدعاه البحثُ في هذه الدراسة التمهيدُ لها بكلمتين: كلمةٍ في المصادر، وكلمةٍ في تعريف المراثي وحدِّ الصحابيّ.

أمّا الكلمة الأولى ففيها تبيان للمصادر الجديدة التي أُخذت منها المراثي[١]، وما أفادته هذه المصادر في التوثيق، وهذه هي:

كتاب «الاكتفا بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخُلَفا»[٢]، لأبي الربيع الكَلاعيّ البَلَنْسيّ، المتوفى سنة أربع وثلاثين وستمئة، جمع عشرين مرثية، بعضها من كتب مفقودة كغير كتابٍ من كتب الردَّة.

وكتاب «مِنَح المِدَح»[٣]، لابن سيّد الناس، المتوفى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة، وفيه سبع عشرة مرثيةً، نقل بعضها من كتب لم تصل إلينا ككتاب «الردَّة» لوثيمة، وفيه تفرُّدٌ بسرد قَصص بعض المراثي اليمنيَّة خاصَّةً.

وكتاب «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحَفَدَة والمَتَاع»، للمَقريزيّ، المتوفى سنة خمس وأربعين وثمانمئة بعد الهجرة، وهو من أحفل المصادر وأوسعها، حقَّق الأستاذُ محمود محمد شاكر الجزءَ الأولَ منه بالقاهرة سنة ١٣٥٩هـ[٤]، ثم نُشر نشرةً غيرَ علميَّةٍ في لبنان في أربعة

---

(١) فَصَّل القول في بقيَّة المصادر الدكتور محمد أبو المجد في: مراثي النبي ﷺ ص١٥-٣٤؛ فلم أرد إعادتها هُهنا.

(٢) الاكتفا بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفا، للكَلاعي، أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم (تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢٠هـ).

(٣) مِنَح المِدَح، أو شعراء الصحابة ممن مدح الرَّسول ﷺ أو رثاه، لابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله (تحقيق عفت وصال حمزة، دار الفكر، دمشق، ط١/١٤٠٧هـ).

(٤) إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحَفَدَة والمَتَاع، للمقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر المصريّ (تحقيق محمود محمد شاكر، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤١م).

عشر جزءًا؛ وقع فيها فساد كثير وتحريف[1]؛ ذلك أن محققه أسقط منه مراثي نوادر لم ترد إلا في «الإمتاع»، وأسقط أبياتًا نادرة لم ترد إلا فيه، ثم أقحم في متن الكتاب مراثيَ ليست منه أضافها من كتاب ابن سعد فجعلها منه، وما كان لنا أن نعلم كلَّ ذلك لولا فضل الله علينا؛ لأن المحقق قد يسيء في الضبط أو التخريج أو المقابلة؛ ولكن المحقق ليس له أن يتصرف في الكتاب كأنه كتابُه ولو بتجويد وتحسين، فكيف بخَرْم الكتاب وتشويهه والحمل عليه.

وكان السببَ الذي وفقني الله إليه لمعرفة هذا الفساد كلمةٌ للصوريّ[2] لم يحسن المحقق قراءتها فبدت قلقة مضطربةً، آثرتُ عندها الرجوع إلى مخطوطة الكتاب التي اعتمدها الناشر[3] لأطمئن إلى استقامة الكلام، فوجدت ما يأتي:

ساق المَقريزي في كتابه على الترتيب مراثيَ حسَّان: «بطيبة»، و«ما بال عينك»، و«نَبِّ المساكين»، و«آليت حلفة برّ»؛ ثم مراثيَ أبي بكرٍ: «يا عين فابكي»، و«لما رأيت نبيَّنا»، و«باتت تأوبني»، ثم كلمةَ الصوريّ؛ فنقل المحقق ذلك، ثم ترك مخطوطة الكتاب وفعل فَعلتين: أدخل في مطبوعته ما ليس من المخطوطة، وأسقط من المخطوطة ما هو فيها:

فأدخل مرثية عبد الله بن أُنيس وهي ليست في الكتاب، بل نقلها بإسنادها من «طبقات ابن سعد»[4]، ثم لمّا وجد ابنَ سعد روى بعدها مراثيَ حسّان، وكان المقريزي قد نقلها قبل كما بيَّنا؛ تجاوزَها، ونقل مرثية كعب بن مالك «يا عين فابكي»، ومرثيتين لأروى بنت عبد المطلب، وثلاثًا لعاتكة بنت عبد المطلب، وسبعًا لصفيَّة، وثلاثًا لهند بنت أُثاثة، ومرثيةَ عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، ومرثيةَ أمّ أيمن، ولكنه غفل فنسبها لعاتكة

(١) إمتاع الأسماع (تحقيق وتعليق محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢٠هـ).

(٢) انظرها في مطبوعة النميسي ١٤/٥٩٤ وانظر ص ٥٢ من هذه الدراسة.

(٣) مخطوطة إمتاع الأسماع (دار الكتب المصرية: ٦٣ تاريخ، وهي مصورةٌ بمكتبة الإسكندرية: رقم ١٣ معهد).

(٤) الطبقات الكبير، لابن سعد، محمد بن منيع الزهري ٢/٢٧٨ (تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/١٤٢١هـ).

بنت زيد أيضًا؛ نقل كل ذلك كما جاء عند ابن سعد بترتيبه وأحرفه، ثم أورد مرثية أبي سفيان بن الحارث مثلما جاءت في «الإمتاع» ذرًّا للرماد في الأعين، وهذه المرثية تسبقها وتتلوها مراثٍ في المخطوطة ضرب عنها صفحًا، وذلك ما يؤكد معرفته بما فعل وتعمُّدَه إيّاه.

بيد أنَّ المراثي التي أوردها المقريزيُّ بعد كلمة الصوري هي على الترتيب: ثلاث مراثٍ لهند بنت أُثاثة: «أشاب ذؤابتي»، و«ألا يا عين ويحك»، و«قد كان بعدك أنباءٌ»، ومرثيةُ عاتكة بنت عبد المطلب «عينيَّ جودا»، ومرثيتان لصفيَّة فحسب: «لهف نفسي»، و«أفاطم بكي»، ومرثيةُ أروى «ألا يا رسول الله كنت رجاءنا»، ومرثيةُ عاتكة بنت زيد.

فيكون المحقق قد أقحم في الكتاب مرثية عبد الله بن أُنيس، ومرثية كعب بن مالك «يا عين فابكي»، ومرثيتي عاتكة بنت عبد المطلب: «يا عين جودي»، و«أعينيَّ جودا بالدموع»، وأربعَ مراثٍ لصفيَّة: «أعينيَّ جودا بدمع سجم»، و«أرقت فبات»، و«وعين جودي بدمعة تسكاب»، و«آب ليلي عليَّ بالتسهاد».

ثم أسقط ثلاث عشرة مرثيةً، عشرٌ منها على الأقل في مقام النادر، هي على الترتيب في المخطوطة: مراثي: ابن ذي أصبح، والزِبرقان، وذي الكلاع، وعامر بن الطُّفيل الأزديّ، وعبد الله بن مالك الأرحبيّ، ومُرَّان، وابن ذي المشعار، ومرثيتان لعمرو بن العاص، ومراثي: عمرو بن الفُحيل الزُّبيديّ، وابن أبي عزَّة، ولبيد بن ربيعة، وأبي الهيثم بن التيّهان كل أولئك مُسقَطٌ من الكتاب ضربةَ لازبٍ، لا أدري لماذا، نعم قد يكون في قراءة بعض أبيات المخطوطة عُسْر، ولكن لا عذر للمحقق حتى يفعل ما فَعَل وقد يسَّر الله قراءة الأبيات كلِّها إلا شيئًا قليلاً لا يكاد يُذكر، وهو - بمنِّته تعالى - واقعٌ في مراثٍ غير صحيحة كمرثية لبيدٍ رضي الله عنه(١).

وفي الكتاب إشارةٌ عند كل مرثية مضافةٍ أو مُسقَطةٍ من الأصل.

(١) انظر صورًا من مخطوطة إمتاع الأسماع يظهر فيها عددٌ من المراثي الساقطة في ص٢٥-٢٧ من هذه الدراسة.

وخطـر هـذا الكتاب في نقله مـراثي عن مصادرلم تبلغنا، وتوكيده روايـة مراثٍ في بعض الكتب المطبوعة ككتاب «الطبقات الكبير» لابن سعد.

وسوى هذه الكتب الثلاثة كتبٌ أخرى أقلُّ منها جمعًا، ولكنها تميَّزت بوجهٍ من الوجوه، ككتـاب «الـرِّدَّة» لأحمد بن أعثـم الكوفي المتوفى نحو سـنة أربع عشرة وثلاثمئة، المنسـوب للواقدي المتوفى سنة سبعٍ ومئتين[1]، فقد روى مصنّفُه مرثية أبي الهيثم في سياق خبرٍ عزيز، وروى مرثيتين لعمرو بن العاص روايةً وثَّقت الروايات المتأخرة.

و«المعجمِ الكبير» للطبراني المتوفى سنة ستين وثلاثمئة[2]، ففيه مرثيتان لصفيَّة مسندتين.

و«مجمع الزوائد» للهيثميّ المتوفى سـنة سـبع وثمانمئة[3]، الذي حكم على إسـناد مرثيتي صفيَّة هاتين، وعلى إسناد مرثية قيس بن غُنيم المازنيّ.

و«معرفـةِ الصحابـة» لأبي نُعيـم الأصفهانيّ المتوفى سـنة ثلاثين وأربعمئـة[4]، الذي تفرَّد بمرثيةٍ لصفيَّة مسندَةً.

و«التعازي والمراثي» لمحمد بن يزيد المبرّد المتوفى سنة ستٍّ وثمانين ومئتين[5]، وهو الذي روى قصيدة سالم الغطفانيّ تامَّةً.

---

(١) كتاب الرِّدَّة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنىّ بن حارثة الشيباني، المنسوب لمحمد بن عمر الواقديّ (تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، دار الغرب، بيروت ١٤١٠هـ) وانظر ما سيرد من الحديث في أمر نسبته في فصل مَنْ لهم غير مرثية ص ١٥٨.

(٢) المعجم الكبير، للحافظ سليمان بن أحمد الطبرانيّ (تحقيق حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة).

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ الهيثميّ، نور الدين علي بن أبي بكر (تحرير الحافظين العراقي وابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ).

(٤) معرفة الصحابة، لأبي نُعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن إسحاق (تحقيق عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط١/١٤١٩هـ).

(٥) التعازي والمراثي، لمحمد بن يزيد المبّرد (تحقيق إبراهيم الجمل، دار نهضة مصر).

و«الفائـقِ في غريب الحديـث» للزمخشريّ(١)، الذي أكّد روايةَ المـبرّد فذكر بيتًا يتيمًا من قصيدة سالمٍ هذه، ولكنه بيتٌ فارقٌ في إثبات صحتها.

و«الإكليلِ» للحسـن الهَمْدانيّ المتوفى سـنة أربعٍ وثلاثين وثلاثمئة(٢)، الذي روى قصيدة مُرّان بن عميرٍ تامّةً، وهو حُجّة في أخبار اليمن، وعليه المعوَّل فيها.

و«المحبَّر» لمحمد بن حَبيب المتوفى سـنة خمسٍ وأربعين ومئتين(٣)، وفيه تفرُّد بذكر اسـم شدّاد بن مالك بن ضَمْعَج قرينًا برواية مرثيته.

و«عيـونِ الأخبار» لابن قتيبة المتوفى سـنة سـت وسـبعين ومئتين(٤)؛ و«البصائـر والذخائر» لأبي حيان التوحيديّ المتوفى سـنة أربعمئة(٥)؛ و«بهجةِ المجالس» لابن عبد البَرّ المتوفى سـنة ثلاثٍ وستين وأربعمئة(٦)، وفي ثلاثة هذه الكتب روايةٌ لمرثية شدّاد، ولكنّها جميعًا لم تذكر اسمَه.

و«سـلوةِ الكئيب بوفاة الحبيب» لابن ناصر الدين الدمشـقيّ المتوفى سنة اثنتين وأربعين وثمانمئة(٧)، إذ زادت فيه مرثية أبي سـفيان بن الحارث بأبياتٍ ليسـت في غيره.

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشريّ، محمد بن عمر (تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط٢).

(٢) الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، للحسن بن أحمد الهَمْدانيّ (تحقيق محب الدين الخطيب، الدار اليمنية، ط١/١٤٠٧هـ).

(٣) المحبَّر، لأبي جعفر محمد بن حبيب البغداديّ (تحقيق الدكتورة إيلزه ليختن شتيتر، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدِّكَن ١٣٦١هـ).

(٤) عيون الأخبار، لابن قتيبة، لأبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوريّ (دار الكتب المصرية ١٩٩٦م).

(٥) البصائر والذخائر، لأبي حيان علي بن محمد بن العباس التوحيديّ (تحقيق الدكتورة وداد القاضي، دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ).

(٦) بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، لابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد النَّمَريّ القرطبي (تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية).

(٧) سلوة الكئيب بوفاة الحبيب، للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقيّ (تحقيق الدكتور صالح يوسف معتوق، دار البحوث والدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي).

وما سوى هذه الكتب من المصادر الجديدة فكتبٌ أقلُّ خطرًا؛ لأنها نقلت المراثي من كتب أسبق منها موجودةٍ بين أيدينا، ويغلب عليها أن تكون من كتب الاختيار «كالحماسة المغربية» للجراويّ المتوفى سنة تسع وستمئة[(١)]؛ أوكتب السيرة «كالمواهب اللدنّية بالمنح المحمدية» للقسطلاَّني المتوفى سنة ثلاثٍ وعشرين وتسعمئة[(٢)]؛ و«السيرة النبويَّة» للكازَروني[(٣)]؛ و«سُبُلِ الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» للصالحيّ المتوفى سنة اثنتين وأربعين وتسعمئة، وهو المعروف بالسيرة الشاميَّة[(٤)]؛ و«تاريخ الخميس في أحوال أَنْفَسِ نَفيس» للدِّياربَكْريّ المتوفى سنة ست وستين وتسعمئة[(٥)]؛ فإنها جميعًا تنقل من كتب سبقتها وهي بين أيدينا «كالطبقات الكبير» لابن سعد؛ و«السيرة النبويَّة» لابن هشام، وكل ذلك سوف يوفَّى

(١) الحماسة المغربية، للجراوي، أحمد بن عبد السلام (تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/١٤١١هـ).

(٢) المواهب اللدنّية بالمنح المحمدية (بشرح الزرقاني)، للقسطلّاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر (تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت).

(٣) السيرة النبوية، للكازروني، ظهير الدين عليّ بن محمد بن محمد (معهد المخطوطات العربية ف ٥٩ كتاب ٣٥٨، مصوَّرة بمكتبة الإسكندرية ضمن مجموعة المعهد برقم ٢٣٢).

(٤) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، للصالحيّ محمد بن يوسف بن علي الدمشقي ٢٧٦/١٢ (تحقيق الشيخين عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت). وكنت أروم الاعتماد على النشرة التي أصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف (الجزء ١٣، تحقيق عبد المعز عبد الحميد الجزار، القاهرة ١٤٢٧هـ). ولكنني وجدته انقضَّ على الحواشي التي وضعها الدكتور محمد أبو المجد لكتابه «مراثي النبيّ» فسلبه إياها من غير إشارة صريحة إلى ذلك إلا إشارة موهمة توحي بأنه أحد مراجعه، والحقُّ أنه أتى على جهد الرجل كلّه فسلخه سلخًا فاحشًا، إضافة إلى وقوعه في كثير من أخطاء التحقيق كتقديمه رواية كتاب الدكتور أبي المجد على أصل الكتاب المخطوط (انظر أمثلة لذلك في ص٤٦٤ من الجزء نفسه)، ولقد خاب ظنّي في هذه النشرة، وكنت أود لو استغنيتُ بها عن طبعة بيروت التي لم تحقق على الأصول.

(٥) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، للديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن ١٧٣/٢ (مؤسسة شعبان، بيروت).

بتفصيلٍ في التخريج والمقابلة عند كلِّ مرثية إن شاء الله تعالى.

وأما الكلمة الثانية في هذا التمهيد فهي معنى (المرثية):

جاء في «لسان العرب»: « ورَثَى فلانٌ فلانًا يرثيه رَثْيًا، ومَرْثِيَةً، إذا بكاه بعد موته... فإن مدحه بعد موته قيل: رَثَاه يرثيه تَرْثِيَةً. ورثيتُ الميت رَثْيًا، ورِثاءً، ومَرْثاةً، ومَرْثِيَةً. ورَثَّيْتُه: مدحته بعد الموت وبَكَيْتُه.

« ورَثَوْتُ الميت أيضًا: إذا بكيته وعدَّدت محاسنه، **وكذلك إذا نظمتُ فيه شعرًا.**

« ورَثَت المرأة بعلَها ترثيه، ورَثِيتْه تَرْثاه رِثايةً...

« ورثِيَ له: رَقَّ له. وفي الحديث أن أخت شدَّاد بن أوس بعثت إليه عند فطره بقدَح لبن، وقالت: يا رسول الله، إنما بعثتُ به إليك مَرْثِيَةً لك من طول النهار وشدَّة الحَرّ. أي توجُّعًا لك وإشفاقًا؛ من رَثِيَ له: إذا رقَّ له وتوجَّع. وهي من أبنية المصادر نحو: المَغْفِرَة، والمَعْذِرَة »(١).

وفي «القاموس»: « ومَرْثِيَة: مخفَّفَة »(٢).

وفي الزمخشريّ: « رثي: رثيتُ الميت بالشعر، وقلتُ فيه مَرْثِيَةً، ومراثيَ. والنائحة تَتَرَثَّى الميتَ: تترحَّم عليه وتندُبه... »(٣).

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، محمد بن مكرَّم بن علي (رثا)، تحقيق عبد الله علي الكبير وزميليه، دار المعارف بمصر.

(٢) القاموس المحيط، للفيروز آباديّ، مجد الدين محمد بن يعقوب، رثي (رتَّبه ووثَّقه خليل مأمون الشيخ، دار المعرفة، بيروت، ط٣/١٤٢٩هـ).

(٣) أساس البلاغة، للزمخشريّ، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر (رثي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣/١٩٨٥م.

فالمرثيّة في هـذا الكتاب هي: كلُّ شـعرٍ قيل في وفاة الرَّسـول ﷺ حزنًا عليه، أو ثنـاءً، أو وفاءً، أو ترحُّمًا، أو غيرَ ذلك من معاني الرثاء.

أمَّـا حـدُّ (الصحابيّ) فقد اختلف النـاس فيه على أقوالٍ اختلفـت لاختلاف غرض كل صاحب قول من التعريف.

فأمَّا المحدِّثون فقد نقل الحافظ العراقيُّ قولَهم في (الصحابيّ)؛ فقال: « المشـهور بين أهل الحديث أنَّه مَن رأى النبيَّ ﷺ في حال إسلامه. هكذا أطلقه كثيرٌ من أهلِ الحديث، ومرادُهُم بذلك: مع زوال المانـع مـن الرؤية، كالعمى، وإلا فمَنْ صحِبه ﷺ ولم يـرَهُ لعارضٍ بنظره كابن أُمِّ مكتومٍ ونحوه؛ معدودٌ في الصحابةِ بلا خلاف »[١].

وقولُ العراقيِّ هذا جاء في معرض شرحه لكلام ابن الصلاح، ثم قال: « ولو قيل في النَّظْم: لاقى النبيَّ كانَ أولى؛ ولكنْ تَبِعْتُ فيه عبارةَ ابن الصلاح؛ فالعبارةُ السـالمةُ من الاعتراض أن يقال: الصحابيُّ مَنْ لقيَ النبيَّ ﷺ مسلمًا، ثمَّ مات على الإسلام »[٢].

يبين من هذا التعريف أنهم لم يشترطوا الصحبةَ بمعناها الاشتقاقيّ، وهو المعاشَرة وطول الملازمـة[٣]، ولكنهم اكتفَوا بمجـرد الملاقاة ولو مرَّةً واحدةً كما قال أحمد[٤]، وهم اشـترطوا الرؤية ضمانًا لاتصال إسناد الحديث بالرَّسول ﷺ.

وإلا فقـد خُولفـوا بقول الأصوليين الذين قالوا: إن الصحـابيّ « من طالت صُحبتُه له، وكثرت مجالسـتُه على طريـق التَّبع له والأخذِ عنه. حكاهُ أبو المُظفَّر السَّـمْعانيُّ عـن الأصوليين، وقال: إنَّ اسـم الصحـابيّ يقعُ على ذلك من حيث اللغةُ والظاهرُ... وهو قولٌ لبعضهـم، حكاه الآمديُّ وابنُ

(١) شرح التبصرة والتذكرة، للعراقيّ، زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين ٢/١٢٠ (حققه عبد اللطيف الهميم، وماهر ياسين الفحل، دار الكتب العلمية، بيروت ط/١٤٢٣هـ).

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) لسان العرب (صحب).

(٤) شرح التبصرة والتذكرة ٢/١٢٠.

الحاجب وغيرُهما، وبه جزمَ ابنُ الصبَّاغ في «العُدَّة» فقال: الصحابيُّ هو الذي لقِي النبيَّ ﷺ، وأقام عنده، واتَّبعه، فأمَّا من وفد عليه وانصرف عنه من غير مصاحبةٍ، ومتابعةٍ؛ فلا ينصرف إليه هذا الاسم »[1]. فنفَوا حتى عن بعض مَنْ رآه الصحبة.

بل لقد رُوِيَ عن سعيد بن المسيِّب أنَّه كان لا يَعُدُّ الصحابيَّ إلاَّ مَن أقامَ مع رسول الله ﷺ سنةً أو سنتين، وغزا معه غزوةً أو غزوتين[2].

قال ابن الصلاح: « وكأنَّ المرادَ بهذا إنْ صحَّ عنهُ راجعٌ إلى المحكيِّ عن الأصوليين؛ ولكنْ في عبارته ضيقٌ يوجبُ أن لا يُعَدَّ من الصحابة جريرُ بن عبد الله البَجَليُّ ومَنْ شاركه في فَقْدِ ظاهر ما اشترطه فيهم، ممَّن لا نعلمُ خلافًا في عَدِّه من الصحابة »[3].

ولكنْ ذهب قومٌ من المحدِّثين وأهل التاريخ إلى أنّ الصحابيَّ مَنْ أدرك زمنَه ﷺ، وهو مسلم، وإنْ لم يره. قاله يحيى بن عثمان بن صالح المصريّ[4]، « وممن حكى هذا القول من الأصوليين القَرافيُّ في «شرح التنقيح»، وكذلك إن كان صغيرًا محكوماً بإسلامه تبعًا لأحد أبويه، وعلى هذا عملُ ابنِ عبد البرِّ في «الاستيعاب»، وابنِ مَنْدَه في «معرفة الصحابة». وقدْ بيَّن ابنُ عبد البرِّ في ترجمة الأحنف بن قيس: أنَّ ذلك شرطُه. وقال ابنُ عبد البرِّ في مقدمة كتابه: وبهذا كلِّه يُستكملُ القرْنُ الذي أشارَ إليه رسولُ الله ﷺ على ما قاله عبد الله بنُ أبي أوْفى صاحبُ رسول الله ﷺ يريد بذلك تفسيرَ القرْن. قلتُ: وإنَّما هو قول زُرَارةَ بنِ أوفى من التابعين: القرنُ مئةٌ وعشرون سنةً، وهكذا رواهُ هو قبلَ ذلك بأربع ورقات، كلُّ ذلك في مقدمة «الاستيعاب». وقد اختلف أهلُ اللغة في مُدَّة القرن، فقال الجوهريُّ: هو ثمانون

---

(١) المصدر السابق ٢/١٢٢.

(٢) المصدر نفسه ٢/١٢٥.

(٣) الموضع السابق من شرح التبصرة والتذكرة.

(٤) الحافظ الكبير، مات سنة اثنتين وثمانين ومئتين (انظر ترجمته في: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للحافظ المِزّي، أبي الحجاج جمال الدين يوسف ٣١/٤٦٤ تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/١٤١٣هـ).

سنةً، قال: ويقال ثلاثون. وحكى صاحبُ «المحكم» فيه ستةَ أقوال: قيل: عشرُ سنين، وقيل: عشرون، وقيل: ثلاثون، وقيل: ستون، وقيل: سبعون، وقيل: أربعون، قال: وهو مقدارُ أهل التوسط في أعمار أهل الزمان، فالقرنُ في كل قومٍ على مقدار أعمارهم. فعلى هذا يكون ما بين الستين والسبعين، كما رواه الترمذيُّ في الحديث المرفوع: «أعمارُ أمتي ما بين الستين والسبعين». وأما ابتداءُ قرنه ﷺ فالظاهر أنَّه من حينِ البعثة، أو من حينِ فُشُوِّ الإسلام»[(١)].

فهؤلاء العلماء نظروا إلى خيريَّة القوم ولم ينظروا إلى اتصال الحديث، وأرادوا إثبات الشرف لمن أسلم حياة الرَّسول ﷺ، واتبع دينه، ونصره، وربما كاتبه الرَّسول ﷺ، أو صلَّى عليه، أو دعا له.

فقال ابن عبد البرّ في ترجمة الأحنف بن قيس: «كان قد أدرك النبيَّ ﷺ ولم يره، ودعا له النبيُّ ﷺ؛ فمن هنالك ذكرناه في الصحابة؛ لأنه أسلم على عهد رسول الله ﷺ»[(٢)].

ووضع الذهبيُّ يده على وجه الخلاف حين قال في ترجمة النجاشيِّ: «أَصْحَمة: ملك الحبشة، أسلم وحسُن إسلامه، وهو معدودٌ في الصحابة، ولم يهاجر، ولا له رؤية، فهو تابعيّ من وجه، صحابيّ من وجه، توفي في حياة النبيِّ ﷺ، فصلّى عليه بالناس صلاة الغائب، ولم يثبُت أنه صلَّى على غائب سواه»[(٣)]؛ أي أنه تابعيٌّ من جهة الرواية والحديث، صحابيٌّ من جهة الفضل والمنـزلة.

ثم أكَّد مذهبَه هذا في موضعٍ آخر؛ فقال في ترجمة الطُّفيل بن عَمرٍو الدوسيِّ: «وقد عُدَّ ولدُه عمرٌو في الصحابة، وكذا أبوه ينبغي أن يُعدَّ في الصحابة؛ فقد أسلم فيما ذكرنا، لكن ما بلغنا أنه هاجر ولا رأى النبيَّ ﷺ»[(٤)].

---

(١) شرح التبصرة والتذكرة ١٢٦/٢ وما بعدها.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البَرّ، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النَّمَريّ ١٤٥/١ (تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة).

(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ٤٢٨/١ (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١١/١٤١٧هـ).

(٤) سير أعلام النبلاء ٣٧٤/١.

وقد سارت الدراسة في تعريف الصحابي على مذهب المعاصرة هذا الذي عليه عَمَلُ كثير من أهل العلم؛ لأن غايتها ليست دراسة الحديث؛ ولأن قومًا أسلموا قديمًا على عهد رسول الله ﷺ، ونصروه، وربما كتب الرَّسـول إلى بعضهم، أو دعا له، أو أقرأه السـلام، أو أمره بأمر فأجابه إليه، وربما أعدَّ بعضُهم راحلتَه للقائه ﷺ ولكن سبقه المـوت إليه فحزن عليه ورثاه[1]؛ قومٌ كهؤلاء أهلٌ لأن يَعُدَّهم يحيى بن سعيدٍ المصريُّ، وابنُ عبد البرّ، وابنُ مَنده، والذهبيُّ، وغيرُهم من الأئمة؛ في الصحابة، ولو من قبيل العموم في الاصطلاح.

وعلى كلٍّ؛ فإن عدد صحابة المراثي الذين عاشوا في عهد النبيّ ﷺ ولم يرَوه قليلٌ، عددهم ثمانيةٌ[2] من نحو أربعين صحابيًّا، ومراثيهم تسعٌ من نحو بضعٍ وسبعين مرثيَّةً، ولو افترضنا الأخذَ بمذهب الرؤية فإن عدد هؤلاء الصحابة إذا أُلحق بالبحث تتميمًا؛ لا يضير.

* * *

(١) قام عبد الله بن سلمة الهَمْداني، وهو أحد شعراء المراثي النبوية، ولم يدرك النبيّ ﷺ بل قدم على أبي بكر؛ قام فقال: «يا معشر قريش، إنكم لم تصابوا بنبي الله ﷺ دون سائر العرب؛ لأنه لم يكن لأحدٍ دون أحد، وايمُ الله لا أدري أيّ الرجلين أشد حزنًا عليه، وأعظم مصابًا به: مَن عاينه فغاب عنه عِيانُه، أو من أشرف على رؤيته فلم يره؟ غير أنا معترفون للمهاجرين بفضل هجرتهم، وللأنصار بفضل نصرتهم، والتابع ناصرٌ، والمؤمن مهاجر» (انظر: الاكتفا ٢/٩٦).

(٢) هم: أبو ذؤيب الهُذَلي، وذو الكَلاع الحميري، وشدَّاد بن مالك بن ضَمْعَج، وعبدُ الله بن سلمة، وابن النعمان العَتَكي، ومُرّان بن عُمير، ومسروق بن ذي الحارث، وابن ذي المشعار الهَمْداني.



صورةٌ لبعض المراثي التي أسقطها التميسي من مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٩)



صورةٌ ثانيةٌ لمراثٍ أسقطها التميمي من مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٠)



صورةٌ ثالثةٌ لمراثٍ أسقطها التميمي من مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣١)

الباب الأول

تَوثيقُ مَرَاثي الصَّحَابَة

رضِي الله عنهم

الفصل الأول

تَوثيقُ مرَائي أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيق

رضي الله عنه

المراثي

(١)

[من البسيط]*

١ بَاتَـتْ تَأَوَّبُنِي هُمُومٌ حُشَّدٌ   مِثْلُ الصُّخُورِ، فَأَمْسَتْ هَدَّتِ الجَسَدَا(١)

٢ يَا لَيْتَنِي حَيْثُ نُبِئْتُ الغَدَاةَ بِهِ   قَالُوا: الرَّسُولُ قَدَ امْسَى مَيِّتًا فُقِدَا

٣ لَيْتَ القِيَامَةَ قَامَت بَعْدَ مَهْلِكِهِ   وَلاَ نَرَى بَعْدَهُ مَالاً وَلاَ وَلَدَا

٤ وَاللهِ آسَى عَلَى شَيْءٍ فُجِعْتُ بِهِ   مِنَ البَرِيَّةِ حَتَّى أُدْخَلَ اللَّحَدَا

٥ كَمْ لِيَ بَعْدَكَ مِن هَمٍّ يُنَصِّبُنِي   إِذَا تَذَكَّرْتُ أَنِّي لاَ أَرَاكَ ابَدَا [كذا](٢)

٦ كَانَ المصفاءَ فِي الأَخْلاَقِ قَدْ عَلِمُوا   وَفِي العَفَافِ، فَلَمْ نَعْدِلْ بِهِ أَحَدَا(٣)

٧ نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ مَيْتٍ وَمِنْ بَدَنٍ   مَا أَطْيَبَ الذِّكْرَ وَالأَخْلاَقَ وَالجَسَدَا

***

---

* التخريج: جعلتُ طبقات ابن سعد ٢٧٨/٢ (تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١٤٢١/١هـ) أصلاً لهذه القصيدة، وهي في سبل الهدى والرشاد ٢٧٧/١٢ - ٢٧٨؛ وفي مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٦)، والزّهرة لمحمد بن داود الأصبهاني ٥٠٦/٢ (تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، دار المنار، الأردن، ط١٩٨٥/٢م) البيتان: ١، ٣.

١. في الزّهرة: «أمست تأوبني هموم جمة *... قد امست...». وقال محققه: الصدر من الكامل، والشعر من البسيط. وهذا يدل على جودة رواية الطبقات.

٢. في الزّهرة: «كي لا نرى بعده...».

---

(١) آب إلى الشيء: رجع إليه. والتأوُّب: الرجوع (تاج العروس، لمرتضى الزَّبيدي: أوب، مطبعة الحكومة بالكويت).

(٢) النَّصَب: الإعياء من العناء والتعب (اللسان: نصب). وعجُز البيت مختلٌّ وزنًا.

(٣) المصفاء: لم أجدها في المعاجم ولا في الكتب، ولعلها من لحن الوضّاعين.

(٢)

[من المتقارب]*

١ يَاعَـيْنُ، فَابْكِـي، وَلاَ تَسْـأَمِي وَحُـقَّ البُـكَاءُ عَلَى السَّـيِّدِ
٢ [عَلَى ذِي الفَوَاضِـلِ وَالمَكْرُمَـاتِ وَمَحْـضِ الضَّرِيبَـةِ وَالمَحْتِـدِ](١)
٣ عَلَى خَـيرِ خِنْـدِفَ عِنْـدَ البَـلاَ ءِ أَمْـسَى يُغَيَّـبُ فِي المَلْحَـدِ(٢)
٤ فَصَـلَّى المَلِيـكُ وَلِيُّ العِبَـادِ وَرَبُّ البِـلاَدِ عَلَى أَحْمَـدِ
٥ فَكَيْـفَ الحَيَـاةُ بِفَقْـدِ الحَبِيـبِ وَزَيْـنِ المَعَـاشِرِ فِي المَشْـهَدِ
٦ فَلَيْـتَ المَمَـاتَ لَنَـا كُلِّنَـا وَكُنَّـا جَمِيعًـا مَـعَ المُهْتَـدِي

* * *

---

*التخريج: جعلتُ الطبقات الكبير لابن سعد ٢/٢٧٧، ٢٧٨ أصلاً لهذه المقطّعة؛ وفي سلوة الكئيب لابن ناصر الدين ص١٩٧-١٩٨ الأبيات: ١-٦؛ وفي نهاية الأرب لأحمد بن عبد الوهاب النويري ١٨/٤٠٠ (مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والإرشاد، المؤسسة المصرية العامة)، ومخطوطة إمتاع الأسماع للمقريزي (ورقة ١٨٢٦)، وسبل الهدى والرشاد ١٨/٢٧٧، الأبيات: ١، ٣-٦؛ وفي جمهرة أشعار العرب لمحمد بن أبي الخطاب القرشي ص٤٩ (تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة) البيت الأول منسوبًا لعثمان بن عفان.

١. في الجمهرة: « فيا عين فابكي... » وهذا أجود؛ لئلاً يدخل في التفعيلة الأولى الخرم، وهو حذف أول الوتد المجموع من (فعولن) فتصير (عولن).

٢. البيت زائد في سلوة الكئيب.

٥. في السلوة: « فكيف الإقامة بعد الحبيب* وزين المحافل والمشهد ».

---

(١) الضريبة: الطبيعة والسجية (تاج العروس: ضرب) ومحض الضريبة: خالصها وكريمها. والمحتِد: الأصل والطبع (لسان العرب: حتد).

(٢) خندف: امرأة إلياس بن مضر، ولقبه مدركة. غلبت على نسب أولادها منه (لسان العرب: خندف).

(٣)

[من الكامل] *

١ لَمَّـا رَأَيْـتُ نَبِيَّنَـا مُتَجـدِّلاً ضَاقَـتْ عَـلَيَّ بِعَرْضِهِـنَّ الدُّورُ
٢ وَارْتَعْـتُ رَوْعَـةَ مُسْـتَهَامٍ وَالِهٍ وَالعَظْـمُ مِـنِّي وَاهِـنٌ مَكْسُـورُ
٣ أَعَتِيـقُ وَيْحَـكَ، إِنَّ حِبَّـكَ قَـدْ ثَوَى وبَقِيـتَ مُنْفَـرِدًا وَأَنْـتَ حَسِـيرُ(١)
٤ يَـا لَيْتَـنِي مِنْ قَبْـلِ مَهْلِكِ صَاحِبِي غُيِّبْـتُ فِي جَـدَثٍ عَـلَيَّ صُخُـورُ
٥ فَلَتَحْدُثَـنَّ بَدَائِـعٌ مِـنْ بَعْـدِهِ تَعْيَـا بِهِـنَّ جَوَانِـحٌ وَصُـدُورُ

***

* التخريج: جعلتُ الطبقات الكبير لابن سعد ٢٧٨/٢ أصلاً لهذه القطعة، وهي في نهاية الأرب ٤٠٠/١٨، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٦)، وسبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٧٧/١٢، والمواهب اللدنّية للقسطلاّني بشرح الزرقاني ١٥١/١٢ (تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت)، والمستطرف للأبشيهي ص٦٠٠-٦٠١ (شرحه ووضع حواشيه إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة).

١. في المواهب اللدنية: «فارتاع قلبي عند ذاك لهلكه * والعظم مني ما حييت كسير».

٣. في المواهب: «... ثوى * فالصبر عنك لما بقيت يسير» لعلها: «عسير» فتصحّفت.

(١) كان اسم أبي بكر الصديق: عتيق بن عثمان بن عامر بن عمرو (انظر: حَذْفٌ من نسب قريش، لأبي فيدٍ مُؤَرِّج بن عمرو السَّدوسي (تحقيق صلاح الدين المنجد، دار العروبة، القاهرة ١٩٦٠م).

(٤)

[من الوافر]*

١	أَجِدَّكَ، مَا لِعَيْنِكَ لاَ تَنَامُ	كَأَنَّ جُفُونَهَا فِيهَا كِلاَمُ
٢	بِوَقْعِ مُصِيبَةٍ عظُمَتْ وَجَلَّتْ	فَدَمْعُ العَيْنِ أَهْوَنُهُ انْسِجَامُ
٣	فُجِعْنَا بِالنَّبِيِّ وَكَانَ فِينَا	مُقَدَّمَنَا، وَسَيِّدُنَا الإِمَامُ
٤	وَكَانَ قِوَامَنَا، وَالرَّأْسَ فِينَا	فَنَحْنُ اليَوْمَ لَيْس لَنَا قِوَامُ
٥	نَنُوحُ وَنَشْتَكِي مَا قَدْ لَقِينَا	وَيَشْكُو فَقْدَهُ البَلَدُ الحَرَامُ
٦	كَأَنَّ أُنُوفَنَا لاَقَيْنَ جَدْعًا	لِفَقْدِ مُحَمَّدٍ، فِيهَا اصْطِلاَمُ(١)
٧	لِفَقْدِ أَغَرَّ أَبْيَضَ هَاشِمِيٍّ	إِمَامِ نُبُوَّةٍ، وَبِهِ الخِتَامُ
٨	أَمِينٍ مُصْطَفًى، لِلْخَيْرِ يَدْعُو	كَضَوْءِ البَدْرِ زَايَلَهُ الظَّلاَمُ(٢)
٩	سَأَتْبَعُ هَدْيَهُ مَادُمْتُ حَيًّا	طَوَالَ الدَّهْرِ مَا سَجَعَ الحَمَامُ
١٠	[أَدِينُ بِدِينِهِ وَلِكُلِّ قَوْمٍ	قَدِيمٌ مِنْ ذُؤَابَتِهِمْ نِظَامُ]

---

* التخريج: جعلتُ سبل الهدى والرشاد ٢٧٧/١٢ أصلاً لهذه القصيدة؛ ورويت ممَرَّضة من غير ما نسبةٍ في الذخائر والأعلاق لأبي الحسن الإشبيلي ص٢٢١ (المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٩٨هـ)؛ وفي أنساب الأشراف لأحمد بن يحي البَلاذُري ٥٩٢/١ (تحقيق محمد حميد لله، دار المعارف، ١٩٨٧م) الأبيات: ٣، ١١، ١٣، ١٥؛ وفي المواهب اللدنية ١٥١/١٢، وأحكام القرآن لأبي بكر ابن العربي ص١٧٣٨ – ١٣٨٩ (تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي) البيتان: ١٣، ١٤؛ وفي الحور العين لنشوان الحميري ص٧١ (تحقيق كمال مصطفى، مطبعة السعادة، محافظة مصر ١٩٤٨م)، وجمهرة أشعار العرب ص٤٤ البيت: ١؛ وفي النهاية لابن الأثير ٣٤٤/٢ (تحقيق طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت)، ولسان العرب لابن منظور (سجم): الشطر الثاني من البيت الثاني.

٢. في لسان العرب: «... سجام».

٣. في أنساب الأشراف، وذخائر الإشبيلي: «إمام كرامة، نعم الإمام».

٤. في أنساب الأشراف: «... والرأس منا».

٥. في أنساب الأشراف، وذخائر الإشبيلي: «نموج...».

١٠. البيت زائد في ذخائر الإشبيلي.

---

(١) الصَّلْم: قطع الأذن والأنف (اللسان: صلم). والجَدْع: القطع البائن فيهما (اللسان: جدع).

(٢) زايله: أذهبه (اللسان: زيل).

١١ [فَـلاَ يَبْعَـدْ، فَـكُلُّ كَرِيـمِ قَـوْمٍ ... سَـيُدْرِكُهُ، وَإِنْ كَـرِهَ، الحِمَـامُ]
١٢ كَأَنَّ الأَرْضَ بَعْـدَكَ طَـارَ فِيهَـا ... فَأَشْـعَلَهَا لِسَـاكِنِهَا ضِرَامُ
١٣ وَفَقْـدِ الـوَحْيِ إِذْ وَلَّيْـتَ عَنَّـا ... وَوَدَّعَـنَـا مِـنَ اللهِ الكَـلاَمُ
١٤ سِـوَى أَنْ قَـدْ تَرَكْـتَ لَنَـا سِرَاجًـا ... تُوَارِيـهِ القَرَاطِيـسَ الكِـرَامُ
١٥ لَقَـدْ وَرَّثْتَنَـا مِـيرَاثَ صِـدْقٍ ... عَلَيْـكَ بِـهِ التَّحِيَّـةُ وَالسَّـلاَمُ
١٦ مِـنَ الرَّحْمَـنِ فِي أَعْلَى جِنَـانٍ ... مِـنَ الفِـرْدَوْسِ طَـابَ بِـهِ المَقَـامُ
١٧ رَفِيـقُ أَبِيـكَ إِبْرَاهِيـمَ فِيـهِ ... وَمَـا فِي مِثْـلِ صُحْبَتِـهِ نَـدَامُ
١٨ وَإِسْـحَاقَ وَإِسْـمَاعِيلَ فِيـهِ ... بِمَـا صَلَّـوْا لِرَبِّهِـمُ وَصَامُـوا

* * *

---

١١. البيت زائد في أنساب الأشراف، والذخائر. وفي أنساب الأشراف: « فلا تبعد... *... ولوكره......».

١٣. في أنساب الأشراف، والذخائر، وأحكام القرآن: « فقدنا... ». وفي المواهب: « ودعنا الوحي... * فودعنا... ».

١٤. في المواهب: «... تركت لنا رهينا * تُضَمِّنُه... ». وفي الذخائر: « توارثه القراطيس... ». وفي أحكام القرآن: «... لنا قديمًا * توارثه... ».

١٥. في أنساب الأشراف: « لقد أورثتنا... ».

تَوْثِيقُ مَرَاثِي أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيق

رضِي الله عنه

١

لعـل أولَ مـا ينبغي لنـا فعلُه قبل الخوض في حديث المراثي النبويَّة المنسـوبةِ لأبي بكر رضِي الله عنه أن نتساءل: هل قال أبو بكر الشعر أصلاً ؟

رُوي في «الأغاني» خبرٌ فيه إنكار قريشٍ أن يكون أبو بكر قال في الجاهلية شعرًا؛ قال أبـو الفـرج: « قال الزبير: وحدثني محمد بن يعقوب بن إسـحاق بن مجمع، عن رجلٍ من بني العَجلان قال: لما بلغ أهلَ مكة شعرُ حسَّان - ولم يكونوا علموا أنه قولُه - جعلوا يقولون: لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا »[١].

هذا في الجاهلية. أمَّا في الإسلام فقد روى الحافظ عبدُ الغنيّ المقدسيُّ في «جُزء أحاديث الشـعر»: « عن ابن شـهاب: أخبرني عروة بن الزبير، أن عائشـة زوجَ النبيّ ﷺ كانت تدعو على مَنْ كان يقول هذه القصيدة:

يُحدِّثُنَـا الرَّسـول بـأَنْ سَـنَحْيَا ... وكَيْـفَ حَيـاةُ أَصْـدَاءٍ وهَـامِ

فتقول: والله ما قال أبو بكر بيتَ شـعر في جاهليةٍ ولا إسـلام قطُّ، وما ارتاب في الله مذ أسلم،

(١) الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، علي بن الحسن بن محمد ١٤٠/٤ (دار الكتب المصرية ١٣٦٩هـ).

ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية، ولكنْ قال هذه القصيدة رجلٌ من بني كلاب بن عوف؛ وكان أبو بكر تزوج امرأةً من بني كلابٍ يقال لها: أمُّ بكر؛ فلما هاجر أبو بكر طلَّقها، فتزوجها ابنُ عمها هذا الكلابيُّ الذي قال هذه القصيدة رثى بها أهل بدر حين قُتلوا:

وَمَاذَا بِالقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ مِنَ الشِّيزَى تُزَيَّنُ بِالسَّنَامِ
تُحَيِّي بِالسَّلامَةِ أُمُّ بَكْرٍ وَهَلْ لِي بَعْدَ قَوْمِي مِنْ سَلامِ
يُحَدِّثُنَا الرَّسولُ بِأَنْ سَنَحْيَا وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءٍ وَهَامِ ؟(*)

قالت عائشة: فنحلَها الناسُ أبا بكرٍ من أجل المرأة التي طلَّق أبو بكر »[١].

وأصل هذا الحديث في «البخاري»، وقد ترجم ابن حجر هذا الشاعر في «فتح الباري»، فقال: « هو أبو بكر شدَّاد بن الأسود بن عبد شمس... ويقال له: ابن شعوب... قال ابنُ حبيب: هي أُمُّه، وهي خزاعية. لكنْ سمَّاه: عمرَو بنَ بشر، وأنشد له أشعارًا كثيرةً قالها في الكفر. قال: ثم أسلم». وبالإسناد نفسه الذي عند البخاري روى ابنُ حجر « أنَّ عائشة كانت تدعو على من يقول: إن أبا بكر قال القصيدة المذكورة »[٢].

فهذا خبر صحيحٌ كفلَق الصُّبح، ومن العزيز أن نسمع حُكْمًا بالنحل قديمًا قِدمَ ذلك الزمن، والمتبادر أنه قد تفاقم الأمرُ أيام عائشة أمِّ المؤمنين فدعاها إلى مثل هذه العبارة

(*) الشِّيزَى: شجر تتخذ منه الجفان. وأراد بالجفان أربابها (لسان العرب: شيز). والصدى: حُشوة الرأس، يقال لها: الهامة والصدى. وكانت العرب تقول: إن عظام الموتى تصير هامة؛ فتطير، وكانوا يسمون ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت إذا بلي: الصدى، وجمعه: أصداء (لسان العرب: صدي).

(١) جزء أحاديث الشعر، للحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسّي ص٦٧-٦٩ (تحقيق إحسان عبد المنان الجبالي، المكتبة الإسلامية، عمَّان، ط١/١٤١٠هـ).

(٢) انظر الحديث وروايته في: فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني ٢٥٧/٧-٢٥٩؛ (رقَّمه محمد فؤاد عبد الباقي، قرأ أصله تحقيقًا وتصحيحًا عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر).

الجازمة: « والله ما قال أبو بكر شعرًا في جاهليةٍ ولا إسلامٍ قطُّ »: قَسَمٌ على نفي الشعر ألبتة عن أبي بكر: نكرةٌ في سياق النفي، مفيدةٌ عمومًا واستغراقًا باتفاق[1]؛ ثم توكيدٌ لفظيٌّ بـ« قطُّ » محا كلَّ هواجس الشك.

كانوا يكذبون إذن على أبي بكرٍ وابنتُه بين ظهرانيهم، بل كانوا يكذبون عليه رضِي الله عنه وهو بينهم في الزمن الذي كان قبل الهجرة، فما ظنُّك بالزمن الذي خلف؟

ثم إن خليفةً من خلفاء بني أمية ارتاب في أمر هذا الشعر الذي يروى لأبي بكر؛ فعن « الزهري قال: سألني عبد الملك بن مروان فقال: أرأيت هذه الأبيات التي تُروى عن أبي بكر؟ فقلت: إنه لم يَقُلْها؛ حدثني عروة، عن عائشة أن أبا بكر لم يقل بيت شعر في الإسلام حتى مات »[2]، فاحتج له الزهريُّ بحديث عائشة، وأضاف على ما فات زيادةَ: « حتى مات »، وهي توكيد آخر جديد.

ثم جاءت الأخبار متواليةً لتنكر شعرًا إذا رُوي لأبي بكر، أو لتضعِّفَه.

ففي «السيرة النبويّة»: « قال ابن إسحاق: فقال أبو بكر الصدِّيق رضِي الله عنه في غزوة عبد الله بن جحش، ويقال عبدُ الله بن جحش قالها... قال ابن هشام: هي لعبد الله بن جحش: تَعُدُّونَ قَتْلاً في الحَرَامِ عَظِيمَةً... » الأبيات[3].

وفي «السيرة» أيضًا: « قال ابن إسحاق: فقال أبو بكر الصدِّيق رضِي الله عنه في غزوة عُبيدة بن الحارث - قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة لأبي بكر

(١) انظر: شرح الرّضي لكافية ابن الحاجب، لمحمد بن الحسن الإستراباذي المعروف بالرّضي، القسم الثاني، المجلد الأول ص٥٤٦ (دراسة وتحقيق الدكتور يحيى بشير مصري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ط١/١٤١٧هـ).

(٢) الاستيعاب ٣/٩٧٨.

(٣) السيرة النبويّة، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ٢/٦٠٥ (تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢/١٩٥٥م).

رضِي الله عنه: أَمِنْ طَيْفِ سَلْمَى بِالبِطَاحِ الدَّمَائِثِ... » القصيدة[١].

وأما الرَّجز المَعْزُوُّ مِرارًا - وهْمًا - لأبي بكرٍ، وهو قوله لمَّا أخذته الحمَّى[٢]:

كُلُّ امْـرِئٍ مُصَبَّـحٌ فِي أَهْلِـهِ
وَالمَـوْتُ أَدْنَى مِـنْ شِرَاكِ نَعْلِـهِ

فهـو وإن رواه البخـاريُّ[٣]؛ فقد يجوز أن يكون على سـبيل التمثُّل من أبي بكرٍ؛ لأنه نُسـب إلى حكيمٍ النهشليِّ[٤]، ونُسب إلى غيره من شعراء الجاهليَّة[٥].

وفي «نسب قريش» لمُصعب بن الزبير أن أبا بكر مرَّ ومعه عليٌّ يمشي إلى جانبه، والحسنُ يلعب مع الصبيان، وذلك بعد وفاة النبيِّ ﷺ؛ فاحتمله على رقبته وهو يقول:

وَا بِـأَبِي، شِـبْهُ النَّـبِيْ
لَيْـسَ شَـبِيهًا بِعَـلِيْ[٦]

فهـذا رجـزٌ غيرُ سـالمٍ لأبي بكرٍ كذلك؛ إذْ ألحقـه في «العِقْد الفريد» بفاطمـة - رضي الله تعالى عنها -[٧].

أمَّـا ما نطالعـه في بعض كتب المتأخرين مـن نحو ما يروون أنه لمَّا سـاخت قوائمُ فرس

(١) المصدر السابق ٢/٥٩٢.

(٢) كما في سيرة ابن هشام مثلًا ٢/٥٨٨، وكتاب الأزمنة والأمكنة، للمرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن ص٣٦٤ (ضبطه وخرَّج آياته خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٧هـ).

(٣) صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، للإمام البخاريّ، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ١/٣٥٣ (جمعية المكنز الإسلامي ١٤٢١هـ).

(٤) العقد الفريد، لابن عبدِ ربِّهِ، أحمد بن محمد الأندلسي ٦/٤٠ (تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٣٧٢هـ).

(٥) نسبه محققو سيرة ابن هشام إلى عَمرو بن مامة ٢/٥٨٨.

(٦) نسب قريش، لمصعب بن عبد الله الزبيريّ ص٢٣ (تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ط٣/١٩٨٢م).

(٧) العقد الفريد ٢/٢٤٥.

سراقة وهو يرصد النبيّ وصاحبَه في الهجرة؛ قال أبو بكر:

قَالَ النَّبِيُّ، وَلَم يجزع، يُوَقِّرُنِي ... وَنَحْنُ فِي سُدَفٍ مِنْ ظُلْمَةِ الغَارِ

... الأبيات[١]؛ فإنه شعرٌ سِيَرِيٌّ ساقطٌ غَثٌّ، أنَّى لأبي بكر أو لأحدٍ من ذلك القرن بمثله؟

ومِنْ هذا الشعر الذي نجده عند بعض المتأخرين أيضًا ما يُسمَّى: «القصيدة الغوثية في الأدعية»[٢]، وهي اختلاقٌ لا يصحُّ مثلُه.

ذلك خالص ما ألفينا من القول في شعر أبي بكر. بيد أنك تجد في كتاب «الزينة» خبرًا يعارض كل أولئك الأخبار المتقدمة؛ فقد روى « عمرُ بن زائدة، عن أبي الصقر، عن الشعبيّ قال: كان أبو بكر وعمرُ شاعرين... ولكن ليس يُروى لهما شعرٌ يُعتمد عليه؛ لأنهم لم يكونوا يقولون إلا الأبيات في أمورٍ تعرض »[٣].

وجْه التعارض أن عائشة - رضي الله عنها - ومَنْ ذهبَ مذهبَها نَفَوْا الشعرَ عن أبي بكر جملةً واحدةً بيقينٍ لا يعرف الشك، وجزمٍ لا مكان للظن فيه؛ ثم انفتل الشَّعْبيُّ عن ذلك فأثبت أبا بكرٍ في الشعراء المقلّين على ظاهر كلامه. ولقد كان الشعبيُّ إمامًا راويةً،

---

(١) مخطوطة كتاب سيرة النبّي المصطفى وآثار من بعده من الخلفاء، لعلاء الدين مُغُلْطاي (ورقة ١٨، المكتبة الأزهرية: ج٩٣٢١، ع ٩٣٥٤٨ تاريخ).

(٢) معجم التاريخ: التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)، لعلي الرضا قرة بلوط، وأحمد توران قرة بلوط ص١٣٥٠ (دار العقبة، قيصري، تركيا ١٤٢٢هـ)، وقد أشارا إلى أن هذه القصيدة من المخطوطات المحفوظة بالمكتبة السليمانية بتركيا.

(٣) كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، لأبي حاتم الرازيّ، أحمد بن حمدان ص١١٧ (عارضه بأصوله وعلق عليه حسين بن فيض الله الهمْداني اليعبري الحرازي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط١/١٤١٥هـ). وصَدْرُ هذا الخبر في «تهذيب الآثار» للطبري ٦٣٧/٢ (تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة)، قال: « حدثني عبيد بن أسباط بن محمد القرشي، حدثنا ابن إدريس، عن ابن أبي زائدة، عن الشعبي قال: كان أبو بكر وعمر شاعرين، وكان عليٌّ من أشعر الثلاثة رحمة الله عليهم ».

وكان من أصحاب عبد الملك بن مروان الأدنَيْن، وكان بصيرًا بالشعر[١]، وكأني به علم سؤال عبد الملك الزهريَّ، أو خاض في الجواب عنه خوضًا ما؛ فقال قوله هذا.

وقد اتفق أولو النظر على تقديم خبر المثبت الثقة على خبر النافي الثقة[٢]؛ فيكون قول الشعبيّ - على ذلك - مُقدَّمًا على قول عائشة؛ وهذه قاعدة إعمالها غيرُ سديد هنا؛ لأن العلماء أيضًا استثنَوا من قاعدة تقديم الإثبات على النفي هذه مستثنيات، من ذلك ما قاله الزركشي بعد ما حرَّر هذه القاعدة؛ قال: « وتحصَّل أن المثبت يُقدَّم، إلا في صور: إحداها... الثانية: أن يكون راوي النفي له عناية به، فيقدم على الإثبات... الثالثة: أن يستند نفيُ النافي إلى علم »[٣].

وعائشةُ مَثَلٌ عالٍ في فقه الشعر وضبطه وروايته[٤]؛ وإنها لَمن أهل العلم بهذا الشعر، وهي ألصق بأبيها، وأعلم بحاله في الجاهلية والإسلام من غيرها؛ وخاصةً إذا كان التنازع على ما هو معلوم بالضرورة، كأن يعرف امرؤ هل كان أبوه شاعرًا أم لا، وإنه سيعرف ذلك، وسيعرفه - لا جرم - إن كان من أهل العلم بالشعر كعائشة، ولو كان أبوها الصدِّيق شاعرًا لأحبَّت أن تذكر ذلك وما كانت لتنكر شعره؛ أو لَنفت عنه ما لم يقله فحسب كتلك القصيدة الجاحدة التي قالها شدَّاد بن الأسود، ثم لم تعْدُ ذلك. ألا إنها لعلى علمٍ بخطر قولها

(١) اقرأ شواهد على ذلك في: الأغاني ١٨/١٤٣.

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر ٣/١١٠ (حرّره الدكتور عبد الستار أبو غدة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ط٢/١٤١٣هـ)، والإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي ٣/٤٩ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م)، و« فصلَ التناقض » من كتاب: البصائر النصيرية في علم المنطق، لزين الدين عمر بن سهلان السَّاوي ص١٢١ (تقديم وضبط الدكتور رفيق العجم، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١/١٩٩٣م).

(٣) البحر المحيط للزركشي ٦/١٧٤.

(٤) عن هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه، ولا بطب، ولا بشعر من عائشة. وعن أبي الزناد قال: ما رأيت أحدًا أروى لشعرٍ من عروة فقيل له: ما أرواك يا أبا عبد الله ! قال: وما روايتي من رواية عائشة ! ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا (انظر: الاستيعاب ٤/١٨٨٣).

الذي قالته، وعلى إدراكٍ لمعانيه.

فلنترك هذا أيضًا، ونتلُ أخرى قولَ الشعبي واقفين عند كلمته: « ولكن ليس يروى لهما شعرٌ يُعتمد عليه »؛ ألا يَحتمل أنَّ الشعبي ينكِر أن يكون هو على علمٍ بشعر صحيح يُعتمد عليه لأبي بكرٍ، وإن كان يُثبت أصل الشعر له ؟ بلى، وعساه كان يرمي إلى نحو من قول ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» أنه « قَلَّ أحدٌ له مُسْكَةٌ من أدب، وله أدنى حظ من طبع إلا وقد قال من الشعر شيئًا »(١)، بل يوشك أن يكون ذلك مرادَه؛ لأنه أخبَرَ عن قلة أبيات أبي بكر التي لا يصح له مما بين يديه منها شيء يُعتمد عليه فقال: «... لأنهم لم يكونوا يقولون إلا الأبياتَ في أمورٍ تعرِض ». ويقوّي من رجحان هذا الرأي أن الشعبيَّ جمع أبا بكرٍ بعمرَ وعليّ. والقولُ في شعرهما غيرُ القول في شعر أبي بكر، فلعل هذا الجمع سلك بالشعبي طريقًا من طرق التعميم بذكر الثلاثة في عبارةٍ واحدة.

وإذن فقول الشعبي قريبٌ جدًّا من قول عائشة حتى ونحن نمرُّه على ظاهره.

فإذا كان الحكم بصحة شعرٍ لأبي بكر، ولو بيتًا واحدًا؛ صعبًا على المتقدمين كالزهريّ والشعبيّ، وهما مَن هما؛ فكيف به فيمن خلف بعدهم ؟ بل كيف به في حقنا نحن المتأخرين؟!

وجماع الأمر أن نقول: إن الأصل أنه لم يبلغنا - فيما نعلم - شعرٌ صحيحٌ لأبي بكرٍ يُعتمد عليه؛ فإذا ما رأينا شعرًا منسوبًا إليه اتهمناه، وظننا به ظنونًا لا يصرفنا عنها إلا برهانٌ من براهين العلم الناصعة، أوحُجةٌ من حجج اليقين الناصحة. ولسوف نتخذ هذه الخلاصة أصلاً في دراسة المراثي النبويّة المنسوبة لأبي بكر.

وعلى ذلك، فإن ديوانًا مزعومًا لأبي بكر منشورًا عن مخطوطة شاذَّة متأخرة قَمِنٌ أن لا

(١) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري ص٢٣ (تحقيق محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢/١٤٠٧هـ).

يوقف عنده مليًّا، وأن لا يُتخذ حجَّة في شعر المراثي النبويَّة. وهذا الديوان ضمن مجموع كتبه الشيخ عبدُ الغني النابُلُسي المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومئة وألف، وقد ذهب ناشره إلى أن الشيخ النابلسي لم يكتب الديوان الذي ضمن المجموع؛ فالديوان مكتوب بخط نسخيّ معتاد، والمجموع مكتوب بخط فارسيّ جميل، كما أنه يَكثر في الديوان التصحيفُ الذي لا يُتصور مثلُه من الشيخ كما يقول[1]. ذلك، ولم أجد مَنْ ذَكَر ديوانًا لأبي بكر قبل هذا التاريخ، لا في الفهارس، ولا في كتب المصنفات، ولا في غيرها؛ فالديوان منبتٌّ، لا أصل له، ولا يُعَوَّل عليه.

٢

ورد في الكتب مراثٍ نبويّةٌ أربعٌ منسوبة لأبي بكر، ثلاثةٌ معًا، ورابعة وحدَها. الثلاثة اللواتي معًا مطلعُ إحداهُنَّ:

بَاتَتْ تَأَوَّبُنِي هُمُومٌ حُشَّدُ ... مِثْلُ الصُّخُورِ فَأَمْسَتْ هَدَّتِ الجَسَدَا

سبعة أبيات. ومطلعُ الثانية:

يَا عَيْنُ فَابْكِي وَلاَ تَسْأَمِي ... وَحُقَّ البُكَاءُ عَلَى السَّيِّدِ

ستة أبيت. ومطلع الثالثة:

لَمَّا رَأَيْتُ نَبِيَّنَا مُتجِدِّلاً ... ضَاقَتْ عَلَيَّ بِعَرْضِهِنَّ الدُّورُ

خمسة أبيات. وثلاثتهن من رواية محمد بن سعد كاتب الواقدي عنه. قال ابن سعد في «الطبقات»: « قال محمد بن عمر الواقديُّ عن رجاله: قال أبو بكر الصدِّيق يرثي رسول الله

---

(١) انظر ديوان أبي بكر الصديق، ص٩ (تحقيق راجي الأسمر، دار صادر، بيروت)، وليس خافيًا أن من أصول التحقيق أن لا ينشر الكتاب عن نسخةٍ مخطوطةٍ واحدة إلا بشروطٍ معينة، كأن تكون نسخةَ المؤلف، أو النسخةَ الفريدة في العالم.

ﷺ... » فذكرهنّ[١].

وكان الواقدي أُثر عنه أنه صنَّف «كتاب وفاة النبيّ»[٢]، وهو إمَّا كتاب مستقل، وإمَّا جزءٌ من كتاب له وهو الأرجح؛ لأن المتقدمين قد يسمون الجزء من الكتاب كتابًا؛ فلعلَّ ابن سعد نقل منه المراثيَ الثلاث؛ أو لعله نقلهن من كتابٍ للواقدي آخر ذكره النديم: «كتاب سيرة أبي بكر»[٣]. والغالب على الظن أن الكتب التي روت هذه المراثي نقلت من «طبقات ابن سعد»[٤]، أو نقلت - رأسًا - من كتاب الواقديّ، أو لعلها نقلت من كتاب محمد بن إسحاق كما سيُذكر بعد قليل[٥].

أمَّا ابن سعد فثقةٌ مأمون يَتحرَّى في كثير من رواياته[٦]. وأمَّا الواقديُّ فمجروح لدى المحدِّثين؛ قال السَّاجي: محمد بن عمر بن واقد الأسلميُّ قاضي بغداد: متَّهم. وقال البخاريُّ: متروكُ الحديث. وقال: كذَّبه أحمد. وقال المديني: لا أُرضاه في الحديث، ولا الأنساب، ولا في شيء[٧].

وربما مضى قومٌ مع حكم المحدِّثين هذا فأطلقوا القول في الواقديّ فيما رواه من غير

(١) كتاب الطبقات الكبير ٢/٢٧٧-٢٧٨.

(٢) تاريخ التراث العربي، للدكتور فؤاد سزكين: «التدوين التاريخي» المجلد ٢، ١/١١١ (ترجمة الدكتور محمد فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض ١٤١١هـ).

(٣) الفهرست: لأبي الفرج محمد بن إسحاق النديم ص١١١ (تحقيق رضا تجدد بن علي بن زين العابدين الحائري المازندراني، طهران ١٣٩١هـ). ويبدو أنَّ هذه الكتب التي نسبها النديم للواقديّ إنما هي فصولٌ من كتابٍ كبير له.

(٤) انظر التخريج والفروقات.

(٥) انظر إشارة الصوريّ إلى ذلك في مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٧)، والمخطوطة منسوخة سنة ٩٦٨هـ.

(٦) انظر: الوافي بالوفيات، للصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك ٣/٨٨ (اعتناء س. ديدرينغ، دار النشر فرانز شتاير، شتوتغارت ١٤١١هـ).

(٧) انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمِزّي، جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف ٢٦/١٨٠ (تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/١٤١٣هـ).

الحديث. و(المحدّثون) إنما أرادوا أن الواقدي إذا روى (حديثًا) بمصطلحهم[1] فهو متَّهم متروك غير مرضيّ، ولم يريدوا بهذه الأحكام شيئًا غيرَ الحديث المرويّ عن رسول الله ﷺ. وهم لمّا علموا أنَّ الذي يرجع إلى كتبهم إنما يرجع إليها من أجل الحديث أوّلاً؛ أطلقوا الأحكام ثقةً بمن ينظر في هذه الكتب. وإنها لَقاعدة مُطّردة في كتب كل فنّ: أنَّ الخطاب يكون في الاختصاص، ومن أجل الاختصاص، وبلغة أهل الاختصاص، فاختلاف الفنّ يلزم منه اختلاف الضوابط والشروط والقواعد، أي اختلاف الأسماء والمسمَّيات والمعاني.

والعدلُ أنَّ الواقديَّ إذا روى (حديثًا) أجرينا عليه أحكام المحدِّثين، فإذا روى خبرًا احتكمنا فيه إلى المؤرّخين، أو نسبًا فإلي النسّابين.

أما تكذيب أحمد إيّاه، فإن الكذب قد يعني الخطأ في الرواية أو التناقضَ فيها؛ لنقصان نظر، أو ضعف حفظ، أو قلة عنايةٍ بالفنّ ومداخله.

وأما إطلاق المديني الحكمَ في الواقديّ، فعلى خلاف طريقتهم، ولم يقل بمثل قوله هذا أحد. بل إن المحدِّثين أنفسَهم لم يزالوا يروون الأخبار والأنسابَ والمغازيَ عن الواقديّ، ويتلقَّون عنه ذلك بالقبول والموافقة؛ فهمًا منهم لقاعدة الاختصاص تلك، وإذا قرأت - مثلاً على ذلك - في كتب الخطيب، والذهبيّ، وابن حجر؛ وجدتهم يعدُّون الرجل عمدة في الأخبار والسِّير، ولا يتحرجون في الإسناد إليه والنقل عنه.

وفي هذا المعنى يقول الذهبيُّ - رحمه الله - في «تذكرة الحفّاظ»: «نوحُ الجامعُ مع جلالته في العلم تُرك حديثُه، وكذلك شيخُه مع عبادته، فكم من إمامٍ في فنّ مقصِّرٌ عن غيره، كسيبويه مثلاً؛ إمامٌ في النحو ولا يدرِي ما الحديث، ووكيعٌ إمامٌ في الحديث ولا يعرف العربيّة، وكأبي نُوَاس رأسٌ في الشعر عَريٌّ من غيره. وكمحمد بن الحسن رأسٌ في الفقه ولا

---

(١) الحديث بمصطلح المحدثين: «ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله من غير شذوذ ولا علة قادحة». انظر: فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، تصنيف السخاوي، محمد بن عبد الرحمن ١/١٤-١٨ (تحقيق الشيخ علي حسين علي، مكتبة السنة، القاهرة، ط١/١٤١٥هـ).

يدري ما القراءات، وكحفص إمامٌ في القراءة تالفُ الحديث:

وللحُـرُوبِ رِجَـالٌ يُعْرَفُـونَ بِهَـا

وفي الجملـة: ومـا أُوتوا مـن العلم إلا قليلا، وأما اليـومَ فما بقي من العلـوم القليلة إلا القليل في أناسٍ قليل، ما أقلَّ من يعمل منهم بذلك القليل !... »[١].

ألا إنَّ جَزْء الأحكام، واقتناصَها من سـياقها، والتخليطَ بينها، وإنَّ أخذها عامَّةً من غير تفصيلٍ، ومن غير رعايةٍ لمقاصد أصحابها؛ يوشك أن يُودِيَ بعلمٍ جليلٍ كثيرٍ من علم العرب وأشعارها وأخبارها. وإنك لا تكاد تجد من أهل هذه الأخبار رجلاً لم يعرِض له المحدِّثون بجرح، كالواقدي، وأبي مَعْشَر نَجيح بن عبد الرحمن السِّـنْديّ[٢]، وسـيف بن عمر التميميّ[٣]، ومحمد بن السـائب الكلبيّ[٤]، وابنِهِ هشام[٥]، وغيرهم[٦]؛ أفنُعرض عنهم ونترك كتبهم ضربةَ لازبٍ مـن غير أسـاس ولا حجـة ؟ كلا، ولا المحدثون يفعلون ذلـك. وهذه القضية موطن بحـثٍ غضٍّ لم يمسسـه الباحثون بعدُ بما تَقَرُّ به الأعين. يقـول ياقوت في الواقدي: وهو مع ذلك ضعَّفه طائفة من المحدِّثين... أمَّا في أخبار الناس والسير والفقه وسائر الفنون فهو ثقة

(١) تذكرة الحفَّاظ، لشمس الدين الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان ١٠٣١/٤ (تصحيح عبد الرحمن بن يحيى المعلِّمي، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت، عن طبعة الهند).

(٢) انظر ترجمته في: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمِزِّي ٣٢٢/٢٩.

(٣) انظر ترجمته في: المصدر السابق ٣٢٤/١٢.

(٤) انظر ترجمته في: المصدر السابق ٢٤٦/٢٥.

(٥) انظر ترجمته في: لسان الميزان، لابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني ١٩٦/٦ (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٤٠٦هـ تحقيق دائرة المعارف النظامية بالهند).

(٦) انظر مقدمة لطيفة في مؤلفات السيرة والمغازي وأصحابها كتبها الدكتور محمود محمد الطناحي - رحمه الله - في: الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم ص٤١ وما بعدها (مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/١٤٠٦هـ). وقد أرَّخ الدكتور فؤاد سزكين للذين صنَّفوا في السيرة في جزء «التدوين التاريخي» من كتابه: تاريخ التراث العربي. ولكن ينبغي الحذر عند الإحالة عليه؛ لأنه قد يسمِّي كتبًا ما هو في الحقيقة فصول من الكتب، أو أجزاءٌ منها، وعسى صنيعه هذا أن يكون اتباعًا للنديم في بعض مذاهبه في كتابه «الفهرست».

بإجماع[1]. ويقول مارسدن جونس في مقدمة نشرته لكتاب «المغازي»: «.وحقًّا إن أكثر النقاد مـن المحدِّثين الأوائل كانوا يضعِّفون الواقـديَّ في الحديث، ولكن آراء المحدّثين لم تكن ضـد الواقديّ بالإجماع؛ فإن منهـم مَنْ وصفه بأوصافٍ لا تقلُّ قدرًا عما وُصِفَ به الثقات، ومع أن أغلب العلماء ينكرونه في الحديث، فإنه - بغير شك - يُعدُّ إمامًا في المغازي »[2].

على أنني لا أعني بهذه الكلمة الوثوقَ بهذه المراثي الثلاث، بقدر ما أعني أنه ما من دليل لدينـا يـدل على أن الطعن فيها - إن كان ترجَّح - كان بسـبب الواقدي، ولقد نقل المَقْريزيُّ مثـالاً لطعنٍ وقع في هذه المراثي الثلاث لم يتعـرَّض الطاعن فيه للواقديّ، بل تعرَّض لأمورٍ أخرى، هذا بيانُه:

قـال المَقْريـزيُّ: قـال الصُّوريُّ [معقِبًـا على المراثي الثـلاث]: « وهذه الأقطـاع مصنوعةٌ، قبيحة الصَّنعـة، وتلـك الألفاظ والحال فيها أظهر من أن يُدَلَّ عليها، وقد ذكرها محمد بن إسـحاق في كتابه أيضًـا، وذكـر غيرهـا، ولو كنا جميعًـا مَنْ ذكرها لـكان أجمل بهما مـن إضافتهما مثلَ هذا الشعر مع ركاكة ألفاظه، وخلوِّه من المعاني كلها؛ إلى الصدِّيق رضِي الله عنه وهو من قريشٍ الموصوفين بالبلاغة والفصاحـة، المعروفـين بالرزانة والرجاحة، يرضى لنفســه بإضافـة مثل هذا إليه، بـل عقله وفضله يأبيان ذلك عليه [كذا ؟]...[3] وإذا كان الواقديُّ لم يذكر شـيئًا من شـعر حسَّان بما رثى به النبيَّ ﷺ اعتمـادًا على قـول ابـن أبي الزناد، وما حكاه عن شـيوخ الأنصـار؛ فأحرى به ألا يذكر شـيئًا عن أبي

---

(١) إرشاد الأريب في معرفة الأديب = معجم الأدباء: لياقوت الحموي الرومي ص٢٥٩٥-٢٥٩٨؟ (تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/١٩٩٣م).

(٢) انظر: مقدمة كتاب المغازي، للواقدي، محمد بن عمر ٣٠/١ (تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط٣/١٤٠٤هـ).

(٣) العبارة قلقة ومضطربة، ولعل فيها سقطًا وتصحيفًا وتحريفًا، ولكنَّ مجمل المعنى مفهوم. وكانت هذه العبارة السبب في أن أرجع إلى مخطوطة كتاب إمتاع الأسماع؛ لأتثبَّت منها، فرأيتُ الناشر أسقط كثيرًا من المراثي النبوية النادرة، انظر تفصيل ذلك في تمهيد هذه الدراسة. وكان الرجل قد أسقط من كلام الصوري بعض الألفاظ وبدَّل (عارض النص الذي أنقله الآن بما أثبته في مطبوعته المنقوصة ٥٩٤/١٤).

بكر رضي الله عنه؛ للحديث المأثور، والنقل المشهور عن الزهري عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: والله ما قال أبي شعرًا في جاهلية ولا إسلام، في قصة طويلة، وأخرج البخاريُّ هذا الحديث في كتابه «الصحيح».

ومثل هذا الحديثُ عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كذب من أخبركم أن أبا بكر رضي الله عنه قال بيتَ شعرٍ في الإسلام. رواه البخاري عن ابن المتوكل عن عبد الرزاق »[1].

إن أجلَّ ما في تشنيع الصوريّ هذا إشارتُه العزيزة إلى رواية محمد بن إسحاق للمراثي الثلاث، وهي روايةٌ لم أرَ أحدًا ذكرها، حتى من أولئك الذين روَوْا عن ابن إسحاق مراثيَ أخرى. ولكنْ مَن يكون الصوريُّ هذا لكي نزِن رأيَه وأحكامه ؟

لقد فتَّشتُ فوجدت «الصوريَّ» لقبًا لقوم كثير[2]، أقربُهم الحافظ محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن رُحَيم الصوريّ، المتوفى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة؛ ذلك أنه المراد عند العلماء إذا أطلق، وهو المحدِّث الأديب الذي أخذ عنه الخطيب البغداديُّ، وكانت له عناية أيّما عناية بالشعر وقرضه[3]. ورجلٌ هذا شأنه جديرٌ أن يُصغى إلى كلامه في الأشعار والرواية.

ونَقْدُ الصوريّ على شدته - وهو المحدّث الحافظ - لم يتوجه به إلى الواقديّ ولا إلى ابن إسحاق، بل قَبِل الرواية ظاهرًا، ثم ردَّها من داخلها، وذلك مَثَلٌ لما تقدَّم من الحديث في الاختصاص.

وكون هذه الأقطاع ركيكةَ اللفظ، خِلْوَ المعنى، لا تمثّل فصاحة الصدِّيق ورزانتَه ورجاحته؛ دليلٌ على أنها « مصنوعة، قبيحة الصَّنعة » في نظر الصوري، ثم إنه رجع إلى ما

(١) مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٦-١٨٢٧).

(٢) انظر: توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، لابن ناصر الدين، محمد بن عبد الله الدمشقي ٤٤١/٥ (تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).

(٣) انظر: الوافي بالوفيات ١٢٨/٤-١٢٩.

بدأنا الحديث به فاحتجَّ بحديث عائشة.

والصوريُّ في نقده يقصد مثلَ هذين البيتين الضعيفين الواهنين:

كَـمْ لِيَ بَعْـدَكَ مِـنْ هَـمٍّ يُنَصِّبُـنِي إِذَا تَذَكَّـرْتُ أَنِّي لا أَرَاكَ ابَـدَا [كـذا]

كَانَ المُصَفَّاءَ[كذا]فِي الأَخْلاقِ قَدْ عَلِمُوا وَفِي العَفَـافِ فَلَـمْ نَعْـدِلْ بِـهِ أَحَـدَا

ومثلَ هذه:

لَمَّـا رَأَيْـتُ نَبِيَّنَـا مُتَجَـدِّلا ضَاقَـتْ عَـلَيَّ بِعَرْضِهِـنَّ الدُّورُ

وَارْتَعْـتُ رَوْعَـةَ مُسْـتهَامٍ وَالِهٍ وَالعَظْـمُ مِـنِّي وَاهِـنٌ مَكْسُـورُ [!]

أَعَتِيـقُ، وَيْحَـكَ، إِنَّ حِبَّكَ قَـدْ ثَوَى وَبَقِيـتَ مُنْفَـرِدًا، وَأَنْـتَ حَسِـيرُ

فإنها لا تليق بأبي بكر لفظًا ومعنى. ثم إنَّ النبيَّ ﷺ لم يمت صريعًا « مُتَجَدِّلا ».

وهذا النقد المتبوع بعلله كريمٌ في ذاته؛ فإنه لم يقتصر فيه على الإسناد دون المتن، ولا على الأخبار تـأتي مطلقـةً دون مزيد تثبُّت واحتياط. وإنَّ مَنْ كان في مثل زماننـا ومقامنا لن يملك إلا أن يرجِّح حكم الصوري المتوفى سنة أربع وأربعين وأربعمائة، وكان بين يديه ما لم يكن بين أيدينا من رجلٍ أو كتاب.

وهذا الترجيح لم يكن من أجل علل الصوري وحدها، ولكن لسـبب آخر لا يقل قوةً عنْ هذه العلـل، هـو إهمـال العلماء الذين أفصحـوا بالنقل من كتاب ابن إسـحاق - ومنهم المكـثِرُ والمُقلُّ؛ إهمالُهـم ذِكْـرَ مـراثي أبي بكـر رضِي الله عنـه، وكان ابن حجـر في «الإصابة» يذكـر البيت والبيتين لصاحب الترجمة إذا كان ذا مرثيّة نبويّة، ويحيل على ابن إسـحاق فيما رواه ابنُ إسـحاق[1]، ولكنه لم يَعْزُ شيئًا من ذلك لأبي بكر مع أن مراثيَ أبي بكر مدوَّنةٌ أمامه في الكتاب، كأنما استضعفها[2].

---

(١) انظر مثلًا: فصل توثيق المراثي اليمانيَّة من هذه الدراسة.

(٢) انظر ترجمة أبي بكر في: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر أحمد بن علي العسقلاني ١٦٩/٤-١٧٥ (تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١٤١٢/١هـ) فإنك لن ترى فيها حديثًا عن شعره قطُّ.

والكَلاعيُّ الذي روى رواية جمّةً من أشعار المراثي عن ابن إسحاق وغيره، لم يدْعُه الاستكثارُ إلى كتابة شيءٍ في كتابه «الاكتفا» مما وُضع على أبي بكر[١]، مع أنه أورد مراثيَ ضعيفةً لغير أبي بكر مما بيَّنَتْه هذه الدراسة، وكأنه استهان بها ولم يرض روايتها؛ وكان أبو الربيع الكَلاعي حافظًا أديبًا، وشاعرًا مُجيدًا[٢]، يعرف مراتب الكلام ومنازله، وكان ابنُ حجر واحدَ عصره، جهبذًا في الرواية والأخبار[٣]، وكان شاعرًا بصيرًا بالشعر[٤].

٣

المرثيَة الرابعة المنسوبة للصدّيق أوّلها:

أَجِدَّكَ مَا لِعَيْنِكِ لاَ تَنَامُ كَأَنَّ جُفُونَهَا فِيهَا كِلاَمُ

ولعلَّ أوّلَ من ذكرها؛ بل ذكر بعضًا منها يدلُّ عليها البَلاذُريُّ المتوفى سنة تسع وسبعين ومئتين مشيرًا إلى كونها « من قصيدة »[٥]، ويظهر أنَّ البلاذريَّ رواها عن الواقديّ، إمَّا من طريق ابن سعد كما مرّ، وإما نقلها من كتب الواقدي نفسها، فلقد كان البلاذريُّ ذا عناية بالواقدي[٦].

---

(١) في كتاب الاكتفا عشرون مرثية من مراثي الصحابة للنبي ﷺ ما بين قصيدة ومقطّعة.

(٢) انظر ترجمة الكلاعي في: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لمحمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري ٢/٨٣-٩٦ (تحقيق الدكتورين محمد بن شريفة وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت).

(٣) انظر ترجمته في كتاب: الجواهر والدرر في ترجمة الحافظ ابن حجر، للسخاويّ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (حققه وعلق عليه حامد عبد المجيد وطه الزيني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٨٦م).

(٤) انظر في الحديث عن شعره وديوانه: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة ص٧٦٥ (دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣هـ)، وبصره بالشعر يمكن الوقوف عليه في اختياره من أشعار المترجَمين.

(٥) أنساب الأشراف، للبَلاذريّ ١/٥٩٢.

(٦) انظر: مرويّات البلاذري عن عصر الراشدين: دراسة تاريخية مقارنة للروايات المسندة المعاصرة، لوليد علي الطنطاوي ص٨٧ (أطروحة ماجستير بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، بكلية دار العلوم بالفيوم ٢٠٠٤م).

ورأيتُها قصيدةً من ستة عشر بيتًا عند الصالحيّ المتوفى في القرن العاشر سنة اثنتين وأربعين وتسعمئة، وقال: إنها عن ابن سعد(١). قلت: ليست في كتاب ابن سعد، ولم يذكر ذلك أحد، وأظنه سَبْقَ قلمٍ من ناسخ. أو أنه كان ينقل من نسخةٍ أتمَّ من النسخة التي بين أيدينا.

وكان الباهليّ الإشبيليّ صاحب «الذخائر والأعلاق» المتوفى سنة أربع وأربعين وخمسمئة، قد رواها ثمانية عشر بيتًا، ولكنه لم ينسبها لأبي بكر، بل قال: «ومما رُثي به ﷺ» فذكرها(٢).

وقد أتى القرشيُّ الذي جمع «جمهرة أشعار العرب» بشيءٍ مُلبِسٍ عجيب حين قال: «قال المفضَّل: ولم يبق أحدٌ من أصحاب رسول الله ﷺ إلا وقد قال الشعر، أو تمثَّل به، فمن ذلك قول أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه أجدَّك... » البيت(٣). والشيء الملبس العجيب إضافته القول إلى المفضَّل، و«المفضل» إذا أُطلق أريد به عند أهل العلم: مُفضَّلَ بني ضبَّة، وليس المفضلُ الذي يروي عنه صاحب «الجمهرة» بالمفضل الضبيّ، وفي ذلك يقول بلاشير: «ويبدو أن المؤلف صنَّف «جمهرته» في أواخر القرن الثالث للهجرة معتمدًا على ما رواه المدعوّ المفضل، ولا تزال شخصية هذا مجهولةً، وليس على كل حالٍ المفضَّلَ الضبيَّ عالم الكوفة»(٤).

والجهالة بهذا المفضَّلِ جهالةُ حال لا جهالة عين، وقد استخرج الدكتور سزكينُ اسمَه - كما قال - من «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم على أنه: «المفضَّل بن عبد الله بن محمد ابن المجبَّر بن عمر بن الخطَّاب»(٥)، وقد نظرتُ في «جمهرة ابن حزم» فلم أجده صرَّح بهذه

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٢٧٦/١٢.

(٢) الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق، لأبي الحسن سلام بن عبد الله بن سلام الباهلّي الإشبيلّي ص٢٢١ (المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٩٨هـ).

(٣) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ص٤٤.

(٤) تاريخ الأدب العربي، لبلاشير ص١٧٢ (ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق ١٤١٩هـ).

(٥) تاريخ التراث العربي، لفؤاد سزكين، المجلد الثاني ٩٠/١.

السلسلة[١]، وكذلك فعل الدكتور الطاهر مِكّي من قبلُ فلم يظفر بها[٢].

على أنه ورد اسم المفضل بن محمد الضبّيّ هكذا مرّةً في «جمهرة القرشي»، « وهو خطأ من الناسخ دون ريب »[٣].

ذلك مفضَّل «الجمهرة»؛ أما مصنّفها فمجهول كذلك، ولم يذق بردَ اليقين بمعرفته أحدٌ إلى يوم الناس هذا، واختلفوا في زمنه جدًّا[٤]، وليس يعنينا هذا في كبير شيء إذ إنَّ «.فائدة الجمهـرة محـدودةٌ، وقيمتها التاريخية متواضعةٌ »[٥]، ثم إن بعض الباحثين خلُص إلى الحكم على صاحب «الجمهرة» بأنه « رجل متساهلٌ في أسانيده، وروايتُه غير موثَّقةٍ، بدلالة تضخُّم القصائد الواردة عنده بأبيات لم يُعِرْها العلماء أيَّ اهتمام. ويضاف إلى هذا أنه في تعليقاته وشروحـه كان يعتمـد على غيره من الشُّرَّاح دون أن نلمَس جهـده المتميّز »، وخصوصًا تلك النقول الحرفيّة التي نقلها عن ابن النحّاس[٦]؛ فلا غرابة إذن إذا نَسَبَ هذا القرشيُّ المجهولُ عن هذا المفضَّلِ المجهولِ شعرًا لأبي بكر.

فإذا كان البَلاذُريُّ لم يذكر مصادره، أو أنه كان ينقل شـعرَ أبي بكر عن الواقديّ، وقد مرَّت بنا رواية الواقدي التالفةُ لشـعر أبي بكر، وإذا كانت رواية «جمهرة أشـعار العرب» لا

---

(١) لم أجده في جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، علي بن سعيد الأندلسي (تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٥)، ولا في النشرة الأخرى (تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر ١٩٤٨م).

(٢) دراسة في مصادر الأدب، للدكتور الطاهر أحمد مكي ص١١٢ (دار الفكر العربي، القاهرة، ط١٩٨٤/٨م).

(٣) المصدر السابق، الموضع نفسه، ولعل هذا الخطأ هو الذي حمل الدكتور محمد أبو المجد على أن يظن أنه المفضل بن محمد الضبّي (مراثي النبيّ ﷺ ص١٦).

(٤) انظر ما كتبه الدكتورَ ناصر الدين الأسد عن «جمهرة القرشي» وعن صاحبها في: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص٥٨٤ (دار الجيل، بيروت، ط١٩٩٦/٨م).

(٥) دراسة في مصادر الأدب، للدكتور الطاهر مكي ص١١٣.

(٦) انظر مقالة الدكتور سليمان الشطِّي: ضوء جديد على زمن تأليف جمهرة أشعار العرب، المنشورة بمجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول ٩٤/١ (ربيع الأول وشعبان ١٤٠٢ هـ الكويت).

وزن لها؛ فإن ما تأخر عن ذلك من روايةٍ خليقٌ بالضعف والنكارة. وهذا الذي بلغ بالقصيدة ثمانية عشر بيتًا إنما رواها بصيغة التمريض، وهي صيغة من صيغ الشك، فقال: «ومما رُثِي به ﷺ»، ولم يجزم بصاحبٍ لها.

وقائل هذه العبارة هو أبو الحسن سلامُ بن عبد الله بن سلام الباهليُّ الإشبيليُّ، المتوفى سنة أربع وأربعين وخمسمئة، كان شيخًا جليلاً، وأديبًا كاتبًا شاعرًا، ذا تصانيف في الآداب والزهد والحِكَم، منها كتاب حَسَنٌ وَسَمَه «بالذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق»[1]، وهو الكتاب الذي فيه القصيدة، أقول: هذا الشيخ الإشبيليُّ الأديب كأنه تورَّع عن نسبتها لأبي بكر، أو عَلِم علمًا يقينًا باختلاقها فرَوَاها على المبني للمفعول جهالةً بمن قالها، ولم ينسبها مع أنه نسب إحدى عشرة قصيدةً لثمانية من الصحابة صريحةٍ أسماؤهم في كتابه.

ثم إن القصيدةَ متأخرةُ النسج، بلى، ونسجُها منقوضٌ أنكاثًا، وفيها من الخمول والتردُّد ما يجافي طبعَ الفصاحة والعذوبة في كلام أبي بكر[2]، أين أبو بكر القرشيُّ من قول هذا الشاعر العييّ:

لَقَدْ وَرَّثْتَنَا مِيرَاثَ صِدْقٍ ... عَلَيْكَ بِهِ التَّحِيَّةُ وَالسَّلاَمُ
مِنَ الرَّحْمَنِ فِي أَعْلَى جِنَانٍ ... مِنَ الفِرْدَوْسِ طَابَ بِهِ المَقَامُ
رَفِيقَ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ فِيهِ ... وَمَا فِي مِثْلِ صُحْبَتِهِ نَدَامُ
وَإِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ فِيهِ ... بِمَا صَلَّوْا لِرَبِّهِمُ وَصَامُوا

إنها أشعار حديثةُ الصناعة لا تصل إلى تلك القرون الأولى.

---

(١) انظر ترجمته في: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لابن عبد الملك ٤٨-٥٥، والمُغرِب في حُلَى المَغرِب، لابن سعيد المغربي ٤٣٤/١ (تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، ط٤)، ونفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، للمَقَّري، أحمد بن محمد التلمساني ٣٣٣/٤ (تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ).

(٢) انظر شواهد كلامه العالي الغضّ في: مجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبويّ والخلافة الراشدة، جمعها محمد حميد الله ص٣٧١ وما بعدها (دار النفائس، بيروت، ط٧/١٤٢٢هـ).

وصحيح أن ضعف البناء، والنـزول عن رتبة الإجادة ليس سببًا كافيًا لنفي الشعر عن أحد، فكلُّ الناس يضعف حينًا وينـزل، بيد أنه ينبغي أنْ لا يُنسب مثلُ هذا النظم الأعرج إلى أحدٍ من أولئك العرب الأقحاح، خصوصًا إن كان في مثل خطر أبي بكر رضِي الله عنه[1].

* * *

(١) جعل الدكتور محمد أبو المجد من دلائل ضعف القصيدة ورود « سجع الحمام » فيها في قوله:

سـأتْبعُ هديَـه مادمـت حيًّـا طـوال الدهـر مـا سَـجَع الحمـامُ

كأنه من معاني المحدَثين (مراثي النبيّ ﷺ ص٤٨)، ولكنَّ الضعف آخذٌ بالقصيدة من أوجه عديدةٍ غيرِ هذا الوجه كما سلف؛ على أن (سجْع الحمام) مذكور في شعر الأوائل كقول شيبان بن جابر السُلمي حين أراد أن يحالف بني هاشم:

أحالفكـم حلفًـا شـديدًا عُقـودُه كحلف بـني عمروٍ أباك ابن هاشـم

على النـصر مـا دامـت بنجـدٍ وثيمةٌ ومـا سـجعت قمْريَّـةٌ بالكرائـم

(انظر: المُنَمَّق في أخبار قريش، لمحمد بن حبيب البغدادي ص٦٧، صحّحه وعلق عليه خورشيد أحمد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدِّكَن، ط١/١٣١٤هـ).

الفصل الثاني

تَوثِيقُ مَرَاثِي حسَّان بنِ ثَابتٍ

رضِي الله عنه

المراثي

(٥)

[من الطويل] *

١ إِلَى صَلَـواتِ اللهِ تَـتْرَى، وَرَحْمَـةٌ تَزِيـدُ عَلَى مَـنْ طَـابَ حَيًّـا وَمَيِّتَـا
٢ عَلَى مَـنْ يُنَـادَى لِلصَّـلاَةِ بِذِكْـرِهِ إِذَا مَـا دَعَا اللهَ المُنَـادِي فَأَسْـمَعَا

***

* التخريج: البيتان في الحماسة المغربية، للجراوي ٢/٧٨٣.

(٦)

[من الطويل] *

١ بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ ... مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ
٢ وَلاَ تَمْتَحِي الآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ ... بِهَا مِنْبَرُ الهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ
٣ وَوَاضِحُ آثَارٍ، وَبَاقِي مَعَالِمٍ ... وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِدُ
٤ بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسْطَهَا ... مِنَ اللهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ
٥ مَعَارِفُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى العَهْدِ آيُهَا ... أَتَاهَا البِلَى، فَالآيُ مِنْهَا تَجَدَّدُ
٦ عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسول وَعَهْدَهُ ... وَقَبْرًا بِهَا وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحِدُ
٧ ظَلَلْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسول فَأَسْعَدَتْ ... عُيُونٌ، وَمِثْلاَهَا مِنَ الجَفْنِ تُسْعِدُ(١)
٨ يُذَكِّرْنَ آلاَءَ الرَّسول، وَمَا أَرَى ... لَهَا مُحْصِيًا نَفْسِي، فَنَفْسِي تَبَلَّدُ
٩ مُفَجَّعَةً، قَدْ شَفَّهَا فَقْدُ أَحْمَدٍ ... فَظَلَّتْ لآلاَءِ الرَّسول تُعَدِّدُ
١٠ وَمَا بَلَغَتْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَشِيرَهُ ... وَلَكِنْ لِنَفْسِيَ بَعْدُ مَا قَدْ تَوَجَّدُ
١١ أَطَالَتْ وُقُوفًا تَذْرِفُ العَيْنُ جُهْدَهَا ... عَلَى طَلَلِ القَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ

* التخريج: جعلتُ سيرة ابن هشام ٦٦٦/٤-٦٦٩ أصلاً لهذه القصيدة؛ وهي في الاكتفا ٧٢/٢-٧٤، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٣-١٨٢٥)، وسبل الهدى والرشاد ٢٧٩/١٢-٢٨١، وهي من مضاف الديوان في نشرة الدكتور عرفات ٤٥٥/١، ونشرة الدكتور سيد حنفي ص٣٧٧؛ وفي البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٠/٥-٢٨١ (مكتبة المعارف، بيروت، ط٢/١٤١١هـ) الأبيات: ١-١٢، ١٤-١٦؛ وفي المواهب اللدنّية ١٥١/١٢-١٥٣ الأبيات: ١-٦، ١١-١٨ ثم زاد الشارح الزرقاني ١٥٢/١٢-١٥٤ الأبيات: ٧-١٠، ١٩-٤٦.

١. في المواهب اللدنية: «مبين... ».

٢. في المواهب: «ولا تنمحي... ».

٣. في المواهب: «وأوضح آيات... ».

٨. في شرح الزرقاني على المواهب: «تذكرن... ».

٩. في شرح الزرقاني: «... قد شقّها... » بالمثناة الفوقية، تصحيف.

١٠. في شرح الزرقاني: «... لنفسي بعد هذا... ».

١١. في المذاهب: «... العين دمعها... ».

---

(١) أسعدت: من المساعدة (لسان العرب: سعد).

١٢ فَبُورِكْتَ يَا قَبْرَ الرَّسولِ، وَبُورِكَتْ   بِلاَدٌ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ المُسَدَّدُ

١٣ وَبُورِكَ لَحْدٌ مِنْكَ ضُمِّنَ طَيِّبًا   عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ، مُنَضَّدُ[1]

١٤ تَهِيلُ عَلَيْهِ التُّرْبَ أَيْدٍ، وَأَعْيُنٌ   عَلَيْهِ، وَقَدْ غَارَتْ بِذَلِكَ أَسْعُدُ

١٥ لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا، وَعِلْمًا، وَرَحْمَةً   عَشِيَّةَ عَلَّوْهُ الثَّرَى لاَ يُوَسَّدُ

١٦ وَرَاحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُّهُمْ   وَقَدْ وَهَنَتْ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ

١٧ يُبَكُّونَ مَنْ تَبْكِي السَّمَاوَاتُ يَوْمَهُ   وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الأَرْضُ، فَالنَّاسُ أَكْمَدُ

١٨ وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةُ هَالِكٍ   رَزِيَّةَ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ ؟

١٩ تَقَطَّعَ فِيهِ مَنْزِلُ الوَحْيِ عَنْهُمُ   وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ وَيُنْجِدُ

٢٠ يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ   وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الخَزَايَا، وَيُرْشِدُ

٢١ إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الحَقَّ جَاهِدًا   مُعَلِّمُ صِدْقٍ، إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْعَدُوا

٢٢ عَفُوٌّ عَنِ الزَّلاَّتِ، يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ   وَإِنْ يُحْسِنُوا فَاللهُ بِالخَيْرِ أَجْوَدُ

٢٣ وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْلِهِ   فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيرُ مَا يَتَشَدَّدُ

٢٤ فَبَيْنَا هُمُ فِي نِعْمَةِ اللهِ، بَيْنَهُمْ   دَلِيلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّرِيقَةِ يُقْصَدُ

٢٥ عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عَنِ الهُدَى   حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا

٢٦ عَطُوفٌ عَلَيْهِمُ، لاَ يُثَنِّي جَنَاحَهُ   إِلَى كَنَفٍ، يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ[2]

٢٧ فَبَيْنَا هُمُ فِي ذَلِكَ النُّورِ إِذْ غَدَا   إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ المَوْتِ مُقْصِدُ

---

١٤. في المواهب: «... وأعين * تباكت... ».

١٥. في المواهب: «... عالوه... » تصحيف.

١٧. في المواهب: «... موته *... والناس... ».

١٨. في المواهب: « فهل... ».

٢٤. في البداية والنهاية، والاكتفا: «... من نعمة الله وسطهم ».

---

(١) الصفيح: جمع صفيحة، الحجر العريض (اللسان: ردح).

(٢) الكنَف: الناحية (اللسان: كنف).

٢٨ فَأَصْبَحَ مَحْمُودًا، إِلَى اللهِ رَاجِعًا ... يُبَكِّيهِ حَقُّ الْمُرْسَلاَتِ، وَيُحْمَدُ

٢٩ وَأَمْسَتْ بِلاَدُ الْحَرْمِ وَحْشًا بِقَاعُهَا ... لِغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنَ الْوَحْيِ تَعْهَدُ

٣٠ قِفَارًا، سِوَى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ ضَافَهَا ... فَقِيدٌ يُبَكِّيهِ بَلاَطٌ وَغَرْقَدُ

٣١ وَمَسْجِدُهُ، فَالْمُوحِشَاتُ لِفَقْدِهِ ... خَلاَءٌ، لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدُ

٣٢ وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى لَهُ، ثُمَّ أَوْحَشَتْ ... دِيَارٌ، وَعَرَصَاتٌ، وَرَبْعٌ، وَمَوْلِدُ(١)

٣٣ فَبَكِّي رَسُولَ اللهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةً ... وَلاَ أَعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعُكِ يَجْمُدُ

٣٤ وَمَالَكِ لاَ تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي ... عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ

٣٥ فَجُودِي عَلَيْهِ بِالدُّمُوعِ، وَأَعْوِلِي ... لِفَقْدِ الَّذِي لاَ مِثْلُهُ الدَّهْرَ يُوجَدُ

٣٦ وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ... وَلاَ مِثْلُهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ

٣٧ أَعَفَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ ... وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلاً لاَ يُنَكَّدُ

٣٨ وَأَبْذَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ ... إِذَا ضَنَّ مِعْطَاءٌ بِمَا كَانَ يُتْلِدُ(٢)

٣٩ وَأَكْرَمَ صِيتًا فِي الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى ... وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسَوَّدُ

---

٢٨. في شرح الزرقاني: «تبكيه... ويحمد» تصحيف. وفي البداية والنهاية، وشرح الزرقاني «... جفن المرسلات...»، وفي الاكتفا: «... جنٌّ...» وفي مخطوطة إمتاع الأسماع: «...حق المرسلات...».

٣١. في البداية والنهاية: «... له فيها...».

٣٢. في شرح الزرقاني: «فيا جمرة...».

٣٣. في شرح الزرقاني: «... يا عين جهرة».

٣٤. في شرح الزرقاني: «... النعم...».

٣٨. في شرح الزرقاني: «إذا ضن ذو مال...».

٣٩. في شرح الزرقاني: «وأكرم بيتًا...». وفي البداية والنهاية: «... حيًّا...»، وفي الاكتفا: «...... إذا انتهى».

---

(١) العرصات: الساحات (اللسان: عرص).

(٢) الطريف: المستحدث (اللسان: طرف). والتالد: القديم الموروث (اللسان: تلد).

٤٠ وَأَمْنَعَ ذِرْوَاتٍ، وَأَثْبَتَ فِي العُلاَ ... دَعَائِمَ عِزٍّ شَاهِقَاتٍ تُشَيَّدُ
٤١ وَأَثْبَتَ فَرْعًا فِي الفُرُوعِ، وَمَنْبِتًا ... وَعُودًا غَذَاهُ المُزْنُ، فَالعُودُ أَغْيَدُ
٤٢ رَبَاهُ وَلِيدًا فَاسْتَتَمَّ تَمَامُهُ ... عَلَى أَكْرَمِ الخَيْرَاتِ رَبٌّ مُمَجَّدُ
٤٣ تَنَاهَتْ وَصَاةُ المُسْلِمِينَ بِكَفِّهِ ... فَلاَ العِلْمُ مَحْبُوسٌ وَلاَ الرَّأْيُ يُفْنَدُ[1]
٤٤ أَقُولَ وَلاَ يُلْفَى لِقَوْلِي عَائِبٌ ... مِنَ النَّاسِ إِلاَّ عَازِبُ العَقْلِ مُبْعَدُ
٤٥ وَلَيْسَ هَوَايَ نَازِعًا عَنْ ثَنَائِهِ ... لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الخُلْدِ أَخْلُدُ
٤٦ مَعَ المُصْطَفَى، أَرْجُو بِذَاكَ جِوَارَه ... وَفِي نَيْلِ ذَاكَ اليَوْمِ أَسْعَى، وَأَجْهَدُ

***

---

٤٠. في شرح الزرقاني: « شامخات... ».

٤١. في شرح الزرقاني: « وعودًا كعود المزن... ».

٤٣. في شرح الزرقاني: « فلا العلم مجبور... ».

٤٤. في البداية والنهاية: «... ولا يلفي... » بالفاء المفردة.

---

(١) الوصاة: الوصية (اللسان: وصي).

(٧)

[من البسيط] *

١ آلَيْتُ حِلْفَةَ بَرٍّ غَيْرِ ذِي دَخَلٍ   مِنّي أَلِيَّةَ بِرٍّ غَيْرِ إِفْنَادِ(١)
٢ بِاللهِ مَا حَمَلَتْ أُنْثَى وَلاَ وَضَعَتْ   مِثْلَ النَّبِيِّ رَسُولِ الرَّحْمَةِ الهَادِي
٣ وَلاَ مَشَى فَوْقَ ظَهْرِ الأَرْضِ مِنْ أَحَدٍ   أَوْفَى بِذِمَّةِ جَارٍ أَوْ بِمِيعَادِ؛
٤ مِنَ الَّذِي كَانَ نُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ   مُبَارَكَ الأَمْرِ ذَا حَزْمٍ وَإِرْشَادِ
٥ مُصَدِّقًا لِلنَّبِيِّينَ الأُلَى سَلَفُوا   وَأَبْذَلَ النَّاسِ لِلْمَعْرُوفِ لِلْجَادِي(٢)

* التخريج: جعلتُ ديوان حسّان بن ثابت (تحقيق الدكتور وليد عرفات) ١/٢٧٢ أصلاً لهذه القصيدة؛ وهي في الديوان بتحقيق الدكتور سيد حنفي ص٢٠٧، ٨٠٨؛ ونهاية الأرب ١٨/٤٠٢؛ وفي الطبقات الكبير لابن سعد ٢/٢٧٩، ٢٨٠ روايتان : في الأولى الأبيات: ٢، ٧، ٨، وفي الثانية الأبيات: ١-٨؛ وفي السيرة النبوية لابن هشام ٤/٦٧١، والاكتفا ٢/٧٥، وسبل الهدى والرشاد ١٢/٢٨٣، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٤) الأبيات: ١-٤، ٧، ٨، ٦؛ وفي الذخائر والأعلاق للإشبيلي ص٢٢٢، الأبيات: ٢، ٤، ٧، ٨.

١. في السيرة، والاكتفا، ومخطوطة الإمتاع، والسبل: «آليت ما في جميع الناس مجتهدا». وفي الطبقات، ونهاية الأرب: «... ألية حق...».

٢. في السيرة، الاكتفا، ومخطوطة الإمتاع، والسبل: «تالله...» مثل الرّسول نبي الأمة...». وفي الطبقات مرة: «والله... *... رسول الأمة...»، وأخرى: «بالله... * النّبيّ نبي...». وفي ذخائر الإشبيلي: «تالله... *... رسول الأمة...». وفي الطبقات، ونهاية الأرب: «تالله... *... النبيّ نبي...».

٣. في السيرة، والاكتفا، ومخطوطة الإمتاع، والذخائر، والسبل: «ولا برا الله خلقًا من بريته».

٤. في السيرة، والاكتفا، ومخطوطة الإمتاع، والذخائر والسبل: «... الذي كان فينا... *... ذا عدل...».

---

(١) الإفناد: التكذيب وتضعيف الرأي.

(٢) الجادي: السائل (اللسان: جدا).

٦ خَـيْرُ البَرِيَّـةِ، إنِّي كُنْـتُ فِي نَهَـرٍ جَارٍ، فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ المُفْرَدِ الصَّادِي[1]

٧ أَمْـسَى نِسَـاؤُكَ عَطَّلْـنَ البُيُـوتَ فَمَـا يَضْرِبْـنَ فَـوْقَ قَفَـا سِـتْرٍ بِأَوْتَـادِ

٨ مِثْـلَ الرَّوَاهِبِ يَلْبَسْـنَ المُسُـوحَ وَقَدْ أَيْقَـنَّ بِالبُـؤْسِ، بَعْـدَ النِعْمَـةِ، البَادِي

* * *

٦.في السيرة، والاكتفاء، ومخطوطة الإمتاع، والذخائر والسبل: « يا أفضل الناس... * أصبحت منه كمثل المفرد الصادي ».

٧. في الطبقات: «... خلف قفا... ».

٨ـ في السيرة، والاكتفاء، ومخطوطة الإمتاع، والسبل: «... يبلبسن المباذل قد »[2]. وفي الذخائر: « أنسن بالبؤس...».

---

(١) الصادي: شديد العطش (اللسان: صدي).

(٢) المباذل: جمع مِبْذَل، وهو الثوب الذي يُبتذل فيه (الإملاء المختصر في شرح غريب السير، للخشني، أبي ذرّ مُصعب بن أبي بكر محمد بن مسعود ١٨٤/٣، تحقيق ودراسة الدكتور عبد الكريم خليفة، دار البشير).

(٨)

[من الكامل]*

١ مَـا بَـالُ عَيْنِـكِ لاَ تَنَـامُ كَأَنَّمَـا   كُحِلَـتْ مَآقِيهَـا بِكُحْـلِ الأَرْمَـدِ
٢ جَـزَعًا عَلَى المَهْـدِيّ أَصْبَـحَ ثَاوِيًـا   يَـا خَـيْرَ مَنْ وَطِـئَ الحَصَى لاَ تَبْعَدِ
٣ وَجْهِي يَقِيـكَ الـتُّرْبَ لَهْـفِيَ لَيْتَـنِي   غُيِّبْـتُ قَبْلَـكَ فِي بَقِيـعِ الغَرْقَـدِ
٤ بِـأَبِي وَأُمِّي مَـنْ شَـهِدْتُ وَفَاتَـهُ   فِيْ يَـوْمِ الاثْنَـيْنِ النَّـبِيُّ المُهْتَـدِي
٥ فَظَلِلْـتُ بَعْـدَ وَفَاتِـهِ مُتَبِـلِّدًا   مُتَـلَدِّدًا، يَـا لَيْتَـنِي لَـمْ أُولَدِ(١)
٦ أَأُقِيـمُ بَعْـدَكَ بِالْمَدِينَـةِ بَيْنَهُـمْ   يَـا لَيْتَـنِي صُبِّحْـتُ سُـمَّ الأَسْـوَدِ
٧ أَوْ حَـلَّ أَمْـرُ اللهِ فِينَـا عَاجِـلاً   فِي رَوْحَـةٍ مِـنْ يَوْمِنَـا أَوْ مِـنْ غَـدِ
٨ فَتَقُـومَ سَـاعَتُنَا فَنَلْـقَى طَيِّبًـا   مَحْضًـا ضَرَائِبُـهُ، كَرِيـمَ المَحْتِـدِ(٢)
٩ يَـا بِكْـرَ آمِنَـةَ المُبَـارَكُ بِكْرُهَـا   وَلَدَتْـهُ مُحْصَنَـةً بِسَـعْدِ الأَسْـعَدِ
١٠ نُـورًا أَضَـاءَ عَلَى البَرِيَّـةِ كُلِّهَـا   مَـنْ يُهْـدَ لِلنُّـورِ المُبَـارَكِ يَهْتَـدِ
١١ يَـا رَبِّ فَاجْمَعْنَـا مَعًـا وَنَبِيَّنَـا   فِي جَنَّـةٍ تَثْـنِي عُيُـونَ الحُسَّـدِ
١٢ فِي جَنَّـةِ الفِـرْدَوْسِ فَاكْتُبْهَـا لَنَـا   يَـا ذَا الجَـلاَلِ، وَذَا العُـلاَ وَالسُّـؤْدَدِ
١٣ وَاللهِ أَسْـمَعُ مَـا بَقِيـتُ بِهَالِـكٍ   إِلاَّ بَكَيْـتُ عَلَى النَّـبِيِّ مُحَمَّـدِ
١٤ يَا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهطِهِ فَأَصْبَحُوا   بَعْـدَ المُغَيَّـبِ فِي سَـوَاءِ المَلْحَـدِ
١٥ ضَاقَـتْ بِالإِنْصَارِ البِـلاَدُ فَأَصْبَحُوا   سُـودًا وُجُوهُهُـمْ كَلَـوْنِ الإِثْمِـدِ

* التخريج: جعلتُ السيرة النبوية لابن هشام ٦٦٩/٤، ٦٧٠ أصلاً لهذه القصيدة، وهي من مضاف الديوان بتحقيق الدكتور وليد عرفات ٤٥٥/١، وتحقيق الدكتور سيد حنفي ص٢٠٨-٢١٠؛ وهي في الطبقات الكبير ٢٨٠/٢، ٢٨١، ونهاية الأرب ٤٠٢/١٨، ٤٠٣ مع اختلاف في الترتيب.

٣. في الطبقات: «... ليتني * كنت المغيب في الضريح الملحد».

١١. في الطبقات: «... تفقا عيون... ».

(١) المتلدد: المتحيّر (الجيم: باب اللام).

(٢) الضريبة: الطبيعة والسجية (تاج العروس: ضرب)، والمحتد: الأصل (اللسان: حتد).

١٦ وَلَقَـدْ وَلَدْنَـاهُ، وَفِينَـا قَـبْرُهُ وَفُضُـولُ نِعْمَتِـهِ بِنَـا لَـمْ تُجْحَـدِ

١٧ وَاللهُ أَكْرَمَنَـا بِـهِ وَهَـدَى بِـهِ أَنْصَـارَهُ فِي كُلِّ سَـاعَةِ مَشْـهَدِ

١٨ صَـلَّى الإِلَهُ وَمَـنْ يَحُـفُّ بِعَرْشِـهِ وَالطَّيِّبُـونَ عَلَى المُبَـارَكِ أَحْمَـدِ

* * *

(٩)

[من الكامل] *

١ إِنَّ الرَّزِيَّةَ لاَ رَزِيَّةَ مِثْلُهَا ... مَيْتٌ بِطَيْبَةَ مِثْلُهُ لَمْ يُفْقَدِ
٢ فَلَقَدْ أُصِيبَ جَمِيعُ أُمَّتِهِ بِهِ ... مَنْ كَانَ مَوْلُودًا، وَمَنْ لَمْ يُولَدِ
٣ وَالنَّاسُ كُلُّهُمُ لِمَا قَدْ عَالَهُمْ ... تَرْجُو شَفَاعَتَهُ بِذَاكَ المَشْهَدِ
٤ حَتَّى الخَلِيلُ أَبُوهُ فِي أَشْيَاعِهِ ... وَنَجِيُّهُ مُوسَى النَّبِيُّ المُهْتَدِي
٥ مُتَوَاضِعِينَ لِرَبِّهِمْ بِفِعَالِهِمْ ... تِلْكَ الفَضِيلَةُ وَاجْتِمَاعُ السُّؤْدُدِ
٦ يَا خَيْرَ مَنْ شَدَّ المَطِيَّةَ نَحْوَهُ ... وَفْدٌ لِحَاجَتِهِ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي
٧ أَنْتَ الَّذِي اسْتَنْقَذْتَنَا مِنْ حُفْرَةٍ ... مَنْ يَهْوِ فِيهَا مِنْ قُوَاهُ يَبْعَدِ
٨ وَهَدَيْتَنَا بَعْدَ الضَّلاَلَةِ وَالرَّدَى ... فَهَدَى الإِلَهُ إِلَى السَّبِيلِ الأَرْشَدِ
٩ فَجَزَاكَ عَنَّا اللهُ خَيْرَ جَزَائِهِ ... بِمَقَامِ مَحْمُودِ المَقَامِ مُسَوَّدِ

* * *

* التخريج: جعلتُ الزَّهرة للأصبهاني ٢/٥١٠ أصلاً لهذه القصيدة، وهي في الذخائر والأعلاق للإشبيلي ص٢٢٢؛ ولم يُلحقها محققا ديوان حسَّان بالديوان.

٢. في الذخائر: «ولقد...».

٥. في الذخائر: «... لربهم برقابهم».

٧. في الذخائر: «... من هواه يبعد».

٨. في الذخائر: «فهديتنا... * بهدى الإله...».

٩. في الذخائر: «... مسدد».

(١٠)

[من البسيط] *

١ أَلاَ دَفَنْتُـمْ رَسُـولَ اللهِ فِي سَـفَطٍ مِـنَ الأُلُـوَّةِ وَالكَافُـورِ مَنْضُـودِ[١]

***

* التخريج: لسان العرب (ألا).

(١) السفط: الذي يُعبّأ فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء (اللسان: سفط). والأَلُوَّة: العود الذي يُتبخر به (اللسان: ألا).

(١١)

[من البسيط]

١ نَـبِّ المَسَـاكِينَ أَنَّ الخَـيْرَ فَارَقَهُـمْ   مَـعَ الرَّسـولِ تَـوَلَّى عَنْهُـمُ سَـحَرَا
٢ مَـنْ ذَا الَّذِي عِنْـدَهُ رَحْـلِي وَرَاحِلَتِي   وَرِزْقُ أَهْـلِي إِذَا لَـمْ يُؤْنِسُـوا المَطَـرَا
٣ ذَاكَ الَّذِي لَيْـسَ يَخْشَـاهُ مُجَالِسُـهُ   إِذَا الجَلِيـسُ سَـطَا فِي القَوْلِ أَوْ عَثَرَا
٤ كَانَ الضِّيَـاءَ، وَكَانَ النُّـورَ نَتْبَعُـهُ   وَكَانَ بَعْـدَ الإِلَهِ السَّـمْعَ وَالبَـصَرَا
٥ فَلَيْتَنَـا يَـوْمَ وَارَوْهُ بِمَحْنِيَـةٍ   وَغَيَّبُـوهُ، وَأَلْقَـوْا فَوْقَـهُ المَـدَرَا[٢]
٦ لَـمْ يَـتْرُكِ اللهُ خَلْقًـا مِـنْ بَرِيَّتِـهِ   وَلَـمْ يُعِـشْ بَعْـدَهُ أُنْـثَى وَلاَ ذَكَـرَا
٧ ذَلَّـتْ رِقَـابُ بَـنِي النَّجَّـارِ كُلِّهِـمُ   وَكَانَ أَمْـرًا مِـنَ امْـرِ اللهِ قَـدْ قُـدِرَا
٨ وَاقْتُسِـمَ الـفَيْءُ دُونَ النَّـاسِ كُلِّهِـمُ   وَبَـدَّدُوهُ جِهَـارًا بَيْنَهُـمْ هَـدَرَا[٣]

***

* التخريـج: جعلـتُ ديوان حسَّـان بـن ثابت (تحقيق الدكتـور وليد عرفـات) ١/١٢٤ أصلاً لهـذه القصيدة؛ وهي في السـيرة لابن هشـام ٤/٠٧٦، والاكتفا ٢/٧/٤٧، ٥٧، ومخطوطة إمتاع الأسـماع (ورقة ٥٢٨١، ٦٢٨١)، وسـبل الهدى والرشـاد ٢١/٢٨٢؛ وفي الطبقـات الكبـير ٢/١٨٢، ٢٨٢، الأبيـات: ١-٧؛ وفي الديـوان بتحقيق الدكتور سـيد حنفي ص١٢ الأبيات: ١-٦.

١. في السيرة، والاكتفاء، ومخطوطة الإمتاع، والسبل: «... مع النبي... ».

٢. في السيرة، والاكتفاء، ومخطوطة الإمتاع، والسبل: « أم من نعاقب لا نخشى جنادعه * إذا اللسان عتا..»[١].

٤. في السيرة، والاكتفاء، ومخطوطة الإمتاع، والسبل: « بعد الإله، وكان السمع... ».

٥. في السيرة، والاكتفاء، ومخطوطة الإمتاع، والسبل: «... واروه بملحده »، وفي الطبقات: «... بمخبئه.».

٦. في السيرة، والاكتفاء، ومخطوطة الإمتاع، والسبل: « لم يترك الله منا بعده أحدًا ».

٧. في الطبقات: «... من الرحمن... ».

---

(١) الجنادع: أوائل الشر. وعتا: زاد وطغى (الإملاء المختصر ٣/٨١).

(٢) المحنية: ما انحنى من الأرض (اللسان: حنا). والمدر: قطع الطين اليابس (اللسان: مدر).

(٣) الهَدَر: الباطل (الإملاء المختصر ٣/١٨٤).

(١٢)

[من البسيط] *

١ يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْهِ حِينَ ضَمَّنَهُ بَطْنَ الضَّرِيحِ عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسِ[1]

٢ مَادَتْ بِيَ الأَرْضُ حَتَّى كِدْتُ أَدْخُلُهَا بَعْدَ النَّبِيِّ رَسُولِ اللهِ، وَالآسِي

* * *

* التخريج: البيتان في أنساب الأشراف للبَلاذُري ١/٥٩٣.

(١) هو الفضل بن العباس أو قُثم بن العباس (انظر: السنن الكبرى، للبيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي ٣٥/٤ (مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن، ط١/١٤٣١هـ).

(١٣)

[من البسيط] *

١ يَا عَيْنُ، جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكِ أَسْبَالِ وَلاَ تَمَلِّنَّ مِنْ سَحٍّ وَإِعْوَالِ(١)
٢ لاَ تَعِدَانِيَ بَعْدَ اليَوْمِ دَمْعَكُمَا إِنِّيَ مُصَابٌ، وَإِنِّيَ لَسْتُ بِالسَّالِي
٣ فَإِنَّ مَنْعَكُمَا مِنْ بَعْدِ بَذْلِكُمَا إِيَّايَ مِثْلُ الَّذِي قَدْ غُرَّ بِالآلِ(٢)
٤ لَكِنْ أَفِيضَا عَلَى صَدْرِي بِأَرْبَعَةٍ إِنَّ الجَوَانِحَ فِيهَا هَاجِسٌ صَالِ
٥ سَحَّ الشَّعِيبِ، وَمَاءِ الغَرْبِ يَمْنَحُهُ سَاقٍ يُحَمِّلُهُ سَاقٍ بِإِزْلاَلِ
٦ عَلَى رَسُولٍ لَنَا مَحْضٍ مَشَارِبُهُ سَمْحِ الخَلِيقَةِ، عَفٍّ، غَيْرِ مِجْهَالِ
٧ حَامِي الحَقِيقَةِ، نَسَّالِ الوَدِيقَةِ، فَكَّـ كَاكِ العُنَاةِ، كَرِيمٍ، مَاجِدٍ، عَالِ(٣)
٨ كَسَّابِ مَكْرُمَةٍ، مِطْعَامِ مَسْغَبَةٍ وَهَّابِ عِيدِيَّةٍ وَجْنَاءَ شِمْلاَلِ(٤)
٩ عَفٍّ مَكَاسِبُهُ، جَزْلٍ مَوَاهِبُهُ خَيْرِ البَرِيَّةِ، سَمْحٍ، غَيْرِ نَكَّالِ
١٠ وَارِي الزِّنَادِ، وَقَوَّادِ الجِيَادِ إِلَى يَوْمِ الطِّرَادِ إِذَا شُبَّتْ بِأَجْذَالِ

* التخريج: جعلتُ ديوان حسَّان بتحقيق الدكتور وليد عرفات ٤٣٦/١ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي الديوان بتحقيق الدكتور سيد حنفي ص٢١٠-٢١١ الأبيات: ١، ٢، ٤، ٦-١٣؛ وهي في الطبقات الكبير ٢٨١/٢ مع اختلاف في الترتيب.
٢. في نشرة الدكتور سيد: «لا تعدماني...». وفي الطبقات: «لا ينفدن لي...».
٤. في الطبقات: «لكن أفيضي...».
٦. في نشرة الدكتور سيد حنفي: «... مآربه».
٨. في نشرة الدكتور سيد حنفي: «وهاب عانيةٍ جناء...» وفي الطبقات: «عانية وجناء...».

---

(١) أسبلت السماء: إذا كثرُ مطرها (تاج العروس: سبل). والسَّح: الصب (اللسان: سحح).
(٢) الآل: السراب بالضحى (اللسان: سرب).
(٣) أي يحمي ما يحقُّ عليه، ويعود في شدة الحر، وهو الوديقة (اللسان: ودق).
(٤) العيدية: نوق نجيبة نسبة إلى بني العيد (اللسان: عود). والناقة الوجناء: عظيمة الوجنتين (أساس البلاغة، للزمخشري: وجن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١٩٨٥/٣م). والشملال: السريعة (جمهرة اللغة، لابن دريد (شلم)، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط١٣٤٥/١هـ).

١١ وَلاَ أُزَكِّي عَلَى الرَّحْمَـنِ ذَا بَشَرًا ... لَكِـنَّ عِلْمَـكَ عِنْدَ الوَاحِـدِ العَالِي

١٢ إِنِّي أَرى الدَّهْـرَ وَالأَيَّـامَ تَفْجَعُـنِي ... بِالصَّالِحِينَ، وَأَبْـقَى نَاعِـمَ البَـالِ

١٣ يَا عَيْنُ، فَابْكِي رَسُولَ اللهِ إِذْ ذَكَرَتْ ... ذَاتُ الإِلَهِ، فَنِعْـمَ القَائِـمُ الـوَالِي

* * *

---

١١. في الطبقات: «... ذا بشر» تصحيف.

١٣. في الطبقات: «... القائد... ».

تَوثيقُ مَرَاثِي حسَّان بنِ ثَابِتٍ

رضي الله عنه

١

حسَّـان بن ثابت الأنصاري فحلٌ من فحول الشـعراء[١]. وكان من المعمَّرين[٢]. عَدَّه ابنُ سـلامٍ أشعرَ شـعراء القرى العربيّة[٣]. وقال أبو عبيدة: « وأجمعت العرب على أنَّ أشعر أهل المدر أهلُ يثرب، ثم عبدُ القيس، ثم ثقيف، وعلى أن أشـعرَ أهل يثرب حسَّانُ بن ثابت »[٤].

وحسَّـان أجلُّ من أن يُدَلَّ عليه، حسْـبُك منه صحابته لنبي الله محمدٍ - صلى الله عليه وعلى آله وسـلم - وأنـه مؤيـدٌ بـروح القُدُس، يقول ابـن شرف: « وأمَّا حسَّـان فقد اجتنَت بواكرَه غسَّـان، ثم جاء الإسلام، وانكشـف الإظلام، فحامى عن الدين، وناضل عن خاتم النبيِّـين، فشـمَّر وزاد، وحسَّـن وأجـاد، إلا أن الفضل في ذلك لتأييد رب العالمين، وتسـديد

---

(١) انظر: فحولة الشعراء، للأصمعي، عبد الملك بن قُريب ص٢٠ (شرح وتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، وطه محمد الزيني، المطبعة المنيرية بالأزهر).

(٢) عاش حسَّان مئة وعشرين سنة، شطرها في الإسلام. انظر: جزء من عاش مئةً وعشرين سنة من الصحابة، للحافظ أبي زكريا يحي بن مَنْده ص٦٩ (قدَّم له مشهور حسن سلمان، مؤسسة الريان، بيروت، ط١/١٤١٢هـ).

(٣) طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي ٢١٥/١ (قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، النشرة الثانية التي ارتضاها المحقق، دار المدني، القاهرة).

(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ١٣٦/٤.

الروح الأمين »[١].

ولحسَّان ديوانٌ صَنَعَهُ محمد بن حبيب الراويةُ الكبير المتوفى سنة خمسٍ وأربعين ومئتين، وقد نُشر على أصوله نشرتين، إحداهما قريبُ عهد من الأخرى، واحدة بتحقيق الدكتور سيد حنفي حسنين سنة ١٩٧٤م عن دار المعارف، وأصلُها رسالة دكتوراه نوقشت سنة ١٩٦١م[٢]، والثانية بتحقيق الدكتور وليد عرفات سنة ١٩٧١م ضمن منشورات جب التذكارية[٣]، وعلى الثانية أثنى المحقق الدكتور محمودُ الطناحيُّ، فقال: « وهذه الطبعة من الديوان محقَّقةٌ تحقيقًا علميًّا جيدًا، وهي تفضل ما سبقها وما تلاها من طبعات »[٤].

على أن رواية ابن حبيب لم تكن محيطةً بشعر حسَّان أجمعه، فإنَّ له أشعارًا استدركها المحققان وألحقاها بالديوان، ويقع القسم الأكبر من المراثي النبويَّة المنسوبة إلى حسَّان في المستدرك على رواية ابن حبيب.

ولقد أثار شعرُ حسَّان أهلَ العلم منذ قديمٍ فأشكل عليهم إشكالاً كبيرًا، حتى لقد قال محمد بن سلاَّم: « وهو كثير الشعر، جيّدُه، وقد حُمل عليه ما لم يحمل على أحد؛ لمَّا تعاضَهَت قريشٌ واستبَّتْ وضعوا عليه أشعارًا لا تُنقَّى »[٥].

ويدخل في هذا الشعر المشكل الكثير شعرُ المراثي النبويَّة المنسوبة إليه، ولسوف ننظر في

(١) مسائل الانتقاد، للقيرواني، محمد بن شرف ص١٠٤-١٠٥ (دراسة وشرح وتحقيق الدكتور النبوي شعلان، مطبعة المدني، القاهرة).

(٢) اقرأ مقدمة حسن كامل الصيرفي لنشرة الديوان التي حقَّقها الدكتور سيدّ حنفي حسنين ص٦ (دار المعارف، ١٩٧٤م).

(٣) ديوان حسَّان بن ثابت (تحقيق الدكتور وليد عرفات، دار صادر ١٩٧٤م، مصورة عن طبعة منشورات جب التذكارية ١٩٧١م).

(٤) مدخل إلى نشر التراث العربي، للدكتور محمود محمد الطناحي ص٢١٦ (مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/١٤٠٥هـ).

(٥) طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي ٢١٥/١.

هذه المراثي نظرًا قاصدًا إلى نفي شبهة « لا تُنَقَّى » هذه التي ثبَّطتْ قومًا عن القول في شعر حسَّان قولاً مفصَّلاً، متّخذين هذا الحكم وما أشبهه ذريعة إلى الإحجام والتنائي. وما كان ابن سلامٍ مريدًا تعميم القول في كلِّ شعر حسَّان، ولكنه أراد الشعر الذي نشمُّ رائحة وضع قرشيٍّ فيه، وحتى هذا الشعر القرشيُّ الموضوع رصدَه الجهابذة من النقاد ودلُّوا عليه(١).

وإنَّ مما أدركناه من مشكل شعر حسَّان قولاً مطلقًا نقله المَقريزيُّ في «إمتاع الأسماع» قال: « قال الواقديّ في «مغازيه» قال ابن الزياد: سألت شيوخَنا من الأنصار: هل رثى حسَّان بن ثابت رضِي الله عنه رسولَ الله ﷺ ؟ فقالوا: قيل لحسَّان: لم لا ترثي رسول الله ﷺ ؟ قال: لا أدري ما أقولُ فيه، الأمر أجلُّ من ذاك. وفي رواية أنه قال: جلَّت المصيبةُ عن المرثيَة»(٢).

وليس عجيبًا أنك تجد الواقديَّ راويةً من رواة مراثي حسَّان في النبيّ مع روايته هذا الخبر؛ فلقد كان من طريقة القدماء أنَّ أحدَهم يجمع ما سقط إليه في الباب من صحيح وسقيم تاركًا تمحيصَه لمن شاء؛ ومن غرضهم في ذلك أنه ربما لم ترجُح لديهم رواية ما، أو قد ترجُح وهي عند غيرهم سقيمةٌ مُعلَّة فيذكرونها ويذكرون غيرها ولا يقتصرون عليها؛ ومنها أن في السقيم منافع من غير وجهٍ يعرفها المشتغلون بالتأريخ والرواية.

ومن مثل هذا أيضاً ما جاء في «الفاضل»، قال المبرّد: « ويُروى أنه قيل لحسَّان بعد موت رسول الله ﷺ: ما بالُك لا ترثي رسول الله ﷺ ؟ قال: لأني أستقلُّ كلَّ شيءٍ يجيئني فيه»(٣).

---

(١) مثال ذلك شعرٌ أنكره العدويّ في تعليقته على ديوان حسَّان مستهلُّه:

سائل قُريشًا وأحلافَها ... متى كان عوفٌ لها يُنسَبُ

(الديوان ص٣٥٠، بتحقيق الدكتور سيد حنفي).

(٢) مخطوطة إمتاع الأسماع للمقريزي (ورقة ١٨٢٦)، وقد رجعت إلى «مغازي الواقدي» فلم أجد هذا الخبر، فلعله مفقود منه.

(٣) الفاضل، للمبّرد، محمد بن يزيد ص١٠ (تحقيق عبد العزيز اليمني، دار الكتب المصرية، ط٢/١٩٩٥م).

إلا أنه ينبغي الحذرُ عند إعمال هذه الروايات المطلقة، فإنه قد ثبت أن حسَّان بن ثابت رثى النبيَّ ﷺ بشعرٍ صحيح لا غبار عليه؛ وهاتان الروايتان إمَّا ضعيفتان، وإما أنهما كانتا قبل إنشاء حسَّان رثاءه الصحيح، وإمَّا أن أصحابهما لم يعرفوا رثاء حسَّان الصحيح الثابت والإثبات مُقدَّم على النفي[1] والسلامة تقتضي - والحالُ هذه - اتخاذَ سبيلِ الأناة والتفصيل عند معالجة القول في هذا الشعر.

٢

إحدى هذه المراثي مرثية لها مطلعٌ ذائع، هو:

بِطَيْبَـةَ رَسْـمٌ لِلرَّسُـولِ وَمَعْهَـدُ ... مُنِـيرٌ، وَقَـدْ تَعْفُـو الرُّسُـومُ، وَتَهْمَدُ

ستةٌ وأربعون بيتًا، ليست من رواية ابن حبيب، إنما أضافها المحقق بالديوان نقلاً عن «سيرة ابن هشام»[2]، وفيها: «وقال حسَّان بن ثابت يبكي رسول الله ﷺ فيما حدثنا ابن هشام عن أبي زيد الأنصاريّ... »[3].

القائل هنا هو راوي «السيرة» يحدِّث عن ابن هشام صاحبِها، وكانت لابن هشام زياداتٌ في تهذيبه لسيرة ابن إسحاق على سيرة ابن إسحاق، منها هذه القصيدة عن أبي زيد[4]. أمَّا أبو زيد فهو سعيد بن أوس الأنصاريّ، كان سيبويه إذا قال: « سمعت الثقة » يريد أبا زيد[5].

---

(١) انظر البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي ١١٠/٣.

(٢) ديوان حسَّان ٤٥٥/١ (تحقيق الدكتور وليد عرفات).

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام ٦٦٦/٤-٦٦٩.

(٤) صرَّح ابن هشام نفسُه بذلك حين قال بعد مرثية أخرى لحسَّان: « عجُز البيت الأول عن غير ابن إسحاق » (السيرة النبوية ٦٧١/٤).

(٥) نزهة الألبَّاء في طبقات الأدباء، لابن الأنباري، عبد الرحمن بن محمد ص٥١ (تحقيق الدكتور إبراهيم السامرَّائي، مكتبة المنار، الأردن، الزرقا، ط٣/١٤٠٥هـ).

وُلد أبو زيد سنة نَيِّف وعشرين ومئة، ومات سنة خمس عشرة ومئتين[(١)].

وإسناد هذه القصيدة ظاهره المتانة والاتصال والثقة، وإن يكن أبو زيد قد بلغ بالرواية منتصف القرن الثاني فحسب؛ فإن هذا التأخُّر لا يقدح في صحَّة ما رَوَى من مثل ذلك؛ لأنه قد ثبت أنَّ « الرواية الأدبيّة بمعناها العلميّ الذي عَرَفَه القرن الثاني لم تكن موجودةً... قبلَ زمن أبي عمرو بن العلاء، وحمّادٍ الراوية، ومَنْ عاصرهما »[(٢)]، أي النصف الأول من القرن الثاني؛ وكأيّن من أشعارٍ رويت فلم تجاوز سلاسلُها تلك الحِقْبة. وقد وصل الدكتور ناصر الدين الأسد إلى أن الأسانيد المنتهية بهذه الطبقة متصلةٌ إلى الزمن القديم الذي كان قبلهم، وإن لم يذكروا ذلك أو يصرّحوا به[(٣)].

ولو كان الأمر على هذا الظاهر الصائب لجزمنا بصحة نسب القصيدة إلى حسَّان، ولكنَّ الأمر فيه ما فيه؛ فقد شك في صحة القصيدة الدكتورُ إحسان النص؛ لتفاوتها في النسج والأسلوب، ولطولها[(٤)]. وخشي الدكتور زكي مبارك أن تكون منحوَلةً؛ لما يغلب عليها من الرِّقة واللين، وأنها خليقة برجلٍ كالبوصيريّ[(٥)]. وخالفه الدكتور محمود علي مكي، فقال: « على أنَّ رأينا يختلف حولها عما أعرب عنه أديبُنا وباحثُنا الكبير - رحمه الله، فإننا نراها من خير ما رُثي به الرَّسول ﷺ سواء من حيث حرارةُ العاطفة، أو جودةُ الصياغة، أو التشبُّعُ بالمعاني الإسلامية. وإذا صحَّ أن الوضع قد لحق بعض أبياتها، فإننا نرى أن جُلَّها صحيحُ النسبة لحسَّان »[(٦)].

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي ٩/٤٩٥.

(٢) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، للدكتور ناصر الدين الأسد ص٢٧٦ (دار الجيل، بيروت، ط١٩٩٦/٨م).

(٣) المصدر السابق ص٢٧٤ وما بعدها.

(٤) حسَّان بن ثابت: حياته وشعره، للدكتور إحسان النص ص٢٥٤ (دار الفكر، دمشق، ط١٤٠٥/٣هـ).

(٥) المدائح النبوية في الأدب العربي، للدكتور زكي مبارك ص٣٠ (مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٤هـ).

(٦) المدائح النبوية، للدكتور محمود علي مكّي ص٢١ (الشركة المصرية العالمية للنشر، الجيزة، ط١٩٩١/١م).

والحقُّ أن القصيدة، وإن رواها أبو زيد الثقةُ؛ منحولةٌ، مكذوبة على حسّان. وقد يروي الثقة عن غير الثقة[١]. وكان من منّة الله عليّ أن بصّرني فعرفت أنها مسروقةٌ من شعر الكُميت بن زيد الأسديّ (٦٠-١٢٦هـ)، من هاشميتين له. وهذا السارق يكون قد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني بعد الكميت وقتَ أبي زيد، ولعلَّ ابن حبيب عَرَف هذا فنحّاها عن الديوان الذي صنع. وهاتان الهاشميتان هما قول الكُميت:

طَرِبْتُ، وَمَا شَـوْقًا إِلَى البِيضِ أَطْرَبُ ... وَلاَ لَعِبًا مِنِّي، أَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ ؟![٢]

وقولُه:

أَنَّى، وَمِـنْ أَيْـنَ آبَـكَ الطَّـرَبُ ... مِـنْ حَيْـثُ لاَ صَبْـوَةٌ وَلاَ رِيَبُ ؟![٣]

وهذه مقابلة بين الهاشميتين والمرثيّة من غير استقصاء، تكشف عن زَيْف المرثية واجتراءِ صاحبها:

وزنُ (طَرِبْتُ) من الطويل، وهو وزن (بطيبة). ورَويُّ كلتا القصيدتين مضموم.

---

(١) انظر: الرسالة، للإمام الشافعي، محمد بن إدريس المطّلبي ص٣٧٧ (تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت)، وأيضًا: شرح علل الترمذي، لابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي ١/٧٩-٨١ (حققه وكمّل فوائده نور الدين عتر، دار الملاّح للطباعة والنشر، ط١/١٣٩٨هـ).

(٢) انظر: شعر الكميت بن زيد الأسدي، جمع وتقديم الدكتور داود سلوم ٤/١٨٣ (عالم الكتب، بيروت، ط٢/١٤١٧)، وأيضًا: شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسديّ، تفسير أبي رياش أحمد بن إبراهيم القيسيّ ص٤٣ (تحقيق الدكتورين داود سلام ونوري حمُّودي القيسي، عالم الكتب، بيروت، ط١/١٤٠٤هـ).

(٣) انظر: شعر الكميت بن زيد الأسدي: «الهاشميات» ٤/١٩٧.

بَنَى الكميتُ هاشميتيه على مقدمتين قلّد فيهما ما شاع عن الأوائل ثم تخلّص إلى الثناء على آل البيت والغناء بشمائلهم، ولم يُرد صاحب المرثية أن يفعل سوى ذلك غير أنه قصّر.

ذكر الكميت في مقدّمته « الدار» و« الرسم »:

(٢) وَلَـمْ يُلْهِـنِي دَارٌ وَلاَ رَسْـمُ مَنْزِلٍ　　وَلَـمْ يَتَطَرَّبْـنِي بَنَـانٌ مُخَضَّـبُ

فذكرهما الرجل في مقدِّمة المرثية:

١　بِطَيْبَـةَ رَسْـمٌ لِلرَّسُـولِ وَمَعْهَـدُ　　مُنِيرٌ، وَقَـدْ تَعْفُـو الرُّسُـومُ، وَتَهْمَدُ

٢　وَلاَ تَمْتَحِي الآيَـاتُ مِـنْ دَارِ حُرْمَةٍ　　...

واستعمل الكميت لفظتي « آية »، و« آي » واصفًا إياهما بالتتابع:

(٢٩)　وَجَدْنَـا لَكُـمْ فِي آلِ حَامِيـمَ آيَـةً　　تَأَوَّلَهَـا مِنَّـا تَـقِيٌّ وَمُعْـرِبُ

(٣٠)　وَفِي غَيْرِهَـا آيًـا وَآيًـا تَتَابَعَـتْ　　...

فوصف السالخ « آياته » بنحو ذلك:

٥　مَعَارِفُ لَـمْ تُطْمَـسْ عَلَى العَهْدِ آيُها　　أَتَاهَـا البِلَى فَـالآيُ مِنْهَـا تَجَـدَّدُ

وكرّر الكميت « نفسي » في الشطر الثاني:

(٤٠)　فِـدىً لَـكَ مَوْرُوثًـا أَبِي، وَأَبُـو أَبِي　　وَنَفْسِي، وَنَفْسِيَ بَعْدُ بِالنَّاسِ أَطْيَبُ

فكرّرها السالخ في شطره الثاني:

٨　يُذَكِّـرْنَ آلاَءَ الرَّسـولِ، وَمَـا أَرَى　　لَهَـا مُحْصِيًـا نَفْسِي، فَنَفْسِي تَبَـلَّدُ

وكان من طريقة الكميت أنه يملأ ذيل العجُز من البيت أحيانًا؛ بجملة معقّبةٍ من جنس ألفاظ البيت نفسِهِ من أجل الرويّ، يستأنفها بالواو، كقوله:

(٥) وَلَكِـنْ إِلَى أَهْـلِ الفَضَائِـلِ وَالتُّقَى ... وَخَـيْرِ بَـنِي حَـوَّاءَ، وَالخَـيْرُ يُطْلَـبُ

وقوله:

(٢١) يُشِـيرُونَ بِالأَيْـدِي إِلَيَّ وَقَوْلُهُـمْ: ... أَلاَ خَـابَ هَذَا، والمُشِـيرُونَ أَخْيَبُ

وقوله:

(٣٨) يَـرَوْنَ لَهُمْ فَضْلاً عَلَى النَّـاسِ وَاجِبًا ... سَـفَاهًا، وَحَـقُّ الهَاشِـمِيِّينَ أَوْجَـبُ

وهـو مـن ردِّ العجُز على الصدر، وقد تأسَّى السـالبُ بالكميت في هذه فردَّ أعجازًا على صـدور، إلاّ أنـه (جـدَّد) فاسـتأنف بالفـاء بدلاً من الـواو في هـذه الأبيات من المرثيـة:

٥ مَعَـارِفُ لمْ تُطْمَـسْ عَلَى العَهْدِ آيُهَا ... أَتَاهَـا البِـلَى، فَـالآيُ مِنْهَـا تَجَـدَّدُ

٨ يُذَكِّـرْنَ آلاَءَ الرَّسـول وَمَـا أَرَى ... لَهَـا مُحْصِيًـا نَفْـسِي، فَنَفْـسِي تَبَـلَّدُ

١٧ يُبَكُّـونَ مَـنْ تَبْكِي السَّـمَاوَاتُ يَوْمَهُ ... وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الأَرْضُ، فَالنَّاسُ أَكْمَدُ

٤١ وَأَنْبَـتَ فَـرْعًا فِي الفُـرُوعِ، وَمَنْبِتًـا ... وَعُـودًا غَـذَاهُ المُـزْنُ، فَالعُـودُ أَغْيَدُ

واقـرأ ثلاثـةَ الأبيـات التالية، ثم اقرأ ثلاثـةَ أبيـاتٍ صنعها الرجـل، تعلمْ كم أسـاء لـو ظـنَّ أنْ لـن يُفتضـح أمـرُه، قـال الكميـت يمـدح الرَّسـول صلوات ربي وسـلامه عليه:

(٤٥) وَبُورِكْـتَ مَوْلُـودًا، وَبُورِكْـتَ نَاشِـئًا ... وَبُورِكْتَ عِنْدَ الشَّيْبِ إِذْ أَنْتَ أَشْيَبُ

(٤٦) وَبُـورِكَ قَـبْرٌ أَنْـتَ فِيـهِ، وَبُورِكَـتْ ... بِـهِ وَلَهُ أَهْـلٌ لِذَلِـكَ يَـثْرِبُ

(٤٧) لَقَـدْ غَيَّبُـوا بِـرًّا وَصِدْقًـا وَنَائِـلاً ... عَشِـيَّةَ وَارَكَ الصَّفِيـحُ المُنَصَّـبُ

فقال المُغيرُ عليه:

١٢ فَبُورِكْـتَ يَا قَـبْرَ الرَّسـولِ، وَبُورِكَتْ بِـلاَدٌ ثَـوَى فِيهَـا الرَّشِـيدُ المُسَـدَّدُ
١٣ وَبُـورِكَ لَحْدٌ مِنْـكَ ضُمِّـنَ طَيِّبًـا عَلَيْـهِ بِنَـاءٌ مِـنْ صَفِيـحٍ، مُنَضَّـدُ
١٤ لَقَـدْ غَيَّبُـوا حِلْمًـا وَعِلْمًـا وَرَحْمَـةً عَشِـيَّةَ عَلَّـوْهُ الـثَّرَى لاَ يُوَسَّـدُ

وقال الكميت في الهاشمية الأخرى يمدح الرَّسول ﷺ:

(٥٦) مُبَـارَكٌ، تَـارِكُ الهَـوَى، سَـالِكُ الـ ـقَصْـدِ، عَزِيـزٌ عَلَيْـهِ مَـا عَطِبُـوا

فقال الرجل:

٢٥ عَزِيـزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُـورُوا عَنِ الهُدَى حَرِيـصٌ عَلَى أَنْ يَسْـتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا

وكان الجاحـظ قـد عاب على الكميـت في هـذه القصيدة، فقـال: « ومـن غرائب الحمق المَذهبُ الذي ذهب إليه الكميتُ بن زيد في مديح النبيّ ﷺ حيث يقول:...

(٣٤) وَقِيـلَ: أَفْرَطْـتَ، بَـلْ قَصَـدْتُ ولَـوْ عَابَ القَائِلُـون أَوْ ثَلَبُـوا
(٣٥) إِلَيْـكَ يَـا خَـيْرَ مَـنْ تَضَمَّنَـتِ الأَرْ ضُ وَلَـوْ عَابَ قَـوْلِيَ العُيَّـبُ
(٣٦) لَـجَّ بِتَفْضِيلِـكَ اللِّسَـانُ وَلُـوْ أُكْـثِرَ فِيـكَ اللِّجَـاجُ وَاللَّغَـبُ

[قـال الجاحظ]: فمَنْ رأى شـاعرًا مدح النبيَّ ﷺ فاعترض عليـه واحدٌ من جميع أصناف الناس، حتى يزعمَ هو أن ناسًا يعيبونه ويثلبونه ويعنفونه؟!»[1]؛ فالبيت بعيوبه للكميت.

فـكان مـن غرائب الوضـع، وفرائد طرائفـه، أن يُخلص هـذا المنتحـل لكذبه إخلاصًـا جعلـه ينقـل المعـنى المعَيـبَ بحذافـيره، ولـم يلـوِ على شيء وهـو يقول مطمئنًّـا :

٤٤ أَقُـولُ، وَلاَ يُلْـفَى لِـمَا قُلْـتُ عَائِبًـا مِـنَ النَّـاسِ إِلاَّ عَازِبَ العَقْـلِ مُبْعَدُ
٤٥ وَلَيْـسَ هَـوَايَ نَـازِعًا عَـنْ ثَنَائِـهِ لَعَـلِّي بِـهِ فِي جَنَّـةِ الخُـلْدِ أَخْـلُدُ!!

---

(١) البيان والتبيين، للجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر ٢/٢٣٩-٢٤٠ (تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت).

إن قصيدة (بطيبة) هذه قصيدةٌ مختلَقة، موضوعةٌ على حسَّان بيتًا بيتًا، أخذها صاحبُها من شعر الكميت بن زيدٍ أخذًا فظًّا لا لين فيه، ولا لطف فيه، ومزج عملَه هذا بقولٍ مبعثرٍ هيّن، وتَرْدادٍ ساقطٍ غثّ، هيهاتَ أن يكون لحسَّان الفحل.

٣

وعزوا إلى حسَّان مرثيَتين أخريين، إحداهما قوله:

مَا بَالُ عَيْنِيَ لاَ تَنَامُ كَأَنَّمَا ... كُحِلَتْ مَآقِيهَا بِكُحْلِ الأَرْمَدِ

والثانية قوله:

إِنَّ الرَّزِيَّةَ لاَ رَزِيَّةَ مِثْلُهَا ... مَيْتٌ بِطَيْبَةَ مِثْلُهُ لَمْ يُفْقَدِ

وهما قصيدة واحدة على الأرجح؛ للوزن والصياغة والمعاني والقافية؛ ولأن صاحبهما وضَّاعٌ واحدٌ يسرق من شعر الكميت، وهو الذي وضع المرثية التي سلفت (بطيبة رسم)؛ فهما وهي نسيجٌ واحدٌ مهلهل منقوضٌ متشابه.

أمَّا الأولى فمن رواية ابن حبيب[1]، ومما نقله ابن سعد في «طبقاته» عن أبي عمرو[2]، وقد رواها ابن هشام فلم يذكر لها إسنادًا مثلما ذكر لغيرها[3].

وأما الثانية فقد فاتت المحققيْن لمَّا لم يضمَّاها إلى «الديوان»، وإنه لا تفاقَّ بينهما يُستغرب

(١) انظر: ديوان حسَّان (تحقيق عرفات) ١/٢٦٩.

(٢) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٠.

(٣) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ٤/٦٦٩.

منه. وهي في كتاب «الزَّهرة»[1]، وفي «سبل الهدى والرشاد»[2]، وفي «الذخائر والأعلاق» لأبي الحسن الباهليّ الإشبيليّ[3].

قال الدكتور إحسان النّص: «وعلى رغم أن ابن حبيب قد أثبت القصيدة الدالية الأولى في ديوانه؛ أرجّح أنَّ القصيدة مصنوعةٌ؛ فأسلوبها يباين أسلوب حسَّان، وفيها ركاكة يبعد صدورها عنه مثل قوله:

فِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ وَاكْتُبْهَا لَنَا ... يَا ذَا الجَلاَلِ وَذَا العُلاَءَ السُّؤْدَدِ»[4]

والقصيدتان قصيدة واحدةٌ فَلَقَها صاحبها فِرْقين لحاجة في نفسه لستُ أعلمها، أو هو صنعها في وقتين مفترقين، وكان عييًّا، قليلَ الحظِّ من العربيَّة، لا يكاد ينظم إلا على رويّ الدال، وعلى الدال المكسورة غالبًا، فهو يقول في الأولى مثلاً:

بِأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ ... فِي يَوْمِ الاثْنَيْنِ النَّبِيُّ المُهْتَدِي

ثم يقول في الثانية:

حَتَّى الخَلِيلُ أَبُوهُ فِي أَشْيَاعِهِ ... وَنَجِيُّهُ مُوسَى النَّبِيُّ المُهْتَدِي

وهو يقول في الأولى أيضًا:

أَوْ حَلَّ أَمْرُ اللهِ فِينَا عَاجِلاً ... فِي رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ مِنْ غَدِ

ثم يقول في الثانية:

يَا خَيْرَ مَنْ شَدَّ المَطِيَّةَ نَحْوَهُ ... وَفْدٌ لِحَاجَتِهِ يَرُوحُ وَيَغْتَدِي

وكان قد قال في الأولى:

---

(١) الزَّهرة، للأصبهاني ٢/٥١٠.

(٢) سبل الهدى والرشاد، للصالحي ١٢/٢٣٨.

(٣) الذخائر والأعلاق ص٢٢٢.

(٤) حسَّان بن ثابت: حياته وشعره، للدكتور إحسان النص ص٢٥٤.

... يَـا خَـيْرَ مَنْ وَطِـئَ الحَـصَى لاَ تَبْعَدِ

وممَّا يجمع هاتين القصيدتين بقصيدة (بطيبة) لفظ « طيبة » نفسُه في القصيدة الثانية:

إِنَّ الرَّزِيَّـةَ لاَ رَزِيَّـةَ مِثْلُهَـا مَيْـتٌ بِطَيْبَـةَ مِثْلُـهُ لَـمْ يُفْقَـدِ

ويجمعهمـا بـه لفظتا « مثل » و« فَقْـد »، وكان قد قالهما معبِّرًا عـن فداحة المصاب بفقد النبيِّ ﷺ:

٣٥ فَجُـودِي عَلَيْـهِ بِالدُّمُـوعِ وَأَعْـوِلِي لِفَقْـدِ الَّذِي لاَ مِثْلَـه الدَّهـرَ يُوجَـدُ

٣٦ وَمَـا فَقَـدَ المَاضُـونَ مِثْـلَ مُحَمَّـدٍ وَلاَ مِثْلَـهُ حَـتَّى القِيَامَـةِ يُفْقَـدُ

ولفظة « النور »:

نُـورًا أَضَـاءَ عَلَى البَرِيَّـةِ كُلِّهِـمْ مَـنْ يُهْـدَ لِلنُّـورِ المُبَـارَكِ يَهْتَـدِي

وكان قال:

٤ بِهَـا حُجُـرَاتٌ كَانَ يَـنْزِلُ وَسْـطَهَا مِـنَ اللهِ نُـورٌ يُسْـتَضَاءُ وَيُوقَـدُ

٢٧ فَبَيْنَـا هُـمُ فِي ذَلِـكَ النُّـورِ إِذْ غَـدَا إِلَى نُورِهِمْ سَـهْمٌ مِنَ المَـوْتِ مُقْصِدُ

وإذا قرأنا البيتين اللذين ختم بهما المرثيَّة، وهما:

يَـا رَبِّ فَاجْمَعْنَـا مَعًـا وَنَبِيَّنَـا فِي جَنَّـةٍ تُثْـنِي عُيُـونَ الحُسَّـدِ

فِي جَنَّـةِ الفِـرْدَوْسِ فَاكْتُبْهَـا لَنَـا يَـا ذَا الجَـلاَلِ وَذَا العُـلاَ وَالسُّـؤْدَدِ

ألفينا آخر بيتين في قصيدة (بطيبة) كأنهما هما:

٤٥ وَلَيْـسَ هَـوَايَ نَـازِعًا عَـنْ ثَنَائِـهِ لَعَـلِّي بِـهِ فِي جَنَّـةِ الخُـلْدِ أَخْـلُدُ

٤٦ مَـعَ المُصْطَـفَى أَرْجُـو بِذَاكَ جِـوَارَهُ وَفِي نَيْـلِ ذَاكَ اليَـوْمِ أَسْـعَى وَأَجْهَـدُ

ويجمـع هاتـين (القصيدتـين) بقصيدة (بطيبـة) كذلك أن صاحبهنَّ أباح لنفسـه شـعر الكميـت بـن زيـد، وأسرف في ذلك أيَّمـا إسراف، وأنا على يقـينٍ أن تتبُّعَ ذلك

كلِّه سيبعث السآمة في النفس، ولكنْ حتى نقطع القول، ونحكم الحكم الذي يُطمأنُّ إليه، فهذه أمثلةٌ لما سلبه هذا المفتري على حسَّان، قال الكميت في إحدى هاشميتيْه(١):

وَلَكِنْ مَوَارِيثُ ابْنِ آمِنَةَ الَّذِي ... بِهِ دَانَ شَرْقِيٌّ لَكُمْ وَمُغَرِّبُ

وقال في الثانية:

مَا بَيْنَ حَوَّاءَ إِذْ نُسِبْتَ إِلَى ... آمِنَةَ اعْتَمَّ نَبْتَكَ الهَدَبُ

فقال الرَّجل:

يَا بِكْرَ آمِنَةَ المُبَارَكُ بِكْرُهَا ... وَلَدَتْهُ مُحْصَنَةٌ بِسَعْدِ الأَسْعَدِ

وقال الكميتُ:

وَمَا كَانَتِ الأَنْصَارُ فِيهَا أذِلَّةً ... وَلاَ غُيَّبًا عَنْهَا إِذَا النَّاسُ غُيَّبُ

هُمُ شَهِدُوا بَدْرًا وَخَيْبَرَ بَعْدَهَا ... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ وَالدِّمَاءُ تَصَبَّبُ

فقال الرجل على سجيّته:

يَا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ ... بَعْدَ المُغَيَّبِ فِي سَوَاءِ المَلْحَدِ

ضَاقَتْ بِالانْصَارِ البِلاَدُ فَأَصْبَحُوا ... سُودًا وُجُوهُهُمُ كَلَوْنِ الإِثْمِدِ

وَاللهُ أَكْرَمَنَا بِهِ، وَهَدى بِهِ ... أَنْصَارَهُ فِي كُلِّ سَاعَةِ مَشْهَدِ

وقال الكميت:

يَا خَيْرَ مَنْ ذَلَّتِ المَطِيُّ لَهُ ... أَنْتُمْ فُرُوعُ العِضَاهِ لاَ الشَّذَبُ

أَنْتُمْ مِنَ الحَرْبِ فِي كَرَائِمِهَا ... بِحَيْثُ يُلْفَى مِنَ الرَّحَى القُطُبُ

فقال الرجل مُعْجلاً:

(١) سبقت الإشارة والحديث عن هاتين الهاشميتين قبل قليل.

يَا خَيْرَ مَنْ شَدَّ المَطِيَّةَ نَحْوَهُ وَفْدٌ لِحَاجَتِهِ يَرُوحُ وَيَغْتَدِي
أَنْتَ الَّذِي اسْتَنْقَذْتَنَا مِنْ حُفْرَةٍ مَنْ يَهْوِ فِيهَا مِنْ قُوَاهُ يَبْعَدِ!

ألا إنَّ الكذب على حسَّان شاعرِ الرَّسول قديمٌ، وإنه كالورم الخبيث يُخفي تحته الأصلَ الطيِّبَ ويَضُرُّ به. وبعدُ فإنه لن تأخذنا الدهشةُ ونحن نسمع قالة الأصمعي الشهيرة تلك، وقد اختلط عليه بعضُ الأمر مثلما اختلط على غيره، فقال: « طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان؛ ألا ترى أن حسَّان بن ثابت كان فحلاً في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعرُه في باب الخير من مراثي النبيّ ﷺ، وحمزةَ وجعفرَ - رضوان الله عليهما - وغيرِهما؛ لان شعره؟ وطريق الشعر طريقُ الفحول مثلِ امرئ القيس وزهيرٍ والنابغة، من صفات الديار والرَّحْل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء، وصفةِ الخمر والخيل والحروب والافتخار؛ فإذا أدخلته في باب الخير لان »[١].

إنه قد دُخل على الأصمعيّ ما دُخل على غيره فاستضعف الطبع في حسَّان بن ثابت بشعر مكذوبٍ عليه، ثم أخذ في الاستدلال بأدلة ليست من صميم علم الأدب، إنما هي خارجةٌ عنه؛ وذلك أنا قد وجدنا شعرًا في المراثي وفي الخير قويًّا جزلاً لا وَهَنٌ فيه ولا لين، وإنَّ حسَّان لم يزل فحلاً في الإسلام كما كان فحلاً في الجاهلية بشعره الصحيح النقيّ بشهادة الأصمعي نفسه وبشهادة غيره[٢].

والشاعر لا يكون فحلاً ثم ينقلب كليلاً ليِّنًا رَخوًا، أجل قد يقلُّ شعره، وقد ينزل، وقد يسكت عن قول الشعر ألبتة؛ قد يكون ذلك ولكنَّ (الشاعر) لا ينحطُّ إلى حضيض من القول يناقض قديمه الغنيَّ الغضَّ؛ لأن « القديم لا يزول، ولا يتلاشى عبر العصور والأزمنةِ المتتابعة، وأنه يحيا... وليس ثمة تصوُّرٌ لزوال أثر القديم حين نتحدث عن تأثير

(١) الموشَّح: مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، للمَرْزُباني، محمد بن عمران بن موسى ص٩٧ (تحقيق علي البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة).
(٢) انظر ما قاله الأصمعي وأبو عبيدة في مستهلّ هذا الفصل.

الإســلام في الشــعر في عصر الصدر الأول أو عصر المخضرمين من الشــعراء، أو ما نُســمّيه ببداية العصر الإسلاميّ »[١].

وكثيرٌ من الشـعر اللـين الذي قَصد إليه الأصمعيُّ وغيرُه لم يقله حسَّــان، كلاّ، ولا نطق بـه[٢]، ولقـد ظُلم حسَّــان ظلمًا عظيمًـا، وظُلم عصرُه، وإنَّـا لمحمَّلون تبعة مـن تبعات هذا الظلـم إذا لم ننصرف إلى تخليص هذا الشـعر من شـوائبه المتشـبِّثة به؛ فنُظهـر عن معدِنه الفذِّ الأصيل بنقده « نقدًا يتناول النصَّ الشـعريَّ نفسَــه في لفظه، ومعناه، ونحوِه، وعروضِه، وقافيتِه، هذا النقد لازمٌ لأنه... يستطيع أن يظهرنا على قيمة ما يُروى لنا من الشعر: أصحيح هو أم غير صحيح ؟ »[٣]؛ إذا لم نفعل ذلك انسـقنا إلى أحكام حائفةٍ كحكم الأصمعيّ المارّ، أو إلى تكلُّف يبتغي رِفعةَ شـعر المخضرمين بأسـلوبٍ خطابيّ لا يفضي إلى شيءٍ ذي بالٍ في مجـال العلم، كقول بعض البـاحثين عن قصيدة (مـا بال عينك) الموضوعة المتهافتة: « وهذه المرثيَة تدلُّ على روح العبقريَّة الشـعريَّة الطيِّعـة العفويَّة [!]، القادرةِ على التصرُّف في اللغة والصورة الشعرية[!] »[٤].

ولعلنا نقترب شـيئًا من معرفة هذا الرجل الذي صنع هؤلاء المراثي ونَحَلهنَّ حسَّــان إذا عرفنا أنه صنع شعرًا آخر على منوالهنَّ نحله حسَّان أيضًا؛ فقد أخرج محمد بن إسحاق ، ومِن

(١) حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام، لأستاذنا الدكتور سعيد حسين منصور ص١٣٣ (دار القلم، الكويت، ط١٩٨١/١م).

(٢) انظر هذا الرأي أيضًا في: تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، للدكتور شوقي ضيف ص٨٠-٨١ (دار المعارف بمصر، ط٧).

(٣) في الأدب الجاهلي، للدكتور طه حسين ص٢٧١ (مطبعة فاروق الأول، القاهرة، ط١٣٥٢/٣هـ).

(٤) قصيدة الرثاء ـ جذور وأطوار: دراسة تحليلية في مراثي الجاهلية وصدر الإسلام، للدكتور حسين جمعة ص٢٨٠ (دار النمير، دمشق، ط١٩٩٨/١م). واقرأ رأيًا في هذه القصيدة نحو ذلك للدكتور شوقي ضيف إذ يقول: « ومن أرقِ ما رثي به قصيدةُ حسَّان التي يستهلها بقوله: ما بال عيني... » البيت (تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي ص٥٢).

طريقه الطبريُّ في «الأمم والملوك»[١]، وابنُ هشامٍ في «السيرة»[٢] حديثَ أمِّ مَعْبَدٍ في وصف النبيِّ ﷺ، وفيه: فقال رجل من الجنّ:

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... رَفِيقَيْنِ حَلاَّ خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلاَهَا بِالهُدَى، وَاغْتَدَوْا بِهِ ... فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ ... وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ

ولا بأس في هذه الرواية حتى الآنَ لو أغضينا عن نسبتها إلى الجنّ؛ ولكنِ البأسُ في الرواية التي رواها ابنُ سعدٍ عن الواقديّ بإسناده، فذكر البيت الأول، ثم ذكر خمسة أبيات أخرى، ثم قال: « قال: وأصبح القومُ قد فقدوا نبيَّهم، وأخذوا على خيمتي أمّ معبد حتى لحقوا النبيّ ﷺ، قال: فأجابه حسَّان بن ثابت... »[٣]؛ وهنا دسَّ داسٌّ هو صاحبنا لا نكاد نرتاب في ذلك؛ أبياتًا كذَبها على حسَّان من جنس أبيات المراثي التي كَذبها على حسَّان، وهذه الأبيات المكذوبة لم يذكرها الطبريُّ في روايته، ولا ابنُ هشام، مع أن روايتهما عن ابن إسحاق الذي يجنح إلى إثبات مثل هذا الشعر وروايته؛ ولو قيل: لعلَّ ابن هشام حذفها في «تهذيبه» لأُجيبَ بأن صاحب نسخة ابن إسحاق عند الطبري روى الخبر ولم يذكر من الأبيات الموضوعة شيئًا أيضًا.

وأقلُّ تأمُّلٍ في هذا الشعر المكذوب يملأ النفس يقينًا أنه يوشك أن يكون تتمَّةً وذيلاً لقصائد الرثاء المفتراة على حسَّان رضِي الله عنه؛ وها أنا أعود الآن إلى بقيَّة الخبر من رواية

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢/٣٨٠.

(٢) السيرة النبوية ٢/٤٨٧.

(٣) انظر: الطبقات الكبير، لابن سعد ١/١٩٨-١٩٩.

الواقديّ، وانظر كيف أدخل الرجل بيتًا من البيتين الآخرين اللذين وردا في رواية ابن إسحاق ولم يذكرهما؛ انظر كيف أدخله في ثنايا هذا الشعر المصنوع ليموّه به: « قال: فأجابه حسَّان بن ثابت، فقال:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ غَابَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ وَقُدِّسَ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَغْتَدِي

تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَزَالَتْ عُقُولُهُمْ وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ

وَهَلْ يَسْتَوِي ضُلاَّلُ قَوْمٍ تَسَلَّعُوا عَمًى، وَهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِي ؟

نَبِيٌّ يَرَى مَا لاَ يَرَى النَّاسُ حَوْلَه وَيَتْلُو كِتَابَ اللهِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ

فَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ فَتَصْدِيقُهَا فِي ضَحْوَةِ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ

لِتَهْنِ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدِّهِ بِصُحْبَتِهِ، مَنْ يُسْعِدِ اللهُ يَسْعَدِ

وَيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُسْلِمِينَ بِمَرْصَدِ »[١]

وهذا الخبر رواه الهيثميُّ في «المَجْمع» مرتيْن، مرةً ليس فيها أبيات حسَّان، وقال: «.رواه الطبرانيُّ، وفيه عبد العزيز بن يحي المدينيّ، ونسبه البخاري وغيرُه إلى الكذب. وقال الحاكم: صدوق. فالعجب منه، وفيه مجاهيل أيضًا »[١]؛ ومرةً بأبيات حسَّان قال فيها: « رواه الطبراني، وفي إسناده جماعةٌ لم أعرفهم »[٢].

فأصل الرواية ساقط، ومتنُها ظاهر النكارة لا يصح إسناده لحسَّان كما سبق. وهل يكون عبد العزيز بن يحيى المدينيُّ هذا هو صاحبُنا الذي وضع المراثي ولا سيَّما وقد ذكروا أنه توفي بعد سنة ثلاثين ومئتين[٣].

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي ٢٧٩/٨.

(٢) مجمع الزوائد ٥٨/٦.

(٣) انظر: تهذيب الكمال ٢١٨/١٨-٢٢٠.

وكنا قد رجَّحنا أن يكون الوضع في النصف الثاني من القرن الثاني أو نحو ذلك ؟ لعله هو، أو لعله أحدُ هؤلاء المجاهيل الذين لم يعرفهم الهيثميّ.

٤

وروى محمد بن حبيب قصيدةً ثمانية أبيات من شعر حسَّان يرثي بها رسول الله ﷺ أن مات عنهم، يقول في أولها:

آلَيْتُ حَلْفَةَ بَرٍّ غَيرِ ذي دَخَلٍ   مِنِّي أَلِيَّةَ بِرٍّ غَيْرِ إِفْنَادِ[١]

ورواها ابن هشام عن محمد بن إسحاق بدليل قوله بعد القصيدة: «عجُز البيت الأول عن غير ابن إسحاق»[٢]. وفي رواية ابن هشام اختلاف عن رواية محمد بن حبيب[٣]، وعن رواية ابن سعد في «الطبقات» التي ماثلت رواية ابن حبيب لفظًا وعددًا غير أنها رُويت من طريقيْن أُخريين غير طريق ابن إسحاق:

الطريق الأولى فيها البيت الثاني، والبيت السابع، والبيت الثامن. قال ابن سعد: «أخبرنا قتيبة بن سعد أبو رجاء البَلْخيّ، أخبرنا ليث بن سعد، عن خالد بن يزيد، عن سعيد يعني ابن أبي هلال، أن حسَّان بن ثابت قال وهو يرثي رسول الله ﷺ:

---

(١) انظر: ديوان حسَّان (تحقيق عرفات) ١/٢٧٢.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ٤/٦٧١.

(٣) انظر التخريج والفروقات.

وَاللهِ مَا حَمَلَتْ أُنْثَى وَلاَ وَضَعَتْ مِثْلَ النَّبِيّ رَسُولِ الأُمَّةِ الهَادِي
أَمْسَى نِسَاؤُكَ عَطَّلْنَ البُيُوتَ فَمَا يَضْرِبْنَ خَلْفَ قَفَا سِتْرٍ بِأَوْتَادِ
مِثْلَ الرَّوَاهِبِ يَلْبَسْنَ المُسُوحَ وَقَدْ أَيْقَنَّ بِالبُؤْسِ بَعْدَ النِعْمَةِ، البَادِي »[١]

والطريق الثانية لابن سعد عن أبي عمرو الشيباني، وفيها الأبيات جميعًا[٢].

وعند النظر في إسناد الطريق الأولى بعين متأخري المحدثين نجده إسنادًا - كما يعبّرون- مشرقًا؛ فهو إسناد متّصلٌ ، ثقاتٌ رواته:

فمحمد بن سعد ثقةٌ[٣].

وقتيبة بنُ سعيد الثقفيُّ وثّقه النسائيُّ وأحمد. روى عن الليث[٤].

والليث بن سعد الفَهْميُّ المصريُّ ثقةٌ ثَبْتٌ، وثّقه أحمد وابنُ مَعين والنَّسائي وغيرهم. روى عن خالد بن يزيد[٥].

وخالد بن يزيد الجُمَحيُّ مولاهم، وثّقه أبو زُرعة والنَّسائي، وقال أبو حاتم: لا بأس به. روى عن سعيد بن أبي هلال[٦].

وسعيد بن أبي هلال الليثيّ، وهو آخر الإسناد في الظاهر، روى عن الصحابي الجليل المعمّر أنس بن مالك، ويقال: مرسل. وأرسل عن جابر. قال أبو حاتم: لا بأس به. وذكره

---

(١) الطبقات الكبير، لمحمد بن سعد ٢/٢٧٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/٢٧٩-٢٨٠.

(٣) انظر: مقدّمة ابن الصَلاح، لعثمان بن الصلاح الشافعي ص٦٦٥ (تحقيق الدكتورة بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة).

(٤) انظر: تهذيب الكمال، للمِزّي ٢٣/٥٢٣.

(٥) انظر: المصدر السابق ٢٤/٢٥٥.

(٦) انظر: المصدر السابق ٨/٢١٠.

ابن حِبَّان في «الثقات»، وعن ابن لَهِيعة أنه ولد بمصر سنة سبعين، ونشأ بالمدينة، ثم رجع إلى مصر في خلافة هشام، وكان الليث يروي عنه. توفي سنة خمس وثلاثين ومئة، أو ثلاث وثلاثين ومئة، أو تسع وأربعين ومئة[١].

وفي هذا الإسناد نكتٌ منها:

١.اتصاله منذ ابن سعدٍ إلى سعيد بن أبي هلال.

٢.ورجاله كلهم ثقاتٌ عُدول.

٣.ومنتهاه بسعيد بن أبي هلال الذي أدرك بعضَ الصحابة، أو أدرك مَنْ أدركهم قولاً واحدًا.

٤.وسعيدٌ هذا « نشأ بالمدينة »، وجالس أبناء الصحابة وإخوانهم وأزواجهم، وسمعهم يتناشدون أشعار حسَّان رضِي الله عنه، ويأسَوْن لوفاة النبيّ ﷺ وحالِهم بعده، فيبكونه ﷺ متعلّلين بما قاله حسَّان في رثائه.

٥.وحسَّان مات متأخِّرًا، فسعيدٌ قريبُ عهد به.

٦.وسعيدٌ لم يروِ من القصيدة إلا ثلاثةَ أبيات، والثلاثةُ نزْرٌ يحفظه كلُّ أحد من العامّة فضلاً عن الخاصَّة؛ إذ قِلَّة المرويّ أدنى إلى إتقانه، وأدعى إلى التصديق به.

فهذا الشعر ذو نسبٍ معروفٍ إلى حسَّان منذ عهد الصحابة، وقد رُوي عن ذلك العهد روايةً صحيحةً سالمةً، وهو أمرٌ نادر الوجود في رواية شعر ذلك الصدر[٢].

أمَّا أن الرواية لم تتصل بحسَّان في ظاهر الإسناد، فهذا شأن التحديث، لا شأنُ رواية

(١) انظر: المصدر السابق ١١/٤٩.

(٢) انظر: مصادر الشعر الجاهلي، للدكتور ناصر الدين الأسد ص٢٧٤.

الشعر؛ لأن العلماء «لم يكونوا يرَوْن في رواية الشعر ما يرونه في رواية الحديث»[١]؛ فتساهلوا شيئًا ما في ذكر كلِّ الرواة، خاصةً فيما علا على طبقة أبي زيد الأنصاري المولود سنة نيِّف وعشرين ومئة، والمتوفى سنة خمس عشرة ومئتين، على أن الدكتور الأسد أثبت اتصال الأسانيد الأدبية من لدن أبي زيد إلى الزمن القديم[٢]، فما بالك وقد صُرِّح في هذا الإسناد برجلين من جيلين سبقا أبا زيد نفسه؟ وهذا ما لم نعهده في الجمهرة الغالبة من شعر الجاهليّة والمخضرمين كما أسلفت.

وماذا عن الأبيات الأخرى سوى هذه الثلاثة؟ أقول ابتداءً: إن هذه الثلاثة دليلٌ على بقيّة القصيدة. ويقوّي من ذلك أن الناقد العدويَّ الذي أملى تعليقًا على رواية ابن حبيب للديوان لم يَرْتَبْ في القصيدة وهو الذي كذَّب غيرَها من مراثي حسَّان وحكم عليها بالصُّنع، كما أنه لم يُنْكر أن تكون في كتاب أبي عمرو الشيبانيّ، وهو الذي أنكر لغيرها أن تكون في كتاب أبي عمرو[٣].

ذلك، وفي الفروقات بين الروايات دليل صحةٍ أيضًا؛ فإن من شأن العرب وقد كانوا يروون أشعارهم شَفاهًا أن يغيّروا أو يبدّلوا بعض اللفظ؛ لاختلاف النقَلَة، وتعدُّدِ الأسماع، وتعاقب الأجيال والأزمنة. ولقد أثبت صدْقَ ذلك ما توصَّل إليه بعض الباحثين في الغرب من نظريَّةٍ أسموها: (نظرية النظم الشفويّ)[٤]، ويظهر هذا التغيير في مثل البيت الأول من المرثية، فقد رواه ابن إسحاق:

---

(١) المصدر السابق ص٢٦٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٢٧٤ وما بعدها.

(٣) مثال ذلك القصيدة التي في ص٢١٠، ٢١١ من الديوان (تحقيق الدكتور سيد حنفي). وترجمة العدوي تراها في: الوافي بالوفيات، للصفدي، خليل بن أيبك ٣٨٧/٧.

(٤) انظر: النظم الشفويّ في الشعر الجاهلي، لجيمز مونرو (ترجمة الدكتور فضل بن عمار العماري، دار الأصالة، الرياض ١٤٠٧هـ).

آلَيْـتُ مَـا فِي جَمِيـعِ النَّـاسِ مُجْتَهِدًا مِـنِّي أَلِيَّـةَ بِـرٍّ غَـيْرِ إِنْفَـادِ

ورواه ابن سعد:

آلَيْـتُ حَلْفَـةَ بَـرٍّ غَـيْرِ ذِي دَخَـلٍ مِـنِّيْ أَلِيَّـةَ حَـقٍّ غَـيْرِ إِفْنَـادِ

والبيت الثاني رواه ابنُ إسحاق:

تَـاللهِ مَـا حَمَلَـتْ أُنْـثَى وَلاَ وَضَعَتْ مِثْـلَ الرَّسُـولِ نَـبِيِّ الأُمَّـةِ الهَـادِي

ورواه ابن سعد:

بِـاللهِ مَـا حَمَلَـتْ أُنْـثَى وَلاَ وَضَعَتْ مِثْـلَ النَّـبِيِّ نَـبِيِّ الرَّحْمَـةِ الهَـادِي

والبيت الثالث رواه ابنُ إسحاق:

وَلاَ بَـرَا اللهُ خَلْقًـا مِـنْ بَرِيَّتِـهِ أَوْفَى بِذِمَّـةِ جَـارٍ أَوْ بِمِيعَـادِ

ورواه ابن سعد:

وَلاَ مَشَى فَوْقَ ظَهْرِ الأَرْضِ مِنْ أَحَدٍ أَوْفَى بِذِمَّـةِ جَـارٍ أَوْ بِمِيعَـادِ

والبيت السادس رواه ابن إسحاق:

يَـا أَفْضَـلَ النَّـاسِ إِنِّي كُنْـتُ فِي نَهَرٍ أَصْبَحْتُ مِنْهُ كَمِثْلِ المُفْرَدِ الصَّادِي

ورواه ابن سعد:

خَـيْرَ البَرِيَّـةِ إِنِّي كُنْـتُ فِي نَهَـرٍ جَارٍ، فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ المُفْرَدِ الصَّادِي

والبيت الأخير رواه ابن إسحاق:

مِثْـلَ الرَّوَاهِـبِ يَلْبَسْـنَ المَبَـاذِلَ قَدْ أَيْقَنَّ بِالبُـؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَـةِ، البَادِي

ورواه ابن سعد:

مِثْلَ الرَّوَاهِـبِ يَلْبَسْـنَ المُسُوحَ وَقَدْ أَيْقَنَّ بِالبُـؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَـةِ، البَادِي

بدَّل الرواةُ كلَّ ذلك في أبياتٍ ثمانيةٍ آيةً على القِدَم والذيوع والصِّحة.

وتأتي القصيدة في لغتها حانيةً منسابةً خاشعةً، وتأتي صورة أمهات المؤمنين المكروبات البائسات، وصورةُ بيوتات النبيّ وقد رآهنَّ حسَّان مقفراتٍ موحشات؛ فيأخذُنا اليقينُ كلَّ مأخذ أن ليس يَعْرِف ذلك أو يقولُه إلا رجلٌ كحسَّان رضِي الله عنه.

وفي القصيدة - على قِصَرِها - طيفٌ من خيال حسَّان حين يستدعي صورة المسوح الشآمية التي رآها في الأيام الخوالي وهو يمرُّ بصوامع الرُّهبان في رحلته إلى الغساسنة. وفي القصيدة نفَسٌ من أنفاسه رضِي الله عنه تُحسُّه وقد وقَفتْهُ الدارُ الخاوية كما وقَفتْهُ من بعدُ وهو يرثي عثمان رضِي الله عنه فيقول:

إنْ تُمْسِ دَارُ بَنِي عُثْمَانَ خَاوِيَةً ... بَابٌ صَرِيعٌ وَبَابٌ مُحْرَقٌ خَرِبُ
فَقَدْ يُصَادِفُ بَاغِي الخَيْرِ حَاجَتَهُ ... فِيهَا، وَيَأْوِي إِلَيْهَا العُرْفُ وَالنَّسَبُ[1]

وفي المرثية قَسَمٌ كان حسَّان قد أقسمه في الجاهلية يومًا، فقال:

إِنِّي وَرَبِّ المُخَيِّسَاتِ وَمَا ... يَقْطَعْنَ مِنْ كُلِّ سَرْبَخٍ جَدَدِ
وَالبُدْنِ إِذْ قُرِّبَتْ لِمَنْحَرِهَا ... حَلْفَةَ بَرِّ اليَمِينِ مُجْتَهِدِ
مَا حُلْتُ عَنْ خَيْرِ مَا عَهِدْتِ وَمَا ... أَحْبَبْتُ حُبِّي إِيَّاكِ مِنْ أَحَدِ[2]

أمَّا قولُه يُشبِّهُ النَّبيَّ ﷺ:

خَيْرُ البَرِيَّةِ إِنِّي كُنْتُ فِي نَهَرٍ ... جَارٍ فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ المُفْرَدِ الصَّادِي

---

(١) ديوان حسَّان (تحقيق الدكتور سيد حنفي) ص٢١٢.

(٢) ديوان حسَّان (تحقيق الدكتور سيد حنفي) ص٢١٢.

فمن تالدِ معانيه، قاله في قديمه مُشبِّبًا:

يَعْتَـادُنِي شَـوْقٌ فَأَذْكُرُهَـا ... مِـنْ غَـيْرِ مَـا نَسَـبٍ وَلاَ صِهْـرِ
كَتَذَكُّـرِ الصَّـادِي وَلَيْـسَ لَهُ ... مَـاءٌ بِقُنَّـةِ شَـاهِقٍ وَعْـرِ[1]

٥

وينسبون له قصيدةً مطلعُها:

يَا عَـيْنُ جُـودِي بِدَمْعٍ مِنْكِ أَسْبَالِ ... وَلاَ تَمَلِّـنَّ مِـنْ سَـحٍّ وَإِعْـوَالِ

وهي في «الطبقات الكبير» عن أبي عمرو الشيباني[2]، ولكن جاء في الديوان برواية ابن حبيب أنها « ليست في كتاب أبي عمرو، ولا كتاب ابن الأعرابي. وقال العدويّ: هي مصنوعة »[3].

ولا خطرَ في التناقض بين مَنْ جعلها في كتاب أبي عمرو ومَنْ لم يجعلها منه؛ لأن المثبت مقدَّمٌ على النافي، فلربما غاب عن النافي جزءٌ من كتاب أبي عمرو، أو ربما ذَهُل عن موضعها من الكتاب.

ولكنَّ ما يُهمُّنا هو حكم العدويّ على القصيدة بالصُّنع. فمَنْ يكون العدويُّ ؟ وماذا يبلغ قدرُ أحكامه ؟

العـدويُّ هو أحمد بن محمد بن حميد القرشي، حجازيٌّ نشأ بالعراق، وكان أديبًا، راويةً، شاعرًا. له من التصانيف: «كتاب أنساب قريش»، و«كتاب المثالب»، و«كتاب الانتصار في

(١) انظر: المصدر السابق ص١٩٠.

(٢) انظر: الطبقات الكبير، لابن سعد ٢/٢٨١.

(٣) ديوان حسَّان (تحقيق الدكتور سيد حنفي) ص٢١٠، ٢١١.

الردِّ على الشعوبية»، و«كتاب فضائل مُضَر»، وكان يتناول جِلَّة الناس[١].

فالعـدويُّ الذي وضـع تعليقةً على الديوان أثبتها المحققان؛ رجلٌ من أهل العلم، له كتب في ضروبٍ مختلفة من المعرفة، وهو نسَّـابة، وراويةٌ، وشاعر؛ وفي هذا دِلالةٌ على حفظه وتوقُّد ذهنه، ومعرفتِه بمخارج الكلام، فهو من أهل الشـأن، وهو فوق ذلك ناقدٌ جريءٌ بلغت به الجراءة أنه « كان يتناول جِلَّة الناس ».

إنــه من أولئـك النفر الذين لهـم « وسـائلُهم في معرفة الشـعر، ومقاييسُـهم النقدية؛ فلهم ذوقهم الشـعريُّ الذي اكتسبوه من طول الدُّربةِ، وحفظ الشـعر، ومعرفةِ أسـاليبه »[٢]. وإنـك واجـدٌ أمثلـةً لذلـك في تعليقاته على الديوان، وواجدٌ له علمًا بشـعر حسَّـان خاصَّـة[٣]. وفي العدوي يصدُق مـا رواه القاليُّ أبو عليّ، قال: قال الزبير « حدثنا محمدُ بن سـلاَّم قال: حدثني يحيى بنُ سعيد القطَّان قال: رُواة الشعر أعقل من رواة الحديث؛ لأنَّ رواة الحديث يردِّدون مصنوعًا كثيرًا، ورواة الشـعر سـاعة يُنشَـدون المصنوع ينتقدونه ويقولـون: هـذا مصنـوع »[٤].

لقـد أفـضى النظـر في نقـد أصول الشـعر إلى التسـليم لأحـكام القدمـاء من أهل العلـم بالشـعر إذا لـم يأت مـا ينقضُها، أو ما لـم يقم مَنْ يخالفهـم بحجته؛ لأن هؤلاء القدمـاء أصـحُّ بصرًا، وأقـرب زمنًا، وهم نظـروا فيما لـم ننظر فيه، واسـتمعوا مَنْ لم نستمع إليـه؛ فنشـأت فيهـم ملكةٌ يحسـنون بها معرفة الشـعر، قال محمد بن سـلام:

---

(١) انظر: ترجمته في : معجم الأدباء - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لياقوت بن عبد الله الحموي ١٣١/٤ (تحقيق مرجليوث، دار المأمون) الوافي بالوفيات، للصفدي ٣٨٧/٧ .

(٢) المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، للدكتور يحيى وهيب الجبوري ص٧٢ (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/١٩٩٧م).

(٣) انظر شواهد على علمه بشعر حسَّان في: الديوان (تحقيق الدكتور سيد حنفي) ص٣٢٥، ٣٥٠.

(٤) كتاب ذيل الأمالي والنوادر، لأبي علي القالي، إسماعيل بن القاسم ص١٠٥ (دار الكتب المصرية، ط٣/٢٠٠٠م).

« قال خلاَّد بن يزيد الباهليّ لخلف.بن حيان أبي مُحرز - وكان خلادُ حسَن العلم بالشعر يرويه ويقوله -: بأي شيءٍ تردُّ هذه الأشعار التي تُروى ؟ قال: أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال: نعم. قال: فلا تُنكرْ أن يعلموا من ذلك أكثرَ مما تعلمُه أنت»(١).

ونحن لم نعلم مخالفًا للعدويّ في حكمه هذا من قولٍ أو رجلٍ، وكانت أحكامه تُعرف، وتقرأ.

« وليس لأحدٍ » - كما يقول ابنُ سلاَّم - « إذا أجمعَ أهلُ العلم والرواية الصَّحيحة على إبطال شيءٍ منه؛ أن يقبل من صحيفةٍ ولا يروي عن صحفيّ »(٢)، يعني: ليس لأحدٍ أن يحكِّم غيرَ أهل العلم بعد حكم أهل العلم.

ولسوف نأخذ بحكم العدويّ ونقبلُه، قناعةً، وإعمالاً لهذه القاعدة الجليلة التي أيّدها حتى بعض من شكَّكَ في الشعر الجاهلي كالمستشرق آلوارْد الذّاهب إلى أن الأقدمين يفوقوننا في هذا النوع من المعرفة(٣).

إنَّ هذه القصيدةَ - كما قال العدويُّ - مصنوعةٌ، وخير الشواهد على صناعتِها صياغتُها الضعيفة الهيّنة كقول صاحبها:

وَلاَ أُزَكِّي عَلَى الرَّحْمَنِ ذَا بَشَرًا لَكِنَّ عِلْمَكَ عِنْدَ الوَاحِدِ العَالِي

ثم من ذا الذي يشير إلى النبيّ العظيم بـ« ذا » من غير حرف التنبيه كأنه يقلّل منه ؟! إنه ليس بصحابيّ.

(١) طبقات فحول الشعراء ٧/١.

(٢) المصدر السابق٤/١.

(٣) انظر: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ص٧٤ (دار العلم للملايين، بيروت ط١/١٩٧٩م). وانظر أيضًا: المستشرقون والشعر الجاهلي، للدكتور يحيى الجبوري ص٣٢.

ومن شواهد الصناعة أيضًا هذا النوعُ من التسميط الذي نعرفه في شعر الخنساء:

حَامِي الحَقِيقَةِ، نَسَّالِ الوَدِيقَةِ، فَكَّاكِ ... العُنَاةِ، كَرِيمٍ، مَاجِدٍ، عَالِي

كَسَّابِ مَكْرُمَةٍ، مِطْعَامِ مَسْغَبَةٍ ... وَهَّابِ عِيدِيَّةٍ، وَجْنَاءَ شِمْلاَلِ

عَفِّ مكاسِبُه، جَزْلٍ مَوَاهِبُهُ ... خَيْرِ البَرِيَّةِ، سَمْحٍ، غَيْرِ نَكَّالِ

وَارِي الزِّنَادِ وَقَوَّادِ الجِيَادِ إِلَى ... يَوْمِ الطِّرَادِ إِذَا شُبَّتْ بِأَجْذَالِ

أقول: نعرفه في شعر الخنساء ولا نعرفُه في شعر حسَّان[1].

٦

ومن المراثي المعزوَّةِ إلى حسَّان بن ثابت رائيةٌ مستهلُّها:

نَبِّ المَسَاكِينَ أَنَّ الخَيْرَ فَارَقَهُمْ ... مَعَ الرَّسول تَوَلَّى عَنْهُمُ سَحَرَا

وهي من رواية محمد بن حبيب للديوان[2]، ومما رواه ابن هشام في «السيرة» عن ابن إسحاق[3]، ومما رواه ابنُ سعدٍ في «الطبقات» عن أبي عمرو الشيباني[4] وإن أُنكر في الديوان أن تكون في كتاب أبي عمرو[5]؛ لأنه قد تقرَّر أن المثبت مقدَّمٌ على النافي في العموم[6].

(١) أنكر العدويُّ قصيدة لحسَّان تقارب هذه المرثية، وقع فيها التسميط، وأخبر أنها مصنوعة، وهي في رثاء عبد الله بن رواحة، منها قوله:

عينيَّ جودا على فارسٍ ... بأَجْرَاعِ مؤتة فالأخرجِ

طويل النجادِ، رفيع العمادِ ... مصاصُ النَّجار من الخزرَجِ

(الديوان، تحقيق الدكتور سيد حنفي ص١١٣). وقد قرأت ديوان حسان فلم أكد أجد التسميط في شعره.

(٢) انظر: ديوان حسَّان (تحقيق الدكتور وليد عرفات) ١/٤٢١.

(٣) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ٤/٦٧٠.

(٤) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨١.

(٥) انظر: ديوان حسَّان (تحقيق الدكتور سيد حنفي) ص٢١٠.

(٦) انظر تفصيل هذه القاعدة في توثيق مراثي أبي بكر من هذه الدراسة ص٤٦.

قــال في «الدِيوان»: « وليســت في كتاب أبي عمرو، ولا رواهــا ابن الأعرابيّ. قال العدويُّ: أحسبها مصنوعة »(١).

قال الدكتور إحسان النصّ: « على أنني أرجّح صحّة الأبيات الرائية؛ لأن أسلوبها لا يباين أسلوب حسَّان، ولأنها تصوّر موقفَ الرَّسول - عليه الصلاة والسلام - من حسَّان، وبِرَّه به. وليس فيها ما يدعو إلى الشكِّ في نسبتها إليه »(٢).

أمَّــا أنَّ أسـلوبها لا يباين أسـلوب حسَّــان فحجَّةٌ يحـقُّ لصاحبها الاستمســاكُ بها؛ فالقصيــدة تُشــاكه أسـلوبَ حسَّــان رضِي الله عنه وتشـبهُه؛ إلا أنــه يحيك في النفس بيــتٌ مــن رواية ابن إســحاق لـم يروه أبو عمــروٍ أخاف أن يكون ممــا دُخل على ابن إســحاق هو قوله:

وَاقْتُسِـمَ الـفَيْءُ دُونَ النَّـاسِ كُلِّهِـمُ ... وَبَـدَّدُوهُ جِهَـارًا بَيْنَهُـمْ هَـدَرَا

يقصد الإمامةَ والحُكم.

وأمَّــا أنهــا تُصــوِّر حَــدَبَ الرَّســول ﷺ على حسَّــان، فحُجَّــة لا تقــوم بمثل هذا الترجيــح.

وأمَّا أنها ليس فيها ما يدعو إلى الشك في نسبتها إليه، فإنَّ فيها دعوى من الشك عريضةً قــد تنقـض كل حجة؛ هي قول العدويّ: « أحســبها مصنوعة »؛ إذ ما الذي حمل العدويَّ على الشـك في المرثيّــة ؟ أهــو أســلوبُها ؟ لا أظن ذلك فهي قيّمة الأســلوب. أم أنــه شيءٌ آخرُ من خارجها، من رواتها ؟ لا أدري، ولكنّي أزعم أن العدوي ما كان ليسكت عن كثير من شعر

(١) ديوان حسَّان (تحقيق الدكتور سيد حنفي) ص٢١٠.

(٢) حسَّان بن ثابت: حياته وشعره ص٢٥٤.

حسَّان ثم ينطق بالرِّيبة في هذه القصيدة بعينها إلا لسبب وجيه كالطعن في خلافة أبي بكرٍ في آخر بيتين منها، ولكنّي مع زعمي هذا لا أجزم برأي في أمر هذه القصيدة مادام العدويُّ نفسُه تورَّع عن الجزم في أمرها برأي. وخير وُجهة إخالها فيها هي وجهة التوقُّف في نسبتها إلى حسَّان، والتوقُّف في نفيها عنه. والتوقف ليس بعيب، بل العجلة العيب، ولنا في قومٍ من مَهَرة النقَّاد أسوةٌ حسنة، قال محمد بن سلاّم: «وكان أبو طالب شاعرًا جيِّد الكلام، أبرعُ ما قال قصيدتُه التي مدح فيها النبيَّ ﷺ:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ   رَبِيعُ اليَتَامَى، عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

وقد زِيد فيها وطُوِّلَت، ورأيتُ في كتاب يوسف بن سعدٍ صاحبِنا، منذ أكثر من مئة سنة: وقد علمتُ أنْ قد زاد الناسُ فيها، ولا أدري أين منتهاها. وسألني الأصمعيُّ عنها، فقلت: صحيحةٌ جيّدةٌ ! قال: أتدري أين منتهاها ؟ قلتُ: لا»[١] !

٧

ذلك، وفي «أنساب الأشراف» بيتان ألحقهما البَلاذُري بحسَّان:

يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَيهِ حِينَ ضَمَّنَهُ   بَطْنَ الضَّرِيحِ عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسِ
مَادَتْ بِيَ الأَرْضُ حَتَّى كِدْتُ أَدْخُلُهَا   بَعْدَ النَّبِيِّ رَسُولِ اللهِ، وَالآسِي[٢]

لا نستطيع البتَّ في أمر نسبتهما إلى حسَّان بشيء؛ لأننا لا نعرف أصلَهما، وإنهما لَبيتان اثنان وحسب لا يصلحان أن نقيسَهما.

(١) طبقات فحول الشعراء ١/٢٤٤-٢٤٥.

(٢) أنساب الأشراف، للبَلاذُري ١/٥٩٣.

٨

وفي «الحماسة المغربيَّة» بيتان آخران منسوبان لحسَّان لا ندري عن أصلهما، ولا نقطع فيهما برأي لأنهما بيتان كذَيْنك البيتين، ولتأخر الجراويّ صاحب الحماسة المتوفى سنة تسع وستمئة، والبيتان قوله:

إِلَى صَلَوَاتِ اللهِ تَتْرَى وَرَحْمَةً ... تَزِيدُ عَلَى مَنْ طَابَ حَيًّا وَمَيِّتَا
عَلَى مَنْ يُنَادَى لِلصَّلاَةِ بِذِكْرِهِ ... إِذَا مَا دَعَا اللهَ المُنَادِي فَأَسْمَعَا[1]

٩

وفي مضافات الديوان أن حسَّان قال في يوم دَفْن النبيّ ﷺ:

أَلاَ دَفَنْتُمْ رَسُولَ اللهِ فِي سَفَطٍ ... مِنَ الأَلُوَّةِ وَالكَافُورِ مَنْضُودِ؟![2]

ولكنني رأيت عند ابن ناصر الدين الدمشقيّ شيئًا قريبًا من هذا، قال: «رُوي أن أعرابيًا شهد دفن رسول الله ﷺ فقال:

هَلاَّ دَفَنْتُمْ رَسُولَ اللهِ فِي سَفَطٍ ... مِنَ الأَلُوَّةِ أَحْوَى مُلْبَسًا ذَهَبَا
أَوْ فِي سَحِيقٍ مِنَ المِسْكِ الذَّكِيِّ وَلَمْ ... تَرْضَوْا لِجَنْبِ رَسُولِ اللهِ مُتَّرِبَا
خَيْرَ البَرِيَّةِ، أَتْقَاهَا، وَأَكْرَمَهَا ... عِنْدَ الإِلَهِ إِذَا مَا يُنْسَبُونَ أَبَا

فقال أبو بكر: إني لأرجو أن يغفر الله لك بما قُلتَ، إلا أنَّ هذه سُنَّتُنا»[3].

* * *

(١) انظر: الحماسة المغربية، للجراويّ ٢/٧٨٣.

(٢) انظر: ديوان حسَّان (تحقيق الدكتور وليد عرفات) ١/٤٦٩ نقلًا من لسان العرب (ألا).

(٣) سلوة الكئيب بوفاة الحبيب، لابن ناصر الدين الدمشقي ص١٦٦-١٦٧.

الفصل الثالث

تَوْثِيقُ مَرَائِي
مَنْ لَهُم غَيْرُ مَرْئِيَة

رضِي الله عنهم

(١٤)

كَعْبُ بنُ مَالِكٍ: [من المتقارب] *

١ يَا عَيْنُ فَابْكِي بِدَمْعٍ ذَرَى ... لِخَيْرِ البَرِيَّةِ وَالمُصْطَفَى

٢ وَبَكِّي الرَّسولَ، وَحُقَّ البُكَاءُ ... عَلَيْهِ، لَدَى الحَرْبِ عِنْدَ اللِّقَا

٣ عَلَى خَيْرِ مَنْ حَمَلَتْ نَاقَةٌ ... وَأَتْقَى البَرِيَّةِ عِنْدَ التُّقَى

٤ عَلَى سَيِّدٍ مَاجِدٍ جَحْفَلٍ ... وَخَيْرِ الأَنَامِ، وَخَيْرِ اللُّهَا(١)

٥ لَهُ حَسَبٌ فَوْقَ كُلِّ الأَنَا ... مِ مِنْ هَاشِمٍ ذَلِكَ المُرْتَجَى

٦ نُخَصُّ بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِهِ ... وَكَانَ سِرَاجًا لَنَا فِي الدُّجَى

٧ وَكَانَ بَشِيرًا لَنَا مُنْذِرًا ... وَنُورًا لَنَا ضَوْؤُهُ قَدْ أَضَا

٨ فَأَنْقَذَنَا اللهُ فِي نُورِهِ ... وَنَجَّى بِرَحْمَتِهِ مَنْ لَظَى

***

* التخريج: القصيدة في الطبقات الكبير لابن سعد ٢/٢٨٢؛ وهي مما أُقحم في مطبوعة إمتاع الأسماع ١٤/٥٩٦، وليست من الإمتاع في شيء؛ فهي منقولة عن الطبقات الكبير نقلاً.

(١) مجد الرجل: عظم كرمه فهو ماجد ومجيد (أساس البلاغة: مجد). والرجل الجحفل: العظيم القدر (تاج العروس: جحفل). واللها: أفضل العطاء وأجزله، الواحدة لُهْية ولهوة (المحيط في اللغة، للصاحب بن عباد: لهو، تحقيق محمد حسن آل ياسين، دار عالم الكتب، بيروت ط١/١٤١٤هـ).

(١٥)

عَلِيُّ بنُ أَبِي طالبٍ: [من الطويل] *

١ أَمِنْ بَعْدِ تَكْفِينِ النَّبِيِّ وَدَفْنِهِ ... بِأَثْوَابِهِ آسَى عَلَى مَيِّتٍ ثَوَى
٢ رُزِينَا رَسُولَ اللهِ فِينَا فَلَنْ نَرَى ... بِذَلِكَ عَدْلاً مَا حَيِينَا مِنَ الوَرَى
٣ فَكَانَ لَنَا كَالحِصْنِ مِنْ دُونِ أَهْلِهِ ... لَهُ مَعْقِلٌ حِرْزٌ حَرِيزٌ مِنَ العِدَى
٤ وَكُنَّا بِرُؤْيَاهُ نَرَى النُّورَ وَالهُدَى ... صَبَاحَ مَسَاءَ رَاحَ فِينَا أَوْ اغْتَدَى
٥ فَقَدْ غَشِيَتْنَا ظُلْمَةٌ بَعْدَ مَوْتِهِ ... نَهَاراً، فَقَدْ زَادَتْ عَلَى ظُلْمَةِ الدُّجَى
٦ فَيَا خَيْرَ مَنْ ضَمَّ الجَوَانِحُ وَالحَشَا ... وَيَا خَيْرَ مَيْتٍ ضَمَّهُ التُّرْبُ والثَّرَى
٧ كَأَنَّ أُمُورَ النَّاسِ بَعْدَكَ ضُمِّنَتْ ... سَفِيْنَةَ مَوْجٍ فِي البَحْرِ قَدْ سَمَا [كذا] (١)
٨ وَضَاقَ فَضَاءُ الأَرْضِ عَنْهُمْ بِرَحْبِهِ ... لِفَقْدِ رَسُولِ اللهِ إِذْ قِيلَ قَدْ مَضَى
٩ لَقَدْ نَزَلَتْ بِالمُسْلِمِينَ مُصِيبَةٌ ... كَصَدْعِ الصَّفَا لاَ شَعْبَ لِلصَّدْعِ فِي الصَّفَا (٢)
١٠ فَلَنْ يَسْتَقِلَّ النَّاسُ تِلْكَ مُصِيبَةً ... وَلَنْ يَجْبُرُوا العَظْمَ الَّذِي مِنْهُمُ وَهَى
١١ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ لِلصَّلاَةِ يَهِيجُهُ ... بِلاَلٌ وَيَدْعُو بِاسْمِهِ كُلَّمَا دَعَا
١٢ وَيَطْلُبُ أَقْوَامٌ مَوَارِيثَ هَالِكٍ ... وَفِينَا مَوَارِيثُ النُّبُوَّةِ وَالهُدَى

***

* التخريج: جعلتُ مخطوطة أنوار العقول من أشعار وصيّ الرّسول، المنسوب إلى عليّ بن أبي طالب، ورقة ٤ (المكتبة البريطانية: OR 6578/2) أصلاً لهذه القصيدة؛ وهي في الزّهرة ٢/٥٠٧.

٢. في الأصل: «وفينا رسول...» تصحيف صوّبْتُه من الزّهرة.

٣. في الزّهرة: «وكان... * له معقل فينا حريز...».

٧. في الزّهرة: «سفينة نوح البحر، والبحر قد طما».

١٠. في الزّهرة: «ولن يجبر العظم الكسير إذا وهى».

١٢. في الزّهرة: «ولله ميراث...».

(١) العجُز مضطرب الوزن.

(٢) الشَّعب: الجمع والتفريق، من الأضداد (اللسان: شعب)، وهو هنا بمعنى الجمع والإصلاح.

(١٦)

عليُّ بنُ أبي طالِب: [من الكامل] *

١ نَفْسِي عَلَى زَفَرَاتِهَا مَحْبُوسَةٌ   يَا لَيْتَهَا خَرَجَتْ مَعَ الزَّفَرَاتِ
٢ لاَ خَيْرَ بَعْدَكَ فِي الحَيَاةِ وَإِنَّمَا   أَبْكِي مَخَافَةَ أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي
٣ هَلْ يَدْفَعُ الدِّرْعُ الحَصِينُ مَنِيَّةً   يَوْمًا إِذَا حَضَرَتْ لِوَقْتِ مَمَاتِ
٤ إِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مُجَمَّعٍ   يَوْمًا يُوَلِّ لِفُرْقَةٍ وَشَتَاتِ
٥ يَا أَيُّهَا الدَّاعِي وَمَنْ بِهِ   كَشَفَ الإِلَهُ رَوَاكِدَ الظُّلُمَاتِ[1]
٦ أَطْلِقْ فَدَيْتُكَ لابْنِ عَمِّكَ أَمْرَهُ   وَارْمِ عِدَاتَكَ مِنْهُ بِالجَمَرَاتِ
٧ فَالمَوْتُ حَقٌّ، وَالمَنِيَّةُ شِرْبَةٌ   تَأْتِي إِلَيْهِ فَبَادِرِ الزَّكَوَاتِ

* * *

* التخريج: القصيدة في مخطوطة أنوار العقول (المكتبة البريطانية، ورقة ١١).

(١) صدر البيت مضطرب الوزن، ولو قيل مثلًا: « يا أيها الداعي الكريم ومن به » لاستقام.

(١٧)

كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: [من الطويل] *

١ وَبَاكِيَـةٍ حَـرَّى تَحَـرَّقُ بِالبُـكَا ... وَتَلْطِـمُ مِنْهَـا خَدَّهـا وَالمُقَـلَّدَا(١)

٢ عَلَى هَالِـكٍ بَعْـدَ النَّـبِيِّ مُحَمَّـدٍ ... وَلَـوْ عَدَلَـتْ لَـمْ تَبْـكِ إِلاَّ مُحَمَّـدَا

٣ فَلَسْـتُ بِبَـاكٍ بَعْـدَ فَقْـدِ مُحَمَّـدٍ ... فَقِيـدًا، وَإِنْ كَانَ القَرِيـبَ المُسَـوَّدَا

٤ فُجِعْنَـا بِخَـيْرِ النَّـاسِ حَيًّـا وَمَيِّتًـا ... وَأَدْنَـاهُ مِنْ أَهْـلِ السَّـمَاوَاتِ مَقْعَدَا

٥ وَأَعْظَمِـهِ فَقْـدًا عَلَى كُلِّ مُسْـلِمٍ ... وَأَكْرَمِـهِ فِي النَّـاسِ كُلِّهِـمُ يَـدَا

٦ [لَقَدْ أَوْرَثَـتْ أَخْلاَقُهُ المَجْدَ وَالتُّقَى ... فَلَـمْ تَلْقَـهُ إِلاَّ رَشِـيدًا وَمُرْشِـدَا]

٧ مَـتَى تَـنْزِلُ الأَمْـلاَكُ بِالـوَحْيِ بَعْدَهُ ... عَلَيْنَـا، إِذَا مَـا اللَّبْسُ فِينَا تَـرَدَّدَا(٢)

٨ إِذَا كَانَ مِنْـهُ القَـوْلُ كَانَ مُوَفَّقًـا ... وَإِنْ كَانَ وَحْيًـا كَانَ نُـورًا مُجَدَّدَا

٩ جَـزَى اللهُ عَنَّـا رَبُّنَا خَـيْرَ مَا جَزَى ... نَـبِيَّ الهُـدَى الدَّاعِي إِلَى الحَـقِّ أَحْمَدَا

* * *

* التخريج: جعلتُ الاكتفا ٢/٧٥ أصلاً لهذه القصيدة: وهي في ديوانه الذي جمعه العاني ص١٩٨ منقوصةً الأبيات: ٣، ٧-٩ وهو ينقل عن الذخائر والأعلاق للإشبيلي ص٢٢٣؛ وفي الزَّهرة ٢/٥٠٩ الأبيات: ١، ٢، ٤، ٥، ٨، ٦؛ وفي سبل الهدى والرشاد ١٢/٢٨٥ الأبيات: ١، ٢، ٤-٦.

١. في الزَّهرة: « ونائحة... * وتلطم... ». وفي الذخائر: «... حرَّاء تحرق... ». وفي السبل: «... حراء تُحزن... ».

٢. في الذخائر والسبل: « ولو علمت... ». وفي الزَّهرة: « ولو عقلت... ».

٤. في الذخائر والسبل: «... من رب البرية مقعدا ».

٥. في الذخائر والسبل: « وأفظعهم... * وأعظمهم... ». وفي الزَّهرة: « وأعظمهم في الناس... ».

٦. البيت زائد في الزَّهرة، والذخائر، والسبل في هذا الموضع. وفي الزَّهرة: « وقد وازنت... * فلن تلقه... ». وفي السبل: « لقد ورَّثت... »

٨. في الزَّهرة: « وإن كان حيًّا... » تحريف.

---

(١) حرَّى: عطش، فَعْلى من الحر، تأنيث حَرَّان، وهما للمبالغة (تاج العروس: حرر). والمقلد: موضع القلادة، وهو العنق (تاج العروس: قلد).

(١٨)

عَمرُو بنُ العَاص: [من الطويل] *

١ أَتَـاني وَرَحْـلِي فِي عُمَـانَ مُصِيبـةٌ فَبِـتُّ بِعَـيْنٍ طَرْفُها طَـرْفُ أَرْمَـدِ
٢ غَـدَاةَ نَـعَى النَّـاسُ النَّـبِيَّ مُحَمَّـدًا فَأَعْـزِزْ عَلَيْنَـا بِالنَّـبِيِّ مُحَمَّـدِ !
٣ فَقَدْنَـا بِـهِ وحْيَ السَّـمَاءِ، وَنِعْمَـةً تَـرُوحُ عَلَيْنَـا بِالمُـرادِ، وَتَغْتَـدِي
٤ وَأَوْحَـش مِنْـه مِنْـبَرٌ كَانَ زِينَـةً وَمَسْجِدُهُ وَحْشٌ، [فَيَا] خَيْرَ مَسْجِدِ
٥ فَلَـوْ كُنْـتُ يَوْمًـا شَـاهِدًا لِوَفَاتِـهِ لَمَسَّـتْ تُرَابًـا مِنْ ضَرِيحَتِـهِ يَـدِي
٦ بِـإِذْنِ يَـرَاهُ أَهْلُـهُ وَمُكِيـدُهُ أَسُودُ بِهَا مَا عِشْـتُ يَوْمِي وَفِي غَدِي
٧ كَمَـا نَالَهَـا مِنْـهُ المُغِـيرةُ خُدْعَـةً وَمَـا أَنَـا دُونَ الطَّائِـفِيِّ الحَفَيْـدَدِ[1]

***

* التخريج: القصيدة في الاكتفا ٥٦/٢ - ٦٦، ولم أرها في غيره.

٤. في الأصل: «... فيها خير مسجد» تحريف يختل به الوزن.

٧. في الأصل: «... الجفيدد» بالجيم المعجمة التحتانية، أظنُّه تصحيفًا؛ إذ لم أجد لها معنى.

(١) الحفيدد: مادة (حفد) تدل على السرعة والخفة (لسان العرب: حفد)، وكان عمرٌو والمغيرةُ بن شعبة كلاهما من دهاة العرب، ومما يروى عن ابن إسحاق أن المغيرة كان يدّعي أنه أحدثُ الناس عهدًا برسول الله ﷺ، ويقول: أخذت خاتمي فألقيته في القبر، وقلت: إن خاتمي قد سقط، وإنما طرحته عمدًا لأَمَسَّ رسول الله ﷺ فأكون آخر الناس به عهدًا (تاريخ الأمم والملوك ٤١٢/٣) وقد أنكر ذلك بعض الصحابة (انظر: الاكتفا ٦٦/٢).

(١٩)

عليُّ بنُ أبي طالِب: [من مجزوء الكامل]*

١ كُنْتَ السَّوَادَ لِنَاظِرِي فَبَكَى عَلَيكَ النَّاظِرُ
٢ مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلْيَمُتْ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أُحَاذِرُ

* * *

* التخريج: البيتان في مخطوطة أنوار العقول (المكتبة البريطانية، ورقة ٢٠).

(٢٠)

عُمَرُ بنُ الخطَّاب: [من الطويل] *

١ لَعَمْرِي لَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّكَ مَيِّتٌ وَلَكِنَّمَا أَبْدَى الذِي قُلْتُهُ الجَزَعْ
٢ وَقُلْتُ: يَغِيبُ الوَحْيُ عَنَّا لِفَقْدِهِ كَمَا غَابَ مُوسَى ثُمَّ يَرْجِعْ كَمَا رَجَعْ(١)
٣ وَكَانَ هَوَايَ أَنْ تَطُولَ حَيَاتُهُ وَلَيْسَ لِحَيٍّ فِي بَقَا مَيِّتٍ طَمَعْ
٤ فَلَمَّا كَشَفْنَا البُرْدَ عَنْ حُرِّ وَجْهِهِ إِذَا الأَمْرُ بِالجَذْعِ المُوعِبِ قَدْ وَقَعْ
٥ فَلَمْ تَكُ لِي عِنْدَ المُصِيبَةِ حِيلَةٌ أَرُدُّ بِهَا أَهْلَ الشَّمَاتَةِ وَالقَذَعْ
٦ سِوَى إِذْنِ اللهِ الَّذِي فِي كِتَابِهِ وَمَا أَذِنَ اللهُ العِبَادَ بِهِ يَقَعْ
٧ وَقَدْ قُلْتُ مِنْ بَعْدِ المَقَالَةِ قَوْلَةً لَهَا فِي حُلُوقِ الشَّامِتِينَ بِهِ بَشَعْ
٨ أَلاَ إِنَّمَا كَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ إِلَى أَجَلٍ وَافَى بِهِ المَوْتُ فَانْقَطَعْ
٩ نَدِينُ عَلَى العِلاَّتِ مِنَّا بِدِينِهِ وَنُعْطِي الَّذِي أَعْطَى، وَنَمْنَعُ مَا مَنَعْ
١٠ وَوَلَّيْتُ مَحْزُونًا بِعَيْنٍ سَخِينَةٍ أُكَفْكِفُ دَمْعِي، وَالفُؤَادُ قَدِ انْصَدَعْ
١١ وَقُلْتُ لِعَيْنِي: كُلُّ دَمْعٍ ذَخَرْتِهِ فَجُودِي بِهِ؛ إِنَّ الشَّجَى لَهُ دَفَعْ

* * *

---

* التخريج: القصيدة في الاكتفا ٢/٤٨-٤٩، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٣)، والروض الأُنُف للسُّهَيلي، عبد الرحمن بن عبد الله ٥٧٨/٧ (تحقيق عبد الرحمن الوكيل، مكتبة ابن تيمية، القاهرة).

(١) ضرورة جزم «يرجع» هنا قبيحةٌ جدًّا.

(٢١)

عُمَرُ بنَ الخطَّاب: [من الكامل] *

١ مَـا زِلْتُ مُـذْ وُضِـعَ الفِـرَاشُ لِجَنْبِهِ ... وَثَـوَى، مَرِيضًـا، خَائِفًـا أَتَوَقَّـعُ

٢ شَـفَقًا عَلَيْـهِ أَنْ يَـزُولَ مَكَانُـهُ ... عَنَّـا، فَنَبْـقَى بَعْـدَهُ نَتَفَجَّـعُ

٣ نَفْـسِي فِـدَاؤُكَ، مَـنْ لَنَـا فِي أَمْرِنَـا ... أَمْ مَـنْ نُشَـاوِرُهُ إِذَا نَتَوَجَّـعُ

٤ وَإِذَا تَحُـلُّ بِنَـا الحَـوَادِثُ مَـنْ لَنَـا ... بِالـوَحْيِ مِـنْ رَبٍّ رَحِيـمٍ يَسْـمَعُ

٥ لَيْـتَ السَّـمَاءَ تَفَطَّـرتْ أَكْنَافُهَـا ... وَتَنَاثَـرَتْ مِنْهَـا النُّجُـومُ الطُّلَّـعُ

٦ لَمَّـا رَأَيْـتُ النَّـاسَ هَـدَّ جَمِيعَهُـمْ ... صَـوْتٌ يُنَـادِي بِالنَّـعِيِّ فَيُسْـمَعُ

٧ وَسَـمِعْتُ صَوْتًـا قَبْـلَ ذَلِـكَ هَـدَّنِي ... عَبَّـاسُ يَنْعَـاهُ بِصَـوْتٍ يَقْطَـعُ

٨ فَلْيَبْكِـهِ أَهْـلُ المَدَائِـنِ كُلِّهَـا ... وَالمُسْـلِمُونَ بِكُـلِّ أَرْضٍ تَجْـزَعُ

* * *

* التخريج: جعلتُ الذخائر والأعلاق للإشبيلي ص٢٢١ – ٢٢٢ أصلاً لهذه القصيدة؛ وهي في سبل الهدى والرشاد ٢٨٧/١٢؛ وفي أنساب الأشراف ٩٥٢/١ الأبيات: ١، ٢، ٨، ٣، وفي الزّهرة ٥٠٧/٢ الأبيات: ١-٤، وفي جمهرة أشعار العرب البيت الأول.

١. في أنساب الأشراف: «... لجثته» ! تصحيف، وفي الزُّهرة: «... لجسمه».

٢. في أنساب الأشراف: «... فيبقى بعده التوجع»، وفي سبل الهدى «... بعده نتوجع».

٣. في سبل الهدى: «أو من... إذن نترجَّع».

٤. في سبل الهدى: «وإذا تحدثنا...».

٥. في سبل الهدى: «وتناثرت فيها...».

٧. في سبل الهدى: «... بصوت يقطع».

٨. في أنساب الأشراف: «... كلهم»، وفي سبل الهدى: «... تجدع».

(٢٢)

عَمْرُو بنُ العَاص: [من الكامل] *

١ يَـا قُـرَّ إِنَّـكَ لاَ مَحَالَـةَ مَيِّـتٌ ... يَوْمًـا، وَإِنَّـكَ بَعْـدَ مَوْتِـكَ رَاجِـعُ(١)
٢ إِنْ كَانَ أَوْدَى بِالنَّـبِيّ مُحَمَّـدٍ ... صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْـهِ دَهْـرٌ فَاجِـعُ(٢)
٣ فَـاللهُ حَيٌّ لاَ يَمـوتُ، وَدِينُنَـا ... دِيـنُ النَّـبِيّ، وَلِلرِّجَـالِ مَصَـارِعُ
٤ لَيْـسَ الخَلِيفَـةُ تَـارِكًا لِزَكَاتِكُـمْ ... مَا دَامَ سَـلْعٌ فِي البَسِـيطِ وَفَـارِعُ(٣)
٥ إِنَّ الَّـتِي مَنَّتْـكَ نَفْسُـكَ خَالِيًـا ... مِمَّـا تُؤَمِّلُـهُ؛ سَرَابٌ قَاطِـعُ
٦ إِنْ تَمْنَعُوهَـا تَأْتِكُـمْ مَبْثُوثَـةً ... قُـبَّ البُطُونِ، مِنَ الفِجَـاجِ طَوالِعُ(٤)
٧ يَعْلُـونَ مِـنْ عُلْيَـا هَـوَازِنَ نِهْيَهَـا ... فِيهَـا المَنِيَّـةُ والسِّـمَامُ النَّاقِـعُ(٥)
٨ وَاعْلَـمْ بِـأَنَّ لِـكُلِّ سَـاعٍ سَـعْيَهُ ... هَـذَا لَعَمْـرُ أَبِيـكَ أَمْـرٌ جَامِـعُ

* * *

---

* التخريج: جعلتُ كتاب الرِّدَّة لابن أعثم (المنسوب للواقديّ) ص٩٧ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي مِنَح المِدَح ص٢٠١، ٢٠٢، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٠) الأبيات: ١، ٤، ٢، ٣، ٥؛ وقد أخلَّت مطبوعة الإمتاع بهذه المرثية فيما أخلَّت به!

٢. في مخطوطة الإمتاع: «... وهو فاجع» تصحيف.

٣. في منح المدح ومخطوطة الإمتاع: «... وللجُنوبِ مصارع».

٤. في منح المدح: «... تاركًا من قاتلكم *... سلعٌ والبناءُ وفارع»، وفي مخطوطة الإمتاع: «... تاركًا صدقاتكم *... سلعٌ ذو البكاء وفارع».

٥. في مخطوطة الإمتاع: «إن الذي... »، وفيها وفي منح المدح: «... سراب لامع».

---

(١) هو قُرَّة بن سلمة بن هبيرة القُشيري، وكان عمرو يظنُّه في زمرة المرتدين (الرِّدَّة ص٦٩، ٧٩).

(٢) أودى به الدهرُ: أهلكه وذهب به (لسان العرب: ودي)

(٣) السُّلوع: شقوقٌ في الجبال، وحداها سَلْع. وسلعٌ: جبل شهير بسوق المدينة (معجم البلدان، لياقوت الحموي (سلع) دار الفكر، بيروت). والفارع: المرتفع العالي. وفارعٌ: اسم أُطُم، وهو حصن بالمدينة (معجم البلدان: فارع).

(٤) قُبّ: جمع أَقبّ، وهو الفرس إذا لحقت خاصرتاه بحالبيه، والخيل القُبُّ: الضوامر (تاج العروس: قبب). والفج: الطريق الواسع بين جبلين، وهو أوسع من الشعب (لسان العرب: فجج).

(٥) النِّهْيُ والنِّهِيُّ: الموضع الذي له حاجزٌ يَنْهَى الماء أن يفيض منه. وقيل: هو الغدير في لغة أهل نجد (لسان العرب: نهي). والسِّمام: جمع سُمّ. والسُّم الناقع: البالغ القاتل (لسان العرب: نقع).

(٢٣)

كَعْبُ بنُ مَالِكٍ: [من المتقارب] *

١ أَلاَ انْعِ النَّبِيَّ إِلَى العَالَمِينَا جَمِيعًا [وَ] لاَ سِيَّمَا المُسْلِمِينَا

٢ أَلاَ انْعِ النَّبِيَّ لأَصْحَابِهِ وَأَصْحَابِ أَصْحَابِهِ التَّابِعِينَا

٣ أَلاَ انْعِ النَّبِيَّ إِلَى مَنْ هَدَى مِنَ الجِنِّ لَيْلَةَ إِذْ تَسْمَعُونَا

٤ لِفَقْدِ النَّبِيِّ إِمَامِ الهُدَى وَفَقْدِ المَلاَئِكَةِ المُنْزَلِينَا

* * *

* التخريج: المقطّعة في مناقب آل أبي طالب، لابن شهراشوب، محمد بن علي المازندراني ١٣٢/١ (نشرة الراشد بن علي المحلاتي الحائري، طهران ١٣١٣هـ).

١. زدت هذه الواو ليستقيم الوزن.

(٢٤)

عَمْرُو بنُ العَاص: [من الكامل] *

١ [صَـدَعَ القُلُـوبَ مَقَالَـةُ الحُـدَّانِي ... وَنَـعَى النَّـبِيَّ خَمِيصَـةُ بْـنُ أَبَـانِ](١)

٢ [لَمَّـا نَعَـاهُ والحَـوَادِثُ جَمَّـةٌ ... يَبِـسَ اللِّسَـانُ وَفَاضَـتِ العَيْنَـانِ]

٣ يَـا لَيْتَـنِي أَبْـصَرْتُ وجْـهَ مُحَمَّـدٍ ... قَبْـلَ الوَفَـاةِ وَبُلَّـتِ الكَفَّـانِ

٤ أَوْ لَيْـتَ عَمْـرًا مَـاتَ قَبْـلَ مُصَابِـهِ ... وَثَـوَى مَـدًى فِي القَـزِّ والأَكْفَـانِ(٢)

٥ أَوْ لَيْتَـنِي لَـمْ أَبْـقَ بَعْـدَ وَفَاتِـهِ ... ذَهَـبَ القَضَـاءُ بِمُنْيَـةِ الإِنْسَـانِ(٣)

٦ أَوْ كَانَ قَـدْ مَـاتَ النَّـبِيُّ فَدِينُنَـا ... دِيـنُ النَّـبِيِّ، وَمَـا هَـدَاهُ هَـدَانِي

٧ كَانَ النَّـبِيُّ أَمَانَـةً مَضْمُونَـةً ... فِينَـا، إِلَى أَجَـلٍ وَحَـدِّ أَوَانِ

٨ فَارْتَدَّهَـا مَـنْ كَانَ يَمْلِـكُ رَدَّهَـا ... هَـذَا لَعَمْـرُ أَبِيـكَ فِي الفُرْقَـانِ(٤)

* * *

* التخريج: جعلتُ مِنَح المِدَح ص٢٠٢ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي: مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٠، ١٨٣١) الأبيات: ٣-٨ وهي مما أخلت به مطبوعته؛ وفي هامش الإكمال لابن ماكولا ٥/٣ (تصحيح عبد الرحمن المعلّمي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢/١٩٩٣م) البيتان: ١، ٢ نقلاً عن «القبس»، ولم أتبيَّنْه؛ ورُوي في الإصابة ٣٤٥/٢ البيت الأول.

١. هذا البيت زائد في الإصابة، وهامش الإكمال.

٢. هذا البيت زائد في هامش الإكمال، وفيه قال الشيخ عبد الرحمن المُعَلِّمي مصحّح الكتاب عند ذكر «الحُدَّاني»: « وفي «القبس» بعد ذكر حُدَّان الأزد: ومنهم حَميصَة [كذا بالحاء المهملة، والضاد المعجمة] بن أبان الذي نعى النَّبيَّ ﷺ إلى أهل عمان وعليهم عمرو بن العاص... فقال عمرو بن العاص :

صـدع القلوب مقالـةُ الحُدَّانِي ... ونـعى النَّـبيّ حميضَـةُ بـن أبان

لمـا نعـاه والحـوادث جمّـةٌ ... يبس اللسـان وفاضت العينان»

---

(١) أورد ابن حجر في مناسبة المرثية أن خميصة بن أبان الحداني قدم من المدينة إلى عمان بوفاة النّبيّ ﷺ وقال لهم: تركتُ الناس بالمدينة يغلون غَلَيانَ القِدْر، وذكر قصّةً ثم ذكر البيت.

(٢) مَدى: أبدًا (لسان العرب: مدى)، والقزّ: الإبريسم، أو الذي يسوّى منه الإبريسم (اللسان: قزز).

(٣) مُنية الإنسان: ما يتمنّاه (لسان العرب: مني).

(٤) ارتدَّ الشيء: ردَّه (تاج العروس: ردد).

(٢٥)

عليُّ بنُ أبي طالِب: [من الطويل]*

١ أَلاَ طَـرَقَ النَّـاعِي بِلَيْـلٍ فَرَاعَـنِي ... وَأَرَّقَـنِي لَمَّـا اسْـتَهَلَّ مُنَادِيَـا

٢ فَقُلْـتُ لَهُ لَمَّـا رَأَيْـتُ الَّذِي أَتَى: ... أَغَـيْرَ رَسُـولِ اللهِ أَصْبَحْـتَ نَاعِيَـا

٣ فَحَقَّـقَ مَـا أَيْقَنْـتُ مِنْـهُ وَلَـم أَخَلْ ... وَكَانَ خَلِيـلِي عُـدَّتِي وَجَمَالِيَـا

٤ فَـوَاللهِ مَـا أَنْسَـاكَ أَحْمَـدُ مَا مَشَـتْ ... بِيَ العِيـسُ فِي أَرْضٍ وَجَـاوَزْتُ وَادِيَـا

٥ وَكُنْـتُ مَتَى أَهْبِطْ مِـنَ الأَرْضِ تَلْعَةً ... أَجِـدْ أَثَـرًا قَبْـلِي حَدِيثًـا وَعَافِيَـا(١)

٦ جَـوَادٌ تَشَـظَّى الخَيْـلُ عَنْـهُ كَأَنَّـمَا ... يَرَيْـنَ بِـهِ لَيْثًـا عَلَيْهِـنَّ ضَارِيَـا

٧ مِنَ الأُسْـدِ قَـدْ يَحْمِي العَرِيـنَ مَهَابَةً ... تَفَـادَى سِـبَاعُ الأَرْضِ مِنْـهُ تَفَادِيَـا

٨ شَـدِيدٌ، جَرِيءُ الصَّدْرِ، نَهْدٌ، مُصَدَّرٌ ... هُـوَ اللَّيْـثُ مَعْـدُوًّا عَلَيْـهِ وَعَادِيَـا

* التخريج: جعلتُ مخطوطة أنوار العقول (المكتبة البريطانية، ورقة ٤١) أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي أنساب الأشراف للبَلاذُري ١/٥٩٢ الأبيات: ١، ٢، ٤-٦، ٩؛ وفي سبل الهدى والرشاد ١٢/٢٨٧ الأبيات: ١-٨؛ وفي ذخائر الإشبيلي ص٢٢٢ الأبيات: ١-٥، ٧، ٨؛ وفي الزُّهرة ٢/٥٠٧-٥٠٨ الأبيات: ١-٥، ٨؛ وفي الفاضل للمبرّد ص٦٤ البيتان: ٤، ٥؛ وفي جمهرة أشعار العرب ص٤٤ البيت الأول.

١. في الزُّهرة، وأنساب الأشراف، والذخائر: «... لما استقل... ».

٢. في أنساب الأشراف، والذخائر: «... إن كنت ناعيا».

٣. في الزُّهرة، والذخائر: «... ما أشفقت منه... ». وفي الزُّهرة، والذخائر، وسبل الهدى: «... ولم يبل» من يُبالي، لحن وتحريف.

٤. في الفاضل: «... لا أنساك... ». والشطر الثاني في الأصل مبهم، وهذه صورته: «بي العيس أو ويا واديا»! والتصحيح من الزُّهرة، وفيها: «... مشت بي العنس...» بالنون تصحيف. وفي الذخائر: «... وجاورت... » بالمهملة. وفي أنساب الأشراف: «... أو جاوزت في الأرض واديا».

٥. في الفاضل: «وإني متى أهبط... * ... جديدًا... ». وفي الزُّهرة: «أرى أثرًا منه جديدًا وباليا». وفي أنساب الأشراف، والذخائر: «أرى أثرًا منه جديدًا وعافيًا». وفي سبل الهدى: «... جديدًا وعافيا».

٨. في الذخائر: «... الصدر، سهم مسدَّد * هو الموت... ». وفي الزُّهرة، وسبل الهدى: «هو الموت. . . ».

---

(١) التلعة: أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل ثم يدفع منها إلى تلعة أسفل منها (اللسان: تلع).

٩ لِتَبْـكِ رَسُـولَ الله خَيْـلٌ مُغِـيرَةٌ ... تُثِـيرُ غُبَـارًا كَالضَّبَابَـةِ كَابِيَـا

١٠ لِيَبْـكِ رَسُـولَ الله صَـفٌّ مُقَـدَّمٌ ... إِذَا كَانَ ضَرْبُ الْهَـامِ نَقْفًـا تَغَالِيَـا

* * *

٩. في أنساب الأشراف: «... خيل كثيرة *... كالضبابة عاليا».

تَوثِيقُ مَرَاثِي مَنْ لَهُمْ غَيْرُ مَرْثِيَة رضِي الله عنهم

١

كَعْبُ بنُ مَالِكٍ:

كان كعب بن مالك الأنصاريُّ ثالثَ ثلاثة من الشعراء المقرَّبين من رسول الله ﷺ، وكان أحدَ الثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزاة تبوك فعفا الله عنهم وتاب عليهم، وتلك مَنْقبة من مناقبه. ولكعب ديوان شعر ذكره في «كشف الظنون»[١]، ولكنه لم يبلغنا[٢]، مات كعبٌ رضِي الله عنه في خلافة علي بن أبي طالب بعد أن كُفَّ بصره[٣]، وقيل: سنة خمسين[٤].

وقد أنشد كعبٌ في رثاء النبيِّ ﷺ مقصورةً رواها ابنُ سعدٍ، فقال: « وقال أبو عمرو: قال كعبُ بن مالك يرثي رسول الله ﷺ:

---

(١) كشف الظنون: لحاجي خليفة ١/٨٠٨.

(٢) جمع شعره سامي مكي العاني (انظر: ديوان كعب بن مالك الأنصاري: دراسة وتحقيق، منشورات مكتبة النهضة، بغداد ط١/١٣٨٦هـ).

(٣) انظر: معجم الشعراء، للمرزباني، محمد بن عمران بن موسى ص٢٢٩ (تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الذخائر ٩٣).

(٤) انظر: كشف الظنون ١/٨٠٨.

يَـا عَـيْنُ فَابْكِـي بِدَمْـعٍ ذَرَى لِخَـيْرِ البَرِيَّـةِ وَالمُصْطَـفَى»[١]

ولـم أجد أحدًا من أهل العلم والرواية طعَن في نسـبة هـذه المرثية إلى كعب بن مالك، والميـل إلى تقويتها أبلغ؛ لرواية أبي عمرو الشـيبانيّ إيَّاهـا؛ فإنه عالمٌ، وراويةٌ ثبتٌ صدوق، وهـو رجلٌ ذو شـأنٍ في رواية أشـعار العرب لهج بذكـره المؤرّخون والأدبـاء، فتحدثوا بأنه «كان واسـع العلـم باللغة والشـعر... ثقةٌ في الحديث، كثيرَ السـماع، وأُخـذ عنه دواوين أشـعار القبائل كلّها »[٢]، وكان المحدّثون يُجِلُّونه أيضًا، فكان « الإمام أحمد بن حنبل يحضر مجلـس أبي عمـرو، وكتـب عنـه حديثًـا كثيرًا»[٣].

زِد على ذلـك أنـه عُمِّر عُمُـرًا طويلاً؛ فـأدرك، وأعاد، وصحَّح؛ قالوا: « بلـغ أبو عمرو الشـيبانيُّ مئة سـنةٍ وعشر سـنين، ومات سـنة سـتٍ ومئتين. وقال يعقوب بن السِّكِّيت: مات أبو عمرو الشـيباني وله مئة سـنة وثمان عشر سنة، وكان يكتب بيده إلى أن مات. وقـال ابن كامل: مات أبـو عمرو في اليوم الذي مات فيه أبـو العتاهية وإبراهيم الموصلي سـنة ثلاث عشرة ومئتين »[٤].

ومثل هذه الأخبار عن أبي عمرو تؤول بنا إلى نكتتين: الأولى: أنه إذا كان أبو عمرو ثقةً في الحديـث لصدقـه وحفظه؛ فهو إذن ثقةٌ في الشـعر من حيث التحمُّـلُ والتبليغُ لا مِراء في ذلك؛ فما بالك بروايته هذه للشعر وهو العالم العارف بكلام العرب وصروفه ومخارجه ؟

الثانية: أن أبا عمرو كان راوية القرن الثاني غير مدافَع، نعم، وفي القرن الثاني أسـاطينُ الروايـة كالأصمـعيّ وأبي زيد الأنصاريّ وغيرهما، وأمّا ما طغـت به يدُ الدهر حين أتت على

(١) الطبقات الكبير، لابن سعد ٢/٢٨٢.

(٢) كتاب الفهرست، لابن إسحاق النديم ص٧٥.

(٣) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات ابن الأنباري ص٧٩-٨٠.

(٤) الفهرست ص٧٥.

جُلّ ما سوَّدتْ يدا أبي عمرو؛ فإنه شيءٌ لم يكن له فيه من حيلة.

وأما اتّهامُ الدكتور طه حسين أبا عمرو ففيه نظر، وذلك قوله: « وهناك راوية كوفيٌّ لم يكن أقلَّ حظًّا من صاحبيه هذين [حمادٍ وخلف] في الكذب والانتحال. كان يجمع شعر القبائل، حتى إذا جمع شعر قبيلة كتب مصحفًا بخطه، ووضعه في مسجد الكوفة. ويقول خصومُه: إنه كان ثقةً لولا إسرافه في شرب الخمور؛ وهو أبو عمرو الشيبانيّ. ويقولون: إنه جمع شعر سبعين قبيلة. وأكبر الظن أنه كان يأجر نفسه للقبائل يجمع لكل واحدة منها شعرًا يضيفه إلى شعرائها، وليس هذا غريبًا في تاريخ الأدب، فقد كان مثلُه كثيرًا في تاريخ الأدب اليوناني والروماني »(١).

ففي هذا النقد مأخذان: الظنُّ مع إمكان اليقين ووجوده؛ إذ ظَنَّ الأستاذُ في أبي عمرو ظنًّا كبيرًا أنه كذَّاب ومنتحل، واليقين اتفق عليه الناس بالثقة فيه وسُموِّ منـزلته. وما سمعنا أحدًا رماه بالكذب قطُّ، ولا سمعنا حديثَ الإجارة هذا من قبلُ قطُّ.

وثاني المأخذين: البدار بالنتيجة قبل مقدِّماتها أو من دون مقدِّماتها من حيث أراد قياس تاريخ الأدب العربيّ بتاريخ الأدبين اليونانيّ والرومانيّ من غير أن يظهرنا على دلائل عتيدة تقوى لحمل مؤونة حكمٍ تاريخيٍّ عريضٍ على شعر أُمَّة بأسرها، روى قدرًا صالحًا منه أبو عمرٍو الشيباني.

أمَّا تهمة الخمر فقد أجاب عنها شيخ الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين بأنه لم يشربها، بل كان يشرب النبيذ، والفرق بين النبيذ والخمر - كما يقول الشيخ - معروف عند الفقهاء والأدباء(٢).

---

(١) في الشعر الجاهليّ، للدكتور طه حسين ص١٢١-١٢٢ (دار الكتب المصرية، ط١/١٣٤٤هـ).

(٢) انظر: نقض كتاب «في الشعر الجاهليّ»، للشيخ محمد الخضر حسين ص٢٧٣-٢٧٤ (المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٥هـ).

ذلـك، ويُحكى أن أبا عمرو أخذ عن المفضَّل الضبيّ دواوينَ العرب التي جمعها[١]. » ويرى جولدتسِيْهر أيضًا إمكان اختيار المفضل الضبيّ لقسم كبير من قصائده في «المفضليات» من دواويـن القبائل المتاحة لديه »[٢]، ولقد عُدَّ المفضل أحدَ أجلاّء الكوفيين وثقاتهم[٣]، وأَخْذُ الشيبانيِّ عنه يزيد من الطمأنينة لروايته.

فـإذا كان الأمـر كذلك، فقد ثبت بعد الاسـتقراء والتتبُّع أنَّ هؤلاء الرواة الذين عاشـوا في نهايـة القـرن الثـاني وأوّل القـرن الثالث أسـانيدَ متصلـةً بمن قبلهم، ليـس إلى العصر الإسلامي فحسب، بل إلى العصر الجاهلي؛ وأنهم لا يذكرون هذه الأسانيد؛ لأن عملهم ليس التحديث، كما أنهم لم يروموا قطُّ أن تكون روايةُ الشـعر كرواية الحديث، ولم يَعِنَّ ذلك لهـم، وأنَّنـا إذا حقَّقنا ورودَ القصيـدة في كتبهم كفانا ذلك لنطمـئن إليها بشرط أن تكون خاليةً من القوادح[٤].

وإذا كان أبو عمرو ولد سـنة مئة أو في سـنة قريبٍ منها؛ وكان يقدِر أن يسـمع سنة خمس عشرة ومئة أو سـنة عشرين ومئة؛ فإن الثقة لتتأكد وتزداد قوّةً؛ فقد انتهى المحقق الأسـتاذ محمـود محمد شـاكر في كتابـه «قضيَّة الشـعر الجاهليّ في كتـاب ابن سـلام» إلى نتيجة بذَلَ الكتاب كلَّه لاستخلاصها، نسوقها استئناسًا، قال: «... وإذن، فالشعر الجاهليُّ ظلَّ سليمًا مبرَّأً محفوفًـا بالصـدق حتى انقضت نحوُ مئةُ عامٍ منذ هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة، وإن كانت تناقصـت وفْرتُـه كمـا قال محمد بن سـلاَّم »؛ ولا يخفى أن حال الشـعر في الصدر الأول من الإسـلام شـبيه بحاله في الجاهليـة من حيث الرواية، ثم قال: «... وبذلـك نعلمُ علمَ يقينٍ أن

---

(١) انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص٧٩.

(٢) تاريخ التراث العربي للدكتور فؤاد سزكين، المجلد الثاني ١/٥٠.

(٣) انظر: نزهة الألباء ص٥١.

(٤) انظر باب الرواية والسماع في: مصادر الشعر الجاهلي، للدكتور ناصر الدين الأسد ص١٨٧-٢٢١.

العلماء بالشعر من أهل البصرة وحدها إلى زمن أبي عمرو قد تلقَّوا شعر الجاهلية سليمًا خاليًا من الشوائب، وإن كان لم ينتهِ إليهم منه إلا القليل »[١].

من أجل ذلك صحت عندنا مقصورةُ كعب في بكاء النبيّ، وصحَّ نسبُها إليه. وإنا لنُحِسُّ روح كعب بن مالك في هذه المرثيَة كما نُحسُّها في مرثيته لعثمان بن عفان، تلك التي أثنى الشعبيُّ عليها، فقال: ما سمعتُ من مراثي عثمان رضِي الله عنه أحسنَ من قول كعب بن مالك:

فَكَفَّ يَدَيْهِ ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهُ ... وَأَيْقَنَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِغَافِلِ
وَقَالَ لأَهْلِ الدَّارِ: لاَ تَقْتُلُوهُمُ ... عَفَا اللهُ عَنْ كُلِّ امْرِئٍ لَمْ يُقَاتِلِ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللهَ صَبَّ عَلَيْهِمُ الْـ ... ـعَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ بَعْدَ التَّوَاصُلِ!
وَكَيْفَ رَأَيْتَ الخَيْرَ أَدْبَرَ بَعْدَهُمْ ... عَنِ النَّاسِ إِدْبَارَ الرِّيَاحِ الحَوَافِلِ![٢]

نُحسُّها فيها في يُسرِها وقِصَرِها ووضوحِها وتماسُكِ أبياتها.

وليس يقدح في المرثية ما نقدها به الدكتور عبد القادر القط يوم قال: « وإذا ضُمَّت نسبة هذا الشعر الضعيف إلى كعب بن مالك فإنه يقوم دليلاً على ضعف الموهبة من ناحية، أو على العجز عن تمثُّل الإسلام وأسلوب التعبير الإسلاميّ تمثُّلاً صحيحًا »[٣]؛ لا يقدح فيها لأن كعبًا خِلْوٌ من هاتين؛ فقد وصفه محمد بن سلاَّم فقال فيه: « شاعر مُجيد »[٤]، والأبيات القليلة التي تتلى له تشهد بالإجادة له، فالأولى باطلة.

---

(١) قضيَّة الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلاَّم، لمحمود محمد شاكر ص١٠٨-١٢١ (مطبعة المدني، القاهرة).

(٢) انظر: المستدرك على الصحيحين في الحديث، للإمام أبي عبد الله محمد النيسابوري الحاكم ٣/٥٠١-٦٠١ (مكتبة النصر الحديثة، الرياض).

(٣) في الشعر الإسلامي والأموي، للدكتور عبد القادر القط ص٣١ (دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٧هـ).

(٤) طبقات فحول الشعراء ١/٢٢٠.

وأما أنه عجَز عن تمثُّل أسلوب التعبير الإسلامي؛ فإن هذا لا يُضعِف الشعرَ في ذاته؛ لأنه ليس لزامًا على كل شاعر من المخضرمين حَشْدُ ما يدل على إسلامه من الصيغ والتعابير؛ ولا أن يلتزم أسلوبًا إسلاميًا بعينه تاركًا عادته الجاهلية الأولى في الرَّصف والتقصيد[١]، وهذا بلاشيرُ لم يرَ في شعر كعبٍ ما رآه الدكتور القط، فقد قال عن مقطوعاته: « وتتصف تلك المقطوعات الشعرية بالبساطة المشفوعة بقوَّة الأسلوب، وفيها أن التأثير الإسلامي لا يغطّي إطلاقًا الصيغَ التقليديّة، إننا بإزاء نماذج جيدة من الشعر الجاهليّ في مرحلة متطورة »[٢].

ولعلَّ الذي لمسه الدكتور القط في القصيدة من اعتدال في العاطفة كان السببَ في نقده القاسي، بل لعلَّ هذه العاطفة التي تقصِّر في الرثاء سببٌ متينٌ للثقة بهذه القصيدة أنها لكعب؛ فإن من الشعراء من يُغْلق في بابٍ من الشعر دون باب، وكعبٌ من هؤلاء، فهو شاعر فخور بجِبلَّته، يوشك الفخر أن لا يغادر قصيدة من قصائده، ولو كانت رثاءً[٣]، فهو يرثي حمزة في قصيدته:

بَكَـتْ عَيْـنِي وَحُـقَّ لَهَـا بُكَاهَـا ... وَمَـا يُغْـنِي البُـكَاءُ وَلاَ العَوِيـلُ[٤]

فنراه لا يلبث أن يفاخر المشركين ويشمتَ بهم:

---

(١) انظر: حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام، لأستاذنا الدكتور سعيد منصور ص١٣٣.

(٢) تاريخ الأدب العربي، لبلاشير ص٣٤٦.

(٣) انظر ما كتبه العاني في مقدّمة ديوان كعب بن مالك ص٨٣، وفيها قال: « ويستغرق الفخر من شعر كعبٍ أكثرَه ».

(٤) انظر: ديوانه (تحقيق العاني) ص٢٥٢.

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ عَنَّا لُؤَيًّا ... فَبَعْدَ اليَوْمِ دَائِلَةٌ تَدُولُ
وَقَبْلَ اليَوْمِ مَا عَرَفُوا وَذَاقُوا ... وَقَائِعَنَا بِهَا يُشْفَى الغَلِيلُ
نَسِيتُمْ ضَرْبَنَا بِقَلِيبِ بَدْرٍ ... غَدَاةَ أَتَاكُمُ المَوْتُ العَجِيلُ
غَدَاةَ ثَوَى أَبُو جَهْلٍ صَرِيعًا ... عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَائِمَةٌ تَجُولُ
وَعُتْبَةُ وَابْنُه فَرًّا جَمِيعًا ... وَشَيْبَةُ عَضَّهُ السَّيْفُ الصَّقِيلُ
أَلاَ يَا هِنْدُ فَابْكِي لاَ تَمِلِّي ... فَأَنْتِ الوَالِهُ العَبْرَى الهَبُولُ

وحقًّا هـو خلُص في منتهاهـا إلى ذكر حمزة، بيد أنه ذكره ذكـرًا عارضًا في غمرة النقيضة والأنفة، وكأنه ارتاح من عناء الرثاء إلى بحبوحة الفخر:

أَلاَ يَا هِنْدُ لاَ تُبْدِي شِمَاتًا ... بِحَمْزَةَ، إِنَّ عِزَّكُمُ ذَلِيلُ

وهـو في بكائـه على قتـلى مؤتـة ينتزع نفسـه في شـطر القصيـدة الثـاني إلى الثناء على الهاشـميّين والفخار بالنبيّ ﷺ[1]، وكان سـمْتَه في مراثيه تلك سمتُه حين رثى النبيَّ ﷺ حاثًّا عينيه أن تبكيا:

عَلَى سَيِّدٍ مَاجِدٍ جَحْفَلٍ ... وَخَيْرِ الأَنَامِ وَخَيْرِ اللُّهَا
لَهُ حَسَبٌ فَوْقَ كُلِّ الأَنَا ... مِ مِنْ هَاشِمٍ ذَلِكَ المُرْتَجَى

هذا، وتُعْزى لكعبٍ مرثيةٌ أخرى داليّةٌ أنشدها طائفةٌ من الأندلسيين يلوح أنهم نقلوها من كتبٍ أو كتاب لم يقع للمشارقة، مطلعها:

وَبَاكِيَةٍ حَرَّى تَحَرَّقُ بِالبُكَا ... وَتَلْطِمُ مِنْهَا خَدَّهَا وَالمُقَلَّدَا

أثبتها ابن داود الأصبهانيُّ في «الزّهرة»، والإشـبيليُّ في «الذخائر والأعلاق»، والكَلاعيُّ في «الاكتفـا»[2]، ولسـنا نملك دليلاً على صحتهـا إلا دليلَ البراءة؛ وهو أنه لم يشـك فيها - في

---

(١) انظر: المصدر السابق ص٢٦٠-٢٦٣.

(٢) انظر تخريج المرثية.

علمي القاصر - أحدٌ، وإلا دليلاً آخرَ هو يُسْرُها وقِصَرُها، ولكن لا يبعد أن يكون أُدخل فيها بيت أو بيتان، كهذا البيت:

لَقَـدْ أَوْرَثَتْ أَخْلاَقُـهُ المَجْدَ وَالتُّقَى فَلَـمْ تَلْقَـهُ إِلاَّ رَشِـيْدًا وَمُرشِـدَا

الذي لـم يـرد عند الكلاعي، وهو أقل درجـةً، وهو يعوق جَـرْيَ القصيـدة الرَّهو؛ وكهذا البيت:

مَـتَى تَـنْزِلُ الأَمْـلاَكُ بِالـوَحْيِ بَعْدَهُ عَلَيْنَـا إِذَا مَـا اللَّبْـسُ فِيْنَـا تَـرَدَّدَا

لأنَّ الأَمْلاك جمع مِلِك بالكسر، وهو يريد الملائكة، ثم إنَّ الذي كان ينـزل كان جبريل وحده لا جمعٌ من الملائكة.

وتُعْزى له ثالثةٌ نونيَّة أنشـدها ابن شهراشـوب في «مناقب آل أبي طالب»[١]، أربعة أبيات أولها:

أَلاَ انْـعَ النَّـبِيَّ إِلَى العَالَمِينَـا جَمِيعًـا، وَلاَ سِـيَّمَا المُسْـلِمِينَا

وابـن شهراشـوب هـو أبو جعفر محمد بـن علي بن شهراشـوب المازندراني، أحد شـيوخ الشـيعة، قال ابن أبي طيّ: نشـأ في العلم والدراسـة، وحفظ القرآن وله ثمان سـنين، واشتغل بالحديـث، ولقي الرجال، ثم تفقَّه وبلـغ النهاية في فقه آل البيت، ونبغ في علم الأصول حتى صار رُحَلَةً، كان بمنـزلة الخطيب عند أهل السنة، وكيحيى بن معين في معرفة الرجال، كان كثير الخشوع والعبادة والتهجُّد، لا يجلس إلا على وضوء، توفي سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمئة، وعاش مئة سنة[٢].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١٣٢/١.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ٨٦٠/١٢ (تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١٤٢٤/١هـ)؛ وطبقات المفسرين، لأحمد بن محمد الأدنروي ص٢٠٤ (تحقيق سليمان الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١٩٩٧/١م).

ورجـل هذه حـاله جديرٌ بالوثوق به في رواية الشـعر، وخصوصًـا إذا جمعنا إلى ذلك خلوَّ المرثية من آثار التشيع.

لكنَّ في المرثية ما يدعو إلى القول بتأخرها وهو قوله:

أَلاَ انْـعِ النَّـبِيَّ لأَصْحَابِـهِ وَأَصْحَـابِ أَصْحَابِـهِ التَّابِعِينَـا

لأن مصطلح «التابعين» متأخِّر عن جيل الصحابة[1]، أضف إلى ذلك تفرُّد ابن شهراشوب بها، وأنها قصيرة قِصَرًا لا يدَعُنا نُبصِر في ثناياه خصائص شعر كعب.

٢

عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:

هل يسـوغ لنا أن نسـأل فنقولُ: هل كان عليٌّ بن أبي طالبٍ رضِي الله عنه شاعرًا ؟ أجل، بل يحقُّ علينا؛ لأن الجواب الشافيَ عن هذه المسألة سيكون اللبنةَ الأولى القائمَ عليها بُنيان القول في المراثي النبويَّة المنسوبة إلى هذا الإمام الراشد.

يقـول الدكتـور سزكين: « تجنـب مؤلفو الطبقـات - بصفة عامة - أن يصفـوا عليًا بأنه شـاعر »[2]. وكتـب الطبقات إنْ هي إلاّ جزءٌ يسـيرٌ في كتب التراث، فـلا يكفي إغفالُها أن نسـلب عليًّا مَلَكة الشـعر؛ على أن عبد القادر البغدادي نقل: « قال المازنيُّ: إنه لم يصح أنه - عليه السلام - تكلَّم بشيءٍ من الشعر غير هذين البيتين - وصوَّبه الزمخشريُّ - وهما:

تِلْكُـمْ قُرَيْـشٌ تَمَنَّـانِي لِتَقْتُلَـنِي فَـلاَ وَرَبِّـكَ مَـا بَـرُّوا، وَلاَ ظَفِـرُوا
فَـإِنْ هَلَكْـتُ فَرَهْـنٌ ذِمَّـتِي لَهُـمُ بِـذَاتِ وَدْقَـيْنِ لاَ يَعْفُـو لَهَـا أَثَرُ »[3]

---

(١) انظر: مراثي النبي ﷺ، للدكتور محمد أبو المجد علي ص٤٩.

(٢) تاريخ التراث العربي، للدكتور فؤاد سزكين مج٢، ٢٩١/١.

(٣) خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب، لعبد القادر بن عمر البغدادي ٦/٩٦-٧٠ (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤/١٤١٨هـ).

وقولُ المازنيّ وتصويبُ الزمخشري مدفوعان بشعر صحيح آخر ثابتٍ لعليّ سوى هذين البيتين سأورد بعضَه بعد قليل.

وكان ابن هشام حكى غيرَ مرّةٍ أنَّ قومًا من أهل العلم بالشعر لم يعرفوا شعرًا منسوبًا لعليّ رضِي الله عنه(١)، أو شكُّوا في أمره(٢). ولمّا هذَّب «سيرةَ ابن إسحاق» أعرض عن قصيدةٍ لعليّ في رثاء أبيه، وجدتُها في القطعة الناجية من «السيرة» الأصل لابن إسحاقٍ، ومطلعُها:

أَرِقْتُ لِنَوْحٍ آخِرَ اللَّيْلِ غَرَّدَا ... أَبَا طَالِبٍ مَثْوَى الصَّعَالِيكِ ذَا النَّدَى(٣)

ونِعْم ما فعل؛ فالقصيدة مفتعلةٌ خاوية، ومع ذلك لا نعدُّ فعْلَ ابن هشام، ولا نعدُّ صرْف أهل العلم بعض القصيد عن عليّ؛ سببًا كفيلاً بإخراجه من زمرة الشعراء.

لقد كان عليٌّ يقرض الشعر، لا قرْضَ عربيّ يقول بفطرته البيتين والثلاثة، بل قرض شاعر خبير بالشعر بصيرٍ بتصاريفه، وها أنا أعيد كرَّةً أخرى ذلك الخبرَ الذي رواه الرَّازيُّ عن الشعبيّ قال: « كان أبو بكرٍ وعمرُ شاعريْن، وكان عليٌّ أشعر منهما »(٤)، إن الوصف بأفعل يفيد مقدارًا زائدًا من الإجادة والعناية والمعرفة.

وفي كتاب «الأغاني» خبرٌ كهذا نافعٌ في إثبات أصل الشعر لعليّ: « عن محمد بن سيرين قال: كان يهجو رسولَ الله ﷺ ثلاثةُ رهطٍ من قريش: عبد الله بن الزِّبَعْري، وأبو سفيان ابنُ الحارث، وعمرو بن العاصي، فقال قائل لعلي بن أبي طالب - رضوان الله عليه : اهج عنا القوم الذين قد هجَوْنا، فقال عليٌّ رضِي الله عنه: إنْ أذِن لي رسول الله ﷺ فعلتُ. فقال

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ١١/٣، ١٦٥/٣، ١٩٦/٣.

(٢) انظر: السيرة النبوية ٤٩٧/٢.

(٣) انظر: السيرة النبوية، لمحمد بن إسحاق بن يسار ص٢٢٤ (تحقيق محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، تونس ١٣٩٦هـ)، وأصل هذا الكتاب قطعةٌ فريدة من المخطوطة المفقودة، مصورةٌ بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٣٢٤ عن الأصل المحفوظ بخزانة جامعة القرويين بفاس برقم ٢٢٠/٨٠.

(٤) الزينة في الكلمات الإسلامية، لأبي حاتم الرازي ص١١٧.

رجل: يا رسول الله، ائذن لعليٍّ كي يهجوَ عنا هؤلاء القوم. قال: « ليس هناك » أو: « ليس عنده ذاك »، ثم قال للأنصار: « ما يمنع القومَ الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ »، فقال حسَّان بن ثابت: أنا لها... »[1]. فمن البداهة أنه لن يُطلب إلى رجلٍ ليُرادَّ ثلاثة من الشعراء وهو ليس بشاعر. أما جوابُ النبيّ ﷺ فكأنه يعني أن عليًّا لا يحسن الهجاء، أو لن يحسن الهجاء لقرابته ونسبه القرشيّ؛ إذ كيف سيذمُّ أهلَه وعشيرته؟ أو أنَّ شعره لا يكافئ شعرهم.

والظنُّ بعليٍّ أنه شاعرٌ مُقِلٌّ، مقصِّرٌ في الشعر، فقد « استشهد أبو عُبيدة في «مجاز القرآن» ببيت له، وفوق هذا فقد ذكر أبو عُبيدة عن شيخه يونس بن حبيب أن عليًّا وعمر وعثمان لم يؤلِّفوا قصائد، ولكنْ لهم أبيات مفردَة »[2].

إلاّ أن عليًّا رجَّاز مكثر، وهو في طبقة كبار الرجَّازين؛ مصداق ذلك اقتصارُ نصر بن مزاحم المِنقريّ على رواية أبيات قليلة وقصيدةٍ واحدة من شعر عليٍّ في كتاب «وقعة صِفِّين» كقوله من بيتين:

سَمَحْتُ بِأَمْرٍ لاَ يُطَاقُ حَفِيظَةً   وَصِدْقًا، وَإِخْوَانُ الحِفَاظِ قَلِيلُ[3]

وقولِه حين صدر من صِفِّين:

وَكَمْ قَدْ تَرَكْنَا فِي دِمَشْقَ وَأَرْضِهَا   مِنَ اشْمَطَ مَوْتُورٍ، وَشَمْطَاءَ ثَاكِلِ

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني ١٣٧/٤.

(٢) تاريخ التراث العربي، للدكتور فؤاد سزكين، المجلد الثاني ٢٩١/١، والبيت في مجاز القرآن، صنعة أبي عبيدة مَعمر بن المثنى ١٥٩/٢ (عارضه بأصوله وعلّق عليه الدكتور محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بالقاهرة)، ولكن لم أدرِ من أين نقل الدكتور سزكين كلمة يونس تلك؛ إذ لم يشر إلى مصدر.

(٣) انظر: كتاب وقعة صفِّين، لنصر بن مزاحم المِنقريّ ص٣٠٨ (تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط٣/١٤٠١هـ).

أربعة أبياتٍ فحسب[١]. وعلى النقيض من ذلك روى نصْرٌ لعليّ رجَزًا غزيرًا كثيرًا، منطلِقًا لا اعوجاجَ فيه، كأنه الخيل تركض بمضمارها، وهو ربما طوَّل في الرجز ككلمته التي يقول فيها:

إنِّي إذَا المَـوْتُ دَنَـا وَحَـضَرا
شَـمَّرتُ ثَـوْبِي وَدَعَـوْتُ قَنْـبَرَا
قَـدِّمْ لِـوَائِي لاَ تُؤَخِّـرْ حَـذَرَا
لَـنْ يَدْفَـعَ الحِـذَارُ مَـا قَـدْ قُـدِّرَا[٢]

ومن رجزه قولُه في كتابٍ إلى معاوية:

فَـإنَّ لِلْحَـرْبِ عُرَامًـا شَرَرَا
إنَّ عَلَيْهَـا قَائِـدًا عَشَـنْزَرَا
يُنْصِـفُ مَـنْ أَجْحَـرَ أَوْ تَنَمَّـرَا
عَلَى نَوَاحِيهَـا مِزَجًّـا زَمَجَـرا
إِذَا دَنَـيْنَ سَـاعَةً تَغَشْـمَرَا[٣]

وقوله:

قَـدْ عَلِمَـتْ ذَاتُ القُـرُونِ المِيـلِ
والخَـصْرِ والأنامـلِ الطُّفُـولِ
أَنِّي بِفَضْـلِ السَّـيْفِ خَنْشَـلِيلُ
أَحْـمِي وَأَرْمِي أَوَّلَ الرَّعِيـلِ
بِصَـارِمٍ لَيْـسَ بِـذِي فُلُـولِ[٤]

(١) انظر: وقعة صفّين ص٤٩٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٤٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ص١٥٩.

(٤) انظر: المصدر السابق ص٤٠٧.

وقوله مبارزًا مفتخرًا:

أَنَـا عَـلِيٌّ وَابْـنُ عَبْـدِ المُطَّلِـبْ
نَحْنُ لَعَمْـرُ اللهِ أَوْلَى بِالْكُتُـبْ
مِنَّـا النَّـبِيُّ المُصْطَـفَى غَـيْرُ كَـذِبْ
أَهْـلُ اللِّـوَاءِ وَالمَقَـامِ وَالحُجُـبْ
نَحْـنُ نَصَرْنَـاهُ عَلَى جُـلِّ العَـرَبْ
يَـا أَيُّهَـا العَبْـدُ الغَرِيـرُ المُنْتَـدِبْ
اُثْبُـتْ لَنَـا أَيُّهَـا الكَلْـبُ الكَلِـبْ[1]

أحببت أن أُظْهِرَ - حين أكثرت المثال - كيف يفتَرُّ ثغرُ العربيِّ الأوّل برجز فخمٍ جزيل، لائقٍ في تصوُّر العقول بأمثال الفارس الجلمودِ عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب.

وإذن، فما عليٌّ إلا راجز، راجزٌ من الطِّراز الرفيع، ولا شعر له يُذكر إلا الأبيات العزيزة النادرة كالتي سلف بعضها، وكالتي رواها أبو حاتم الرازيُّ حين قال: « ويُروى لعليّ - عليه السلام - شيءٌ هو منحولٌ، والذي يجوز أن يُنسب إليه مثلُ ما روى أنّ معاوية قد كتب إليه كتابًا يُظلِّمه فيه، فأجابه عنه، وكتب في الجواب بأبيات شعر... » فذكر أبيات وعظٍ يسيرة[2].

وهذا حكم مقبولٌ في جنب عليّ الذي لم يكد يضع لأْمةَ الحرب مدَّةَ حياته، وهل الرجز في غالب أمره إلا حماسةٌ فائرة تغلي في صدور الشُّجعان، فتضرب بها مع السيوف ألسنتُهم على ذلك النذير القديم الموقَّع (مستفعلن)؟ الرجز بحر الحرب، وكان عليٌّ فتى الحرب.

إذا بلغْنا هذا المبلغ، فما شأن ديوان يُنسب إلى عليّ رضِي الله عنه يفيض بالشعر، ولا

(١) انظر: المصدر السابق ص٢٧٢، ٢٧٣، وانظر أيضًا : ص١٣٦، ١٣٧، ١٥٩، ٢٧٣، ٣٩٠، ٣٩١، ٤٢٤، ٤٦٠.

(٢) انظر: الزينة، لأبي حاتم الرازي ص١١٧.

ترى فيه رجزًا إلا رجزًا قليلاً ؟

لقد سرد مؤلِّف «أعيان الشيعة» سَرْدًا لجامعي ديوان عليٍّ، وهم:

١.أبو أحمد عبد العزيز بن يحي الجلُوَديّ، المتوفى بعد سنة ثلاثين وثلاثمئة.

٢.عليّ بن أحمد النيسابوري الفنجكرديّ، القريب عصره من عصر السيد الرضى.

٣.القطب الكيدريُّ المتوفى بعد سنة ستٍ وسبعين وخمسمئة(١)، جمعه مرتين، مرةً اقتصر على الآداب والحكم، وسمَّاه: «الحديقة الأنيقة»، ومرةً سمَّاه: «أنوار العقول من أشعار وصيّ الرّسول».

٤.أبو عبد الله المَرْزُباني، المتوفى سنة أربع وثمانين وثلاثمئة.

٥.أبو البركات، هبةُ الله ابن الشَّجريّ.

٦.بعض القدماء استخرجه من كتاب ابن إسحاق.

٧.القاضي القُضاعيّ محمد بن سلامة المغربي المتوفى سنة أربع وخمسين وأربعمئة، لكنه لم يجعله كتابًا مستقلاً.

٨.سبط ابن الجوزي في «تذكرة الخواص».

٩.محسنُ الأمين مؤلف «أعيان الشيعة» نفسُه.

ثم قال محسن الأمين: « ولكنَّ هذه الدواوين التي جمعها مَنْ ذكرناهم من شعره - عليه

---

(١) هذا التاريخ موهم؛ فقد صرَّح في موضع آخر بأن الكيدري توفي بعد سنة ٦١٠ (أعيان الشيعة، لمحسن الأمين ٢٥٠/٩، دار التعارف، بيروت، ١٤٠٣هـ)، وسنة ٥٧٦ هي تاريخ فراغ الكيدريّ من شرح نهج البلاغة كما صرَّح في: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، لأقابزرك الطهراني ٤٣٣/٢ (دار الأضواء، بيروت)؛ وربما رام المؤلف إعادة الكتاب المذكور إلى أقدم زمن ممكن، وهذه طريقة لا تخلو من تدليس، لا تحسن بأهل العلم.

السلام - لا يوجد منها بأيدينا اليوم سوى نسخةٍ واحدة طُبعت مرارًا في عدة أماكن. والظاهر أنها هي التي جمعها عليُّ بن أحمد النيسابوري»[١].

قلت: لا دليل على أن نُسَخَ الديوان المنتشرة الآن من جمع النيسابوري المذكور، كما أنه ليس لها أصل مخطوط يُرجع إليه. بل لعل أصل هذه النسخ الرَّائجة من ديوان عليّ ما أسماه القطب الكيدريُّ: «أنوار العقول من أشعار وصيّ الرَّسول»[٢]، ولكن ناشري هذا الديوان، على اختلافهم، لا يذكرون أصولهم التي اعتمدوا عليها، وكأن بعضهم يأخذ من كتاب بعض، فغادروا لنا عملاً لا يَمُتُّ إلى العلم أو الصدق بصلة، ولا يصحُّ التعويل عليه عند أهل التحقيق والعلم[٣].

ثم إن هذا الذي سرده الأمين لا يجوز فيه اسم (الديوان) بمصطلح أصحاب الفنّ؛ فديوان شاعرٍ من المتقدّمين خصوصًا يُسمَّى ديوانًا إذا رواه رواةٌ من أهل العلم معروفون بصناعة هذه الدواوين، ولهم الطرق المعروفةُ والعلمُ بكلام العرب، أمَّا ما عدا ذلك كالذي أحصاه مؤلف «أعيان الشيعة» فتلفيق من بطون الكتب يفعله كلُّ أحد حتى من المتأخرين، وليس بأصل يُصار إليه. واسمُه إذ ذاك مجموع شعر لا ديوان. وقد فَهم هذا الفهم صاحبُ النسخة الوحيدة من هذا (الديوان) فلم يسمِّه ديوانًا ولكن سمَّاه: «أنوار العقول من أشعار وصيّ الرَّسول»، وعليه، فنحن لم نرَ ديوانًا لعليٍّ - رضوان الله عليه - حتى يوم الناس هذا، وإنما هي مجاميع ومنتخبات، أضف إلى ذلك أن كلَّ أولئك الذين ذكرهم صاحب «أعيان الشيعة» لم يبلغنا ما جمعوه من شعر عليٍّ إلا ما جمعَ القطب الكيدريُّ، فرجعنا إلى «أنوار العقول»

---

(١) انظر: أعيان الشيعة، لمحسن الأمين ١/٥٤٩-٥٥٠.

(٢) انظر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، لأقابزرك الطهراني ٢/٤٣٣.

(٣) من أمثلة هذه النشرات: نشرة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي (دار ابن زيدون، بيروت)، ونشرة الدكتور علي مهدي زيتون (دار الجيل. بيروت، ط١/١٤١٦)، ونشرة محمد عبد الرحمن عوض (دار الكتب العلمية بالقاهرة)، ونشرة مؤسسة الأعلمي ببيروت.

كرَّةً أخرى[1].

وإذا كنـا لا نثق في هذه الدواوين المطبوعـة المُدَّعاة، وكان لا حُجَّة في هذه المجاميع التي أوردهـا الأمـين، ولا وجود لها؛ فإنـه لا مناص من النظر في المجمـوع الوحيد الباقي من هذه الكتب المجموعة.

جامع هذا الكتاب هو قطبُ الدين الكيدري البيهقي المتوفى بعد سـنة عشر وسـتمئة[2]، شـارح نهج البلاغة بشرح سَـمَّاه «حدائق الحقائق». والكتاب مُرتبـةٌ قوافيه ترتيب حروف الهجـاء، ومنـه نسـخ كثيرة، أقدم مـا رأى صاحب «الذريعة» منها نسـخةُ المـولى محمد علي الخوانسـاري التي ترجع إلى سـنة سـبع وثمانمئة، قال: « وهي أقدم النسخ كتابةً »[3]. ولكن يبدو أن الإربليّ المتوفى سنة ثنتين وتسعين وستمئة سمع عن هذا الكتاب ولم يره؛ فقد قال: « وأمَّا عليٌّ - عليه السلام - فقد ذكر الرواة أن له ديوانًا »[4].

---

(١) عبد العزيز بن يحيى بن أحمد الجلودي المتوفى بعد سنة ٣٣٠ الذي ذكره صاحب «أعيان الشيعة» في مقدَّم جامعي ديوان عليّ ترجم له أبو العباس أحمد بن علي النجاشيُّ (رجال النجاشيّ ٢/٥٤-٥٥، تحقيق محمد جواد النائيني، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٨هـ)، ولعل اعتماد صاحب «أعيان الشيعة» في ذكر ديوانٍ لعلي منسوبٍ للجلودي أن النجاشي ساق أسماء عشرات الكتب للجلوديّ مثل: « كتاب ما كان بين علي - عليه السلام - وعثمان من الكلام، كتاب مقتله - عليه السلام، كتاب قسمه، كتاب الدعاء عنه، كتاب الشراب وصفته وذكر شرابه، كتاب الأدب عنه، كتاب الطهارة عنه، كتاب الصلاة عنه، كتاب الصيام عنه..»، ومنها: «كتاب شعر علي - عليه السلام - » ومن الواضح أن المراد بالكتاب من هذه الكتب (الفصل) بقسمة المعاصرين. وهذه طريقة القدماء في التصنيف. ولا تعني أن الجلودي وضع (ديوانًا) لعليّ قطُّ، إنما هي شواهد لم تبلغنا. أو أن صاحب «أعيان الشيعة» اعتمد في ذلك على ترجمة الجلوديّ في الذريعة (٢/٤٤٣)، أو على ما جاء في مقدمة «أنوار العقول» (مخطوطة أنوار العقول من أشعار وصي الرَّسول، المنسوب لعلي بن أبي طالب، ورقة ٢، ٣، مصورة بمكتبة الإسكندرية عن المكتبة البريطانية ٦٥٧٨ OR/٢) ولكنه على كلٍّ لم يفصح عن مصادره.

(٢) انظر: أعيان الشيعة ٩/٢٥٠.

(٣) الذريعة ٢/٤٣٣.

(٤) التذكرة الفخرية، للإربلي، علي بن عيسى بن أبي الفتح ص٤٤ (تحقيق الدكتور نوري حمودي القيس والدكتور حاتم الضامن، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٤هـ).

أمَّا المخطوطة التي بين يديّ فمنسوخة سنة ١١٧٧هـ، وأصلها محفوظٌ بالمكتبة البريطانية[١]، وهي النسخة المتداولة؛ فقد قابلتُ عليها مخطوطةً أخرى لا تفترق عنها محفوظةً بجامعة طهران[٢]. وهاك جملاً من مقدِّمة جامعه بحروفها، وهو أعلم الناس بحال كتابه:

قال: «وقد كنت على قديم الدهر ظفِرت بمجموع من أشعاره الجامعة، من جلائل الكلم، وعقائل الحِكم، نحو مئتي بيت جمعها الإمام أبو الحسن الفنجكردي - رحمه الله - فأنست بذلك، واجتهدت في اقتناص شوارد على ما فيه، زوائد... إلى أن عثرت بمجموع آخر أبسط منه باعًا، وأرحب ذراعًا، وإن لم يكن شمِل الكل... قد استَخرج بعضها من كتاب محمدُ بن إسحاق وغيرُه من العلماء، والتقط بعضها من متون الكتب مما وجد منسوبًا إليه، فاقترح علي بعض الإخوان أن أجرد من المجموعين ما اختُص بالآداب والمواعظ والحكم والعبر دون ما ذكر في سائر الأغراض، فأسعفت سُولَه، وحقّقت مأموله، وسمّيت المجموع «بالحديقة الأنيقة». ثم وقع لي بأَخَرةٍ مجموعٌ من أشعاره رضِي الله عنه جمعه السيد الجليل أبو البركات هبة الله بن محمد الحسيني، فلم أجد فيه كثيرًا مما وصل إليَّ، وإن كان قد أورده أبياتًا شردت مني، وشذَّت من يدي، وكنت في خلال ذلك أجِدُّ في الطلب، وأدأب كل الدأب أتفحّص كتب التواريخ والسير، وألتقط ما أقف عليه من الغرر والدرر، مسندًا أو مرسلاً، مقيَّدًا أو مبهما؛ إذ كان غرضي أن أنظم أفرادها، وأجمع آحادها، فلذلك: لست أدّعي أن كل فلق فيه سمع من فلِق فيه، وأنه رضِي الله عنه قطعًا ويقينًا ناظمُه ومنشئه، بل في كثير منه آخذ بالظنّ والتخمين، إذ من الشذر في مثله الحكم باليقين، فإن وَرَد على امرئ ما يَريبه فحسبه من الكلام طيبه... ورأيت أن أَسِم هذا المجموع بأنوار العقول من أشعار وصيّ الرّسول »[٣].

(١) مخطوطة ديوان علي بن أبي طالب = أنوار العقول من أشعار وصي الرّسول (المكتبة البريطانية).

(٢) مخطوطة أنوار العقول من أشعار وصي الرّسول، المنسوب لعلي رضي الله عنه (ضمن مجموع المعراج الرازي، جامعة طهران، المكتبة المركزية ١٠٣٥، مصورة بمكتبة الإسكندرية، ومعهد المخطوطات العربية برقم ٤١).

(٣) مخطوطة أنوار العقول (المكتبة البريطانية) ورقة ٢ - ٣.

ألا ما أشقَّ ما حمَّل الناسَ أولئك الذين أسقطوا من نشراتهم هذه المقدّمة ! وما أظلمهم ! ولَعمري، لقد تبرَّأ جامعه براءة المتأثّم المرتاب، وإنَّ هذه الكلمات عذرٌ له مما في الكتاب من نحلٍ أو وضع أو اضطراب. ونحن نستنبط من هذه المقدمة فوائد فاصلة:

١.أن الألفاظ المترادفة التي أكَّد عليها الجامع مثل: « أستخرج، وألتقط، وأجِدُّ في الطلب، وأتفحص »، وتكراره أن الكتاب «مجموعٌ» على «مجموعٍ» غيره؛ كل ذلك بيانٌ من صاحبه أنه ليس بديوان يُعتمد عليه ويصدر عنه.

٢.بل إن الرجل كان يُنقِّر في الكتب، شأن المتأخرين، من غير ما إسناد ولا رواية.

٣.وهو لم يبْنه على التوثُّق والدِّقَّة، وإنما في « كثير منه آخِذٌ بالظنّ والتخمين ».

٤.وكان غرضه الأول الجمعَ والضمَّ والتكثُّر، من غير أن يمحِّص أو يميِّز أو يدقِّق.

ولقد انجلت هذه المقدمة عن سقوط الكتاب، وخِفَّته في ميزان التوثيق، وهذا شيءٌ عَلِمَه جامعه، وحاك في نفسه فقال: « فإن ورد على امرئٍ ما يريبه فحسبه من الكلام طِيْبُه ».

وفي ذلك يقول بروكلمان: « من المشكوك فيه كثيرًا اشتمالُ الديوان المنسوب إليه علَى أشعارٍ صحيحة، فقد وضُح اختراع الشيعة له وضوحًا بَيِّنًا حتى أدركه النقاد من أهل السُّنة »(١).

ويقول بلاشير: « نُسبت إليه مقطوعاتٌ شعريَّة. ولا يسعنا إلا اعتبار هذه الآثار من

---

(١) تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان: القسم الأول ٢٣٤/١ (أشرف على الترجمة الدكتور محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م)، وانظر أيضًا: حُسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة، لعلي فهمي الموستاري ١٢٠/١ (دار سعادت، إسطنبول ١٣٢٤هـ) الذي قال: « قيل: إن الديوان المنسوب لعلي.. إنما هو للشريف المرتضى... »، وفي بروكلمان (٢٥٣/١) أن فهرس الفاتيكان نسَبَ تأليف الديوان إلى سعدي بن تاجي. وانظر أيضًا مادة (ALI B. ABI TALIB) في: THE ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM,v.1, p385 ، وأيضًا: عبقرية الإمام (ضمن مجموع: إسلاميات) لعباس محمود العقاد ص١١٤-١١٥ (دار المعارف، ط٢/١٩٨٥م).

صنع الشيعة في العصور المتأخرة. ويبدو أن تلك الأشعار اعتُمدت لإعادة الاعتبار إلى الشعر »[١]، وبنحوه علّق المَيمنيُّ فقال عن الديوان: « وهو منحول مختلق، وأكثر شعره إمَّا من ديوان أبي العتاهية، أو بعض العلويين من آله، أو غيره، من غائر الشعر؛ أو شعرٌ سخيفُ البنية، ركيك التركيب، خبيث المغزى، من وضع جهَّال الزنادقة، اللّهُمَّ إلا ما صحَّ منه وهو نزْر يسيرٌ جدًّا »[٢].

وعليه، فلن نجعل هذا المجموع المتهافت عمدةً في توثيق المراثي النبويَّة المنسوبة فيه إلى علي رضِي الله عنه. بل سنأخذ في التوثيق أخذنا في هذا الكتاب بتتبُّع كل مرثية على حِدَة مادامت الحال كذلك.

إحدى هذه المراثي المنسوبة إلى علي مرثيةٌ مطلعُها:

أَمِنْ بَعْدِ تَكْفِينِ النَّبِيِّ وَدَفْنِهِ ... بِأَثْوَابِهِ آسَى عَلَى مَيِّتٍ ثَوَى ؟[٣]

وهي مرثيةٌ تظهر عليها أماراتٌ للضعف، أبرزُها الدعوة إلى الإمامة على مذهب الشيعة في قوله:

وَيَطْلُبُ أَقْوَامٌ مَوَارِيثَ هَالِكٍ ... وَفِينَا مَوَارِيثُ النُّبُوَّةِ وَالهُدَى

ومسألة الإمامة « الأصلُ الذي قامت عليه نظريتُهم السياسية في الحكم: إرث الخلافة عن رسول الله، وعدم خروجها عنهم إلا بظلم أو تَقيَّة »[٤]، وإذا أنت قابلت البيت بنظيره في «كتاب الزَّهرة» رأيت لفظة « ولله » مكان لفظة « فينا »[٥] آيةً على التلعُّب، وتعصُّبًا للمذهب

---

(١) تاريخ الأدب العربي، لبلاشير ص٢٤٠ (ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق ١٤١٩هـ).

(٢) إقليد الخزانة أو فهرس عناوين الكتب التي رجع إليها أو أخذ عنها عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب، لعبد العزيز الميمني ص٥٧ (جامعة البنجاب، لاهور ١٩٢٧م).

(٣) مخطوطة أنوار العقول (المكتبة البريطانية) ورقة ٤.

(٤) مراثي النبي ﷺ، للدكتور محمد أبو المجد ص٤٥.

(٥) الزَّهرة، للأصبهاني ٢/٥٠٧، وارجع إلى الفروقات.

والطريقة.

ومن أمارات ضعفها تكرارُ العاجزين المستعصية عليهم مقاليدُ البيان - وما أبعد عليًّا من ذلك ! - كقوله مكرّرًا الفاء و« قد »:

فَقَدْ غَشِيَتْنَا ظُلْمَةٌ بَعْدَ مَوْتِهِ نَهَارًا، فَقَدْ زَادَتْ عَلَى ظُلْمَةِ الدُّجَى

فَيَا خَيْرَ مَنْ ضَمَّ الجَوَانِحُ وَالحَشَا ...

وهو تكرار يُحدث انقباضًا في النفس خصوصًا وهو يُدَّعى لآيةٍ من آيات اللسان العربيّ، عليّ رضي الله عنه.

ومنها المعاني الهيّنة، والتصوير المتكلّف، كقوله:

كَأَنَّ أُمُورَ النَّاسِ بَعْدَكَ ضُمِّنَتْ سَفِينَةَ نُوحٍ البَحْرِ وَالبَحْرُ قَدْ سَمَا

وانظر إلى لفظة « تلك » في هذا البيت:

فَلَنْ يَسْتَقِلَّ النَّاسُ تِلْكَ مُصِيبَةً وَلَنْ يَجْبُرُوا العَظْمَ الَّذِي مِنْهُمُ وَهَى

إنها مثالٌ على الضعف والتأخر.

ولو قرأ قارئٌ القصيدة جملةً واحدةً راعه منها تبرُّؤ بعض أبياتها من بعض، ووجدها لا يقرِّب بينها إلا كمثل حرف الفاء القلق وهو يتردد من غير داعٍ في الأبيات: الثالث، والخامس مرتين، والسادس، والعاشر.

وكان القول قد مضى على أن عليًّا راجزٌ أكثر منه شاعرًا، فممّا يضعّف هذه القصيدة لَفْقًا بما مرَّ كونُها من الشعر لا من الرجز.

وينسبون إليه أبياتًا منها:

مَا فَاضَ دَمْعِي عِنْدَ نَائِبَةٍ إِلاَّ جَعَلْتُكَ لِلْبُكَا سَبَبَا[1]

(١) مخطوطة أنوار العقول (المكتبة البريطانية) ورقة ٦.

وهي لأبي مُحَلِّم محمد بن هشـام الراوية التميميّ ثم السـعديّ، المتوفى سنة خمس وأربعين ومئتين ا وهو أعرابيّ، « قال ابن السِّكِّيت: كان رافضيًّا »[١]. قلتُ: في هذا إشارةٌ ما إلى اختيار الناحل إيّاه دون غيره. وقيل: بل الأبيات لمعقل بن عيسى أخي أبي دلف[٢].

وينسبون إلى عليٍّ مرثيّةً تقطر لوعةً وألمًا، مطلعها:

نَفْسِي عَلَى زَفَرَاتِهَا مَحْبُوسَةٌ ... يَا لَيْتَهَا خَرَجَتْ مَعَ الزَّفَرَاتِ[٣]

وهي ليست لعليٍّ لما رواه أبو الفرج الأصفهانيُّ في «الإماء الشواعر» قال: « حدثني جعْفر بن قدامـة وجحظـةُ قالا: أنشـدنا هبة الله بن إبراهيـم المهديّ، قال: أنشـدني أبي لعِنان جارية النطافي، وفيه لحنٌ لعُليَّة من خفيف الثقيل؛ حدثني بذلك بعض عجائزنا. قال: كنت أسمع هذا الصوت في دارنا منسوبًا إلى أبي حتى غنَّته (رِيقٌ) يومًا، وأخبرتني أنها أخذته من عُليَّة بنت المهديّ :

نَفْسِي عَلَى زَفَرَاتِهَا مَوْقُوفَةٌ ... فَوَدِدْتُ لَوْ خَرَجَتْ مَعَ الحَسَرَاتِ
لَو فِي يَدَيَّ حِسَابُ أَيَّامِي إِذَنْ ... خَطَّرْتُهُنَّ تَعَجُّلاً لِوَفَاتِي
لاَ خَيْرَ بَعْدَكَ فِي الحَيَاةِ وَإِنَّمَا ... أَبْكِي مَخَافَةَ أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي »[٤]

هذا الرثاء اللّيّن المشوب بالعشق لعِنان الجارية المتوفاة سنة ستٍ وعشرين ومئتين؛ نحله مفترٍ عليًّا، ثم أُلصق به هذا النداء السَّمْجَ الغليظ سعيًا وراء الولاية:

---

(١) الوافي بالوفيات، للصفدي ٤٧/١.

(٢) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، ونسبها الزمخشري إلى معقل بن عيسى العِجْلِيّ أو إلى عليّ في: ربيع الأبرار وفصوص الأخبار ١٦٤/٤ (تحقيق عبد المجيد دياب، دار الكتب المصرية ١٤٢٩هـ).

(٣) مخطوطة أنوار العقول (المكتبة البريطانية) ورقة ١١.

(٤) الإماء الشواعر، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في ص٤٥ (تحقيق الدكتور جليل العطية، دار النضال، ط١/١٤٠٤هـ).

يَـا أَيُّهَـا الدَّاعِي وَمَـنْ بِـهِ كَشَـفَ الإِلَهُ رَوَاكِـدَ الظُّلُمَـاتِ
أَطْلِـقْ، فَدَيْتُـكَ، لابْـنِ عَمِّـكَ أَمْرَهُ وَارْمِ عِدَاتَـكَ مِنْـهُ بِالْجَمَـرَاتِ
فَالْمَـوْتُ حَـقٌّ وَالْمَنِيَّـةُ شِرْبَـةٌ تَـأْتِي إِلَيْـهِ فَبَـادِرِ الزَّكَـوَاتِ

وكأنهم كانوا يسعَوْن إلى دسّ الدعوة في كل مكان، وتحت أي غطاءٍ، ولو كان الغطاءُ أبياتًا آيسةً أنثوية القائل والقِوام، ثم لا يتورّعون بعد ذلك من نسبتها إلى عليّ بن أبي طالب(١).

وعزَوا له أو لفاطمة الزهراء هذين البيتين في رثاء النبيّ ﷺ :

كُنْـتَ السَّـوَادَ لِنَاظِـرِي فَبَـكَى عَلَيْـكَ النَّاظِـرُ
مَـنْ شَـاءَ بَعْـدَكَ فَلْيَمُـتْ فَعَلَيْـكَ كُنْـتُ أُحَـاذِرُ(٢)

وهمـا رثـاءٌ عباسيٌّ خالصٌ رثاه إبراهيمُ بن العباس الصُّوليُّ، المتوفى سـنة ثلاث وأربعين ومئتين؛ حدَّث عليُّ بن الحسـين الإسـكافي قـال: « كان لإبراهيم ابنٌ قـد يفَع وترعرع، وكان معجبًـا به، فاعتـلَّ عِلةً لم تطل ومات، فرثاه مراثيَ كثيرة، وجزِع عليه جزعًا شـديدًا، فممَّا رثاه به قوله... » فذكرهما(٣).

وقد بان أن هذه المراثي المضافة إلى عليّ مسروقةٌ من شعر الشعراء المُحْدَثين في دولة بني العباس، منتصفَ القرن الثالث. ولن يكون غريبًا أن تكون المرثيةُ التالية من نتاج تلك

(١) عليٌّ من أكثر مَن وضع على لسانه في تاريخ الأدب العربي (انظر في المنسوب إلى عليّ : تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/١٧٥-١٨٣، تحقيق الدكتور عبد الحليم النجار، دار المعارف، ط٥).

(٢) مخطوطة أنوار العقول (المكتبة البريطانية) ورقة ٤١.

(٣) ديـوان إبراهيـم بن العبـاس الصولي، صنعـة ابن أخيه محمد بـن يحيى ص١٦٩ (تحقيق عبـد العزيز الميمـني، ضمـن الطرائـف الأدبيـة، ط١/١٩٣٧هـ) قـال الميمـني: ويُروَيان لأعرابيـة، ويُرويـان للفتح ابـن خاقـان. والخـبر في الأغاني ١٠/٤٩، ومعجـم الأدبـاء، لياقـوت ١/١٧٧، ووفيات الأعيـان وأنباء أبنـاء الزمـان، لابـن خَلِّكان أحمد بن محمد بـن أبي بكر ١/٤٧ (تحقيق الدكتور إحسـان عباس، دار صـادر، بـيروت).

الأيام العباسيَّة، وهي قوله من عشرة أبيات :

أَلاَ طَـرَقَ النَّـاعِي بِلَيْـلٍ فَرَاعَـنِي وَأَرَّقَـنِي لَمَّـا اسْـتَهَلَّ مُنَادِيَـا[١]

وأخطرُ ما يحملنا على الظنّ بانتِحالها البيتُ الخامس منها:

وكُنْـتُ مَتَى أَهْبِطْ مِـنَ الأَرْضِ تَلْعَةً أَجِـدْ أَثَـرًا قَبْـلِي حَدِيثًـا وَعَافِيَـا

فإنه بيت لزهير بن أبي سُـلمى[٢]. ويحملنا على هذا الظنّ صورة فيها مطنبةٌ إطنابًا مستغربا، وفيها إعادة من إعادات المتشاعرين حين يقول واصفًا النبيَّ ﷺ:

جَـوَادٌ تَشَـظَّى الخَيْـلُ عَنْـهُ كَأَنَّمَـا يَرَيْـنَ بِـهِ لَيْثًـا عَلَيْهِـنَّ ضَارِيَـا؛
مِنَ الأُسْـدِ قَـدْ يَحْمِي العَرِيـنَ مَهَابَةً تَفَـادَى سِـبَاعُ الأَرْضِ مِنْـهُ تَفَادِيَـا
شَدِيدٌ، جَرِيءُ الصَّدْرِ، نَهْدٌ، مُصَدَّرٌ هُـوَ اللَّيْـثُ مَغْـدُوًّا عَلَيْـهِ وَعَادِيَـا

ولا يوصـف الأنبيـاء بمثل هذه الأوصـاف، وإن وُصِف بهـا كان ذلك تبعًا لوصفـه بالرحمة والنور والهدى، ولو قرأت في المراثي النبويّة الصحيحة - مثلاً - وجدتهم يبكون رحمته وعطفه عليهم وإحسانه إليهم، ويبكون الوحي الذي انقطع عنهم بوفاته حديثُ السماء؛ أمّا أن يوصف بنفور الخيل منه لشدّته وبأسـه، وأن سـباع الأرض تتفاداه تفاديًا فكَلاً، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ويقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ومثل هذا يعلمه حقَّ العلم عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ ويؤمن به .

* * *

(١) مخطوطة أنوار العقول (المكتبة البريطانية) ورقة ٤١.

(٢) ديوانه بشرح ثعلب (دار الكتب المصرية ١٣٦٣هـ صوَّرتها دارُ الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ١٤٢٣هـ) .

٣

عُمَر بْنُ الخَطَّاب:

عُرف عمر بن الخطَّاب رضِي الله عنه بذائقة نقديَّةٍ رفيعة، فقد كان رجلاً مُكْبِرًا للشعر يُنشده، ويستنشده، ويحضُّ الناس على أن يعلّموه أبناءهم[١]. ولكن هل كان عمر بن الخطاب شاعرًا ؟

لم يصحَّ أن الخليفة الفاروق كان يُقصِّد القصائد، ولكن من المعقول أنَّ قريحته قد تجود بالنزر من الشعر استجابةً لأصوات الشعراء التي كان يتردَّد صداها في بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها، وعلى ذلك تُحمل نسبةُ مَنْ نَسَبَه إلى الشعر كالشعبيّ في قوله: « كان أبو بكر وعمر شاعرين، وكان عليٌّ أشعر منهما »[٢]، تُحمل على ذلك؛ لأن الشعبي قال بنفسه: « ولكن ليس يُروى لهما شعر يعتمد عليه؛ لأنهم لم يكونوا يقولون إلا الأبيات في أمور تعرض »[٣]، ثم مَثَّل الرازيُّ بمَثَل لندرة شعر عمر، فقال: « والذي عرفه الرواة لعمر بن الخطاب قوله :

مَتَى أَلْقَ زِنْبَاعَ بْنَ رَوْحٍ بِبَلْدَةٍ ... إِلَى النِّصْفِ مِنْهَا يَقْرَعِ السِّنَّ مَنْ نَدِمْ »[٤]

ولن تلقى من بعدُ إلا تردُّدًا في نسبة شعر إلى عمر، فهذا ابن رشيق - مثلاً - ينسب بيتين له ثم يقول: « ويروى للأعور الشَّنّيّ » شاكاً فيهما أن يكونا له؛ ثُمَّة يروي شعرًا مضافًا إليه، يُتبعه بقوله: « وقد رُوي لورقة بن نوفل »[٥].

---

(١) انظر في علاقة عمر بالشعر: تاريخ الأدب العربي (في العصر الإسلامي)، للسباعي السباعي بيومي ٢/٣٢٩-٣٣٥ (مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٥٢م).

(٢) كتاب الزينة، للرازي ص١١٧.

(٣) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٤) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، للحسن بن رشيق القيرواني ١/٣٣ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت).

بـل إن عمـر كان قطع في هذه القضيّة برأيه هو لما أُنشـده مُتَمِّمُ بن نُويرة مراثيَه في أخيه مالـك، فغبطـه عمر، وقال له، ولنا: « لو كنت أُحسـن الشـعرَ لقلـتُ في أخي زيدٍ مثلَ الذي قلـت في أخيك »(١)؛ فما بال قصيدتين عينيتين منسـوبتين لعمر بـن الخطاب في رثاء النبيّ ﷺ إذن ؟

القصيدة الأولى مستهلّةٌ بهذا البيت :

مَـا زِلْتُ مُـذْ وُضِـعَ الفِـرَاشُ لِجَنْبِهِ وَثَـوَى، مَرِيضًـا، خَائِفًـا أَتَوَقَّـعُ(٢)

وهي قصيـدة مختلَقةٌ؛ لما تقدَّم، ولمناقضتها موقف عمر يوم الوفاة يوم تلجلج واضطرب، وأوعـد الناس وأنـذر، ووقف يصرخ فيهم: « ما مات رسـول الله ﷺ، وإنما واعده الله كما واعد موسى، ولَيرجعنَّ رسـولُ الله ﷺ فلَيقطعنَّ أيديَ ناس وأرجلَهم »(٣)، فخرج عليه أبو بكـر، وهو يكلم الناس فقال: اجلس يـا عمر، فأبى، فقام أبو بكرٍ وتلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُـولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُـلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ الله شَيْئًا وَسَيَجْزِي الله الشَّـاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، « قال ابن المسـيَّب: قـال عمر: والله ما هو إلا أن سـمعت أبا بكر تلاهـا فعَقِرْتُ حتى ما تُقِلُّني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها؛ علمت أنَّ النبيَّ ﷺ قد مات »(٤).

أفـلا رجع صاحب القصيدة إلى خبر عُمر المسـتفيض هذا، فحـذف من قصيدته لفظة «أتوقـع»؛ لأن عمـر لم يكن يتوقع وفاتـه ﷺ، بل كان يتأوّل في ذلك؛ فقـد أخرج الطبريُّ بإسـناده عن ابن عباس قال: « والله إني لأمشي مع عمر في خلافته وهو عامدٌ إلى حاجة له،

---

(١) الاستيعاب ٢/٥٥٣.

(٢) انظر التخريج.

(٣) العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبيّ ﷺ، لابن العربي المالكي، محمد بن عبد الله ص٥٥ (دار الجيل، بيروت، ط٣/١٤١٤هـ).

(٤) انظر: صحيح البخاري ٢/٨٩١.

وفي يده الدِّرَّة، وما معه غيري، قال: وهو يحدِّث نفسه، ويضرب وَحْشيَّ قدمه بَدِرَّته، قال: إذْ التفت إليَّ فقال: يا ابن عباس، هل تدري ما حَملني على مقالتي هذه التي قلت حين توفي رسوله؟ قال: قلت: لا أدري يا أمير المؤمنين؛ أنت أعلم. قال: والله إنْ حملني على ذلك إلا أني كنت أقرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ فواللهِ إني كنت لأظنُّ أن رسول الله ﷺ سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها، فإنه لَلَّذي حملني على أن قلتُ ما قلت »[١].

والمرثية الأخرى مكذوبة كأختها، تلطَّف صاحبها لينظم المرويات عن عمرَ يوم الوفاة وما بعده في قالَبٍ من الشعر، فما كان إلا غاصبًا، إليك شيءٌ من تصنُّعه: روى الزهريُّ قال: « لَمَّا توفي رسولُ الله ﷺ قام عمرُ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن صُعق كما صُعق موسى، والله إني لأرجو أن يعيش رسولُ الله ﷺ حتى يقطع أيديَ رجالٍ وألسنتَهم من المنافقين... »[٢]؛ فأخذ المستلبُ الخبر وصوَّره كأنما أراد الاعتذار لعمر، وأخذ خبرَ عمر وابن عباسٍ الذي سلف قريبًا؛ ثم مزجهما مزجًا قصصيًّا رديئًا يفضح تأخُّره وبشي به، فقال:

لَعَمْـرِي لَقَـدْ أَيْقَنْـتُ أَنَّـكَ مَيِّـتٌ ... وَلَكِنَّمَـا أَبْدَى الَّذِي قُلْتُـهُ الجَزَعْ[٣]
وَقُلْـتُ: يَغِيـبُ الـوَحْيُ عَنَّـا لِفَقْدِهِ ... كَمَا غَابَ مُوسَى، ثُمَّ يَرْجِعُ كَمَا رَجَعْ
وَكَانَ هَـوَايَ أَنْ تَطُـولَ حَيَاتُـه ... وَلَيْـسَ لِـحَيٍّ في بَقَـا مَيِّـتٍ طَمَـعْ

ثـم أومـأ إلى تذكير أبي بكرٍ عمرَ بالآية الكريمة، وأن عمر ذكرها فصدَّق بما جاء فيها؛ فقال:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري ٣/٢١١.

(٢) المغازي النبوية، للزهري، محمد بن مسلم بن عبيد الله ص١٣٣ (مستخرج حققه الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، دمشق ١٤٠١هـ).

(٣) انظر تخريج القصيدة.

فَلَـمْ تَـكُ لِي عِنْـدَ المُصِيْبَـةِ حِيلَـةٌ أَرُدُّ بِهَـا أَهْـلَ الشَّـمَاتَةِ وَالقَـذَعْ
سِـوَى إِذْنِ اللهِ الَّذِي فِي كِتَابِـهِ وَمَـا أَذِنَ اللهُ العِبَـادَ بِـهِ يَقَـعْ
وَقَـدْ قُلْـتُ مِـنْ بَعْـدِ المَقَالَـةِ قَوْلَةً لَهَـا فِي حُلُـوقِ الشَّـامِتِينَ بِـهِ بَشَـعْ
أَلاَ إِنَّمَـا كَانَ النَّـبِيُّ مُحَمَّـدٌ إِلَى أَجَـلٍ وَافَى بِـهِ المَـوْتُ فَانْقَطَـعْ

وقصيـدة كهذه لا تُشْـكِلُ ألبتَّةَ تنقلهـا النقلة من العلماء، فالعجبُ لهـم كيف أمرُّوها، ورضُوا بها في كتُبهم!

٤

عَمْرُو بْنُ العَاصِ:

كان عمرُو بنُ العاص رضِي الله عنه أحدَ شعراء قريش، ولم يكن في قريش قبل الإسلام شـعرٌ كثير، وكان عمرُو قبل إسـلامه يؤذي رسول الله ﷺ بشعره؛ فعن محمد بن سيرين قال: «كان يهجـو رسـولَ الله ﷺ ثلاثةُ رهـط من قريش: عبد الله بن الزِّبَعْرى، وأبو سـفيان بن الحارث، وعمرو بن العاصي»[1].

ولِعمرٍو في الإسلام أشعارٌ كثيرةٌ قالها في الحوادث التي أَلَمَّتْ به أو ألَمَّ بها، وله رجز، واقرأ في كتـاب مثـلِ كتاب «وقعة صِفِّين» تجده زاخرًا بشـعرٍ لعمرٍو بعضُه من بعض[2]. وهذا ابنُ عبد البرِّ يقول: «وكان عمرو بن العاص... شاعرًا حسَنَ الشعر، حُفظ عنه الكثير في مشاهد شتّى»[3].

لكـنْ الذي عليـه النقادُ أنَّ عَمْـرًا ليس من الفحول، وهم على أنه ليس من المُسـقِّين

(١) الأغاني ١٣٧/٤.

(٢) اقرأ مثلًا في وقعة صفين في ص٣٩، ٣٤٥، ٣٧٨، ٣٨٤، ٤١١، ٤١٨، ٤٧٢، ٥٥٠.

(٣) الاستيعاب، لابن عبد البر ١١٨٨/٣.

كذلك[١]، ولذلك قال حسَّان بنُ ثابت لمَّا سمع شعره: « هو عاقلٌ، وليس بشاعر »[٢].

وكان عمرو استعمله النبيُّ ﷺ على عُمَان، فلم يزل حتى أتاه الناعي بنبأ الوفاة فأَمضَّ قلبه، وأشجاه، وانفلت يبكي رسول الله ﷺ، فروى له الرواة مراثيَ ثلاثًا:

إحداها قوله:

صَدَعَ القُلُوبَ مَقَالَـةُ الحُدَّانِي ... وَنَعَى النَّبِيَّ خُمِيصَـةُ بْنُ أَبَانِ

وهي في كتاب «الردَّة» لوثيمة بن موسى، صرَّح بذلك ابنُ سيدّ الناس في «مِنَح المِدَح»[٣]، وقال ابن حجر: ذكر وثيمةُ في «الردَّة» أن خميصة بن أبان الحدَّاني قدم من المدينة إلى عمان بوفاة النبيّ ﷺ، وقال لهم: تركت الناس بالمدينة يغلون غَلَيانَ القِدْر، وذكَر قصّةً طويلة، وفيها: فقال عمرو بن العاص: صدع القلوب مقالةُ الحدَّاني...[٤].

ومن يكون وثيمة ؟ قال في «بغية الملتمس»: « وثيمة بن موسى بن الفرات الفارسيّ، الفَسَويّ، أبو يزيد. كان أصله من فارس، وخرج منها إلى البصرة، ثم سافر إلى مصر، وخرج منها إلى الأندلس تاجرًا. وصنف كتابًا في «أخبار الردَّة» وجوَّده، وعاد من الأندلس إلى مصر، وكُتِب عنه. ذكره أبو سعيد في «الغرباء»، وقال: إنه مات بمصر لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين ومئتين »[٥].

وكتاب وثيمة هذا مفقود الآن، وهو كتابٌ ذائع الصِّيت في المشرق والمغرب، أقرب ما يدل

(١) انظر: عمرو بن العاص، لعباس محمود العقاد ص١٨٤ (نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع).

(٢) من اسمه عمرو من الشعراء، لمحمد بن داود الجرَّاح ص١١٠ (تحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٧م).

(٣) انظر: مِنَح المِدَح أو شعراء الصحابة ممن مدح الرَّسول ﷺ أو رثاه، لابن سيد الناس، وقد تصحَّفتْ «ابن إسحاق» إلى «أبي إسحاق»، وفي الكتاب سوى هذه تصحيف كثير.

(٤) انظر: الإصابة ٢/٣٤٥.

(٥) بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، لأحمد بن يحيى الضبي ص٤٨٢ (دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧م).

على ذلك أن صاحب «بغية الملتمس» الضبّيّ المتوفى نهاية القرن السادس كان لم يزل ينعت كتابَ وثيمة بالتجويد. وهذا ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة اثنتين وخمسين وثمانمئة يُكثر الاقتباس منه في «الإصابة»، ويعتمد عليه، ويلتزم قوله، حتى لقد جمع المستشرق هونرباخ الجِذاذَ الباقيةَ المحفوظة منه في كتاب ابن حجر، فأفردها في كتابٍ صغير بقيَّة كتاب وثيمة، ولا عجب في فعله إذا علمنا أن ابن حجر اقتبس من كتاب وثيمة عشر مراتٍ ومئة مرة(١).

والمعنى أنه لن يؤول ناقدٌ نحريرٌ كابن حجر هذا المآل الجمّ إلاّ إلى كتابٍ ذي شأن. وفي ذلك توثيق ابن حجر روايةَ وثيمة في فنِّه التأريخ بالذات، وإعمال من هذا المحدّث لمسألة الاختصاص في العلم.

وفي ذلك الثقةُ منا بهذه المرثية.

وفي المرثية الثانية مَزَج عمروٌ رثاء النبيّ ﷺ بجدل الردَّة؛ وذلك أنهم كانوا يرون حب الدين من حب النبيّ ﷺ، وأن الضرب على يد مانع الزكاة إنْ هو إلا وفاءٌ لحق النبيّ الكبير علهم، وأن رثاء النبيّ ﷺ يكون بالقول والأفعال، وهو بالأفعال أبلغ؛ فشريعة محمد ﷺ في اعتقادهم شريعةٌ تنبض بالحياة وتعُجُّ بالبذل والعمل. وعمرٌو في هذه القصيدة يُرادُ قُرَّةَ بنَ سلمة بن هُبيرة القُشيريَّ، وكان يظنُّه من مانعي الزكاة، فيقول:

يَا قُرَّ إِنَّكَ لاَ مَحَالَةَ مَيِّتٌ ... يَوْمًا، وَإِنَّكَ بَعْدَ مَوْتِكَ رَاجِعُ
إِنْ كَانَ أَوْدَى بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَاجِعُ
فَاللهُ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، وَدِينُنَا ... دِينُ النَّبِيِّ، وَلِلرِّجَالِ مَصَارِعُ
لَيْسَ الخَلِيْفَةُ تَارِكًا لِزَكَاتِكُمْ ... مَا دَامَ سَلْعٌ فِي البَسِيْطِ وفَارِعُ

وقد رواها وثيمةُ أيضًا عن ابن إسحاق في «الردَّة»، صرَّح بذلك ابنُ سيد الناس في «مِنَح

(١) انظر: تاريخ التراث العربي، للدكتور سزكين (التدوين التاريخي) المجلد الأول ٢/٥٠.

اليـمَدَح»[١]، ووردت القصيـدة في كتـاب «الردَّة» الآخر الذي نسـبه محققِـه الدكتور الجبوريُّ للواقـديّ، كأنه اسـتكان إلى عزو صاحب «كشـف الظنـون» إيَّاه للواقـديّ[٢]، ولا يمنع أن يكـون للواقـدي كتاب في الـردَّة غيره، وإن قـراءةً لأوّل الكتاب تبدي لنـا حقيقةَ مؤلفه، ففيـه: «روى أبـو القاسـم عبد الله بن حفص بـن مهران البردعيُّ - أعـزه الله تعالى - قال: حدثـني أبو محمد أحمد بن أَعْثم الكوفيُّ قراءةً عليه، قال: حدثني: أبو جعفر عبد العزيز بن المبارك، قال: حدثني نعيم بن مُزاحم المِنْقَري، قال: حدثني محمد بن عمر بن واقد الأسلميّ؛ وحدثـني إبراهيـم بن عبـد الله بن العلاء القرشي عن محمد بن إسـحاق بن يسـار المطلبيّ، قال: حدثني الزهريُّ [و] زيد بن رُومان، وصالح بن كيسان، ويحيى بن عروة، عن الزبير بن العوَّام، ومحمود بن لبيد، وعاصم بن عمر بن قتادة كلٌّ يذكر....» الكتاب[٣].

وواضحٌ أن لهذا الإسناد طريقين: طريقٍ من ابن أعثم مُنْتهٍ إلى الواقديّ، وطريقٍ منه آخر عن محمد بن إسـحاق منتهٍ إلى الزبير بن العوام الصحابي الجليل، ومحمود بن لبيد من كبار التابعـين، وعاصم بـن عمر صاحب المغازي والسِّـيَر، من هذين الطريقـين نعلم أن مؤلف «كتـاب الـردَّة» في صورته الأخيرة هو ابن أعثم الكوفي، وما الواقديُّ إلا مصدر من مصادره التي صدر عنها، بل لعلَّ الطريقَ الثانية أجودُ من الطريق التي إلى الوَاقديّ، فهي أعلى، وفيها صحابيٌّ كبير، وتابعيٌّ كبير، وصاحبا مغازٍ وسير، ولعلها هي الطريق التي رُويت منها المرثية، مثلما مرَّ منذ قليل من رواية وثيمة عند ابن سيد الناس.

ومـن المحتمل أن يكون مؤلف «الردَّة» روى بعض كتابه بإسـنادٍ، وروى بعضًا بإسـناد آخر أو بأسانيد أخرى، فلم يصِل كلَّ رواية بإسنادها، وإنما جمع أسانيده كلَّها في أول الكتاب،

(١) انظر: منح المدح ص٢٠١.

(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان «القسم الثاني» ١٨/٥، وانظر: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، لإدوارد فنديك ص٦٥ (دار صادر، بيروت ١٨٩٦م)، وفيه بعض الكتب المنسوبة إلى الواقدي خطأً.

(٣) كتاب الردَّة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنىَّ بن حارثة الشيباني، المنسوب لمحمد بن عمر الواقدي ص٢٧-٢٨ (تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، دار المغرب، بيروت ١٤١٠هـ).

وكأنـه يذكـر مصادره، وهو ما يُعرف بالإسـناد الجمـعيّ، وهذه الطريقة معمـول بها عندهم على قِلَّـة، قال الزركشيُّ في «النكت على مقدمة ابـن الصلاح»: « بقيت حالةٌ أُخرى، وهو أن يكـون قـد روى بعضَه عن جماعةٍ، ورواه كلَّه عن غيرهم، فكيـف يصنع ؟ لم يتعرَّضوا له، وقـد تعـرض ابن الصلاح لـشيءٍ منه في الحادي العشرين، وهو موجـودٌ في رواية الزهري في حديث الإفك، وقد قال الزهريُّ: أخبرني عروة بن الزبير، وسـعيد بن المسـيَّب، وعلقمة بن أبي وقاصٍ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة زوج النبيّ ﷺ... وكلٌّ حدثني طائفةً من الحديث، وبعض حديثهم يُصدِّق بعضًا، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض... وساق الحديث، وهو في الصحيح، وهذا يستعمله أهلُ المغازي والسِّيَر، ولا يُعلم منه القـدر الذي رواه عـن كل واحدٍ من الذين حدَّثوه طائفـةً منهم »[1]. فهذا نصٌّ فريدٌ من أحد الأئمة على هذا النوع الدقيق من مذاهب المؤرخين في الرواية.

وسـواءٌ أجـاءت القصيدة من طريق الواقـديّ، أم جاءت من طريق ابن إسـحاق، أم من الطريقـين كليهمـا؛ لا مندوحـة مـن قبولها؛ لأنها صادفـت - أيًّا كانت الطريـقُ - قومًا من أعـلام التأريخ والروايـة، وكلٌّ أولي فنٍّ أخبر بفنهم من غيرهـم[2]، ولأن القصائد المرويّة في الكتاب مستقيمةٌ لأول وهلةٍ لا تكاد تختلف عن شعر الصدر الأول.

والمرثية بعد ذلك تشبه شعر عمروٍ شَبَهًا يحملنا على اليقين أنها منه؛ فهي وجيزةٌ، ومنذرةٌ إنذار السيد العزيز، واسمع لعمروٍ مخاطبًا قُرَّة بنَ هبيرة فيها:

إِنْ تَمْنَعُوهَـا تَأْتِكُـمْ مَبْثُوثَـةً ... قُـبَّ البُطُـونِ مِـنَ الفِجَـاجِ طَوَالِعُ
يَعْلُـونَ مِـنْ عُلْيَـا هَـوَازِنَ نِهْيَهَـا ... فِيهَـا المَنِيَّـةُ والسِّـمَامُ النَّاقِـعُ
وَاعْلَـمْ بِـأَنَّ لِـكُلِّ سَـاعٍ سَـعْيَهُ ... هَـذَا لَعَمْـرُ أَبِيـكَ أَمْـرٌ جَامِـعُ

---

(١) النكت على مقدمة ابن الصلاح، للزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر ٦٢٧/٢-٦٢٨ (تحقيق الدكتور زين العابدين بلا فريج، دار أضواء السلف). وقد ذكره ابن الصلاح في العشرين لا في الحادي والعشرين.

(٢) اقرأ كلمة الذهبيّ في ص٥٠ من هذه الدراسة.

ألا تـرى إلى هذه الحروف البليغة من حروف الأوّلين التي تتمنّع على سـواد الوضّاعين ؟ ألست تسمع صوت عمرٍو فيها متهدّجًا بأنفاسه لا يحب إبطاءً في أداء حق الرّسول عليهم ؟ ألست تسمعه صوتًا واثقًا عزيزًا عاليًا ؟

ثم إن قصيدتيه هاتين نمطٌ من الكلام واحدٌ؛ يفتح عمرُو فيهما بابَ الشـعر بذكر اسـم رجل من الناس وسيلةً للدخول إلى القصيدة، وللشعراء المذاهبُ في المطالع، وإيرادُ الأسماء مـن مذهـب عمرٍو في مطالـع قصائده، فقد فتـح في القصيدة الأولى بـ(خميصـة)، وفتح في الثانية بـ(قُرَّة)، وفتح شعرًا آخر له بنحو من ذلك، منه قولُه:

إنَّ عَكًّا وَحَاشِدًا وَبَجِيلاً ... كَأُسُودِ الضِّرَابِ لاَقَتْ أُسُودَا[1]

وقولُه:

أَلاَ لِلّهِ دَرُّكَ يَا ابْنَ هِنْدٍ ... وَدَرُّ الآمِرِينَ لَكَ الشُّهُودِ[2]

وقولُه:

تَسِيرُ إِلَى ابْنِ ذِي يَزَنٍ سَعِيدٍ ... وَتَتْرُكُ فِي العَجَاجَةِ مَنْ دَعَاكَا[3]

وقوله:

طَارَ البَلاَءُ وَمَا يُرْجَى لَهُ آسٍ ... بَعْدَ الإِلَهِ سِوَى رِفْقِ ابْنِ عَبَّاسِ[4]

وقولُه:

لَعَمْرِي لَقَدْ لاَقَتْ بِصِفِّينَ خَيْلُنَا ... سُمَيْرًا فَلَمْ يَعْدِلْنَ عَنْهُ تَخَوُّفَا[5]

---

(١) انظر: المصدر السابق ص٤٧٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٤٧٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ص٤١١.

(٤) انظر: المصدر السابق ص٣٨٤.

والأمثلة عدا ما مثَّلتُ به كثير.

وعـزاءُ عمرٍو في مصابـه بالنبيّ ﷺ واحدٌ في القصيدتين؛ عزاؤه بقـاءُ الدِّين الذي أوحى الله به إلى محمد:

أَوْ كَانَ قَـدْ مَـاتَ النَّـبِيُّ فَدِينُنَـا ... دِيـنُ النَّـبِيِّ، وَمَـا هَـدَاهُ هَـدَانِي
كَانَ النَّـبِيُّ أَمَانَـةً مَضْمُونَـةً ... فِينَـا إِلَى أَجَـلٍ وَحَـدٍّ أَوَانِ
فَارْتَدَّهَـا مَـنْ كَانَ يَمْلِـكُ رَدَّهَـا ... هَـذَا لَعَمْـرُ أَبِيـكَ فِي الفُرْقَـانِ

وإنك راءٍ عزاءه هذا في مرثيته العينية:

إِنْ كَانَ أَوْدَى بِالنَّـبِيِّ مُحَمَّـدٍ ... صَـلَّى الإِلَهُ عَلَيْـهِ دَهْـرٌ فَاجِـعُ؛
فَـالله حَيٌّ لاَ يَمُـوتُ، وَدِينُنَـا ... دِيـنُ النَّـبِيِّ، وَلِلرِّجَـالِ مَصَـارِعُ

وللشاعر في القصيدتين خاتمةٌ لا تختلف:

فَارْتَدَّهَـا مَـنْ كَانَ يَمْلِـكُ رَدَّهَـا ... هَـذَا لَعَمْـرُ أَبِيـكَ فِي الفُرْقَـانِ
وَاعْلَـمْ بِأَنَّ لِكُلِّ سَـاعٍ سَـعْيَهُ ... هَـذَا لَعَمْـرُ أَبِيـكَ أَمْـرٌ جَامِـعُ

ثم إن القصيدتين كلتيهما من بحر الكامل، وهما معًا قصيرتان، ثمانية أبيات، وقد أتتا في كتابـين مختلفين من كتب الردَّة، ولم نسـمع بقدْحٍ فيهمـا، كلاًّ، ولا وجدنا فيهما دَخَنا، وإن كل واحـدةٍ منهما عَضُـدٌ لأختها، وإنهما وهذه حالهما صحيحتـان جَيِّدتان قالهما عمرو بن العاص رضِي الله عنه.

أمَّـا ثالثة المراثي المنسـوبة لعمرٍو فمرويَّـةٌ في كتاب «الاكتفـا» لأبي الربيع الكلاعي، مطلعُهـا :

أَتَـانِي وَرَحْـلِي فِي عُمَـانَ مُصِيبَـةٌ ... فَبِـتُّ بِعَيْنٍ طَرْفُهَـا طَـرْفُ أَرْمَدِ[1]

(١) الاكتفا، للكلاعي ٢/٦٥-٦٦.

وهي سبعة أبيات انفرد بها الكَلاعي، ولم يذكر عمَّن أخذها، ولم يذكرها ابن سيد الناس في «مِنَح المِدَح» وهو الذي ذكر المرثيَتين الأُوليَيْن، ولا ذكرها المَقريزي في «إمتاع الأسماع» وهو الذي ينقل المراثيَ عن وثيمة، وقد ذكر المرثيَتين الأوليين أيضًا[1].

فالقصيدة ليست في كتاب وثيمة، ولا هي بمعروفةٍ قَبل الكَلاعيّ المتوفى سنة أربع وثلاثين وستمئة، ففي النفس منها شيءٌ قوَّاه رَوِيُّ الدال فيها الذي يذكِّرنا بالمراثي الداليَّة الضعيفة المنسوبة لحسَّان بن ثابت تلك، وقارن بين قولِه هنا:

فَقَدْنَا بِهِ وَحْيَ السَّمَاءِ، وَنِعْمَةً ... تَرُوحُ عَلَيْنَا بِالشَّنَانِ وَتَغْتَدِي
وَأَوْحَشَ مِنْهُ مِنْبَرٌ كَانَ زِينَةً ... وَمَسْجِدُهُ وَحْشٌ فَيَا خَيْرَ مَسْجِدِ

وبين المنسوب إلى حسَّان من نحو قوله:

وَأَمْسَتْ بِلادُ الحُرْمِ وَحْشًا بِقَاعُهَا ... لِغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنَ الوَحْيِ تَعْهَدُ
قِفَارًا، سِوَى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ ضَافَهَا ... فَقِيدٌ يُبَكِّيهِ بَلاَطٌ وَغَرْقَدُ
وَمَسْجِدُهُ، فَالْمُوحِشَاتُ لِفَقْدِهِ ... خَلاَءٌ لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدُ

ثم إن القصيدتين كلتيهما من البحر الطويل.

وقوَّاه أيضًا نظمُ الشاعر القصة التي لا نعلم مدى ثبوتها من أنَّ المغيرة بن شُعبة كان يزعم أنه آخر الناس عهدًا برسول الله ﷺ إذ ألقى خاتمه في القبر وهم يهيلون التراب، فنزل وأخذه. وكان يفتخر بذلك. وأنكره قومٌ من الصحابة[2]. أقول: إنَّ نظم القصة حيلة ضعيفة من حيل الوضّاعين التي يُلبِّسون بها ظانّين أن شهرة مثل هذه القصص ستسيغ شعرهم المكذوب عند الناس، وقد رأينا غير مثالٍ لهذه الطريقة من طرق التدليس في هذه

(١) انظر التخريج والفروقات.

(٢) انظر: الاكتفا ٢/٦٦.

الدراسة[١]، وقد قال صاحبنا في نظم هذه القصّة :

فَلَوْ كُنْتَ يَوْمًا شَاهِدًا لِوَفَاتِهِ ... لَمَسَّتْ تُرَابًا مِنْ ضَرِيحَتِهِ يَدِي
بِإِذْنٍ يَرَاهُ أَهْلُهُ وَمُكِيدُهُ ... أَسُودُ بِهَا مَا عِشْتُ يَوْمِي وَفِي غَدِي[٢]
كَمَا نَالَهَا مِنْهُ المُغِيرَةُ خَدْعَةً ... وَمَا أَنَا دُونَ الطَّائِفِيِّ الحَفَيْدَدِ

* * *

(١) مرّ مثل ذلك في حادثة سُراقة في مراثي أبي بكر، وفي موقف عمر يوم وفاة النبّي ﷺ.

(٢) هذا البيت يُذكّر بالبيت المنسوب إلى حسّان في إحدى مراثيه الضعيفة:

أو حلَّ أمر الله فينا عاجلاً ... في روحة من يومنا أو في غدِ

الفصل الرابع

تَوثيقُ مَرَاثِي أَهلِ اليَمَنِ

رضِي الله عنهم

المراثي

(٢٦)

عَامِرِ بنُ الطُّفَيلِ الأَزْدِيُّ: [من الخفيف] *

١ بَكَتِ الأَرْضُ وَالسَّمَاءُ عَلَى النُّو ... رِ الَّذِي كَانَ لِلْعِبَادِ سِرَاجَا
٢ مَنْ هُدِينَا بِهِ إِلَى سُبُلِ الحَقْ ... قِ، وَكُنَّا لاَ نَعْرِفُ المِنْهَاجَا
٣ وَتَّرَ الدَّهْرُ قَوْسَهُ فَرَمَى القَلْـ ... ـبَ، فَلَمْ يُخْطِهِ، فَصِرْنَا هَمَاجَا[1]

* * *

* التخريج: المقطّعة في مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٩)، وهي مما أخلّت به مطبوعته؛ مِنَح المِدَح ص١٤٢؛ وهي في الإصابة ٣/٥٨٤ البيتان: ١، ٢.

(١) وتَّر قوسه: شدها (اللسان: وتر). والهماج: جمع هَمَجة: البعوض والذباب الصغير الذي يسقط على وجوه الإبل. يقال لرذال الناس (اللسان: همج).

(٢٧)

سَوَادُ بنُ قَارِبٍ: [من الكامل]*

١ جَلَّتْ مُصِيبَتُكَ الغَدَاةَ سَوادُ ... وَأَرَى المُصِيبَةَ بَعْدَهَا تَزْدَادُ
٢ أَبْقَى لَنَا فَقْدُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْهِ - مَا يُعْتَادُ(١)
٣ حُزْنًا - لَعَمْرُكَ - فِي الفُؤَادِ مُخَامِرًا ... أَوْ هَلْ لِمَنْ فَقَدَ النَّبِيَّ فُؤَادُ ؟
٤ كُنَّا نَحُلُّ بِهِ جَنَابًا مُمْرِعًا ... جَفَّ الجَنَابُ فَأَجْدَبَ الرُّوَّادُ(٢)
٥ فَبَكَتْ عَلَيْهِ أَرْضُنَا وَسَمَاؤُنَا ... وَتَصَدَّعَتْ وَجْدًا بِهِ الأَكْبَادُ
٦ قَلَّ المَتَاعُ بِهِ، وَكَانَ عِيَانُهُ ... حُلُمًا تَضَمَّنَ سَكْرَتَيْهِ رُقَادُ
٧ كَانَ العِيَانُ هُوَ الطَّرِيفَ، وَحُزْنُهُ ... بَاقٍ - لَعَمْرُكَ - فِي النُّفُوسِ، تِلَادُ(٣)
٨ إِنَّ النَّبِيَّ وَفَاتُهُ كَحَيَاتِهِ: ... الحَقُّ حَقٌّ، وَالجِهَادُ جِهَادُ
٩ لَوْ قِيلَ: تَفْدُونَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ؟ ... بُذِلَتْ لَهُ الأَمْوَالُ وَالأَوْلَادُ
١٠ وَتَسَارَعَتْ فِيهِ النُّفُوسُ بِبَذْلِهَا ... هَذَا لَهُ الأَغْيَابُ وَالأَشْهَادُ
١١ هَذَا، وَهَذَا لَا يَرُدُّ نَبِيَّنَا ... لَوْ كَانَ يَفْدِيهِ فَدَاهُ سَوَادُ
١٢ أَنِّي أُحَاذِرُ، وَالحَوَادِثُ جَمَّةٌ ... أَمْرًا لِعَاصِفِ رِيحِهِ إِرْعَادُ

---

* التخريج: جعلتُ الروض الأنف للسُّهيلي ٢/٣٢٤ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي الاكتفا ٢/٧٠ الأبيات: ١-١١.

١. في الاكتفا: «... ترداد» بالراء المهملة، والتَّرْدَاد: إعادة الحديث ورجعه (اللسان: ردد).

٤. في الاكتفا: «خف...» بالخاء الفوقية، تصحيف.

٨. في الاكتفا: «والحق حق...».

١٠. في الاكتفا: «... لبذلها».

١١. في الاكتفا: «... فداء...» تصحيف يورث إقواءً.

---

(١) أي أن المصائب بعد وفاة الرَّسول ﷺ صارت هيّنة عاديّة.

(٢) الجَنَاب ما حول القوم من فناء أو ناحية (تاج العروس: جنب). ومكان مَرِعٌ ومَرِيعٌ: خصيب مُمْرِع ناجع (اللسان: مرع).
والرائد: الذي يُرسَل في التماس النُّجْعَة وطلب الكلأ.

(٣) الطريف: المستحدث (اللسان: طرف). والتِّلَاد: ما توالد عندك فتَلِدِ من رقيق أو سائمة، وتلد فلان عندنا أي ولدنا أمه وأباه (اللسان: تلد). يقول: إن الحزن باقٍ في القلوب متوارث بعد وفاة الرَّسول ﷺ.

١٣ إنْ حَلَّ مِنْهُ مَا يُخَافُ فَأَنْتُمُ لِلأَرْضِ، إنْ رَجَفَتْ بِنَا، أَوْتَادُ
١٤ لَوْ زَادَ قَوْمٌ فَوْقَ مُنْيَةِ صَاحِبٍ زِدْتُمْ، وَلَيْسَ لِمُنْيَةٍ مُزْدَادُ[1]

***

(١) المُنْية: ما يتمنَّاه الإنسان (اللسان: مني).

(٢٨)

ابنُ ذِي أَصْبَح: [من مجزوء الخفيف]*

١ صَدَّعَ القَلْبَ أَهْوَدُ إِذْ نَعَى لِي مُحَمَّدَا[1]
٢ لَيْتَنِي قَبْلَ هُلْكِهِ كُنْتُ ثُوِيتُ المَلْحَدَا[2]
٣ لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ رَأَيْـ ـتُ أَخَا الأَزْدِ أَهْوَدَا

* * *

* التخريج: جعلتُ مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٩) أصلاً لهذه المقطّعة، وهي مما أخلّت به المطبوعة؛ وهي في مِنَح المِدَح ص١٠١؛ وفي الإصابة ١/١٤٣ البيتان: ١، ٣.

١. في الإصابة: « جزَّع... ».

٢. في منح المدح: « كنت بُوِّئْتُ مَلْحَدا »، وهي روايةٌ جيّدة؛ للوزن.

---

(١) الصدع: الشق (اللسان: صدع)، وقد رُوي في «الإصابة»: بينما حمير مجتمعة إلى مقاولها إذ أقبل راكبٌ من الأزد يقال له: أهود بن عياض، فقال: يا معشر حمير، أنعي إليكم النبيَّ ﷺ. فقال له ابن ذي أصبح: جدَّعك الله وافد قوم، كذبتَ! ما مات. قال: بلى والذي بعثه بالحق، فما جزعكم؟ فوالله أنا أجزعُ منكم! ولو وجدت أرقَّ منكم أفئدةً، وأغزر عيونًا؛ لنعيته إليهم. فأخرجوه من بينهم، وكان عابدًا، فقال: اللَّهُمَّ إني إنما نعيت إليهم رسولك لئلا يفتتنوا بعده، وليواسوني في جزعي عليه، فلما تواترت الرُّكبان بموته ﷺ آوَوْه بعد ذلك، وفي ذلك يقول ابن ذي أصبح: صدع القلبَ أهود... الأبيات.

(٢) ثوى: أقام (اللسان: ثوا).

(٢٩)

امْرُؤ القَيْس بنُ عَابِس: [من الكامل]*

١ شَمِتَ البَغَايَا يَوْمَ أَعْلَنَّ جَهْبَلُ ... بِنَعِيِّ أَحْمَدَ النَّبِيِّ المُهْتَدِي[١]

٢ صَلَّى الإلَهُ عَلَيْهِ مِنْ مُسْتَوْدَعٍ ... أَمْسَى بِيَثْرِبَ ثَاوِيًا فِي مَلْحَدِ[٢]

٣ يَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... عَنِّي أَبَا بَكْرٍ خَلِيفَةَ أَحْمَدِ

٤ لاَ تَتْرُكَنَّ عَوَاهِرًا سُودَ الذُّرَى ... يَزْعُمْنَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يُفْقَدِ[٣]

٥ اشْفِ الغَلِيلَ بِقَطْعِهِنَّ فَإِنَّهَا ... كَالجَمْرِ بَيْنَ جَوَانِحِي لَمْ تَبْرُدِ

* * *

* التخريج: جعلتُ المحبَّر لابن حبيب ص١٨٦ أصلاً لهذه المقطّعة؛ وفي الطبقات الكبير ٣١٠/٦، والإصابة ٥١٨/١، وأسد الغابة لابن الأثير ٥٧٤/١ (تحقيق علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت) البيت الأول.

١. في الإصابة: «... النعايا... » تصحيف.

(١) في المحبَّر ص١٨٦: «لما قبض رسول الله ﷺ ذهب بنعيّه إلى حضرموت رجلٌ من كليب، من بني عامر بن عوف، وبني الجلاح، يقال له: جهبل... وكان بحضرموت ستُّ نسوة من كِنْدة وحضرموت يتمنين موت رسول الله ﷺ، فخضبن بالحناء، وضربن الدفوف، فخرج إليهن بغايا حضرموت ففعلن كفعلهن. وكان اللواتي اجتمعن إلى الست النسوة نيفًا وعشرين امرأة، فكن متفرقات في قرى حضرموت... فكتب امرؤ القيس بن عابس الكِنْديُّ إلى أبي بكر... شمت البغايا... » الأبيات.

(٢) قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]: مستقرها في الأرحام، ومستودعها في الأرض (تهذيب اللغة، للأزهري: أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي (يدع)، تحقيق عبد السلام هارون وعبد الحليم النجار، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة). وثوى بالمكان: أقام (أساس البلاغة: ثوى).

(٣) الذُّرى: الشيب (تهذيب اللغة: ذرأ) يصفهن بأنهن يُزوِّرن الشيب بالسواد، أو أن يكون مرادُه بالذُّرى الشعر الأسود نفسه؛ لأن ذِروة كل شيء أعلاه، والعواهر يكشفن - في العادة - عن شعرهن.

(٣٠)

عبدُ الله بنُ مَالِكٍ الأَرْحَبِيُّ: [من الطويل]*

١ لَعَمْـرِي لَـئِنْ مَـاتَ النَّـبِيُّ مُحَمَّـدٌ ... لَمَا مَـاتَ يَا ابْنَ القَيْـلِ رَبُّ مُحَمَّدِ[1]

٢ وَمَـا كَانَ إِلاَّ مُرْسَـلاً بِرِسَـالَةٍ ... لِيُبْلِغَهَـا، وَالحَادِثَـاتُ بِمَرْصَـدِ

٣ وَلَمَّـا قَضَى مِـنْ ذَاكَ مَـا كَانَ قَاضِيًا ... وَلَـمْ يَبْـقَ شَيْءٌ فِيـهِ إِلْحَـادُ مُلْحِدِ؛

٤ دَعَاهُ إِلَيْـهِ رَبُّـهُ فَأَجَابَـهُ ... فَيَا خَيْرَ غَوْرِيٍّ، وَيَـا خَيْرَ مُنْجِدِ![2]

٥ وَمَـا نَحْـنُ إِلاَّ مِثْـلُ مَـنْ كَانَ قَبْلَنَـا ... فَرِيقَـيْنِ شَـتَّى: كَافِـرٍ وَمُوَحِّـدِ

٦ وَنَحْـنُ عَلَى مَـا كَانَ بِالأَمْـسِ بَيْنَنَـا ... مِنَ الدِّينِ، نَهْـدِي مَنْ أَرَادَ فَيَهْتَدِي

* * *

* التخريج: جعلتُ الاكتفا ٢/٦٨ أصلاً لهذه المقطّعة، وفي مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٩، ١٨٣٠) الأبيات: ١-٤، ٦ وهي مما أخلت به مطبوعته، وفي منح المنح ص١٥٨ الأبيات نفسها: ١-٤، ٦؛ وفي الإصابة ٤/٢٢٥ البيتان: ١، ٤.

(١) القَيْل: الملك بلغة أهل اليمن، أو من ملوك حمير خاصة، أو هو دون الملك الأعلى (تاج العروس: قول).

(٢) غور كل شيء: قعره، والغور: المطمئن من الأرض (الصحاح: غور). والمُنْجِد: من نَجَد وهو ما ارتفع من الأرض (الصحاح: نجد). وكانوا يقولون: غار وأنجد، أي نزل وصعّد.

(٣١)

عبدُ الحارث بنُ أَنَس بنِ الدَّيَّان: [من الطويل]

١ لَعَمْرِي لَئِنْ كَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ [سَلاَمُ] اللهِ - أَوْدَى بِهِ القَدَرْ
٢ لَقَدْ كَسَفَتْ شَمْسُ النَّهَارِ لِفقْدِهِ وَبَكَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ، وَانْكَسَفَ الْقَمَرْ
٣ وَبَكَتْهُ آفَاقُ السَّمَاءِ وَمَا لَهَا وَلِلأَرْضِ شَجْوٌ غَيْرُ ذَاكَ وَلاَ عِبَرْ[(١)]
٤ وَلَوْ قِيلَ: تَفْدُونَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ؟ لَقُلْنَا: نَعَمْ، بِالنَّفْسِ وَالسَّمْعِ وَالبَصَرْ
٥ وَقَلَّ لَهُ مِنَّا الفِدَاءُ، وَهَذِهِ وَإِنْ بُذِلَتْ لاَ يُسْتَرَدُّ بِهَا بَشَرْ
٦ فَإِنْ يَكُ وَافَاهُ الحِمَامُ فَدِينُهُ عَلَى كُلِّ دِينٍ خَالَفَ الحَقَّ قَدْ ظَهَرْ
٧ وَنَحْنُ بِحَمْدِ اللهِ هَامَةُ مَذْحِجٍ بَنُو الحَارِثِ الخَيْرِ الَّذِينَ هُمُ الغُرَرْ[(٢)]
٨ بِنَجْرَان، نُعْطِي مَنْ سَعَى صَدَقَاتِنَا مُوَقَّرَةً، مَا فِي الخُدُودِ لَهَا صَعَرْ[(٣)]
٩ وَنَحْنُ عَلَى دِينِ النَّبِيِّ نَرَى الَّذِي نَهَانَا حَرَامًا مِنْهُ، وَالأَمْرُ مَا أَمَرْ
١٠ أُحَاذِرُ إِنْ لَمْ يَدْفَعِ اللهُ جَوْلَةً مُجَدَّعَةً، يَبْيَضُّ مِنْ هَوْلِهَا الشَّعَرْ[(٤)]
١١ يُحَيِّنُ فِيهَا اللهُ مَنْ خَفَّ حِلْمُهُ وَيَسْعَدُ فِيهَا ذُو الأَنَاةِ بِمَا صَبَرْ[(٥)]

* التخريج: جعلتُ الاكتفا ٧١/٢ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي مِنَح المِدَح ص١٧٨ الأبيات: ١، ٧-٩؛ وفي الإصابة ٢٧٩/٤ البيتان: ٧، ٩.

١. في الأصل: « عليه السلام... » تحريف.
٧. في الإصابة: «... الذين همُ مدر » أي متماسكون مأخوذ من قطع الطين اليابس المتماسك (تاج العروس: مدر). وفي منح المدح: «... هم العُدر » من العدر: الجرأة، والمطر الشديد (اللسان: عدر).
٨. في الإصابة: «... نعطي من يلي... ».

---

(١) الشجو: الحزن (أساس البلاغة: شجو) والعَبَر: الثكل (أساس البلاغة: عبر) وفي لسان العرب عن ابن جِنِّي: عِبَرَ بكسر فضم جمع عَبرة، وهي الدمعة (عبر).
(٢) هامة القوم: سيّدهم (أساس البلاغة: هوم). والغُرَّة: بياض في جبهة الفرس (اللسان: غرر).
(٣) صعَر الخد: ميله من الكبر (اللسان: صعر).
(٤) جال القوم جولة: إذا انكشفوا ثم كرُّوا (جمهرة اللغة: جلو)، والجدع: قطع الأنف (الصحاح: جدع).
(٥) حان الرجل: هلك، وأحانه الله. وفي المثل: أتتك بحائنٍ رِجلاهُ. وكل شيءٍ لم يوفَّق للرشاد فقد حان. يقال: حان يحين حَيناً، وحيَّنه الله فتحيَّن (اللسان: حين).

١٢ نُطِيعُ قُرَيْشًا مَا أَطَاعُوا، فَإِنْ عَصَوْا أَبَيْنَا، وَلَمْ نَشْرِ السَّلاَمَةَ بِالغَرَرْ
١٣ وَكَانَ لِهَذَا الأَمْرِ مِنْهُمْ ثَلاَثَةٌ عَلِيٌّ، أَوِ الصِّدِّيقُ، أَوْ ثَالِثٌ عُمَرْ
١٤ فَلَمْ يُخْطِئُوا إِذْ سَدَّدُوهَا لِبَعْضِهِمْ هُمُ مَا هُمُ، كُلٌّ لإِرْعَادِهِ مَطَرْ

***

(٣٢)

عبدُ اللهِ بنُ سَلَمَةَ الهَمْدَانِيُّ: [من الخفيف]*

١ إِنَّ فَقْدَ النَّبِيِّ صَرَّعَنَا اليَوْ مَ، فَدَتْهُ الأَسْمَاعُ وَالأَبْصَارُ[1]
٢ وَفَدَتْهُ النُّفُوسُ، لَيْسَ مِنَ المَوْ تِ فِرَارٌ، وَأَيْنَ أَيْنَ الفِرَارُ ؟ !
٣ مَا أُصِيبَتْ بِهِ الغَدَاةَ قُرَيْشٌ لاَ ! وَلاَ أُفْرِدَتْ بِهِ الأَنْصَارُ؛
٤ دُونَ مَنْ وَجَّهَ الصَّلاَةَ إِلَى اللَّـ ـهِ وَقَدْ هَنِئَتْ بِهِ الكُفَّارُ
٥ وَرِجَالٌ مُنَافِقُونَ شِمَاتٌ يَوْمَ وَارَوْهُ كُفْرُهُمْ إِسْرَارُ
٦ مَنْ بَكَتْهُ السَّمَاءُ تُسْعِدُهَا الأَرْ ضُ، وَأَيْضًا بَعْدَ القِفَارِ البِحَارُ
٧ وَسَرَافِيلُ قَدْ بَكَاهُ، وَجِبْرِيـ ـلُ، وَمِيكَالُ، وَالمَلاَ الأَطْهَارُ
٨ يَا لَهَا كِلْمَةً يَضِيقُ بِهَا الخَلْـ ـقُ أَتَانَا بِنَقْلِهَا السُّفَّارُ[2]
٩ قِيلَ: مَاتَ النَّبِيُّ؛ فَانْصَدَعَ القَلْـ ـبُ، وَشَابَتْ مِنْ هَوْلِهَا الأَشْعَارُ
١٠ فَلِئِنْ جَنَتِ المَنُونُ عَلَيْهِ مَا لَنَا فِي الدِّيَارِ بَعْدُ [قَرَارُ]
١١ فَعَلَيْهِ السَّلاَمُ مَا هَبَّتِ الرِّيـ ـحُ [وَمَدَّتْ جُنْحَ الدُّجَى أَنْوَارُ]

* التخريج: جعلتُ مِنَح المِدَح ص١٦٥ - ١٦٦ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي الاكتفا ٢/٦٩ الأبيات: ١-٩، ١١؛ وفي الإصابة ٥/٩١ الأبيات: ١، ٣، ١٠.

١. في الإصابة: «... جزَّعنا... »، وفي الاكتفا: «... جزعنا... ».

٦. في الاكتفا: «... وبكت بعد القفار... ».

٧. في الاكتفا: «... والملأ الطِّهار » تصحيف.

٨. في الأصل: «... الخلق... » بالخاء المعجمة الفوقية، تصحيف، وما أثبتُّه من الاكتفا.

١٠. في الأصل: «... بعد فرار » بالفاء المفردة، تصحيف، وفي مطبوعة منح المدح تصحيف كثير.

١١. في الأصل: «... ومرت جنح الظلام نوار »، ولا معنى له، وما بين المعقوفين من الاكتفا.

---

(١) قدم عبد الله بن سلمة على أبي بكر بعد وفاة الرَّسول ﷺ في نفر يمنيين، فكان مما قال: «يا معشر قريش، إنكم لم تصابوا بنبي الله دون العرب؛ لأنه لم يكن لأحد دون أحد. وايم الله، إني لا أدري أيّ الرجلين أشد حزنًا عليه، وأعظم مصابًا به: من عاينه فغاب عنه عيانه، أو من أشرف على رؤيته فلم يره ا... » (منح المدح ص١٦٥).

(٢) كِلْمَة: بكسر ثم سكون، لغة تميمية (اللسان: كلم). والسُّفَّار: المسافرون (اللسان: سفر).

١٢ فَاحْـذَرُوا اليَـوْمَ رِدَّةً تَصْدَعُ الشَّـعْـ ـبَ مِنَ العِلْـمِ، عِظْمُهَا الإِنْكَارُ[1]

****

(١) الشعب: من الأضداد، تأتي بمعنى الجمع والتفريق، والإصلاح والإفساد (اللسان: شعب) وهي هنا بمعنى التفريق والإفساد.

(٣٣)

ابنُ النُّعْمَانَ العَتَكِيُّ: [من الكامل] *

١ يَـا عَمْـرُو، إنْ كَانَ النَّـبِيُّ مُحَمَّـدٌ ... أَوْدَى بِـهِ الأَمْـرُ الَّذِي لاَ يُدْفَـعُ؛
٢ فَلَقَـدْ أُصِبْنَـا بِالنَّـبِيِّ، وَأَنْفُنُـا ... وَالرَّاقِصَـاتِ إلى البَنِيَّـةِ؛ أَجْـدَعُ(١)
٣ وَقُلُوبُنَـا قَـرْحَى، وَمَـاءُ عُيُونِنَـا ... جَـارٍ، وَأَعْنَـاقُ البَرِيَّـةِ خُضَّـعُ(٢)
٤ يَـا عَمْـرُو، إنَّ حَيَاتَـهُ كَوَفَاتِـهِ ... فِينَـا، أَتُبْـصِرُ مَـا نَقُـولُ وَتَسْـمَعُ ؟
٥ فَأَقِـمْ فَإِنَّـكَ لاَ تَخَـافُ، وَجَارُنَـا ... يَـا عَمْـرُو، ذَاكَ هُـوَ الأَعَـزُّ الأَمْنَـعُ
٦ إِنَّ العُرَيْـبَ لَهَـا وَشِـيكًا نَفْـرَةٌ ... فَانْظُـرْ - وَأَنْـتَ تَعـولُهُ - مَـا يَصْنَعُ
٧ إِنْ يَسْـتَقِيمُوا كُنْـتَ أَوَّلَ رَاكِـبٍ ... أَوْ يَرْجِعُـوا فَلَـكَ الخِصَـالُ الأَرْبَـعُ
٨ حَـقُّ الأَمِـيرِ، وَذِمَّـةٌ يَمَنِيَّـةٌ ... وَمَهَابَـةٌ، وَإِتَـاوَةٌ لاَ تُرْفَـعُ

* * * *

---

* التخريج: جعلتُ مِنَح المِدَح ص٣١٣ - ٣١٤ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي الإصابة ٢٧٩/٦ الأبيات: ١-٣، ٥؛ وتنقص مطبوعة الإصابة (دار الكتب العلمية ١٩٩٥ م) التي نقل عنها الدكتور أبو المجد (مراثي النبيّ ص١٧٨) البيتَ الخامس؛ فلعله لاختلاف النسخ الأصول، وهذا بيّن من الفرق الذي سَيلي.

٢. في الإصابة: «... إلى الثنية... ». وفي المراثي لأبي المجد: «... وإنني * والراقصات... ».

---

(١) الراقصات: الإبل، وهذا قَسَمٌ بهنّ. والبنيَّة: اسم من أسماء مكة حرسها الله (معجم البلدان: باب الباء والنون) .

(٢) قرحى: جريحة (اللسان: قرح).

(٣٤)

ابنُ ذي المِشْعار: [من المتقارب]*

١ أَلاَ كُلُّ أَمْـرٍ وَإِنْ جَلَّـتْ	مُصِيبَتُـهُ بِالِغًـا مَـا بَلَـغْ؛
٢ خَفِيـفٌ عَـلَيَّ لَمَّـا انْطَفَـتْ	مَعَـاشِرُ كَانُـوا مِـنَ اهْـلِ الوَتَـغْ[(١)]
٣ لِهُلْـكِ النَّـبِيِّ، وَمَـا أَسْـبَلَتْ	إِلَيْـهِ المَنِيَّـةُ حَـتَّى فَـرَغْ؛[(٢)]
٤ مِـنَ امْـرِ الإِلَهِ إِلَى خَلْقِـهِ	وَكَانَ إِذَا أَمَّ رَأْسًـا مَلَـغْ[(٣)]
٥ فَسَـمْعِي - لَعَمْـرُكَ - مِـنْ بَعْـدِهِ	ثَقِيـلٌ، وَفِي بَعْـضِ نُطْـقِي لَثَـغْ[(٤)]
٦ فَأَصْبَحْـتُ أُبْـصِرُ عَيْـبَ الأَدِيـمِ	وَأُبْـصِرُ صَحْبَـكَ مَـنْ قَـدْ دَبَـغْ
٧ فَـإِنْ يَـكُ وَلَّى فَـذَا دِينُـهُ	وَإِنْ نَابِـغٌ بَعْـدَ هَـذَا نَبَـغْ؛[(٥)]
٨ أَذَاعَـتْ بِـهِ رُوسُ أَرْمَاحِنَـا	وَكَانَ كَكَلْـبٍ عَـوَى أَوْ وَلَـغْ[(٦)]

* التخريج: جعلتُ مِنَح المِدَح ص١٦١، ١٦٢ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣) الأبيات: ١-٩، وهي مما أخلت به مطبوعته؛ وفي الإكليل للهمداني (تحقيق الخطيب) ٥٢/١٠ الأبيات: ٩-١١.

١. في مخطوطة إمتاع الأسماع: «... بالغٌ... ».

٢. في مخطوطة الإمتاع: «... من أهل الرفغ »، والرفغ: ألأم موضع في الوادي، وشرُّه ترابًا (تاج العروس).

٥. في مخطوطة الإمتاع: « ثقيل، ونطقي فيه لثغ ».

٧. في مخطوطة الإمتاع: « وإن بايغ بعد هذا بيغ »، وهو من تبيَّغ به الدم إذا هاج به، وغلب عليه (اللسان: بيغ). والمقصود: المرتدُّون، ومن ادَّعى النبوة.

---

(١) انطفت: لعلها من طفا الشيء فوق الماء إذا علاء، (تاج العروس: طفا). أو تكون من كلمتين: « أنْ طفت ». والوتغ: الإثم والهلاك في الدين والدنيا، يريد المرتدين بعد وفاة الرَّسول وقد طغت مصيبتهم على مصائبه جميعًا.

(٢) أسبلت إليه: وصلت إليه (الصحاح: سبل).

(٣) أَمَّ: قصد (اللسان: أمم). وملغ الأديم: غمّه كي ينفسخ صوفه (إكمال الإعلام بتثليث الكلام، لابن مالك، محمد ابن عبد الله الطائي ٦٧٨/٢ تحقيق سعد بن حمدان الغامدي، منشورات جامعة أمّ القرى ١٤٠٤هـ).

(٤) من معاني الألثغ: الذي لا يُبين الكلام (تاج العروس: لثغ).

(٥) نبغ: أي خرج، يريد الذين ادّعوا النبوة، والذين ارتدّوا، ومنه قول عائشة رضي الله عنها في أبيها: « غاضَ نَبْغَ النفاق والردَّة » أي نقصه وأهلكه وأذهبه (اللسان: نبغ).

(٦) أذاع به: ذهب به، ومنه قول الشاعر:

رَبْعٌ قَوَاءٌ أذاعَ المعصراتُ بِهِ

أي أذهبته، وطمست معالمه (اللسان: ذيع). وروس: رؤوس، على التسهيل.

٩ وَكُلُّ أُنَـاسٍ لَهُـمْ [صِيغَـةٌ] وَ[صِيغَـةُ] هَمْدَانَ خَـيْرُ [الصِيَغْ](١)
١٠ صُبِغْنَـا عَلَى ذَا وَآبَاؤُنَـا فَأَكْـرِمِ بِصِبْغَتِنَـا فِي الصِّبَـغْ !(٢)
١١ فَمَـنْ يَقْـذِفِ الدُّرَّ مِـنْ حُقِّنَـا عَلَى بَاطِـلٍ أَوْ لِجَـاجٍ دَمَـغْ(٣)

***

٩. في الأصل: «... صبغة * وصبغة... الصبغ» بالباء المفردة في كلٍّ، وقد رجحتُ أن تكون بالياء المثناة التحتانية، لورودها في الإكليل كذلك، ولجواز قراءتها في مخطوطة الإمتاع كذلك، ولكون البيت الذي بعدها بالباء المفردة.
١٠. في الإكليل: «... على ذاك آباؤنا» وفيه ضرورة قبيحة؛ إذ ستنقلب «صُبغنا» من البناء للمفعول إلى البناء للفاعل.
١١. في الإكليل: «متى يقذف... ».

---

(١) الصيغة: الأصل والخِلْقة (اللسان: صوغ).
(٢) صُبغنا عل ذا وآباؤنا: أي غُمِسنا في ذلك، ونُشِّئنا عليه نحن وآباؤنا (اللسان: صبغ).
(٣) الحُقُّ والحُقَّة: بالضم، معروفان. وهما ما يُنحت من الخشب والعاج وغير ذلك مما يصلح أن يُنحت منه. ومنه قول عمرو بن كلثوم:
وثديًا مثل حُقِّ العاج رَخصًا حَصَانًا من أكُفِّ اللامسينا
(اللسان: حقق). واللجاج: التمادي، ومنه لُجَّة البحر حيث لا يدرك قعره (اللسان: لجج). ودمغ: أصاب دماغه (اللسان: دمغ). والمعنى: أننا ندفع الباطل، ونُظهر عوارَه، كالدرّ المنير إذا يقذف في لُجَّة البحر.

(٣٥)

مَسْرُوقُ بنُ ذِي الحَارث الهَمْدَانِيُّ: [من الخفيف]*

١ قُلْتُ وَالدَمْعُ كَالجُمَانِ عَلَى النَّحْـ ـرِ وَقَدْ لاَحَ فِي السَّمَا العَيُّوقُ(١)
٢ كُلُّ أَمْرٍ وَإِنْ تَعَاظَمَنِي الصَّبْـ ـرُ عَلَيْهِ بَعْدَ النَّبِيِّ دَقِيقُ
٣] [
٤ وَجَوَادًا كُنَّا نَبَذُّ بِهِ النَّا سَ، فَهَذَا جَوادُنَا مَسْبُوقُ(٢)
٥ وَبِهِ كَانَتِ النَّجَاةُ مِنَ النَّا رِ، فَلَمْ يُرْزَ مِثْلَهُ مَخْلُوقُ(٣)
٦ فَعَلاَنِي بَعْدَ الهُمُومِ هُمُومٌ وَبِقَلْبِي بَعْدَ الحَرِيقِ حَرِيقُ
٧ قُلْتُ وَالنَّفْسُ لِلْبَلاَءِ، عَزُوفٌ: أَيْنَ يَهْوِي بِكَفِّهِ المَخْنُوقُ ؟(٤)
٨ لاَ إِلَى أَيْنَ، إِنْ سَأَلْتَ سِوَى الْـ ـخَنْقِ، وَإِنِّي [بِحَتْفِهِ] مَخْنُوقُ(٥)
٩ لا يَرُدُّ النَّبِيَّ ذَاكَ عَلَى النَّا سِ، وَفِي طُولِ حُزْنِنَا تَخْنِيقُ

* التخريج: جعلتُ مِنَح المِدَح ص١٦٣، ١٦٤ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي الإصابة ٢٩٣/٦، ٢٩٤ الأبيات: ٢، ١١، ١٢.

٢. في الإصابة: «... تعاظم مني... *... سوى النَّبِيّ دقيق».

٣. أشارت محققة منح المدح إلى فراغ ها هنا في المخطوطة، فلعله لبيتٍ منقوص.

٥. في الأصل: «... فلم يُزر... » بمعجمةٍ ثم مهملة، تصحيف.

٨. في الأصل: «... وإني بخنقه مخنوق »، ولعل ما أثبتُّه أقرب.

---

(١) العيُّوق: كوكبٌ أحمر مضيءٌ بحيال الثريَّا، إذا طلع عُلم أن الثريا قد طلعت (تاج العروس: عقي).

(٢) بذَّ فلانٌ فلانًا: إذا ما علاه، وَفَاقَه، وبذَّ القومَ بذًّا: سبقهم وغلبهم (اللسان: بذذ).

(٣) لم يُرزَ: من الرزيَّة، وهي المصيبة (الصحاح للجوهري: رزأ).

(٤) النفس العزوف: التي تأبى الأشياء وتنصرف عنها (اللسان: عزف). واللام الداخلة على البلاء للتعليل. يقول: كيف أهوي بكفي إلى متاعٍ أو طعامٍ وقد وقعت مني المصيبة بموقع زهَّدني في الدنيا، وصرتُ كالمخنوق الذي يعيش في ضيق وكُربة.

(٥) الحتف: الموت (اللسان: حتف). والمراد بالخنق: الضيق. يقول: لا أجد سبيلًا في الدنيا بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ إنني ضائقٌ مغمومٌ مكروب.

١٠ مَالِكُ الخَيْرِ قَدْ يُنَكِّرُ مِنَّا ... كُلَّ شَيءٍ، فَعَظْمُنَا مَعْرُوقُ(١)

١١ كُلُّ خَيْرٍ بَعْدَ النَّبِيِّ قَلِيلُ ... غَيْرَ مَذْقٍ، وشُرْبِهِ المَمْذُوقِ(٢)

١٢ أَيُّهَا القَائِمُ المُعَصَّب بالأَمْـ ... ـرِ، لأَنْتَ المُصَدَّقُ الصِّدِّيقُ(٣)

١٣ إِنَّ ذَا الأَمْرِ فِيكُمُ فَخُذُوهُ ... ثُمَّ قُودُوا إِلَى النَّجَاةِ، وَسُوقُوا

١٤ إِنَّ فِي كَيْدَةِ المُلُوكِ سِغَابًا ... وَأُنَاسًا سِقَاؤُهُمْ مَشْقُوقُ(٤)

١٥ إِنْ تَكُنْ جَوْلَةٌ فَنَحْنُ بِهَا الْـ ... ـيَوْمَ، كَفِيلُنَا مَسْرُوقُ(٥)

١٦ إِنَّهَا رِدَّةٌ تُزَفُّ إِلَيْكُمْ ... قَدْ تَعَرَّتْ وَرَأْسُهَا مَحْلُوقُ !

١٧ لَكِنِ الحَيُّ [حَاشِدٌ] وَبَكِيلٌ ... لَمْ يَفُتْهُمْ مِنْ دِينِهِمْ تُفْرُوقُ(٦)

١٨ بَايَعُوا اللهَ فِي العِيَانِ وَسِرًّا ... سَالِكُ الخَيْرِ وَالهُدَى مَرْتُوقُ(٧)

***

١٧. في الأصل: «... حاسر... » بالسين المهملة، تصحيف.

---

(١) العظم المعروق: البارز المجرَّد من اللحم (اللسان: عرق).

(٢) المَذْق: اللبن الممزوج بالماء (اللسان: مذق). وفي البيت إقواء.

(٣) سَغِب: جاع، ولا يكون إلا مع تعب، فهو ساغب وسغبان وسَغِب، وهي سغبي، وجمعها: سِغَاب (اللسان: سغب). والسقاء: القربة للماء واللبن (اللسان: سقي).

(٤) الملك المعصَّب: المتوَّج (تاج العروس: عصب)، وهو يقصد الخليفة أبا بكر رضي الله عنه.

(٥) جال القوم جَوْلَةً: إذا انكشفوا ثم كرُّوا (جمهرة اللغة: جلو). والكفيل: الضامن (اللسان: كفل). يقول: أنا أضمن النصر لكم على المرتدين. وفي العجُز اضطراب وزن.

(٦) التفروق: قُمع التمرة وغلافها (تاج العروس: تفرق).

(٧) مرتوق: موفق، مُصْلَحٌ حاله (اللسان: رتق).

(٣٦)

عَمْرُو بنُ الفُحَيْل الزُّبيدِيُّ: [من الخفيف] *

١ أَسْعِدِينِي بِدَمْعِكِ الرَّقْرَاقِ لِفِرَاقِ النَّبِيِّ يَوْمَ الفِرَاقِ[1]
٢ قُلْتُ وَاللَّيْلُ مُطْبِقٌ بِعُرَاهُ: إِنَّ حُزْنِي عَلَى الرَّسول لَبَاقِي
٣ [لَيْتَنِي مِتُّ يَوْمَ مَاتَ وَلَمْ أَلْـ ـقَ مِنَ الرُّزْءِ مَا أَنَا لاَقِ]
٤ كَانَ غَيْثًا يَجِيءُ لِلْبَلَدِ المَحْـ ـلِ، وَشَمْسًا تُضِيءُ لِلإِشْرَاقِ
٥ وَدَلِيلاً يَدْعُو العِبَادَ إِلَى الْـ ـلَهِ وَبَحْرًا يَصُبُّ عَذْبَ المَذَاقِ
٦ وَضِيَاءَ البِلاَدِ، وَالقَمَرَ الزَّا هِرَ وَافَى تَمَامَهُ لاتِّسَاقِ

* * *

* التخريج: جعلتُ مِنَح المِدَح ص٢٠٤ أصلاً لهذه المقطّعة؛ وهي في مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣١) لكن يلحق بعض ألفاظها آثارُ رطوبة وطمس، وقد أخلَّت بها المطبوعة من ضمن ما أخلت به؛ وفي الإصابة ٤/٦٧٠ البيتان: ١، ٣.
٣. البيت زائد في الإصابة، وقد أورده مع البيت الأول، ولكن لعلَّ موضعه ها هنا؛ فابن حجر كان يتخيَّر من القصيد.

---

(١) ترقرق الماء والدمع: جرى جريًا سهلًا (أساس البلاغة: رقق).

(٣٧)

ذُو الكَلاَع: [من الرَّمل]*

١ قَـدْ أَتَى حِمْـيَرَ أَمْـرٌ شَـامِلُ ... قَاطِـعٌ لِلظَّهْـرِ مُـزْرٍ بِالأَمَـلْ(١)

٢ مَـوْتُ مَـنْ كَانَ بَقَـاهُ رَحْمَـةً ... كُلُّ شَيْءٍ مَـا خَـلاَ هَـذَا جَلَـلْ(٢)

٣ إِنْ يَكُـنْ مَـاتَ فَهَـذَا رَبُّنَـا ... لَـمْ يَمُـتْ، وَاللهُ حَيٌّ لَـمْ يَـزَلْ

٤ قَـدْ أَجَبْنَـاهُ، وَقُلْنَـا قَـوْلَهُ ... وَرَأَى ذَاكَ مُعَـاذُ بْـنُ جَبَـلْ

٥ قَـالَ: قُولُـوا، وَإِذَا مَـا قُلْتُـمُ ... فَاعْمَلُـوا؛ فَالدِّيـنُ قَـولٌ وَعَمَـلْ

٦ فَأَطَعْنَـاهُ، وَهَـذَا دِينُنَـا ... ظَاهِـرُ الصِّحَّـةِ مَـا فِيـهِ دَغَـلْ(٣)

***

* التخريج: جعلتُ مِنَح المِدَح ص١٠١ أصلاً لهذه القطّعة، وهي في مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٩)، وقد أخلَّت بها مطبوعة النميسي كذلك.

٢. في مخطوطة إمتاع الأسماع: «... ماعدا... ».

٣. في مخطوطة الإمتاع: «... ربنا * والله حيٌّ باقٍ لم يزل ».

٥. في مخطوطة الإمتاع: «... فإذا ما قلتم ».

(١) أمر شامل: عامّ (تاج العروس: شمل). مُزرٍ بالأمل: مُقصِّر به، مُحقِّر، مُهوِّنه (اللسان: زرى).

(٢) الجلَل: من الأضداد: القليل اليسير، ومنه قول امرئ القيس يرثي أباه:

بقتل بني أسَدٍ ربَّهُمْ ... ألا كل شيءٍ سواه جَلَلْ

(اللسان: جلل).

(٣) الدغَل: الفساد والدَّخل (اللسان: دغل).

(٣٨)

مُرَّانُ بنُ عُمَيْرٍ ذي مُرَّان: [من الخفيف]*

١ إِنَّ حُزْنِي عَلَى الرَّسولِ طَوِيلُ ... ذَاكَ مِنِّي عَلَى الرَّسُولِ قَلِيلُ
٢ قُلْتُ، وَالمَوْتُ يَا إِمَامُ كَرِيهٌ: ... لَيْتَنِي مِتُّ يَوْمَ مَاتَ الرَّسُولُ!(١)
٣ لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ بَقِيتُ فُوَاقًا ... بَعْدَهُ، وَالفُوَاقُ مِنِّي طَوِيلُ(٢)
٤ بَكَتِ الأَرْضُ وَالسَّمَاءُ عَلَيْهِ ... وَبَكَاهُ خَلِيلُهُ جِبْرِيلُ
٥ كَانَ فِينَا هُوَ الدَّلِيلَ عَلَيْهِ ... كُلُّ هَذَا دَلِيلُهُ التَّنْزِيلُ
٦ يَا لَهَا رَحْمَةٌ أُصِيبَ بِهَا النَّا ... سُ تَوَلَّتْ، وَحَانَ مِنْهَا الرَّحِيلُ
٧ جَدَعَتْ قَوْمِيَ الأُنُوفَ، وَأَجْرَتْ ... دَمْعَ عَيْنٍ، فَلِلْجُفُونِ هُمُولُ(٣)
٨ لَيْسَ لِلنَّاسِ، يا إِمَامُ، مِنَ الأَمْـ ... ـرِ فَتِيلٌ، وَأَيْنَ عَنْكَ الفَتِيلُ!(٤)

* التخريج: جعلتُ الإكليل ١٠/٤٨ - ٤٩ (تحقيق الخطيب) أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي مِنَح المِدَح ص١٥٩ - ١٦٠ الأبيات: ١-٤، ٦-١٧؛ وفي مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٠) الأبيات: ١-٩ وقد أخلَّت بها المطبوعة؛ وفي الاكتفا ٢/٦٨ - ٦٩ الأبيات: ١-٤، ٦-٩؛ وفي الإصابة ٦/٢٨٣؟ البيتان: ١، ٤.

٣. في منح المدح: «... فراقا *... والفراق...» بالراء المهملة، تصحيف.

٤. في الإصابة: «... خديمه...».

٦. في منح المدح: «يا لها كربة...».

٧. في منح المدح، ومخطوطة إمتاع الأسماع: «جدعت منهم الأنوف، فللقلب خفوق، وللدموع همول». وفي الاكتفا: «جدعت منهم الأنوف، فللقلب خفوق، وللجفون همول».

٨. في الاكتفا: «... وأين منك...».

---

(١) يعني الإمامَ المهاجر بن أبي أمية المخزومي، كان أميرًا عليهم مما يلي صنعاء، أمَّره الرَّسول ﷺ (انظر: منح المدح ص١٠).

(٢) الفُواق: ما بين الحلْبتين من الوقت، لأنها تحْلب، ثم تترك سويعة يرضعها الفَصيلُ لُتدِرَّ، ثم تحلب (تاج العروس: فوق).

(٣) هملت عينُه: فاضت وسالت (اللسان: همل).

(٤) عن ابن عباس: الفتيل: ما فتلته بين أصابعك من الوسخ، وقال ابن السِّكِّيت: الفتيل: ما كان في شق النواة اهـ يُضرب مثلاً للشيء التافه الحقير القليل (تاج العروس: فتل).

٩ إِنَّمَـا الأَمْـرُ لِلَّذِي خَلَـقَ الخَلْـ ـقَ، وَفِي خَلْقِـهِ عَلَيْـهِ دَلِيـلُ

١٠ قُـلْ لِهَذَا الإِمَـامِ: عَضْـدُكَ فِي الحَـ ـرْبِ عَلَى النَّاسِ حَاشِـدٌ وَبَكِيلُ(١)

١١ إِنَّ هَمْـدَانَ يُمْسِـكُونَ هُـدَى الـ ـلَـهِ، وَمُـرَّانُ بِالوَفَـاءِ كَفِيـلُ

١٢ إِنْ تَكُـنْ جَوْلَـةٌ فَنَحْـنُ لَـكَ اليَـوْ مَ مَـلاَذٌ إِلَى ذُرَاهُ تَـؤُولُ(٢)

١٣ دِينُنَـا مِلَّـةُ النَّـبِيِّ، وَلاَ قَـوْ لَ لَنَا غَـيْرُ مَا نُـرَاكَ تَقُـولُ

١٤ إِنَّمَـا اليَـوْمُ مِثْـلُ أَمْـسِ، وَهَمْـدَا نُ مَـعَ الحَـقِّ حَيْـثُ زَالَ تَـزُولُ(٣)

١٥ أَيُّ قَـوْمٍ هُـمُ إِذَا نَـزَلَ المَـوْ تُ، وَصَـارُوا كَأَنَّهُـمْ إِكْلِيـلُ!(٤)

١٦ ثُـمَّ نَـادَوْا بِأَنَّهُـمْ قَهَـرُوا النَّـا سَ كَمَـا يَقْهَـرُ البِـكَارَ الفُحُـولُ(٥)

١٧ لاَ يَـرُدُّ الجَرِيحُ نَائِبَـةَ الجُـرْ حِ، وَلاَ الـحَيَّ يَزْدَهِيـهِ القَتِيـلُ(٦)

***

- ٩ في مخطوطة الإمتاع: «إن الأمر...».

١١. في منح المدح: «إن همدان أمسكوا بهداه * وابن مُرَّان بالوفاء كفيل».

١٢. في منح المدح: «... ملاء بما إليه تؤول».

١٥. في منح المدح: «أي يوم لهم... ».

١٦. في منح المدح: «ثم نادوا أباهم... *... البكاء الفحول» تصحيفان، وما أكثر التصحيف في مطبوعة منح المدح هذه.

---

(١) حاشدٌ وبكيل: ابنا جشم بن خيران بن نوف بن همدان، قبيلا همدان، وإليهما ترجع بطونها (جمهرة أنساب العرب، لابن حزم ص٣٩٢، تحقيق ليفي بروفنسال).

(٢) جال القوم جولة: إذا انكشفوا ثم كرُّوا (جمهرة اللغة: جلو).

(٣) الزوال: الذهاب والاستحالة (اللسان: زول). أي أنهم يتحولون ويذهبون مع الحق حيث يذهب.

(٤) الإكليل: شبه عصابة مزينة بالجواهر. والإكليل: من منازل القمر. والاكليل: ما أحاط بالظُّفر من اللحم. وتكلَّله الشيءُ: أحاط به. وروضة مُكَلَّلة: محفوفة بالنَّوْر (المحكم والمحيط الأعظم: كلل).

(٥) البكار: جمع بَكر، الفتيُّ من الإبل (تهذيب اللغة: طحل).

(٦) النائبة: ما ينوب الإنسان وينـزل به من المهمات والحوادث (تاج العروس: نوب). وزها فلانًا كلامُك زهوًا، وازدهاه فازدهى: استخفه فخفَّ، وازدهيت فلانًا: تهاونت به (اللسان: زها).

(٣٩)

شَدَّادُ بنُ مالِك بن ضَمْعَج: [من الكامل]*

١ أَبْلِغْ أَبَا بَكْرٍ إِذَا مَا جِئْتَهُ: إِنَّ البَغَايَا رُمْنَ كُلَّ مَرَامِ(١)

٢ أَظْهَرْنَ مِنْ مَوْتِ النَّبِيِّ شَمَاتَةً وَخَضَبْنَ أَيْدَيَهُنَّ بِالعُلاَّمِ(٢)

٣ فَاقْطَعْ - فُدِيتَ - أَكُفَّهُنَّ بِصَارِمٍ كَالْبَرْقِ أَوْمَضَ فِي مُتُونِ غَمَامِ

* * *

* التخريج: جعلتُ المحبَّر لابن حبيب ص١٨٦ أصلاً لهذه المقطّعة، وهو وحده الذي صرّح باسم صاحبها؛ والمقطّعة في البصائر والذخائر للتوحيدي ١٩٨/٨، وعيون الأخبار لابن قتيبة ١١٦/٣ (دار الكتب المصرية ١٩٩٦م)، وبهجة المجالس وأنس المُجالس لابن عبد البر ٧٤٥/١.

١. في بهجة المجالس: «... شر مرام».

٢. في بهجة المجالس: «... بالعُنَّام».

---

(١) انظر قصة الشعر في الخبر الذي سبق في مرثية امرئ القيس بن عابس الكندي.

(٢) العُلاَّم: الحِنَّاء (اللسان: علم).

تَوثيقُ مَرَاثِي أَهْلِ اليَمَنِ
رضِي الله عنهم

١

هذا فصل نحن عِيالٌ فيه على كتاب وثيمة المفقود «كتاب الرِّدَّة»، ولو نجا هذا الكتاب من غوائل الزمن لازْدَادت أشـعارُ المراثي النبويَّة زيادةً لا يعلم مداها إلى الله، ولازدادت أشعارُ غيرها وأنباءٌ من أنباء تلك الحِقبة العريقة.

ومـا هذا الفصل إلا كوريقات مُمزَّقةٍ مطويَّةٍ، ثم مندسَّـةٍ في بطـون الكتب، فقد ترى شاعرًا في كتاب، وشعرُه الذي رثى به النبيّ ﷺ في كتابٍ غيرِه، ولا وشيجةَ بين الكتابين، أو تـرى قصيـدة واحـدةً مفرَّقَةً بين كُتبٍ شـتَّى، أو تراهـا لم يبقَ من آثارهـا إلا ما يدلُّ عليهـا؛ فتنفـق جهـدَك منقِّبًا عمـا اندثر منها، فقد تَسـقط عليه كلِّه فما أسـعد جَدَّك! وقـد تصيـب بعضـه، وقد ترجع صِفْـر اليدين، فتقعد حزينًا أسِـفًا وأنت تمسـك برأس القصيـدة الفاتـن الجميـل تتوق نفسُـك أن تَنعـم بها كلِّهـا، وتبصرَها حيَّـةً تسري روحُ الشـاعر في أبياتها الضائعة[1].

وإنه إن يكـن فصلاً من الفصول التي تحكي مأساةً من مآسي التراث العربيّ الضائع؛ فإنَّ عزاءَنا في أنه محاولةٌ للعثور على بعض آثاره النفيسة الدَّارسة، وردِّها إلى أصولها الحقيقة بها،

(١) انظر تخريج الأشعار والفروق لهذا الفصل.

ثـم التقاط أُجزائها المبعثرة وضمّ بعضها إلى بعضها؛ رجاء رسـم صورة - ولو باهتةً منقوصةً - لما توارى منه واختفى.

والشـعر في هـذا الفصـل ليس إلا جـزءًا جَزْلاً من «كتـاب الردَّة» لوثيمـة بن موسى بن الفـرات، ولَبِنـةً في سـبيل إعادة بناء هذا الكتـاب المجوَّد[١]، وفيه شيءٌ نـزرٌ من غير كتاب وثيمة.

لقد كان اليمن لفترةٍ قصيًّا عن الأحداث، نائيًا عن أسـفار المؤرِّخين؛ فأُغفل ذِكْرُه وذكر رجاله إلاّ من مصادر قليلةٍ، فَنِيَ الكثيرُ منها، أو ذَكَرَ ما بقيَ مالا يَبِلُّ الصدى[٢].

وهذه المراثي النبويَّةُ التي جادت بها نفوس أهل اليمن مراثٍ فريدةٌ عزيزة المثال؛ ذلك أنَّا لم نعهد سـادةَ بلدٍ وشعراءَه يقومون قومة رجل واحد زمن الردَّة يُثبّتون أشياعهم عَلَى الدين، ويحثُّونهـم على الحـزن أن لم يرتووا من معينه العذب كما ارتوى إخوانُهم، وعسى ضاربٌ في جذور اليمن أنْ لا يجد حادثة جمعت شـعراءه كما جمعتهم وفاة رسـول الله ﷺ، وأنا لا أجد غضاضةً إذا زعمتُ أن مراثيَهم في النبيّ ﷺ من أجود ما رُثِي به النبيُّ ﷺ وآصلِهِ وأصدقِهِ.

وكان وثيمةُ بن موسى يروي هذه المراثي اليمنيَّة عن محمد بن إسـحاق غالبًا. وبين وثيمة وابـن إسـحاق في الروايـة رجلٌ هو سـلمةُ بـن الفضل؛ فقـد كان وثيمةُ يـروي «مغازي ابن اسحاق» من طريقه[٣].

وسلمةُ هذا هو القاضي أبو عبد الله سلمة بن الفضل الأبرش، الأنصاريُّ، الرازيُّ، المتوفى

---

(١) اقرأ ترجمة وثيمة والتعريف بكتابه في ص ٥٦ من هذا الكتاب.

(٢) انظر: مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، للدكتور أيمن فؤاد سيد ص٣٥٠ (المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٧٤م)، والتاريخ العربي والمؤرخون: دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، لشاكر مصطفى ٣١٢/٢ وما بعدها (دار العلم للملايين، بيروت، ط٣/١٩٨٧م).

(٣) انظر: رواة محمد بن إسحاق بن يسار في المغازي والسير وسائر المرويات، لمطاع الطرابيشي ص٣٩ (دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).

سـنة إحدى وتسـعين ومئة، كانوا يصفونه بصاحب محمد بن إسـحاق، وقد اختُصَّ بمغازيه دون غيرها، اتفقوا على قوّته فيها. آلت إليه نسخة ابن إسحاقٍ في «المغازي» واجتمعت لديه؛ فكانت روايتُه لكتاب «المغازي» تفضُل روايةَ غيره، وكان ثقةً كيِّسًا[1].

وفي «تاريخ مدينـة السـلام» للخطيب خـبرٌ له فوائد جمَّـة، فقد رُوي عن « الحسـن بن محمد المؤدِّب قال: سـمعت عمَّارًا يقول: دخل محمد بن إسـحاق على المهديِّ وبين يديه ابنُه، فقال له: أتعرف هذا يا ابن إسـحاق؟ قال: نعم، هذا ابن أمير المؤمنين. قال: اذهب فصنف له كتابًـا منـذ خلق الله - تعالى - آدم إلى يومك هذا. قـال: فذهب فصنَّف له هذا الكتاب. فقال له: لقد طوَّلته يا ابن إسحاق، اذهب فاختصِرْه. قال: فذهب فاختصَره فهو هذا الكتاب المختصر، وألقى الكتابَ الكبير في خزانة أمير المؤمنين. قال الحسـن [المؤدّب]: وسـمعت أبا الهيثم يقول: صنَّف محمد بن إسحاق هذا الكتاب في القراطيس، ثم صيَّر القراطيسَ لسلمة - يعني ابن الفضل - فكانت تفضُلُ روايةُ سلمة على رواية غيره لحال تلك القراطيس. [قال الخطيـب:] هكذا قال الراوي: « ودخل ابن إسـحاق على المهديّ وبـين يديه ابنه » وفي ذلك عندي نظر، ولعله أراد أن يقول: دخل على المنصور وبين يديه ابنُه المهدي؛ لأن ذلك أشبهُ بالصواب، والله أعلم »[2].

فكتـاب ابن إسـحاق كتابٌ كبير، والذي شـاع بـين الناس مختصرٌ منه، ثـم تهذيبُ ابن هشـامٍ الذي بين أيدينا مختصرٌ من ذلك المختصر. وقد عُرف كتاب ابن إسـحاق بين الناس بأسـماء مختلفـة، ولكـن ذهب بعضُهـم إلى أن الظاهر من مـراد المتقدّمـين «بمغازي ابن إسـحاق» هو كتبُه الثلاثة المذكورة: «المبتـدأ، والمغازي، والخلفاء»، وأن هذه الكتبَ الثلاثة

---

(١) انظر: رواة محمد بن إسحاق، للطرابيشي ص٣٩.

(٢) تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قُطَّانها العلماء من غير أهلها وواردِيها، للخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي ٢/ ١٧ (تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١/ ١٤٢٢هـ).

فصول أو أبواب في «كتاب المغازي»[(١)].

ونخرج من هذا الخبر أيضًا بأنه يجوز على ابن إسحاق أن يكون حدَّث بما ليس في «المغازي»، فالكتاب الكبير الذي أودعه الخزانةَ مجهولٌ مصيرُه، وما يُدرينا لعلَّ وثيمة روى هذه المراثي النبويَّة التي رواها عن هذا الكتاب الكبير، أو لعله رواها عن كتابه المختصر عن جزئيه الأخيرين: «المغازي، والخلفاء» مثلاً؛ فتهذيب ابن هشام لا يمثِّل كتاب ابن إسحاق تمثيلاً صادقًا؛ لإخلاله بجزءٍ كبير مما جهد ابنُ إسحاق نفسَه في تصنيفه، خاصةً في باب الشعر، ولذلك لم يكن لتهذيب ابن هشام كبيرُ أثر عند المتقدمين، « والظاهر أن هذا الكتاب قد اشتُهر عند المغاربة، كما ارتفع ذكره عند المتأخرين »[(٢)].

وهذا الخبر يُطلعنا على منـزلة سلمة بن الفضل شيخ وثيمة، وكيف آثره ابنُ إسحاق بقراطيسه من دون تلاميذه، وعليه فالطريق من وثيمة إلى ابنِ إسحاق أوثقُ من حيثُ الضبطُ، والسعة، والسلامة.

على أن هذا لا يمنع أن يكون وثيمةُ حدَّث عن ابن إسحاق من طريقٍ أخرى غير طريق سلمة، إلا أنه يغلب على الظن أن يكون طريقَ سلمة طريقُ وثيمة الأكبرُ إلى ابن إسحاق في المراثي.

وكلُّ ما مضى من مقدّمة ونتيجة مستقرٌّ أحسب أنْ لا يخالف فيه مخالف، ولكنك حين تبلغ بالحديث إلى ابن إسحاق تشرئبُّ إليك أعناقٌ مرتابة: أيصح أن نروي عن ابن إسحاق ؟ ثم لا يُجاوز كثير منهم ما هو فيه من غبش الرِّيبة إلى نور من اليقين. وما مِنْ بُدّ عندئذٍ أن نقف وقفة المتأمل بين كيل المادحين وطعن الناقمين على ابن إسحاق لكي نقول فيه قولاً يطّرد في روايات المراثي النبويَّة التي رويت عنه في فصلنا هذا.

فأقول: يهتمُّ نَقَدةُ التاريخ بقِدم الراوي وقربِه من الخبر، فمن لم يرَ لا كمن رأى؛ ومن لم يسمع

(١) انظر: رواة محمد بن إسحاق، للطرابيشي ص١٩٣ – ١٩٤.

(٢) رواة محمد بن إسحاق، للطرابيشي ص١٩٣ – ١٩٤

لا كمن سمع. وكان ابن إسحاق راويةً قديمًا، فقد حدَّث فقال - وتأمل دِقَّته : « رأيت أنس بن مالك عليه عمامةٌ سوداء، والصبيان يشتدُّون ويقولون: هذا رجل من أصحاب النبيّ ﷺ لا يموت حتى يلقى الدجال »(١). وقال - وارصُد نباهته -: « رأيتُ سالمَ بن عبد الله بن عمر يلبَس الصوف، وكان عِلْج الخَلق يعالج بيديه ويعمل.»(٢). وأدرك وهو غلامٌ سعيدَ ابن المسيب، فحدَّث الغلابيُّ قال: قلت لابن مَعين: إنهم يزعمون أنه رأى سعيدَ بن المسيب. فقال: إنه لقديم(٣).

أمَّا عدالتُه، فقد قال سفيان بن عُيَينة: « جالستُ ابنَ إسحاق منذ بضع وسبعين سنةً وما يتّهمه أحدٌ من أهل المدينة »(٤). وقال مَكّيُّ بن إبراهيم: « جعفر بن محمد، ومحمد بن إسحاق، والحجَّاج بن أرطاة: نبُلوا بعد موتهم »(٥).

وأمَّا الحفظُ والضبطُ، وحَوَايةُ العلم، فقد شهد له الأئمة بذلك، فقال عليُّ بن المدينيّ: « مدار حديث رسول الله ﷺ على ستة، ثم قال: فصار عِلْم الستة عند اثني عشر، أحدُهم ابن إسحاق »(٦).

وعن عبد الله بن فايد قال: كنَّا إذا جلسنا إلى محمد بن إسحاق فأخذ في فنّ من العلم قضى مجلسَه في ذلك الفنّ »(٧).

---

(١) تاريخ مدينة السلام، للخطيب البغدادي ٢/١١، وقد اعتمدت عليه كثيرًا لأنه جمع جُلَّ الروايات في الكلام على ابن إسحاق.

(٢) تاريخ مدينة السلام ٢/١٢.

(٣) انظر: تهذيب الكمال، للمزّي ٢٤/٤١١.

(٤) تاريخ مدينة السلام ٢/١٧.

(٥) المصدر السابق ٢/٢٤.

(٦) المصدر السابق ٢/١٣.

(٧) المصدر السابق ٢/١٥.

وكان شُعبة يقول: « لو سُوِّد أحدٌ في الحديث لسوِّد محمد بن إسحاق »[1]. وكان يقول: « محمد بن إسحاق أمير المحدِّثين بحفظه »[2].

وكان ابن إسحاق كبيرًا عندهم، روى سفيانُ بن عُيينة قال: « رأيتُ الزُّهريَّ أتاه محمدُ بن إسحاق فاستبطأه، فقال له: أين كنت ؟ فقال له محمد بن إسحاق: وهل يصِلُ إليك أحدٌ مع حاجبك ؟ قال: فدعا حاجبه فقال له: لا تحجُبْه إذا جاء »[3]، وكان الزهريُّ يقول: « لا يزال بالمدينة علمٌ جمٌّ ما كان فيهم ابن إسحاق »[4].

تلك أحكامهم في ديانة الرجل وعلمه وروايته للحديث بخاصة، وأنت تعلم مبلغ شدّتهم وتضييقَهم إذا ما تعلق الأمر برواية حديث رسول الله ﷺ، وهم مع ذلك رأَوْه أهلاً أن يرويَ الحديث، بل جعلوه إمامًا من أئمة الرواية، قال المِزِّيُّ: « وقد اختبره أهل الحديث فرأَوْا صدقًا وخيرًا »[5].

وأكثرُ من ذلك معرفتُهم له فنَّه الذي برَع فيه، فنَّ السير والمغازي، فقدَّموه فيه، وهذا يعود بنا عَوْدًا جديدًا حريًّا أن نردِّده ولا ننساه لخطره في الشعر، يعود بنا إلى قضية (الاختصاص)، اختصاص كل أصحاب علم بعلمهم، وتوجيه نقد نقَّاد كل علم إلى علمهم الذي أرادوه فقط، وأنْ لا نُخلط في ذلك بين العلوم تخليطًا مُضِلاً مفسدًا، فنجنيَ على ما ورَّثه لنا أباؤنا بأيدينا، ونحن نظنُّ أننا نصلحه ونهذِّبه. نعم، حقٌّ علينا أن نُصلحَ وأن نهذِّب، ولكنَّه إصلاحٌ بأصوله، وتهذيبٌ على بصيرة من العلم، لا على نوعٍ من الترخُّص والجرأة والاستهانة.

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٦.

(٢) التاريخ الكبير، للبخاريّ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ١/٤٠ (دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكّن ١٣٦٠هـ).

(٣) تاريخ مدينة السلام ٢/١٤.

(٤) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٥) تهذيب الكمال، للمِزّي ٢٤/٤١٨.

أقول: لقد عَرَفَ المحدِّثون أنفسُهم لابن إسحاقَ إمامتَه في السير والمغازي بعدما عرفوا شرفَه الرفيع في حديث رسول الله ﷺ، فبذلوا ما بذلوا حتى يصُيبوا من علمه الذي هو فردٌ فيه، حدَّث عمر بن عثمان « أن الزهريَّ كان يتلقَّف المغازي من ابن إسحاق فيما يحدثه عن عاصم بن عمر بن قتادة »[١]. وعن ابن المدينيّ قال: « سمعت سفيان يقول: قال ابن شهاب - وسُئل عن مغازيه[٢] - فقال: هذا أعلم الناس بها، يعني ابنَ إسحاق»[٣]، وحدَّث حرملة بن يحيى التجيبيُّ قال: « سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول: من أراد أن يتبحَّر في المغازي فهو عِيالٌ على محمد بن إسحاق »[٤].

فمحمد بن إسحاق إذن: ثقةٌ في الحديث، إمامٌ في المغازي والسِّير. ولقد ثقُلت بعض النفوس عن الإقرار له بذلك لمقولةٍ أو نحوِها من بعض العلماء، لا يتمُّ البحث حتى نفصّل القولَ فيها.

إنَّ من أقدم ما أُثر من قَدْحٍ في محمد بن إسحاق ما كان من خبر هشام بن عروة وامرأتِه، وما كان من أمر الإمام مالكٍ معه، ثم ما دوَّنه محمدُ بن سلاَّم الجمحيُّ في «طبقات فحول الشعراء»، وقد ردَّد كثير من الناس بعدَهم أقوالَهم على الظاهر من غير كبير تدبُّرٍ ولا نظرٍ فيها؛ فجنحوا إلى أنواعٍ شتَّى من الأحكام المرسلة التي لا يرتضيها المنهج العلميُّ السديد.

كان هشام بن عروة ينكر أن يكون ابنُ إسحاقَ روى عن زوجته فاطمة بنت المنذر، فقد سأله يحيى بنُ سعيدٍ عن محمد بن إسحاق قال: كان يدخل على فاطمة بنت المنذر؟ فقال: أهو كان يصل إليها؟![٥]. وقيل له: إن ابن إسحاق يحدِّث بكذا وكذا عن فاطمة. فقال:

---

(١) المصدر السابق ٢٤/٤١٦.

(٢) أي مغازي ابن شهاب.

(٣) تاريخ مدينة السلام ٢/١٤.

(٤) المصدر السابق ٢/١٥.

(٥) انظر: تاريخ مدينة السلام ٢/١٨.

كـذب الخبيـث[1]. وقال أخرى: « العدوُّ لله الكذَّاب يروي عـن امرأتي، من أين رآها ؟! »[2]. وقال: « والله إنْ رآها قطُّ »[3].

ولكـنَّ العلمـاء لم يُكَذِّبوا ابنَ إسـحاق قطُّ، ولم يعوجوا على قول هشـام بن عروة إلا بالنقـض والتأويل والمدافعة عن ابن إسـحاق. فعن عبد الله بن الإمـام أحمد أنه حدَّث أباه بحديث ابن إسحاق « فقال: وما ينكر هشام ؟ ! لعله جاء فاستأذن عليها فأذِنت له، أحسبه قـال: ولـم يعلـم »[4]، وقال أحمدُ أيضًا: « وقد يمكن أن يسـمع منها تخرج إلى المسـجد، أو خارجـة فسـمع. والله أعلـم »[5]. وقال علي بن المديني: « الذي قال هشـامٌ ليس بحُجَّة؛ لعله دخل علي امرأته وهو غلامٌ فسـمع منها »[6]، وكان عليٌّ يقول: « إن حديث محمد بن إسـحاق لَيتبيَّن فيه الصدق »[7].

ثـم إن الذهبيَّ عظُم عليه رمْيُ هشـامٍ ابنَ إسـحاق بالكذب؛ فنعى عليـه قولَه وردَّه عليه فقال: « وما يُدري هشـامَ بن عروة فلعله سـمع منها في المسجد، أو سمع منها وهو صبيٌّ، أو دخل عليها فحدثته من وراء حجاب، فأي شيءٍ في هذا وقد كانت امرأةً كبُرت وأسـنَّت... والرجـل فمـا قال إنـه رآها، أفبمثل هـذا يُعتمد على تكذيـب رجل من أهـل العلم ؟! هذا مردود. ثم قد روى عنها محمد بن سوقة، ولها رواية عن أمِّ سلمة وجدَّتها أسماء[8]، ثم ما قيل

---

(١) انظر: المصدر السابق ٢/١٩.

(٢) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٣) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٤) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٥) الكامل في ضعفاء الرجال، للحافظ أحمد بن عبد الله بن عَديّ ٧/٢٦٠ (تحقيق عادل عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، ط١/١٤١٨هـ).

(٦) تاريخ مدينة السلام ٢/٢٧.

(٧) الموضع نفسه من تاريخ مدينة السلام.

(٨) يعني أنها كبيرة.

من أنها أُدخلت عليه[١] وهي بنت تسع سنين غلطٌ بَيِّن... »[٢].

وبذلك يكون ابن إسحاق عدلاً صادقًا عند القوم بالإثبات وبالنفي، عبّروا عن ذلك بكل عبارة، وشنّعوا على من شذّ عن ذلك.

ولم يسْلَمْ للإمام مالكٍ طعنُه في ابن إسحاق من تصدّي العلماء له، وانتصارِهم لابن إسحاق، مُفنّدين قول مالكٍ من كل وجه.

قال حسينُ بن عروة: « سمعت مالك بن أنس يقول: محمد بن إسحاق كذّاب »[٣]. وعن ابن إدريس قال: «كنت عند مالك بن أنس فقيل له: إن محمد بن إسحاق يقول: اعِرضوا علمَ مالك؛ فإني أنا بَيْطاره. فقال: انظروا إلى دجّال من الدجاجلة يقول: اعرضوا عليّ علمي»[٤].

فحُمل قول مالكٍ هذا على محامل، أحدها: المعاصرة؛ إذ عاش الرجلان -رحمهما الله- في وقت واحد، وفي بلدة واحدة، وكان لهما أصحاب وتلامذةٌ ينقلون بينهما ما قد يُوغر الصدر، وارجع إلى اتهام مالك ابنَ إسحاقَ بالدّجل تجد سببه أنه « قيل له » كذا وكذا. قال عبد الله ابن نافع: « كان ابن أبي ذئب، وعبدُ العزيز الماجشون، وابن أبي حازم، ومحمد بن إسحاق يتكلّمون في مالك بن أنس، وكان أشدَّهم فيه كلامًا محمدُ بن إسحاق، كان يقول: ائتوني ببعض كتبه حتى أُبيِّنَ عيوبَه، أنا بَيْطار كتبه »[٥].

ولعل ذلك كان السبب في التأليب على ابن إسحاق وإخراجِه من المدينة، حدَّث ابن

---

(١) أي على هشام بن عروة.

(٢) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، محمد بن عثمان ٣٩٠/٤-٣٩١ (تحقيق علي البجاوي، وفتحية علي البجاوي، دار الفكر العربي).

(٣) تاريخ مدينة السلام ١٩/٢.

(٤) الكامل، لابن عديّ ٢٥٩/٧.

(٥) تاريخ مدينة السلام ٢٠/٢-٢١.

إدريس قال: « قلت لمالك بن أنس - وذكر المغازي - فقلتُ: قال ابن إسحاق: أنا بيطارها. فقال: قال لك: أنا بيطارها ؟! نحن نفَيناه عن المدينة »[1].

قال الخطيب البغدادي: قد ذكر بعض العلماء أن مالكًا عابه جماعةٌ من أهل العلم في زمانه بإطلاقه لسانه في قوم معروفين بالصلاح والديانة والثقة والأمانة. واحتجَّ بما أخبره البرقانيُّ عن مالك بن أنس قال: هشام بن عروة كذَّاب. قال أحمد بن محمد: فسألت يحيى بن معين فقال: « عسى أراد في الكلام، وأما في الحديث فهو ثقة، وهو من الرواة عنه »[2].

وكان أحمد مع معرفته بطعن مالك يوثِّق ابنَ إسحاق، فعن الأثرم قال: سألتُ أحمد بنَ حنبل عن محمد بن إسحاق: « كيف هو؟ فقال: هو حَسَنُ الحديث، وقال: قال مالك حين ذكره: دجّالٌ من الدجاجلة »[3].

قال البخاريُّ: قال لي إبراهيم بن حمزة: ولو صحَّ عن مالك تناولُه من ابن إسحاق فلربما تكلم الإنسان فيرمي صاحبه بشيءٍ واحدٍ لا يتَّهمه في الأمور كلها[4]. وقال علي بن المدينيّ وقد سئل عن كلام مالك: « مالكٌ لم يجالسْه ولم يعرفْه »[5].

وحين صعُب على ابن إسحاق الخروجُ من المدينة فقال له رجل من أصحابه: « إني أحسبُ السفر غدًا خسيسةً يا أبا عبد الله - وكان ابن إسحاق قد رقَّ - فقال ابن إسحاق: والله ما أخلاقنا بخسيسة، ولربَّما قصَّر الدهرُ باعَ الكريم »[6].

(١) المصدر السابق ٢/٢٠.
(٢) المصدر السابق ٢/٢٠، وهذه الكلمة من ابن معين نفيسةٌ جدًا، دالَّةٌ على علمهم بمسألة الاختصاص ومراعاتهم إيّاها؛ فقد يقبلون حديث الكذّاب في كلامه مادام لم يكذب في الحديث، أي أن مصطلح (الكذب) عندهم الكذبُ في فنّهم، الحديث، وهم لهم الطرقُ في استخراج ذلك.
(٣) تاريخ مدينة السلام ٢/٢٠.
(٤) انظر: التاريخ الكبير، للبخاري ٢٤/٤١٧.
(٥) تاريخ مدينة السلام ٢/٢٧.
(٦) المصدر السابق ٢/١٦.

إن المعاصرة – لا مراء – حجابٌ يُعمي الأقرانَ أن يرى بعضُهم شمائلَ بعض، ثم يرغبُ بعض التلاميذ إلى القربى من الشيخ فينقلُون له من أقوال قِرْنه ما يُحْفِظُه ويَغيظه، ولا عِصْمةَ لأحد من الخلق إلا للأنبياء، ولذا ما إن ينأى أحدُهما بموت أو سفر أو محنةٍ إلا ويرجع صاحبُه إلى النَّصَفَة إن كان من أهل النَّصَفَة، وكان مالك – رحمه الله – من أهلها، قال ابن حِبَّان: « تكلم فيه رجلان: هشامٌ ومالكٌ، فأما قول هشام فليس مما يُجرح به الإنسان... وأمَّا مالك فإن ذلك كان منه مرَّةً واحدة ثم عاد إلى ما يحب... »[1].

وقيل: بل كان طعن مالكٍ فيه من أجل القدَر[2]، وهذا غير صحيح؛ لأن القدر شيءٌ، والكذبَ شيءٌ آخر. وقد نفى التهمة عنه محمد بن عبد الله بن نُمير فقال: « كان محمد بن إسحاق يُرمى بالقدر، وكان أبعدَ الناس منه »[3].

ويحكي مَكِّيُّ بن إبراهيم أنه حضر مجلس ابن إسحاق فإذا هو يروي أحاديث في صفة الله تعالى لم يحتملْها قلبُه، فلم يعُدْ إليه[4]. القول: ما حيلة ابن إسحاق في ذلك وهو راوٍ لا منشئ؟! لا ضير، لا يلحقه إثم.

وبين أيدينا خبر إذا جمعناه إلى المعاصرة انكشف لنا سببُ قدح مالكٍ في ابن إسحاق الثقة، وفيه مثال لعاقبة اجتزاءِ بعض الكلم دون سياقه، واجتزاءُ الكلم من سياقه مزلَّةٌ وقع فيها من أساء القولَ في ابن إسحاق، ذلك أن استنفاد النظر في كل النصوص المِلمَّةِ بالخبر أصل من أصول النقد االتاريخي[5].

---

(١) تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر أحمد بن علي العسقلانيّ ٩/٤٥ (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة)، ولعل الجملة: « ثم عاد إلى ما يجب » بالجيم التحتانية المعجمة.

(٢) انظر: تاريخ أبي زُرعة الدمشقي، عبد الرحمن بن عمرو البصري ص٢٦٥ (وضع حواشيه خليل المنصور، بيروت، ط١/١٤١٧هـ).

(٣) تاريخ مدينة السلام ٢/٢٣.

(٤) انظر: تاريخ مدينة السلام ٢/٢٣.

(٥) انظر: منهج البحث التاريخي، للدكتور حسن عثمان ص٦٧ (دار المعارف، ط٥). وانظر أيضًا: مصطلح التاريخ، للدكتور أسد رستم ص١٤-١٥ (المكتبة العصرية، صيدا، ط١/١٤٢٣هـ).

هـذا الخبر يصلُ قـدحَ مالك بقصة هشـام بن عروة تلك، فعن سـليمان بـن داود قال: « قال لي يحيى بنُ سعيد القَطّان: أشهد أن محمد بن إسحاق كذّاب. قال: قلت: ما يدريك؟ قـال: قـال لي وُهيب بن خالد: إنه كذاب. قال: قلـت لوهيب: ما يدريك؟ قال: قال لي مالك بن أنس: أشـهد أنه كذاب، قلت لمالك: ما يدريك؟ قال: قال لي هشـام بن عروة: أشهد أنه كذاب. قلت لهشـام: ما يُدريك؟ قال: حدَّث عن امرأتي فاطمةَ بنتِ المنذر، وأُدخلتْ عليَّ وهي بنتُ تسع سنين، وما رآها رجلٌ حتى لقيَتْ الله »[١].

فتلك إذن عاقبةٌ للاكتفاء والعجلة. إن محمد بن إسحاق ثقةٌ عَدْلٌ عند المحدِّثين، وإنهم أشـدُّ على النـاس من المؤرِّخـين والأدباء، وكانـوا أُولي رَصَد وتتبُّع وجمع لكل ما من شـأنه أن يعينَهم على تمحيص حال الرجل، فإذا جاء عن الواقديّ - وهو مؤرِّخ - أنَّ محمد بن إسحاق كان « يجلس قريبًا من النسـاء في مؤخَّر المسـجد، فيُروى عنه أنه كان يسـامر النساء، فرُفع إلى هشـام وهو أمير المدينة، وكانت له شَـعرة حسـنة، فرقَّق رأسه، وضربه أسواطًا، ونهاه عن الجلوس هنالك، وكان حسنَ الوجه »[٢]؛ أقول: إذا جاء ذلك فإنَّ مثله لم يك ليفوت المحدثين، إذ لو صح عندهم لذكروه وعوَّلوا عليه مرارًا؛ فهو ليس بصحيح.

وأمَّا قولُ محمد بن سلاّم: « وكان ممن أفسد الشعر، وهجَّنه، وحمل كلَّ غُثاء منه؛ محمدُ بن إسـحاق بن يسـار مولى آل مَخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَر. قال الزُّهريُّ: لا يزال في الناس علمٌ ما بقي مولى آلِ مخرمة. وكان أكثر علمه بالمغازي والسير وغيرِ ذلك؛ فقبِل الناس عنه الأشـعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علمَ لي بالشـعر أُتينا به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرا، فكَتَبَ في السـير أشـعارَ الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قطُّ، وأشـعارَ النسـاء فضلاً عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عادٍ وثمود، فكتب لهم أشـعارًا كثيرة، وليـس بشـعر، إنما هـو كلامٌ مؤلَّفٌ معقودٌ بقـوافٍ، أفلا يرجع إلى نفسـه فيقول: مَن حمل

---

(١) الكامل، لابن عدي ٧/٢٥٥-٢٥٦.

(٢) إرشاد الأريب، لياقوت ٧/٩ (طبعة مرجليوث).

هذا الشعر ؟ ومن أدّاه منذ آلاف السنين والله - تبارك وتعالى - يقول: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: ٤٥] أي لا بقيّة لهم، وقال أيضًا: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى. وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ [النجم: ٥٠، ٥١]، وقال في عادٍ: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]... فنحن لا نقيم في النسب ما فوق عدنان، ولا نجد لأوليّة العرب المعروفين شعرًا، فكيف بعادٍ وثمود ؟ فهذا الكلامُ الواهنُ الخبيث. ولم يروِ قطُّ عربيٌّ منها بيتًا واحدًا، ولا راويةٌ للشعر، مع ضعف أَسْرِهِ وقِلَّةِ طلاوته. وقال أبو عمرو بن العلاء في ذلك: ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيّتُهم بعربيتنا ؛ فكيف بما على عهد عادٍ وثمود مع تداعيه ووهيه ؟! فلو كان الشعرُ مثلَ ما وُضع لابن إسحاق ومثلَ ما روى الصحفيون؛ ما كانت إليه حاجة، ولا فيه دليلٌ على علم »[1].

وقولُ محمد بن سلاّم هذا لا يمَسُّ شعرَ المراثي النبويّةِ اليمنيّةِ التي في هذا الفصل بسوء؛ والحجّة أن أشعار المراثي ليست من أصناف الشعر التي أنكر صِدْقَها ابنُ سلاّم من رواية ابن إسحاق؛ وإنما أنكر ابنُ سلاّم ما تنكره بديهة العقل التاريخيّ من أشعار قومٍ بادوا وباد شعرُهم، وما هذا الشعر المفتعل بشعرهم فوق ذلك؛ لأن لغتهم لغةٌ غيرُ لغةِ العرب المعروفة. هذا ما رفضه محمد بن سلاّم، وأطلقه قومٌ في روايات ابن إسحاق قاطبةً، وهو إطلاق باطلٌ؛ لأن مغزى كلام ابن سلاّم صريحٌ واضح، وليست أشعار المراثي النبويّة في شيءٍ من ذلك.

وليس في كلام الجُمحيّ طعنٌ في عدالة ابن إسحاق وصدقه، بل إنه ذكره بالخير وأثنى على علمه، وإنما شقَّ عليه أن يجمع ابنُ إسحاق في كتبه السمينَ والغثَّ ثم لا يفرّق بينهما. والظاهر أنه أراد بنقده هذا «كتابَ المغازي»؛ فقد سرد ابنُ إسحاق في أوله أخبار الأوّلين، وليست أشعار المراثي النبويّة في شيءٍ من ذلك.

---

(١) طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلاّم ص٧-١١.

ولا لَوْمَ على ابن إسحاق إذا هو روى في كتابه شعرًا سقيمًا مخلوطًا بشعر صحيح مادام لم يجـزم بصوابه وصحَّتـه، وعلى النقَّاد التمحيص. وأمَّا الرجل فإنه قد جعل العُهْدةَ على الراوي فقال: «لا علم لي بالشـعر، أُتينا به فأحمله»، وإنها لنـزاهةٌ أن يُقِرَّ بقلة بضاعته في الشـعر، وأنْ يخشى أنْ لا يرويَ شعرًا لربما كان صحيحًا فضاع علمٌ هو أمين عليه.

وما كان ابن إسحاقَ بِدْعًا في منهجه هذا؛ فتلك من طريقة علمائنا الأوائل، فهذا الطبريُّ مثـلاً قـد يذكر الخبر ويذكـر نقيضَه تاركًا لمـن بعده الترجيحَ مـادام الترجيحُ لـم يظهر له(١). وقد اسـتخفَّ بعـض المتأخرين بهذا المنهج العربي الأصيـل الذي يحيط بالدلائل والقرائن، ويسـتقريُّ مـا حـول الحادثة مـن شيءٍ ذي بالٍ وشيءٍ غـيرِ ذي بال، ثم يَفْصِـلُ الأمورَ عن بعضها؛ فقد ينفع المستحقَر(٢).

لقد أدَّى محمد بن إسحاق العالمُ الثقةُ الأمانةَ، وأبان عن طريقته، وذكر لنا مبلغَ طاقته، فـكان ينبـغي أن نبدأ من حيث انتهى، لا أن نُعرض عن روايتـه، ونلويَ لها أعناقنا، معلِّلين النفس بما لا يَمُتُّ إلى منهج النقد الصحيح بصلة.

ثمَّ: ألم يرو محمدُ بن إسحاق في كتبه شعرًا صحيحًا ألبتة ؟ بلى، ورواه أهل العلم بالشعر

---

(١) وقد قال في أول تاريخه ٥/١: «وليعلم الناظرُ في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أَحْضرْتُ ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه؛ إنما هو على ما رَويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثارِ التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أُدْرِك بحجج العقول، واستُنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه؛ إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غيرَ واصلٍ إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة، ولا معنًى في الحقيقة؛ فليعلم أنه لم يؤتَ في ذلك من قِبَلنا، وإنما أُتي من قِبَل بعض ناقليه إلينا، وأنَّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا».

(٢) انظر: البحث الأدبي، للدكتور شوقي ضيف ص٢٥٧-٢٦٢ (دار المعارف، ط٩) وفيه يثني على هذا المنهج، ويذكر أمثلةً من حسناته.

عنه، فكان مرادُهم إذن أنْ يا قوم انظروا في ما روى ابنُ إسحاق، فإنَّ فيه صحيحًا فخذوه، وإنَّ فيه دَعِيًّا مُنْبَتًّا فاحذروه؛ ولم يقولوا قطُّ: ردُّوا كل ما جاءكم عن ابن إسحاق. وإنما ذلكم وهْمٌ توهَّمه من توهَّمه من كلام بعض المتقدمين كمالكٍ وابن سلاَّمٍ، ولا يصح.

ذلك ما انتهينا إليه من أمر رواية ابن إسحاق فيما رواه من المراثي النبويَّة.

٢

ابنُ ذي أَصْبَح الحميريّ:

ثلاثة أبيات تلك كل ما وقفت عليه من مرثيّة ابن ذي أصبح رضِي الله عنه. واسمه «أبرهة بن شُرَحْبيل بن أبرهة بن الصباح... ابن ذي أصبح الحميريُّ. ذكره الرشاطيُّ في «الأنساب» وقال: إنه وفد على النبيّ ﷺ ففرش له رداءً. وإنه كان بالشام. وكان يُعَدُّ من الحكماء. حكاه الهمْدانيُّ في «النسب»، قال: وكان يروي عن النبيّ ﷺ أحاديث»[1].

قال أبو موسى الأشعريُّ رضِي الله عنه: لو كان يُستوجَب بالشرف الخلافة، لكان أحقَّ الناس بها أبرهةُ بن الصباح؛ فإنه من أبناء ملوك اليمن التبابعة الذين ملكوا شرقَ الأرض وغربَها[2].

وثلاثة الأبيات هذه في «إمتاع الأسماع»، وقد أسقطها ناشره من المطبوعة، ولكنِّي عدت إلى المخطوطة الأمِّ التي اعتمدها فوجدتُ المَقريزي يقول: «وقال [ابن] ذي أصبح من حمير حين نعى لهم أهودُ بن عياض النبيَّ ﷺ بعد وفاته :

(١) الإصابة، لابن حجر ٢١/١.

(٢) انظر: الأخبار الطوال، لأبي حنيفة الدينوري، أحمد بن داود ص١٩٩ (تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ط١/١٩٦٠م).

(٣) مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٩).

صَـدَّعَ القَلْـبَ أَهْـوَدُ إِذْ نَـعى لِي مُحَمَّـدَا »[٣]

وقد نقلها المقريزي فيما نقل عن وثيمة. وآيةُ ذِكْرِها في «كتاب الردَّة» لوثيمة نصُّ كلام ابـن حجر بعد ما أورد بيتيها الأوَّلـين أنهما من أبيات ذكرها وثيمة في «الردَّة» عن محمد بن إسحاق[١].

كمـا جاء في كتاب «الإنابة» في ترجمة أهود: « أهـوذ [كذا بالمعجمة] بن عياض الأزديّ، هـو الذي جاء بنعيّ سـيدنا رسـول الله ﷺ إلى حمـير... »، قال محقق «الإنابـة»: « وفي هامش الأصل بجوار هذه الترجمة كُتب: « يُنظر كتاب وثيمة » »[٢].

والظنُّ أن المقطَّعة تزيد على ثلاثة أبيات؛ وإلا لَمَا ثَقُل على ابن حجر نقلُ البيت الثالث. والظـنُّ أن أبياتهـا قليلـة؛ فمن الواضـح أنَّ ابنَ ذي أصبح قالها لسـاعته لمَّـا صدمه كلام الناعي.

والمقطَّعة كأغلب المراثي اليمنيَّة صحيحةٌ جيّدةٌ، ولا شائبةَ فيها؛ ذلك أنَّ ابن ذي أصبح وأمثالَه صِنفٌ من الشـعراء لا يروق للوضَّاعين أن يضعوا على ألسـنتهم؛ لخفوت شهرتهم في الشـعر؛ أو لانقطاع أشـعارهم، وقد لا يضعون عليهم لقلة شـهرتهم أنفسِهم أصلاً، وتلك حسنة من حسنات التنائي.

٣

امْرُؤُ القَيْس بنُ عَابِس:

قـال الخطيبُ البغدادي: « وليس في الصحابة من يسـمى امـرَأَ القيس غيرُه[٣]... عن أبي

(١) انظر: الإصابة ١/٢١.

(٢) الإنابة في معرفة المختلف فيهم من الصحابة، للحافظ علاء الدين بن قِليط مُغُلْطاي (اعتنى به قسم التحقيق بدار الحرمين: السيد عزت موسى وآخران، مكتبة الرشد، الرياض).

(٣) بل عدَّ ابنُ الأثير مَنْ اسمه امرؤ القيس غيرَه، وهم: امرؤ القيس بن الأصبغ الكلبي، وامرؤ القيس بن الفاخر ابن الطمَّاح (انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير ١/٢٧٦-٢٧٧).

الحســن بن بشر بن يحيى الأسـدي قال: امرؤ القيس بن عابس بن المنذر... الكِنْديُّ، جاهليٌّ وأدرك الإسـلام. وفد على النبيّ ﷺ. ولم يرتدَّ في أيام أبي بكر، وأقام على الإسـلام في الردَّة، وله غِناءٌ في الردَّة، وهو القائل :

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَـا بَـكْـرٍ رَسُـولاً ... وَخُـصَّ بِهَـا جَمِيعَ المُسْـلِمِينَا
فَلَسْـتُ مُبْـدِلاً بِـالله رَبًّـا ... وَلاَ مُتَبَـدِّلاً بِالسِّـلْمِ دِينَـا »[1]

وهو شاعرٌ[2] مجيدٌ، هادينا إلى ذلك قولُه السائر :

حَيِّ الحُمُـولَ بِجَانِـبِ العَـزْلِ ... إِذْ لاَ يُوَافِـقُ شَـكْلُهَا شَـكْلِي
اللهُ أَنْجَـحُ مَـا طَلَبْـتُ بِـهِ ... وَالـبِرُّ خَـيْرُ حَقِيبَـةِ الرَّحْـلِ
إِنِّي بِحَبْلِـكِ وَاصِـلٌ حَبْـلِي ... وَبِرِيـشِ نَبْلِـكِ رَائِـشٌ نَبْـلِي
وَشَـمَائِلِي مَـا قَـدْ عَلِمْـتِ، وَمَـا ... نَبَحَـتْ كِلاَبُـكِ طَارِقًـا مِثْـلِي[3]

وكان سببُ المرثية شماتةَ بعض النساء البغايا باليمن حين نعى لهم جَهْبَلٌ رسول الله ﷺ فآذَيْـن امرأ القيس بن عابسٍ، وبعثْنَ في نفسـه الغَـيرة والأسى؛ فما برح حتى كتب إلى أبي بكرٍ يحثُّه ويستنصره راثيًا رسول الله ﷺ:

شَـمِتَ البَغَايَـا يَـوْمَ أَعْلَـنَ جَهْبَـلٌ ... بِنَـعِيِّ أَحْمَـدَ النَّـبِيِّ المُهْتَـدِي

ستة أبيات انفرد بروايتها جميعًا ابنُ حبيب في «المحبَّر»[4]. والذي يغلب أنه نقلها عن ابن الكلـبيّ؛ لأن ابن حبيب أورد معها مقطَّعةً أخرى لشـدَّاد بن مالك بن ضَمْعَج[5] تشـكو من

(١) كتاب الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة، للخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت ص٤٢٩ (أخرجه الدكتور عز الدين علي السيد، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢/١٤١٣هـ).

(٢) انظر: امرؤ القيس بن عابس الكنديُّ وما تبقَّى من شعره، للدكتور محمد أبو المجد علي (مستلَّة من مجلة كلية دار العلوم، العدد الحادي عشر، يونيو ٢٠٠٤م).

(٣) انظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ٣٠٤/٣.

(٤) المحبَّر ص١٨٤.

(٥) ستأتي قريبًا في ص ٢١٢.

شماتة أولئك البغايا أيضًا، ولم يذكر عمَّن أخذها؛ ولكني وجدت ابنَ قتيبة روى مقطَّعة شدَّادٍ هذه وقال: إنه رواها عن ابن الكلبيّ(١).

وكان ابنُ الكلبيّ هشامُ بن محمد بن السائب إمامًا من أئمة التاريخ والأنساب، وكان عليهما حريصًا، حتى لقد بلغ به ولعُهُ أن ذهب يتتبَّع الآثار والمقابر ينسخُ ما عليها من النقوش والأشعار(٢). وهو وإن كان ضعيفًا في رواية الحديث(٣) فهو العالم الكبير الذي رجع الناسُ إليه في التاريخ والنسب؛ وانظر في كتب المحدِّثين تَرَهم ينقلون عنه في عشرات المواضع، بل مئاتها، بلْه غير المحدثين من أهل الأخبار والأنساب والتراجم، فإن ذلك شيءٌ كثير لا يكاد يُحصى(٤).

ولعلنا نعيد قول الذهبي الذي مرَّ قبلُ الذي فيه يقول: «فكم من إمام في فنّ مُقصِّرٌ عن غيره، كسيبويه - مثلاً - إمامٌ في النحو ولا يدري ما الحديث، ووكيعٌ إمامٌ في الحديث ولا يعرف العربية، وكأبي نُوَاس رأسٌ في الشعر عريٌّ من غيره...»(٥).

---

(١) انظر: عيون الأخبار ١١٦/٣.

(٢) انظر: (باب القبوريات) من الإكليل، للهمْداني ١٥٦/٨ (تحقيق محمد بن علي الأكوع، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ١٤٢٥هـ)، وانظر: المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي ١: ٧٧ (ساعدت على طبعه جامعة بغداد، ط٢/١٤١٣هـ).

(٣) انظر: لسان الميزان، لابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني ١٩٦/٦ (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٤٠٦هـ، تحقيق دائرة المعارف النظامية بالهند).

(٤) ممن أكثر النقل عنه مثلًا: أبو عُبيد القاسم بن سلام في «غريب الحديث» (تحقيق عبد المعين خان، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١/١٣٩٦هـ)، والبَلاذُري في «أنساب الأشراف»، وأبو الفرج في «الأغاني»، وياقوتٌ في «إرشاد الأريب»، وابنُ عبد البر في «الاستيعاب»، وابنُ عساكر في «تاريخ دمشق»، وابن الأثير في «أُسْد الغابة»، وابنُ ناصر الدين في «توضيح المشتبه»، وابنُ حجر في «الإصابة» في مواضع جمّة، وأصحابُ المعاجم وكتب اللغة. وهؤلاء أصنافٌ من العلماء ذوو علوم مختلفة كلُّهم كان يعتمد في كتابه على ابن الكلبيّ فيما كان يُحْسِنُه أو يحكيه من الأنساب والأخبار والشعر.

(٥) تذكرة الحفاظ ١٠٣١/٤.

فـإذا نحن أصبنا مثل هذه الأبيات التي لم يمسسـها عِوَجٌ، فألفيناهـا مَرويّةً بمثلِ هذه الطريق المألوفة عند أهل العلم؛ فإنا قابلوها.

٤

ذُو الكَلاَعِ الحميريّ:

سَـمَيْفع، أو أَسْـمَيْفَع[١]، ويقـال: أيفع بن ناكور، وقيل: ابن حوشـب بن عمـرو بن يَعفُر الحميريُّ. يكنى أبا شُرَحْبيل، ويقال: أبو شَراحيل. ابن عمّ كعب الأحبار. وقال ابن حجر: قال الهَمْداني: اسـمه يزيد[٢]. وهذا وهمٌ من ابن حجر؛ فيزيدُ إنما هو ذو الكَلاع الأكبر جَدُّ هذا[٣]. وذو الكلاع الأصغرُ هذا كاتَبَه رسـولُ الله ﷺ على يد جرير بن عبد الله البجلي[٤]، فأسلم، وأعتق خلْقًا، ثم قدم المدينة ومعه أربعة آلاف نفسٍ، فسأله عمرُ في بيعهم، فأصبح وقد أعتقهم أيضًا. رَوى عن عمرَ، وشهد وقعة اليرموك، وفتْحَ دمشق[٥]، ومات -على الراجح- سنة ثلاثٍ وعشرين أو خمسٍ وعشرين منقلَبه من مَريوط بالإسكندرية[٦].

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق، وذكرُ فضلها، وتسمية من حلَّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها على واردِيها وأهلها، للحافظ ابن عساكر، علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي ٣٨٢/١٧ (تحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت، ط١٤١٩/١)، و«سُميفع: تصغير سمفع إن كان أوله مضمومًا، وإلا فهو مثل سَمَيدع. والسمفعة: الجرأة والإقدام في لغتهم. وناكور: فاعول من الفكر والدهاء» انظر: الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن الحسين بن دُريد ص٥٢٥ (تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١٤١١/١هـ).

(٢) انظر: الإصابة ٤٢٨/٢.

(٣) انظر: جمهرة أنساب العرب، لابن حزم ص٤٣٤ (تحقيق بروفنسال).

(٤) انظر: المصباح المضّي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، لمحمد بن علي بن حديدة الأنصاري ٧١/٢ (تحقيق محمد عظيم الدين، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٥هـ)، وطبقات فقهاء اليمن، لعلي بن سمُرة الجعدي ص١٩ (تحقيق فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥٧م).

(٥) انظر: تاريخ مدينة دمشق ٣٨٣/١٧-٣٩٧.

(٦) انظر: يمانيون في موكب الرّسول ﷺ ٤٤٢/١.

وهو شـاعر؛ فقد ذكره المَرْزُبانيُّ في «معجم الشـعراء»[١]. وروى ابنُ عساكر بإسناده عن علـوان بـن داود، عن رجلٍ من قومه قـال: بعثني أهلي بهديَّةٍ إلى ذي الـكلاع في الجاهلية، فلبثـتُ على بابـه حَوْلاً لا أَصِل إليه، ثم إنـه أشرف ذات يوم من القصر، فلم يبق أحدٌ حول القصر إلا خرَّ له سـاجدًا. قال: فأمر بهديَّتي فقُبلت، ثم رأيته بعدَ الإسـلام وقد اشترى لحمًا بدرهم فسمَطه[٢] على فرسه وهو يقول :

أُفٍّ لِلدُّنْيَـا إِذَا كَانَـتْ كَـذَا ... أَنَـا مِنْهَـا كُلَّ يَـوْمٍ فِي أَذَى
وَلَقَـدْ كُنْـتُ إِذَا مَـا قِيـلَ: مَـنْ ... أَنْعَـمُ النَّـاسِ مَعَاشًـا قِيـلَ: ذَا
ثُـمَّ بُدِّلْـتُ بِعَيْـشِي شِـقْوَةً ... حَبَّـذَا هَـذَا شَـقَاءٌ حَبَّـذَا[٣]

ويُـروى أنـه لما بلـغ عمرَ بن الخطـاب كثرةُ شرب النـاس الخمر بالشـام، وإقامةِ الحدود عليهم؛ أمر أن يُطبخ كلُّ عصير بالشام حتى يَذهب ثلثاه فلا يصير خمرًا، فقال ذو الكلاع :

صَبَرْتُ وَلَـمْ أَجْزَعْ وَقَدْ مَاتَ إِخْوَتِي ... وَلَسْـتُ عَـنِ الصَّهْبَـاءِ يَوْمًـا بِصَابِرِ
رَمَاهَـا أَمِـيرُ الْمُؤْمِنِـينَ بِحَتْفِهَـا ... فَخِـلاَّنُهَـا يَبْكُـونَ حَـوْلَ الْمَعَاصِرِ
فَـلاَ تَجْـلِدُونِي وَاجْلِدُوهَـا فَإِنَّهَـا ... هِيَ الْعَيْـشُ لِلْبَاقِي وَمَنْ فِي الْمَقَابِرِ[٤]

ولا تفـترقُ مرثيتُـه في النبيّ ﷺ كثيرًا عن هذه الأبيات القليلة التي أُثرت لسَـميفع ذي الكلاع رضِي الله عنه، فشعره سهلٌ على ما يبدو، غيرُ طويل.

وهذه المرثية معبِّرةٌ تعبير صدق عن الخطب الذي نزل بحمير بسـبب الوفاة، وكيف أنهم كانـوا يطمحـون أن يُمتَّعـوا بطول صحابة النـبيّ ﷺ، ولكن أنَّى لهم ذلـك وقد حال الموت بينهم وبينه، يقول ذو الكلاع:

---

(١) ذكر ذلك في الإصابة ٢/٤٢٩، وعلى ذلك يكون في الشطر الأول الضائع من المعجم.

(٢) سمطه: أي علَّقه (اللسان: سمط).

(٣) انظر: تاريخ مدينة دمشق: ١٧/٣٨٨.

(٤) انظر: المصدر السابق ١٧/٣٩١-٣٩٠.

قَــدْ أَتَى حِمْـيَرَ أَمْـرٌ شَـامِلٌ قَاطِعٌ لِلظَّهْـرِ مُـزْرٍ بِالأَمَـلْ
مَـوْتُ مَـنْ كَانَ بَقَـاهُ رَحْمَـةً كُلُّ شَيْءٍ مَـا خَـلاَ هَـذَا جَلَـلْ

وهي ناطقـةٌ بلسـان حـال ما كان يجـري في أيام الردَّة، وقـد رواها المَقْريـزيُّ في «إمتاع الأسماع»[1]، وابنُ سيّد الناس في «مِنَح المِدَح»[2]، كلاهما في جملة نقْلهما من كتاب «الردَّة» لوثيمة.

فالمرثية صحيحةٌ ظاهرًا وباطِنًا، سليمةٌ لا غبار عليها.

٥

سَوَادُ بن قَارب:

الدَّوسيُّ، الأزديُّ، وقيـل: السـدوسيُّ. صحـابيٌّ كان يتكهَّن في الجاهلية، وكان شـاعرًا[3]. ولإسـلامه خبرٌ متداولٌ من طرق شـتَّى، وفيه أنَّ سـواد بن قارب قصَّ على عمر بن الخطاب قصَّـة إسـلامه فقال: بينا أنا ذات ليلـة نائمٌ، إذْ أتاني نَجِيٌّ فضربني برجله، ثم قال: يا سـواد، اسمع أَقُلْ لك. قال: قلتُ: هات. قال:

عَجِبْـتُ لِلْجِـنِّ وَأَنْجَاسِـهَا وَرَحِلِهَـا العِيـسَ بِأَحْلاَسِـهَا
تَهْـوِي إِلَى مَكَّـةَ تَبْـغِي الهُـدَى مَـا مُؤْمِنُوهَـا مِثْـلَ أَرْجَاسِـهَا
فَارْحَـلْ إِلَى الصَّفْـوَةِ مِـنْ هَاشِـمٍ وَاسْـمُ بِعَيْنَيْـكَ إِلَى رَاسِـهَا

قال: فنمت ولم أحفِل بقوله شيئًا، فلما كانت الليلةُ الثانية أتاني يضربني برجله، ثم قال:

---

(١) مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٩)، ولن تجدها في المطبوعة إذ أُسقطت منها.

(٢) منح المدح، لابن سيد الناس ص١٠١.

(٣) انظر ترجمته في: معرفة الصحابة، لأبي نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني ص١٤٠٤ (تحقيق عادل العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط١/١٤١٩هـ)، ومعجم الصحابة، للبغوي، عبد الله بن محمد بن عبد العزيز ٢٤٣/٣ (تحقيق محمد الأمين بن محمد محمود أحمد الجكني، دار البيان، الكويت).

يا سواد، اسمع أقل لك. قلت: هات. قال:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَطْلاَبِهَا ... وَرَحْلِهَا العِيسَ بِأَقْتَابِهَا
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى ... مَا صَادِقُ الجِنِّ كَكَذَّابِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ ... لَيْسَ المَقَادِيمُ كَأَذْنَابِهَا

قال: فحرَّك قولُه مني شيئًا، قال: ونمتُ، فلما كانت الليلةُ الثالثة أتاني فضربني برجله، وقال: يا سوادَ بن قارب، اسمع ما أقول لك. قال: قلتُ: هات. قال:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَأَخْبَارِهَا ... وَرَحْلِهَا العِيسَ بِأَكْوَارِهَا
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى ... مَا مُؤمِنُوهَا مِثْلَ كُفَّارِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ ... بَيْنَ رَوَابِيهَا وَأَحْجَارِهَا

قال: فعلمتُ أن الله قد أراد بي خيرًا، فقمتُ إلى بُرْدةٍ لي، ففتقْتُها فلبَستُها، ووضعتُ رِجْلي في الغَرْز، ثم أقبلتُ حتى انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ فأخبرته. قال: « فإذا اجتمع المسلمون فأخبِرْهم » فلما اجتمع المسلمون قمتُ فقلتُ:

أَتَانِي نَجِيِّي بَعْدَ هَدْءٍ وَرَقْدَةٍ ... وَلَمْ يَكُ فِيمَا قَدْ تَلَوْتُ بِكَاذِبِ
ثَلاَثَ لَيَالٍ قَوْلُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ: ... أَتَاكَ نَبِيٌّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ
فَرَفَّعْتُ أَذْيَالَ الإِزَارِ، وشَمَّرَتْ ... بِيَ الفَرَسُ الوَجْنَاءُ حَوْلَ السَّبَاسِبِ
فَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ ... وَأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبِ
وَأَنَّكَ أَدْنَى المُرْسَلِينَ وَسِيلَةً ... إِلَى اللهِ يَا ابْنَ الأَكْرَمِينَ الأَطَايِبِ
فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ مِنْ وَحْيِ رَبِّنَا ... وَإِنْ كَانَ فِيمَا جِئْتَ شَيْبُ الذَّوَائِبِ
وَكُنْ لِي شَفِيعًا يَوْمَ لاَ ذُو شَفَاعَةٍ ... بِمُغْنٍ فَتِيلاً عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبِ

قال: ففَرِح رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصارُ فرحًا شديدًا[1].

---

(١) انظر: معرفة الصحابة، لأبي نُعيم ص١٤٠٦.

ذلك خبر سـواد، سُـقتُه برُمَّته لتضَمُّنِه ما أعرفه لسـوادٍ من شعرٍ سـوى مرثيته في النبيّ ﷺ، وقـد جاءت المرثية في خبرٍ طريفٍ عند الـكلاعي، وأرجّح أن يكون رواه عن وثيمة؛ فهو قد قال في جملةِ نقلِهِ من كتاب وثيمة: « وقال سواد بن قاربٍ... من خبره يبكي النبيّ ﷺ لَمَّا بَلَغَتْ أَسْدَ السراة وفاتُه، وبعد أن قام فيهم مقامًا محمودًا يثبتُهم في الدين، ويحذّرُهم سوءَ عاقبة الارتداد، وكان قد سادهم وشرُف فيهم، فأجابوه إلى ما أراد، وقبِلوا رأيَه، وقال:

جَلَّـتْ مُصِيبَتُـكَ الغَـدَاةَ سَـوَادُ ... وَأَرَى المُصِيبَـةَ بَعْدَهَـا تَـزْدَادُ »

المرثية[1].

ويشـهد لهذه القصـة أنها من كتاب وثيمـة أنَّ ما قبلها وما بعدها مـن كتاب الكلاعيّ منه، فما قبلها هو قصيدة عبد الله بن سلمة، وما بعدها هو قصيدة عبد الحارث بن أنس بن الديَّان، وكلتاهما منه[2].

أردتُ أن أكتب هذا الشعرَ وهو كل ما انتهى إلينا من شعر سواد بن قاربٍ - وهو قليل ؛ لنعلمَ أنَّه والمرثيةَ نمطٌ واحدٌ لا نجد اختلافًا فيه، نمطٌ له أحرفٌ حيَّةٌ تنبض بالشعر، وقوافٍ مُفْلِقةٌ ثابتةٌ في أصول أبياتها لا اجتلابَ فيها ولا إغراب، ويؤنسُنا مع أنَّ هذه الأبيات قليلةٌ أنا وجدنا سوادًا كان يختم قصيدتَه بخَتْمٍ يذكر اسمه فيه، ففي غير المرثية قال:

وكُـنْ لِي شَـفِيعًا يَـوْمَ لاَ ذُو شَـفَاعَةٍ ... بِمُغْـنٍ فَتِيـلاً عَنْ سَـوَادِ بْـنِ قَارِبِ

وفي المرثية قال:

هَـذَا وَهَـذَا لا يَـرُدُّ نَبِيَّنَـا ... لَـوْ كَانَ يَفْدِيـهِ فَـدَاهُ سَـوَادُ

وإن احتمال الوضع - إن كان ثَمَّ احتمالٌ - بعيدٌ، ذلك أنَّ سواد بن قارب مغموطُ الشهرة شاعرًا؛ فهو ممن لا يتنافس الأفَّاكون في الحمل عليه.

---

(١) الاكتفاء للكلاعي ٢/٧٠.

(٢) انظر ص٢١٤، ٢١٥ من هذا الكتاب.

٦

شَدَّادُ بن مالِك بن ضَمْعَج:

والذي ذكره باسمه هذا هو ابنُ حبيب وحدَه في «المحبَّر» في جملة خبر البغايا اللواتي شمَتْن بوفاة النبيّ ﷺ فقد قال بعد أبيات امرئ القيس بن عابس السالفة: «وكتب رجل من تَنُعة كان شريفًا يقال له: شدَّاد بن مالك بن ضَمْعَج إلى أبي بكر رحمه الله:

أَبْلِـغْ أَبَـا بَكْـرٍ إِذَا مَـا جِئْتَـهُ: أَنَّ البَغَايَـا رُمْـنَ كُلَّ مَـرَامِ »[١]

وأنشد ابنُ قُتيبة الأبيات في «عيون الأخبار» عن ابن الكلبيّ، ولكنه لم يذكرْ صاحبهنّ[٢].

والأبيات كما يظهر من سياقها كأبيات امرئ القيس بن عابس الكِنْديّ؛ صحيحةٌ مقبولةٌ[٣].

٧

عامر بن الطُّفَيل الأزديُّ:

هو عامر بن الطُّفيل بن الحارث الأزديّ، ترجمه ابنُ حجر في القسم الأول من الصحابة في «الإصابة»[٤] وقال: «ذكره وثيمة في «الردَّة» عن ابن إسحاق، وذكر أنه كان وافدَ قومه،

(١) المحبّر ص١٨٤.

(٢) انظر: عيون الأخبار ٣/١٦.

(٣) انظر: توثيق مرثية امرئ القيس بن عابس ص٢٠٤ من هذه الدراسة.

(٤) قسم ابن حجر كتاب «الإصابة» أربعة أقسام: الأول: فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره، أو وقع ذكره بما يدل على الصحبة. الثاني: من ذُكر في الصحابة من الأطفال الذين ولدوا في عهد النبيّ ﷺ ممن مات وهو دون سن التمييز. الثالث: فيمن ذكر في الكتب من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ولم يرد في خبرٍ قطُّ أنهم اجتمعوا بالنبيّ ﷺ، ولا رأوه، سواء أسلموا في حياته أم لا. الرابع: فيمن ذكر في الكتب على سبيل الوهم والغلط (انظر: الإصابة ١/٣-٥).

والقائمَ فيهم في زمن الردَّة يحرِّضهم على الإسلام، وذكر له قصةً طويلة وقصيدة حسنةً، وله مرثية في النبيِّ ﷺ :

بَكَتِ الأَرْضُ وَالسَّمَاءُ عَلَى النُّو ... رِ الَّذِي كَانَ لِلْعِبَادِ سِرَاجَا

مَنْ هُدِينَا بِهِ إِلَى سُبُلِ الحَقْـ ... ـقِ وَكُنَّا لا نَعْرِفُ المِنْهَاجَا »[١]

وهو غير عامر بن الطُّفيل بن مالك بن جعفر الكِلابي، الذي اشترط على النبيِّ ﷺ المُلكَ من بعده، فمنعه، ومات كافرًا[٢]، صاحبِ الديوان الذي حققه ليال[٣]، والمرادِ عند الإطلاق.

ومقطَّعة الأزديِّ التي وصلت إلينا ثلاثةُ أبيات، هي من قصيدة، حسنةٍ كما قال ابن حجرٍ، وقد رآها، ولكنه لم يثبت إلا بيتين منها. أما المَقريزيُّ[٤] وابنُ سيد الناس[٥] فزادا بيتًا ثالثًا، وكلُّهم يروي عن «كتاب الردَّة» لوثيمة بن موسى الذي رواها عن محمد بن إسحاق بن يسار.

فالأبيات صِحاحٌ مستقيمة، وإن كنا في أسًى أن لم تَقَرَّ أعينُنا بالقصيدة أجمع؛ إذ نحسُّ فيها حبًّا وحنانًا يمنيَيْن.

---

(١) الإصابة ٣/٥٨٤.

(٢) انظر: أسد الغابة ٣/١٢٥.

(٣) انظر:

The Diwan Of Abid Ibn al-abras And Amir Ibn AT-Tufail Of Amir Ibn Sasaah (edited by Sir Charles Lyall , Leyden, ١٩١٣).

(٤) انظر: مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٩).

(٥) انظر: منح المدح ص١٤٢.

٨

عبد الحارث بن أنس بن الدَّيَّان:

صحابيٌّ حارثيٌّ نجرانيٌّ، وفد على رسول الله ﷺ سنة اثنتين على الأرجح(١)، اختلفوا في اسمه، فقيل: عبد الحارث، وقيل: عبد الرحمن؛ فقد ترجمه ابن حجر في صحابة القسم الأول وسماه: عبد الحارث، ثم قال: «وأعاده الذهبيُّ في «التجريد» فيمن اسمه عبد الرحمن، فقال: عبد الرحمن بن الحارث بن أنس. أسلم بنجران. قيل: له شعر. ولم يذكر [الذهبيُّ] من أين نقله، ويُحتمل أن يكون النبيُّ ﷺ غيَّر اسمه فسمَّاه عبد الرحمن، لكن يكون ذكر الحارث في نسبه غلطًا»(٢).

فإن صحَّ تغييرُ الرَّسول ﷺ لاسمه، فإن اسمه يكون عبد الرحمن بن أنس لا عبد الرحمن ابن الحارث قولاً واحدًا.

وقصيدته ذاتُ الأربعة عشر بيتًا التي مطلعها:

لَعَمْرِي لَئِنْ كان النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ [سَلاَمُ] الله أَوْدَى بِهِ القَدَرْ

رواها وثيمة في «الردَّة» عن محمد بن إسحاق، صرَّح بهذه الرواية ابن حجر في «الإصابة»، وأنشد بيتين منها(٣). وأنشدها جميعَها الكَلاعيُّ في «الاكتفا» عن وثيمة أيضًا(٤).

وإذا كان ابنُ إسحاق مدارَ القصيدة، وهو راوٍ ثقةٌ، ولم تكن من أنواع ما ردَّه النقاد من الشعر الذي رواه، كالشعر المنسوب إلى الأمم البائدة، والشعر المنظوم المعقود بقوافٍ باردةٍ... ولم يخترمها ضعفٌ يهوي بها من عصر الفصاحة، بل كانت متينةً، غضَّةَ الكَلِم، لا خذْلان فيها، وكان صاحبُها لم يُشتَهر حتى يوضع عليه؛ فإنا نصححها له، طيِّبةً نفوسُنا بذلك.

وأنا أزيد ناظرًا في الأمر اطمئنانًا إليه فأقول: إن العلماء اقتصروا في الشهادة

---

(١) انظر: يمانيون في موكب الرَّسول ٢/١٢٣.
(٢) الإصابة ٤/٢٧٩.
(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.
(٤) انظر: الاكتفا ٢/٧١.

على صحبة هذا الصحابيّ بما أورده وثيمةُ في كتاب «الردَّة» عن ابن إسحاقٍ فحسب؛ فقد استدركه الحافظ الطُّليطليّ على ابن عبد البر فقال: «ذكره وثيمة»[١]، واستدركه ابنُ فَتحون عن وثيمة أيضًا، واحتجَّ ابن حجر لصحبته بما أورده وثيمة عن ابن إسحاقَ كذلك[٢]» فانظر كيف وَثِق النقاد في وثيمة وابنِ إسحاقَ كليهما، ورأوهما أهلاً للحُجَّة والتقديم.

٩

عبدُ الله بن سَلمَةَ الهَمْدَانيّ:

ليست قصيدةُ عبد الله بن سلمة عن صواحبها ببعيد، فهي صحيحةٌ رواها وثيمة عن ابن إسحاق، ذكر ذلك ابنُ سيد الناس، وذكر مقامَه الحميد، وخطبتَه البليغة التي أصاخت لها قريشٌ بعد وفاة النبيّ ﷺ، وهي من عيون خطب العرب، ثم قال: « فأثنى عليه أبو بكرٍ خيرًا، وحمِدته قُريشٌ، وكان سيِّدا، فقال:

إنَّ فَقْدَ النَّبِيّ صَرَّعَنَا اليَوْمَ فَدَتْهُ الأَسْمَاعُ وَٱلأَبْصَارُ
وَفَدَتْهُ النُّفُوسُ لَيْسَ مِنَ المَوْتِ فِرَارٌ، وَأَيْنَ أَيْنَ الفِرَارُ »

وأنشد بقيَّة القصيدة فأتمَّها اثني عشر بيتًا[٣]. ومن الطريق نفسها، طريق وثيمة عن ابن إسحاق روى الكَلاعيُّ منها عشرة أبيات[٤].

واقتصر ابنُ حجرٍ على ثلاثة، وكان لا يتكثَّر من الشعر في تراجمه؛ لئلا يجنح بالكتاب عن

---

(١) مخطوطة الاستدراك على أبي عُمر ابن عبد البر في كتابه «الاستيعاب»، للحافظ إبراهيم بن يحيى الطُّليطلي (ورقة ٤) محفوظة بدار الكتب المصرية (تيمورية ٨٩ تاريخ).

(٢) انظر: الإصابة ٢٧٩/٤.

(٣) انظر: منح المدح ص١٦٥.

(٤) انظر: الاكتفا ١٦٩/٢.

مقصده، ولو فعل لرأينا جملة عجيبةً من شعرٍ ضاع بضياع كتبه.

١٠

عبدُ الله بن مالِك الأَرْحَبِيُّ:

صحابيٌّ سيّدٌ، ضمَّهُ ابنُ حجر إلى صحابة القسم الأول من كتابه اعتمادًا على كتاب وثيمة لا غير، قال: «ذكر وثيمة في «الردَّة» أن له صحبةً، وأنشد له شعرًا في ذلك قال [أي وثيمة]: قال ابن إسحاق: لمَّا همَّتْ هَمْدان بالردَّة قام فيهم عبدُ الله بن مالك الأرحبيُّ، وكان من أصحاب النبيِّ ﷺ، له هجرةٌ وفضلٌ في دينه... وذكر له خطبةً طويلةً يقول فيها :

لَعَمْرِي لَئِنْ مَاتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ... لَمَا مَاتَ يَا ابْنَ القَيْلِ رَبُّ مُحَمَّدِ »[١]

وقد روى ابنُ سيّد الناس هذه الخطبةَ الرائعة تامَّةً من غير نقص، ولا أعلم أحدًا رواها تامَّةً سواه، وروى أبياتًا خمسةً من أبيات مرثيّة الأرحبيّ نقلاً عن كتاب وثيمة بن موسى[٢]، وروى الأبيات الخمسة المَقْريزيُّ في «إمتاع الأسماع»[٣]، وهنَّ واقعاتٌ في الجزء الفريد الذي أسقط (محقق) الكتاب من غير ما سببٍ نعرفه. أمَّا الكلاعيُّ الأندلسيُّ فقد زاد في الرواية بيتًا سادسًا، وكان لعامري الجزيرةِ فضلُ عنايةٍ بكتاب وثيمة الذي سار إليهم فأقام بالأندلس مَلاوَةً من الدهر[٤].

---

(١) الإصابة ٤/٢٢٥.

(٢) انظر: منح المدح ص١٥٧، ١٥٨.

(٣) انظر: مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٩ - ١٨٣٠).

(٤) انظر ص١٥٦ من هذا الكتاب.

والمقطَّعةُ شعرٌ يمنيٌّ رقيقُ الحواشي لم يطُلْه شيءٌ من أذى الوضَّاعين.

١١

عمرو بن الفُحَيْل الزُّبيْديُّ:

صحابيٌّ من المهاجرين، أضناه فَقْدُ النبيّ ﷺ فرثاه بمرثية خاشعةٍ متهدِّجة مطلعُها:

أَسْـعِدِينِي بِدَمْعِـكِ الرَّقْـرَاقِ لِفِـرَاقِ النَّـبِيِّ يَـوْمَ الفِـرَاقِ

رواها وثيمة عن محمد بن إسحاق، ذكر ذلك المَقريزيُّ[1]، وابنُ سيّد الناس[2]، وابنُ حجر[3].

والمقطَّعة شأنُها شأنُ المراثي اليمنية التي رواها وثيمة عن ابن إسحاقٍ، قيِّمةٌ صحيحة.

١٢

مِحْقَبَة / مِجْفَنَة / عُقْبَة بن النُّعْمَان العَتَكِيُّ:

اختُلف في اسمه، ولعل تصحيف النساخ السبب، وقد جاء الخبر عنه من طُرُق: طريق عُمَرَ بن شَبَّة في كتابه «أخبار البصرة»، وطريق محمد بن إسحاق في كتاب وثيمة «الردَّة» - وهذا الذي جعل ابن حجر يترجمه مرتين ظنًّا منه أنه رجلان، وطريق ثالث هو طريق أحمد بن أعثم المؤرِّخ الكوفيّ.

وهـذا الصحابيُّ عرَّف به ابـنُ حجر فقال: « عُقبة بن النعمان العَتَـكِيُّ، أبو النعمان، من أهل عُمان. ذكره وثيمةُ في «الردَّة»، وأنه ثبت على إسـلامه، وشـيَّع عمرَو بن العاص في جماعة

(١) انظر: مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣١)، وهي مما أُسقط من المراثي المرويَّة في الكتاب.

(٢) انظر: منح المدح ص٢٠٤.

(٣) انظر: الإصابة ٤/٦٧٠ .

من قومه حتى قدموا على أبي بكر، فشكر لهم أبو بكرٍ ذلك، وهو القائل:

وَفَيْنَا وَفِينَا يَفِيضُ الوَفَاءُ وَفِينَا يُفَرِّخُ أَفْرَاخَهُ...»

وذكر شعرًا[1].

وعرَّف به في الثانية فقال: «محقبة بن النعمان العتكيُّ الأزديُّ، ذكره عمر بن شبة في «أخبار البصرة» فيمن شهد فتح تُسْتَر مع أبي موسى، قال: وكان شاعرَ الأزد في وقته، وأنشد يخاطب عمرو بن العاص لمَّا خاف على نفسه أيام الردَّة يشجِّعه ويؤمِّنه:

يَا عَمْرُو إِنْ كَانَ ا لنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ أَوْدَى بِهِ الأَمْرُ الَّذِي لاَ يُدْفَعُ »

المرثية[2].

ويقفنا تماثلُ الترجمتين على أنهما لصحابيٍّ واحدٍ، خاصَّةً إذا شفعنا إلى ذلك أن ابن حجر ترجم الترجمتين في القسم الثالث من خُطّته التي اختطها في كتابه[3].

وجاء في «مِنَح المِدَح» أن اسمَه «مجفنة» عن محمد بن إسحاق من طريق وثيمة[4]، وأنا أذهب بهذا القول إلى أضعف المذاهب لكثرة ما وقع في هذا الكتاب من التصحيف والتحريف، لا أدري تصحيف ناسخ هو أو تصحيف ناشر ؟

ولعل «عُقْبَةَ» هو الاسمُ الصحيح، وهو الذي تصحَّف إلى «مجفنة»، ولعلَّ التصحيف جاء من نسخة كتاب عمر بن شَبَّة؛ فقد سمَّاه ابنُ أعثم: «عقبة» وهو يُنشد شعره يذكرُ عَمْرًا :

(١) انظر: الإصابة ٥/١٣١-١٣٢.

(٢) المصدر السابق ٦/٢٧٩.

(٣) انظر إيضاح تقسيم ابن حجر في الهامش الرابع من ص٢١٢ من هذه الدراسة.

(٤) انظر: منح المدح ص٣١٣ - ٣١٤.

وَفَيْنَـا لَعِمْـرٍو يَـوْمَ عَمْـرٍو كَأَنَّـهُ ... طَرِيـدٌ بَغَتْـهُ مَذْحِجٌ وَالسَّكَاسِـكُ[١]

ونقلـه ابن حجـر عـن وثيمة بلفـظ «عقبة»، ونقلـه ابنُ الأثـير فيما اسـتدركه ابنُ الدبَّـاغ على أبي عُمر بلفظ «عقبة» كذلك[٢]، وتلك نسـخة أخرى من كتاب وثيمة تؤكِّد روايـةالأولى.

وأيًّا ما كان اسمُه فقد كان شاعرَ الأزد[٣]، ومرثيته في النبيّ ﷺ تشبه ما نعرفه من شعره، كتكراره لفظة «فِينَا» في مقام الفخر، ففي المرثية قال:

يَـا عَمْـرُو إِنَّ حَيَاتَـهُ كَوَفَاتِـهِ ... فِينَـا، أَتُبْـصِرُ مَـا نَقُـوْلُ وَتَسْـمَعُ ؟

وله في أيام الردَّة يؤيِّد عَمْرًا :

وَفَيْنَـا، وَفِينَـا يَفِيْـضُ الوَفَـاءُ ... وَفِينَـا يُفْـرِّخُ أَفْرَاخَـهُ[٣]

وكتكراره بعض المعاني، كقوله في المرثية:

فَأَقِـمْ فَإِنَّـكَ لاَ تَخَـافُ، وَجَارُنَـا ... يَـا عَمْـرُو، ذَاكَ هُـوَ الأَعَـزُّ الأَمْنَـعُ

وقولِه يؤمِنّ عَمرًا :

وَنَحْـنُ أُنَـاسٌ يَأْمَـنُ الجَـارُ وَسْـطَنَا ... إِذَا كَانَ يَوْمٌ كَاسِـفُ الشَّـمْسِ، حَالِكُ[٤]

وفيما نقلنا من هذه الحادثة الواحدة، حادثةِ الردَّة، إشارةٌ إلى طلاوة شعره وتدفُّقِه، ولكنَّا لا ندري مكانه الآن !

والقصيدة صحيحةٌ يزيدنا ثقةً بها مجيئُها من غير طريق.

---

(١) انظر: منح المدح ص٢١٣، وقد تصحَّفت «أعشم» إلى «أكثم»، وقد أشرت فيما مضى إلى امتلاء هذه النشرة بالتصحيف.

(٢) انظر: أسد الغابة ٥٩/٤.

(٣) انظر: الإصابة ٢٧٩/٦، وقد رأى ابنُ حجر أن المَرْزُبانيَّ فاته ذكر هذا.

(٤) انظر: المصدر السابق ١٣٢/٥.

(٥) انظر: منح المدح ص٢١٣.

١٣

مُرَّانُ بن عُمَيْر ذي مُرَّان:

الهَمْـداني، القَيْـل ابنُ القَيْل، كاتَبَ الرَّسـول ﷺ والدَه[١]، وقام هو في قومه في الردَّة يثبّتهم على الإسلام، رائيًا محمدًا ﷺ فاتبعوه وأطاعوا أمره[٢].

وقـد رُويـت مرثيتُـه مـن جهتين يشـدُّ بعضهمـا بعضًا: من جهـة وثيمة عـن محمد بن إسـحاق[٣]، ومـن جهةٍ أخـرى نادرة تقضي بدقَّة روايات ابن إسـحاق لهـؤلاء المراثي، ولهذه اللاميَّة خاصَّةً؛ هي رواية كتاب «الإكليل» للهمْداني.

و«الإكليـل» أجـزاءٌ عـشرة، عُـثر على أربعة منهـا، منها عاشرُهـا الذي جعلـه الهمْدانيُّ لأنساب حمير، وفيه قال: «... فأولد عُميرٌ ذو مُرَّان عُريبًا، وقد ذكرنا أولاده، والأسودَ، ومُرَّان وهو القائل في رسول الله ﷺ يرثيه ويؤيّد أبا بكر في أيام الردَّة:

إنَّ حُـزْنِي عَلَى الرَّسـول طَوِيـلُ ... ذَاكَ مِـنِّي عَلَى الرَّسـول قَلِيـلُ »

فذكر القصيدة[٤].

وهذا الكتاب ذخيرةٌ من ذخائر اليمن الفذَّة[٥]؛ لِشـحَّة ما دُوِّن عن يَمَن صدر الإسـلام واتِّجاهِ سواده الأكبر[٦].

---

(١) انظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمعها محمد حميد الله ص٢٣١.

(٢) انظر: منح المدح ص١٥٩، ١٦٠.

(٣) انظر: الإصابة ٦/٢٨٢-٢٨٣.

(٤) الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، للحسن بن أحمد الهمداني ١٠/٤٨ (تحقيق محب الدين الخطيب، الدار اليمنية، ط١/١٤٠٧هـ).

(٥) انظر عن نشرات الأجزاء التي عثر عليها من الإكليل: مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، لجان سوفاجيه، وكلود كاين ص١٧٨ (ترجمة الدكتور عبد الستار الحلوجي والدكتور عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨م).

(٦) انظر ص١٩٠ من هذا الكتاب.

ويُغْلِي من قيمة «الإكليل» أنَّ الهَمْدانيَّ كان يستمدُّ رواياته «من أفواه النسَّابين، ولا سيّما نسَّابي همْدان، وطائفةٍ من العلماء. وأخذ كذلك من المسانِد التي كان يجيد قراءتها، ومن الرجال»[1]، أمَّا هذا الجزء العاشر فإن فيه أخبارًا عن رجال همدان وبطونها لا تجدُها في المصادر التاريخية الأخرى، فهذا الجزء «مرجعٌ تاريخيٌّ وأدبيٌّ عظيم الفائدة»[2].

وقد انفرد «الإكليل» دون غيره بسرد القصيدة كاملةً، ولعلها كانت يتناشدها الناس في همدان كما يمكن أن يفهم من السياق. وفي ذلك دلالة على جليل قدر كتب الأخبار والنسب في رواية الأدب.

فالقصيدة ثابتةٌ قويَّة.

١٤

مَسْرُوقُ بنُ ذِي الحَارِث الهَمْدَانيُّ:

قال ابن حجر: «ذكره وثيمة في «كتاب الردَّة»»، ثم أنشد قولَه يخاطب أبا بكر إثر خطبته البليغة:

كُلُّ أَمْرٍ وَإِنْ تَعَاظَمَنِي الصَّبْـ ـرُ عَلَيْهِ سِوَى النَّبِيِّ دَقِيقُ
أَيُّهَا القَائِمُ المُعَصَّبُ بِالأَمْـ ـرِ لأَنْتَ المُصَدَّقُ الصِّدِّيقُ

ثلاثة أبيات[3]. ولكن روى ابنُ سيّد الناس القصيدةَ سبعة عشر بيتًا، وقد تكون منقوصة مع ذلك. وقد رواها مع خُطبتها وخبرها عن وثيمة عن ابن إسحاق[4].

---

(١) الحسن بن أحمد الهَمْداني وكتابه الإكليل: مقالة للدكتور إحسان النص، بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الثاني والسبعون ٦٢٣/٤-٦٢٥ (جمادى الأولى ١٤١٨هـ).

(٢) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٣) الإصابة ٢٩٣/٦-٢٩٤.

(٤) انظر: منح المدح ص١٦٣ - ١٦٤.

وهذه القصيدة من فاخر شعر رثاء النبيّ ﷺ، وأرقِّه، وأصوبِه.

١٥

ابن ذِي المِشْعَار:

وقد جاء اسمه في مخطوطة «إمتاع الأسماع»[١]، فكتبها الناسخ: «المعان» حيث قال: «.ثم قام المعان [كذا]، وكان ملك أهل ناحيته، وكان مثالها [كذا] فخطب، ثم قال من أبيات :

أَلاَ كُلُّ أَمْـرٍ وَإِنْ جَلَّـتْ مُصِيبَتُـهُ بَالِغًـا مَـا بَلَـغْ

خَفِيْـفٌ عَـلَيَّ لَمَّـا انْطَفَـتْ مَعَـاشِرُ كَانُـوا مِـنَ اهْـلِ الوَتَـغْ »[٢]

والمعان شاعر إسلاميٌّ من اليمن اسمه: المُعان بن رَوْق بنِ الدَّهر الهَمْداني[٣]، ولقد كدتُ أظنه هو حتى رأيتُ ابن سيد الناس نسب القصيدة إلى «المشعار» فقال ناقلاً كلمة وثيمة: « ثم قام المشعار، وكان ملك أهل ناحيته، وكان متألِّهـا... »، فبان تصحيف الناسخ حين صحّف «المشعار» إلى «المعان»، وصحّف «متألِّها» إلى «مثالها»[٤]. وكان ابن سيد الناس قد صرّح أن القصيدة والخبر في كتاب «الردَّة» لوثيمة عن ابن إسحاق.

ولكنّي وجدتُ ثلاثة أبيات من القصيدة في الجزء العاشر من «الإكليل» للهمداني، أحدها قوله:

---

(١) لم يورده محقق «الإمتاع» أصلًا، كلّا، ولم يورد قصيدته ألبتة !

(٢) مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٠).

(٣) انظر: الإكليل ٨٥/١٠ (تحقيق محب الدين الخطيب) ومن شعر المعان فيه:

أَدْلَى غلامي دَلْوَه يبغي بها وشلاً لينشح قلبُ صادٍ يَهلعُ

فأتت بنسج العنكبوت كأنه ثوب المقام على العِصيّ مُشرَّعُ

(٤) انظر أمثلةً عجيبةً للتصحيف في كتاب التنبيه على حدوث التصحيف، لحمزة بن الحسن الأصفهاني (تحقيق محمد أسعد طلس، دار صادر، بيروت، ط٢/١٤١٢هـ).

وَكُلُّ أُنَـاسٍ لَهُـمْ صِيغَـةٌ وَصِيغَـةُ هَمْـدَانَ خَـيْرُ الصِّيَـغْ

وجدتهـا منسـوبة إلى « يزيد بن ذي المشـعار الأصغر من رُحيب بـن مالك بن حمرة ذي المشـعار الأكـبر؛ وهو المشـارك لذي مُرَّان الأصغـر [صاحب المرثية النبويَّة الـتي مرّت بنا؛ المشارك له] في أرض البون ومخلافِ خارف »[١].

ومالـك بـن حُمرة والدُ يزيـدَ هذا هو الوافد على رسـول الله ﷺ، وقد خلـط قومٌ بينه وبـين مالـك بن نمط؛ لعله لتصحيفٍ وقع في «سـيرة ابن هشـام»، ثم جاز الأمر على من نقـل من «السـيرة» بعد ذلك؛ فشـاع هذا الخلـط بينهم، فقد جاء في «السـيرة» في كتاب رسـول الله ﷺ لهَمْدان: « هذا كتابٌ من رسـول الله محمد لمخلاف خارف... مع وافدها ذي المشـعار مالك بن نمط »[٢] فسـقطت واو العطف. وقد ورد الخبر في موضع آخر من «السـيرة» صحيحًا في قوله: « قدم وفد همدان على رسـول الله ﷺ... منهم مالك بن نمط، وأبو ثور وهو ذو المشـعار »[٣].

قال صاحب كتاب «يمانيُّون في موكب الرَّسـول»: « ولاشـك في وقوع التباسٍ وخلطٍ بين ذي المشعار ومالك بن نمط، فذو المشعار هو مالكُ ذو المشعار بن حُمرة بن أيفع الناعطي... كبير أقيال ناعط... ومالك بن نمط أرحبيٌّ بَكِيليٌّ. وإنما وقع الالتباس لأن ذا المشعار وَفَدَ مع مالك بن نمطٍ وأن اسميهما مالك... »[٤]، فانظر إلى التصحيف كيف يفسد من العلم[٥].

---

(١) الإكليل ٥٢/١٠ (تحقيق الخطيب)، وانظر: شعراء همدان في الجاهلية والإسلام، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور حسن عيسى أبو ياسين ص٣٨٧ (دار العلوم، الرياض، ط١٤٠٣/١هـ).

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ٥٩٩/٢.

(٣) المصدر السابق ٥٩٦/٢.

(٤) يمانيون في موكب الرَّسول، لمحمد حسين الفرح ٥٧/١-٥٨.

(٥) من الكتب التي أثبتت هذا الخلط: الإصابة ٧٥٣/٥، والفائق في غريب الحديث ١١٦/٤، والاستيعاب ١٣٦٠/٣، والروض الأنف ٤٢٥/٧، وسبل الهدى والرشاد ٤٢٨/٦.

ووجدتُ في كتاب «الإصابة» في ترجمة مشعار بن ذي المشعار الهمداني هذه الكلمة: « ذكره وثيمة في كتاب «الردَّة» وقال: كان من سادات همدان، وكان على ناحيته، فلما همَّ قومُه بالردَّة قام فيهم خطيبًا، وكان متألهًا، فنهاهم عن الردَّة، وقال في ذلك أبياتًا»[١]، لكنه لم يذكر بيتًا منها، وهذه الجملة التي نقلها ابن حجر من كتاب وثيمة أوفى من جملة صاحبيه ابن سيد الناس والمقريزي حين نقلاها، ولقد تجلَّى منها أن هذا الرجل هو صاحبُنا يزيد؛ فلعل «المشعار» كان لقبًا يُتلقَّبون به، وقد ذُكر في «الاشتقاق» أن «المشعار» موضعٌ[٢]، فربما كان مَحَلَّ ملكهم.

والقصيدة من أندر قصائد العرب إذ بُنيت على رويّ حرف الغين الفوقيَّة المعجمة، وهذا ما أظنه لا يخطر ببال وضَّاعٍ قطُّ، وقد يكفي أن نصحِّحها لذلك وحدَه؛ فكيف وقد جاءت من روايةٍ قويةٍ راسخةٍ، روايةِ وثيمة عن محمد بن إسحاقَ بن يسار؟!

***

---

(١) الإصابة ٤/١٦٠.

(٢) انظر: الاشتقاق، لابن دُريد ص٤٢١.

الفصل الخامس

تَوثيقُ مَرَائي طَائِفَةٍ مِنَ العَرَب

رضِي الله عنهم

المراثي

(٤٠)

سَالِمٌ الغَطَفَانِيُّ: [من المتقارب]*

١ أَفَاطِمُ، بَكِّي، وَلاَ تَسْأَمِي ... لَصُبْحِكِ مَا طَلَعَ الكَوْكَبُ
٢ [هُوَ المَرْءُ يُبْكَى، وَحُقَّ البُكَاءُ ... هُوَ المَاجِدُ السَّيِّدُ الطَّيِّبُ]
٣ فَقَدْ هُدَّتِ الأَرْضُ لَمَّا ثَوَى ... وَأَيُّ البَرِيَّةِ لاَ يُنْكَبُ !
٤ فَمَا لِيَ بَعْدَكَ حَتَّى المَمَا ... تِ إِلاَّ جَوًى دَاخِلٌ مُنْصِبُ(١)
٥ جَوًى حَلَّ بَيْنَ الحَشَا والشَّغَافِ ... فَخَيَّمَ فِيهِ، فَمَا يَذْهَبُ(٢)
٦ فَيَا عَيْنُ، وَيْحَكِ، لاَ تَسْأَمِي ... وَمَا بَالُ دَمْعِكِ لاَ يُسْكَبُ
٧ وَقَدْ بَانَ مِنْكِ الَّذِي تَعْلَمِينَ ... وَضَاقَتْ بِكِ الأَرْضُ وَالمَذْهَبُ
٨ وَمَنْ ذَا، لَكِ الوَيلُ، بَعْدَ الرَّسولِ ... يُبَكَّى مِنَ النَّاسِ، أَوْ يُنْدَبُ ؟ !
٩ فَإِنْ تَبْكِهِ تَبْكِ خَيْرَ الأَنَامِ ... كَثِيرَ الفَوَاضِلِ، لاَ يُجْدِبُ
١٠ وَإِنْ تَبْكِهِ تَبْكِ سَهْلَ الجَنَا ... بِ، مَحْضَ الضَّرَائِبِ، لاَ يُؤْشَبُ(٣)

* التخريج: جعلتُ التعازي والمراثي للمبرّد ص٣١٣-٣١٤ (تحقيق إبراهيم الجمل، دار نهضة مصر) أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي الطبقات الكبير ٢/٢٨٤، ٢٨٥ الأبيات: ١-٤، ١٤، ١٦، ١٧، ٢١-٢٤ معزوّة إلى صفية بنت عبد المطلب، وكذا عُزيت الأبيات نفسها إلى صفية في نهاية الأرب ١٨/٤٠٤ ما عدا البيت: ٢٣؛ وفي مناقب آل أبي طالب ١/١٣١ الأبيات: ١، ٥، ٦، ٨؛ ونسب الزمخشري في الفائق ٢/١٤١ البيت: ٢٠ لسالم رضي الله عنه.

١. في الطبقات، ونهاية الأرب: « بصبحك... ». وفي مناقب آل أبي طالب: « فقد فاتك الماجد الطيب ».

٢. البيت زائد في الطبقات ونهاية الأرب. وفي نهاية الأرب: «... البكاء * على الماجد... ».

٣. في الطبقات، ونهاية الأرب: « فأوحشت الأرض من فقده ».

٤. في الطبقات، ونهاية الأرب: «... الجوى الداخل المنصب ».

٥. في مناقب آل أبي طالب: «... ويحك لا تهجعي ».

---

(١) الجوى: شدة الوجد من عشق أو حزن (اللسان: جوا). والنَّصَب: الأعياء من العناء (اللسان: نصب).

(٢) الشَّغَاف: غلاف القلب، وهو جلدةٌ دونه كالحجاب (اللسان: شغف).

(٣) الضريبة: الطبيعة والسجية والخليقة (تاج العروس: ضرب). ومحض الضريبة خالص الخُلُق، كريمه. لا يؤشب: الأشابة من الناس الأخلاط (اللسان: أشب) والمعنى: لا يعاب.

١١ وَإِنْ تَبْكِـهِ تَبْـكِ نُـورَ البِـلاَ ... دِ، ضَخْـمَ الدَّسِـيْعَةِ، لاَ يَحْسِـبُ(١)
١٢ وَإِنْ تَبْكِـهِ تَبْـكِ خَـيْرَ الأَنَـامِ ... سَرِيعًـا سَـوَابِلُهُ، مُخْصِـبُ(٢)
١٣ وَإِنْ تَبْكِـهِ تَبْـكِ وَارِي الزِّنَـادِ ... صَـدُوقَ المَقَالَـةِ، لاَ يَكْـذِبُ
١٤ وَتَبْـكِي الرَّسـول، وَحُقَّـتْ لَهُ ... شُـهُودُ المَدِينَـةِ، وَالغُيَّـبُ
١٥ وَتَبْـكِي لَهُ الصُّـمُّ، صُـمُّ الجِبَـالِ ... وَشَرْقُ المَدِينَـةِ، وَالمَغْـرِبُ
١٦ وَتَبْكِيـهِ شَـعْثَاءُ مَـضْرُورَةٌ ... إِذَا حُجِـبَ النَّـاسُ لاَ تُحْجَـبُ
١٧ وَيَبْكِيـهِ شَـيْخٌ أُبُـو وُلْدَةٍ ... تُطِيـفُ بِعِقْوَتِـهِ، أَشْـيَبُ(٣)
١٨ وَيَبْكِيـهِ أَهْـلَ النُّـهَى وَالحِجَـا ... مِـنَ النَّـاسِ، وَالطَّـارِقُ الأَخْيَـبُ(٤)
١٩ وَيَبْكِيـهِ ضَيْـفٌ جَفَـاهُ الصَّدِيـقُ ... وَذُو النَّسَـبِ الدَّاخِـلِ، الأَقْـرَبُ
٢٠ وَيَبْكِيـه شُـعْثٌ خِمَـاصُ البُطُـونِ ... أَضَرَّ بِهِـمْ زَمَـنٌ أَنْكَـبُ
٢١ [وَيَبْكِيـكَ رَكْـبٌ إِذَا أَرْمَلُـوا ... فَلَـمْ يُلْـفَ مَـا طَلَّـبَ الطُّلَّـبُ](٥)

---

١٤. في الطبقات ونهاية الأرب: «فبكي...».
١٦. في الطبقات، ونهاية الأرب: «لتبكيك شمطاء...».
١٧. في الطبقات، ونهاية الأرب: «ليبكيك... * يطوف... أشهب».
٢٠. في الفائق: «... زمن أزيب»، والأزيب: الريح النكباء (اللسان: زيب).
٢١. البيت زائد في الطبقات، ونهاية الأرب.

---

(١) الدَّسيعة: مائدة الرجل إذا كانت كريمة. وقيل: هي الجفنة (اللسان: دسع).
(٢) السوابل: جمع سابلة، وهم المختلفون في الطرقات لحوائجهم (أساس البلاغة: سبل)، فكأنهم كانوا يسرعون إليه يمتاحون منه. ويقال: أسبل المطر: إذا أرسل دُفَعَه وتكاثف (أساس البلاغة: سبل).
(٣) العِقوة والعقاة: الساحة وما حول الدار (اللسان: عقا).
(٤) النُّهى: العقل، يكون واحدًا وجمعًا. وفي التنـزيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤] (اللسان: نهي). والحِجا: العقل والفطنة (اللسان: حجا). والخيبة: الحرمان والخسران (اللسان: خيب).
(٥) الرَّمَل: الهرولة، يقال: رمل الرجل يرمُل رمَلًا ورملانًا، إذا أسرع في مشيته وهز مَنْكِبيه (اللسان: رمل).

٢٢ [وَتَبْـكِي الأَبَاطِـحُ مِـنْ فَقْـدِه وَتَبْكِيـهِ مَكَّـةُ وَالأَخْشَـبُ][(١)]

٢٣ [وَتَبْـكِي وُعَـيْرَةُ مِـنْ فَقْـدِهِ بِحُـزْنٍ، وَيُسْـعِدُهَا المِيثَـبُ][(٢)]

٢٤ [فَعَيْـنِيَ مَالَـكِ لاَ تَدْمَعِـينَ وَحُـقَّ لِدَمْعِـكِ يُسْتَسْـكَبُ]

* * *

---

٢٢. البيت زائد في الطبقات، ونهاية الأرب.

٢٣. البيت زائد في الطبقات.

٢٤. البيت زائد في الطبقات، ونهاية الأرب.

---

(١) الأباطح: جمع أبطح، وهو مسيل الوادي، وبطحاء مكة وأبطَحُها: معروفة؛ لانبطاحها. ومِنى من الأبطح (تاج العروس: بطح). والأخشبان: جبلا مكة: أبو قبيس، وقُعيقعان.

(٢) الوُعَيرة: حصن في جبال الشراة قرب وادي موسى (معجم البلدان: الواو والعين). والميثب: جبل بالمدينة، وكان موضع صدقة النبيّ ﷺ (انظر: تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، للخُزاعيّ، علي بن محمد بن سعود ص٥٦٥، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢/١٤١٩هـ). والإسعاد هنا من المساعدة (اللسان: سعد).

(٤١)

أبو ذُؤيب الهُـذَليّ: [مـن الكامل]*

١ لَمَّـا رَأَيْـتُ النَّـاسَ فِي عَسَـلانِهِمْ ... مَـا بَـينَ مَلْحُـودٍ لَهُ وَمُـضَرَّجِ(١)
٢ مُتَبَادِرِيـنَ لِشَرْجَـعٍ بَأَكُفِّهِـمْ ... نَـصَّ الرِّقَـابِ لِفَقْدِ أَبْيَـضَ أَرْوَجِ(٢)
٣ فَهُنَـاكَ صِرْتُ إِلَى الهُمُـومِ وَمَنْ يَبِتْ ... جَـارَ الهُمُـومِ يَبِيـتُ غَـيْرَ مُـرَوَّجِ
٤ كُسِفَتْ لِمَصْرَعِـهِ النُّجُـومُ وَبَدْرُهَا ... وَتَزَعْزَعَـتْ آطَـامُ بَطْـنِ الأَبْطَـحِ
٥ وَتَزَعْزَعَـتْ أَجْبَـالُ يَـثْرِبَ كُلُّهَـا ... وَنَخِيلُهَـا لِحُلُـولِ خَطْـبٍ مُفْـدِجِ
٦ وَلَقَـدْ زَجَـرْتُ الطَّـيرَ قَبْـلَ وَفَاتِـهِ ... بِمُصَابِـهِ وَزَجَـرْتُ سَـعْدَ الأَذْبَـحِ
٧ وَزَجَرْتُ أَنْ نَعَبَ المُشَـحِّجُ سَـانِحًا ... مُتَفَائِـلاً فِيـهِ بِفَـأْلِ الأَقْبَـحِ(٣)

****

* التخريج: جعلتُ الاستيعاب ص١٦٥٠ أصلاً لهذه القصيدة، وهي في أسد الغابة ٦/٩٩-١٠٠؛ وفي الاكتفا ٢/٦٤ الأبيات: ١-٦، وكذا في مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٤)، وهي مما أخلّت به المطبوعة؛ وفي الزيادات المضافة إلى شرح أشعار الهذليين صنعة السكري ٣/١٣٠٧-١٣٠٨ الأبيات: ١-٦؛ وفي الإصابة ٧/١٣٢ البيت: ٤.

١. في الأصل، ومضافات شرح الهذليين: «... عسلاتهم» بالمثناة الفوقية، تصحيف؛ وفي الاكتفا: «... غسلاتهم» بالغين المعجمة، تصحيف أيضًا.

٢. في الاكتفا: «متبادلين...». وفي مضافات شرح الهذليين: «متنابذين...»

٥. في مخطوطة إمتاع الأسماع: «وتصعصعت...» أي اضطربت (اللسان: صعع).

٧. في أسد الغابة: «... بفألٍ أقبح».

---

(١) العسلان: مشيةٌ فيها اضطراب (انظر: كتاب شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكريّ ص١/٦٤٦ (حققه عبد الستار أحمد فراج، وراجعه محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة).

(٢) الشرْجع: السرير يحمل عليه الميت (اللسان: شرجع). ونصَّ رقبته: رفعها (اللسان: نصص). وقال الليث: الأَرْوَحُ الذي في صدر قدميه انبساط (اللسان: روح).

(٣) نعب المشحّج: الغراب إذا نوَّح (اللسان: شحج).

(٤٢)

أبو الهَيْثَم مالك بنُ التَّيِّهان: [من الطويل]*

١ أَلاَ قَـدْ أَرَى أَنَّ المُـنَى لَـمْ تُخَـلَّدِ ... لأَنَّ المَنَايَـا لِلنُّفُـوسِ بِمَرْصَـدِ

٢ لَقَـدْ جُدِعَـتْ آذَانُنَـا وَأُنُوفُنَـا ... غَـدَاةَ فُجِعْنَـا بِالنَّـبِيِّ مُحَمَّـدِ

٣ تَكَلَّـمَ أَهْلُ الشِّرْكِ مِـنْ بَعْدِ غِلْظَةٍ ... لِغَيْبَـةِ هَـادٍ كَانَ فِينَـا، وَمُهْتَـدِي

٤ ثَلاَثَـةُ أَصْنَـافٍ مِـنَ النَّـاسِ، كُلُّهُمْ ... يَـرُوحُ عَلَيْنَـا بِالشَّـنَانِ وَيَغْتَـدِي[1]

٥ نَصَـارَى يَقُولُـونَ الفِـرَى، وَمُنَافِـقٌ ... شَـبِيهٌ بِـذَاكَ الشَّـامِتِ المُتَهَـوِّدِ

٦ وَأَوْعَـدَ كَـذَّابُ اليَمَامَـةِ جُهْـدَهُ ... فَأَجْلَـبَ عَـوْدًا بِاللِّسَـانِ وَبِاليَـدِ[2]

٧ [وَدَانَـاهُ فِيمَـا قَـالَ غَـيْرَ مُقَصِّرٍ ... أَخُو الجَهْلِ حَقًّا طَلْحَـةُ بْنُ خُوَيْلِدِ]

٨ فَـإِنْ تَـكُ هَـذَا اليَـوْمَ مِنْهُمْ شَـمَاتَةٌ ... فَـلاَ يَأْمَنُـوا مَـا يُحْـدِثُ اللهُ فِي غَـدِ

٩ وَمَـا نَحْـنُ إِنْ لَـمْ يَجْمَـعِ اللهُ أَمْرَنَـا ... بِخَـيْرِ قُرَيْـشٍ كُلِّهَـا بَعْـدَ أَحْمَـدِ

---

* التخريج: جعلتُ رواية الاكتفا ٦٧/٢، ٦٨ أصلاً لهذه القصيدة؛ فهي أجود ترتيبًا، وأصحُّ ألفاظًا في العموم من رواية كتاب الردَّة لابن أعثم (المنسوب للواقدي) ص٣٠، ٣١ التي فيها بيتان زائدان: ٧، ١٣ مع اختلاف في ترتيب الأبيات: ٣ موضع ٥، و٥ موضع ٣؛ وفي الاستيعاب ١٣٤٨/٤، ومنح المدح ص٢٩٣ الأبيات: ١-٣، ١١، ١٢؛ وفي مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٢) الأبيات: ١-٣، وقد أخلَّت المطبوعة بذلك ضمن ما أخلَّت به ؛ وفي الوافي بالوفيات ٣٠٧/١٧ البيتان: ١١، ١٢.

١. في الردَّة، ومنح المدح: «... أن الفتى لم يخلد »، وفي الردَّة: « وأن... للرجال... ».

٣. في منح المدح: « يعلّم أهل الشرك من غير غلظة * لهيبة... » تصحيفان.

٥. في الردَّة: «... يقولون الشجا... * وكل كفور شامت متهود ».

٦. في الردَّة: « وأرعد... * وأكلب فينا... ».

٧. البيت زائد في الردَّة.

٨. في الردَّة: « فإن يك... * فلا تأمنوا... ».

---

(١) الشَّنان: البغض (اللسان: شنأ).

(٢) أجلب، وجلَّب: من الصياح. وهم يجلبون عليه: يعينون عليه (اللسان: جلب).

١٠ بِأَمْنَعَ مِنْ شَاءٍ بِقَفْرٍ مَطِيرَةٍ بِقِيعَةِ قَاعٍ، أَوْ ضَبَابٍ بِفَدْفَدِ[1]

١١ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَقُومَ بِأَمْرِنَا عَلِيٌّ، أَوِ الصِّدِّيقُ، وَالمَرْءُ مِنْ عَدِي

١٢ أُولَاكَ خِيَارُ الحَيِّ فِهْرِ بْنِ مَالِكٍ وَأَنْصَارُ هَـٰذَا الدِّينِ مِنْ كُلِّ مُعْتَدِي

١٣ [وَأَمْسَى مُسَيْلِمُ فِي اليَمَامَةِ غَالِبًا عَلَى النَّاسِ طُرًّا بِالقَنَا وَالمُهَنَّدِ]

* * *

١٠. في الأصل: «... يقفر... » تصحيف، وفي الردَّة: « وفقعة قاع، أو ضباع... ».

١١. في الاستيعاب والوافي: « ويحفظه الصديق والمرء...»، وفي الردَّة: «... أو الصديق أو عمرو من غد ».

١٢. في الأصل: « أولئك... » تصحيف، وفي منح المدح: « أولئك خير... »، وفي الردَّة: « وتعدو زكاة الحي... ».

١٣. البيت زائد في الردَّة، ولعله بعد البيت: ٦ أو ٧، ولكنْ إتيانُ هذا البيت آخرَ القصيدة ذو معنًى أيضًا؛ كأنه آخر ما بلغ أبا الهيثم من الأمر.

(١) القيعة: من القاع، والقاع ما انبسط من الأرض، وفيه يكون السراب نصف النهار (اللسان: قوع). ومراد الشاعر بقيعة القاع: ما كان أخص تطامنًا من القاع. والفدفد: المكان المرتفع فيه صلابة وغِلَظ (اللسان: فدفد). وفي ذلك اليوم العصيب، يوم الوفاة، يقول عروة بن الزبير: « والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية؛ لفقد نبيّهم، وقلّتهم، وكثرة عدوّهم » (تاريخ الأمم والملوك، للطبري ٢/٣٤٥).

(٤٣)

قَيْسُ بْنُ غَنَيم: [من الرجز] *

١ أَلا لِيَ الوَيْـلُ عَلَى مُحَمَّـدِ

٢ قَـدْ كُنْـتُ فِي حَيَاتِـهِ بِمَقْعَـدِ

٣ وَفِي أَمَـانٍ مِـنْ عَـدُوٍّ مُعْتَـدِي

٤ أَبِيـتُ لَيْـلِي آمِنًـا إِلَى الغَـدِ

٥ [وَلَسْـتُ بَعْـدَ مَوْتِـهِ بِمُخْـلَدِ]

***

* التخريج: رُوي هذا الرجز في الإصابة مرتين: مرّةً ليس فيها البيت الثالث ٤٩٤/٥-٤٩٥، ومرّة ليس فيها البيت الرابع ٣٣٨/٥ فجمعت بينها وجعلت الإصابة أصلاً؛ وفي أسد الغابة ٣٢٨/٤ الأبيات: ١، ٢، ٤، ٥؛ وفي الطبقات الكبير ١٢٢/٩، وتهذيب الكمال للمزّي ١٢٠/٢٣-١٢١، وغريب الحديث لأبي سليمان حَمْدِ الخطّابي ١١٢/٢ (تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوي، منشورات جامعة أم القرى)، ومجمع الزوائد ٣٩/٩، ومعرفة الصحابة لأبي نُعيم ص٢٣٢٨؛ الأبيات: ١، ٢، ٤؛ وفي منح المدح ص٢٢٢ الأبيات: ١-٣.

٢. في أسد الغابة: « قد كنت قبل موته... ». وفي مجمع الزوائد: «... بمرصد ».

٤. في الطبقات، وغريب الحديث، ومجمع الزوائد، وتهذيب الكمال: « أنام... ».

٥. هذا البيت زائد في أسد الغابة فقط.

(٤٤)

عَدِيُّ بنُ حَاتِمٍ: [من الطويل]*

١ أَلاَ إِنَّ هَـذَا الأَمْـرَ أَصْبَـحَ أَهْلُـهُ عَلَى مِثْـلِ حَـدِّ السَّـيْفِ بَعْـدَ مُحَمَّدِ
٢ وَلاَ ذَاكَ مِـنْ ذُلٍّ وَلاَ مِـنْ مَخَافَـةٍ عَلَى الدِّيـنِ وَالدُّنْيَـا لإِنْجَـازِ مَوْعِـدِ؛
٣ وَلَكِـنْ أُصِبْنَـا بِالنَّـبِيِّ؛ فَلَيْلُنَـا طَوِيـلٌ كَلَيْـلِ الأَرْمَـدِ المُتَـلَدِّدِ[1]
٤ وَإِنَّـا وَإِنْ جَاشَـتْ فَـزَارَةُ كُلُّهَـا وَذُبْيَـانُ فِي مَوْجٍ مِنَ البَحْـرِ مُزْبِدِ[2]
٥ وَأَجْـرَى لَهُـمْ فِيهَـا ذُيُـولَ غُـرُورِهِ طُلَيْحَـةُ مَـأْوَى كُلِّ غاوٍ وَمُلْحِـدِ؛
٦ نُغَادِرُهُـمْ بِالْخَيْـلِ حَـتَّى نُقِيمَهُـمْ بِصُـمِّ العَـوَالِي، وَالصَّفِيـحِ المُهَنَّدِ[3]
٧ وَحَـتَّى يُقِـرُّوا بِالنُّبُـوَّةِ أَنَّهَـا مِـنَ اللهِ حَـقٌّ، وَالكِتَـابِ لأَحْمَـدِ
٨ وَقَـدْ سَرَّنِي مِنْكُـمْ مَعَاشِرَ طَيِّـئٍ حِمَايَـةُ هَـذَا الدِّيـنِ مِـنْ كُلِّ مُعْتَدِي
٩ وَبَيْعُكُـمْ أَمْوَالَكُـمْ وَنُفُوسَـكُمْ رَجَـاءَ الَّذِي يَجْـزِي بِـهِ اللهُ فِي غَـدِ
١٠ وَإِعْطَاؤُكُمْ مَا كَانَ مِنْ صَدَقَاتِكُمْ بِغَـيْرِ جِهَـادٍ مِـنْ لِسَـانٍ وَلاَ يَـدِ[4]

* * * *

* التخريج: القصيدة في كتاب الردّة لابن أعثم (المنسوب للواقدي) ص٦٤، ولم أرها في غيره.

(١) الأرمد: الذي هاجت عينُه (اللسان: رمد). والمتلدّد: المتحيرّ المتلفِّت (أساس البلاغة: لدد).

(٢) جاش البحر: ارتفع وعلا، ومنه قول الأعشى:

أتُوعِدُنِي إن جاش بحرُ ابنِ عمكم وبحرُك ساجٍ لا يواري الدَّعَايصَا

(كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير ميمون بن قيس الأعشى، والأعشَين الآخرين ص١٠٩، مطبعة أدلف هلز هوش، بيانة ١٩٢٧م)، أي أن القوم غضبوا وغلَوا وتجمعوا فكثُر عددهم لحرب المسلمين.

(٣) صمُّ العوالي: يقصد بها الرماح، والصفيح المهند: السيوف.

(٤) بعث أبو بكرٍ عديَّ بنَ حاتم إلى قومه ليدركَهم أن يرتدوا مع طُليحة، ففعل، وعاد بالغوث من طيّئ، وعاد بجديلة أيضًا، فكانوا نصرًا للمسلمين، حتى لقد قال الطبري رحمه الله: «فكان خيرَ مولود وُلد في أرض طيّئ، وأعظمَه عليهم بركة» (تاريخ الأمم والملوك ٣/٢٥٤).

(٤٥)

عبدُ الله بنُ أُنَيس: [من الطويل]*

١ نَفَى النَّوْمَ مَا لا تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ وَخَطْبٌ جَلِيلٌ لِلْبَلِيَّةِ جَامِعُ

٢ غَدَاةَ نَعَى النَّاعِي إِلَيْنَا مُحَمَّدًا وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا المَسَامِعُ(١)

٣ فَلَوْ رَدَّ نَفْسًا قَتْلُ نَفْسٍ قَتَلْتُهَا وَلَكِنَّهُ لاَ يَدْفَعُ المَوْتَ دَافِعُ

٤ فَآلَيْتُ لاَ أَبْكِي عَلَى هُلْكِ هَالِكٍ مِنَ النَّاسِ، مَا أَوْفَى ثَبِيرٌ وَفَارِعُ(٢)

٥ وَلَكِنَّنِي بَاكٍ عَلَيْكَ، وَمُتْبِعٌ مُصِيبَتَهُ: إِنِّي إِلَى اللهِ رَاجِعُ

٦ وَقَدْ قَبَضَ اللهُ النَّبِيِّينَ قَبْلَهُ وَعَادٌ أُصِيبُوا بِالوَرَى، وَالتَبَابِعُ

---

* التخريج: جعلتُ الاكتفا ٦٦/٢، ٦٧ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي الطبقات الكبير ٢٧٨/٢، ٢٧٩، ونهاية الأرب ٤٠١/١٨، وسبل الهدى والرشاد ٢٧٨/١٢ الأبيات جميعًا ماعدا: ٧، ١١-١٣؛ وفي الذخائر والأعلاق للإشبيلي ص٢٢٢ الأبيات: ١، ٢، ٦، ٨، ١٥؛ وفي الحماسة البصرية لصدر الدين البصري ٥٩٤/٢ (تحقيق وشرح ودراسة الدكتور عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/١٤٢٠هـ) الأبيات: ١، ٢، ٤؛ والقصيدة مما أقحمه محقق إمتاع الأسماع ٥٩٥/١٤ فيه، وليست منه ! وإنما نقلها من الطبقات لابن سعد.

١. في الحماسة البصرية: «... تعتليه الأضالع ». وفي الطبقات، وسبل الهدى والرشاد، ونهاية الأرب: «تطاول ليلي واعترتني القوارع * وخطب... ». وفي الذخائر: « تطاول ليلي واعتراني القوارع ». وفي الذخائر: «... للخلائق جامع ». وفي الحماسة البصرية: «... للخلائق فاجع ».

٣. في الطبقات، ونهاية الأرب، والسبل: « فلو ردَّ ميتًا قتل نفسي... ».

٤. في الحماسة البصرية: « فوالله... ». وفي الأصل: «... ما أوسى ثبير... » تصحيف. وفي الطبقات، والسبل: « فآليت لا أثني...». وفي الذخائر، ونهاية الأرب: «... لا آسى...». وفي الحماسة البصرية: «... ما أرسى... »، وفي الذخائر: «... ما رسىَ... ».

٥. في الطبقات، ونهاية الأرب، وسبل الهدى: «... عليه... ».

٦. في الأصل: « وعادًا... والتتابع » تصحيف. وفي الذخائر، ونهاية الأرب: «... أصيبت... ». وفي الطبقات، ونهاية الأرب: «... بالرزى والتبابع ». وفي الذخائر: «... قبله والتوابع ».

---

(١) استكت مسامعه: صُمَّت، ومنه قول النابغة:

وأُخْبِرتُ خيرَ الناس أنك لمتني وتلك التي تستكُّ منها المسامع

(أساس البلاغة: سكك).

(٢) ثبير: جبل عظيم بمكة (معجم البلدان: ثبير). وفارع: أُطُم، وهو حصن بالمدينة (معجم البلدان: فارع).

٧ فَإِنْ مَاتَ فَالإِسْلاَمُ حَيٌّ، وَرَبُّنَا   لِذَا الدِّينِ مِمَّا كَادَهُ اليَوْمَ؛ مَانِعُ

٨ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ يَقُومُ بِأَمْرِنَا   وَهَلْ لِقُرَيْشٍ، يَا إِمَامُ، مُنَازِعُ؟!

٩ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِنْ قُرَيْشٍ هُمُ هُمُ   أَزِمَّةُ هَذَا الأَمْرِ، واللهُ صَانِعُ[1]

١٠ عَلِيٌّ أَوِ الصِّدِّيقُ، أَوْ عُمَرٌ لَهَا   وَلَيْسَ لَهَا بَعْدَ الثَّلاَثَةِ رَابِعُ

١١ أُولَئِكَ خَيْرُ الحَيِّ فِهْرِ بْنِ مَالِكٍ   وَأَوَّلُ مَنْ تَجْنِي عَلَيْهِ، الأَصَابِعُ

١٢ أُولَئِكَ إِنْ قَامُوا بِهِ سَلَكُوا بِنَا   مُحَجَّتَنَا الْعُظْمَى، وَقَلَّ التَّنَازُعُ[2]

١٣ وَكُلُّ قُرَيْشٍ، وَالَّذِي أَنَا عَبْدُهُ   عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ لِلثَّلاَثَةِ تَابِعُ

١٤ فَإِنْ قَالَ مِنَّا قَائِلٌ غَيْرَ هَذِهِ   أَبَيْنَا، وَقُلْنَا: اللهُ رَاءٍ وَسَامِعُ

١٥ فَيَا لَقُرَيْشٍ! قَلِّدُوا الأَمْرَ بَعْضَكُمْ   فَإِنَّ صَحِيحَ العَجْزِ لِلسِّنِّ قَارِعُ

١٦ وَلاَ تُبْطِئُوا عَنْهَا فُوَاقًا فَإِنَّهَا   إِذَا قُطِعَتْ لَمْ تَسْرِ فِيهَا المَطَامِعُ[3]

****

٨. في الطبقات، ونهاية الأرب، والسبل: «... في قريش من إمام ينازع».

١٥. في الطبقات، ونهاية الأرب، وسبل الهدى: «... قلِّدوا الأمر بعضهم * فإن صحيح القول للناس نافع». وفي الذخائر: «فإن نصير القوم للقوم نافع»، والروايتان أوضح من رواية الاكتفا.

١٦. في الطبقات، والسبل: «... لم يُمن...». وفي نهاية الأرب: «... لم تُمن...».

---

(١) الأَزِمَّة: جمع زمام، وهو الحبل (اللسان: زمم).

(٢) المحجَّة: الطريق، وقيل: جادة الطريق (اللسان: حجج).

(٣) الفُواق: ما بين الحلْبتين من الوقت، لأنها تُحْلب، ثم تترك سُويعةً يرضعها الفصيل لِتَدِرَّ، ثم تُحْلب (تاج العروس: فوق).

(٤٦)

عَمْرُو بنُ سَالم الخُزَاعِيُّ: [من الطويل]*

١ لَعَمْرِي لَـئِنْ جَادَتْ لَكَ العَيْنُ بِالبُكَا ... لَمَحْقُوقَـةٌ أَنْ تَسْـتَهِلَّ، وَتَدْمَعَـا
٢ فَيَا حَفْـصُ، إِنَّ الأَمْرَ جَلَّ عَنِ البُكَا ... غَـدَاةَ نَـعَى النَّـاعِي النَّـبِيَّ فَأَسْـمَعَا
٣ فَلَـمْ أَرَ يَوْمًـا كَانَ أَعْظَـمَ حَادِثًـا ... وَلَـمْ أَرَ يَوْمًـا كَانَ أَكْـثَرَ مَوْجِعَـا
٤ وَلَـمْ أَرَ مِـنْ يَـوْمٍ أَعَـمَّ مُصِيبَـةً ... وَلاَ لَيْلَـةٍ كَانَـتْ أَمَـرَّ وَأَفْظَعَـا
٥ تَعَـزَّيْ بِصَبْرٍ، وَاذْكُرِي اللهَ، وَاعْلَمِي ... بِأَنْ سَـوْفَ يَجْزِي كُلَّ سَـاعٍ بِمَا سَعَى
٦ [وَلاَ تَـرْزَئِي] مَحْضَ الحَيَـاءِ فَتُفْجَعِي ... بِدِينِـكِ وَالدُّنْيَـا [فَتَرْزَئِيهِمَـا] مَعَا(١)
٧ فَـإِنْ يَـكُ قَـدْ مَـاتَ النَّـبِيُّ فَبَعْدَمَا ... نَـعَى نَفْسَـهُ بَـدْءًا وَعَـوْدًا فَأَسْـمَعَا
٨ إِذَا ذَكَـرَتْ نَفْـسِي فِـرَاقَ مُحَمَّـدٍ ... تَهَيَّـجَ حُـزْنِي، وَالفُـؤَادُ تَقَطَّعَـا
٩ فَيَـا لَـكِ نَفْسًـا لاَ يَـزَالُ يَزِيدُهَـا ... عَلَى الدَّهْـرِ طُـولُ الدَّهْـرِ إِلاَّ تَصَدُّعَا
١٠ جَزَى مِنْكَ رَبُّ النَّاسِ أَفْضَلَ مَا جَزَى ... نَبِيًّـا هَدَانَـا، ثُـمَّ وَلَّى مُـوَدِّعَا
١١ فَـوَ اللهِ لاَ أَنْسَـاكَ مَادُمْـتُ ذَاكِـرًا ... لِـشَيْءٍ، وَمَا قَلَّبْـتُ كَفًّـا وَأُصْبُعَا(٢)

* * *

* التخريج: جعلتُ الاكتفا ٢/٧٥، ٧٦ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي الزَّهرة ٢/٥١٠ الأبيات: ١-٣، ١١، ١٨ بترتيبها هذا؛ وفي الحماسة البصرية ٢/٥٩٥ الأبيات: ١، ٢، ١١.

١. في الزَّهرة: «... جادت دموعي بالبكا».

٢. في الزَّهرة: «أبا حفص...».

٦. في الأصل: «لا تزرئي... *... فتزريهما...» بزاي معجمة ثم براء مهملة، تصحيف لأنه لا معنى للزراية هنا، وهي العتاب واللوم (اللسان: زري).

٨. في الزَّهرة: «تهيج حزني عند ذلك أجمعا».

١١. في الحماسة البصرية: «فوالله ما أنساك...».

---

(١) الرزء: النقص، والنيل من الشيء (أساس البلاغة: رزأ). والمحض: الخالص (أساس البلاغة: محض).

(٢) في الأصبع لغات: الإِصْبَع، والأَصْبَع، والأُصْبَع بكسر الهمزة وضمّها والباء مفتوحة، والأَصْبُع، والأُصْبِع، والأَصبِع، والإِصبِع مثال اضرب، والأُصبُع بضم الهمزة والباء، والإِصبُع نادر (اللسان: صبع).

(٤٧)

ابن أبي عَـزَّة: [من الكامل] *

١ ذَهَـبَ النَّـبِيُّ فَرَتْقُنَـا مَفْتُـوقُ ... وَلَقَـدْ يَكُـونُ وَفَتْقُنَـا مَرْتُـوقُ

٢ ذَهَـبَ الَّذِي كُنَّـا نُـدَالُ بِرِيحِـهِ... ... وَفَقِيرُنَـا بِرِحَابِـهِ مَـرْزُوقُ

٣ نَـادَى مُنَـادٍ: لَـمْ يَمُـتْ جَـزَعًا بِـهِ ... فَتَـلا عَلَيْهِـمْ مَوْتَـهُ الصِّدِّيـقُ

٤ فَكَأَنَّهَـا وَالرَّاقِصَـاتِ عَشِـيَّةً ... لَـمْ يَتْلُهَـا مِـنْ قَبْلِـهِ مَخْلُـوقُ

***

---

* التخريج: المقطّعة في منح المدح ص ٢٢٠، ٢٢١ مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة١٨٣١)، وقد أُسقطت من المطبوعة.

٢. في الإمتاع: «... كُنَّا به»

٣. في الإمتاع: «ولا عليه موته [كذا] الصديق»

(٤٨)

أبو سُفْيَانَ بنُ الحَارِث: [من الوافر]*

١	أَرِقْتُ، فَبَاتَ لَيْلِي لاَ يَزُولُ	وَلَيْلُ أَخِي المُصِيبَةِ فِيهِ طُولُ
٢	وَأَسْعَدَنِي البُكَاءُ، وَذَاكَ فِيمَا	أُصِيبَ المُسْلِمُونَ بِهِ قَلِيلُ[1]
٣	فَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُنَا وَجَلَّتْ	عَشِيَّةَ قِيلَ: قَدْ قُبِضَ الرَّسولُ
٤	[فَظَلَّ النَّاسُ مُنْقَطِعِينَ فِيهَا	كَأَنَّ النَّاسَ لَيْسَ لَهُمْ حَوِيلُ][2]
٥	[كَأَنَّ النَّاسَ إِذْ فَقَدُوهُ عُمْيٌ	أَضَرَّ بِلُبِّ حَازِمِهِمْ عَلِيلُ]

* التخريج: جعلتُ رواية الذهبيّ في تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص٢١٩ أصلاً لهذه القصيدة، وهي في سير أعلام النبلاء ٢٠٤/١-٢٠٥ بتمامها؛ وفي الاستيعاب لابن عبد البر ١٦٧٣/٤، والاكتفا ٦٥/٢، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٢)، ونهاية الأرب ٤٠٠/١٨-٤٠١، والبداية والنهاية ٢٨٢/٥، والمواهب اللدنيّة بشرح الزرقاني ١٥٠/١٢-١٥١ جميعها الأبيات: ١-٣، ٧-٩، ١١، ١٢، ١٥، ١٨؛ وفي الحماسة البصرية ٥٩٣/٢ الأبيات: ٣، ٧-٩، ١٥، ١٨؛ وفي الزّهرة ٥٠٩/٢ الأبيات: ١، ٣-٥، ١١، ١٨؛ وفي الذخائر والأعلاق للإشبيلي ص٢٢٤ الأبيات: ١، ٣، ٥، ١١-١٦؛ وفي سلوة الكئيب ص١٩٩-٢٠١ الأبيات: ١-١٩؛ وفي أسد الغابة ١٤٣/٦ الأبيات: ١-٣، ٧-٩، ١١، ١٢، ١٤، ١٨؛ وفي منح المدح ص٣٠٦ الأبيات: ١-٣، ٧-٩، ١١، ١٢؛ وفي مخطوطة السيرة النبوية للكازروني (ورقة ١٦٨) الأبيات: ١- ٣، ٧-٩، ١١، ١٢، ١٥، ١٨؛ وفي الإصابة ١٨٠/٧ البيت: ٣.

١. في المواهب اللدنية: «... فبتُّ... »، وفي سلوة الكئيب: «... وبات... ».

٢. في الاستيعاب: « فأسعدني... ».

٣. في مخطوطة إمتاع الأسماع، والحماسة البصرية، والبداية والنهاية، ونهاية الأرب، والاكتفا، والاستيعاب، ومنح المدح، والمواهب اللدنية، ومخطوطة الكازروني، والإصابة: « لقد... »؛ وفي الذخائر للإشبيلي: « وقد... مصيبات... ». وفي الإصابة: «... قد مات الرّسول »، وفي منح المدح: «... ذهب الرّسول ».

٤. البيت زائد في السلوة، والزّهرة. وفي الزّهرة: « فكل... ».

٥. البيت زائد في السلوة، والزّهرة. وفيها: «... عميًا... » تصحيف، ولو حمل على الحال فالمعنى ضعيف.

---

(١) أسعَدَني البكاء: أعانني فيما أنا فيه من الحزن، من سَعَده الله أي أعانه لا من السعادة ضد الشقاء (لسان العرب: سعد)، وقد جاء هذا المعنى غيرَ مرّة في هذه المراثي النبوية.

(٢) ليس لفلان حولٌ ولا حويل: ليس له حيلة (جمهرة اللغة: حلو).

٦ [وَحُـقَّ لَتِلْـكَ مَرْزِيَـةٌ عَلَيْنَـا ... وَحُـقَّ لَهَـا تَطِـيرُ لَهَـا العُقُـولُ]
٧ [وَأَضْحَـتْ أَرْضُنَـا مِمَّـا عَرَاهَـا ... تَكَـادُ بِنَـا جَوَانِبُهَـا تَمِيـلُ]
٨ فَقَدْنَـا الـوَحْيَ وَالتَّنْزِيـلَ فِينَـا ... يَـرُوحُ بِـهِ، وَيَغْـدُو، جِبْرَئِيـلُ
٩ وَذَاكَ أَحَـقُّ مَـا سَـالَتْ عَلَيْـهِ ... نُفُـوسُ النَّـاسِ، أَوْ كَادَتْ تَسِـيلُ(١)
١٠ [أُصِبْنَـا بِالنَّـبِيِّ، وَقَـدْ رُزِئْنَـا ... مُصِيبَتَنَـا، فَمَحْمَلُهَـا ثَقِيـلُ]
١١ نَـبِيٌّ كَانَ يَجْلُـو الشَّـكَّ عَنَّـا ... بِمَـا يُـوحَى إِلَيْـهِ، وَمَـا يَقُـولُ
١٢ وَيَهْدِينَـا فَـلا نَخْـشَى ضَـلالاً ... عَلَيْنَـا، وَالرَّسـول لَنَـا دَلِيـلُ
١٣ [يُخَبِّرُنَـا بِظَهْـرِ الغَيْـبِ عَمَّـا ... يَكُـونُ، فَـلاَ يَحُـونُ وَلاَ يَحُـولُ](٢)
١٤ فَلَـمْ نَـرَ مِثْلَـهُ فِي النَّـاسِ حَيًّـا ... وَلَيْـسَ لَهُ مِـنَ الْمَـوْتَى عَدِيـلُ(٣)

---

٦. البيت زائد في السلوة.

٧. البيت زائد في السلوة، والمواهب اللدنية، والاكتفاء، ونهاية الأرب، والحماسة البصرية، والبداية والنهاية، ومخطوطة إمتاع الأسماع، ومنح المدح، ومخطوطة سيرة الكازروني، وأسد الغابة. وفي أسد الغابة والسلوة: «وتصبح... ». وفي منح المدح، ومخطوطة إمتاع الأسماع: « وكادت... ».

٩. في سير أعلام النبلاء: « نفوس الخلق... ». وفي مخطوطة إمتاع الأسماع، والحماسة البصرية، والبداية والنهاية، ونهاية الأرب، والاكتفاء، والمواهب اللدنية، ومنح المدح، والسلوة، ومخطوط سيرة الكازروني: «... أو كربت... ».

١٠. البيت زائد في السلوة.

١١. في نهاية الأرب: «... عنها ».

١٢. في ذخائر الإشبيلي: «... هو الدليل ».

١٣. البيت زائد في السلوة، والزُّهرة. وفي الزُّهرة: «... فلا يحور ولا يحول ».

١٤. في الزُّهرة: « ولم تر مثله... ».

---

(١) نفوس الناس: أي دماؤهم على المجاز (تاج العروس: نفس).

(٢) حال الشيءُ يحول حولًا وحؤولًا: إذا تغير عن حاله (جمهرة اللغة: حلو). أي أنه ﷺ لا يكذب ولا يغير ولا يبدل بأبي هو وأمي، أو أن الأمر يقع كما كان يخبر به.

(٣) العديل: النظير والمثيل (المحكم لابن سيده: عدل).

١٥ أَفَاطِمُ إِنْ جَزِعْتِ فَذَاكِ عُذْرٌ ... وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِي فَهُو السَّبِيلُ
١٦ فَعُوذِي بِالعَزَاءِ فَإِنَّ فِيهِ ... ثَوَابَ اللهِ، وَالفَضْلُ الجَزِيلُ[1]
١٧ وَقُولِي فِي أَبِيكِ، وَلاَ تَمَلِّي ... وَهَلْ يَجْزِي بِفِعْلِ أَبِيكِ قِيلُ !
١٨ فَقَبْرُ أَبِيكِ سَيِّدُ كُلِّ قَبْرٍ ... وَفِيهِ سَيِّدُ النَّاسِ الرَّسول
١٩ [صَلاَةُ اللهِ مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ... عَلَيْهِ، لاَ تَحُولُ، وَلاَ تَزُولُ]

* * *

١٥. في الاستيعاب، ومخطوطة إمتاع الأسماع، والحماسة البصرية، والبداية والنهاية، والاكتفاء والمواهب اللدنية: «... ذاكِ السبيل».

١٦. في الزّهرة، وسير أعلام النبلاء، وأسد الغابة، والذخائر والأعلاق: «فعودي...» بالدال المهملة.

١٧. في الزّهرة: «وهل يُجزَى...». وفي سير أعلام النبلاء: «... بفضل...».

١٩. البيت زائد في سلوة الكئيب.

(١) عاذ بالشيء: لاذ فيه، ولجأ إليه، واعتصم (اللسان: عوذ).

(٤٩)

لَبيد بن رَبيعة: [من الكامل]*

١ إنَّ المَنِيَّةَ رَأْسَ كُلِّ مَنِيَّةٍ شُدَّت عَلَى أَعَزِّ نَبِيلِ
٢ والحَارِثَ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ فِي مُلْكِ ذِي عِزٍّ لَهُ وَحُلُولِ
٣ وَرَمَتْ عَلَى الحَبَشِيِّ فِي أَشْيَاعِهِ لَمَّا عَتَوْا بِحِجَارَةِ السِّجِّيلِ
٤ وَتَنَاوَلَتْ أَصْحَابَ تُبَّعَ عَنْوَةً مِنْ بَعْدِ أَفْرَاسٍ لَهُ وَخُيولِ
٥ وَهِيَ الَّتِي فَجَعَتْ مَدِينَةِ رَاهِطٍ وَالقَرْيَتَيْنِ بِصَاحِبِ الإِنْجِيلِ
٦ وَبِحَامِلِ التَّوْرَاةِ فِي أَلْوَاحِهَا فَجَعَتْ عَسَاكِرَ آلِ إِسْرَائِيلِ
٧ وَهِيَ الَّتِي فَجَعَتْ بِيَثْرِبَ أَهْلَهَا بِالسَّيِّدِ المُتَوَاضِعِ البُهْلُولِ
٨ بالمُصْطَفَىٰ بالوَحْيِ والعَدْلِ الرِّضَى للهِ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ
٩ خَيرِ النَّبِيِّينَ الَّذِينَ تُخِيِّرُوا لِلْوَحْيِ وَائْتُمِنُوا عَلَى التَّنْزِيلِ
١٠ لَوْ كَانَتِ التقْوَىٰ تُؤَجِّلُ مِنْ رَدًى أَحَدًا لَكَانَ أَحَقَّ بِالتَّأْجِيلِ
١١ آباؤُه فِي الجاهليَّة خِيرَةٌ مِنْ قَوْمِهِمْ وَكَذاكَ كُلُّ رَسُولِ
١٢ عَظُمَتْ خَلائِقُه فَقَصَّر دُونَهَا شَرَف الثَّنَاء وَجِدَّةُ التَّبْجِيلِ
١٣ لَوْ عَاشَ عِشْنَا آمِنِينَ بِغِبطَةٍ مَا عَاشَ فِي كَنَفٍ لَهُ وَفُضُولِ
١٤ مَنْ كَانَ قَدْ جَمَعَ التُّقَى فِي شِيمَةٍ جَمَعَتْ مِنَ الأَخلاَقِ كُلَّ جَمِيلِ

* التخريج: جعلت منح المدح ص ٢٨٠ -٢٨١ أصلاً للقصيدة وفي مخطوطة إمتاع الإسماع (ورقة ١٨٣١)، وفي الأبيات : ١٠ - ١٤ . وفي بعض ألفاظها استعجام أظنُّه من قِبل الناسخ؛ وفي الأبيات : ١١ - ٤١ طمس بسبب الرطوبة ولا سيما في الأشطر الأوّل . وهي مما أُسقط من المطبوعة.

٣. في الأصل : «... على الجيش...» .

٩. في الأصل : «... وأتمنوا عل التأويل» .

١٥ فَلَئِن أُصِيبَ لقَدْ أُصِبْنَا بَعْدَهُ بِمُصِيبةٍ أَعْيَتْ بِكُلِّ سَبِيلِ
١٦ وَالْمُنْزِلُ الغَيْثَ الهَنِيءَ دُعاؤُهُ وَالمُنْشِرُ الأَمْوَاتِ بِالتَّنْزِيلِ
١٧ وَللهِ غَادَرَنا بِمَنْزِلِ ضَيْعَةٍ أَسِفِينَ مِنْ حُزْنٍ عَلَيْهِ طَوِيلِ
١٨ بِمُصِيبةِ المَيْتِ الَّذِي لاَ مِثْلُهُ مَيْتٌ ولاَ حَيٌّ له تَعْدِيلُ

(٥٠)

الزِّبْرِقانُ بنُ بَدر: [من السريع]*

١ آلَيْتُ لاَ آسَى عَلَى هَالِكٍ بَعْدَ نَبِيِّ اللهِ خَيْرِ الأَنَامْ
٢ بَعْدَ الَّذِي كَانَ لَنَا هَادِيًا مِنْ حَيْرَةٍ كَانَتْ، وَبَدْرَ الظَّلاَمْ
٣ يَا مُبْلِغَ الأَخْبَارِ عَنْ رَبِّهِ فِينَا، وَيَا مُحْيِيَ لَيْلِ التِّمَامْ(١)
٤ [وَهَادِيَ النَّاسِ إِلَى رُشْدِهِمْ وَشَارِعَ الحِلِّ لَهُمْ وَالحَرَامْ]
٥ [أَنْتَ الَّذِي اسْتَنْقَذْتَنَا بَعْدَمَا كُنَّا عَلَى مَهْوَاةِ جُرفٍ قِيَامْ](٢)
٦ فَاسْتَأْثَرَ اللهُ بِهِ إِذْ وَفَى أَيَّامَهُ عِنْدَ حُضُورِ الحِمَامْ
٧ وَأَيُّ قَوْمٍ أَدْرَكُوا غِبْطَةً دَامَتْ لَهُمْ مِنَ الِ حَامٍ وَسَامْ

***

* التخريج: جعلتُ الزّهرة ٢/٥١٠ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٩)، ومنح المدح ص١١٧، والوافي بالوفيات ١٤/١٧٤ الأبيات: ١-٥.

١. في مخطوطة الإمتاع، ومنح المدح، والوافي: «... لا أبكي... * بعد رسول... ».

٤. البيت زائد في مخطوطة الإمتاع، ومنح المدح، والوافي.

٥. البيت زائد في مخطوطة الإمتاع، ومنح المدح، والوافي.

(١) ليل التّمام: أطول ليلة في السنة، وهو السابع عشر من كانون الأول (جمهرة اللغة: جلو).

(٢) الجُرْف والجروف: ما أكل السيلُ من أسفل شق الوادي والنهر (اللسان: جرف).

تَوثيقُ مَرَاثِي طَائفَةٍ من العَرَب

رضِي الله عنهم

١

ابن أبي عَـزَّة:

رَوى ابنُ سـيد الناس في «منح المدح» والمَقريزي في «إمتاع الأسـماع» أربعة أبيات في رثاء النبيّ ﷺ أوَّلها:

ذَهَـبَ النَّـبِيُّ فَرِيقُنَـا مَفْتُـوقُ وَلَقَدْ يَكُـونُ وَفِيقُنَا [كذا] مَرْتُوقُ

ونَسَبَاها إلى ابن أبي عزَّة(١).

إنَّ أقـرب مـا ينصرف إليه الخاطر عند سـماع هذا الاسـم هو أبو عزَّة الجُمَحيُّ الشـاعر القرشيّ، واسـمه: عمرو بن عبدالله بن عُمير بن وهيب، كان في الأُسـارى يوم بدر فقال: يا رسـول الله، إني فقيرٌ ذو عيالٍ وحاجة قد عرفتها فامنُن عليّ. فمَنَّ عليه الرَّسـول ﷺ فمدحه بقوله:

أَلا أَبْلِغَـا عَـنِّي النَّـبِيَّ مُحَمَّـدًا بِأَنَّـكَ حَـقٌّ، وَالمَلِيـكُ حَمِيـدُ

فلما كان يوم أُحُد دعاه صفوانُ بن أمية بن خلف الجُمَحيّ، وقال له: يا أبا عزَّة إنك امرؤٌ

---

(١) انظر منح المدح ص ٢٢٠، ٢٢١، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة١٨٣١).

شـاعر، فأعنَّا بلسـانك، فاخرُجْ معنا؛ فقال إنّ محمدًا قد مَنَّ عليَّ فلا أريد أن أُظاهِرَ عليه. قال: بلى، فأعِنَّا بنفسِـك، فلَكَ اللهُ عليَّ إنْ رَجَعْتَ أن أُغْنِيَك، وإنْ أُصِبْتَ أن أجعل بناتِك مـع بنـاتي، يُصيبهنَّ مـا أصابهنَّ مِنْ عُسْرٍ ويُسْر. فخرج أبو عزَّةَ في تِهامـةَ يَدعُو بني كِنانة بشعره إلى حرب المسلمين. ثم إنه أُسر بحمراء الأسد فقال: يا رسول الله: أَقِلْنِي، فقال رسول الله ﷺ: واللهِ لا تَمْسَحْ عارضَيْك بمكّةَ بعدَها وتقول: خَدَعْتُ محمدًا مرّتين، اضرب عنقَه يا زُبير فضرب عنقَه[1].

فهذا قُتل على الكفر، وليست الأبيات له.

وإذا أخذنا بظاهر المنسوخ فليس يُعرف بابـن أبي عزَّة من الصحابة إلا ثلاثةٌ، ولكنْ لستُ أعلم لهم من الشعر شيئًا.

أحدهم ابنُ أبي عزَّة الجمحي هذا، واسمه مُرَّة، ذكره ابن حجر فقال: « مُرَّة بن أبي عزَّة بن [كـذا] عمرو بن عمير بن وهب [كذا] بن حذافة بن جُمَح الجمحي، قُتل أبوه بحمراء الأسـد بعد أُحد، ولِمُرَّة هذا عَقِبٌ بالمدينة. ذكره الزُّبير »[2].

وهو يعني القولَ الذي لعلَّ الزُّبير[3] رواه عن عمّه مُصعب بن الزبير، وهو قوله في «نسب قريش»: « ولم يبق من ولد أبي عزَّة إلا نساءٌ بناتٌ لمحمد بن مسلم بن مُرَّة بن أبي عزَّة؛ وكان مُرَّة قد غلب على نَسَـبهنّ، وكان ذا مال وصوت، وهنَّ: خديجة، وأمُّ محمد، وأمُّ إياس، ومريم؛ وُلدت أمُّ إياس لجعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب »[4].

فنحن وإن لم نعلم عن مُرَّة وشعرِه – إن كان ذا شعرٍ – شيئًا يذكر، فإنه يجوز أن تكون

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ١٠٤/٣، وطبقات فحول الشعراء ٢٥٣/١ ومن عجب أنَّ ابن سيد الناس وهم فظنَّه هو (انظر منح المدح ص ٢٢٠).

(٢) الإصابة ٨١/٦.

(٣) لم أجده في الشطر الباقي من كتاب جمهرة نسب قريش وأخبارها، للزبير بن بكّار (تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة ١٣٨١هـ).

(٤) نسب قريش ص٣٩٨.

الأبيات الأربعة له؛ لأنه قرشيٌّ وُلد في بيت شاعرٍ مطبوع.

ويجوز أن تكون الأبياتُ لصحابيٍّ آخر اسمه: « سفيان بن أبي عَزَّة الجُذامي، كان نازلاً في بني حنيفة، ولم يرتدّ، ذكر ذلك وثيمة، وذكر أن خالد بن الوليد أخذه فيمن ظفِر به من أهل اليمامة فأراد قتلَه، فقال له سفيان: يا خالد، إن رسول الله ﷺ قال: « ما مِن عبدٍ يَقتلُ عبدًا إلا قعد له يوم القيامة على الصراط »، فخلَّى سبيله، وفيه يقول الشاعر :

إنَّـنِي وَالحُصَيْنُ وَابـنُ أَبِي عَـزْ ... زَةَ سُفْيَانُ دِينُنَـا الإِسْـلاَمُ »[1]

أو يكون عبدَ الرحمن بن أبي عزَّة أو ابن أبي عَمْرة. قال ابن حجر: « أخرج عنه بَقِيُّ ابن مَخْلَد في «مسنده» حديثًا، واستدركه الذهبيّ، وأنا أخشى أن يكون عبد الرحمن بن أبي عمرة الآتي في القسم الثاني »[2].

ومع ذلك فلا جَزْم بنسبة المرثية لأحدٍ من هؤلاء النفر.

٢

أبو ذُؤيب الهُذَليّ:

الشاعر العظيم، قيل: اسمه خُويلد بن خالد بن مُحرِّث، وقال ابن الكلبيّ: خُويلد بن محرِّث[3]. قال ابن سلاَّم: « وكان أبو ذؤيب شاعرًا فحلاً لا غَميزة فيه ولا وهْن ». وكان يراه أشعر هُذيل[4]. وهو صاحب إحدى أشهر مرثيّات العرب التي مطلعها:

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

---

(١) الإصابة ١٢٥/٣.

(٢) المصدر السابق ٣٣٥/٤.

(٣) انظر: الاستيعاب ١٦٤٨/٤.

(٤) انظر: طبقات فحول الشعراء ١٣١/١.

قالها يرثي بها أبناءه[١].

وقد رُوي لأبي ذؤيبٍ بيتان في رثاء النبيّ ﷺ، وقصيدةٌ من سبعة أبيات، روى ذلك محمد بن إسحاق في خبر قدومه على رسول الله ﷺ يوم أدركه وقد مات، قال ابن إسحاق: حدثني أبو الآكام الهذلي، عن الهِرماس بن صعصعة الهذلي، عن أبيه أن أبا ذؤيب الشاعر حدَّثه قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ عليل، فاستشعرت حزناً، وبتُّ بأطول ليلة لا ينجاب دَيجورها، ولا يطلع نورها، فظللت أقاسي طولَها حتى إذا كان قرب السَّحَر أغفيت، فهتف بي هاتف وهو يقول:

خَطْبٌ أَجَلُّ أَنَاخَ بِالإِسْلَامِ ... بَيْنَ النُّخَيْلِ وَمَعْقِدِ الآطَامِ
قُبِضَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ فَعُيُونُنَا ... تَذْرِي الدُّمُوعَ عَلَيْهِ بِالتَّسْجَامِ

ثم قال: وقدمت المدينة ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحاجّ إذا أهلوا بالإحرام. فقلت: مَهْ ؟ قالوا: قُبض رسول الله ﷺ. وفي الخبر أنه قال يرثي رسول الله ﷺ:

لَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ فِي عَسَلَانِهِمْ ... مَا بَيْنَ مَلْحُودٍ لَهُ وَمُضَرَّجِ

المرثية[٢].

وهذا الخبر رواه ابن إسحاق عن أبي الآكام الهذليّ، وفي بعض الكتب: أبو الأكارم[٣]، عن الهِرماس بن صعصعة الهذليّ، عن أبيه. وهؤلاء قومٌ من الهذليّين لا يُعرفون، ولم أجد لهم ذكرًا في كتب الرواية من أدبٍ أو تاريخ أو أخبار أو حديث أو غيرها، والأشبه أن يكون هذا الخبر ملفَّقًا على الشعر، ممَّا أُتي به ابنُ إسحاق فأدخله في كتابه.

والذي يعزِّز ذلك بعد تهافت الإسناد ما وقع في الخبر من تنبُّؤٍ بما سيكون بعدُ من

(١) انظر: الاستيعاب ٤/١٦٤٨-١٦٥١.

(٢) انظر الصفحات نفسها من الاستيعاب.

(٣) انظر: معرفة الصحابة، لأبي نُعيم ص٢٨٨٥.

حـوادث، وكـأنَّ الراويَ رآهـا، كقوله: « فوثبت من نومي فزِعاً فنظرت إلى السـماء فلم أرَ إلا سـعد الذابح فتفاءلت به ذبحاً يقع في العرب، وعلمت أن النبيَّ ﷺ قد قُبض، وهو ميّت من عِلَّته »[١].

ما أدرى أبا ذؤيبٍ بهذا كلِّه ؟

وكقوله: « فلما أصبحتُ طلبت شيئاً أزجر به، فعَنَّ شَيْهَمٌ - يعني القنفذ - وقد قَبَض على صِلّ - يعني الحيّة - فهي تلتوي عليه، والشـيهم يقضمها حتى أكلها، فزجرت ذلك فقلت: الشـيهم شيء مهمّ، والتواءُ الصلِّ التواء الناس عن الحق على القائم بعد رسـول الله ﷺ، ثم أوَّلت أكْلَ الشـيهم إيَّاها غلبةَ القائم بعده على الأمر، فحثثتُ ناقتي حتى إذا كنت بالغاية، فزجرت الطائر فأخبرني بوفاته، ونعَب غراب سانحٌ فنطق بمثل ذلك... »[٢].

وبذلك يختصر صاحبُ الخبر الحوادث في خبره غير متنبّهٍ لتزيُّده من ذكر الزواجر الدالَّة هي الأخـرى على ضعـف الخبر، وإلاّ فأين أبو ذؤيب من الإسـلام، وهم وإن قرب عهدُهم به قد علموا أنه يَنْهَى عن أفعال الجاهلية، وإذا كان فلا يكون الأمر بهذه الكثرة.

ولا يعني ضعفُ الخبر ضعفَ الشعر الذي جاء فيه ابتداءً، فلا يبعد أن يكون ما حول الشـعر ما اختُرع إلا من أجل رواج الشـعر. ولكنَّ مثل هذا الرثاء المرويّ قديمًا في كتاب ابن إسـحاق لشـاعرٍ فحلٍ متتبَّع شـعرُه، من أصحـاب المراثي[٣] كأبي ذؤيـبٍ؛ كان ينبغي أن يُشـتَهر ويَذيـعَ صِيتُه عند المتقدّمين خصوصًا وهو في النـبيّ ﷺ؛ وكان ينبغي لراوي الديوانِ وصانِعه[٤] أبي سـعيدٍ السُّـكريّ (ت٢٧٥ أو ٢٩٠)؛ أن يُثبته فيه لو علم منه الصحة، فلعلَّهم

---

(١) انظر: الاستيعاب ١٦٤٩/٤.

(٢) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٣) انظر: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، للدكتور أحمد كمال زكي ص٣٣٦ (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٩هـ). وانظر في تتبُّع شعره مقدمة محقق شرح أشعار الهذليين، للسكريّ ص٣.

(٤) ديوانه في الجزء الأول من كتاب شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد السكريّ ص١-٢٣٥، وانظر أيضًا القسم الأول من ديوان الهذليين ص١-١٦٥ (دار الكتب المصرية، ط٢/١٩٩٥م).

عرفوا ضعفه فأهملوه.

٣

أبو سُفيانَ بنُ الحارث(١):

كان أخا رسول الله ﷺ من الرضاعة، أرضعتهما حليمةُ بنتُ أبي ذؤيب السعدية. قيل: اسمه المغيرة، وقيل: بل اسمه كنيتُه والمغيرة أخوه. كان من المشبَّهين بالرَّسول ﷺ(٢).

وهو شاعرُ قريشٍ في الجاهلية(٣)، كان يهاجي حسَّانَ بن ثابتٍ قبل إسلامه، وينافح عن المشركين(٤)، ثم أسلم يوم الفتح قبل دخول الرَّسول ﷺ مكة فحسُن إسلامُه، يُروى أنه ما رفع رأسَه إلى رسول الله ﷺ حياءً منه(٥)، ولقد اعتذر إليه مما كان منه فكان مما قاله :

لَعَمْـرُكَ إِنِّي يَـوْمَ أَحْمِـلُ رَايَـةً ... لِتَغْلِـبَ خَيْـلُ الـلاَّتِ خَيْـلَ مُحَمَّـدِ
لَكَالْمُدْلِـجِ الحَيْرَانِ أَظْلَـمَ لَيْلُـهُ ... فَهَـذَا أَوَانِي حِـينَ أُهْـدَى وَأَهْتَـدِي
أَصُـدُّ وَأَنْـأَى جَاهِـدًا عَـنْ مُحَمَّـدٍ ... وَأُدْعَى وَإِنْ لَـمْ أَنْتَسِـبْ مِنْ مُحَمَّدِ(٦)

ثم شهد حُنينًا، فأبلى فيها بلاءً حسنًا، وكان ممن ثبت يومئذٍ ولم يفرَّ، ولم تفارق يدُه لجامَ

(١) يحذف النساخ الألف الوسطية من بعض الأعلام كلفظة « الحارث » يكتبونها: « الحرث » (انظر: ضبط النص والتعليق عليه، للدكتور بشار عواد معروف ص١٥، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٠هـ)، ولعل اطراح هذه الألف أثر من آثار المسند اليماني إذ كانوا يكتبون: « همدان، ورئام »: « همدن، ورئم » (انظر: الإكليل ١٥٤/٨ بتحقيق محمد بن علي الأكوع، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ١٤٢٥هـ)، ولكنهم ينطقونها، والذي عليه الرسم الإملائي الآن إثباتُها، أمنًا من الوقوع في اللحن.

(٢) انظر: الاستيعاب، لابن عبد البر ١٦٧٣/٤.

(٣) انظر: معجم الشعراء للمرزباني ص٢٧١.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام ٢٧٢/٣، ٢١٢/٣.

(٥) انظر: الاستيعاب ١٦٧٣/٤.

(٦) سيرة ابن هشام ٤٠١/٤.

بغلة رسـول الله ﷺ حتى انصرف الناس إليه. وكان الرَّسـول ﷺ يحبُّه، وشهد له بالجنة فقال: « أبو سفيان بن الحارث من شباب أهل الجنة، أو سيد فتيان أهل الجنة »، وكان يقول: « أرجو أن تكون خَلَفًا من حمزة ». مات سنة عشرين بالمدينة، وقيل: خمس عشرة(٧٩).

تلك أماراتُ حبٍّ وقربى ومودَّةٍ بين الرَّسول وابن عمه أبي سفيان، ولقد تظاهر المصنِّفون فردَّدوا قصيدته اللامية التي أنشدها في البكاء على النبيّ ﷺ لمَّا مات[1]:

أَرِقْـتُ فَبَـاتَ لَيْـلِي لاَ يَـزُولُ ... وَلَيْـلُ أَخِي المُصِيبَـةِ فِيـهِ طُـولُ
وَأَسْـعَدَنِي البُـكَاءُ وَذَاكَ فِيمَـا ... أُصِيـبَ المُسْـلِمُونَ بِـهِ قَلِيـلُ
فَقَـدْ عَظُمَـتْ مُصِيبَتُنَـا وَجَلَّـتْ ... عَشِـيَّةَ قِيـلَ: قَـدْ قُبِـضَ الرَّسُـولُ

وهي عن ابن إسـحاق، قال ذلك ابنُ عبد البر في «الاسـتيعاب»[2]، والذهبيُّ في «تاريخ الإسلام»[3]، و«سيرِ أعلام النبلاء»[4]، وابنُ حجرٍ في «الإصابة»[5].

وهؤلاء نقلوها من كتاب «السـيرة» لابن إسـحاق على الأغلب؛ لاختلاف بلدانهم وأزمانهم. وقد جاءت الدراسةُ على تفصيل القول في رواية ابن إسحاق، ورجَّحتْ أنه ثقةٌ محلُّه الصدق، وأنه ناقل لا غير، وأنَّ الضرر لا يكون منه في ذاته، بل يكون ممن رَوى عنهم إن كان ثمَّ ضرر، وأنَّ الذي أُنكر عليه ليس من قبيل قصيدة أبي سفيان هذه[6].

فـلا غَمْـزَ في القصيـدة من جهة ابـن إسـحاق إلا إن عدَدْنا قولاً ذكره محمد بن سـلام

(١) انظر تخريج القصيدة.
(٢) الاستيعاب ١٦٧٥/٤.
(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين) ص٢١٩.
(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ٢٠٤/١-٢٠٥ (تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١١/١٤١٧هـ).
(٥) الإصابة ١٧٩/٧.
(٦) انظر من هذه الدراسة ص١٩٠ وما بعدها.

الجَمَحيُّ وهو يترجم لأبي سـفيان؛ غمزًا حين قال: « ولأبي سـفيان بن الحارث شعرٌ كان يقوله في الجاهلية، فسـقط، ولم يصل إلينا منه إلا القليل. ولسـنا نعُدُّ ما يروي ابنُ إسحاق له ولا لغيره شعرًا، ولأنْ لا يكونَ لهم شعرٌ، أحسن من أن يكون ذاك لهم »[1].

لقد كان ابن سـلاَّمٍ مُغضبًا مما في كتب ابن إسـحاق من الشـعر الزَّائف، وقد أجبت عن ذلك[2]. ومحمد بن سـلاَّمٍ إنما قال ذلك لا من أجل أبي سـفيان وحده، وإنما تذكَّر شعرًا لغير أبي سـفيان في كتـاب ابن إسـحاق وليـدَ العصبيّة للقبيلة، وهو شـعرٌ لا خـلاف على قبحه وبطلانـه ووضوحه؛ وليسـت مرثية أبي سـفيان من شـعر الحميَّة الذي يلهـب الأنوف، ولا هي من الشـعر الرديء السـاقط الذي نُنَـزِّه شـاعر قريش أبا سفيان بنَ الحارث عنه، بل إن ابن سلاَّمٍ نفسَه قال في موضعٍ آخر يصف أشعار القرشيين: « أشعار قريش أشعارٌ فيها لِيْنٌ، فتشـكل بعض الإشـكال »[3]؛ فليس شرطًا أن تكون قصيدة أبي سـفيان فخمةً جزْلةً حتى نصحّحهـا له، ولكنمـا الـشرطُ أنْ لا تكون قصيـدةً منحطَّةً رديئةً لا تليق بشـاعرٍ قرشيّ. ولعلك أن تقول في هذا المقام أيضًا: إن ابن سلاَّم لم يخُصَّ من شعر أبي سفيان بحكمه هذا إلاَّ شعرَه الجاهليَّ فقط.

كما أن من الحق أن نذْكُرَ أنَّ أبا سـفيان كان يُعاب في بعض شـعره، فقد قال ابن هشـام بعد قصيدته التي أوَّلها:

أَحَسَّـانُ إِنَّـا يَـا ابْـنَ آكِلَـةِ الفَغَـا وَجَـدِّكَ، نَغْتَـالُ الخُـرُوقَ كَذِلَـكَا
خَرَجْنَـا وَمَـا تَنْجُـو اليَعَافِـيرُ بَيْنَنَا وَلَـوْ وَأَلَـتْ مِنَّـا بِشَـدٍّ مُـدَارِكِ

قال: « بقيت منها أبياتٌ تركناها؛ لقبح اختلاف قوافيها »[4].

(١) طبقات فحول الشعراء ١/٢٤٧.

(٢) انظر ص٢٠٠ من هذا الكتاب.

(٣) طبقات فحول الشعراء ١/٢٤٥.

(٤) السيرة النبوية، لابن هشام ٣/٢١٣.

فلا ضَيْرَ إذا لقِينا من شعر أبي سفيان مالا تطيب به نفوسنا، وتلك مسلَّمةٌ أخرى من مسلمات الحكم على صحة الشعر: أنه ليس لزامًا ليكون الشعر صحيحًا أن يكون سليمًا مُبَرَّأً من العيوب والعلل، وأنه يجوز أن يكون الشعر الصحيح نازلاً عن الدرجة السامقة إلى درجة وسطٍ غير أنه لا يكون وضيعًا مبتذلاً ألبتة. ومرثية أبي سفيان هذه ليست بوضيعة ولا هي بمبتذَلة، نعم، فيها لين، ونعم في النفس من بعض أبياتها شيء، وإنا لنذهب مذاهب شتّى فلا نجد بُدًّا من إنكار أبياتٍ من هذه الأبيات، ولا سيَّما الأبيات الزائدةُ على رواية ابن إسحاق[1]، كالبيت الأخير الذي تفرَّد به صاحب «سلوة الكئيب»:

صَلاَةُ اللهِ مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ عَلَيْهِ، لاَ تَحُولُ وَلاَ تَزُولُ

فهو بيت سقيمٌ شاذٌّ من بُنيان القصيدة.

وكذا البيتُ السادس:

وَحُقَّ لَتِلْكَ مَرْزِئَةٌ عَلَيْنَا وَحُقَّ لَهَا تَطِيرُ لَهَا العُقُولُ

والبيتُ العاشر:

أُصِبْنَا بِالنَّبِيِّ وَقَدْ رُزِئْنَا مُصِيبَتَنَا، فَمَحْمَلُهَا ثَقِيلُ

فكلاهما لم يرد إلا في «سلوة الكئيب» كذلك؛ وهما ضعيفان؛ لتكرار المعنى فيهما، ولتفرد صاحب «السلوة» بهما من دون بقيّة الرواة، فأين عنهما وعن أخيهما ذلك الحشد الكبير من الرواة الذين رووْا القصيدة؟ وكيف لم تبلغ هذه الأبياتُ إلا ابنَ ناصر الدين الدمشقيّ وحدَه وهو المتوفى سنة اثنتين وأربعين وثمانمئة ؟!

أمّا أبياتٌ أُخَرُ من قبيل قول أبي سفيان من رواية ابن إسحاق:

(١) انظر التخريج والمقابلة.

فَقَدْنَا الوَحْيَ وَالتَّنْزِيلَ فِينَا يَرُوحُ بِهِ وَيَغْدُو جِبْرَئِيلُ
وَذَاكَ أَحَقُّ مَا سَالَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُ النَّاسِ أَوْ كَادَتْ تَسِيلُ
نَبِيٌّ كَانَ يَجْلُو الشَّكَّ عَنَّا بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ وَمَا يَقُولُ
وَيَهْدِينَا فَلاَ نَخْشَى ضَلاَلاً عَلَيْنَا، وَالرَّسُولُ لَنَا دَلِيلُ
فَلَمْ نَرَ مِثْلَهُ فِي النَّاسِ حَيًّا وَلَيْسَ لَهُ مِنَ المَوْتَى عَدِيلُ
أَفَاطِمُ إِنْ جَزِعْتِ فَذَاكِ عُذْرٌ وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِي فَهُوَ السَّبِيلُ
فَقَبْرُ أَبِيكِ سَيِّدُ كُلِّ قَبْرٍ وَفِيهِ سَيِّدُ النَّاسِ الرَّسول

أقول: أبياتٌ كهذه أبياتٌ كريمةٌ صادقةٌ تأخذ بالألباب، وهي صحيحةٌ مُصعدةٌ في الصحَّة إلى أبي سفيان بن الحارث، وهي - لا غَرْوَ - جزءٌ غيرُ منفردٍ من نسيج ديوان المراثي النبويَّة في أشعار الصحابة.

٤

الزِبْرِقَانُ بنُ بَدر:

تميميٌّ، من شعراء الصحابة المخضرمين، وفد في قومه على رسول الله ﷺ سنة تسع، وكان أحد سادتهم؛ فولاَّه النبيُّ صدقاتهم، وأقرَّه على ذلك أبو بكرٍ وعمر[١].

قال أبو حاتم: وسألت الأصمعيَّ « عن خُفَاف بن نَدْبة، وعنترة، والزِبرقان بن بدر، قال: هؤلاء أشعر الفرسان، ومثلهم عباس بن مِرداس السُّلَميّ... لم يقُل: إنهم من الفحول »[٢]. وإن يكن الذي نعلمه من شعر الزِبرقان قليلاً، فإن شهادة الأصمعيّ، وقرنَه إياه مع أولئك الطبقة العالية؛ تقريظٌ له ونعتٌ بالإجادة في الشعر. وأمَّا أن الأصمعي لم يجعله في الفحول،

(١) انظر: منح المدح ص١١٤.
(٢) فحولة الشعراء، للأصمعي ص٢٧.

فكأنه لأنه لم يكن من المطِيلين؛ فها هو أبو حاتم يحكي: وقال لي الأصمعيُّ مرةً: « الزِّبرقانُ فارسٌ، شاعرٌ، غيرُ مطيل »[1].

ولعلَّ أمثل ما يقترب من هذه النعوت لشعر الزِّبرقان هو قوله :

لِيَ ابْـنُ عَـمٍّ لاَ يَـزَا ... لُ يَعِيبُـنِي وَيُعِـينُ عَائِـبْ
وَأُعِينُـه فِي النَّائِبَا ... تِ وَلاَ يُعِـينُ عَلَى النَّوَائِـبْ
تَـسْرِي عَقَارِبُـهُ إِلَيْـ ... يَ وَلاَ تَـدُبُّ لَهُ عَقَـارِبْ
لاَهِ ابْـنُ عَمِّـكَ لاَ يَخَـا ... فُ المُحْزِنَـاتِ مِـنَ العَوَاقِـبْ[2]

وهي من شعره القليلِ الساقط إلينا، مع أن للزِّبرقان ديوانًا عمِله الأصمعيُّ وأبو عمرٍو وغيرُهما[3].

وإذا قرأت مرثيَّته النبويَّة التي يستهلُّها بقولِه:

آلَيْـتُ لاَ آسَى عَلَى هَالِـكٍ ... بَعْـدَ نَـبِيِّ اللهِ خَـيْرِ الأَنَـامْ

ألفيْتَها كما وصف الأصمعيُّ قصيرةً مقتضبةً، قليلةَ الأبيات؛ فهي سبعة أبيات وحسب.

وقد وردت مرثية الزِّبرقان في كتبٍ أقدمها كتاب «الزَّهرة» للأصبهاني المتوفى في السنة السادسة والتسعين بعد المئتين[4]، ثم في كتاب «مِنَح المِدَح» لابن سيد الناس المتوفى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة[5]، وكتاب «الوافي» للصلاح الصفديّ المتوفى بعد انقضاء أربع وستين وسبعمئة سنة على الهجرة[6]، ولسنا ندري عمَّن هؤلاء روَوْا المرثية، ولا من أيِّ كتاب

(١) فحولة الشعراء ص٣٧.
(٢) انظر: الأغاني ١٨٢/٢.
(٣) انظر: الفهرست ص١٧٨.
(٤) انظر: الزَّهرة ٥١٠/٢.
(٥) انظر: منح المدح ص١١٦.
(٦) انظر: الوافي بالوفيات، للصفدي ١٧٤/١٤.

نقلـوا، على أننا نعلم أن ابن سـيد النـاس يكـثر النقل من كتاب وثيمة، ولكنه لا يظهر من القصيدة نشأتُها في ليالِي الردَّة؛ ونعلم أيضًا من الصفديِّ بحثَه، وإدمانَه التفتيش في الكتب، ولكنه لم يصرِّح بالمصادر التي رجع إليها.

ولـن نتخـذ جهلنا بأصول المرثية ذريعةً لرفضها، ذلـك أنك مهما قرأت فيها لن تلقى ما يحثُّك على الغَضِّ منها، أو القول بزيف نسبتها إلى الزِّبرقان بن بدرٍ رضِي الله عنه.

٥

سَالِمٌ الغَطَفَانِيُّ:

لسالم مرثية بائيَّة يبدؤها بقوله:

أَفَاطِـمُ بَكِّـي وَلاَ تَسْـأَمِي لِصُبْحِـكِ مَـا طَلَـعَ الكَوْكَـبُ

نسـبها ابنُ سـعد أساسًا إلى صفيَّة بنت عبد المطلب[١]، وأظنُّ النويريَّ اقتفى ابنَ سعدٍ في ذلك، وكان النويريُّ ينقل في المراثي النبويَّة عن ابن سعدٍ خاصَّةً[٢].

ولكـني وجدت في كتاب «التعازي والمـراثي» للمُبرِّد خبرًا مخالفًا؛ فقـد حكى أن الرِّياشيَّ أنشـده « لرجـل مـن غَطَفان من بني عبد الله، كانـت له صحبة، قُتل يوم جَلُـولاء، يقال له: سالمٌ، يرثي رسول الله ﷺ، يقول :

أَفَاطِـمُ بَكِّـي وَلاَ تَسْـأَمِي لِصُبْحِـكِ مَـا طَلَـعَ الكَوْكَـبُ »[٣]

ثـم رأيت الزمخشريَّ نسـب البيت العشرين مـن هذه القصيدة لسـالِمِ المحاربيِّ، وهو

(١) انظر: الطبقات الكبير، لابن سعد ٢/٢٨٤-٢٨٥.

(٢) يظهر ذلك من التشابه الواضح بينهما (انظر المقابلة).

(٣) التعازي والمراثي، لمحمد بن يزيد المبرد ص٢٩٥ (تحقيق إبراهيم الجمل، دار نهضة مصر).

قـوله:

وَيَبْكِيهِ شُعْثٌ خِمَاصُ البُطُونِ أَضَرَّ بِهِمْ زَمَنٌ أَزْيَبُ[1]

وكـذا فعل ابن شهراشـوب في «مناقب آل أبي طالب» حين نسـب أربعـة أبيات منها إلى سالم بن زهير المحاربيّ[2].

فـإذا مـا جمعنا ذلك إلى ما للقصيدة من طول لم نعهده في الشـعر الذي صحَّحناه لصفيَّة - رضي الله عنهـا، وإلى ما للقصيدة من طابع البداوة، وما لها من خصائصَ تباين خصائص ذلك الشـعر[3]؛ فإنَّ الراجح أن تكون القصيدة لسالِم الغطفانيّ، وليس بغريبٍ وقوعُ خطأ النسـبة في كتاب ابن سـعد؛ فقد نسـب قصيدةً لأروى[4]، أثبتتْ الدراسـة قطعًا نسبتَها إلى صفيَّة - رضي الله عنها[5].

أما نسـبُ الزمخشري وابنِ شهراشـوب سـالمًا إلى محاربٍ؛ فكأنه لأنَّ محاربًا بنو عمٍّ لبني عبد الله الغطفانيين، وهم يجتمعون في قيس عَيلان بن مضر؛ فبنو عبد الله هم بنو عبد الله ابن غطفان بن قيس بن سعد عيلان، ومحاربٌ هو ابن خَصَفَةَ بن قيس عيلان[6].

وكل ذلك يكاد لا يشـكل. ولكنْ المشـكلُ أن نهتديَ: من يكون سـالمُ الغطفانيُّ ذاك الذي له صحبة، وقتل يوم جلولاء سنة تسع عشرة؟[7]

---

(١) انظر: الفائق، للزمخشري ١٤١/٢.

(٢) انظر: مناقب آل أبي طالب ١٣٢/١.

(٣) انظر ص٣١٠ من هذا الكتاب.

(٤) انظر: الطبقات الكبير ٢٨٢/٢.

(٥) انظر ص٣٠٣ من هذا الكتاب.

(٦) انظر: جمهرة أنساب العرب، لابن حزم ص٢٤٣ وما بعدها (تحقيق عبد السلام محمد هارون).

(٧) وقيل: سبع عشرة (انظر: تاريخ خليفة بن خياط، لأبي عمر خليفة بن خياط الليثي العصفري ص٢٦، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، دار القلم، دمشق، ط٢/١٣٩٧هـ).

أشبه الناس أن يكون سالمًا هو الشاعرُ المُجيدُ سالمُ بن دارةَ الغطفانيّ؛ فهو مخضرمٌ عاش زمن النبيّ، ومن بني عبد الله الغطفانيين. قال أبو الفرج الأصفهانيّ: « فأمّا سالم فمخضرم قد أدرك الجاهلية والإسلام... ودارةُ لقبٌ غلَب على جدهم، ومُسافعُ أبوهم، وهو ابن شُريح بنِ يَربوع الملقَّب بدارة بن كعب بن عديّ بن جُشَم بن عوف بن بهثة بن عبد الله ابن غطفان »[1].

وهذا التفسير لدارة مذكور في كتابهم، قال الآمديُّ: « ويربوعٌ هو دارة، سُمّي بذلك لجماله، شُبّه بدارة القمر، كذا وجدتُ في كتاب بني عبد الله بن غطفان »[2]، وكونُه في كتابهم مصداقٌ على ضعف قول من قال: إن دارة لقبٌ لأمه[3].

ومما يشدُّ من أزر هذا القول ذِكْرُ ابنِ حجرٍ سالِمَ بن دارة في القسم الثالث من كتاب «الإصابة»[4]، لكنه قال: « وقرأت في ديوان شعر سالمٍ أنه قتل في خلافة عثمان، قتله زُمَيل ابن أمّ دينار الفَزَاريُّ؛ لأن سالمًا كان هجاه »[5]، فهل خلط الرِّياشيُّ بين أن يكون سالمٌ قُتل يوم جلولاء سنة تسع عشرة، وبين أن يكون قُتل في خلافة عثمان رضِي الله عنه ؟ أم يكونُ سالم الذي في رواية الرِّياشيّ غطفانيًّا آخر من بني عبد الله، له صحبة وقُتل يوم جلولاء ؟ ولكن يُعترض على ذلك أنه لو كان قتل يومَ جلولاء لعُرف، وقد فتَّشتُ في كتب الصحابة فلم أجد أحدًا اسمه سالمٌ من بني غطفان سوى سالم بن دارة هذا، وهو وإن كان من صحابة القسم الثالث فإن من العلماء من يُدخل رجلاً في الصحابة لخبر ما أو رواية ما،

(١) الأغاني ٢١/٢٣٠.

(٢) المؤتلف والمختلف، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي ص٥ (تحقيق عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي)، القاهرة، ١٣٨١هـ).

(٣) انظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر بن عمر البغدادي ٢/١٤٤ (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤/١٤١٨هـ).

(٤) اقرأ ما سبق من الكلام على تقسيم ابن حجر لكتابه في ص٢١٢ من هذه الدراسة.

(٥) الإصابة ٣/٢٤٦.

فلعل الرِّياشيَّ أو من روى عنه الرياشيَّ فعل ذلك، وأراد سالمَ بن دارة، أو لعلَّ هذه المرثية كانت السبب في أن يرِد في الخبر قولُ الراوي: « كانت له صحبة ».

ومما يشكل كذلك إيرادُ المبرّد اسمَ سالمٍ مُطْلقًا هكذا من دون أن يذكر أنه ابنُ دارة، وهو الذي أورد خبرًا لسالم بن دارة في الكتاب نفسه وسمّاه[1]، أوَلم يك يعلمُ أن سالمًا الذي ذكره الرِّياشيُّ هو ابن دارة فينسبَه إلى دارة؟

على أنه يمكن أن يجاب: إن المبرّد نقل الرواية كاملةً من غير أن يسأل الرِّياشيَّ عن كُنْه سالمٍ الغطفانيّ، ويجوز أن يكون سأله فلم يجزم له الرِّياشيُّ بشيءٍ كأنما يؤدي هو أيضًا الروايةَ كما سمع ولا يزيدُ أمانةً وصدقًا.

ومما هو مشكلٌ قبل ذلك نصُّ كلام ابن شهراشوب أن أبا سالمٍ اسمُه زهير، ولم أره عند غيره، ولم أرَ في ترجمة مَن عاش تلك المُدَّة مَن اسمه سالم بن زهير؛ ولكني وجدت ربيعة ابنَ زهير المحاربيّ، ورفاعة بنَ زهير المحاربيّ، وكانا من أمراء جيش عمرو بن العاص في فتح مصر[2]، فهل يكون سالم أخا هذين الرجلين أو أحدِهما، ويكونُ من صغار الصحابة الذين لم يذع لهم ذكرٌ، وهم كثير؟ نعم، قد يكون.

بيد أن ذاك الإشكال أجمعَه لا يضير في شيء، وغاية الأمر أن نقول: إن صحابيًّا من بني عبد الله الغطفانيين اسمه سالم: سالم بن دارة، أو سالم بن زهير، أو سالمٌ غيرُهما؛ كانت له مرثيَةٌ نبويَّةٌ افترَّ بها ثغرٌ بدَويٌّ أذهلته مصيبة أن مات رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر: التعازي والمراثي، للمبرد ص٢٥٤.

(٢) انظر: فتوح الشام، للواقدي، محمد بن عمر بن واقد ٢/٢١٢، ٢/٢٣٤ (دار الكتب العلمية، ط١/١٤١٧هـ)، ولعلهما رجلٌ واحدٌ نال اسمَه تصحيف من النساخ؛ لأن (ربيعة) لم يذكر في الكتاب إلا مرةً واحدة، وأما (رفاعة) فذكر مرارًا؛ فلعله هو رفاعة.

٦

عَدِيُّ بنُ حَاتِم:

أبـو طريـف، عديُّ بن حاتـم طيِّئ، كان يقول: « ما دخلتُ على النبيّ ﷺ إلاّ وسَّع لي أو تحرك لي، وقد دخلت عليه يومًا في بيته وقد امتلأ من أصحابه، فوسَّع لي حتى جلسـتُ إلى جنبه »[1]. تلك منـزلته من النبيّ ﷺ. فلما مات النبيُّ وارتدَّت العرب، ثبت هو على الإسلام فلـم يرتدّ، وقدِم على أبي بكر بصدقات قومه، وكان عظيمَهم فأطاعوه، فأنقذهم الله به من الكفـر والسـيف[2]. حتى لقد قال الطبريّ: « فكان خيرَ مولـود وُلد في أرض طيّئ، وأعظمَه عليهم بركةً »[3]، توفي رضِي الله عنه سـنة سبع وسـتين، وقيل: سـنة ثمانٍ، وقيل: سنة تسع وستين، وله مئةٌ وعشرون سنة[4].

وقد ذكر المَرْزُبانيُّ عديًّا في «معجم الشعراء»[5]. ومن شعره قولُه :

يَـرَى ابـنُ حُرَيْـثٍ أَنَّ هَـمِّيَ مَـالُه ... وَمَا كُنْـتُ مَوْصُوفًـا بِحُـبِّ الدَّرَاهِمِ
وقَالَـتْ قُرَيْـشٌ: لاَ تُحَكِّمْـهُ إِنَّـهُ ... عَلَى كُلِّ مَـا حَـالٍ عَـدِيُّ بْـنُ حَاتِـمِ
فَيَذْهَـبَ مِنْـكَ المَـالُ أَوَّلَ وَهْلَـةٍ ... وَحَمَّامُهَـا، وَالنَّخْـلُ ذَاتُ الكَمَائِـمِ
فَقُلْـتُ: مَعَـاذَ اللهِ مِـنْ تَـرْكِ سُـنَّةٍ ... جَرَتْ مِنْ رَسُـولِ اللهِ، وَاللهُ عَاصِمِي
وَقُلْـتُ: مَعَـاذَ اللهِ مِـنْ سُـوءِ نِيَّـةٍ ... تُحَدِّثُهَـا الرُّكْبَـانُ أَهْـلَ المَوَاسِـمِ[6]

---

(١) الاستيعاب ١٠٥٨/٣.

(٢) انظر: أسد الغابة ٩/٤.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، للطبري ٢٤٤/٣.

(٤) انظر: أسد الغابة ١٠/٤.

(٥) انظر: معجم الشعراء، للمَرزُباني، محمد بن عمران بن موسى ص٨٤.

(٦) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تصنيف ابن منظور، محمد بن مكرّم ٣٠١/٩ (دار الفكر، دمشق، ط١٤١٧/١هـ).

ومنه قولُه:

أَجِيبُوا يَا بَنِي ثُعَلَ بْنَ عَمْرٍو وَلاَ تَكِمُوا الجَوَابَ مِنَ الحَيَاءِ
فَإِنِّي قَدْ كَبُرْتُ وَرَقَّ عَظْمِي وَقَلَّ اللَّحْمُ مِنْ بَعْدِ النَّقَاءِ
وَأَصْبَحْتُ الغَدَاةَ أُرِيدُ شَيْئًا يَقِينِي الأَرْضَ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ[١]

وكانت هذه القصيدة المرثية مما قاله عديٌّ وهو قائمٌ في قومه يطمّعهم وينذرهم، ويصف أساه بفراق النبيّ ﷺ، ويعِدُ فيها أنْ سيقوم مقامًا يُحمد له بعد ما تراخى عن الإسلام لله سِنينًا، فكأنَّ إيعاد المرتدِّين في مقام رثاء النبيّ حقٌّ لازمٌ من حقوق هذا الرثاء عنده إن ابتُغي الصدقُ فيه، وكأنَّ جهاد هؤلاء في دين عديّ فرْضٌ أملاه الوفاءُ للرسول ﷺ؛ وذلك ما أساغ لنا أن نَعُدَّ القصيدة بكل أبياتها رثاءً وإن بدا أنَّ بعض أبياتها في غير الرثاء.

ولم يروِ المرثية - فيما أعلم - إلا ابنُ أعثم في «كتاب الردَّة»[٢]. قال: قال عديُّ بن حاتم:

أَلاَ إِنَّ هَذَا الدِّينَ أَصْبَحَ أَهْلُهُ عَلَى مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ بَعْدَ مُحَمَّدِ
وَلاَ ذَاكَ مِنْ ذُلٍّ وَلا مِنْ مَخَافَةٍ عَلَى الدِّينِ وَالدُّنْيَا لإِنْجَازِ مَوْعِدِ
وَلَكِنْ أُصِبْنَا بِالنَّبِيِّ، فَلَيْلُنَا طَوِيلٌ كَلَيْلِ الأَرْمَدِ المُتَلَدِّدِ

عشرة أبيات[٣]، لا تشوبهنَّ من الوضع شائبةٌ، خاصَّةً ونحن نطمئن إلى ذلك الإسناد الجمعيّ الذي بدأ به صاحب «الردَّة» كتابَه[٤]، كما أنها ليست من ذلكَ الشعر المتهافت الذي تلوكه أفواه المخترعين، بل هي شعر واضح فصيح نعقل أن يقوله نابهٌ كعديّ، وهو قريبٌ من شعره الذي تقدَّم. وينأى بها عن مظنَّة الوضع كذلك أن رثاءه ممزوج بروح الحماسة فيه، وأنه مما خلَّفته حادثةُ الردَّة، وقد خلَّفت فيما خلَّفت خيرًا كثيرًا، بعضُ هذا الشعر منه.

---

(١) انظر: المصدر السابق ٩/٣٠٤.

(٢) انظر ما قيل عن مصنف هذا الكتاب في ص١٥٦ من هذه الدراسة.

(٣) انظر: كتاب الردَّة المنسوب للواقدي ص٦٤.

(٤) انظر ما قيل عن الإسناد الجمعي في ص١٥٨ من هذه الدراسة.

٧

عبد الله بن أُنَيس:

جُهَنِيٌّ، ثم أنصاريٌّ حليفُهم، شهد العقبة وبدرًا[١]، وبعثه رسولُ الله ﷺ ليقتل ابن نُبَيح الهذلي، فلما قتله أعطاه الرَّسول عصًا تكون آيةً بينهما يوم القيامة، فقرنها بسيفه، فلم تزل معه حتى مات[٢]. وعبد الله أحدُ الذين كسَّروا أصنام بني سلمة، مات رضِي الله عنه سنة أربع وخمسين[٣].

كان عبد الله بن أُنيس يقول الشعر، ومما يُروى له قولُه في قتْلِه الهُذَليّ، وهو مما رواه ابنُ هشام ولم ينكر صحَّتَه :

تَرَكْتُ ابْنَ ثَوْرٍ كَالْحُوَارِ وَحَوْلَهُ   نَوَائِحُ تَفْرِي كُلَّ جَيْبٍ مُقَدَّدِ[٤]

بل إنه شاعر حاذقٌ على يسير ما نعرف من شعره؛ أجل، وفي قصيدته هذه ما يؤيّد ذلك من لفظ وصورةٍ كقوله:

تَنَاوَلْتُهُ وَالظُّعْنُ خَلْفِي وَخَلْفَهُ   بِأَبْيَضَ، مِنْ مَاءِ الحَدِيدِ، مُهَنَّدِ
عَجُومٍ لِهَامِ الدَّارِعِينَ كَأَنَّهُ   شِهَابُ غَضًى مِنْ مَلْهَبٍ مُتَوَقِّدِ
أَقُولُ لَهُ وَالسَّيْفُ يَعْجِمُ رَأْسَهُ:   أَنَا ابْنُ أُنَيْسٍ فَارِسًا غَيْرُ قُعْدُدِ

وما مرثيتُه في النبيّ ﷺ ببعيدٍ عن ذلك، إن لم تكنْ أحسنَ من ذلك ألفاظًا وتصويرًا وصدقَ عاطفةٍ، وهو يقول في مطلعها:

تَـفَى النَّـوْمَ مَـالاً تَبْتَغِيـهِ الأَصَابِـعُ   وَخَطْـبٌ جَلِيـلٌ لِلْبَلِيَّـةِ جَامِـعُ
غَـدَاةَ نَـعَى النَّـاعِي إِلَيْنَـا مُحَمَّـدًا   وَتِلْـكَ الَّـتِي تَسْـتَكُّ مِنْهَـا المَسَـامِعُ

(١) انظر: أسد الغابة ٣/١٧٨.
(٢) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ٤/٦٢٠.
(٣) انظر: الاستيعاب ٣/٨٦٩-٨٧٠.
(٤) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ٤/٦٢٠.

وقد روتها الرواة من طريقين: طريق وثيمة بن موسى، وطريق هشام بن محمد الكلبيّ. أمّا طريق وثيمة فلم يصرّح بها إلا أبو الرَّبيع الكَلاعيُّ في كتاب «الاكتفا»[1]، وروى القصيدة تامَّةً، وهي طريقٌ صحيحة خالية مما يعيب مثلما مضى القول.

وأمَّا الطريق الثانية فهي عند ابن سعدٍ في «الطبقات» قال: « أنشدنا هشام بن محمد الكلبيُّ، عن عثمان بن عبد الملك، أن عمران بن بلال بن عبد الله بن أُنيس قال: سمعتها من مشيختنا، قال: قال عبد الله بن أُنيس يرثي النبيَّ ﷺ: تطاول ليلي... » المرثية[2].

وروايةُ ابن الكلبي عَضُدٌ لرواية وثيمة، وإن كنا لم نهتدِ إلى ترجمةٍ لعمران بن بلال. والفروقاتُ بين الروايتين تنجلي عن اختلاف رجالهما، وهذا يزيد ثقتنا بالقصيدة[3]، وأنَّ رواية ابن الكلبي رواية جيِّدة.

وكنت أظن رواية ابن الكلبي من مرويات كتاب «إمتاع الأسماع» اعتمادًا على مطبوعته الفاسدة، ولكني حين نظرت في المخطوطة لم أجد أثرًا لهذه الرواية ولا للقصيدة، ثم تبيّن لي أن ناشره أخذ الرّواية من كتاب ابن سعدٍ فأقحمها بحروفها في الكتاب[4].

ثم لعلَّ شاكًّا أن يظنَّ في بعض أبيات القصيدة، وهي قوله:

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ يَقُومُ بِأَمْرِنَا ؟ وَهَلْ لِقُرَيْشٍ، يَا إِمَامُ، مُنَازِعُ ؟
ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِنْ قُرَيْشٍ هُمُ هُمُ أَزِمَّةُ هَذَا الأَمْرِ، وَاللهُ صَانِعُ
عَلِيٌّ، أَوِ الصِّدِّيقُ، أَوْ عُمَرٌ لَهَا وَلَيْسَ لَهَا بَعْدَ الثَّلاَثَةِ رَابِعُ

ثم قوله:

---

(١) انظر: الاكتفا ٢/٦٦.

(٢) الطبقات الكبير ٢/٢٧٨.

(٣) انظر: نظرية النظم الشفوي، مقدّمة المترجم الدكتور فضل العماري ص٩، ١٠.

(٤) قارن بين مطبوعة النميسي لإمتاع الأسماع ١٤/٥٩٥ ومخطوطة الإمتاع (ورقة ١٨٢٧)، واقرأ تمهيد هذه الدراسة.

وَكُلُّ قُرَيْشٍ، وَالَّذِي أَنَا عَبْدُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ لِلثَّلاَثَةِ تَابِعُ
فَإِنْ قَالَ مِنَّا قَائِلٌ غَيْرَ هَذِهِ أَبَيْنَا، وَقُلْنَا: اللهُ رَاءٍ وَسَامِعُ
فَيَا لَقُرَيْشٍ! قَلِّدُوا الأَمْرَ بَعْضَكُمْ فَإِنَّ ضَجِيعَ العَجْزِ لِلسِّنِّ قَارِعُ
وَلاَ تُبْطِئُوا عَنْهَا فُوَاقًا فَإِنَّهَا إِذَا قُطِعَتْ لَمْ تَسْرِ فِيهَا المَطَامِعُ

فربما قيل: إن أحدًا من قريش وضع القصيدة تأييدًا لأبي بكر ضدَّ الأنصار. ولكنه لا حُجَّة في ذلك؛ لأن الخلاف بين المهاجرين والأنصار كان قد انقطع ببيعة أبي بكر، ولم ينبعث بعد ذلك. وإنَّ خلافًا بعدُ كان بين المهاجرين أنفسهم، ثم طغى فيه قومٌ من الشيعة، ووضعوا فيه من الشعر ما وضعوا، وليست قصيدةُ عبد الله بن أُنيس من ذلك في شيء؛ بل هي قد جمعتْ بين عليٍّ وأبي بكر، وهذا يدفع الشبهة عن القصيدة، ويصحِّحُها.

ويصحِّحُها كذلك أن عبد الله بن أُنيس كان حليفًا للأنصار، فكيف يقدِّمُ القرشيين الثلاثة إن لم يكن يدين بذلك ويعتقدُه ؟

ويصحِّحُها أن عبد الله بن أُنيس كان ثالثَ ثلاثةٍ من شعراء المراثي النبويَّة ذهبوا في شعرهم هذا المذهب، مظهرين لنا ما كان إذْ ذاك من اجتماع الصحابة على ثلاثة النفر هؤلاء، والشاعران الآخران أنصاريٌّ آخر هو أبو الهيثم بن التَّيِّهان[1]، ويمانيٌّ هو عبد الحارث بن أنس بن الدَّيَّان[2].

ويؤيِّد صحَّتَها، ويقُصُّ قصَّتَها، ويصل سبَبَها صلةً عزيزةً بعبد الله بن أُنيس الخبرُ الذي جاءت في كَنَفه من رواية وثيمة - إن صحَّ -، قال الكَلاعيُّ: «وذكر وثيمةُ بن موسى أن عبد الله ابن أُنيس الجهني كان غائبًا ببعض ضواحي المدينة، فلما انتهى إليه الخبر بوفاة الرَّسول ﷺ أظلمت عليه الأرض، ثم قال: والله لو أن ميتًا ردَّه قتلُ حيٍّ نفسَه لقتلت نفسي، ولكن

(١) انظر توثيق قصيدته.

(٢) انظر توثيق قصيدته.

أفرغ إلى أمر الله، إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم سأل الذي أخبره الخبر: هل استخلف رسولُ الله ﷺ رجلاً بعينه؟ قال: لا والله. قال: الله أكبر، لو استخلفه هلكنا بمعصيته. فهل اجتمع الناس على رجلٍ؟ قال: أَمَرَ نبيُّ الله أبا بكرٍ أن يصليَ بالناس. قال: هي إعلام الإمامة، وليس كلُّ من صلَّى بإمام؛ ما فعل عليٌّ؟ قال: هو في بيته. قال: لا يريدها يا ابن أخي، لها ثلاثة من قريش: عليٌّ وأبو بكر وعمر، مَن ادَّعى منازلهم قصَّر دونهم. ما صنعت الأنصار؟ قال: اعتزلت، قال: كلاً، طائف من الشيطان، لم يكن الله ليخذلهم مع ما سبق لهم، بِتْ عندي الليلة فإني عليل، ولا أُراني إلا لما بي من هذه الصدمة، ولكن أبلغ عني قريشًا، فقال: نفا النوم مالا تبتغيه الأصابع... » المرثية[1].

٨

عَمْرُو بنُ سَالم الخُزَاعِيُّ:

حجازيٌّ من خزاعة، « كان أحدَ من يحمل ألوية خُزاعة يوم فتح مكة »[2]، وهو صاحب الصَّريخ المعروف يوم نقضت بنو بكر وقريشٌ العهدَ الذي كان بينهم وبين الرَّسول، فقتلوا رجلاً من خزاعة من بني كعبٍ حلفاء النبيّ، فخرج عمرو بن سالم حتى قدِم على رسول الله ﷺ المدينةَ، فوقف عليه وهو جالسٌ في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

لاهُـمَّ إِنِّي نَاشِـدٌ مُحَمَّـدَا
حِلْـفَ أَبِينَـا وَأَبِيـهِ الأَتْـلَدَا
كُنـتَ أَبًا بَـرًّا وَكُنْـتَ وَلَدَا
ثُمَّـتَ أَسْـلَمْنَا فَلَـمْ نَـنزِعْ يَـدَا
فَانْـصُرْ هَـدَاكَ اللهُ نَصْـرًا أَبَـدَا

(١) الاكتفا ٢/٦٧.

(٢) الإصابة ٤/٦٣٢.

وفيها:

إنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ المَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ المُوَكَّدَا
وَجَعَلُوا فِي كُدَاءَ رَصَدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدَا
وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالوَتِيرِ هُجَّدَا
فَقَتَّلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدَا

فقال الرَّسول: « قد نُصرتَ يا عمرَو بن سالم »[1]، وفي رواية: « لا نصرني الله إن لم أنصركم »[2]. فكان ذلك ممَّا هاج فتحَ مكة.

وفي هذا النشيد مَقْنَعٌ لنعلم مبلغ إتقان عمرو بن سالم للشعر، حتى لو لم نعلم من شعره شيئًا يمكن التعويل عليه، وهذا ابن الكلبيّ يشهد له فيقول: « عمرو بن سالم بن حُضَيْرة، الشاعر »[3]، وقد ذكره دِعْبلٌ في كتابه «معجم الشعراء»[4].

وأنا كلما قرأتُ المرثية ألفيتُ رُوحَ عمرٍو كما ألفيتُها في الصريخ؛ وثّابةً فائرةً، وأحسستُ في المرثية - وكانت قريبَ عهد من نصرِ الرّسول إياهم - تلهُّفَ الراثي وحسرتَه وألمَه لفُقدان الرجل الذي نَجَدهم وَوَفَى لهم، وها هو ذا يصف يوم وفاته مثلما رآه بعينيه فيقول:

فَلَمْ أَرَ يَوْمًا كَانَ أَعْظَمَ حَادِثًا ... وَلَم أَرَ يَوْمًا كَانَ أَكْثَرَ مَوْجِعَا
وَلَمْ أَرَ مِنْ يَوْمٍ أَعَمَّ مُصِيبَةً ... وَلاَ لَيْلَةً كَانَتْ أَمَرَّ وَأَفْظَعَا !

(١) معرفة الصحابة، لأبي نُعيم ص٢٠١٣.
(٢) الاستيعاب ١١٧٦/٣.
(٣) أسد الغابة ٢١٤/٤.
(٤) ذكر ذلك المرزُباني في: معجم الشعراء ص٤٥.

وهو يكاد لا يصدّق موته، أو كأنه لا يحبُّ تصديقه:

إِذَا ذَكَـرَتْ نَفْـسِي فِـرَاقَ مُحَمَّـدٍ تَهَيَّـجَ حُـزْنِي وَالفُـؤَادُ تَقَطَّعَـا
فَيَالَـكِ نَفْسًـا لاَ يَـزَالُ يَزِيدُهَـا عَلَى الدَّهْـرِ طُـولُ الدَّهْـرِ إِلاَّ تَصَدُّعَا

ألست تسمعُ الصوت نفسَه، صوتَ الرجل الحزين الذي مات ناصره؟ بلى وتسمعُ الصدقَ في قصيدته، وتعلم عنها عظيم قدر النبيّ ﷺ في نفوسهم:

لَعَمْرِي لَئِنْ جَادَتْ لَكَ العَيْنُ بِالبُكَا لَمَحْقُوقَـةٌ أَنْ تَسْـتَهِلَّ وَتَدْمَعَـا
فَيَا حَفْصُ إِنَّ الأَمْرَ جَلَّ عَنِ البُكَا غَـدَاةَ نَـعَى النَّـاعِي النَّـبِيَّ فَأَسْـمَعَا

إن هذه الأبيات جميعًا أبياتٌ لم يَبُحْ بها إلا لسان واحدٌ، ولم تَجُدْ بها سوى نفسٍ واحدة؛ ذلك خالص ما يمكن قوله في توثيق هذه المرثية؛ إذ لم يرشدنا أحدٌ ممَّن رواها عمَّن رواها، لم يفعل ذلك الأصبهاني في «الزّهرة»[1]، ولا الكَلاعيُّ في «الاكتفا»[2]، ولا البصريُّ في «الحماسة البصرية»[3].

٩

قَيس بن غُنَيم:

هو أبو غُنَيم قيس بن غُنيم المازنيُّ[4]، أو الأَسَديُّ[5]. وقال ابن سعد: من بني عمرو بن

(١) الزّهرة ٢/٥١٠.
(٢) الاكتفا ٢/٧٥.
(٣) الحماسة البصرية ٢/٥٩٥.
(٤) انظر: الإصابة ٥/٥١٢.
(٥) انظر: المصدر السابق ٥/٤٩٤-٤٩٥.

تميم[١]. له صحبة[٢]، ولابنه غُنيمٌ إدراكٌ للنبي ﷺ ولكنه لم يره[٣]، وقال ابن فَتحون: رآه[٤].

رُوي رجزه في الالتياع لوفاة الرَّسول ﷺ من طريق شعبة عن عاصم الأحول؛ قال ابن سعد: « أخبرنا وهب بن جرير بن حازم، قال: أخبرنا شعبة، عن عاصم، عن غنيم بن قيس قال: إني لأحفظ كلمات قالهنَّ أبي على النبيّ ﷺ:

أَلاَ لِيَ الوَيْـلُ عَلَى مُحَمَّـدِ... »

الرجز[٥].

ومن الطريق نفسِها أخرجه البخاريُّ، والبغويُّ[٦]، والمِزِّيُّ[٧]، وابنُ الأثير[٨]، كلُّهم ينسبه إلى قيس.

لكنْ رُوي في «الإصابة» أن ابن سعدٍ أخرج « من طريق محمد بن الوضَّاح، عن عاصم الأحول، قال: قال غُنيم بن قيس: « أشرف علينا راكبٌ فنعى لنا رسول الله ﷺ فنهضنا من الأَحْويَة[٩]، فقلنا: بأبينا وأمِّنا رسولُ الله ﷺ، وقلتُ: ألا ليَ الويل على محمَّدِ »[١٠].

فهذه روايةٌ شاذَّةٌ؛ لأن شعبة عن عاصم أوثق من محمد بن الوضَّاح عن عاصم[١١]، ثم

(١) انظر: الطبقات الكبير ١٢٢/٩.

(٢) انظر: الإصابة ٥١٢/٥.

(٣) انظر: تهذيب الكمال، للمِزّي ١٢٠/٢٣.

(٤) انظر: منح المدح ص٢٢٣.

(٥) الطبقات الكبير ١٢٢/٩.

(٦) كما في الإصابة ٥١٢/٥.

(٧) انظر: تهذيب الكمال ١٢٠/٢٣.

(٨) انظر: أسد الغابة ٣٨٢/٤.

(٩) الأحوية: جماعات البيوت المتدانية (اللسان: حوا).

(١٠) الإصابة ٣٣٨/٥.

(١١) هو الإمام الكبير الحافظ شعبة بن الحجاج (انظر ترجمته في: تهذيب الكمال ٤٧٩/١٢).

إن ابن سـعد نفسَـه أخرج الخبر في موضعٍ آخر من «الطبقات» عن شـعبة عن عاصم، وقد ذُكـر آنفًـا.

أمّـا قـول الهيثمِيّ بعد أن نسـبها لغُنيم: « رواه البزّار ورجـاله رجال الصحيح غير بشر بن آدم، وهـو ثقـةٌ »[1]، فقد قصد إلى هذه الرواية بعينها، ولـم يحكم على الخبر من جميع طرقه، وتلك طريقةٌ من طرق المحدثين. وإنه يكون رجال الإسناد ثقاتٌ، والخبر ضعيفٌ إذا روي من إسـنادٍ آخر أوثق منه وأمتن بروايةٍ مناقضة، وهذا ما اصطلحوا على تسـميته بالشذوذ[2]، وبه حكمتُ على رواية محمد بن الوضاح على عاصمٍ، وقدَّمتُ عليها رواية شعبة عن عاصم، وهي الرواية التي اعتمدها أكثرُ مَن روى المرثيةَ من المحدِّثين والمؤرِّخين.

وعلى ذلك فالرجز لقيسٍ والدِ غُنيم لا لغُنيمٍ ابنِه، وهو كما اتَّضح من إسناده قويٌّ صحيح النسب إلى قيسٍ رضِي الله عنه.

١٠

لَبيد بن ربيعة:

أبو عَقيل، أحدُ رؤوس بني عامر، وشـاعرُهم الكبير، وفد مع قومه على رسـول الله ﷺ قبل الفتح فأسـلم وحسُن إسـلامه، وله في تديُّنه القصصُ المشهورات. مات سنة إحدى وأربعين وقد جاوز مئة سنة بعشرين سنةً أو نحوها على أرجح الأقوال[3].

ولبيـد في الشـعر علمٌ في رأسـه نارٌ، وله ديوان كبـير عمِله جماعةٌ مـن المتقدمين، منهم

---

(١) مجمع الزوائد ٩/٣٩.

(٢) انظر: الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت ص١٤١ (تحقيق أبو عبد الله السورقي وإبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية، المدينة المنورة).

(٣) انظر: الإصابة ٥/٦٧٦.

أبـو عمرٍو الشـيبانيُّ، والأصمـعيُّ، والطوسيُّ، وابنُ السِّـكِّيت(١)، وقد طُبع مـا عثر عليه منه طبعـاتٍ مختلفةً متفاوتةً(٢) المعوَّل منها على تلك التي حققها الدكتور إحسـان عباس بشرح الطُّوسيّ(٣).

وممَّا يتَّصل بما نحن فيه من حديث المراثي روايتُهم أن لبيدًا ما قال في الإسلام غيرَ بيت شعرٍ واحدٍ هو قوله:

الحَمْـدُ للهِ إذْ لَـمْ يَأْتِـنِي أَجَـلِي ... حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الإِسْلامِ سِرْبَالاً

قـال ابـن عبد الـبر: «وقد قيل: إن هـذا البيت لقَرَدة بـن نُفَاثة السـلوليّ، وهو أصحُّ عنـدي»(٤).

وقيل: بل قولُه:

مَـا عَاتَـبَ المَـرْءَ الكَرِيـمَ كَنَفْسِـهِ ... وَالمَـرْءُ يُصْلِحُـهُ الجَلِيـسُ الصَّالِـحُ

وهـذا القـولُ غيرُ صحيح؛ فـإنَّ للبيدٍ قصائدَ لا شـكَّ في أنه قالها في الإسـلام خلا هذا البيت، منها مراثيه في أخيه أربد، وقصيدتان ذَكر فيهما عمَّه أبا براءٍ مُلاعبَ الأسنّة وعامرَ بن الطُّفيل، وقصائدُ أخرى غيرُ ذلك(٥).

ومـع ذلـك لا أعلم أن لبيدًا قال في النبيّ ﷺ شـعرًا إلا ما وجدتُـه في «مِنح المِدَح» وفي

(١) انظر: الفهرست ص١٧٨.

(٢) انظر: اكتفاء القنوع ص٣٥، وانظر: معجم المطبوعات العربية والمعرَّبة، ليوسف إليان سركيس ١٥٨٧/٢ (منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، صورتها مكتبة الثقافة الدينية ببورسعيد).

(٣) انظر: شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامريّ (حققه وقدم له الدكتور إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤م).

(٤) الاستيعاب ١٣٣٥/٣.

(٥) انظر مقدمة شرح ديوان لبيد ص٢٧-٢٨، واقرأ بحث هذه المسألة في كتاب أستاذنا الدكتور سعيد حسين منصور: حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام ص١٠٧-١١١.

مخطوطة «إمتاع الأسماع» من نسبة قصيدةٍ إليه يرثي فيها النبيَّ ﷺ، رأسُها:

إنَّ المَنِيَّـةَ رَأْسَ كُلِّ مَنِيَّـةٍ   شُـدَّتْ عَلَى أَعَـزِّ نَبِيـلِ[١]

وهي مرثيَـة لاميَّـة من ثمانية عشر بيتًا، وقد رواها ابنُ سـيد النـاس في «المنح» عن ابن إسـحاق، وهي - لا جرم- مما أدخل على ابن إسـحاق، فهي لا تُشـبه شعر لبيدٍ في شيء، وإنَّما قصيدة عاديَّةُ النسج إن لم نقل: ضعيفتُه، وفيها أبياتٌ منكسرةُ الوزن[٢].

وكان لبيدٌ شـديدَ أَسْرِ الشعر، متين أعاريضه. وهي قصيدةٌ قريبة اللغة، وكان لبيدٌ شاعرًا غريبَ اللفظ، جزْلَ الكلام من طبقة النابغة الجَعديِّ، وأبي ذؤيبٍ، والشمَّاخ[٣].

وإمـا قـول ابن سـلاَّم فيـه: «وكان عذب المنطـق رقيق حـواشى الـكلام»[٤]؛ فإنه يعني بالقياس إلى تلك الطبقة[٥].

قـال الفـرَّاء: «كان لبيدٌ وابنُ مُقبلٍ يجريان مجرًى واحدًا في خشـونة الكلام وصعوبته... وأهلُ العربيَّة يشتهونه لكثرة غريبه»[٦].

فالقصيدة ركيكة لا تصحُّ نسبتُها الى لبيد الفحل.

* * *

---

(١) انظر: منح المدح ص٢٨٠ - ٢٨١ ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣١)، وهي مما أُسقط من مطبوعته.

(٢) كعجُز البيت الأول، وصدر البيت الثاني.

(٣) انظر: طبقات فحول الشعراء ١/١٢٣.

(٤) المصدر السابق ١/١٣٥.

(٥) انظر مقدمة شرح ديوان لبيد، للدكتور إحسان عباس ص٣٥.

(٦) تاريخ مدينة دمشق ٩/٢٢٨.

١١

أبو الهَيْثَمِ ابنُ التَّيِّهان:

هـو مالـك بن التَّيِّهان[١] بنِ مالك بن عتيك الأنصاريّ. شـهد بيعة العقبة، وكان أوّلَ من بايع، وشهد بدرًا والمشاهد كلَّها[٢]، وهو نقيب الأنصار وخطيبُهم[٣]. توفي في خلافة عمر سنة عشرين، وقيل: بصَفّين سنة سبع وثلاثين[٤].

لا أعلم لأبي الهيثم من الشعر سوى مرثيته النبويَّة، وهي مرثية مرويَّةٌ منذ قديم، وعسى روايتهـا كانـت من غير طريـق؛ فقد رواها ابـنُ أَعْثم في كتاب «الـردَّة» بإسـناده[٥]، ورواها الكَلاَعي وهو ينقل من كتاب «الردَّة» لوثيمة وإن لم يصرّح بذلك[٦].

قـال أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفيُّ بعد ما سـاق إسـناده الجمعيَّ عـن نفرٍ من الصحابة والتابعين[٧]: «إنه لمَّا قُبض النبيُّ ﷺ شمِتت اليهود والنصارى بأهل الإسلام، وظهر النفاق في المدينة ممن كان يخفيه قبل ذلك، وماج الناس واضطربوا، وأقبل مالك بن التَّيِّهان الأنصاريُّ حتى وقف على قومه، فقال: يا معشرَ الأنصار، أنصتوا، واسَمعوا مقالتي... ثم أنشأ يقول:

أَلاَ قَـدْ أَرَى أَنَّ الفَـتَى لَـمْ يُخَـلَّدِ ... وَأَنَّ المَنَايَـا لِلرِّجَـالِ بِمَرْصَـدِ
لَقَـد جُدِعَـتْ آذَانُنَـا وَأُنُوفُنَـا ... غَـدَاةَ فُجِعْنَـا بِالنَّـبِيِّ مُحَمَّـدِ

... » القصيدة[٨].

---

(١) في الاشتقاق: «والتَّيِّهان: فَيْعِلان من التيه من قولهم: تاه يتيه تيهًا وتيهانًا، إذا تاه على وجهه» ص٤٤٥.

(٢) انظر: الإصابة ٤٤٩/٧.

(٣) انظر: معرفة الصحابة، لأبي نُعيم ص٢٤٤٧.

(٤) انظر: معجم الصحابة، للبغوي ١٨٦/٥.

(٥) انظر: كتاب الردَّة المنسوب للواقدي ص٣٠، واقرأ ما سلف في ص١٥٦ من هذا الكتاب.

(٦) انظر: الاكتفا ٦٧/٢-٦٨.

(٧) انظر معنى (الإسناد الجمعي) في ص١٥٨ من هذا الكتاب.

(٨) الردَّة ص٢٨-٣٠، وانظر الحديث عن هذا الإسناد في ص١٥٨ من هذا الكتاب.

إنَّ الفروق بين الروايات تُبرز أنَّ القصيدة رويت من غير طريق، وهذا يُعظِّم الوثوقَ بها؛ فقد رُوي البيت الخامسُ عند الكَلاعي:

نَصَـارَى يَقُولُـونَ الفِـرَى، وَمُنَافِـقٌ ... شَـبِيهٌ بِـذَاكَ الشَّـامِتِ المُتَهَـوِّدِ

ورُوي في «الردَّة»:

نَصَـارَى يَقُولُـونَ الشَّـجَى، وَمُنَافِـقٌ ... وَكُلُّ كَفُـورٍ شَـامِتٍ مُتَهَـوِّدِ

ورُوي البيتُ الحادي عشر في كتاب الكلاعيّ:

وَإِنِّي لأَرْجُـو أَنْ يَقُـومَ بِأَمْرِنَـا ... عَلِيٌّ، أَوْ الصِّدِّيـقُ، وَالمَرْءُ مِنْ عَدِي

وهو في «الاستيعاب»[1]، و«الوافي»[2]:

وَإِنِّي لأَرْجُـو أَنْ يَقُـومَ بِأَمْرِنَـا ... وَيَحْفَظُـهُ الصِّدِّيـقُ، والمرء مِنْ عِدِي

وفي «الردَّة»:

وَإِنِّي لأَرْجُـو أَنْ يَقُـومَ بِأَمْرِنَـا ... عَلِيٌّ، أَوِ الصِّدِّيـقُ، أَوْ عَمْرُو مِنْ غِدِ

وروي البيتُ الثالثُ عشر في كتاب الكلاعيّ:

أُولاَكَ خِيَـارُ الـحَيِّ فِهْـرِ بْـنِ مَالِكٍ ... وَأَنْصَـارُ هَذَا الدِّينِ مِـنْ كُلِّ مُعْتَدِي

وهو في «الردَّة»:

وَتَغْـدُو زَكَاةُ الـحَيِّ فِهْـرُ بْـنُ مَالِـكٍ ... وَأَنْصَـارُ هَذَا الدِّينِ مِـنْ كُلِّ مُعْتَدِي

ثـم إنـه مع حـرص الكلاعي على إثبـات القصيـدة كاملةً، إلا أنَّ صاحـب «الردَّة» زاد ببيتـين.

---

(١) الاستيعاب ١٣٤٨/٤.

(٢) الوافي بالوفيات ٣٠٧/١٧.

والقصيدة آيةٌ أخرى لما كان عليه الصحابة من اجتماعٍ على تفضيل الثلاثة[١]، ولم تمنع أنصاريَّةُ أبي الهيثم وكونُه من كبارهم أن يقول بذلك ويتمنَّاه، ويعتقدَ أنه الخيرُ للمسلمين.

ولا تبزُغ في القصيدة عصبيَّةٌ لقريشٍ على الأنصار قطُّ، فقد وُئدت تلك الفتنة في مهدها يوم السقيفة ببيعة أبي بكر، ولكنَّ الذي ثار بعد ذلك كان من القرشيين أنفسهم كما ذكرت قبلُ؛ فلا شبهة تحوم حول القصيدة من هذا الوجه.

بل إنَّ في الخبر قبلها تفسيرًا لأبياتها، ففيه: « وأقبل مالك بنُ التَّيِّهان الأنصاريُّ حتى وقف على قومه فقال: يا معشر الأنصار، أنصتوا، واسمعوا مقالتي، وتفهَّموا ما أُلقيه إليكم، واعلموا أنه قد شمتت اليهود والنصارى بموت نبينا محمدٍ - عليه السلام، وقد ظهرت حَسِيكَةُ[٢] أهل الردَّة، وعظَّم المصائبَ علينا أن مسيلمة الكذَّاب خرج بأرض اليمامة برعدٍ وبرقٍ، وقد تعلمون أنه كان يدَّعي النبوة في حياة نبينا ﷺ، والآن قد بلغني أن طُليحة بن خويلد الأسديَّ أيضًا قد ادَّعى النبوة ببلاد نجد، وأنا والله خائفٌ على قبائل العرب أن ترتدَّ عن دين الإسلام، فإن لم يقُم بهذا الأمر رجلٌ من بني هاشم، أو رجلٌ من قريشٍ، فهو والله الهلاك والبَوَار، ثم أنشأ أبو الهيثم يقول: ألا قد أرى أن الفتى لم يخلَّدِ [القصيدة]، قال: ثم أقبل أبو بكر الصدِّيق رضِي الله عنه على المسلمين فقال: أيُّها الناس، إنه من كان يعبدُ الله فإن الله حيٌّ لا يموت، ومن كان يعبد محمَّدًا فإن محمَّدًا قد مات... »[٣].

فانظر إلى هذا الخبر كيف أضاء من ظلمة الماضي، ونوَّر لنا الطريق فيه؛ فالقصيدة لعلها أوَّلُ شعر المراثي النبويَّة، وأقدمُه عهدًا بوفاة الرَّسول ﷺ، ووقتُها كان يومَ تلجلج الناس ساعةَ تهدَّدهم عمر بن الخطاب قبلَ السقيفة؛ فسقطت شبهةُ عصبيَّة القرشيَّة على الأنصار؛

(١) انظر في ذلك أيضًا ص١٧٦، ص٢٣٨.

(٢) الحسيكة: العداوة (أساس البلاغة: حسك).

(٣) الردَّة المنسوب للواقدي ص٢٩-٣١.

لأن الخلاف كان لم يحن بعدُ.

والقصيدة تكشف عما كان عليه سادةُ الصحابة كأبي الهيثم من حَدَبٍ على دين النبيّ ﷺ، وإشفاقٍ على بَيْضَتِه، وكيف توجَّسوا خِيفةً من الردَّة من قبلِ أن يستطير شررُها، وجنحوا إلى أنَّ المخرج في أن يليَ الأمرَ أحدٌ من قريشٍ رهطِ النبيّ، ولم يكن أبو الهيثم بدْعًا في مذهبه؛ إذ قال بمثل قوله مَلأٌ آخرون من شعراء المراثي النبويَّة(١)، قال أبو الهيثم:

وَمَا نَحْنُ إِنْ لَمْ يَجْمَعِ اللهِ أَمْرَنَا ... بِخَيْرِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا بَعْدَ أَحْمَدِ
بِأَمْنَعَ مِنْ شَاءٍ بِقَفْرٍ مَطِيرَةٍ ... بِقِيعَةِ قَاعٍ، أو ضَبَابٍ بِفَدْفَدِ

روى الطبريُّ عن عروة في يوم الوفاة قال: «والمسلمون كالغنم في اللَّيلة المطيرة الشَّاتية؛ لفقد نبيِّهم، وقِلَّتهم، وكثرةِ عدوِّهم»(٢).



(١) انظر القصيدتين الأُخريين ص١٧٦، ص٢٣٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، للطبري ٣/٢٢٥.

الباب الثاني

تَوثيقُ مَرَاثِي الصَّحَابِيَّات

رضِي الله عنهنَّ

الفصل الأول

تَوثِيقُ مَرَاثِي

صفيَّةَ بِنْتِ عَبدِ المُطَّلِب

رضِي الله عنها

المراثي

(٥١)

[من البسيط] *

١ قَـدْ كَانَ بَعْـدَكَ أَنْبَـاءٌ وَهَنْبَثَـةٌ   لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهَا لَمْ تَكْثُرِ الخُطَبُ[1]

٢ إِنَّـا فَقَدْنَـاكَ فَقْـدَ الأَرْضِ وَابِلَهَـا   فَاخْتَلْ لِقَوْمِكَ، فَاشْـهدْهُمْ، وَلاَ تَغِبِ

٣ قَـدْ كُنْـتَ بَـدْرًا وَنُـورًا يُسْـتَضَاءُ بِهِ   عَلَيْـكَ تَنْزِلُ مِـنْ ذِي العِـزَّةِ الكُتُبُ

٤ وَكَانَ جِبْرِيـلُ بِالآيَـاتِ يَحْضُرُنَـا   فَغَـابَ عَنَّـا، وَكُلُّ الغَيْـبِ مُحْتَجَـبُ

٥ فَقَـدْ رُزِئْتُ أَبَـا سَـهْلاً خَلِيقَتُـهُ   مَحْضَ الضَرِيبَـةِ والأَعْرَاقِ والنَّسَـبِ

* * *

* التخريج: جعلتُ رواية الطبقات الكبير لابن سعد ٢/٨٨؛ أصلاً لهذه المقطّعة مع أنه عزاها لهند بنت أُثاثة، وفي الدراسة تفصيل القول في تصحيح نسبتها إلى صفية رضي الله عنها؛ وهي في مخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٧)؛ وفي لسان العرب (هنبث) البيتان ١، ٢، والبيان والتبيين للجاحظ ٣/٣٦٣، والمعجم الكبير للطبراني ٢٤/٣٢١ (تحقيق حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة)، ومعرفة الصحابة لأبي نُعيم ص٣٣٧٧، ومجمع الزوائد للهيثمي ٩/٣٩ البيت الأول.

١. في المعجم الكبير، ومجمع الزوائد: «... يكثر... » بالياء آخر الحروف. وفي معرفة الصحابة: «... لم تُذكر... ».

٢. في اللسان: « فاختلَّ قومُك... » بالخاء المعجمة الفوقية، وهي أولى في المعنى. وفي مخطوطة الإمتاع: «... لقربك... » تصحيف. وفي البيان والتبيين: «... فاشهدهم فقد سغبوا ».

٤. في مخطوطة الإمتاع: «... بالآيات يأتينا ».

٥. في مخطوطة الإمتاع: «... أبَا صافٍ... ».

---

(١) الهنبثة: الداهية، وقيل: الأمور والأخبار المختلطة، يقال: وقعت بين الناس هنابث (اللسان: هنبث). والخطب: بفتح الطاء: جمع خُطبة؛ أو بضمها: جمع خَطْب، ومنه قول الأخطل:

كَلَمْعِ أيدي مثاكيلٍ مسلَّبةٍ   يَنْدبْن ضِرْسَ بناتِ الدهرِ والخُطُبِ

(اللسان: خطب).

(٥٢)

[من الخفيف] *

١ عَيْنُ جُودِي بِدَمْعَةٍ تَسْكَابِ ... لِلنَّبِيِّ المُطَهَّرِ الأَوَّابِ

٢ وَانْدُبِي المُصْطَفَى فَعُمِّي وَخُصِّي ... بِدُمُوعٍ غَزِيرَةِ الأَسْرَابِ

٣ عَيْنُ مَنْ تَنْدُبِينَ بَعْدَ نَبِيٍّ ... خَصَّهُ اللهُ رَبُّنَا بِالْكِتَابِ

٤ فَاتِحٍ، خَاتِمٍ، رَحِيمٍ، رؤُوفٍ ... صَادِقِ القِيلِ، طَيِّبِ الأَثْوَابِ

٥ مُشْفِقٍ، نَاصِحٍ، شَفِيقٍ عَلَيْنَا ... رَحْمَةٍ مِنْ إِلَهِنَا الوَهَّابِ

٦ رَحْمَةُ اللهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ ... وَجَزَاهُ الَمِليكُ حُسْنَ الثَّوَابِ

* * *

* التخريج: جعلتُ الطبقات الكبير لابن سعد ٢/٢٨٦ أصلاً لهذه المقطّعة؛ وفي نهاية الأرب ١٨/٤٠٥ الأبيات: ١، ٣-٦.

(٥٣)

[من الخفيف]*

١ لَهْفَ نَفْسِي، وَبِتُّ كَالمَسْلُوبِ أَرْقُبُ اللَّيْلَ، فِعْلَةَ المَحْرُوبِ

٢ مِنْ هُمُومٍ وَحَسْرَةٍ أَرَّقَتْنِي لَيْتَ أَنِّي سُقِيتُهَا بِشَعُوبِ[1]

٣ حِينَ قَالُوا: إِنَّ الرَّسول قَدَ امْسَى وَافَقَتْهُ مَنِيَّةُ المَكْتُوبِ

٤ [إِذْ رَأَيْنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَرِيعٌ] فَأَشَابَ القَذَالَ مِنِّي مَشِيبِي

٥ حِينَ رَيْنَا بُيُوتَهُ مُوحِشَاتٍ لَيْسَ فِيهِنَّ بَعْدَ عَيْشٍ [حَبِيبِي]

٦ فَعَرَانِي لِذَاكَ حُزْنٌ طَوِيلٌ خَالَطَ القَلْبَ، فَهْوَ كَالْمَرْعُوبِ

٧ [لَيْتَ شِعْرِيْ، وَكَيْفَ أُمْسِي صَحِيحًا بَعْدَ أَنْ بِينَ بِالرَّسُول القَرِيبِ]

٨ [أَعْظَمِ النَّاسِ فِي البَرِيَّةِ حَقًّا سَيِّدِ النَّاسِ، حُبُّهُ فِي القُلُوبِ]

٩ [فَإِلَى اللهِ ذَاكَ أَشْكُو، وَحَسْبِي يَعْلَمُ اللهُ حَوْبَتِي وَنَحِيبِي][2]

* * *

* التخريج: جعلتُ مجمع الزوائد ٩/٣٨، ٣٩ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي المعجم الكبير للطبراني ٢٤/٣٢ الأبيات: ١-٦؛ وفي الطبقات الكبير ٢/٢٨٤ الأبيات جميعًا.

١. في الطبقات: «آرق الليل...». وفي المعجم الكبير: «أرقت...».

٢. في الطبقات: «... وحسرة ردفتني».

٤. في الأصل: «حين جئنا لال بيت محمد * فأشاب القذال أي مشيب» وهو مكسور، وما أثبتُّه في الطبقات. وفي المعجم: «... لبيت آل محمد».

٥. في الطبقات: «إذ رأينا بيوته...». وفي الأصل: «... عيش غريب» لعله تصحيف، وما بين المعقوفين في الطبقات.

٦. في الطبقات: «أورث القلب ذاك حزنًا طويلاً». وفي المعجم: «فعلاني... * خلط...».

٧. البيت زائد في الطبقات.

٨. البيت زائد في الطبقات.

٩. البيت زائد في الطبقات.

---

(١) الشَّعوب: المَنِيَّة (اللسان: شعب).

(٢) الحَوْبَة: الحالة الشديدة السيئة (تاج العروس: حوب).

(٥٤)

[من الوافر]*

١ أَرِقْتُ، فَبِتُّ لَيْلِي كَالسَّلِيبِ لَوَجْدٍ فِي الجَوَانِحِ ذِي دَبِيبِ
٢ فَشَيَّبَنِي، وَمَا شَابَتْ لِدَاتِي فَأَمْسَى الرَّأْسُ مِنِّي كَالْعَسِيبِ(١)
٣ لِفَقْدِ المُصْطَفَى بِالنُّورِ حَقًّا رَسُولِ اللهِ ، مَالَكَ مِنْ ضَرِيبِ
٤ كَرِيمِ الخِيمِ، أَرْوَعَ، مَضْرَحِيِّ طَوِيلِ المَبَاعِ، مُنْتَجَبٍ، نَدِيبِ(٢)
٥ ثِمَالِ المُعْدَمِينَ وَكُلِّ جَارٍ وَمَأْوَى كُلِّ مُضْطَهَدٍ غَرِيبِ
٦ فَإِمَّا تُمْسِ فِي جَدَثٍ مُقِيمًا فَقِدْمًا عِشْتَ ذَا كَرَمٍ وَطِيبِ
٧ وَكُنْتَ مُوَفَّقًا فِي كُلِّ أَمْرٍ وَفِيمَا نَابَ مِنْ حَدَثِ الخُطُوبِ

***

* التخريج: القصيدة في الطبقات الكبير لابن سعد ٢/٢٨٥.

(١) العسيب: جريدةٌ من النخل مستقيمة، دقيقة، يُكشط خُوصُها (اللسان: عسب).

(٢) الخيم: الشيمة والطبيعة والسجية (اللسان: خيم)، وأروع: حيُّ النفس، ذكيٌّ (اللسان: روع)، والمضرحيُّ: الأبيض من كل شيء (تاج العروس: ضرح)، ورجل نَدْبٌ: خفيف في الحاجة، سريعٌ، ظريف، نجيب (اللسان: ندب).

(٥٥)

[من الخفيف]*

١ طَالَ لَيْلِي أَسْعِدْنَنِي أَخَوَاتِي لَيْسَ مَيْتِي كَسَائِرِ الأَمْوَاتِ
٢ لَيْسَ مَيْتِي بِحَسْبِ مَنْ مَاتَ فِي النَّا سِ، وَلاَ كَانَ مِثْلَهُ فِي الحَيَاةِ
٣ طَالَ لَيْلِي لِنَكْبَةٍ قَطَعَتْنِي لاَ أَرَى مِثْلَهَا مِنَ النَّكَبَاتِ

***

* التخريج: المقطّعة في مخطوطة الزّهرة التي بتورينو (ورقة ١٢٧) مصورة بمكتبة الإسكندرية من محفوظات: **Biblioteca Reale Torino Orientau 68**، وهي في مطبوعة الدكتور إبراهيم السامرائي للزهرة ٢/٥٠٨.

٢. البيت في مطبوعة الزّهرة: «ليس ميتي كمثل من مات من سائر الناس...»، وهو مختلٌّ وزنًا، والعجيب أن المحقق يعتمد مخطوطة تورينو هذه.

(٥٦)

[من الخفيف] *

١ آبَ لَيْلِي عَلَيَّ بِالتَّسْهَادِ وَجَفَا الجَنْبُ غَيْرَ وَطْءِ الوِسَادِ
٢ وَاعْتَرَتْنِي الهُمُومُ جِدًّا بِوَهْنٍ لأُمُورٍ نَزَلْنَ، حَقًّا شِدَادِ
٣ رَحْمَةً كَانَ لِلْبَرِيَّةِ طُرًّا فَهَدَى مَنْ أَطَاعَهُ لِلسَّدَادِ
٤ طَيِّبُ العُودِ والضَّرِيبَةِ وَالشِّيمِ مَحْضُ الأَنْسَابِ، وَارِي الزِّنَادِ(١)
٥ أَبْلَجٌ، صَادِقُ السَّجِيَّةِ، عَفٌّ صَادِقُ الوَعْدِ، مُنْتَهَى الرُّوَادِ
٦ عَاشَ مَا عَاشَ فِي البَرِيَّةِ بَرًّا وَلَقَدْ كَانَ نُهْبَةَ المُرْتَادِ
٧ ثُمَّ وَلَّى عَنَّا فَقِيدًا حَمِيدًا فَجَزَاهُ الجِنَانَ رَبُّ العِبَادِ

***

* التخريج: القصيدة في الطبقات الكبير لابن سعد ٢/٢٨٦.

(١) الضريبة: الطبيعة والسجيَّة (اللسان: ضرب). والشيم: الخلق والطبيعة (اللسان: شيم).

(٥٧)

[من الخفيف] *

١ عَيْنُ جُودِي بِدَمْعَةٍ وَسُهُودِ وَانْدُبِي خَيْرَ هَالِكٍ مَفْقُودِ[١]
٢ وَانْدُبِي المُصْطَفَى بِحُزْنٍ شَدِيدٍ خَالَطَ القَلْبَ، فَهْوَ كَالْمَعْمُودِ
٣ كِدْتُ أَقْضِي الحَيَاةَ لَمَّا أَتَاهُ قَدَرٌ خُطَّ فِي كِتَابٍ مَجِيدِ
٤ فَلَقَدْ كَانَ بِالعِبَادِ رَؤُوفًا وَلَهُمْ رَحْمَةً، وَخَيْرَ رَشِيدِ
٥ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَيًّا وَمَيْتًا وَجَزَاهُ الجِنَانَ يَوْمَ الخُلُودِ

* * *

* التخريج: المقطّعة في الطبقات الكبير لابن سعد ٢/٢٨٦، وفي منح المنح ص٣٤٦ - ٣٤٧ نقلاً عن الطبقات الكبير، وفي سير أعلام النبلاء ٢/٢٧١.

(١) السهود: الأرق (اللسان: سهد).

(٥٨)

[من البسيط] *

١ يَا عَيْنُ، جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكِ مُنْحَدِرِ وَلاَ تَمَلِّي، وَبَكِّي سَيِّدَ البَشَرِ
٢ بَكِّي [الرَّسُولَ] فَقَدْ هَدَّتْ مُصِيبَتُهُ جَمِيعَ أَهْلِي، وَأَهْلَ البَدْوِ، وَالحَضَرِ
٣ وَلاَ تَمَلِّي بُكَاكِ الدَّهْرَ مُعْوِلَةً عَلَيْهِ مَا غَرَّدَ القُمْرِيُّ بِالسَّحَرِ

***

* التخريج: المقطّعة في أنساب الأشراف للبَلاذُري ١/٥٩٤.

١. في الأصل: «بكي رسول الله...» ولكنّ البيت يختل وزنُه.

٣. في الأصل: «... بكاءك...» بتحقيق الهمزة، تصحيف.

(٥٩)

[من الطويل] *

١ أُكَفْكِفُ مِنْ دَمْعِي سَوَاتِرَ عَبْرَةٍ ... تُغَطِّي اللَّهَا، أَيْنَ البُحُورُ الجصادم [؟][1]

٢ لِفَقْدِ رَسُولِ اللهِ إِذْ حَانَ يَوْمُهُ ... فَيَا عَيْنُ جُودِي بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ

٣ نَبِيٌّ أَتَى بِالحَقِّ وَالنُّورِ والهُدَى ... وَنَحْنُ عُمَاةٌ فِي سَبِيلِ المَحَارِمِ

٤ فَقَدْ هَدَّنَا فَقْدُ الرَّسُولِ فَأَعْوِلِي ... بِحُزْنٍ طَوِيلٍ آخِرَ الدَّهْرِ دَائِمِ

***

* التخريج: جعلتُ معرفة الصحابة لأبي نُعيم ص٣٣٧٧ - ٣٣٧٨ أصلاً لهذه المقطّعة؛ وفي الإصابة ٧/٧٤٥ البيت الثاني.

(١) لم أتبيّن المعنى في عجز البيت؛ فلعله من تحريف وتصحيف دَخَلاه.

(٦٠)

[من الطويل]*

١ فَقَـدْ كَانَ نُـورًا سَـاطِعًا يُهْتَـدَى بِهِ يُخَـصُّ بِتَنْزِيـلِ المَثَـانِي المُعَظَّـمِ

***

*التخريج: البيت في النكت والعيون، للماوردي ٣/١٧٠ (راجعه وعلّق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/٣٧٦٧ (دار الغد، القاهرة، ط٢/١٤١٦هـ).

(٦١)

[من الطويل]*

١ أَعَيْـنَيَّ، جُـودَا بِدَمْـعٍ سَـجَمْ يُبَـادِرُ غَرْبًـا بِمَـا مُنْهَـدِمْ[1]
٢ أَعَيْـنَيَّ، فاسْـحَنْفِرَا وَاسْـكُبَا بَوَجْـدٍ وَحُـزْنٍ شَـدِيدِ الأَلَـمْ
٣ عَلَى صَفْـوَةِ اللهِ رَبِّ العِبَـادِ وَرَبِّ السَّـمَاءِ وَبَـارِي النَّسَـمْ
٤ عَلَى المُرْتَـضَى لِلْهُـدَى والتُّـقَى وَلِلرُّشْـدِ وَالنُّـورِ بَعْـدَ الظُّلَـمْ
٥ عَلَى الطَّاهِـرِ المُرْسَـلِ المُجْتَـبَى رَسُـولٍ تَخَـيَّرَهُ ذُو الكَـرَمْ

***

* التخريج: المقطّعة في الطبقات الكبير لابن سعد ٢/٢٨٥.

(١) الغَرْب: الراوية التي يحُمل عليها الماء، والدلو العظيمة (اللسان: غرب).

(٦٢)

[من الطويل] *

١ أَلاَ يَا رَسُولَ اللهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا ... وَكُنْتَ بِنَا بَرًّا وَلَمْ تَكُ جَافِيَا

٢ وَكَانَ بِنَا بَرًّا رَحِيمًا نَبِيُّنَا ... لِيَبْكِ عَلَيْكَ اليَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيَا

٣ لَعَمْرِيَ مَا أَبْكِي النَّبِيَّ لِفَقْدِهِ ... وَلَكِنْ لِهَرْجٍ كَانَ بَعْدَكَ آتِيَا

٤ كَأَنَّ عَلَى قَلْبِي لِفَقْدِ مُحَمَّدٍ ... وَمِنْ حُبِّهِ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ المَكَاوِيَا

٥ أَفَاطِمُ، صَلَّى اللهُ رَبُّ مُحَمَّدٍ ... عَلَى جَدَثٍ أَمْسَى بِيَثْرِبَ ثَاوِيَا

٦ أَرَى حَسَنًا أَيْتَمْتَهُ وَتَرَكْتَهُ ... يُبَكِّي وَيَدْعُو جَدَّهُ اليَوْمَ نَائِيَا

* التخريج: جعلتُ رواية المعجم الكبير للطبراني ٣٢٠/٢٤، ٣٢١ أصلاً لهذه القصيدة: وهي في الطبقات الكبير لابن سعد ٢٨٢/٢، ٢٨٣، ومجمع الزوائد للهيثمي ٣٩/٩، والاستيعاب لابن عبد البر ٤٩/١، والاكتفا للكلاعي ٦٥/٢، وسلوة الكئيب لابن ناصر الدين ص٢٠٦، ٢٠٧، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٨، ١٨٢٩)، وسبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٨٤/١٢، ٢٨٥، والذخائر والأعلاق للإشبيلي ص٢٢٤ بهذا الترتيب: ١، ٣، ٥، ٧، ٢، ٤، ٦، ٨، ١٠؛ وفي تاريخ الخميس ١٧٣/٢ الأبيات: ١-٥،٧-١٠؛ وفي أنساب الأشراف للبلاذري ٥٩٤/١ الأبيات: ١، ٤، ٥، ٧، ٩، ١٠؛ وفي المواهب اللدنية للقسطلاني بشرح الزرقاني ١٤٩/١٢-١٥٠ الأبيات: ١، ٥، ٧، ٩، ١٠، ٦؛ وفي الإصابة ٤٨٠/٧ الأبيات: ١، ٤.

١. في مجمع الزوائد: «... رخاءنا» بالخاء المعجمة الفوقية. وفي أنساب الأشرف: «... رجائيا».

٢. في الطبقات، وسلوة الكئيب، وسبل الهدى: «وكنت بنا رَؤوفًا رحيمًا نبينا». وفي الاكتفاء، والاستيعاب والمواهب، وتاريخ الخميس: «وكنت رحيما هاديا ومعلما». وفي مخطوطة الإمتاع: «وكنت بنا رؤوفًا ومشفقا». وفي الذخائر: «وكنت لنا حرزا حصينا نبينا».

٣. في الطبقات، وسلوة الكئيب، ومخطوطة الإمتاع، وسبل الهدى: «لعمرك... لموته». وفي الاكتفاء، والاستيعاب، والمواهب، وتاريخ الخميس: «لعمرك... * ولكن لما أخشى من الهرج آتيا». وفي الذخائر: «ولكنَّ أمرًا بعده كان آتيا».

٤. في الطبقات، وسلوة الكئيب، والاكتفا، ومخطوطة الإمتاع، والاستيعاب، والمواهب، وسبل الهدى، وأنساب الأشراف، والذخائر، وتاريخ الخميس: «كأن على قلبي لذكر محمد * وما خفت من بعد النبيّ المكاويا».

٥. في أنساب الأشراف: «أفاطم حيَّ الله...».

٦. في الذخائر: «أبا حسن...». وفي الطبقات، ومخطوطة الإمتاع، وسبل الهدى: «أبا حسن فارقته وتركته * فبكِّ بحزن آخر الدهر شاجيا».

٧ فِـدًى لِرَسُـولِ اللهِ أُمِّي، وَخَالَـتِي ... وَعَـمِّي، وَنَفْـسِي قَـصْرَةً، وَعِيَالِيَا[1]

٨ صَـبَرْتَ وَبلَّغْـتَ الرِّسَـالَةَ صَادِقًـا ... وَمِـتَّ صَلِيـبَ العُودِ، أَبْلَـجَ، صَافِيَا

٩ فَلَـوْ أَنَّ رَبَّ العَـرْشِ أَبْقَـاكَ بَيْنَنَـا ... سَـعِدْنَا، وَلَكِـنْ أَمْـرُهُ كَانَ مَاضِيَـا

١٠ عَلَيْـكَ مِـنَ اللهِ السَّـلاَمُ تَحِيَّـةً ... وَأُدْخِلْـتَ جَنَّاتٍ مِـنَ العَدْنِ رَاضِيَا

* * *

---

٧. في الطبقات، وسلوة الكئيب، ومخطوطة الإمتاع، وسبل الهدى: «... قصرة ثم خاليا». وفي الاكتفا، والاستيعاب: «وعمي وآبائي ونفسي وماليا». وفي المواهب: «وعمي وخالي ثم نفسي وماليا». وفي أنساب الأشراف: «... نفسي وخالتي * وأمي وعمي قصرة وعياليا». وفي الذخائر: «... وأمي وأسرتي * وعمي ونفسي والجدود وخاليا».

٨. في الطبقات، وسبل الهدى، والذخائر: «وقمت صليب الدين...». وفي الاكتفا، والاستيعاب، وتاريخ الخميس: «صدقت... *... صليب العود...». وفي السلوة: «وقد متَّ صُلب الدين...». وفي مخطوطة الإمتاع: «وقمت عرفت الدين...».

٩. في الطبقات، وأنساب الأشراف، ومخطوطة الإمتاع، وسبل الهدى: «فلو أن رب الناس...». وفي الاكتفا، والاستيعاب، والمواهب، وتاريخ الخميس: «... رب الناس أبقى نبينا». وفي الذخائر: «... رب الخلق أبقاك سالما». وفي الطبقات: «... أمرنا...» تصحيف.

---

(١) قَصْرَةً: أي دون الناس (اللسان: قصر).

(٦٣)

[من الخفيف]*

١ مَـا لِعَيْـنَيَّ لاَ تَجُـودَانِ رِيًّـا   إِذْ رُزِينَـا خَـيْرَ البَرِيَّـةِ حَيَّـا

٢ يَـوْمَ نَـادَى إِلَى الصَّـلاَةِ بِـلاَلٌ   فَبَكَيْنَـا بَعْـدَ النِّـدَاءِ مَلِيَّـا

٣ كُلَّ يَـوْمٍ أَصْبَحْـتَ فِيـهِ ثَقِيـلاً   لاَ تَـرُدُّ الجَـوَابَ مِنْـكَ إِلَيَّـا

٤ لَـمْ أَجِـدْ قَبْلَهَـا وَلَسْـتُ بِـلاَقٍ   بَعْدَهَـا غُصَّـةً أَمَـرَّ عَلَيَّـا

٥ وَحمـان الشَّـيْخِ مُنْحَـدِرٌ فِي عَارِضَيْـ   ـهِ كَالْمِسْـكِ فَـاحَ ذَكِيًّـا(١)

٦ وَهْيَ فِي الصَّـدْرِ قَـدْ تُسَـاقُ حَثِيثًـا   وَمِـنَ الوَقْـتِ عِنْـدَ ذَاكَ هَوِيًّا [؟](٢)

٧ لَيْـتَ يَـوْمِي يَكُـونُ قَبْلَـكَ يَوْمًـا   أَنْضَـجَ القَلْـبَ لِلْحَـرَارَةِ كَيَّـا

٨ خُلُقًـا عَالِيًـا، وَدِينًـا كَرِيمًـا   وَصِرَاطًـا تَهْـدِي بِـهِ، مُسْـتَوِيَا

٩ وَسِرَاجًـا يَهْـدِي الظَّـلاَمَ مُنِـيرًا   وَنَبِيًّـا مُسَـوَّدًا عَرَبِيًّـا

١٠ حَازِمًـا، عَازِمًـا، حَلِيمًـا، كَرِيمًـا   عَائِـدًا بِالنَّـوَالِ، بَـرًّا، تَقِيًّـا

١١ إِنَّ يَوْمًـا أَتَى عَلَيْـكَ لَيَـوْمٌ   كُـوِّرَتْ شَمْسُـهُ، وَكَانَ جَلِيًّـا

١٢ فَعَلَيْـكَ السَّـلاَمُ مِنَّـا وَمِـنْ   رَبِّـكَ بِالـرَّوْحِ بُكْـرَةً وَعَشِيًّـا

* * *

* التخريج: جعلتُ الزَّهرة للأصبهاني ٢/٥٠٨ أصلاً لهذه القصيدة؛ وفي الذخائر والأعلاق للإشبيلي ص٢٢٤ الأبيات: ١-٤، ٧-١٢؛ وفي الإصابة ٧/٧٤٤ البيت: ١١.

١. في الذخائر: «إذ فقدنا... ».

٣. في الذخائر: «جل... فيه عليلاً * لا يرد... ».

٨. في الذخائر: «... يهدي إليه سويًا ».

٩. في الذخائر: «وسراجا يجلو... *... مسددا... ».

---

(١) البيت مضطرب الوزن، مستغلق.

(٢) عجز البيت لم أتبيّنه.

تَوثيقُ مَرَاثِي صفيَّةَ بنْتِ عَبدِ المُطَّلِب رضِي الله عنها

١

هي صفيَّة بنت عبد المطلب بن هاشم، أمُّ الزبير بن العوام، عمَّة الرَّسول ﷺ، اتّفقوا على إسلامها من بين عماته، توفيت في خلافة عمر سنة عشرين، ولها من العمر ثلاث وسبعون سنة، ودُفنت بالبقيع[1].

كانت صفيَّة - رضي الله عنها - امرأةً لبيبةً حازمةً، وكانت شاعرة، اختار لها أبو تمام في «الحماسة» قولَها :

أَلاَ مَـنْ مُبْلِـغٌ عَـنِّي قُرَيْشًـا ... فَفِيـمَ الأَمْـرُ فِينَـا وَالإِمَـارُ ؟ !
لَنَـا السَّـلَفُ المُقَـدَّمُ قَـدْ عَلِمْتُـمْ ... وَلَـمْ تُوقَـدْ لَنَـا بِالْغَـدْرِ نَـارُ
وَكُلُّ مَنَاقِـبِ الخَـيْرَاتِ فِينَـا ... وَبَعْـضُ الأَمْـرِ مَنْقَصَـةٌ وَعَارُ[2]

(١) انظر: الاستيعاب ١٨٧٣/٣.

(٢) انظر: شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن ١٧٨٨/٤ (نشره أحمد أمين وعبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١/١٤١١هـ).

ويـروي المُصعب في «نسـب قريـش» أن الزُّبير بن العوام ابنَهـا كان يتيمًا في حجر نوفل ابن خويلد، وكانت صفيَّة بنت عبد المطلب تضرب الزبير وهو صغير، وتُغْلِظ عليه، فعاتبها نوفلٌ في ذلك، وقال: أنت تَبْغُضينه ! فقالت صفيَّة:

مَـنْ قَـالَ إِنِّي أَبْغُضُـهُ فَقَـدْ كَـذَبْ
وَإِنَّمَـا أَضْرِبُـهُ لِـكَيْ يَلَـبْ
وَيَهْـزِمَ الجَيْـشَ وَيَـأْتِي بِالسَّـلَبْ
وَلاَ يَكُـنْ لِمَـالِهِ خِـبْءٌ مُخَـبّْ
يَأْكُـلُ مَـا فِي الظِّـلِّ مِـنْ تَمْـرٍ وَحَـبّْ

فقال نوفل: « يا بني هاشم، كُفُّوا عنا شاعِرَتَكم هذه »[1].

مع ذلك لم يبلغنا أنْ صَنَعَ أحدٌ من المتقدمين ديوانًا لشعرها، إلا أن يكون سِيق شعرُها في كتاب «أشعار القرشيين» صنعة أبي العباس أحمد بن محمد بن بشر المَرْثَدي، المتوفى سنة ستٍّ وثمانين ومئتين[2]. وقد جمع الدكتور محمد أبو المجد شعرها في كتابٍ، وقدَّم له بدراسةٍ تتناول مصادر هذا الشعر ورواياته، وما يُشكُّ في نسبته من شعرٍ إلى صفيَّة[3].

(١) نسب قريش ص٢٣٠.

(٢) انظر: الفهرست ص١٤٣.

(٣) انظر: شعر صفية بنت عبد المطلب: جمعٌ وتحقيقٌ ودراسة، للدكتور محمد أبو المجد علي البسيوني ص٢٥-٥٢ (مكتبة الآداب، القاهرة، ط١/١٤٢٣هـ).

٢

روت الكتبُ مقطَّعةً في رثاء النبيّ ﷺ أوَّلُها، أو منها:

قَـدْ كَانَ بَعْـدَكَ أَنْبَـاءٌ وَهَنْبَثَـةٌ ... لَوْ كُنْتَ شَـاهِدَهَا لَمْ تَكْثُرِ الخُطُبُ

فنسبها ابن سعدٍ إلى هند بنت أُثاثة(١)، ونسبها ابنُ طيفور(٢)، والنويريُّ(٣)، وغيرُهما(٤) إلى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه ورضي عنها.

وهـؤلاء جميعًا لم يذكروا لنسـبتهم حجّةً ولا سـندا. ولكن رواها قومٌ آخرون ناسـبين إياها لصفيَّة بنت عبد المطلب، ذاكرين إسنادَهم:

منهم الطبرانيُّ الذي رواها فقال: « حدثنا محمد بن عبد الله الحضرميُّ، ثنا محمد بن عبد الله ابن نمير، ثنا حفص بن غياث، عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: لما قُبض النبيُّ ﷺ خرجت صفيَّة تلتمع بردائها وهي تقول :

قَـدْ كَانَ بَعْـدَكَ أَنْبَـاءٌ وَهَنْبَثَـةٌ ... لَوْ كُنْتَ شَاهِدَها لَمْ يَكْثُرِ الخَطْبُ»(٥)

وبالطريق نفسِها أخرجها أبو نُعيم في «معرفة الصحابة»(٦).

قال الهيثميُّ في «المَجْمع»: « رواه الطبرانيُّ، ورجاله رجالُ الصحيح، إلا أن محمدًا لم يدرك صفيَّة »(٧).

---

(١) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٨.

(٢) انظر: بلاغات النساء، لأحمد بن طيفور ص١٦-١٨ (صححه وشرحه أحمد الألفي، مطبعة والدة عباس الأول ١٣٢٦هـ).

(٣) انظر: نهاية الأرب ٥/١٦٩.

(٤) كأبي السعادات المبارك ابن الأثير في «النهاية » في «غريب الحديث والأثر» ٥/٢٧٧ (تحقيق طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت).

(٥) المعجم الكبير، للطبراني، سليمان بن أحمد ٢٤/٣٢١ (تحقيق حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة) .

(٦) انظر: معرفة الصحابة ص٣٣٧٧

(٧) مجمع الزوائد ٩/٣٩.

وإذا سبَرْتَ روايات شعر العرب شقَّ عليك أن تجد إسنادًا يصل بالشعر إلى ذلك الزمن القديم، وقد ارتُضيَ للشعر من الأسانيد ما انتهى منها إلى حافة القرن الأول وأوائل القرن الثاني، وصُحِّح بذلك[1]؛ فما بالُك وقد أوغل الإسناد فيما بعد ذلك حتى كَرُب يصل إلى الشاعرة ربَّةِ الشعر صفيَّة ؟ ثم ما بالُك برجالٍ حَكَم الهيثميُّ لهم أنهم رجالُ الصحيح ؟ أمَّا أنَّ محمدًا الباقر بن عليِّ بنِ الحسين المولود سنة سبع وخمسين، والمتوفى سنة ثلاث عشرة ومئةٍ لم يدرك صفيَّة؛ فإن ذلك شأنُ التحديث لا شأنُ رواية الشعر، وفي الخلط بينهما تـزِلُّ الأقدام، وإن المعوَّل هنا على أن محمدًا متقدِّمٌ، وهو ثقة، وهو من آل البيت الذين يعرفون أخبارَه ويروون آثارَه، فلو كانت المرثيةُ لفاطمة لكان أعلمَ الناس بها، ولنسبها إليها.

ونِسبةُ ابن سعد إيَّاها لهند بنت أُثاثة وهمٌ، إمَّا من قِبَله، أو من قِبَل مَنْ روى عنه، وقد وقع وهمُ نسبةٍ في كتاب ابن سعدٍ غيرُ هذا، فلا يُستغرب[2].

ومما يبعث الطُمأنينة أن الجاحظ الذي مات سنة خمس وخمسين ومئتين، وعاش نحو قرن من الزمن نسبها هو الآخرُ لصفيَّة في «البيان والتبيين»[3]، وكذلك فعل أبو الحسن المسعوديُّ وقال: «... وما كان من فاطمة وكلامِها متمثِّلةً حين عدلت إلى قبر أبيها -عليه السلام - من قول صفيَّة بنتِ عبد المطلب: « قد كان بعدك أنباءٌ وهنبثة... »[4]، وكأنه قصد إلى التوفيق بين الفريقين.

---

(١) انظر: مصادر الشعر الجاهلي ص٢٧٤ وما بعدها.

(٢) انظر ص٣٠٣ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: البيان والتبيين ٣/٣٦٣.

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، علي بن الحسين ٣/٣١١ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط٥/١٣٩٣هـ).

٣

وحدَّث ابن سعدٍ قال: « وقالت أروى بنتُ عبد المطَّلب أيضًا:

أَلاَ يَـا رَسُـولَ اللهِ كُنْـتَ رَجَاءَنـا   وَكُنْـتَ بِنَـا بَـرًّا وَلَـمْ تَـكُ جَافِيَـا »

عشرة أبيات[1]، وتبعه في عزوها إلى أروى بعضُ المتأخرين[2].

ولكنَّ ابن سعد وَهِم، أو وهم مَنْ نقل عنه ابنُ سعدٍ أيضًا؛ فالقصيدة من شعر صفيَّة لا رِيبة في ذلك، رواها عنها الزُّبير بن بكَّار في بعض كتبه[3]، وأثبت ذلك رجلان أندلسيَّان: أبو عمر ابنُ عبد البرّ، وأبو الرّبيع الكَلاعيُّ.

أمَّـا الـكلاعيُّ فقال: « وذكر الزبير بنُ أبي بكر بإسـناد له إلى هشـام بن عروة أن صفيَّة بنتَ عبد المطلب... قالت ترثي رسول الله ﷺ لمَّا توفي: ألا يا رسول الله كنت رجاءَنا...»[4]، ولكنَّ ابن عبد البر صرَّح بالإسـناد فقال: « قال الزبير: حدثني عمّي مُصْعبُ بن عبد الله، قـال: حدثـني أبي عبدُ الله بن مصعب، قال: رَويت عن هشـام بن عـروة لصفيَّة بنت عبد المطلب ترثي رسول الله ﷺ: ألا يا رسول الله... »[5]، فهذا إسنادٌ قرشيٌّ، هاشميٌّ من وجه.

وهشامٌ رواها عن أبيه عُروةَ بن الزبير، وهو أعلم بشعر جَدَّتِه؛ فقد رُويت القصيدة من طريق أخرى عند الطبراني موصولةً إلى عروة، وهي طريقٌ حسَّـنها الهيثميُّ[6]. قال الطبرانيُّ: حدثنا محمد بن عمرو بن خالدٍ الحرَّاني، حدثني أبي، ثنا ابنُ لَهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة

(١) الطبقات الكبير ٢/٢٨٢.

(٢) كالنويريّ، والمقريزيّ، وابن ناصر الدين، وغيرهم (انظر التخريج).

(٣) فتشت جمهرة نسب قريش وأخبارها، للزبير، والأخبار الموفقيات، له (تحقيق الدكتور سامي مكي العاني، عالم الكتب، بيروت، ط٢/١٤١٦هـ) فلم أعثر عليها.

(٤) الاكتفا ٢/٦٤-٦٥.

(٥) الاستيعاب ١/٤٨.

(٦) انظر: مجمع الزوائد ٩/٣٩.

قـال: قالـت صفيَّة... ألا يا رسـول الله كنت رجاءنـا... »[١]، وفي الفروقات بين الألفاظ بيان لتعدُّد الطُّرُق.

والقـول في هـذه المرثيـة لا يختلـف عـن القـول في سـابقتها من حيـث الصحةُ والتوثيـق.

ولا تختلـف المعـاني في المرثيـة عـن معاني سـابقتها؛ فإذا كانـت صفيَّة وصفـت هنالك اضطراب القوم من بعده فقالت:

قَـدْ كَانَ بَعْـدَكَ أَنْبَـاءٌ وَهَنْبَثَـةٌ ... لَوْ كُنْتَ شَـاهِدَهَا لَمْ تَكْثُرِ الخُطُبُ

إِنَّـا فَقَدْنَـاكَ فَقْـدَ الأَرْضِ وَابِلَهَـا ... فَاخْتَلْ لِقَوْمِكَ، فَاشْهَدْهُمْ، وَلاَ تَغِبِ

فإنها في قصيدتنا هذه كانت تخاف ذلك وتخشاه، ولقد وكَّدت ذلك مرَّتين في بيتين:

لَعَمْـرُكَ مَـا أَبْكِـي النَّبِيَّ لِفَقْـدِهِ ... وَلَكِـنْ لِهَـرْجٍ كَانَ بَعْـدَكَ آتِيَـا

كَأَنَّ عَلَى قَلْـبِي لِفَقْـدِ مُحَمَّـدٍ ... وَمِـنْ حُبِّـهِ مِـنْ بَعْـدِ ذَاكَ المَكَاوِيَا

وكأنّ قصيدتها اليائية هذه متقدِّمةٌ زمنًا.

واسـتقامة الإسـناد مع اتِّسـاق المعاني يذهبـان بالقصيـدة، بل القصيدتـين إلى الصحة والقبول.

ولا بـأس أن يكـون نالهـا شيءٌ من الزِّيـادة بالوضع كهذا البيت الذي نشـمُّ منه رائحة تشيُّع[٢]:

أَرَى حَسَـنًا أَيْتَمْتَـهُ وَتَرَكْتَـهُ ... يُبَـكِّي وَيَدْعُـو جَـدَّهُ اليَـوْمَ نَائِيَـا

---

(١) المعجم الكبير، للطبراني ٢٤/٣٢٠.

(٢) انظر: شعر صفية بنت عبد المطلب، للدكتور محمد أبو المجد ص٨٢.

٤

ولصفيَّة - رضي الله عنها - مرثيةٌ نبويّة مطلعُها قولُها:

لَهْفَ نَفْسِي وَبِتُّ كَالمَسْلوبِ أَرْقُبُ اللَّيْلَ فِعْلَةَ المَحْرُوبِ

رواها ابن سعد[١]. ورواها الطبرانيُّ في «المعجم الكبير» فقال: «حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحرَّانيُّ، حدثني أبي، ثنا ابن لَهيعة، عن أبي الأسود، عن عُروة قال: قالت صفيَّة بنتُ عبد المطلب ترثي رسول الله ﷺ: لهف نفسي...»[٢].

ورواها الهيثميُّ عن عروة أيضًا، وقال: «إسناده حسنٌ»[٣].

ونحن لن نخرج في هذا الإسناد عن قول الهيثميّ فيه إذ حَسَّنَهُ، والحسن في الحديث صحيح قويٌّ في الشعر، لما علمتَ من حِيطَة المحدّثين وحذرِهم في الرواية والقبول.

أمَّا أنَّ في بيتين من أبياتها ما يثير الشك فيها - كما يرى الدكتور محمد أبو المجد - فإن ثمَّة جوابًا عنهما.

رأى الدكتور أن لفظة «المسلوب» في قولها:

لَهْفَ نَفْسِي وَبِتُّ كَالمَسْلُوبِ...

ولفظة «صحيحًا» في قولها:

لَيْتَ شِعْرِي وَكَيْفَ أُمْسِي صَحِيحًا...

رآهما - لما فيهما من صيغة التذكير - تلقيان ظلالاً من الشك حول نسبة الأبيات إلى صفيَّة رضي الله عنها[٤].

(١) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٤.

(٢) المعجم الكبير ٢٤/٣٢.

(٣) مجمع الزوائد ٩/٣٩.

(٤) انظر: مراثي النبي ﷺ، للدكتور محمد أبو المجد علي ص٥٠.

وإنه لبيّنٌ أن لفظة «المسلوب» جاءت في معرض التشبيه، فصفيّة لم تقل: أنا المسلوب، وإنما شبَّهت نفسَها بالإنسان المسلوب عقلُه أو مالُه أو ولدُه[١]. وهي رجعت إلى هذا المعنى مرةً أخرى في مرثيةٍ أخرى مفصحةً عن السبب الذي أسهرها وأرَّقها، فقالت:

أَرِقْـتُ فَبِـتُّ لَيْـلِي كَالسَّـلِيبِ لِوَجْـدٍ فِي الجَوَانِـحِ ذِي دَبِيـبِ[٢]

ولكن لفظة « صحيح » البَتُّ في أمرها عسير؛ فإمَّا أن يكون البيت مُقحمًا؛ وهذا غيرُ بعيدٍ لأنه ليس من رواية الطبرانيّ، وإما أن يكون قد أصابه من التصحيف والتحريف، وإما أن تكون اللفظة من (فعيل) بمعنى (مفعول)، وتكون كما قال أبو بكر ابن الأنباريّ في «المذكر والمؤنث»: « وإذا كانت (فعيل) بمعنى (مفعول) لم يدخل الهاء في مؤنّثه؛ كقولك: عينٌ كحيلٌ، وكفٌّ خَضيبٌ، ولِحيةٌ دَهينٌ، معناه: عين مكحولة، وكفٌّ مخضوبة، ولحية مدهونة، فصُرف عن (مفعول) إلى (فعيل) فأُلزم التذكير... »[٣].

والحق أنا لا نعلم أنه قد سُمع: امرأة مصحوحة، وقد يُستغرب ذلك، إلا أن الغرابة قد تقل في: امرأة صحيحٌ؛ فقد نقل ابنُ الأنباري شيئًا قريبًا من ذلك فقال: « وقد حكى الأصمعيُّ أيضًا: امرأةٌ خَليقٌ، إذا كانت حسنة الخَلْق؛ وامرأةٌ قَتينٌ، إذا كانت قليلة الطُّعم؛ وكذلك زَهيد. فأدخل ابن السِّكِّيت هذا فيما ذُكر والفعل له مما يشترك فيه الرجال والنساء، وحكاه عن الأصمعيّ. قلت [أي ابن الأنباري]: وهذا عندي غلطٌ؛ لأن خَليقًا، وزَهيدًا، وقَتينًا في تأويل (مفعول)؛ لأن معنى قَتين: قُلِّلَ طُعمُها، وكذلك زهيد، ومعنى خليق: يُستحسن خَلْقُها، فهو بمنزلة جريح، وصنيع... »[٤]، فتكون « صحيحًا » التي في

---

(١) انظر: لسان العرب (سلب).

(٢) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٥.

(٣) المذكر والمؤنث، لأبي بكر محمد بن الأنباري ٢/١٥ (تحقيق الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة ١٤١٩هـ) وقد يجوز أن يكون المذكر مؤوّلاً بمؤنث ويكون المعنى مثلاً « شخصًا صحيحًا »، وقد جاء شبه ذلك من تأنيث المذكر إذ أُوّل بمؤنث في قول النبي ﷺ في حديث الذباب: « فإنَّ في إحدى جَنَاحَيه داءً، وفي الآخر شفاءً » والجناح مذكَّر ولكنه من الطائر بمنزلة اليد، فجاز تأنيثهُ مؤوّلاً بها. ومنه قول الله عز وجل: ﴿مَنْ جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ فأنَّث عدد الأمثال، وهي مذكَّرة، لتأويلها بالحسنات (انظر: شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، لابن مالك ص ٨٤ - ٨٥، (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار العروبة بالقاهرة).

(٤) المذكر والمؤنث، لابن الأنباري ٢/٢٤-٢٥.

البيـت بتقديـرٍ من نحو هذا التقديـر كأن يكون معناها: يُراد صحتُهـا، أو يُرى صحتُها، والله أعلـم.

وقـد تكون من نحو قولهم: «مِلحَفَةٌ جديدٌ، بغير هاء؛ لأن المعنى: مجدَّدةٌ، ومجدودةٌ، من جَـدَدْتُ الـشيءَ: قطعتُه وفصَلتُه»[1]، فتكـون «صحيحًا» بمعـنى مصحَّحة من صحَّحتُ الشيء: جعلتُه صحيحًا مسـتقيمًا، فكأن صفيَّة أرادت أن حالها لا يسـتقيم بعد وفاة النبيّ ﷺ، والله أعلم.

هـذا، ولا ضـير أن نستَلَّ البيـت من المرثيـة فنخرجَه منهـا؛ فإنه لم يـأتِ من رواية عروة، وعروة أعلم بشـعر جَدَّتِه، ولربما كان مدخولاً في رواية الواقديّ، فلا إشـكال فيه على أيِّ حـال.

٥

وحـكى ابـنُ حجر في «الإصابة» أن لصفيَّة رثـاءً في النبيّ ﷺ لم يذكر منه إلا بيتًا واحدًا، قـال: «وذكـر لها ابنُ إسـحاق من رواية إبراهيم بن سـعدٍ وغيره في «السـيرة» أبياتًا مرثيةً في النبيّ ﷺ منها :

لِفَقْـدِ رَسُـولِ اللهِ إِذْ حَـانَ يَوْمُـه ... فَيَا عَيْنُ جُودِي بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ»[2]

ومن طريق ابن إسحاق برواية إبراهيم بن سعد نفسِها وجدتُ أربعة أبيات من المرثية في كتاب «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم، فعنه قال: «حدثنا حبيب بن الحسن، ثنا محمد بن يحيى، ثنـا أحمـد بن محمد بن أيوب، ثنا إبراهيم بن سـعد، عن محمد بن إسـحاق قال: قالت صفيَّة

(١) المذكر والمؤنث ٢/٢٢.

(٢) الإصابة ٧/٧٤٥.

بنت عبد المطلب تبكي رسول الله ﷺ:

أُكَفْكِفُ مِنْ دَمْعِي سَوَاتِرَ عَبْرَةٍ تُغَطِّي اللَّهَا أَيْنَ البُحُورُ الجِصَادم [؟]

لِفَقْدِ رَسُولِ اللهِ إِذْ حَانَ يَوْمُه فَيَا عَيْنُ جُودِي بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ

نَبِيٌّ أَتَى بِالحَقِّ وَالنُّورِ والهُدَى وَنَحْنُ عُمَاةٌ فِي سَبِيلِ المَحَارِمِ

فَقَدْ هَدَّنَا فَقْدُ الرَّسول فَأُعْولِي بِحُزْنٍ طَوِيلٍ آخِرَ الدَّهْرِ، دَائِمِ[١]

والمرثية بهذه الرواية حسنةٌ جيّدة.

وفي بعض الكتب المتأخرة معزوٌّ إليها هذا البيت:

فَقَدْ كَانَ نُورًا سَاطِعًا يُهْتَدَى بِهِ يُخَصُّ بِتَنْزِيلِ المَثَانِي المُعَظَّمِ[٢]

وهو بيتٌ كان يمكن أن يكون من المرثية لولا أنَّ قافيتها مؤسَّسةٌ، وهو ليس كذلك، وألف التأسيس لازمةٌ موضعَها من القصيدة جميعها[٣]. وعلى أيّة حالٍ يصعب الجزم فيه برأي؛ لتأخُّر روايته، ولأنه بيت واحد فحسب لا يكاد يُظهر من الخصائص شيئا.

٦

فتلك المراثي الأربع الآنفات صحاحٌ لصفيّة - رضي الله عنها، وقد عُزِيَ إليها ثماني غيرُهنّ، خمس منهنّ انفرد بروايتهنّ ابنُ سعدٍ في المتقدّمين، ولم يذكر لهن سندًا، ولا نعلم لهن سندًا؛ وسادسة انفرد بها البَلاذُريُّ وحدَه؛ وثنتان رواهما غيرُهما أُخَّرتُ القولَ فيهما.

---

(١) معرفة الصحابة، لأبي نُعيم ص٣٣٧٧ - ٣٣٧٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٣٧٦٧/٤.

(٣) التأسيس: ألفٌ ساكنةٌ قبل حرف الروي بحرف متحرك يلزم ذلك الموضع من القصيدة جميعها (انظر: الوافي بمعرفة القوافي، للعنابي، أبي العباس أحمد بن علي الأصبحيّ الأندلسيّ ص١٠٠، تحقيق الدكتورة نجاة بنت حسن نولي، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤١٨هـ).

وهذه مطالع المراثي الستّ:

الأولى:

عَـيْنُ جُـودِي بِدَمْعَـةٍ تَسْـكَابِ لِلنَّـبِيِّ المُطَهَّـرِ الأَوَّابِ[١]

والثانية:

أَرِقْـتُ، فَبِـتُّ لَيْـلِي كَالسَّـلِيبِ لِوَجْـدٍ فِي الجَوَانِـحِ ذِي دَبِيـبِ[٢]

والثالثة:

آبَ لَيْـلِي عَـلَيَّ بِالتَّسْـهَادِ وَجَفَـا الجَنْـبُ غَـيْرَ وَطْءِ الوِسَـادِ[٣]

والرابعة:

عَـيْنُ جُـودِي بِدَمْعَـةٍ وَسُـهُودِ وانْـدُبِي خَـيْرَ هَالِـكٍ مَفْقُـودِ[٤]

والخامسة:

أَعَيْـنَيَّ جُـودَا بِدَمْـعٍ سَـجَمْ يُبَـادِرُ غَرْبًـا بِمَـا مُنْهَـدِمْ[٥]

والسادسة التي عند البَلاذُريّ:

يَـا عَيْنُ جُودِي بِدَمْـعٍ مِنْكِ مُنْحَدِرِ وَلاَ تَمَـلِّي وَبكِّـي سَـيِّدَ البَـشَرِ[٦]

أولئك المرثيات الست رُوين مفرداتٍ من غير إسناد يعوَّل إليه، ولا أصلٍ يُآل إليه، سوى أنَّ ابن سـعدٍ والبـلاذريَّ أخرجاهنّ في كتابيهما، وهما متقدِّمان ومن أهل الشـأن، ولكنَّ

(١) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/٢٨٥.

(٣) انظر: المصدر السابق ٢/٢٨٦.

(٤) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٥) انظر: المصدر السابق ٢/٢٨٥.

(٦) انظر: أنساب الأشراف، للبلاذري ١/٥٤٩ (تحقيق محمد حميد الله).

هـذا الإخراج وحـدَه ليس بعُمدةٍ يُعتمد عليها في مثل هذا الموطن، ومع ذلك فنحن نحكم بصحة هذه المراثي الســت، ونثبتُهنّ لصفيَّة - رضي الله عنها، والحُجَّة في ذلك أنَّنا لو جعلنا المراثيَ الأربع الأُوَل المقطوعَ بصحتهنَّ أصلاً نَقِيسُ عليه هاته المراثيَ الستَّ؛ لألفينا الستَّ تجري على سَنَن الأربع الصحيحات، وتمضي على نمط صفيَّة فيهنّ.

وتفصيـل ذلك أنه قد بَـرَزَ في المراثي الأربع الصحيحات سـماتٌ رأيناها باديةً في المراثي الستّ، منها:

١.حرص صفيَّة على التوكيد واستنفادِ المعنى.

٢.ودوران حرف الفاء عندها، وإكثارُها من استعماله.

٣.وأنها تكرّر في الرثاء معاني بعينها بألفاظٍ متقاربةٍ أو مُعَادة.

فأمَّـا حرصهـا على التوكيد، ورغبتُهـا إلى الإحاطة بالمعنى بالنفَاذ فيـه إلى آخر ما يمكنها النفاذُ إليه؛ فإنك واجِدُه في المراثي الأربع في مثل هذه الأبيات منها:

إِذْ رَأَيْنَـا أَنَّ النَّـبِيَّ صَرِيـعٌ فَأَشَـابَ القَـذَالَ أَيَّ مَشِـيبِ
أَوْرَثَ القَلْـبَ ذَاكَ حُزْنًـا طَويـلاً خَالَـطَ القَلْـبَ فَهْـوَ كَالمَرْعُـوبِ
أَعْظَـمِ النَّـاسِ فِي البَرِيَّـةِ حَقًّـا سَـيِّدِ النَّـاسِ حُبُّـهُ فِي القُلُـوبِ
فَقَـدْ هَدَّنَـا فَقْـدُ الرَّسـول فَأَعْـوِلِي بِحُـزْنٍ طَوِيـلٍ، آخِـرَ الدَّهْـرِ، دَائِـمِ
فِـدًى لِرَسُـولِ اللهِ أُمِّي وَخَالَـتِي وَعَـمِّي وَنَفْـسِي قَـصْرَةً ثُـمَّ خَالِيَـا

وهذا التوكيد، وإرادتها البلوغ بالمعنى إلى منتهاهُ تلمســهما في المراثي الســت؛ ففي المرثية الأولى منهـن (على ترتيبهـن الذي سـلف قريبًـا) تثـني صفيَّة على الرَّسـول ﷺ بـين العامَّة والخاصَّة لا تستثني من الثناء أحدًا:

وَانْـدُبِي المُصْطَـفَى فَعُـمِّي وَخُـصِّي بِدُمُـوعٍ غَزِيـرَةِ الأَسْرَابِ

وفي الثانية تؤكّد اصطفاءَه بلفظة « حقًّا » تترجم بها حزنَها البالغَ عليه؛ فهو الرجل الذي لا مثيل من الخلق له:

لِفَقْـدِ المُصْطَـفَى بِالنُّـورِ حَقًّـا رَسُـولِ اللهِ مَالَـكَ مِـنْ ضَرِيـبِ

وهي في الثالثة لا تفتأ تفعل ذلك:

وَاعْتَرَتْـنِي الهُمُـومُ جِـدًّا بَوَهْـنٍ لأُمُـورٍ نَزَلْـنَ، حَقًّـا، شِـدَادِ
رَحْمَـةً كَانَ لِلبَرِيَّـةِ طُـرًّا فَهَـدَى مَـنْ أَطَاعَـهُ لِلسَّـدَادِ

وتنعتُ في المرثية الرابعة منهنّ حزنها بأنه شديد:

وَانْـدُبِي المُصْطَـفَى بِحُـزْنٍ شَـدِيدٍ خَالَـطَ القَلْـبَ فَهْـوَ كَالمَعْمُـودِ

ثم تدعو عينيها إلى البكاء الخالص المتواصل، وأن تجتهد فيه؛ وذلك في الخامسة:

أَعَيْـنَيَّ فاسْـحَنْفِرَا وَاسْـكُبَا بِوَجْـدٍ وَحُـزْنٍ شَـدِيدِ الأَلَـمْ

وفي سادسة الست تعدِّد من هَدَّهُم الحزنُ عليه على سبيل الحصر:

بَكِّي الرَّسُـولَ فَقَدْ هَـدَّتْ مُصِيبَتُهُ جَمِيـعَ قَـوْمِي، وَأَهْلَ البَـدْوِ، وَالحَضَرِ

ولعـلَّ تشـديد صفيَّة هذا، وحرصَها على لَمْلَمةِ المعـنى والتعمُّقِ في دروبه؛ إنما هو صدًى مـن رُوح صفيَّـة، وصورةٌ من صـور الحزم الذي عُرفت به مدى أيّامهـا، وقد يصحُّ أن يقال أيضًـا: إن إكثـار صفيّـة من مراثي النبيّ ﷺ ابـنِ أخيها، وأنها لم تكتفِ فيـه بمرثيتين أو ثلاث، وإنَّ إعادتَها معانيَ بذاتها، وألفاظًا بحروفها؛ لَعلامة توثُّقٍ منها وتوكيدٍ للرثاء، وطموحٍ إلى أداء الحـقِّ كمـا ينبغي، وفي ذلـك كلِّه نَفَسٌ من نَفَسِ صفيَّة وحماسـتها وقوتها رضي الله عنها، وقد رأينا مثل ذلك في إكثار الخنساء من مراثي أخيها صخر في الجاهليّة[1].

---

(١) للخنساء ما يزيد على خمس وعشرين مرثية في أخيها صخر (انظر: مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، للدكتور عبد الحليم حفني ص٢٢٤-٢٢٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م).

وأمّا دوران حرف الفاء في المراثي الأربع، فأمثلته مستفيضة ظاهرة، إذ قالت فيهن على التوالي:

إنَّا فَقَدْنَاكَ فَقْدَ الأَرْضِ وابِلَهَا (فَـ)ـاخْتَلْ لِقَوْمِكَ (فَـ)ـاشْهَدْهُمْ، وَلاَ تَغِبِ
وَكَانَ جِبْرِيلُ بِالآيَاتِ يَحْضُرُنَا (فَـ)ـغَابَ عَنَّا، وَكُلُّ الخَيْرِ مُحْتَجِبُ
(فَـ)ـلَيْتَ قَبْلَكَ كَانَ المَوْتُ صَادَفَنَا لَمَّا نُعِيتَ وَحَالَتْ دُونَكَ الكُتُبُ
(فَـ)ـقَدْ رُزِئْتُ أَبَا سَهْلاً خَلِيقَتُهُ مَحْضَ الضَّرِيبَةِ وَالأَعْرَاقِ وَالنَّسَبِ

وقالت:

إِذْ رَأَيْنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَرِيعٌ (فَـ)ـأَشَابَ القَذَالَ أَيَّ مَشِيبِ
أَوْرَثَ القَلْبَ ذَاكَ حُزْنًا طَوِيلاً خَالَطَ القَلْبَ (فَـ)ـهْوَ كَالمَرْعُوبِ
(فَـ)ـإِلَى اللهِ ذَاكَ أَشْكُو، وَحَسْبِي يَعْلَمُ اللهُ حَوْبَتِي وَنَحِيبِي

وقالت:

لِفَقْدِ رَسُولِ اللهِ إِذْ حَانَ يَوْمُهُ (فَـ)ـيَا عَيْنُ جُودِي بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ
(فَـ)ـقَدْ هَدَّنَا فَقْدُ الرَّسول (فَـ)ـأُعْوِلِي بِحُزْنٍ طَوِيلٍ، آخِرَ الدَّهْرِ، دَائِمِ

وقالت:

(فَـ)ـلو أَنَّ رَبَّ النَّاسِ أَبْقَاكَ بَيْنَنَا سَعِدْنَا، وَلَكِنْ أَمْرُهُ كَانَ مَاضِيَا

وقد جاءت هذه الفاءاتُ الملْفِتةُ تترى في المراثي الستِ آيةً ثانيةً أن المراثيَ العشر كلَّها إنما هي من نسيجٍ واحدٍ، ومن عَمَل إنسانٍ واحد؛ ففي المرثية الأولى من الست (على الترتيب) نقرأ:

وَانْدُبِي المُصْطَفَى (فَـ)ـعُمِّي وَخُصِّي بِدُمُوعٍ غَزِيرَةِ الأَسْرَابِ

وفي الثانية:

أَرِقْـتُ، (فَـ)ـبِتُّ لَيْـلِي كَالسَّـلِيبِ لِوَجْـدٍ فِي الجَوَانِـحِ ذِي دَبِيـبِ
(فَـ)ـشَـيَّبَنِي وَمَـا شَـابَتْ لِدَاتِي (فَـ)ـأَمْـسَى الرَّأْسُ مِنِّي كَالعَسِـيبِ
(فَـ)ـإِمَّـا تُمْـسِ فِي جَـدث مُقِيمًـا (فَـ)ـقِدْمًـا عِشْـتَ ذَا كَـرَمٍ وَطِيبِ

وفي الثالثة:

رَحْمَـةً كَانَ لِلْبَرِيَّـةِ طُـرًّا (فَـ)ـهَـدَى مَـنْ أَطَاعَـهُ لِلسَّـدَادِ
ثُـمَّ وَلَّى عَنَّـا فَقِيـدًا حَمِيـدًا (فَـ)ـجَـزَاهُ الجِنَـانَ رَبُّ العِبَـادِ

وفي الرابعة:

وَانْـدُبِي المُصْطَـفَى بِحُـزْنٍ شَـدِيدٍ خَالَـطَ القَلْـبَ (فَـ)ـهْـوَ كَالمَعْمُودِ
(فَـ)ـلَقَـدْ كَانَ بِالعِبَـادِ رَؤُوفًـا وَلَهُـمْ رَحْمَـةً وَخَـيْرَ رَشِـيدِ

وفي الخامسة:

أَعَيْـنَيَّ (فَـ)ـاسْـحَنفِرَا وَاسْـكُبَا بِوَجْـدٍ وَحُـزْنٍ شَـدِيدِ الأَلَـمْ

وفي السادسة:

بَكِّي الرَّسُولَ (فَـ)ـقَدْ هَدَّتْ مُصِيبَتُهُ جَمِيـعَ قَـوْمِي، وَأَهْـلَ البَـدْوِ، وَالحَـضَرِ

وإن قِصــر المــراثي العــشر، وقربَهــا بعضِها من بعض لفظًــا ومعنًى، وتَكــرارَ كثيرٍ من جُمَلهــا وصِيَغها، كل ذلــك يجعلها كأنها قصيدةٌ واحدةٌ لا تلبثُ الفاءات أن تتوالى منشــورةً في جَنَبَاتها.

أجــل، لا أقــول إنها دليل وحدها على اتِّســاق هذا الشــعر واســتوائه؛ لا أقــول ذلك، ولا يمكــن أن يصحِّــحَ ذلك المــراثيَ بمفرده، ولكنهــا دليل يتضافر مع أدلَّــةٍ غيره على تصحيح المراثي العشر. وإني أرى أثرًا لحرف الفاء في شــعرٍ لصفيَّة غيرِ شــعر الرثاء، كقولها في مقطَّعةٍ

من أربعة أبيات:

عَالَجْتُ أَزْمَانَ الدُّهُورِ عَلَيْكُمُ وَأَسْمَاءُ لَمْ تَشْعُرْ بِذَلِكَ، أَيِّمُ
(فَـ)ـيَكْثُرُ إِنْ عُوفِيتُمُ وَسَلِمْتُمُ سُرُورِي، وَإِنِّي إِنْ مَرِضْتُمْ لأُرْزَمُ
(فَـ)ـلَوْ كَانَ فِي الكُفَّارِ زَبْرٌ عَذَرْتُهُ وَلَكِنَّ زَبْرًا، أَيُّهَا النَّاسُ، مُسْلِمُ[1]

وأمَّا المعاني، فكأينْ من معنى كان في المرثيات الأربع الصحاح؛ هو يدور في المراثي الست، ويرقى بهنَّ إلى درجة التوثُّق، كاستدماعها في مطالع القصيد، وهو واضحٌ بَيِّنٌ لا يحتاج إلى أمثلة. وهاك معانيَ أخرى غيرَه:

فلقد غادر موتُ النبيِّ ﷺ في جَنان صفيَّة جُرحًا غائرًا أعياها وأسهرَ ليلها، وزاد من أوجاعها ما كانت تخشاه - شأنَ عقلاء الصحابة - من الحوادث والخطوب التي تلت وفاته ﷺ، فقعدت تذكر ذلك وتُعيد فيه، رأينا ذلك في اثنتين من المراثي الأربع في قولها:

قَدْ كَانَ بَعْدَكَ أَنْبَاءٌ وَهَنْبَثَةٌ لَوْ كُنْتَ شَاهِدَها لَمْ تَكْثُرِ الخُطَبُ
إِنَّا فَقَدْنَاكَ فَقْدَ الأَرْضِ وَابِلَهَا فَاخْتَلَّ لِقَوْمِكَ فَاشْهَدْهُمْ وَلاَ تَغِبِ

وقولها:

لَعَمْرِيَ مَا أَبْكِي النَّبِيَّ لِفَقْدِهِ وَلَكِنْ لِهَرْجٍ كَانَ بَعْدَكَ آتِيَا
كَأَنَّ عَلَى قَلْبِي لِفَقْدِ مُحَمَّدٍ وَمِنْ حُبِّهِ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ المَكَاوِيَا

ورأيناه في أربع من المراثي الستّ:

في الثانية:

(١) تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر ٦٩/١٧، وانظر: شعر صفية بنت عبد المطلب، للدكتور محمد أبو المجد علي ص١٣٧.

أَرِقْـتُ، فَبِـتُّ لَيْـلِي كَالسَّـلِيبِ   لِوَجْـدٍ فِي الجَوَانِـحِ ذِي دَبِيـبِ
فَشَـيَّبَنِي وَمَـا شَـابَتْ لِدَاتِي   فَأَمْـسَى الـرَّأْسُ مِـنِّي كَالعَسِـيبِ
لِفَقْـدِ المُصْطَـفَى بِالنُّـورِ حَقًّـا   رَسُـولِ اللهِ، مَالَـكَ مِـنْ ضَرِيـبِ
وَكُنْـتَ مُوَفَّقًا فِي كُلِّ أَمْـرٍ   وَفِيمَـا نَـابَ مِـنْ حَـدَثِ الخُطُـوبِ

وفي الثالثة:

آبَ لَيْـلِي عَـلَيَّ بِالتَّسْـهَادِ   وَجَفَـا الجَنْـبُ غَـيْرَ وَطْءِ الوِسَـادِ
واعْتَرَتْـنِي الهُمُـومُ جِـدًّا بِوَهْـنٍ   لأُمُـورٍ نَزَلْـنَ حَقًّـا شِـدَادِ

وفي الرابعة :

عَـيْنُ جُـودِي بِدَمْعَـةٍ وَسُـهُودِ   وَانْـدُبِي خَـيْرَ هَالِـكٍ مَفْقُـودِ
وانْـدُبِي المُصْطَـفَى بِحُزْنٍ شَـدِيدٍ   خَالَـطَ القَلْـبَ فَهْـوَ كَالمَعْمُـودِ

وفي السادسة :

يَـا عَيْنُ جُودِي بِدَمْـعٍ مِنْكِ مُنْحَدِرٍ   وَلاَ تَمَـلِّي وَبكِّـي سَـيِّدَ البَـشَرِ
بَكِّي الرَّسُـول فَقَدْ هَـدَّتْ مُصِيبَتُهُ   جَمِيـعَ قَـوْمِي وَأَهْلَ البَـدْوِ وَالحَضَرِ(١)

وتسـمعُها - رضي الله عنها - لا جازعةً، ولا مسـتنكرةً قضاء الله تعالى في العباد: ﴿كُلُّ نَفْـسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، فأكدت هذا المعنى،

---

(١) استبعد الدكتور محمد أبو المجد أن تكون هذه المرثية صحيحةً بسبب ذكر « القُمْريّ » في بيتها الثالث، وقال: « لم أجده على ألسنة شعرائها كما وجد - وبكثرة - على ألسنة الشعراء في البيئات الخصيبة المتحضرة كالأندلس ومصر والعراق » (شعر صفية بنت عبد المطلب ص٢٨-٢٩)، ولكني وجدت ذكره في شعر جاهليّ في قول أبي عامر جدِّ العباس بن مِرداس السلميّ:

لا نَسَـبَ اليـومَ ولا خُلَّـةً   اتَّسـعَ الفَتْـقُ على الرَّاتـقِ
لا صُلـحَ بيـني فاعلمـوه ولا   بينكـمُ مـا حملـت عاتـقي
سـيفي ومـا كنَّا بنجـدٍ ومـا   قَرْقَـرَ قُمْـرُ الـوادِ بالشـاهقِ

(لسان العرب: قمر).

وردَّدْته تثبيتًا لفؤادها، وتذكرةً لنفسها؛ كي تتسلى وتتصبَّر؛ فتسمع إيمانَها بقدر الله المسطور في اللوح في مرثيتَيْن من الأربع:

حِينَ قَالُوا: إِنَّ الرَّسولَ قَدَ امْسَى وَافَقَتْهُ مَنِيَّةُ المَكْتُوبِ

فَلَوْ أَنَّ رَبَّ النَّاسِ أَبْقَاكَ بَيْنَنَا سَعِدْنَا، وَلَكِنْ أَمْرُهُ كَانَ مَاضِيَا

والمعنى نفسُه في رابعة المراثي الست:

كِدْتُ أَقْضِي الحَيَاةَ لَمَّا أَتَاهُ قَدَرٌ خُطَّ فِي كِتَابٍ مَجِيدِ

وكانت تذكر الوحي في الأربع:

قَدْ كُنْتَ بَدْرًا وَنُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ عَلَيْكَ تَنْزِلُ مِنْ ذِي العِزَّةِ الكُتُبُ

وَكَانَ جِبْرِيلُ بِالآيَاتِ يَحْضُرُنَا فَغَابَ عَنَّا، وَكُلُّ الغَيْبِ مُحْتَجِبُ

وتذكره في الأولى:

عَيْنُ مَنْ تَنْدُبِينَ بَعْدَ رَسُولٍ خَصَّهُ اللهُ رَبُّنَا بِالكِتَابِ

ومن مسالك صفيَّة جمعُها بين « الجدث » و« المساء » و« الثَّواء »:

أَفَاطِمُ صَلَّى اللهُ رَبُّ مُحَمَّدٍ عَلَى جَدَثٍ أَمْسَى بِيَثْرِبَ ثَاوِيَا

وجمعتهنَّ في المرثية الثانية من الست أيضًا:

فَإِمَّا تُمْسِ فِي جَدَثٍ مُقِيمًا فَقِدْمًا عِشْتَ ذَا كَرَمٍ وَطِيبِ

وإنها لتقول بيتًا في إحدى المراثي الأربع:

أَوْرَثَ القَلْبَ ذَاكَ حُزْنًا طَوِيلاً خَالَطَ القَلْبَ فَهْوَ كَالمَرْعُوبِ

يُسمع صداه في قولها من رابعة الست:

وَانْدُبِي المُصْطَفَى بِحُزْنٍ شَدِيدٍ خَالَطَ القَلْبَ فَهْوَ كَالمَعْمُودِ

وصفيَّـة - رضـوان الله عليهـا - لا تملـك في آخر إحـدى البكائيـات الأربع إلا أن تدعـوَ للنـبي ﷺ وتصليَ عليه، متمثلـةً أمر رب العَالمـين: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، والصلاة في حقيقـة اللغـة الدعاء؛ فتقـول:

عَلَيْكَ مِنَ اللهِ السَّلَامُ تَحِيَّةً ... وَأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ العَدْنِ رَاضِيَا

وهذا مرقومٌ في أولى المرثيات الست:

رَحْمَةُ اللهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ ... وَجَزَاهُ المَلِيكُ حُسْنَ الثَّوَابِ

وفي ثالثتهنّ:

ثُمَّ وَلَّى عَنَّا فَقِيدًا حَمِيدًا ... فَجَزَاهُ الجِنَانَ رَبُّ العِبَادِ

وفي الرابعة منهنَّ:

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَيًّا وَمَيْتًا ... وَجَزَاهُ الجِنَانَ يَوْمَ الخُلُودِ

والصلاةُ والسـلامُ على النبيّ ﷺ والدعاءُ له، وإن وُجد في شـعر الصُّوفية والمتأخِّرين، فإنه ليس مسـتغربًا، ولا عجبًا أن يوجَد في شـعر الصحابة، وما العجب في ذلك وقد ثبت بطرقٍ من العلم الصحيح؟[1].

فهذه إذن عشر مراثٍ من شعر صفيَّة كأنهنَّ لَبِنَاتٌ في بناء واحدٍ، متساوياتٌ، متشابهاتٌ، رقيقات، صَنْعةٌ وَاحدةٌ، وصوتٌ لا يختلف.

---

(١) انظر ذلك في الكلام على المعاني الإسلامية ص٤٢٠.

٧

وأنشد ابنُ داود الظَّاهريُّ في «الزَّهرة» تائيَّةً منسوبةً لصفيَّة - رضي الله عنها - من ثلاثة أبيات، تفرَّد بها، ولم يذكر من أين أتى بها، أوّلها :

طَـالَ لَيْـلِي أَسْـعِدْنَنِي أَخَـوَاتِي لَيْـسَ مَيْـتِي كَسَـائِرِ الأَمْـوَاتِ[1]

وقـد نبَّه الدكتور محمـد أبو المجد إلى خللٍ في عروض البيت الثـاني[2] نقلاً عن مطبوعة «الزَّهرة» التي نشرها الدكتور إبراهيم السامرَّائي، وهو فيها على هذه الصورة :

لَيْسَ مَيْتِي كَمِثْلِ مَنْ مَاتَ مِنْ سَائِرِ النَّا سِ، وَلاَ كَانَ مِثْلَـهُ فِي الحَيَـاةِ[3]

ثم أصلح الدكتور أبو المجد من البيت فجعله هكذا :

لَيْـسَ مَيْتِي مِثْـلَ مَنْ مَـاتَ مِنَ النَّا سِ، وَلاَ كَانَ مِثْلَـهُ فِي الحَيَـاةِ[4]

وقـد رجعـت إلى مخطوطة (تورينو) التي اعتمدها السـامرائيُّ في نشرته الكاملة للكتاب، فوجدت البيت فيها مستقيمًا، على هذه الصورة:

لَيْسَ مَيْتِي بِحَسْـبِ مَنْ مَاتَ فِي النَّا سِ، وَلاَ كَانَ مِثْلَـهُ فِي الحَيَـاةِ[5]

ومن عجبٍ أن المحقّق لم يثبت ذلك.

ولا أجـد في الأبيـات الثلاثة مرجِّحًا إلا أن يقال: إن فيها شـبهًا بمـراثي صفيَّة إذ تدعو أخواتها إلى مساعدتها في البكاء:

طَـالَ لَيْـلِي أَسْـعِدْنَنِي أَخَـوَاتِي لَيْـسَ مَيْـتِي كَسَـائِرِ الأَمْـوَاتِ

(١) انظر: الزَّهرة ٢/٥٠٨.

(٢) انظر: مراثي النبي ﷺ، للدكتور محمد أبو المجد ص١٤٧.

(٣) انظر: الزَّهرة ٢/٥٠٨ (تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، الأردن، ط٢/١٩٨٥م).

(٤) انظر: شعر صفية بنت عبد المطلب، للدكتور محمد أبو المجد ص١٢٣.

(٥) انظر: مخطوطة الزَّهرة (ورقة ١٢٧)

أو فيها شبهُ السعي إلى الإلمام بالمعنى من طرفيه في قولها :

لَيْسَ مَيْتِي بِحَسْبِ مَنْ مَاتَ مِنَ النَّا سِ، وَلاَ كَانَ مِثْلَهُ فِي الحَيَاةِ

فلعلَّها منها.

٨

آخر ما نُسب إلى صفيَّة من مراثٍ يائيَّةٌ مطلعُها:

مَا لِعَيْنَيَّ لاَ تَجُودَانِ رَيَّا قَدْ رُزِينَا خَيْرَ البَرِيَّةِ حَيَّا

رواها ابن داود في «الزَّهرة»(١)، وأبو الحسن الإشبيليّ في «الذخائر والأعلاق (٢)»؛ لا تشبه شعر صفيَّة، ولا هي منسوجةٌ على منواله، وأظنُّ ظنًّا غالبًا قَرُب أن يكون يقينًا أنها قصيدةٌ موضوعة عليها، منحولة؛ لأسباب:

أنها لم يُسندها أحد ممن رواها أو روى بعضها بسند، ولا عزاها أحدٌ إلى أصلٍ، فهذا خارج القصيدة.

أمَّا القصيدة من داخلها، فليس فيها من خصائص شعر صفيَّة التي فُصِّل فيها آنفًا شيء، بل إن فيها ما يخالف طريقتها في الشعر، كالمبالغة التي لم تُعرف في مراثيها، وشتَّان ما بين توكيد الشيء والمبالغةِ فيه، وذلك هذا البيت:

إِنَّ يَوْمًا أَتَى عَلَيْكَ لَيَوْمٌ كُوِّرَتْ شَمْسُهُ وَكَانَ جَلِيًّا

---

(١) انظر: الزَّهرة ٥٠٨/٢

(٢) انظر: الذخائر والأعلاق، لأبي الحسن الإشبيلي ص٢٢٤.

وينال منها إيرادُها قصّةَ أذان بلال التي تروى في كتب السِّيَر، كأنما أراد الناظم زخرفة المرثية بتلك القصة الحزينة التي لا نعرف مدى ثبوتها، وكثيرًا ما يلجأ الوضَّاعون إلى السير يمدُّون بها في قصائدهم، وذلك هذا البيت:

يَوْمَ نَادَى إِلَى الصَّلاَةِ بِلاَلٌ فَبَكَيْنَا عِنْدَ النِّدَاءِ مَلِيَّا

ثم إن الناظم نسيَ أنه ينظم على لسان امرأة، كأنه كان يجهّز القصائد، ثم يدسُّها في الكتب مفرِّقًا إياها على أسماء شتَّى، وكأنه لم يُقدِّر أنَّ هذه المرثيةَ بعينها سيؤول نصيب افترائها إلى صفيَّة – رضي الله عنها – فغفل، ولم يفطِن إلى قوله بضمير المذكر :

لَمْ أَجِدْ قَبْلَهَا وَلَسْتُ بِلاَقٍ بَعْدَهَا غُصَّةً أَمَرَّ عَلَيَّا[1]

ولم يكن ذا علم بشعر الأوّلين، وزلَّ في مهواة المعاصرة، فلم يستطيع أن يخلّص قصيدته من تعابير المتأخرين في قوله:

لَيْتَ يَوْمِي يَكُونُ قَبْلَكَ يَوْمًا أَنْضَجَ القَلْبَ لِلْحَرَارِةِ كَيَّا !

وهذا معنى مُبتذَلٌ يستعمله العامَّةُ إلى يوم الناس هذا، وأكثر الوضَّاعين على غير علمٍ، فلا يكون وضعهم مشكلاً، لكنْ المشكلُ ما يكون من وضع العلماء.

ذلك ما أدَّى بنا إلى صرف القصيدة عن صفيَّة – رضي الله عنها، وأدَّى بالقصيدة إلى الخمول، وانطفاء جَذْوة الحزن التي رأيناها قبلُ في مراثيها وقَّادةً حيَّة.

* * *

(١) انظر: مراثي النبيّ ﷺ، للدكتور محمد أبو المجد ص٤٩-٥٠.

الفصل الثاني

تَوثِيقُ مَرَائِي طَائِفَةٍ مِنَ الصَّحابيَّات

رضِي الله عنهنَّ

المراثي

(٦٤)

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ: [من الكامل] *

١ مَـا فَـاضَ دَمْـعِي عِنْـدَ نَائِبَـةٍ إِلاَّ جَعَلْتُـكَ لِلْبُـكَا سَـبَبَا

٢ وَإِذَا ذَكَرْتُـكَ سَـامَحَتْكَ بِـهِ مِـنِّي الجُفُونُ فَفَاضَ الدَّمْعُ وَانْسَكَبَا

٣ إِنِّي أُجِـلُّ ثَـرًى حَلَلْـتَ بِـهِ عَـنْ أَنْ أُرَى بِسِـوَاهُ مُكْتَئِبَـا

* * *

---

* التخريج: جعلتُ مخطوطة أنوار العقول من أشعار وصيّ الرّسول (المكتبة البريطانية، ورقة ٦) أصلاً لهذه المقطّعة، وهي في تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص١٦٨، ١٦٩ (مكتبة نينوى الحديثة، طهران).

١. في تذكرة الخواص: «... عند نازلة ».

٢. في تذكرة الخواص: «... وانسكبا ».

٣. في تذكرة الخواص: « أنْ لا أرى بثراه... ».

(٦٥)

أُمُّ أَيْمَنَ: [من الخفيف]*

١ عَـيْنُ، جُـودِي؛ فَـإِنَّ بَذْلَـكِ لِلدَّمْـ ـعِ شِـفَاءٌ، فَأَكْـثِرِي مِلْبُـكَاءِ[1]
٢ حِـينَ قَالُـوا: الرَّسُـولُ أَمْـسَى فَقِيدًا مَيِّتًـا، كَانَ ذَاكِ كُلَّ البَـلاَءِ
٣ وَابْكِيَـا خَـيْرَ مَـنْ رُزِئْنَـاهُ فِي الدُّنْـ ـيَـا، وَمَـنْ خَصَّـهُ بِـوَحْيِ السَّـمَاءِ
٤ بِدُمُـوعٍ غَزِيـرَةٍ مِنْـكِ حَـتَّى يَقْـضِيَ اللهُ فِيـكِ خَـيْرَ القَضَـاءِ
٥ فَلَقَـدْ كَانَ مَـا عَلِمْـتُ وَصُـولاً وَلَقَـدْ جَـاءَ رَحْمَـةً بِالضِّيَـاءِ
٦ وَلَقَـدْ كَانَ بَعْـدَ ذَلِـكَ نُـورًا وَسِرَاجًـا يُـضِيءُ فِي الظَّلْمَـاءِ
٧ طَيِّـبَ العُـودِ، وَالضَّرِيبَـةِ، وَالمَعْـ ـدِنِ، والخِيـمِ، خَاتَـمَ الأَنْبِيَـاءِ

* * *

---

* التخريج: القصيدة في الطبقات الكبير ٢/٢٨٨؛ وفي مِنَح المِدَح ص٣٣٧، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٢) الأبيات: ٣-٥، ٧، ولكن محقق إمتاع الأسماع لم ينظر في المخطوطة، وأبى إلا أن ينقل الأبيات كما وردت في كتاب الطبقات (انظر: مطبوعته ٦٠٢/١٤)، ثم سها فنسبها لعاتكة بنت زيد اطمئنانًا للقصيدة التي قبلها!

---

(١) إسقاط نون «من» الجارّة قبل لام التعريف ذائعٌ في كلام العرب، كقول الشاعر:

لم يَشْجُ قلبي مِلْحوادثِ إلا صاحبي المتروكُ في تَغْلَمْ

(المفضّليات، للمفضّل بن محمد بن يعلى الضبّي ص٣٢٨ (تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٦).

(٦٦)

هِنْدُ بنتُ الحارثِ بْنِ عبد المُطَّلب: [من البسيط]*

١ يَا عَيْنُ، جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكِ، وَابْتَدِرِي ... كَمَا تَنَزَّلَ مَاءُ الغَيْثِ فَانْثَعَبَا[1]

٢ أَوْ فَيْضِ غَرْبٍ عَلَى عَادِيَّةٍ طُوِيَتْ ... فِي جَدْوَلٍ خَرِقٍ، بِالمَاءِ قَدْ سَرِبَا[2]

٣ لَقَدْ أَتَتْنِي مِنَ الأَنْبَاءِ مُعْضِلَةٌ ... أَنَّ ابْنَ آمِنَةَ المَأْمُونَ قَدْ ذَهَبَا

٤ أَنَّ المُبَارَكَ وَالمَيْمُونَ فِي جَدَثٍ ... قَدْ أَلْحَفُوهُ تُرَابَ الأَرْضِ والحَدَبَا[3]

٥ أَلَيْسَ أَوْسَطَكُمْ بَيْتًا وَأَكْرَمَكُمْ ... خَالاً وَعَمًّا كَرِيمًا لَيْسَ مُؤْتَشَبَا؟![4]

***

* التخريج: المقطّعة في الطبقات الكبير ٢/٢٨٧، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٣)، ومِنَح المِدَح ص٣٦١.

١. في مخطوطة الإمتاع: «... وانهمري *... وانثعبا». وفي منح المدح: «... وانهمري * كما ينزل... منسكبا».

٢. في منح المدح: «... قد شربا» بالشين المثلَّثة المعجمة، تصحيف.

٤. في مخطوطة الإمتاع، ومنح المدح: «... والمأمون في جدث».

---

(١) ابتدري: أي سيلي بالدموع (اللسان: بدر). وانثعبا: سال وجرى بشدة (اللسان: ثعب).

(٢) الغرب: الرواية التي يحمل عليها الماء، والدلو العظيمة (اللسان: غرب). والعاديَّة: البئر القديمة (اللسان: عود). وطويت: أي البئر المطوية بالحجارة (اللسان: طوي). والجدول الخرق: المشقوق (اللسان: خرق).

(٣) الميمون: المبارك (اللسان: يمن). والحدب: الغليظ من الأرض في ارتفاع (اللسان: حدب).

(٤) النسب المؤتشب: المختلط غير الصريح (أساس البلاغة: أشب).

(٦٧)

هِنْدُ بنتُ أُثَاثَة: [من الوافر] *

١ أَلاَ يَا عَيْنُ، بَكِّي، لاَ تَمَلِّي فَقَدْ بَكَرَ النَّعِيُّ بِمَنْ هَوِيتُ
٢ وَقَدْ بَكَرَ النَّعِيُّ بِخَيْرِ شَخْصٍ رَسُولِ اللهِ حَقًّا مَا حَيِيتُ
٣ وَلَوْ عِشْنَا، وَنَحْنُ نَرَاكَ فِينَا وَأَمْرُ اللهِ يُتْرَكُ، مَا بَكِيتُ
٤ فَقَدْ بَكَرَ النَّعِيُّ بِذَاكَ عَمْدًا فَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَةُ مَنْ نُعِيتُ
٥ وَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُهُ، وَجَلَّتْ وَكُلَّ الجُهْدِ بَعْدَكَ قَدْ لَقِيتُ
٦ إِلَى رَبِّ البَرِيَّةِ ذَاكَ نَشْكُو فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا أُتِيتُ
٧ أَفَاطِمُ، إِنَّهُ قَدْ هَدَّ رُكْنِي وَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَةُ مَنْ رُزِيتُ

* * *

* التخريج: القصيدة في الطبقات الكبير ٢/٢٨٧، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٢٧).

٦. في مخطوطة الإمتاع: «... ذاك أشكو».

(٦٨)

هِنْدُ بنتُ أُثَاثَة: [من الوافر]*

١ أَشَابَ ذُؤَابَتِي، وَأَذَلَّ رُكْنِي ... بُكَاؤُكِ، فَاطِمَ، المَيْتَ الفَقِيدَا(١)
٢ فَأَعْطَيْتَ العَطَاءَ فَلَمْ تُكَدِّرْ ... وَأَخْدَمْتَ الوَلَائِدَ وَالعَبِيدَا(٢)
٣ وَكُنْتَ مَلَاذَنَا فِي كُلِّ لَزْبٍ ... إِذَا هَبَّتْ شَآمِيَةٌ بَرُودَا(٣)
٤ وَإِنَّكَ خَيْرُ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ... وَأَكْرَمُهُمْ، إِذَا نُسِبُوا، جُدُودَا
٥ رَسُولُ اللهِ فَارَقَنَا، وَكُنَّا ... نُرَجِّي أَنْ يَكُونَ لَنَا خُلُودَا
٦ أَفَاطِمُ، فَاصْبِرِي؛ فَلَقَدْ أَصَابَتْ ... رَزِيئَتُكِ التَّهَائِمَ وَالنُّجُودَا
٧ وَأَهْلَ البَرِّ وَالأَبْحَارِ طُرًّا ... فَلَمْ تُخْطِئْ مُصِيبَتُهُ وَحِيدَا
٨ وَكَانَ الخَيْرُ يُصْبِحُ فِي ذُرَاهُ ... سَعِيدُ الجَدِّ قَدْ وَلَدَ السُّعُودَا
٩ [فَمُوتِي إِنْ قَدَرْتِ بِأَنْ تَمُوتِي ... فَقَدْتِ الطَّيِّبَ الرَّجُلَ المَجِيدَا]
١٠ [رَسُولَ اللهِ خَيْرَ النَّاسِ حَقًّا ... فَلَسْتُ أَرَى لَهُ أَبَدًا نَدِيدَا]

***

* التخريج: جعلتُ الطبقات الكبير ٢/٢٨٧ أصلاً لهذه القصيدة؛ وهي في سبل الهدى والرشاد ١٢/٢٨٦، ٢٨٧؛ وفي نهاية الأرب ١٨/٤٠٦، ومِنَح المِدَح ص٣٦٢، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة (١٨٢٧) الأبيات: ١-٨؛ وفي الذخائر والأعلاق للإشبيلي ص٢٢٤ الأبيات: ٦، ٧، ٤، ٨، ٩، ١٠.

١. في نهاية الأرب: «... وأذاب ركني».
٣. في منح المدح: «... كل كرب».
٤. في الذخائر: «ألم يك خير».
٦. في الذخائر: «مصيبتك التهائم...».
٨. في الذخائر: «وكان المجد...».
٩. البيت زائد في الذخائر، وسبل الهدى. وفي السبل: «... إن قدرت أن تموتي».
١٠. البيت زائد في الذخائر، وسبل الهدى.

---

(١) الذؤابة: الشعر المضفَّر من الرأس (تاج العروس: ذاب). والركن من الشيء: جانبه القوي، وما يُتقوَّى به (اللسان: ركن).
(٢) الولائد: الشوابُّ من الجواري (اللسان: ولد).
(٣) اللَّزْب: الشدة والقحط (اللسان: لزب).

(٦٩)

عاتِكةُ بنتُ عبدِ المطلب: [من الطويل] *

١ يَـا عَيْنُ، جُـودِي، مَـا بقِيـتِ، بِعَبْرَةٍ سَـحًّا عَلَى خَـيْرِ البَرِيَّـةِ أَحْمَـدِ
٢ يَا عَيْنُ، فَاحْتَفِلِي، وَسُـحِّي، وَاسْجُمِي وَابْكِـي عَلَى نُـورِ البِـلاَدِ مُحَمَّـدِ(١)
٣ أَنَّي، لَـكِ الوَيْـلاتُ، مِثْـلُ مُحَمَّـدِ فِي كُلِّ نَائِبَـةٍ تَنُـوبُ، وَمَشْـهَدِ !
٤ فَابكِـي المُبَـارَكَ وَالمُوَفَّقَ ذَا التُّقَى حَـامِي الحَقِيقَةِ، ذَا الرَّشَـادِ المُرْشِـدِ
٥ مَـنْ ذَا يَفُـكُّ عَـنِ المُغَلَّـلِ غُلَّـهُ بَعْـد المُغَيَّـبِ فِي الضَّرِيـحِ المُلْحَـدِ
٦ أَمْ مَـنْ لِـكُلِّ مُدَفَّـعٍ ذِي حَاجَـةٍ وَمُسَلْسَـلٍ يَشْـكُو الحَدِيـدَ، مُقَيَّـدِ
٧ أَمْ مَـنْ لِـوَحْيِ اللهِ يُـتْرَكُ بَيْنَنَـا فِي كُلِّ مَمْـسَى لَيْلَـةٍ، أَوْ فِي غَـدِ
٨ فَعلَيْـكَ رَحْمَـةُ رَبِّنَـا وَسَـلامُهُ يَـا ذا الفَوَاضِـلِ، وَالنَّدَى، وَالسُّـؤْدَدِ
٩ هَـلاَّ فَـدَاكَ المَـوْتَ كُلُّ مُلَعَّـنٍ شَـكْسٍ خَلاَئِقُـهُ، لَئِيـمِ المَحْتَـدِ

***

* التخريج: القصيدة في الطبقات الكبير ٢/٢٨٣-٢٨٤، وسبل الهدى والرشاد ١٢/٢٨٣-٢٨٤ وفي نهاية الأرب ١٨/٤٠٥-٤٠٦ الأبيات: ١-٨.

(١) سحَّ الماء: صبَّه صبًّا متتابعًا (اللسان: سحح).

(٧٠)

فَاطِمةُ الزَّهْرَاء: [من مجزوء الكامل] *

كُنْتَ السَّوَادَ لِنَاظِرِي فَعَمِي عَلَيَّ النَّاظِرُ
مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلْيَمُتْ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أُحَاذِرُ

***

* التخريج: البيتان في مناقب آل أبي طالب ١٣١/١، وهي منسوبة في مخطوطة أنوار العقول (المكتبة البريطانية، ورقة ٢٠) لعليّ أو لفاطمة.

(٧١)

أُمُّ رَعْلَةَ: [من البسيط] *

١ يَـا دَارَ فَاطِمَـةَ المَعْمُـورُ سَـاحَتُهَا هَيَّجْـتِ لِي حُزْنًـا، حُيِّيـتِ مِـنْ دَارِ

***

* التخريج: البيت في الإصابة ٨/٢٠٤.

(٧٢)

عَاتِكةُ بنتُ عبدِ المطلب: [من البسيط]*

١ عَيْنَيَّ، جُـودَا طَوَالَ الدَّهْـرِ، وَانْهَمِرَا سَـكْبًا وَسَـحًّا بِدَمْـعٍ غَـيْرِ تَعْذِيرِ(١)
٢ يَا عَيْنُ، فَاسْحَنْفِرِي بِالدَّمْعِ وَاحْتَفِلِي حَتَّى المَمَاتِ بِسَـجْلٍ غَـيْرِ مَنْزُورِ(٢)
٣ يَـا عَيْنُ، فَانْهَمِلِي بِالدَّمْـعِ وَاجْتَهِدِي لِلْمُصْطَـفَى، دُونَ خَلْـقِ اللهِ، بِالنُّورِ
٤ بِمُسْـتَهَلٍّ مِـنَ الشُّـؤْبُوبِ ذِي سَـبَلٍ فَقَـدْ رُزِئْـتُ نَـبِيَّ العَـدْلِ وَالخِيرِ(٣)
٥ وَكُنْـتُ مِـنْ حَـذَرٍ لِلْمَوْتِ مُشْـفِقَةً وَلِـلَّذِي خُـطَّ فِي تِلْـكَ المَقَادِيـرِ
٦ مِنْ فَقْدِ أَزْهَرَ، ضَافِي الخُلْقِ، ذِي فَخَرٍ صَافٍ مِـنَ العَيْـبِ وَالعَاهَاتِ وَالزُّورِ
٧ فَاذْهَـبْ حَمِيـدًا، جَـزَاكَ اللهُ مَغْفِرَةً يَـوْمَ القِيَامَـةِ عِنْدَ النَّفْـخِ فِي الصُّورِ

***

* التخريج: القصيدة في الطبقات الكبير ٢/٢٨٢، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ٧٢٨١، ٨٢٨١)، وسبل الهدى والرشاد ٢١/٩٧٢.
٥. في سبل الهدى: «والذي خط...» تصحيف.

---

(١) التعذير: التقصير (اللسان: عذر).
(٢) المنـزور: القليل (تاج العروس: نزر).
(٣) الخِير: بكسر الخاء: الكرم (اللسان: خير).

(٧٣)

فاطِمَةُ الزَّهْرَاء: [من الكامل] *

١ أَمْسَى بِخَدِّي لِلدُّمُوعِ رُسُومُ أَسَفًا عَلَيْكَ، وَفِي الفُؤَادِ كُلُومُ

٢ وَالصَّبْرُ يَحْسُنُ فِي المَوَاقِفِ كُلِّهَا إِلاَّ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومُ

٣ لاَ عَيْبَ فِي حُزْنِي عَلَيْكَ لَوَ انَّه كَانَ البُكَاءُ لِمُقْلَتَيَّ يَدُومُ

***

* التخريج: المقطّعة منسوبة لفاطمة عليها السلام في الشريعة للآجُرّي ٢/٣٧٨، ونسب البيت الثاني إلى بعض الأنصار في الذخائر والأعلاق للإشبيلي ص٢٢٣.

(٧٤)

عاتِكَةُ بنتُ عَبدِ المطلب: [من الطويل] *

١ أَعَيْنَيَّ، جُودَا بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ عَلَى المُصْطَفَى بِالنُّورِ مِنْ آلِ هَاشِمِ
٢ عَلَى المُصْطَفَى بِالحَقِّ والنُّورِ وَالهُدَى وَبِالرُّشْدِ بَعْدَ المُنْدَبَاتِ العَظَائِمِ
٣ وسُحَّا عَلَيْهِ، وَابكِيَا، مَا بَكَيْتُمَا عَلَى المُرْتَضَى لِلْمُحْكَمَاتِ العَزَائِمِ
٤ عَلَى المُرْتَضَى لِلْبِرِّ وَالعَدْلِ وَالتُّقَى وَلِلدِّينِ وَالإِسْلاَمِ بَعْدَ المَظَالِمِ
٥ عَلَى الطَّاهِرِ المَيْمُونِ ذِي الحِلْمِ وَالنَّدَى وَذِي الفَضْلِ، وَالدَّاعِي لِخَيْرِ التَّرَاحُمِ
٦ أَعَيْنَيَّ مَاذَا، بَعْدَمَا قَدْ فُجِعْتُمَا بِهِ، تَبْكِيَانِ الدَّهْرَ مِنْ وُلْدِ آدَمِ ؟
٧ فَجُودَا بِسَجْلٍ، وَانْدُبَا كُلَّ شَارِقٍ رَبِيعَ اليَتَامَى فِي السِّنِينَ البَوَازِمِ[1]

* * *

* التخريج: القصيدة في الطبقات الكبير ٢/٢٨٤، وسبل الهدى والرشاد ١٢/٢٨٤.

---

(١) البوازم: الشدائد (اللسان: بزم).

(٧٥)

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاء: [من الكامل] *

١ اغْبَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ، وَكُوِّرَتْ ... شَمْسُ النَّهَارِ، وَأَظْلَمَ العَصْرَانِ

٢ فَالأَرْضُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ حَزِينَةٌ ... تَبْكِي عَلَيْهِ كَثِيرَةُ الرَّجَفَانِ

٣ فَلْيَبْكِهِ شَرْقُ البِلَادِ وَغَرْبُهَا ... وَلْيَبْكِهِ مُضَرٌ وَكُلُّ يَمَانِ

٤ وَلْيَبْكِهِ الطَّوْدُ المُعَظَّمُ جَوُّهُ ... وَلْيَبْكِهِ بَيْتٌ مَعَ الأَرْكَانِ

٥ نَفْسِي فِدَاؤُكَ، مَا لِرَأْسِكَ مَائِلاً ... وَوَسَّدُوكَ وِسَادَةَ الوَسْنَانِ

٦ يَا خَاتَمَ الرُّسْلِ المُبَارَكَ صِنْوُهُ ... صَلَّى عَلَيْكِ مُنَزِّلُ الفُرْقَانِ

* * *

* التخريج: جعلتُ سلوة الكئيب لابن ناصر الدين ص١٦٤-١٦٥ أصلاً لهذه المقطّعة؛ وهي في الروض الأنف ٥٩٤/٧، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٢)، ونهاية الأرب ٤٠٣/١٨-٤٠٤، والاكتفا ٦١/٢، والحماسة المغربية ٧٨٥/٢، والعمدة لابن رشيق ١٥٣/٢، وزهر الآداب للحصري ٧٠/١ (تفصيل وضبط الدكتور زكي مبارك، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٤)؛ وفي مِنَح المِدَح ص٣٥٨ الأبيات: ١-٤، ٦؛ وفي المواهب اللدنية بشرح الزرقاني ٢٩٣/٣ الأبيات: ١-٣.

٢. في منح المدح: « الأرض... كئيبة * أسفًا... ». وفي نهاية الأرب: « والأرض... كئيبة * أسفا... ». وفي الاكتفا، والحماسة المغربية: « ... كئيبة * أسفًا... ».

٣. في منح المدح، والاكتفا، والحماسة المغربية: « ولتبكه مضر... ». وفي نهاية الأرب: « فلتبكه... * ولتبكه... ».

٤. في نهاية الأرب، ومنح المدح، والاكتفا، والحماسة المغربية: « والبيت ذو الأستار والأركان ».

٥. في نهاية الأرب: « ما وسدوك... ».

٦. في منح المدح، والحماسة المغربية: « ... المبارك ضوؤه ». وفي الاكتفا: « ... ضنه » تصحيف.

(٧٦)

أَرْوَى بنتُ عبدِ المطلب: [من الوافر]*

١ أَلاَ يَا عَيْنُ، وَيْحَكِ، أَسْعِدِينِي   بِدَمْعِكِ، مَا بَقِيتُ، وَطَاوِعِينِي
٢ أَلاَ يَا عَيْنُ، وَيْحَكِ، وَاسْتَهِلِّي   عَلَى نُورِ البِلاَدِ، وَأَسْعِدِينِي[١]
٣ فَإِنْ عَذَلَتْكِ عَاذِلَةٌ فَقُولِي: عَلاَمَ، وَفِيمَ، وَيْحَكِ، تَعْذِلِينِي ؟[٢]
٤ عَلَى نُورِ البِلاَدِ، مَعًا، جَمِيعًا   رَسُولِ اللهِ أَحْمَدَ ؟! فَاتْرُكِينِي
٥ فَإِلاَّ تُقْصِرِي بِالعَذْلِ عَنِّي   فَلُومِي مَا بَدَا لَكِ، أَوْ دَعِينِي؛
٦ لأَمْرٍ هَدَّنِي وَأَذَلَّ رُكْنِي   وَشَيَّبَ بَعْدَ جِدَّتِهَا قُرُونِي[٣]

***

* التخريج: المقطّعة في الطبقات الكبير ٢/٢٨٢، ونهاية الأرب ١٨/٤٠٥، وسبل الهدى والرشاد ١٢/٢٨٤، وهي مما أقحمه النميسي في مطبوعته لإمتاع الأسماع ١٤/٥٩٦، ٥٩٧، وليست من الإمتاع في شيء !

(١) الهَلَل: أول المطر. يقال: استهلّت السماء، وذلك في أول مطرها (الصحاح: هلل).

(٢) العذل: اللوم (اللسان: عذل).

(٣) القرون: جمع قرْن، وهو ذؤابة المرأة وضفيرتها (اللسان: قرن).

(٧٧)

عاتِكةُ بنتُ زَيْدِ بْنِ عمرِو بنِ نُفَيل: [من المتقارب]*

١ أَمْسَتْ مَرَاكِبُهُ أَوْحَشَتْ ... وَقَدْ كَانَ يَرْكَبُهَا زَيْنُهَا

٢ وَأَمْسَتْ تُبَكِّي عَلَى سَيِّدٍ ... تُرَدِّدُ عَبْرَتَهَا عَيْنُهَا

٣ وَأَمْسَتْ نِسَاؤُكَ مَا تَسْتَفِيقُ ... مِنَ الحُزْنِ يَعْتَادُهَا دِينُهَا(١)

٤ وَأَمْسَتْ شَوَاحِبَ مِثْلَ النِّصَا ... لِ قَدْ عُطِّلَتْ، وَكَبَا لَوْنُهَا(٢)

٥ يُعَالِجْنَ حُزْنًا بَعِيدَ الذَّهَابِ ... وَفِي الصَّدْرِ مُكْتَنِعٌ حَيْنُهَا(٣)

٦ يُضَرِّبْنَ بِالكَفِّ حُرَّ الوُجُوهِ ... عَلَى مِثْلِهِ جَادَهَا شُونُهَا

٧ هُوَ الفَاضِلُ السَّيِّدُ المُصْطَفَى ... عَلَى الحَقِّ مُجْتَمِعٌ دِينُهَا

٨ فَكَيْفَ حَيَاتِي بَعْدَ الرَّسُولِ ... وَقَدْ حَانَ مِنْ مِيتَةٍ حِينُهَا

* * *

---

* التخريج: القصيدة في الطبقات الكبير ٢/٢٨٨؛ وفي منح المدح ص٢٥٤ الأبيات: ١-٥، ٨.

١. في منح المدح: «فأمست... ».

٤. في منح المدح: «... وقد... » تحريف.

---

(١) الدين: العادة (اللسان: ددن).

(٢) كبا الزَّند: إذا لم يخرج ناره (اللسان: كبا)، والمقصود تبدُّل الحال وتغيرها.

(٣) المكتنع: المنقبض المتشنج (اللسان: كنع)

(٧٨)

فاطِمَةُ الزَّهْرَاء: [من الكامل] *

١ مَـاذَا عَلَى مَـنْ شَـمَّ تُرْبَـةَ أَحْمَـدٍ ... أَنْ لاَ يَشُـمَّ مَـدَى الزَّمَـانِ غَوَالِيَـا

٢ صُبَّـتْ عَـلَيَّ مَصَائِـبٌ لَـوْ أَنَّهَـا ... صُبَّـتْ عَلَى الأَيَّـامِ صِرْنَ لَيَالِيَـا

***

* التخريج: البيتان في الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ص٨١٩ (تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت)، ومخطوطة السيرة النبوية للكازروني (ورقة ١٦٨)، وسلوة الكئيب بوفاة الحبيب لابن ناصر الدين الدمشقي ص١٩١، وتاريخ الخميس ٧٣/٢، والدرة الثمينة لابن النجار ص٢٠٥ (تحقيق محمد زينهم عزب، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد)، ونهاية الأرب ٤٠٣/١٨، ومخطوطة إمتاع الأسماع (ورقة ١٨٣٢)، وإتحاف السائل بما لفاطمة من المناقب للمناوي ص١٠٣ (تحقيق عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة)، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٣٤/٢.

٢. في مخطوطة إمتاع الأسماع، وسير أعلام النبلاء: «... عدن لياليا».

تَوثِيقُ مَرَاثِي طَائِفَةٍ مِنَ الصَّحابيَّات
رضِي الله عنهن

١

أَرْوَى بنتُ عَبدِ المطَّلب:

لأروى مرثيتان، قطعنا بنسبة إحداهما إلى صفيَّة، وهي قولُها [١]:

أَلاَ يَا رَسُولَ اللهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا وَكُنْتَ بِنَا بَرًّا وَلَمْ تَكُ جَافِيَا

والثانية أخرجها ابن سعد في «الطبقات الكبير» فقال: « وفيها أنشدنا الواقديُّ: قالت أروى بنتُ عبد المطلب ترثي رسول الله ﷺ:

أَلاَ يَا عَيْنُ وَيْحَكِ أَسْعِدِينِي بِدَمْعِكِ مَا بَقِيتُ، وَطَاوِعِينِي »

ستة أبيات [٢].

وقبل الخوض في توثيق هذه المرثية يلزمنا الجوابُ عن سؤالٍ أساسٍ للبحث: هل أسلمت أروى بنتُ عبد المطلب؟ ومتى ماتت؟ فإنها إن لم تكن أسلمت، أو كانت ماتت قبل موت النبيِّ ﷺ؛ بطلت نسبةُ المرثية إليها.

---

(١) انظر ص٣٠٣ من هذا الكتاب.

(٢) الطبقات الكبير ٢/٢٨٢.

قـال ابن الأثـير: « أروى بنت عبد المطلب بن هاشـم... عمّة رسـول الله ﷺ، ذكرها أبو جعفر في الصحابة... وخالفه غيرُه؛ فأمّا ابن إسـحاق ومَنْ وَافقهُ فقالوا: لم يُسـلم من عمّات النـبيّ ﷺ غـيرُ صفيَّة أمِّ الزبير. وقال غيرُ هؤلاء: أسـلم من عمات النبيّ ﷺ صفيَّة وأروى. وقـال محمـد بن إبراهيم بـن الحارث التيميُّ: لما أسـلم طُليبُ بن عُمير دخـل على أمِّه أروى بنت عبد المطلب فقال لها: أسَـلمتُ وتبعتُ محمـدًا، وذكر الحديث، وقال لها: ما يمنعُك أن تسلمي وتتَّبعيه فقد أسلم أخوك حمزة؟ قالت: أنظر ما تصنع أخواتي، ثم أكون مثلَهن. قال: فقلت: إني أسألكِ بالله إلا أتيتِه، وسلَّمتِ عليه، وصدَّقْتِهِ، وشهدتِ أنْ لا إله إلا الله. فقالت: فـإني أشـهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسـولُ الله. ثم كانت بعـد تعضُد النبيّ ﷺ، وتعينُه بلسانها، وتحُضُّ ابنَها على نُصرته والقيامِ بأمره » [1].

ثم قال ابن الأثير معقِّبًا: « ولم يصح من إسلام عماته إلا صفيَّة [2] ». كأنه لا يرى صحَّة حديث طُلَيب.

وحديـث طُليـبٍ هذا من روايـة الواقديّ، عن مـوسى بن محمد بن إبراهيـم بن الحارث التيمي، عن أبيه. وموسى ضعيف الحديث [3]، ولعلَّ ابن سعد رأى الحديث حُجَّةً حين قال: أسلمت أروى بنت عبد المطلب بمكة، وهاجرت إلى المدينة [4].

بيد أنَّ الذهبيَّ ذهب إلى أنها لم تُسْـلِم، واحتجَّ بقوله: « لم يسـمع لها ذكرٌ بعدُ، ولا وجدنا لهـا روايـة [5]»، والذهـبيّ ناقدٌ نِحريـر مُدَقِّق، ولقـد قال - وقـولُه موافقٌ قولَ ابن إسـحاق: « والصحيح أنه ما أسلم من عمَّات النبيّ ﷺ سواها » يعني صفيَّة [6].

(١) أسد الغابة ٦/٧.
(٢) المصدر السابق، الموضع نفسه.
(٣) انظر: تهذيب الكمال، للمزّي ١٤١/٢٩.
(٤) انظر: الطبقات الكبير ٤٢/١٠.
(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي ٢٧٢/٢.
(٦) سير أعلام النبلاء ٢٧٠/٢.

وإذا كان القولُ بإسلام أروى صعبًا لما رأيت، فإنَّ القول في تأريخ وفاتها أصعب؛ لأنه ما من خبرٍ نعلمه يهدينا إلى ذلك.

وشعر أروى أصلاً مختلَفٌ فيه على قِلَّته، فبينا يُثبتُ مصعب بن الزبير لها قولَها في ابنها طُليبٍ:

إنَّ طُلَيْبًا نَصَرَا ابْنَ خَالِهِ آسَاهُ فِي ذِي دَمِهِ وَمَالِهِ »[1]

بينا يُثبت ذلك تحوم الشكوك حول شعر لها ولأخواتها في رثاء أبيهنّ عبد المطلب، « قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن سعيد بن المسيب أن عبد المطلب لمَّا حضرته الوفاةُ، وعرَف أنه ميّتٌ؛ جمع بناتِه، وكنَّ ستَّ نسوةٍ... فقال لهن: ابكين عليَّ حتى أسمعَ ما تقلْن قبل أن أموت. قال ابنُ هشام: ولم أرَ أحدًا من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر، إلا أنه لمَّا رواه عن محمد ابن سعيد بن المسيب؛ كتبناه... [وفيه:] وقالت أروى بنتُ عبد المطلب تبكي أباها:

بَكَتْ عَيْنِي وَحُقَّ لَهَا البُكَاءُ عَلَى سَمْحٍ سَجِيَّتُهُ الحَيَاءُ »[2]

وإذا كان ابن هشام قد ارتاب في الخبر أو ضعَّفه وحسب، فإن أديبًا ذَرِبَ اللسان هو أبو حيَّان التوحيديُّ المتوفى سنة أربع عشرة وأربعمئة؛ قال ساخرًا: « قدم محمدُ بن إسحاق البصرة، فكان فتيانُها يضعون له المراثيَ لبنات عبد المطلب، فيصلُها هو بالسِّيَر والغَزَوات ». قلت: لم يكن ابن إسحاقَ على هذه الصورة الشنيعة التي رمى إليها التوحيديُّ، وقد تقدَّم القول مفصَّلاً في ابن إسحاق في مراثي اليمنيّين. ولم يكن محمد بنُ سعيد رجلاً قليل الشأن[3]. وأنا لست أريد إلى تصحيح هذا الخبر وقبوله، ولكن أردت الإنباه هنا إلى مغبَّة

---

(١) كتاب نسب قريش، لمصعب بن الزبير ص٢٠.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ١/١٦٩-١٧٣، وانظر أيضًا: قطعةٌ باقيةٌ من سيرة ابن إسحاق ص٤٦ (تحقيق محمد حميد الله).

(٣) البصائر والذخائر، للتوحيدي، أبي حيَّان علي بن محمد بن العباس ٦/٢٢٤ (تحقيق الدكتورة وداد القاضي، دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ).

بعض القول، ولقد شكَّ ابنُ إسحاقَ نفسُه في شيء من هذا الخبر، ونقل شكَّه ابنُ هشام في آخر القصائد فقال[١]: « قال ابنُ إسحاق: فزعم لي محمد بن سعيد بن المسيب أنه أشار برأسه وقد أصمت: أن هكذا فابكيني »[٢]، وكأن ابن إسحاق يقول: إنما العهدة على محمد بن سعيد بن المسيب، وأنا راوٍ لا غير.

نعود فنقول: لعلَّ أروى قالت شيئًا من الشعر، ولكنا لا نعرف لها شعرًا يصلُح لقياس المرثية عليه، فآب بنا الحديثُ إلى انقطاع المرثية عن أروى متنًا كما انقطعت عنها إسنادًا.

أكَّدَ هذا الانقطاعَ شيءٌ جديدٌ، ذلك أنَّه عند تدبُّر المرثية تجدها أشبهت مراثيَ صفيَّة بنت عبد المطلب؛ فالفاءات فاءاتُ صفيَّة:

(فَـ)ـإِنْ عَذَلَتْكِ عَاذِلَـةٌ (فَـ)ـقُولِي ... عَـلاَمَ وَفِيـمَ، وَيْحَـكِ، تَعْذِلِيـنِي ؟
عَلَى نُـورِ البِـلاَدِ مَعًـا جَمِيعًـا ... رَسُـولِ اللهِ أَحْمَـدَ ؟ (فَـ)ـاتْرُكِيـنِي
(فَـ)ـإِلاَّ تُقْـصِرِي بِالعَـذْلِ عَـنِّي ... (فَـ)ـلُـومِي مَـا بَـدَا لَـكِ أَوْ دَعِينِي

فقد رأينا هنا التوكيد - توكيدَ صفيَّة كما خبرنا - في لفظتي « معًا، جميعًا »، زد على ذلك أن ابن سعدٍ وَهِمَ في نسبة المرثية الأخرى التي نسبها لأروى، وقطعتْ دراستُها بنسبتها إلى صفيَّة، وهي قولها:

أَلاَ يَـا رَسُـولَ اللهِ كُنْـتَ رَجَاءَنَـا ... وَكُنْـتَ بِنَـا بَـرًّا وَلَـمْ تَـكُ جَافِيَا[٣]

فلا بأس أن يكون وَهِمَ في هذه أيضًا.

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ١/١٧٣.

(٢) انظر: ترجمته في: الثقات، لابن حبَّان، محمد بن حبَّان بن أحمد التميمي ٧/٤٢١ (تحقيق السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، ط١/١٣٩٥هـ).

(٣) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٢، وانظر ص٣٠٣ من هذه الدراسة.

٢

أُمُّ أَيْمَنَ:

هذه الكُنية تطلق على امرأتين من الصحابة، كلتاهما من الحبشة، وكلتاهما اسمها أُمُّ أيمن، إحداهما مولاةُ أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، كانت تخدمها مهاجَرها إلى الحبشة، ثم قدمت بها مكة[1]؛ والأخرى صاحبة المرثية مولاة النبيّ ﷺ وحاضنتُه، وهي أمُّ أسامة بن زيد، اسمُها بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن بن مالك، كانت لأمّ الرّسول ﷺ، وقيل: كانت لأخت خديجة فوهبتها للنبي. ويروى عنها أنها بعدما توفي النبيُّ ﷺ بكت، فقيل لها، فقالت: إنما أبكي الوحيَ الذي انقطع عنّا من السماء. ماتت - رضي الله تعالى عنها - في خلافة عثمان، وقيل: بعد وفاة النبيّ ﷺ بخمسة أشهر[2].

قال ابن سعد: وقالت أمُّ أيمن ترثي النبيَّ ﷺ:

عَيْنُ جُودِي فَإِنَّ بَذْلَكِ لِلدَّمْـ ـعِ شِفَاءٌ فَأَكْثِرِي مِلْبُكَاءِ

سبعة أبيات[3]. لم ندر عن أحدٍ رواها إلا ابن سعد، وكأنه رواها عن الواقديّ؛ لأنه جعلها في دَرَج مراثٍ أُخَر عنه.

لم تكن أمُّ أيمن شاعرة، ولا نعرف من شعر عُزي إليها غيرَ هذه القصيدة، بل إن ابنَ سعد نفسه رَوى من الأخبار ما قد ينفي هذه القصيدة عنها نفيًا.

فقد أخبر عن سفيان عن جعفر عن أبيه قال: كانت أمُّ أيمن إذا دخلت على النبيّ ﷺ قالت: سلام لاَ عليكم [أي سلام الله عليكم]، فرخّص لها النبيُّ ﷺ أن تقول: السلام[4].

---

(١) انظر: الإصابة ٧/٥٣١.

(٢) انظر: المصدر السابق ٨/١٦٩-١٧٢.

(٣) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٨.

(٤) انظر: الطبقات الكبير ١٠/٢١٤.

وعنه قال: أخبرنا محمد بن عمر، عن عائذ بن يحيى، عن أبي الحويرث أنَّ أمَّ أيمن قالت يوم حُنين: سبَّت اللهُ أقدامَكم[١]. فقال النبيّ ﷺ: « اسكتي يا أمَّ أيمن؛ فإنك عَسْراءُ اللسان »[٢].

وهذه الأخبار إن صدقت كانت كافيةً لإبطال نسبة المرثية إلى أمّ أيمن، ونحن نكاد نجزم بذلك، يُسعفنا إلى جزمنا أن الأحباشَ لم تكن لهم معرفةٌ بالشعر، وكانت الناسُ تقول: نُصَيبٌ أشعر الحبشة، يستشهدون به على جواز استعمال (أفعل) التي للتفضيل بمعنى اسم الفاعل إذا انفرد بالوصف من غير مشارك؛ فقولهم: « نُصيبٌ أشعر الحبشة، أي شاعرهم؛ إذ لا شاعر فيهم غيرُه »[٣].

٣

أُمُّ رَغْلَة:

ذكرها ابنُ حجر في القسم الأول من أقسام كتابه «الإصابة»[٤]، وذكر لها بيتًا واحدًا في رثاء النبيّ ﷺ هو قولها :

يَا دَارَ فَاطِمَةَ المَعْمُورُ سَاحَتُهَا هَيَّجْتِ لِي حُزْنًا، حُيِّيتِ مِنْ دَارِ[٥]

وترجمها ابن الأثير في «أسد الغابة» بأمّ رَغْلَة فقال: « أوردها أبو جعفر المستغفريُّ، روى

---

(١) سبت: المُسْبَتُ الجامد الذي لا يتحرك (اللسان: سبت).

(٢) الطبقات الكبير ٢١٤/١٠.

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تصنيف أحمد بن محمد بن علي الفيومي ٧٠٩/٢ (المكتبة العلمية، بيروت).

(٤) انظر بيان تقسيم ابنُ حجر لكتابه في ص٢١٢ من هذه الدراسة.

(٥) انظر: الإصابة ٢٠٤/٨.

بإسنادٍ ضعيف عن الأوزاعي، عن عطاء، عن ابن عباس قال: وفدت إلى النبيّ ﷺ امرأةٌ يقال لها: أمُّ رَعلة القشيريّة... »[١].

وسمَّاها ابن حجر «رَعْلة» وقال: لها حديثٌ أورده المستغفريُّ من طريق، وأبو موسى من طريق آخر، كلاهما من حديث ابن عباسٍ أن امرأةً يقال لها: رَعْلة القُشيرية وفدت على النبيّ ﷺ، وكانت امرأةً ذاتَ لسانٍ وفصاحة، فقالت: السلام عليك يا رسول الله... قال: ثم غابت حياة رسول الله ﷺ، وأقبلت في أيام الردَّة، فذكر لها قصةً في الحزن على النبيّ ﷺ وَتَطْوافَها بالحسن والحسين أزقَّةَ المدينة تبكي عليه، وأنشد لها مرثية منها:

يَا دَارَ فَاطِمَةَ المَعْمُورُ سَاحَتُهَا   هَيَّجْتِ لِي حُزْنًا، حُيِّيتِ مِنْ دَارِ

قال ابن حجر: قال أبو موسى بعد سياقه هذا الإسناد: لا يحتمل هذا، والحمل فيه على أبي القاسم جعفر بن محمد بن إبراهيم السرندسي؛ فإنه غير مشهورٍ ولا هو مذكورٌ في رجال أصبهان. ثم ساق من طريق عبد الله بن محمد البلوي، عن عمارة بن زيد، عن إبراهيم ابن سعد، عن ابن إسحاق، عن يحيى بن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن أبيه، عن ابن عباسٍ... فذكر نحوه. وقال في آخر الحديث: فهاجتِ المدينة مَأْتمًا، فلم يبق دارٌ من دور الأنصار إلا وأهلُها يبكون. قال أبو موسى: هذا الإسناد أليق بهذا الحديث، يعني لشهرة البَلَويِّ بالكذب، والله أعلم[٢].

فهذا البيت من أبياتٍ كما قال ابن حجر؛ لا نعلم عددَها.

وإذا كان الحديث ضعيفًا من طريق المستغفري كما قال ابن الأثير، أو ضعيفًا من طريق السرندسي للتفرُّد والجهالة، أو موضوعًا من طريق البلويّ؛ فإن ذلك لا يعني أن الشعر الذي

---

(١) أسد الغابة ٧/٣٢٠.

(٢) انظر: الإصابة ٨/٢٠٤-٢٠٥.

فيه ضعيفٌ مثلُه. أجل لا نعرف روايةً أخرى لهذا الشعر غيرَ هذه الرواية، ولكننا قد نقع له على رواية في مقبل الأيام حين يَمُنُّ الله علينا بنشر تراث العربيّة الذي لَمّا يزل بعد أسيرًا في خزائن مكتبات العالم، والذي لم يرَ سوادُه الأعظمُ النّورَ بعد.

٤

عاتِكة بنتُ زيد بنِ عَمرِو بن نُفَيل:

القُرشيَّة، العدويَّة، كانت من المهاجرات، تزوجها نفرٌ من سادة الصحابة: عبدُ الله بن أبي بكر، وعمرُ بن الخطاب، والزبيرُ بن العوام، وكانت شاعرةً[١]، ولها ثلاث مراثٍ مشهورات سوى مرثيَتِها في النبيّ ﷺ.

عن الزُّبير بن بكار قال: حدثني محمد بن الضحّاك الحِزَامِيُّ، عن أبيه؛ وأحمدُ بن عبيد الله، عن عبد الله بن عاصم بن المنذر بن الزبير، يزيد أحدُهما على صاحبه، قال: تزوّج عبد الله بن أبي بكر الصدّيق - رضي الله عنهما - عاتكةَ بنت زيد بن عمرو ابن نُفيل، ثم شهد مع النبيّ ﷺ غزوةَ الطائف، فأصابه سهمٌ، فمات بعدُ بالمدينة، فقالت عاتكةُ تبكيه:

رُزِئْتُ بِخَيْرِ النَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ ... وَبَعْدَ أَبِي بَكْرٍ، وَمَا كَانَ قَصَّرَا
فَآلَيْتُ لاَ تَنْفَكُّ عَيْنِي حَزِينَةً ... عَلَيْكَ، وَلاَ يَنْفَكُّ جِلْدِيَ أَغْبَرَا
فَلِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَهُ فَتًى ... أَكَرَّ وَأَحْمَى فِي الهِيَاجِ وَأَصْبَرَا
إِذَا شُرِعَتْ فِيهِ الأَسِنَّةُ خَاضَهَا ... إِلَى المَوْتِ حَتَّى يَتْرُكَ الرُّمْحَ أَحْمَرَا[٢]

---

(١) ذكر صاحب كشف الظنون ديوانًا لعاتكة، كذا من غير نسبة (٧٩٩/١)؛ فلعلها هي.

(٢) انظر: ذمّ الهوى، لابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد ص٤٨٢ (صحّحه وضبطه أحمد عبد السلام عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢/١٤١٣هـ).

والأبيات من مختار أبي تمامٍ في «الحماسة»[1]. ومن مختاره أيضًا قولها ترثي عمرَ بن الخطاب رضِي الله عنه :

مَـنْ لِنَفْـسٍ عَادَهَـا أَحْزَانُهـا وَلِعَيْنٍ شَـفَّهَا طُـولُ السُّـهُدْ
جَسَـدٌ لُفِـفَ فِي أَكْفَانِـهِ رَحْمَةُ اللهِ عَلَى ذَاكَ الجَسَـدْ
فِيـهِ تَفْجِيـعٌ لِمَـوْلًى غَارِمٍ لَـمْ يَدَعْـهُ اللهُ يَمْـشِي بِسَـبَدْ[2]

وعـن المدائني: أنبأنا أبو الحسـن، عن جويرية بن أسـماء، وعامر بـن حفص أنَّ عاتكة بنتَ زيد قالت لمَّا قُتل عمر بن الخطاب :

فَجَّعَـنِي فَـيْرُوزُ لاَ دَرَّ دَرُّهُ بِأَبْيَـضَ تَـالٍ لِلْقُـرَانِ، مُنِيْـبِ
رَؤُوفٍ عَلَى الأَدْنَى، غَلِيظٍ عَلَى العِدَى أَخِي ثِقَـةٍ فِي النَّائِبَـاتِ، نَجِيـبِ
مَـتَى مَا يَقُلْ لاَ يَكْذِبِ القَوْلَ فِعْلُهُ سَرِيـعٌ إِلَى الخَـيْرَاتِ، غَـيرُ قَطُـوبِ

وقالت:

عَـيْنُ جُـودِي بِعَـبْرَةٍ وَنَحِيـبِ لاَ تَمَـلِّي عَلَى الإِمَـامِ النَّجِيـبِ
فَجَّعَتْـنِي المَنُـونُ بِالفَـارِسِ المِقْدَا مِ يَـوْمَ الهِيَـاجِ وَالتَّذْنِيـبِ
عِصمَـةِ النَّـاسِ والمُعِـينِ عَلَى الدَّهْـ ـرِ، وَغَيْـثِ المُنْتَـابِ وَالمَحْـرُوبِ
قُـلْ لأَهْـلِ الـضَّرَّاءِ وَالبَـأْسِ: مُوتُوا قَدْ سَـقَتْهُ المَنُـونُ كَأْسَ شَـعُوبِ[3]

وعن الزبير عن عمِّه قال: قتل الزبير وهو ابن سـبعٍ وسـتين، أو ستٍّ وستين سنةً، فقالت عاتكة بنت زيدٍ ترثيه:

(١) انظر: ديوان الحماسة ص٣١٦.

(٢) انظر: ديوان الحماسة ص٣١٨.

(٣) انظر: أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، لمحمد بن حبيب ٢/١٧٥ (ضمن نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١٤١١/١هـ).

غَـدَرَ ابْـنَ جُرْمُـوزٍ بِفَـارِسِ بُهْمَـةٍ يَـوْمَ اللِّقَـاءِ وَكَانَ غَـيْرَ مُعَـرِّدِ
يَـا عَمْـرُو لَـوْ نَبَّهْتَـهُ لَوَجَدْتَـهُ لا طَائِشًـا رَعْـشَ اللِّسَـانِ وَلاَ اليَدِ
شَـلَّتْ يَمِينُـكَ إِنْ قَتَلْـتَ لَمُسْـلِمًا حَلَّـتْ عَلَيْـكَ عُقُوبَةُ المُسْتَشْـهِدِ
إِنَّ الزُّبَـيْرَ لَذُو بَـلاَءٍ صَـادِقٍ سَـمْحٌ سَـجِيَّتُهُ كَرِيـمُ المَشْـهَدِ
كَـمْ غَمْـرَةٍ قَـدْ خَاضَهَـا لَـمْ يَثْنِهِ عَنْهَا طِـرَادُكَ يَا ابْنَ فَقْـعِ القَرْدَدِ[1]

جُلُّ هذه المراثي من الشعر السائر المتداول، ولكنَّ مرثيتها في النبيّ ﷺ لم ترد إلا من رواية ابن سعد، وكأنه رواها عن شيخه الواقديّ[2]، ولا بأس في ذلك، ولكن أين بقيَّة الرواة عن هذه القصيدة وهي في الرّسول ﷺ، لا في عبد الله بن أبي بكر، ولا في الزبير، ولا في عمر؛ أين هم عنها وهم قد روَوْا بالأسانيد مراثيها في هؤلاء ؟

ومع ذلك لا تختلف مرثيتُها في النبيّ ﷺ طريقةً عن مراثيها لأزواجها؛ فعاتكة تصوّر في رثائها الكآبةَ والحزن لفقد الفقيد، ثم تعرّج إلى تَعداد مآثرِه وحسناته، وقد تذْكر أنْ لا صفاء في الحياة بعده، وإليك المثالَ على ذلك:

افتتحت عاتكة بنتُ زيد رثاءها للنبي ﷺ بذكر ما حل بالأشياء والأحياء من الوجوم والصدمة والأسى، فقالت:

أَمْسَـتْ مَرَاكِبُـهُ أَوْحَشَـتْ وَقَـدْ كَانَ يَرْكَبُهَـا زَيْنُهَـا
وَأَمْسَـتْ تُبَـكِّي عَلَى سَـيِّدٍ تُـرَدِّدُ عَبْرَتَهَـا عَيْنُهَـا
وَأَمْسَـتْ نِسَـاؤُكَ مَـا تَسْـتَفِيقُ مِـنَ الحُـزْنِ يَعْتَادُهَـا دَيْنُهَـا
وَأَمْسَـتْ شَـوَاحِبَ مِثْـلَ النِّصَـا لِ قَـدْ عُطِلَـتْ وَكَبَـا لَوْنُهَـا

ثمَّ عرَّجت إلى الثناء عليه:

---

(١) انظر: الأغاني ١٨/٨٥.

(٢) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٨.

هُوَ الفَاضِلُ السَّيِّدُ المُصْطَفَى ... عَلَى الحَقِّ مُجْتَمِعٌ دِينُهَا

وزَهِدت في الحياة من بعده، فقالت:

فَكَيْفَ حَيَاتِي بَعْدَ الرَّسول ... وَقَدْ حَانَ مِنْ مِيتَةٍ حِينُهَا

والطريقة بعينها تراها في مرثيتها لعُمر: «عينُ جُودي بعَبْرة ونَحِيبِ... »؛ إذ تستهلُّها بالحزن، ثم تُثَنِّي بالثناء، وتنادي بأن الموت خيرٌ من الحياة دونه، ولو تدبَّرنا مراثيَها الأخر ألفينا عاتكةَ بنت زيدٍ - رضي الله عنها - لَمَّا تزلْ ترثي على طريقتها.

٥

عاتكةُ بنتُ عَبد المطَّلِب:

إذا كنا قد استصْعبنا القولَ في إسلام أروى بنت عبد المطلب ووفاتها، فإنَّ القول في إسلام عاتكة أختِها ووفاتها أشدُّ وأصعب.

وقد جمع ابنُ حجر مذاهبَ العلماء في إسلامها فقال: «عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم، عمّة النبيّ... قال أبو عُمر: اختُلف في إسلامها، والأكثر يأبَون ذلك. وفي ترجمة أروى ذكرها العُقَيليُّ في الصحابة، وكذلك ذكر عاتكة. وأمَّا ابن إسحاق فذكر أنه لم يسلم من عماته ﷺ إلا صفيَّة. وذكرها ابن فَتحون في «ذيل الاستيعاب»، واستدلَّ على إسلامها بشعرٍ لها تمدح فيه النبيَّ ﷺ، وتصفه بالنبوة. وقال الدَّارَقُطْنيُّ في «كتاب الأخوة»: لها شعرٌ تذكر فيه تصديقَها، ولا روايةَ لها. وقال ابنُ مَنْدَه بعد ذكرها في الصحابة: روتْ عنها أمُّ كُلثوم بنتُ عُقبة [قصةَ المنام الذي رأت فيه قريشًا صرعى ببدر]... وقال ابنُ سعد: أسلمت عاتكةُ بمكة، وهاجرت إلى المدينة، وهي صاحبة الرؤيا المشهورةِ في قصة بدر»(١).

(١) الإصابة ١٤/٨، وممن حكى إسلامها أيضًا محمد المرتضى الزبيدي في: إيضاح المدارك في الإفصاح عن العواتك، ورقة ٢ (مخطوطة بالمكتبة الأزهرية: تاريخ ٦٤٠٥/٧٠٢٣١).

فهكذا يضطرب القولُ في إسـلامها. وبعضُ من حكم لها بالإسـلام احتجَّ بما لا حُجَّة واضحةٌ فيه، كاستدلال ابن فَتحون والدارقطنيّ بشعرٍ لها في مديح النبيّ ﷺ وذكرِها النبوة؛ فكم من شعرٍ قد وُضع على تلك الأُمَّة الخالية، ومنهم عاتكةُ على ما سبق ! أمَّا قصة رؤيا بدر فلا شاهدَ فيها على إسلامها ألبتة، وإنما هي رؤيا رأتها في الجاهليَّة.

وأمَّا قول ابن سعد بإسلامها، ونَقَل ابنُ حجر ذلك عنه؛ فإني قد رأيته قال ذلك في أول ترجمة عاتكة، ثم قال في آخرها: « كانت من عمّات رسول الله ﷺ ممَّن لم تدرك الإسلام »[1]؛ فثَمَّ تناقُض، ولعله لاختلاف نسخة ابن حجر، أو سهوٍ منه، أو إقحامٍ من شارحٍ أو ناسخ.

هذا عن إسلامها، أمَّا وفاتُها، وهل ماتت قبل موت الرَّسول فلا تصح لها المراثي فيه، أمْ ماتت بعده؛ فإنا لا نملك جوابًا عن ذلك، إذ سكت القومُ جميعُهم عن قولٍ في وفاة عاتكة بنت عبد المطلب؛ قال الذهبيُّ: لم نسمع لها بذكرٍ في غير الرؤيا[2].

ولعاتكة أنشد ابن سعدٍ من رواية الواقديّ ثلاثَ قصائد في رثاء النبيّ ﷺ، تفرَّد بهنّ، لم يروهنّ أحدٌ غيرُه. أولاهنّ أولُها:

يَا عَيْنُ جُودِي مَا بَقِيتِ بِعَبْرَةٍ سَحًّا على خَيْرِ البَرِيَّةِ أَحْمَدِ

تسعة أبيات[3]، ليست تصحُّ لعاتكة، ولا لأحد من جيل صدر الإسلام؛ فهي من زمنٍ متأخِّرٍ عن ذلك، وأظنُّ ظنًّا أن للرجل الذي سرق من شعر الكُميت وأضافه إلى حسَّان يدًا في ذلك[4]، وأنا ذاكرٌ شيئًا من شواهد ذلك :

(١) الطبقات الكبير ١٠/٤٥.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ٢/٢٧٢.

(٣) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٣.

(٤) عارض هذه القصيدة بما فعله الرجل بشعرٍ سَرَقَه من الكميت وأضافه إلى حسَّان في ص٨٦ من هذه الدراسة.

بَنَى الواضعُ قصيدتيْ حسَّان على رويِّ الدال، وكذلك فعل هنا.

نظم الواضع قصيدة «بِطَيْبَةَ رَسْمٌ...» في البحر الطويل، وكذلك فعل هنا.

هناك شَرِكةٌ في الألفاظ والمعاني بين ما وضع الواضعُ على حسَّان وبين هذه القصيدة، منها دعاؤه على نفسه هنالك:

فَظَلِلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَلَدِّدًا ... يَا لَيْتَنِي صُبِّحْتُ سُمَّ الأَسْوَدِ

وقال هنا:

أَنَّي لَكِ الوَيْلاَتُ مِثْلُ مُحَمَّدٍ ... فِي كُلِّ نَائِبَةٍ تَنُوبُ وَمَشْهَدِ

وكان الواضعُ ذا بضاعةٍ مُزْجاة في الأدب، فنحل حسَّان قولَه:

فَرِحَتْ نَصَارَى يَثْرِبٍ وَيَهُودُهَا ... لَمَّا تَوَارَى فِي الضَّرِيحِ المُلْحَدِ

ونحل عاتكةَ قولاً كأنه رجْعُ الصدى منه:

مَنْ ذَا يَفُكُّ عَنِ المُغَلَّلِ غُلَّهُ ... بَعْدَ المُغَيَّبِ فِي الضَّرِيحِ المُلْحَدِ!

وحمل على حسَّان:

أَوْحَلَّ أَمْرُ اللهِ فِينَا عَاجِلاً ... فِي رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ فِي غَدِ

ثم حمل على عاتكة نحوَه:

أَمْ مَنْ لِوَحْيِ اللهِ يُتْرَكُ بَيْنَنَا ... فِي كُلِّ مُمْسَى لَيْلَةٍ أَوْ فِي غَدِ!

وقال على حسَّان في آخر القصيد:

فِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ وَاكْتُبْهَا لَنَا ... يَا ذَا الجَلاَلِ وَذَا العُلاَ وَالسُّؤْدَدِ

ورَجَع القولَ نفسه واضعًا إياه في آخر قصيدة عاتكة:

فَعَلَيْكَ رَحْمَةُ رَبِّنَا وَسَلاَمُهُ ... يَا ذَا الفَوَاضِلِ والنَّدَى والسُّؤْدَدِ!

وكان يعيدُ ألفاظًا بأحرفها، لا يحيد عنها؛ حُبْسةً منه، وعجزًا عن تصريف القول، كهذه الألفاظ: خير البرية، ونور، ومشهد، والمبارك، وذا، وغدٍ، والمحتد...

ولن أسوق كلَّ الاتفاقات، ففيما مثلت غُنْيةٌ، وإن أيَّ مقارنةٍ قاطعةٌ باتِّحادِ الناظم، وبطلانِ الشعر أن يكون لعاتكة.

ولعاتكة أيضًا أنشد ابنُ سعدٍ من رواية الواقديّ:

أَعَيْنَيَّ جُودَا بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ   عَلَى المُصْطَفَى بِالنُّورِ مِنْ آلِ هَاشِمِ

سبعة أبيات[1]، ما قالتها؛ لأن التي تقول :

سَائِلْ بِنَا فِي قَوْمِنَا   وَلْيَكْفِ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُهْ
قَيْسًا وَمَا جَمَعُوا لَنَا   مِنْ مَجْمَعٍ بَاقٍ شَنَاعُهْ
فِيْهِ السَّنَوَّرُ وَالقَنَا   وَالكَبْشُ مُلْتَمِعٌ قِنَاعُهْ
بعكاظَ يُعْشِي النَّاظِرِيـ   ـنَ، إِذَا هُمُ لَمَحُوا، شُعَاعُهْ[2]

وهي عاتكة؛ ما كان ينبغي لنا أن نظنَّ بها أنها تنحطُّ وتعيا فلا تكاد تُبين إلا بألفاظٍ مردَّدةٍ خاوية من مثل:

أَعَيْنَيَّ جُودَا بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ   عَلَى المُصْطَفَى بِالنُّورِ مِنْ آلِ هَاشِمِ
عَلَى المُصْطَفَى بِالحَقِّ وَالنُّورِ والهُدَى   وَبِالرُّشْدِ بَعْدَ المُنْدَبَاتِ العَظَائِمِ
وَسُحَّا عَلَيْهِ وَابْكِيَا مَا بَكَيْتُمَا   عَلَى المُرْتَضَى لِلْمُحْكَمَاتِ العَزَائِمِ
عَلَى المُرْتَضَى لِلْبِرِّ والعَدْلِ والتُّقَى   وَلِلدِّينِ وَالإِسْلَامِ بَعْدَ المَظَالِمِ ! !

ويؤكد وضعَها واختراعَها أنَّ الواضع لعله بَخِل بالقصيدة أن يملأ بها مصيبة وفاة رسول الله ﷺ وحدَها، فزيَّن بها حادثة الهجرة أيضًا، وغَيَّرَ شيئًا ما؛ فقد حكى ابنُ عساكر أن

(١) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٤.
(٢) انظر: ديوان الحماسة، لأبي تمام ص٢٠٩.

النبيِّ ﷺ بعد ما سار من مكة مهاجرًا جزعت عليه بنو هاشم، فانبعثت عاتكةُ بنت عبد المطلب تقول:

عَيْنَيَّ جُـودَا بِالدُّمُـوعِ السَّـوَاجِمِ عَلَى المُرْتَـضَى كَالْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِـمِ
عَلَى المُرْتَـضَى لِلـبِرِّ وَالعَـدْلِ والتُّقَى وَالدِّيـنِ وَالدُّنْيَـا بَهِيـمِ المَعَالِـمِ[١]
عَلَى الصَّادِقِ المَيْمُونِ ذِي الحِلْمِ وَالنُّهَى وَذِي الفَضْـلِ والدَّاعِي بِخَيْرِ التَّرَاحُمِ

قال ابن عساكر في الموضع نفسه: « وأنشدت ثانيًا تقول حين هاجر من مكة: عَيْنَيَّ جُودَا بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ... » فذكر الأبيات الثلاثة بحذافيرها ![٢].

أمَّا قصيدتها الثالثة التي عزاها لها ابنُ سعدٍ عن شيخه الواقديّ، وهي:

عَيْـنَيَّ جُـودَا طَـوَالَ الدَّهْـرِ وَانْهَمِرَا سَـكْبًا وَسَـحًّا بِدَمْـعٍ غَـيْرِ تَعْذِيـرِ

سبعة أبيات[٣]؛ فأمثلُ ما يقال فيها: إنها تشـتبه بمراثي صفيَّة، مِـن حيث الفاءاتُ: « يَا عَيْنُ فَاسْـحَنْفِرِي »، « يَا عَيْنُ فَانْهَمِلِي »، « فقدْ رُزِئْتُ »، « فَاذْهَبْ حَمِيدًا »؛ ومن حيث ذِكْرُ القَدَر:

وَكُنْـتُ مِـنْ حَـذَرٍ لِلْمَوْتِ مُشْـفِقَةً وَلِلَّذِي خُـطَّ فِي تِلْـكَ المَقَادِيـرِ

ومن حيث انتهاؤها فيها بالدعاء للنبيِّ ﷺ:

فَاذْهَـبْ حَمِيـدًا جَـزَاكَ اللهُ مَغْفِـرَةً يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْـدَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ[٤]

---

(١) البيت مكسور، ولو قيل: وللدين والدنيا... لاستقام. ولكنها آفات الوضع.

(٢) انظر: تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر ٣/٣٥٩.

(٣) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٣.

(٤) انظر خصائص شعر صفية في ص٣١٠ من هذه الدراسة.

٦

فاطمةُ الزَّهْرَاء:

بنتُ رسول الله ﷺ، أمُّ أبيها، كان يحبُّها ويدنيها، وقال لها: « ألا ترضَيْن أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة، أو نساء العالمين ؟ ». ماتت بعد النبيّ ﷺ بيسير، قيل: بستَّة أشهر[١].

وُضع عليها وعلى زوجها وآلهما شيءٌ كثيرٌ لا يُحصى، ونُسبت إليها هي أشعارٌ هزيلة منكَرةٌ، لا تليق ولا تحق، من ذلك مثلاً ما رُوي في خبرِ ضيفٍ أتاهم، وأنها قالت لعليّ زوجِها فيما قالت:

أَمْـرُكَ سَـمْعٌ يـا ابْـنَ عَـمّ وَطَاعَـةْ ... مَـا بِيَ مِـنْ لَـوْمٍ وَلاَ وَضَاعَـةْ...

أورده المناويُّ ثم قال: هذا حديثٌ كذبٌ موضوع. وقال: قال الحكيمُ الترمذيُّ: هذا من الأحاديث التي تُنكِرها القلوب، وهو حديثٌ مسروقٌ مفتَعلٌ لا يروج إلا على أحمقَ جاهلٍ غبيّ... وممن جزم بوضعه الذهبيُّ والعراقيُّ وابنُ حجر وغيرُهم... لا يحلّ لهم نسبةُ ذلك إلى المصطفى ولا إلى فاطمة... وحاشا بلاغتِهم من هذه الألفاظ الركيكة، والعبارات المُنحطّة الوضيعة[٢].

إلا أنه قد يقال: إن فاطمة قد قالت ما هو قريبٌ من الشعر عند وفاة النبيّ ﷺ، فعن أنسٍ رضِي الله عنه قال: « لمَّا ثقُل النبيُّ ﷺ جعل يتغشّاه، فقالت فاطمة – عليها السلام : وا كَرْبَ أبتاهْ »، فقال لها: « ليس على أبيكِ كَرْبٌ بعد اليوم »، فلمّا مات قالت: يا أبتاهْ، أجاب ربًّا دعاهْ، يا أبتاهْ، من جنّة الفردوس مأواهْ. يا أبتاهْ، إلى جبريل ننعاهْ. فلما دُفن قالت – عليها السلام : يا أنس، أطابت نفوسُكم أن

---

(١) انظر: الاستيعاب ٣/١٨٩٣.

(٢) إتحاف السائل بما لفاطمة من المناقب، للمنّاوي، محمد عبد الرؤوف بن علي ص١٠٧ (تحقيق عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة).

تَحْثُوا على رسـول الله ﷺ التراب ؟! »[١].

أجل، إنه ليس بشعرٍ، ولكنه يذكرنا بما قيل عن طفولة الشعر العربيّ، وأنه يُظن ابتداؤه بمثـلِ هذه السـجعات الرخيمة، وأنَّ للنسـاء في ذلك قصبَ السـبق، وكـن يفعلنه في مراثي رجالهنّ[٢]. ومنه قول « أمّ تأبَّط شرًّا ترثيه: وا ابنَاهُ وا ابنَ اللَّيْلْ، ليس بزُمَّيْلْ، شَروبٍ لِلْقَيْلْ، يضربُ بالذَّيْلْ، كمُقْرَبِ الخَيْلْ؛ وا ابناهُ ليس بعُلْفُوفْ، حُشِيَ مِن صُوفْ، تَلُفُّه هُوفْ »[٣].

هذا، وتُنسب إلى فاطمة بضعُ مراثٍ نبويّة، منها المرثية التي تقول:

قَـدْ كَانَ بَعْـدَكَ أَنْبَـاءٌ وَهَنْبَثَـةٌ   لَوْ كُنْتَ شَـاهِدَهَا لَمْ تَكْثُرِ الخُطَبُ

نسبها طائفة ممَّن صنَّف في الغريب إلى فاطمة، كابن قُتيبة[٤]، وابن الأثير[٥]، والصدِّيقيّ[٦]، ولعلَّ رائدهم إلى ذلك ابنُ قتيبة في «غريب الحديث».

وكان الحديث قد بُسط في توثيق هذه المرثية، ثم انفضَّ على أنها من شعر صفيَّة بنت عبد

---

(١) صحيح البخاري ٢/٨٩٢.

(٢) انظر:

THE ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM, V. VI, MARTHIYA, Leiden, E.J. Brill, new edition,1991

and: ENCYCLOPEDIA OF ARABIC LITERATURE, Edited by Julie Scott Meisami and Paul Starkey, V.2, p.p.663-664, New York, 1998.

(٣) جمهرة نسب قريش وأخبارها، للزبير بن بكّار ٢/٤٢٢، وقال الزبير: العلفوف: الجافي. وهوف: الريح. وفي هامشه: الزُّمَّيل: الضعيف. والقيل: شرب نصف النهار. والمقرب من الخيل التي تقرَّب من البيوت وتُكرم.

(٤) انظر: غريب الحديث، لابن قتيبة ٢/٢٦٧.

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث ٥/٢٧٧.

(٦) مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، لمحمد طاهر الصديقي الكجراتي ٥/١٧٣ (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢/١٤١٣هـ). وقد توفي – رحمه الله – سنة ٩٨٦هـ وهو عالم بالحديث ورجاله. كان يلقب بملك المحدثين. نسبته إلى فتن (من بلاد كجرات بالهند) ومولده ووفاته فيها (انظر: الأعلام، لخير الدين الزركلي ٦/١٧٢، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥/٢٠٠٢م).

المطلب حتمًا(١)، ولكنني أحبُّ أن أرويَ بعض الأخبار المتعلّقة بهذه المرثية:

قال ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة»: «قال المرتضى: وأخبرنا أبو عُبيد الله المَرْزُبانيُّ قال: حدثني عليُّ بن هارون قال: أخبرني عُبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر، عن أبيه قال: ذكرتُ لأبي الحسن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب كلامَ فاطمة عند منْع أبي بكرٍ إياها فَدَك، وقلت له: إنَّ هؤلاء يزعمون أنه مصنوع، وأنه من كلام أبي العيناء؛ لأن الكلام منسوقُ البلاغة. فقال لي: رأيت مشايخَ آل أبي طالبٍ يروونه عن آبائهم، ويعلمونه أولادَهم، وقد حدثني به أبي عن جدّي يبلغ به فاطمة - رضي الله عنها - على هذه الحكاية، وقد رواه مشايخ الشيعة وتدارسوه قبل أن يُولَد جدُّ أبي العيناء. وقد حدَّث الحسين بن علوان، عن عطية العَوفيّ، أنه سمع عبدَ الله بنَ الحسن بنِ الحسن يذكر عن أبيه هذا الكلام. ثم قال أبو الحسن زيد:... وزاد في الأبيات بعد البيتين الأوَّلين [قد كان بعدك أنباءٌ وهنبثة... البيتين]:

ضَاقَتْ عَلَيَّ بِلاَدِي بَعْدَمَا رَحُبَتْ ... وَسِيمَ سِبْطَاكَ خَسْفًا فِيهِ لِي نَصَبُ

فَلَيْتَ قَبْلَكَ كَانَ المَوْتُ صَادَفَنَا ... قَوْمٌ تَمَنَّوْا فَأُعْطُوا كُلَّ مَا طَلَبُوا

تَجَهَّمَتْنَا رِجَالٌ وَاسْتَخَفَّ بِنَا ... مَذْ غِبْتَ عَنَّا، وَكُلَّ الإِرْثِ قَدْ غَصَبُوا»(٢)

وليس هذا مجالَ الخوض في حديث فَدَك(٣)، وما أَعْقَبَتْ الشيعةُ فيه من الزيادة والتأويل، وحسبي من ذلك كلمةٌ لابن قتيبة في صميم هذه المرثية، حيث قال: «... لُمَّةُ الرجل من النساء: مثله في السن، ومنه قيل في الحديث الموضوع على فاطمة -رحمها الله-: إنها خرجت

(١) انظر ص٣٠١ من كتابنا هذا.

(٢) شرح نهج البلاغة، لعز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني ١٦/٢٥٢-٢٥٣ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ط١/١٤٠٧هـ).

(٣) انظر في ذلك: تاريخ المدينة النبوية، لعمر بن شبّة ١/١٢٢-١٢٦ (علّق عليه وخرج أحاديثه علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٧هـ).

في لُمَّةٍ من نسـائها تتوطَّأُ ذيولَها حتى دخلت على أبي بكر فكلَّمته بذلك الكلام، وقد كنت كتبته وأنا أرى أنَّ له أصلاً، ثم سـألت عنه رجال الحديث، فقال لي بعض نقَلَةِ الأخبار: أنا أسنُّ من هذا الحديث، وأعرِفُ مَن عَمِله ! »، ثم روى البيتين [قَدْ كَانَ بَعْدَكَ أَنْبَاءٌ وَهَنْبَثَةٌ...] ثم قال: « وهذا البيتان هما سببُ وضع ذلك الكلام »(١).

ثم عاد ابن الأثير في «منال الطالب» بعدَ أن كان نسب المرثية لفاطمة في «النهاية» فقال: « ثـم انكفـأت إلى قبر أبيها متمثِلـةً بقول صفيَّة بنت عبد المطلب، وقيـل: أُمامة »(٢)، فلم يَعْزُها إليها وإن كان لم يجزم بصاحبتها.

أمَّا المسعوديُّ فأصاب كبد الحقِ حين قال: « ... وما كان من فاطمة وكلامها متمثلةً حين عَدَلت إلى قبر أبيها - عليه السلام - من قول صفيَّة بنت عبد المطلب: قد كان بعدك أنباءٌ وهنبثة... »(٣)، فنسبها إلى التمثُّل، وأضاف الشعر إلى صفيَّة.

وقال مصنِّفُ «أعيان الشيعة» منصفًا: «وأما الأبيات البائية التي أنشدتها بعد وفاة أبيها ﷺ فهي ليست لها؛ تمثَّلت بها تمثُّلا »(٤).

وقال في «أعيان الشـيعة»: «... وقولها ترثيه ﷺ كما في «مناقب ابن شهراشـوب»(٥)؛ وفي «السيرة النبويَّة»(٦) لأحمد بن زيني دحلان أنها لحسَّان:

كُنْـتَ السَّـوَادَ لِنَاظِـرِي ... فَعَـمِي عَـلَيَّ النَّاظِـرُ
مَـنْ شَـاءَ بَعْـدَكَ فَلْيَمُـتْ ... فَعَلَيْـكَ كُنْـتُ أُحَـاذِرُ »(٦)

---

(١) غريب الحديث، لابن قتيبة ٢/٢٦٧.

(٢) منال الطالب في شرح طوال الغرائب، لأبي السعادات ابن الأثير الجزري ص٥٠٧ (تحقيق الدكتور محمود الطناحي، القاهرة، ط٢/١٤١٧هـ).

(٣) مروج الذهب ٢/٣١١.

(٤) أعيان الشيعة، لمحسن الأمين ١/١٦٦-١٦٧، وانظر أيضًا: ظلامات فاطمة الزهراء في السنة والآراء، لعبد الكريم العقيلي ص٢٠٠-٢٠٣، دون دار نشر ! ط١/١٩٩٦م).

(٥) مناقب آل أبي طالب ١/١٣٦.

(٦) أعيان الشيعة ١/٣٢٣.

وهـذان مـن المنحول إيَّاها، ما قالتهما، كلا، ولا قالهما حسَّان، وإنما هما لإبراهيم بن العباس الصُّوليّ في رثاء ولده كما مرَّ في مراثي عليّ[1].

وفي كتاب «الشريعة» للآجُرِّي - وهو كتابٌ في أصول الدين - روايةٌ شاذَّة، قال: «بلغني أنه لمَّا دُفن النبيُّ ﷺ جاءت فاطمة - رضي الله عنها - فوقفت على قبره، فأنشأت تقول:

أَمْسَى بِخَدِّي لِلدُّمُوعِ رُسُومُ ... أَسَفًا عَلَيْكَ، وَفِي الفُؤَادِ كُلُومُ
وَالصَّبْرُ يَحْسُنُ فِي المَوَاقِفِ كُلِّهَا ... إلاَّ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومُ (*)
لاَ عَيْبَ فِي حُزْنِي عَلَيْكَ لَوْ أَنَّهُ ... كَانَ البُكَاءُ لِمُقْلَتَيَّ يَدُوْمُ »[2]

فالأبياتُ للعُتْبيّ في ولدٍ له مات، فاض الخبر بذلك في العصر العباسي وانتشر[3]. وهذا الشعر به من آثار الصَّنعة ما عساك لن تجدَه في أشعار الصدر الأول، ولا في أشعار نسائه بخصوصهنّ.

وينقلون أن فاطمة الزهراء - عليها السلام - رثت والدها ﷺ فقالت:

اغْبَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ ... شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ العَصْرَانِ

وإن خير ما أدركْنا من رواية هذه المرثية روايتان:

---

(١) انظر توثيق مراثي علي ص١٥٠ من هذه الدراسة.

(*) هذا البيت منسوب في الذخائر والأعلاق لأبي الحسن الإشبيلي؛ إلى بعض الأنصار ص٢٢٣.

(٢) الشريعة، للآجُرّي، محمد بن الحسين ٣٧٨/٢ (تحقيق محمد بن نبيه سيف النصر، مؤسسة قرطبة، ط١/١٤١٧هـ).

(٣) العتبيُّ هو محمد بن عبيد الله الأمويُّ (ت٢٢٨)، وكان معاصرًا للمرد الذي نسب إليه هذه الأبيات (انظرها في: التعازي والمراثي ص١٨٠؛ والوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي عبد العزيز الجرجاني ص٢٩٠ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا)؛ وشذرات الذهب في أخبار مَن ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ٦٦/٢ (دار المسيرة، بيروت، ط٢/١٣٩٩هـ)).

أجودهما روايةٌ عند ابن ناصر الدين الدمشقيّ: « قال الزبير بن بكار: حدثني عمّي مُصعب، عن محمد بن الضحَّاك قال: لما تُوفّي النبيُّ ﷺ ورجع المهاجرون والأنصار إلى رِحالهم؛ رجع فيمن رجع فاطمةُ إلى بيتها، فقعدت فيه، فلما كان بعدَ أيام قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، انقطع عنَّا أخبارُ السماء، ثم أنشأت تقول:

اغْبَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ   شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ العَصْرَانِ

ستةَ أبيات[1].

فالزبير مؤرّخ جليل، نسَّابةٌ، وعمُّه مصعبٌ كذلك، أما محمد بن الضحَّاك فهو ابن عثمان الحزاميّ يروي عنه الزبير من غير واسطةٍ[2]، وقد روى عنه هنا بواسطة عمه مصعبٍ زيادةً في التحرُّز والأمانة، وابنُ الضحَّاك هذا مدنيٌّ، متقدِّمٌ، من تلاميذ مالك، من بيت علم ومعرفةٍ بأيَّام العرب وأشعارها وأخبارها[3].

والرواية الأخرى: قال الحُصْريُّ: « وحدَّث أبو بكر ابن دُريد عن عبد الأول بن يزيد، قال: حدثني رجلٌ في مجلس يزيد بن هارون بالبصرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ دُفن، ورجع المهاجرون والأنصارُ إلى رِحالهم، ورجعت فاطمة إلى بيتها، فاجتمع إليها نساؤها، فقالت: اغْبَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ... »[4]، وهذه الرواية قائمةٌ على مجهول.

ولكنه لا بأس من قبول رواية محمد بن الضحاك؛ فلعلَّ فاطمة - رضي الله عنها - قالتها تمثُّلاً أيضًا؛ لأنه لم يصحَّ لنا حتى الآنَ من شعر فاطمة بنت رسول الله ﷺ شيء. وكانت فاطمة ربما تمثَّلت بشيءٍ من الشعر لترثيَ به أباها كما كانت العرب تفعل، وقد مرَّ آنفًا تمثُّلها بشعر صفيَّة بنت عبد المطلب، ومما يُروى عنها تمثلُها عند الوفاة بشعر سَميَّتِها

---

(١) انظر: سلوة الكئيب بوفاة الحبيب، لابن ناصر الدين ص١٦٤، ١٦٥.

(٢) انظر فهرس الأعلام في: جمهرة نسب قريش، للزبير بن بكار، فقد روى عن ابن الضحّاك كثيرًا.

(٣) انظر: تهذيب الكمال، للمِزّي ٢٧٥/١٣.

(٤) زهر الآداب ٧٠/١.

فاطمةِ بنت الأحجم الخُزاعيَّة :

قَـدْ كُنْـتَ لِي جَبَـلاً أَلُـوذُ بِظِلِّـهِ فَتَرَكْتَنِي أَمْـشِي بِأَجْـرَدَ ضَـاحِ
قَـدْ كُنْـتُ ذَاتَ حَمِيَّةٍ مَا عِشْـتَ لِي أَمْـشِي الـبِرَازَ وَكُنْـتَ أَنْـتَ جَنَاحِي
فَالْيَـوْمَ أَخْضَـعُ لِلذَّلِيـلِ وَأَتَّـقِي مِنْـهُ، وَأَدْفَـعُ ظَالِـمِي بِالـرَّاحِ
وَإِذَا دَعَـتْ قُمْرِيَّـةٌ شَـجَنًا لَهَـا لَيْـلاً عَلَى فَـنَنٍ دعَـوتُ صَبَـاحِي[1]

وإخال هذه الأبياتَ كانت سببًا لبعض ما وُضع على فاطمة رضي الله عنها.

وزعم خَلْقٌ أن فاطمة بنت النبيّ ﷺ قالت في البكاء عليه لما رُمِسَ هذين البيتين:

مَـاذَا عَلَى مَـنْ شَـمَّ تُرْبَـةَ أَحْمَـدٍ أَنْ لاَ يَشُـمَّ مَـدَى الزَّمَـانِ غَوَالِيَـا
صُبَّـتْ عَـلَيَّ مَصَائِـبُ لَـوْ أَنَّهَـا صُبَّـتْ عَلَى الأَيَّـامِ عُـدْنَ لَيَالِيَـا

رواهمـا ابـنُ الجـوزيّ[2]، والنويريُّ[3]، وابنُ نـاصر الدين[4]، وغيرُهـم[5]. لكنْ تردَّدت الروايـةُ عنـد الـكَلاعيّ بـين أن يكونـا لفاطمـة أو لعـليّ رضي الله عنهمـا[6].

ولـم ينسـبهما الآمديُّ إليها، بـل روى أنها تمثَّلت بهما، ثم شـكَّ في ذلك أيضًا، يقول في «الموازنة»: « وتمثلت فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ عند وفاته - عليه السلام - فيما رُوي ولا أعلم صحَّته... »[7].

---

(١) الاكتفا ٢/٦١-٦٢.

(٢) انظر: الوفا بأحوال المصطفى، لابن الجوزي عبد الرحمن بن علي ص٨١٩ (تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت).

(٣) انظر: نهاية الأرب ١٨/٤٠٣.

(٤) انظر: سلوة الكئيب ص١٩١.

(٥) كما في: إتحاف السائل، للمناوي ص١٠٣، والدُّرة الثمينة، لمحب الدين النجار ص٢٠٥ (تحقيق محمد زينهم عزب، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد)، وتاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، للديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن ٢/١٧٣ (مؤسسة شعبان، بيروت).

(٦) انظر: الاكتفا ٢/٦٢.

(٧) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للآمديّ، أبي القاسم الحسن بن بشر ١/١٠٥ (تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف ١٩٦٥م).

وقال الذهبيُّ جازمًا: « ومما يُنسب إلى فاطمة، ولا يصحُّ... »[1]، وكان الذهبيُّ من صيارفة الأخبار، فأصابَ وصحَّ بصرُه؛ إذ الشعر منحولٌ لفاطمة، وهو إنما هو لمحمد بن إبراهيم الباخَرْزيّ.

ففي «معجم الشعراء» للمَرزُباني: « أبو منصور الباخَرزيُّ، اسمه محمد بن إبراهيم، من أهل خراسان، نزل بغداد، وكان يتشيَّع، وعميَ في آخر عمره، وكان يهاجي مثقالاً الواسطي. والباخرزي هو القائل:

صُبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبٌ لَوْ أَنَّهَا　　　صُبَّتْ عَلَى الأَيَّامِ عُدْنَ لَيَالِيَا »[2]

والكلامُ بحروفه وبيتِه في «المحمّدون من الشعراء» للقِفْطيّ[3]، فلعله أخذه من المَرزُباني، أو كلاهما أخذا من كتاب واحد.

وكوْن الباخَرْزي هذا « كان يتشيع » سهَّل لبعض الشيعة أن يجدوا في ألفاظه ما يعينُهم على تطويل الشعر وإبعاد آخره عن أوَّله. وكان الباخَرزيُّ شاعرًا ذا ديوانٍ، ولكنَّ أمره لم يُشتَهر في كتب التراجم والأدب حتى إنَّ ابنَ بلدته أبا الحسن الباخَرْزي صاحب «دمية القصر» قال كلمةً أحسبُها تنفع هنا، قال: « كنت أحدِّث نفسي زمنَ الحداثة... بسَلْكٍ أنظِمُ فيه فضلاءَ باخَرْزَ، وأدوِّنُ به أسماءَهم... فحكى لي والدي - رحمه الله - عن لسان الحاكم عمر المطوعي أنه قال: قرأتُ في «معجم الشعراء» تأليف المرزباني شعرَ مُحْدَثٍ ملقَّبٍ بالباخَرْزيّ؛ فكاد الحرص يريشني في طلبه، لعلي أعثر باسمه ولقبِه، وأقف على مقدار أدبه، ومازالت الأيام تَعِدُني فيه مواعيدَ عُرقوبٍ أخاه... حتى اتَّفق أنّ ورثة الأمير أبي الفضل عُبيد الله بن أحمد الميكالي عرضوا خزانة كتبه على البيع، و«معجمُ الشعراء» في أثنائها، ورغباتُ الفضلاء صادقةٌ في اقتنائها، والقاضي البحاثيُّ من بينهم... [فابتاع الكتابَ وحمله

(١) سير أعلام النبلاء ١٣٤/٢.

(٢) معجم الشعراء، للمرزباني ص٤٠٣.

(٣) انظر: المحمدون من الشعراء، للقِفْطي، علي بن يوسف ١٠٩/١ (اعتنى بتصحيحه محمد عبد الستار خان إيم، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند ١٣٨٥هـ).

إليّ]... ومازلـت أقـشِره ورقًا فورقًـا... حتى انتهيتُ إليـه... وفيه ذِكْرُ أبي منصور رشـيدِ بن منصـور الباخرزي... وضرب الدهر ضربانَه حتى بنى الشـيخُ ناصح الدولة... خزانةَ كتبه في مسـجد عقيل بنيسـابور، فحضرتُها، وأعدت نظري في فهرسـتها؛ فإذا فيها كتاب «المعجم» فنشرتُه، فإذا فيه ذكرُ الباخَرزي إلا أنه خالف في اسمه ونسبه، وزعم في النسخة الأولى أنه أبـو منصور رشـيد بن منصور، وفي الثانية: أبو منصور محمد بـن إبراهيم، وذكر أنه من أهل خراسان، ونَسَبَه إلى الاستيطان ببغداد، والتديّن بمذهب الشيعة... قلتُ: ولست أدري أكلا المذكورين واحدٌ أم لا ؟ وقد عثرتُ بديوان شـعر أبي منصور محمد بن إبراهيم الباخَرزي في الخِزانـة النظامية - عمرها الله - بنيسـابور... والغالـب على ديوانه المراثي، إمَّا للعلوية، وإما لابنه إبراهيم...»[١].

فهـذا رجـلٌ قليلٌ ذِكْرُه في الكتب، لـم يعرفْه باخَرْزيُّ «الدمية» مـع أنه كان حريصًا على رجـالات بـلده باخرز فضلاً عن غيرهـم؛ لم يعرفه إلاّ بعد لأي، ولم يعـرف عنه إلا قليلاً؛ فما بالك بغيره.

وهـو رجـل صاحب ديوانٍ أكثره في مراثي العلوية ومـراثي ولده؛ أفلا يصحُّ مَنْ هذه حاله أن يُسرق شـعره منه ثـم لا يَلتفتُ لذلك أحد ؟ بلى، ويصلُح كذلـك لأَنْ يضاف إليه ويُبنى عليه ما ليس منه، ثم يُفترى جميعُ ذلك على فاطمة بنت الرَّسول ﷺ وهي منه براء، ولا وازع للواضع، ولا واعظ له فيما بين الباخَرزيّ وفاطمة من البون الشَّاسع والدَّهر الطويل.

ذلـك، وفي كتـب المتأخرين من الشـيعة رثاءٌ مصنـوعٌ مفتعلٌ، مُـدَّعًى لفاطمة - عليها السلامُ ؛ لا أصْلَ له، ولا أدري من أين جيء به، إليك بعضه على عواهِنه:

إِنَّ حُـزْنِي عَلَيْـكَ حُـزْنٌ جَدِيـدٌ وَفُـؤَادِي وَاللهِ صَـبٌّ عَنِيـدُ !
كُلَّ يَـوْمٍ يَزِيـدُ فِيـهِ شُـجُونِي وَاكْتِئَـابِي عَلَيْـكَ لَيْـسَ يَبِيـدُ

(١) دُمية القصر وعصرة أهل العصر، للباخرزي، علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب ٢/١٢٠٥-١٢٠٩ (تحقيق ودراسة الدكتور محمد التونجي، دار الجيل، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).

ومنه:

قَلَّ صَبْرِي وَبَانَ عَنِّي عَزَائِي بَعْدَ فَقْدِي لِخَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ
عَيْنُ يَا عَيْنُ اسْكُبِي الدَّمْعَ سَحًّا وَيْكِ لاَ تَبْخَلِي بِفَيْضِ الدِّمَاءِ!
يَا إِلَهِي عَجِّلْ وَفَاتِي سَرِيعًا فَقَدْ تَنَغَّصَتِ الحَيَاةُ يَا مَوْلاَئِي [كذا][1]

لقد قال الأستاذ العقَّاد قولاً جامعًا استحسنتُ أن أختم به ما نحن فيه من المراثي النبويَّة المنسوبة إلى فاطمة - رضي الله عنها - قال: «وأمَّا نسبة الشعر إلى الزَّهراء فالخطب فيه أهونُ من ذلك؛ فهو لا يُسلكها في الشاعرات إن ثبت، ولا يضيرها إن لم يثبت. ونحن إلى جانب الشك الكبير فيه أقربُ منا إلى جانب القبول. وليس بعيدًا على غير الشاعر أو الشاعرة أن يدير في فمه أبياتًا يحكي بها حزنَه وبثَّه؛ فإن النظم هنا أقرب إلى لغة العاطفة وعادةِ النحيب؛ ولكن السيّدة فاطمة كان لها من الاعتبار بآيات القرآن في مقام الموت غِنًى عن نظم الأبيات، أو التمثُّلِ بها في مقام العِبرة والرثاء»[2].

٧

هِنْدُ بنتُ أُثَاثَة:

أخت مِسْطَح بن أُثاثة بن عبَّاد بن المطَّلب بن عبد مناف. شهدتْ أُحُدًا مع الرَّسول ﷺ، روى لها ابن إسحاقَ قولَها ترثي عُبيدة بن الحارث بن المطلب:

(١) انظر: بيت الأحزان في ذكر أحوال سيرة نساء العالمين فاطمة الزهراء، لعباس القمي ص١٧٨ - ١٧٩ (دار التعارف، بيروت ١٤١٩هـ)، وبحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، لمحمد باقر المجلسي ٤٣/١٧٦-١٧٨ (مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٣/١٤٠٣هـ).

(٢) فاطمة الزهراء والفاطميون، ضمن مجموع «إسلاميات»، لعباس محمود العقاد ص٣٦ (دار المعارف، ط٢/١٩٨٥م).

لَقَـدْ ضُمِّنَ الصَّفْـرَاءُ مَجْدًا وَسُـؤْدُدًا وَحِلْمًـا أَصِيـلاً وَافِرَ اللُّـبِّ وَالعَقْلِ

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لهند[١].

وإذا كان ابنُ هشـام لم يصحِّح هذا الشـعر؛ فإنه قد نقل في موضعٍ آخر نقيضةً لها تردُّ بها على هند بنت عُتبة التي قالت يوم أُحدٍ:

نَحْـنُ جَزَيْنَاكُـمْ بِيَـوْمِ بَـدْرِ
والحَـرْبُ بَعْـدَ الحَـرْبِ ذَاتُ سُـعْرِ

فأجابتها هند بنتُ أُثاثة:

خَزِيـتِ فِي بَـدْرٍ، وَبَعْـدَ بَـدْرِ
يَـا بِـتَ وَقَّـاعٍ عَظِيـمِ الكُفْـرِ

قال ابنُ هشام: تركنا منها ثلاثة أبيات أقذعَتْ فيها[٢]؛ فهو يصحِّحُ أصل هذا الشعر لها؛ فهي على معرفةٍ بالشعر.

ثـم إني بحثـتُ عن تاريخ وفاة هذه الصحابية الجليلـة، فلم أجدْ لوفاتها ذكرًا إلا ما رقمه الـزِّرِكْلِيُّ في «الأعـلام» حيث يقول: «توفيت نحـو ١٠هـ»[٣]، ولم أدرِ من أين أتى بذلك، ولكنه رجلٌ ذو باعٍ في فن التراجم، ولو كان هذا التوقيت لوفاتها صوابًا إذن بطلت نسـبةُ المرثيتين النبويّتين المنسوبتين إليها ابتداءً[٤].

إحدى هاتين المرثيتين انفرد بروايتها ابنُ سعد فقال: وقالـت هند بنت أُثاثة:

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ٣/٤٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ٣/٩١-٩٣.

(٣) الأعلام، للزركلي ٨/٩٦.

(٤) نسب ابن سعد لها ثلاث مراثٍ، قطع الدرسُ بصحة إحداهن إلى صفية - رضي الله عنها - وهي قولها: «قد كان بعدك أنباء وهنبثة...» انظر ص٣٠١ من هذه الدراسة.

أَلاَ يَـا عَـيْنُ بَكِّـي لاَ تَمَـلِّي ... فَقَـدْ بَكَـرَ النَّـعِيُّ بِمَـنْ هَوِيـتُ[1]

والراجح عندي أنها من شعر صفيَّة لاشتمالها على نمط صفيَّة - رضي الله عنها - حين تستعمل حرف الفاء في أبياتها غيرَ مرَّة :

أَلاَ يَـا عَـيْنُ بَكِّـي لاَ تَمَـلِّي ... (فَـ)ـقَـدْ بَكَـرَ النَّعِيُّ بِمَـنْ هَوِيتُ

(فَـ)ـقَـدْ بَكَـرَ النَّعِيُّ بِـذَاكَ عَمْدًا ... (فَـ)ـقَـدْ عَظُمَتْ مُصِيبَةُ مَنْ نُعِيتُ

إِلَى رَبِّ البَرِيَّـةِ ذَاكَ نَشْـكُو ... (فَـ)ـإِنَّ اللهَ يَعْلَـمُ مَـا أُتِيـتُ

وقولها هذا يشبه قولَها في المرثية الأخرى هنالك:

فَـإِلَى اللهِ ذَاكَ أَشْـكُو وَحَسْـبِي ... يَعْلَـمُ اللهُ حَوْبَـتِي وَنَحِيـبِي

وحين تؤكد في شعرها:

وَقَـدْ بَكَـرَ النَّـعِيُّ بِخَيْرِ شَـخْصٍ ... رَسُـولِ اللهِ (حَقًّـا) مَـا حَيِيـتُ

وحين تؤمن بالقدر:

وَلَـوْ عِشْـنَا وَنَحْـنُ نَـرَاكَ فِينَـا ... وَأَمْـرُ اللهِ يُـتْرَكُ مَـا بَكَيـتُ

وكل ذلك من مذهب صفيَّة في الرثاء.

زِد على ذلك أن في القصيدة مالا يليق بهند بنت أُثاثة، ولكنه يليق بصفيَّة بنت عبد المطلب كقولها:

أَلا يَـا عَـيْنُ بَكِّـي لاَ تَمَـلِّي ... فَقَـدْ بَكَـرَ النَّـعِيُّ بِمَـنْ هَوِيـتُ

فإنَّ الهوى: الحبُّ وإرادةُ النفس[2]، وهو صالحٌ في حقِ عمّته لا في حقِّ هند.

---

(١) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٧.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة ٧/٢٠٦.

وقريبٌ منه قولُها:

وَقَـدْ عَظُمَـتْ مُصِيبَتُـهُ وَجَلَّـتْ ... وَكُلَّ الجَهْـدِ بَعْـدَكَ قَـدْ لَقِيـتُ

فإنَّه لا تقوله إلا مقرَّبة.

وليس بعيدًا عن هذه المرثيَة المرثيَةُ الأخرى المنسوبةُ إلى هند بنت أُثاثة:

أَشَـابَ ذُؤَابَـتِي وأَذَلَّ رُكـنِي ... بُكَـاؤُكِ، فَاطِـمَ، المَيْـتَ الفَقِيـدَا

وقد رواها ابنُ سعد، لعلَّه رواها عن الواقديّ[1]. وزاد فيها أبو الحسن الإشبيليُّ، كأنما رواها عن كتابٍ غيرِ كتاب ابن سعدٍ، ولكني لا أعرف كُنهه.

والقصيدة تمضي كأختها على سَنَن مراثي صفيّة[2]، لكأنَّها منها، فاءات صفيَّة نفسُها:

(فَـ)ـأَعْطَيْتَ العَطَاءَ (فَـ)ـلَمْ تُكَدِّرْ ... وَأَخْدَمْـتَ الوَلاَئِـدَ وَالعَبِيـدَا
أَفَاطِمُ (فَـ)ـاصْبِرِي (فَـ)ـلَقَدْ أَصَابَتْ ... رَزِيئَتُـكِ التَّهَائِـمَ وَالنُّجُـودَا
وَأَهْـلَ الـبَرِّ وَالأَبْحَـارِ طُـرًّا ... (فَـ)ـلَـمْ تُخْطِـئْ مُصِيبَتُـهُ وَحِيـدَا
(فَـ)ـمُـوتِي إِنْ قَـدَرْتِ بِـأَنْ تَمُـوتِي ... فَقَـدْتِ الطَّيِّـبَ الرَّجُـلَ المَجِيـدَا
رَسُـولَ اللهِ خَـيْرَ النَّـاسِ حَقًّـا ... (فَـ)ـلَسْـتُ أَرَى لَهُ أَبَـدًا نَدِيـدَا

وعين توكيدات صفيَّة:

وَأَهْـلَ الـبَرِّ وَالأَبْحَـارِ (طُـرًّا) ... فَلَـمْ تُخْطِـئْ مُصِيبَتُـهُ وَحِيـدَا
رَسُـولَ اللهِ خَـيْرَ النَّـاسِ (حَقًّـا) ... فَلَسْـتُ أَرَى لَه (أَبَـدًا) نَدِيـدَا

---

(١) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٧.

(٢) انظر: خصائص مراثي صفية ص٣١٠ من هذه الدراسة.

فـإذا جُمـع ذلك إلى ما ذكره الـزِّرِكْلِيُّ من أمر وفاتها، وما سـبق أن وضعنا أيدينا عليه من غلط ابن سـعدٍ، أو غلط من روى عنه ابنُ سـعد في عَزْو بعض القصائد إلى أصحابها من النساء خاصَّة(١)؛ فإن المرثية تُوشك أن تكون لصفيَّة رضِي الله عنها.

٨

هِندُ بنتُ الحَارثِ بنِ عبد المُطَّلب:

بنتُ عمِّ رسول الله ﷺ، ذكر ابنُ سعد أنها استهلَّت مرثيتها في النبيّ ﷺ بقولها:

يَا عَيْنُ جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكِ وَابْتَدِرِي ... كَمَـا تَـنَزَّلَ مَـاءُ الغَيْـثِ فَانْثَعَبَـا

خمســة أبيــات(٢)، ليس فيها ولا في غيرها ما يُعـين على أمر التوثيق الذي نحن فيه، فنحن لا نعلم عن حياة هند بنت الحارث شـيئًا إلا أن تكون هي هندُ بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم؛ قال ابن عبد البرّ: « وُلدت على عهد رسول الله ﷺ، وهي التي كانت عند حَبَّان بن واسع »(٣).

وهــذه أيضًــا لا نعلم عن حياتِها شـيئًا ذا بال، ولا نعلم أشـاعرة هي أو لا، ولا نعلم متى ماتت، وليس في المرثية نفسِـها صُوًى تهدينا إلى شيء، والرأي في مثل هذه الحال أن نقولَ: إنها مرثية من تلك المراثي التي ينبغي أنْ لا يُجزم فيها برأي .

---

(١) مثال ذلك نسبته إحدى قصائد صفية إلى أروى خطأً ص٣٠٣ من هذا الكتاب.

(٢) انظر: الطبقات الكبير ٢/٢٨٦ – ٢٨٧.

(٣) الاستيعاب ٤/١٩٢١، وفي جمهرة أنساب العرب: زوج حَبَّان بن مُنقذ بن عمرو ص٢٥٣ (تحقيق عبد السلام هارون).

الباب الثالث

الخَصَائِصُ الفَنيَّة في المرَاثِي النَّبويَّة

(١)
البِنَـاء

لعـلَّ النقاد العرب حفلوا بالبيت الأول من بنـاء القصيدة ما لم يحفلوا بغيره من أجزاء بنائها [١]؛ فهو أول ما يطرُق الأسماع منها، وهو زِمَامُها الذي يسوقها إلى وِجهتها، وهو الباب الذي يدلُّ على أرجائها.

ولم يكن الأولون يثبتون العناوين في رؤوس أشـعارهم، وعسى المطلع في قصائدهم أن يقوم بمقام العنوان في القصيدة الحديثة [٢]، ولا سيَّما إذا خلت من المقدِّمات كما هي الحال في المراثي النبويَّة.

وقد جعلوا من علامات حسن الابتداء أنْ لا يخالف المطلع مقياسًا من مقاييس اللغة، وألا يكـون بـاردًا، وأن يكـون دالاً على ما بُنيت القصيدةُ عليه، فـإذا كان نادرًا آسرًا مع ذلك بلغ براعة الاستهلال [٣].

وحسـبنا أن نقـول: إنه لـم يُؤثَر في مطالع المـراثي النبويَّة ما يُعاب، وإن عـددًا منها كان حَسَن الابتداء، وربما جاوز بعضُها فاستهلَّ استهلالاً ساحرًا أخَّاذًا.

---

(١) انظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حِجَّة أبي بكر علي الحموي ١٩/١ (شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١/١٩٨٧م).

(٢) انظر: النصّ الشعري وآليات القراءة، للدكتور فوزي سعد عيسى ص١٦ (منشأة المعارف بالإسكندرية).

(٣) انظر: بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، للدكتور يوسف حسين بكّار ص٢٠٤ (دار الأندلس، بيروت، ط٢/١٩٨٢م).

وكان شعراء المراثي يذهبون في أوائل قصائدهم مذاهب شتَّى، وللشعراء - كما يقول ابن رشيق - « مذاهب في افتتاح القصائد »[(١)]؛ فمن الصحابة من بَغَته الحزن، وطغَى على قلبه، فلم يجد مفتتحًا خيرًا من ذكر نبأ البلاء الذي ألمَّ به، كقول عبد الله ابن سلمة:

إنَّ فَقْدَ النَّبِيِّ صَرَّعَنَا اليَوْ مَ، فَدَتْهُ الأَسْمَاعُ وَالأَبْصَارُ

وقولِ عمرو بن العاص:

صَدَعَ القُلُوبَ مَقَالَةُ الحُدَّانِي وَنَعَى النَّبِيَّ خَمِيصَةُ بْنُ أَبَانِ

وقريبٌ من افتتاح عمرٍو هذا افتتاحُ ابن ذي أصبحَ لمرثيته.

ومنهم من أحاطت المصيبةُ به فلم يهنأْ بنومٍ، ولا أغمضَ جَفْنًا، وبات أسِفا، من هؤلاء عبد الله بن أُنيس، وأبو سفيان بنُ الحارث القائل:

أَرِقْتُ فَبَاتَ لَيْلِي لاَ يَزُولُ وَلَيْلُ أَخِي المُصِيبَةِ فِيهِ طُولُ

ولكنَّ التي فضَّلت هذا الاستهلال، فاستهلّت به غيرَ مرثيةٍ من مراثيها؛ عمَّةُ النبيّ صفيَّة بنتُ عبد المطلب، من ذلك قولُها:

آب لَيْلِي عَلَيَّ بِالتَّسْهَادِ وَجَفَا الجَنْبُ غَيْرَ وَطْءِ الوِسَادِ

وكلُّ هذه المطالع مدخلٌ يراد به التنبيهُ إلى غرض القصيدة، والإسراعُ بالقارئ إليها من غير إبطاءٍ بمقدِّمةٍ طلليّة، أو مراوغة بغَزل أو نحوه، وهي كلها جملٌ خبريَّةٌ نلمس منها بُعْدَ هؤلاء الشعراء عن إلهاب العواطف بالأساليب الإنشائيّة؛ فهي ملتهبةٌ أصلاً، وقلَّةَ حرصهم على توكيد أخبار حزنهم؛ لأنه ما من شاكٍّ؛ فالمصيبة قد عمَّت وطمَّتْ.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق، أبي علي الحسن القيرواني الأزدي ١/٢٢٥ (حقَّقه وفصَّله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت).

وقـد يمزجـون ذلك بمذاهـب عربيَّةٍ معتـادةٍ في الافتتاح، كالافتتاح بالنـداء، نداءِ ابنة الفقيد؛ كقول سالم الغطفانيّ:

أَفَاطِـمُ، بَـكِّـي وَلاَ تَسْـأَمِي لِصُبْحِـكِ مَـا طَلَـعَ الكَوْكَـبُ

أو نداء العين لتذراف الدَّمْع، والإسعاد على الحزن، وهو مذهب نسوةٍ بالسليقة، ولصفيَّة فيه ترجيعٌ وإعادةٌ كقولها:

عَـيْنُ جُـودِي بِدَمْعَـةٍ وَسُـهُودِ وَانْـدُبِي خَـيْرَ هَالِـكٍ مَفْقُـودِ

أو يفتتحون بالقَسَم توكيدًا على حُرْقة أفئدتهم لفراق الحبيب، كقول حسَّان بن ثابت:

آلَيْـتُ حِلْفَـةَ بَـرٍّ غَـيْرِ ذِي دَخَـلٍ مِـنِّيْ أَلِيَّـةَ بِـرٍّ غَـيْرِ إِفْنَـادِ

وهذه كلُّها ضروبٌ من الإنشاء تستحثُّ على الألم والبكاء.

وقد يفتتحون بحرف التنبيه « ألا » كقول قيس في الرجز:

أَلاَ لِيَ الوَيْـلُ عَلَى مُحَمَّـدِ

وهو افتتاح متوارَثٌ يُبتغَى به حشْدُ النفوس، والغنيمةُ بعقولها؛ لتلقي ما سيأتي في الشعر من النياحة والرثاء.

وقريـبٌ منه مذهبٌ في المراثي يرمي إلى التشـويق وتهيئة السـامع بتأخير ذكر الوفاة عن مستهَلّ القصيدة، كقول مسروق بن ذي الحارث الهمدانيّ:

قُلْـتُ وَالدَّمْـعُ كَالجُمَـانِ عَلَى النَّحْـ ـرِ وَقَـدْ لاَحَ فِي السَّـمَا العَيُّـوقُ
كُلُّ أَمْـرٍ وَإِنْ تَعَاظَمَـنِي الصَّبْـ ـرُ عَلَيْـهِ سِوَى النَّـبِيِّ دَقَيـقُ

وقول ذي الكلاع:

قَدْ أَتَى حِمْيَرَ أَمْرٌ شَامِلٌ   قَاطِعٌ لِلظَّهْرِ مُزْرٍ بِالأَمَلْ
مَوْتُ مَنْ كَانَ بِقَاهُ رَحْمَةً   كُلَّ شَيْءٍ مَا خَلاَ هَذَا جَلَلْ

وفي هذا النوع من الافتتاح حَمْلٌ للمخاطب على التمهُّل وإصغاء السمع، لأن نفسَه تهفو إلى معرفة ما سيُذكر في عقِب الدِّيباجَة المُحَبَّرة؛ فالصورة التي في مستهلّ مرثية مسروق صورةٌ مركَّبة شائقة لا تُنال إلا بشيءٍ من التروِّي، حتى تتجمَّعَ في ذهن المتلقي تفاصيلُها، حينها سيدركها، ويدركُ قدْرَ معاناة الشاعر مما يجده من فقد الرَّسول ﷺ، ولسوف يتوق لاستماع بقية المرثية التي وقعت من نفسه موقعًا حسنًا.

والخبرُ الهائل الذي أخبر به ذو الكلاع في أوّل أبياته، فأخَّر المنعوت، وهو موت النبيّ ﷺ، وبادر بالنُّعوت، فقدَّمها، وأفاض في تهويلها استلابًا لوجدان الملقَى إليه الشعرُ، واستثارةً لكيانه؛ فلا يقَرُّ قرارُه حتى يعلم منتهى أمر الشاعر من قوله الجلَلِ هذا.

سوى أنَّ ما بدأ به عمرُو بنُ الفُحيل الزُّبَيْديُّ رثاءَه للنبي ﷺ وهو قوله:

أَسْعِدِينِي بِدَمْعِكِ الرَّقْرَاقِ   لِفِرَاقِ النَّبِيِّ يَوْمَ الفِرَاقِ

لَمِن أجود مطالع المراثي وأبرعِها؛ لسهولته وَيُسره وموسيقاه، وسِرُّ جماله في التَّكرار فيه، فقد تكرّرت الراء والقاف بينهما حركات مدٍّ طويلة يرتاح عندها صوتُ المُنشِد، وتأنس إليها ترانيمُه الخافتة، وقع ذلك في هذه الكلمات: « الرَّقراق » و« فراق » و« الفراق »، وكانت حركات المدّ الطويلةُ هذه قد وقعت مرتين قبلاً في كلمة « أسعديني » فزادت من طراوة البيت؛ وكان للتصريع والقافية المكسورةِ المُطْلَقةِ جرْسٌ رقيق ليِّنٌ أسدل على البيت من الحنين والأسى ما أسدلَه.

لقد رأينا في هذا المطلع الدموعَ متحدِّرةً صافيةً صفاءَ سريرةِ صاحبها، حارَّةً حرارةَ صدره الكليم، مُرَّةً كمرارة العلقم، وشعَرنا بها كأنها تنسابُ من فؤاده كما تنسابُ من عينيه، نعم، لقد وَشَى لنا بيتُ الشاعر الرقيق بكلّ هذا، وقد قيل: إن « نَظْم اللسان في حقيقته نظمٌ لما تجيش به الضمائر، وتغلي به القرائح. والنمط السَّويُّ من هذا النظم ما كان

نقيًّـا نقـاء هذه الخواطـر الدَّافقة في القلوب، متلاحقًـا تلاحق الأفكار الملتهبـة في الرؤوس، متجانسًـا تجانُس الأنباض المهتاجة في الصدور، سخيًّا خصبًا سخاءَ وخصوبةَ هذه النفوس؛ لأن كلام كلٍّ منا صحيفةُ لُبِّه »[1].

كما حفل النقاد بالمقاطع أيضًا؛ « فإنها آخر ما يبقى فى الأسماع، وربما حُفظت من دون سـائر الـكلام في غالب الأحـوال » [2]. وحرَصوا على أن يكون البيتُ الأخير مختارًا رائعًا، وسبيل ذلك « أن يكون مُحْكَمًا لا تُمكن الزيادةُ عليه، ولا يأتي بعده أحسنُ منه، وإذا كان أولُ الشعر مِفتاحًا له وجب أن يكون آخرُه قُفْلاً عليه »[3].

وأمَّا قول ابنُ أبي الأصبع: « وأما حُسن الخاتمة فقليلٌ في أشعار المتقدمين »[4]؛ فلا أدري مـا صحَّتُه. ولكنَّ الصحابـة - رضوان الله عليهم - افتنُّوا في مقاطـع مراثيهم، فمنهم من ختم بالحكمة، كمسروق بن ذي الحارث، وكعمرو بن العاص في قوله:

وَاعْلَـمْ بِـأَنَّ لِـكُلِّ سَـاعٍ سَـعْيَهُ ... هَـذَا - لَعَمْـرُ أَبِيـكَ - أَمْـرٌ جَامِـعُ

وهو ختام موافقٌ لرسـالة قصيدته التي فحواها: إن لم تُؤدُّوا ما أوجب الرَّسـول عليكم فقد جنَيْتُم على أنفسكم؛ لأننا لن نُضِيعَ حقَّ الرَّسول ﷺ حتى بعد مماته، وهذه صفوة قولنا ومُنتهاه.

ومـن ختامهم الحسـن قـولُ ابن النعمان العتكيِّ يشُـدُّ مـن أَزْرِ عمرو بـن العاص عامل الرَّسول ﷺ عليهم، ويُؤمِّنُه:

(١) دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، للدكتور محمد محمد أبو موسى ص٢٧٢ (مكتبة وهبة، القاهرة، ط/١٤٢٩هـ).

(٢) خزانة الأدب، لابن حجَّة ٤٩٣/٢.

(٣) العمدة، لابن رشيق ٢٣٩/١.

(٤) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الأصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد ابن ظافر المصري ص٦١٨ (تقديم وتحقيق الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي).

إنْ يَسْتَقِيمُوا كُنْتَ أَوَّلَ رَاكِبٍ أَوْ يَرْجِعُوا فَلَكَ الخِصَالُ الأَرْبَعُ:
حَقُّ الأَمِيرِ، وَذِمَّةٌ يَمَنِيَّةٌ وَمَهَابَةٌ، وَإتَاوَةٌ لاَ تُرْفَعُ

وحُسْنُه راجعٌ إلى ما فيه من التعزُّز وحسن التقسيم. ومثل هذا الختام يعلق في الخواطر؛ لحميد معناه، وحلاوةِ جرسه، فقد تُنشِده الألسنة في بعض الساعات وهي لا تدري.

ومن الختام الجيّد قولُ عمرو بن سالم:

فَوَاللهِ لاَ أَنْسَاكَ مَا دُمْتُ ذَاكِرًا لِشَيْءٍ، وَمَا قَلَّبْتُ كَفًّا وَأُصْبَعَا

فإن فيه من معنى الوفاء الملائم لمقام الرثاء وفقد الحبيب، والتعبيرِ عن ذلك صُراحًا بالقسم الذي يذكّر بقسم الأحبّة على بقاء العهد؛ وبالكناية عن طول الحزن وملازمته للشاعر في أحواله كلِها.

ومن بارع مقاطعهم الصُّورةُ الحيَّةُ التي ختم بها ابنُ ذي المشعار مَرثاتَه، فقال:

فَمَنْ يَقْذِفِ الدُّرَّ مِنْ حُقِّنَا عَلَى بَاطِلٍ أَوْ لِجَاجٍ دَمَغْ

صَوَّر بها شدَّتَهم وانصياعَهم للحق وحدَه، وأنهم في ذلك ماضون لا يُفَلُّ لهم حدّ. وهي صورةٌ أعمل فيها الشاعر فِكْرَه فغدت غريبةً لا تغادرها الأسماع إلا بعد مُكْثٍ. وهي رسالةٌ تختزل معنى القصيدة، وقد يجوز إنشادها مفردةً للدلالة عليها؛ فكان وقوعها في نهاية القصيدة مُفْلِقًا جودةً وصوابًا.

ومن بارعها الصورةُ التي سبقت في آخر رثاء مُرَّان مساقَ المثل:

لاَ يَرُدُّ الجَرِيحُ نَائِبَةَ الجُرْ حِ، وَلاَ الحَيُّ يَزْدَهِيهِ القَتِيلُ

أوردها إشارة إلى أن قضاء الله لا مَردَّ له، ولم يرد أن يقول ذلك مباشرة، ولكنه عبَّر عنه بهذه الصورة المستقرة في الضمائر ليحمل الناس على التسليم لقضاء الله تعالى بوفاة الرَّسول. أو أنه أوردها بعدما تغنَّى ببأس قومه تخويفًا لهؤلاء المرتدين من عاقبة ما سينزل

بهم من النِّكاية إذا هم تهيّؤوا لقتالهم وجمّعوا له، إنهم حينئذٍ هالكون مهلكًا لا تقوم لهم قائمةٌ بعده؛ إنهم قتلى فكيف يستخفُّون بهم وهم الأحياء الأشدَّاء.

ولعلَّ الصورةَ أمكنُ من غيرها في نهاية الشعر؛ ذلك أن فيها حكايةً ما ترحلُ بنا من عالمنا المحدود الضيّق إلى عالم الخيال الواسع الرَّحب؛ فنزداد متعةً، ونطَّلعُ على جديدٍ من السبل التي لم نعهدها من قبل في الوصول إلى معنى من المعاني.

ومن غريب ما خُتمت به المراثي بيتُ أبي الهيثم بن التَّيِّهان:

وَأَمْسَى مُسَيْلِمُ فِي اليَمَامَةِ غَالِبًا ... عَلَى النَّاسِ طُرًّا بِالقَنَا وَالمُهَنَّدِ

فهو نهاية مفتوحةٌ، مُشْرَعةٌ على مختلِف الدِّلالات؛ ففيه الحسرة لما نزل بالمؤمنين من خِذلانٍ بعد وفاة النبيّ ﷺ، وفيه الدَّهشة ممن نصر مسيلمة، وفي البيت التحريضُ على الجهاد بإيراد ما يغيظ، وفيه الإخبار بصَغار الناس بعد الرَّسول، وفي الرمز بـ(اليمامة) الخوف على (المدينة)، فالمدينة بَيْضةُ الإسلام وحرمُه الحرام، وإضمار « المدينة » هٰهنا من قَبيل المسكوت عنه في الشعر، وهو مقصود الشاعر، فالشاعر قد يصرّح بالشيء ليستدعيَ نقيضَه[1]، أو هو قد « يقول شيئًا وهو يعني شيئًا آخر »[2] وهذا الختامُ قد يصدق فيه قولُ ابن رشيق: « ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعُها والنفس بها متعلِّقةٌ، وفيها راغبة مشتهية... رغبةً في أخذ العفو، وإسقاط الكُلْفة؛ ألا ترى إلى معلقة امرئ القيس كيف ختمها بقوله يصف السيل عند شدة المطر:[3]

كَأَنَّ السِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى غُدَيَّةً ... بِأَرْجَائِهَا القُصْوَى أَنَابِيشُ عُنْصَلِ »[3]

---

(١) انظر المقدمة التي كتبها الدكتور أحمد درويش لترجمته لكتاب: اللغة العليا (النظرية الشعرية)، لجون كوين ص٥ (المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٥م).

(٢) نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر ، لديفيد بُشبندر ص ١٧ (وترجمة عبد المقصود عبد الكريم ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ٢٠٠٥ م)

(٣) العمدة، لابن رشيق ١/٢٤٠ - ٢٤١.

وكـأن ابن رشـيق يريد ليقـول أيضًا: إن النفس مشـدودةٌ لهـذه النهاية لتعلُّقِها بشـائق الصورة، وللذي تفتحه من واسع أبواب المعاني وراءها.

غـير أنَّ الختامَ الذي ألَحَّ عليه الصحابـةُ ورجَّعوه في مراثيهم للنبيّ ﷺ الختامُ بالدعاء له، والصلاةِ عليه، كأبي سفيان حين قطع رثاءه له بقوله:

صَـلاَةُ اللهِ مِـنْ رَبٍّ رَحِيـمٍ عَلَيْـهِ، لاَ تَحُـولُ، وَلاَ تَـزُولُ

وبه قطعت صفيَّة مراثيَ لها كثيرًا، منها هذا البيت:

رَحْمَـةُ اللهِ وَالسَّـلاَمُ عَلَيْـهِ وَجَـزَاهُ المَلِيـكُ حُسْـنَ الثَّـوَابِ

قال ابن رشيق: « وقد كرِه الحُذَّاق من الشعراء خَتْمَ القصيدة بالدعاء؛ لأنه مِنْ عمل أهل الضعف؛ إلا للملوك »[1]، والرَّسـول ﷺ في نفوس هؤلاء الشـعراء أعزُّ وأرفعُ من كل الملوك، ولن يؤديَه حقَّه - في نظرهم - إلا اللهُ الغنيُّ البرُّ الكريم، وليس لهم من عزاءٍ في وفاة رسوله إلا فضلُ الله وجودُه ورحمته، وما من رجاءٍ لهم في هذا الموقف سواه؛ فكان قطع الرثاء بالدعاء غايةً ابتغى الصحابةُ بقاءها في أسماع الناس وعلى ألسنتهم.

وأحسبُ أن المرثية النبوية خلُصت فيما بين ذلك لموضوعٍ واحدٍ هو رثاء النبيّ ﷺ، ولم تخرج عن هذا الغرض. أمَّا ما ظاهره خلافُ ذلك كقول عمرو بن العاص:

لَيْـسَ الخَلِيفَـةُ تَـارِكًا لِزَكَاتِكُـمْ مَـا دَامَ سَـلْعٌ فِي الْبَسِـيطِ وَفَـارِعُ

ينقـل فيـه عزم الخليفة على اقتفاء سـنة النبيّ ﷺ لا يلويه عن عزمـه شيءٌ؛ وقولِ مسروقٍ مؤكدًا ولاءَه للخليفة، موجِّها الحديثَ له:

إِنَّ ذَا الأَمْـرَ فِيكُـمُ فَخُـذُوهُ ثُـمَّ قُـودُوا إِلَى النَّجَـاةِ وَسُـوقُوا

وقولِ مُرَّان واعدًا إيَّاه بالنصرة والوفاء:

(١) العمدة ١/٢٤١.

قُـلْ لِهَـذَا الإِمَـامِ: عَضُـدُكَ فِي الحَرْ ... ـبِ عَلَى النَّـاسِ حَاشِـدٌ وَبَجِيـلُ

وقولِ عديّ بن حاتم متهدِّدًا جحافلَ المرتدين من فَزارة وذُبيان:

وَإِنَّـا وَإِنْ جَاشَـتْ فَـزَارَةُ كُلُّهَـا ... وَذُبْيَـانُ فِي مَـوْجٍ مِـنَ البَحْـرِ مُزْبِدِ

وَأَجْـرَى لَهُـمْ فِيهَـا ذُيُـولَ غُـرُورِهِ ... طُلَيْحَـةُ مَـأْوَى كُلِّ غَاوٍ وَمُلْحِـدِ

نُغَادِرُهُـمْ بِالسَّيْفِ حَـتَّى نُقِيمَهُـمْ ... بِصُـمِّ العَـوَالِي وَالصَّفِيحِ المُهَنَّـدِ

وَحَـتَّى يُقِـرُّوا بِالنُّبُـوَّةِ أَنَّهَـا ... مِـنَ اللهِ حَـقٌّ، وَالكِتَابِ لأَحْمَـدِ

وقـولِ ابـن النعمان العتـكيّ مؤمِّنًا عمرو بن العاص وقـد توزَّعت الردَّةُ الناسَ من حـوله:

فَأَقِـمْ فَإِنَّـكَ لاَ تَخَـافُ، وَجَارُنَـا ... يَـا عَمْـرُو، ذَاكَ هُـوَ الأَعَـزُّ الأَمْنَـعُ

وما جاء من إشفاقهم على حِمَى الدين من جَريرة الردَّة، كقول عبد الله بن سلمة الهمْداني:

فَاحْـذَرُوا اليَـوْمَ رِدَّةً تَصْدَعُ الشَّـعْـ ... ـبَ مِـنَ العِلْـمِ عِظْمُهَـا الإِنْكَارُ

وقولِ عبد الحارث بن أنس:

أُحَـاذِرُ إِنْ لَـمْ يَدْفَـعِ اللهُ جَوْلَـةً ... مُجَدَّعَـةً يَبْيَـضُّ مِـنْ هَوْلِهَـا الشَّـعَرْ

وما كان من غضبتهم لشـماتة الشـامتين بموت الرَّسـول ﷺ، كقول أبي الهيثم مالك بن التيّهان:

فَـإِنْ تَـكُ هَـذَا اليَـوْمَ مِنْهُمْ شَـمَاتَةٌ ... فَـلاَ يَأْمَنُـوا مَـا يُحْـدِثُ اللهُ فِي غَـدِ

وقولِ شدّاد بن مالك في بلاغِهِ إلى أبي بكر:

أَبْلِـغْ أَبَـا بَكْـرٍ إِذَا مَـا جِئْتَـهُ: ... إِنَّ البَغَايَـا رُمْـنَ كُلَّ مَـرَامِ

أَظْهَـرْنَ مِـنْ مَـوْتِ النَّـبِيِّ شَـمَاتَةً ... وَخَضَـبْنَ أَيْدِيَهُـنَّ بِالعُـلاَّمِ

فَاقْطَـعْ - فُدِيـتَ - أَكُفَّهُـنَّ بِصَارِمٍ ... كَالـبَرْقِ أَوْمَـضَ فِي مُتُـونِ غَمَـامِ

وقولِ امرئ القيس بن عابس في بلاغِهِ الآخر:

يَـا رَاكِبًـا إِمَّـا عَرَضْـتَ فَبَلِّغَـنْ عَـنِّي أَبَـا بَكْـرٍ خَلِيفَـةَ أَحْمَـدِ:
لاَ تَتْرُكَـنَّ عَوَاهِـرًا سُـودَ الذُّرَى يَزْعُمْـنَ أَنَّ مُحَمَّـدًا لَـمْ يُفْقَـدِ
اشْـفِ الغَلِيـلَ بِقَطْعِهِـنَّ فَإِنَّهَـا كَالجَمْـرِ بَـيْنِ جَوَانِـحِي لَـمْ تَـبْرُدِ

أقول: هذه الأبيات هي من قَبيل رثاء النبيّ ﷺ أيضًا؛ لأن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانـوا يرَون شرف الرَّسـول فيهم مـن شرف الدّين، وأنَّ نيل الدّين بـأذًى بعد وفاة النبيّ ﷺ إيذاءٌ للنبي نفســه، ورأوا في الطاعة لخليفته، والإقرارِ له ونصرِه، ونصرِ رسـل رسول الله ﷺ وعُمَّاله، وحربِ المرتدّة والإثخانِ فيهم، وإبعاد الشامتين والإغلاظِ لهم، وتهدُّدهم باستئصال شـأفتهم[١]؛ رأوا في ذلـك كلِّه وفاءً للنبي ﷺ، وقيامًا بحقـه، وامتثالاً لما يُحب؛ ورأوا في مزجه بالقصائـد رثاءً حقًّـا صريحًا قد لا يعدِله التباكي والنياحةُ فيهـا؛ فصاروا لا يفتُرون عن ذكر ذلك والتعويل عليه.

وهذه الأبيات إنما قالها نَفَرٌ ممن تأخَّر إسلامهم فلم يفوزوا من رسول الله ﷺ بما فاز به أصحابُهم، وهؤلاء كعديّ بن حاتم؛ فكان الجهاد لإعلاء كلمة الله، والولاءُ لخليفة رسول الله عزاءَهم وقد علموا محبَّة الرَّســول لذلك، فما فتِئوا ينشَـطون إليه، أَسِـفين أن لم يلحقوا كما لحـق إخـوانٌ لهم؛ وانظر إلى قول عبد الله بن سـلمة وهو يئِنُّ ويأسى لمـا قد فاته وفات قومَه من الشرف والخير والمكانة:

إِنَّ فَقْـدَ النَّـبِيِّ صَرَّعَنَـا اليَـوْ مَ، فَدَتْـهُ الأَسْـمَاعُ وَالأَبْصَـارُ
وَفَدَتْـهُ النُّفُـوسُ، لَيْـسَ مِـنَ المَـوْ تِ فِـرَارٌ، وَأَيْـنَ أَيْـنَ الفِـرَارُ
مَـا أُصِيبَـتْ بِـهِ الغَـدَاةَ قُرَيْـشٌ لاَ، وَلاَ أُفْـرِدَتْ بِـهِ الأَنْصَـارُ؛
دُونَ مَـنْ وَجَّـهَ الصَّـلاَةَ إِلَى اللَّــ ــهِ وَقَـدْ هَنِئَـتْ بِـهِ الكُفَّـارُ

---

(١) انظر قولًا في علاقة الرثاء بالقتال والثأر في كتاب: الرثاء، للدكتور شوقي ضيف ص٨.

ذلك، أمَّا القصيدة نفسُها فلم يَحُدَّ القدماء اسمَها بعدد ثابتٍ من الأبيات، ولا فكَّروا في ذلك، وكان الشعراء العرب يميلون إلى القصائد القِصار في الأغلب لأسباب هي من طبيعة الشعر الغنائي[١] الذي يقصِد إلى مَسّ الشَّغاف، والضرب على وتر الأحاسيس؛ « قيل لابن الزِّبَعْري: إنك تقصّر أشعارَك. فقال: لأن القصار أولَجُ في المسامع، وأجولُ في المحافل »[٢].

ثم إنَّ نَقَدَةَ العرب أرادوا تمييز الشعر من حيث طولُه، فاصطلحوا على أن الشعر إذا زاد على سبعة أبياتٍ أو كانها فهو قصيدة، وما دون ذلك مقطَّعة[٣]. وقيل: عشرة[٤]. وهذا اصطلاحٌ لا مُشاحَّة فيه، ولا هو بلازم؛ فقد يزيد الشعر على سبعةٍ وعلى عشرةٍ ولا تستكملُ القصيدةُ أركانَها، وقد ينقص عن ذلك وهو قصيدةٌ تامَّةُ الأركان والصفات في احتوائه للتجربة، وإعرابه عن طوايا النفس إعرابًا غير مَنقوص[٥].

ولكنَّ الأمر مستقرٌّ على أن القصائد الجِياد هي القصائدُ المصوِّرةُ للمشاعر من غير تعثُّرٍ أو اقتصار مخلّ، وهذه القصائد يغلب أن تكون طويلةً شيئًا ما. وبهذا المعنى يُفهم ما ذهب إليه بعض النُّقاد من اشتراط أنْ لا تكون القصيدة بالغةَ القِصر لا يُستطاعُ بها نقلُ التجربة، ويفهم اشتراطُهم أيضًا أنْ لا تكون بالغة الطول فتنفصمَ وَحدتُها[٦].

وبذلك يصدق نعتُ (القصيدة) على جُلِّ المراثي النبويَّة في أشعار الصحابة.

---

(١) انظر: بناء القصيدة، للدكتور يوسف بكار ص٢٤٣.

(٢) العمدة ١/١٨٧.

(٣) انظر: المصدر السابق ١/١٨٨.

(٤) انظر: المصدر السابق ١/١٨٩.

(٥) من أمثلة ذلك بعض سونيتات شكسبير التي لا تزيد على أربعةَ عشر سطرًا شعريًّا، وهي مستكملةُ التجربة الشعرية مع أنَّ السطر قريبٌ حجمُه من الشطر في الوزن الخليلي، أي أنها في نحو سبعة أبياتٍ عربيَّة (انظر نصًّا مترجمًا لإحداها ونقدًا له في كتاب: الصورة والبناء الشعري، للدكتور محمد حسن عبد الله ص١٩٩، دار المعارف ١٩٨١م).

(٦) انظر: النقد الأدبي الحديث، للدكتور محمد غنيمي هلال ص٣٨١ (دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٩٦م).

وبناءً عليه فإن عدد قصائد المراثي النبويَّة يبلغ أكثر من ضعف عدد مقطَّعاتها.

وبيـان ذلـك أنه إذا كانت المراثي النبويَّة من غير مُكرَّر النسـبة سـتًّا وسـبعين مرثيةً ما بـين صحيحـة وضعيفة؛ فإن ما صحَّ مـن قصائدها هو ضعف ما صح مـن مقطَّعاتها، ومن الطريف أن الزائف من القصائد يفوق عدد الزائف من المقطَّعات أيضًا.

وإليك إحصاءً يصوّر ذلك:

	القصائد	المقطّعات
الصحيح:	٣٠	١٦
الضعيف:	١٧	١٣

فالقصائد التي زادت على عشرة أبياتٍ أو بلغتها وهي صحيحةٌ عددٌ غيرُ هيّن، وهي أكثر عددًا وأبياتًا من مثيلاتها الزائفة. وهذا جدولٌ يصف أطوال المراثي وأعدادَها:

	المراثي الصحيحة	المراثي الزائفة
ما كان عشرةً فأكثر:	١٤	٨
	٣٠	١٧
ما دون عشرةٍ إلى سبعةٍ:	١٦	٩
ما دون السبعة:	١٦	١٣

فالمراثي النبويَّة إذن قصائدُ أكثر منها مقطَّعات، وقصائدها مع ذلك قصارٌ لم يزد معظمها على تسعة أبياتٍ، أما ما زاد عليها فإنه لم يكد يجاوز نيّفًا وعشرين بيتًا، هي هذه:

القصائد الصحيحة عشرة أبيات فأكثر

أصحابها	عدد أبياتها
سالم الغطفانيّ	٢٤
أبو سفيان بن الحارث	١٩
مسروق بن ذي الحارث	١٨
مُرّان بن عُمير	١٧
عبد الله بن أُنيس	١٦
سواد بن قارب	١٤
عبد الحارث بن أنس	١٤
أبو الهيثم بن التيّهان	١٣
عبد الله بن سلمة	١٢
يزيد بن ذي المشعار	١١
عمرو بن سالم	١١
عديّ بن حاتم	١٠
صفيَّة بنت عبد المطلب	١٠
صفيَّة بنت عبد المطلب	١٠

وما دام الأمر كذلك فإنه يُظنّ بالقصائد عمومًا - وإن كانت قصيرة - ما لا يُظن بالمقطّعات من إبرازٍ لمظاهر الحزن، وإطالةٍ للقول في حقّ الفقيد المرثيّ.

فالقصائد القِصار تجمع بين فضيلة المقطّعات من حيث وحدةُ الغرض، وفضيلةِ القصائد من حيث الرَّحابةُ والاتِّساعُ للمعاني الكائنةِ في كيان الشعراء.

ومن الإصابة القولُ: إن الصحابة لم يطوّلوا المراثي - إضافة إلى ما في طبيعة شعرهم العربيّ من الإيجاز والإشارة - لم يفعلوا ذلك بسببٍ من الذُّهول الذي أصاب عقولَهم يوم الوفاة، فلم يقدِر القويُّ منهم إلا على أبيات معدودات.

وكان إنشاد بعض المراثي كمراثي نفرٍ من اليمنيين في سياق الخطابة[1] سببًا آخرَ من أسباب قِصرها؛ لأن المرثية لم تكن غايةً في نفسها في تلك المواقف، ولكنها جاءت تبعًا للخطبة، مقدمةً لها أو تذييلاً.

ولم تطُل مراثي كثير من الصحابة لأنهم لم يكونوا من الشعراء أصحاب صنعة الشعر، ولكنهم كانوا قومًا من العرب لا يُقهرون عن قول شيء من القصيد.

كما كان للنساء نصيبٌ من إنشاء أشعار هذه المراثي، وشعر النساء في الرثاء يغلب عليه القصر منذ عصر الجاهلية.

وكانت بعض المراثي ضاعت منها أبياتٌ فقلَّتْ[2]، وأكبر أسباب ضياعها ضياعُ كتبها التي كانت ترويها كاملةً، وصارت روايةُ مختاراتٍ منها فيما سلِم من كتبٍ دليلاً على بقيَّتها، ومثل هذا رأيناه في كتاب الإصابة خيرَ رؤية حين يستشهد ابنُ حجرٍ للشاعر ببيتٍ أو بيتين ويقول: إنهما من قصيدة[3].

وأكثرُ هذه الكتبِ الضائعةِ الكتبُ المؤرِّخة لليمن، ككتاب الإكليل الضائع أكثرُه، وفيه من أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها الجمُّ الغفير؛ وكتبُ الرِّدَّة التي هي مظنّة إيراد هذه المراثي،

---

(١) انظر: منح المدح ص١٥٧ – ١٦٦.

(٢) انظر هذه الدراسة ص١٨٩.

(٣) كما فعل في مرثية عبد الله بن سلمة مثلًا.

وقد نَقل قِطَعًا من بعض هذه الكتب الكَلاعيُّ وابنُ حجرٍ والمقريزيُّ، ووجدنا في هذه النُّتَف القليلة من نادر المراثي ما لم نجده في غيرها من كتب الأدب والتاريخ والسِّيَر، فما الظنُّ لو وقعت أيدينا على هذه الكتب تامَّةً على صورتها الأولى[1] ؟

وقد يرجع أمر القلَّةِ هذا « إلى طبيعة الرثاء نفسه؛ فالشاعر فيه يجد نفسه محصورًا في نطاقٍ محدود من ناحية المعاني، وقلَّما يقبل هذا الموضوعُ موضوعًا آخر يشاركه في القصيدة الواحدة. بخلاف غيره، كالمديح، حيث يتعدّد في قصيدته الموضوعات. من هنا كانت الوَحدة الموضوعية ظاهرةً لافتةً فيما وصلَنا من رثاء »[2].

* * *

---

(١) من كتب الردَّة المفقودة: كتاب الردَّة لوثيمة بن موسى، وكتاب الردَّة لأبي الحسن علّي بن محمد القرشيّ (انظر: كشف الظنون ص١٤٢٠) وكتاب الردَّة لإسحاق بن بشر(انظر: الفهرست ص١٠٥)، وكتاب الردَّة لإسماعيل بن عيسى العطار (انظر: الفهرست ص١٢٢)، وكتاب الردَّة لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي، وكتاب الردَّة لابن المديني علي بن عبد الله، وكتاب الردَّة لأبي مخنف لوط بن يحيي الكوفيّ (انظر: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، لإسماعيل باشا بن محمد أمين البغدادي ٢/٢٩٩، عني بتصحيحه محمد شرف الدين بالتقايا ورفعت بيلكه الكليسي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣هـ)، وكتاب الردَّة والفتوح لسيف بن عمر الأسيدي (انظر: فهرسة ابن خير الإشبيلي، أبي بكر محمد بن خير بن عمر الأموي ص٢٠٤، تحقيق محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ)، ولم يسلم من كتب الردَّة إلا الكتاب المنسوب للواقدي.

(٢) شعر الرثاء والصراع السياسي والمذهبي في صدر الإسلام، للدكتور محمد أبو المجد علي (دار الدعوة، الإسكندرية، ط١/١٩٩٤م).

(٢)
اللُّغَـة

دارت في مراثي الصحابة للنبي ﷺ مجموعاتٌ من الألفاظ، منها مجموعةُ ألفاظ الدُّموع والبـكاء، وقـد وقعت في مثل هذه الجمل: « وأسـعدني البكاء (أبو سـفيان)، وماء عيوننا جـارٍ (العتـكيّ)، وبكّـت عليه الأرض، وبكّته آفاق السـماء (عبد الحارث)، لا أبكي على هُلـك هالـك، ولكنـني باكٍ عليـك (عبد الله بـن أُنيس)، بكت الأرض والسـماء عليـه، وبكاه خليله جبريلُ، وأجرت دمع عـين فللجُفون همول (مُرّان)، فبكت عليه أرضنـا وسـماؤنا (سـواد)، أفاطم بكّـي، هو المرء يُبـكي وحُقَّ البكاء، فيـا عين ويحك لا تسـأمي، ومـا بال دمعك لا يُسـكب، فإن تبكِه تبـك خير الأنام، وإن تبكـه تبك... إلخ، وتبكي الرَّسـول... شـهود المدينة... إلخ (سـالم)، بكت الأرض والسماء على النور (عامر بـن الطُّفيـل)، يا عـين فابكي بدمع ذري (كعب)، أسـعديني بدمعـك الرقراق (عمرو بـن الفُحيـل)، فيـا عين جـودي بالدموع السـواجم (صفيَّـة)، أعيني جودا بدمعٍ سـجم (صفيَّة)، أعيني فاسـحنفرا واسـكبا (صفيَّة)، عين جودي بدمعة تسكاب (صفيَّة)، عين جـودي بدمـع منـك منحـدر (صفيَّـة)...».

والتفسير لكثرة هذه الألفاظ أنها مرآةٌ انعكست عليها مشاعر التفجُّع الشديد، والألم الشائع، وهي على كثرتها ملائمةٌ لكبير مقام الفقيد ﷺ حين لم يجد الصحابة من حيلةٍ إلا البكاء والدمع، والبكاء حيلة إنسانيَّةٌ فطريّة عامّة، لا يكاد يفارق بشرًا صادقًا في حزنه.

ومنها مجموعة نُعوتِ النبيِّ محمد ﷺ[1]: « وجوادًا كنا نَبَذُّ به الناسَ (مسروق)، دليلٌ، لا يخون ولا يحول (أبو سفيان)، رحمة (مُرّان)، هادي الناس، شارع الحِلِّ لهم والحرام (الزِّبرقان)، خير الأنام، كثير الفواضل، لا يجدب، سهل الجناب، محض الضرائب، لا يُؤْشب، نور البلاد، ضخم الدسيعة، لا يحسِب، سريعٌ سوابله، مخصِب، واري الزناد، صدوق المقالة، لا يكذب (سالم)، خير من حملت ناقة، أتقى البريّة، سيّد، ماجد، جحفل، سراج في الدجى، بشير منذر، نور (كعب)، غيث يجيء للبلد المَحْل، شمس تضيء للإشراق، دليل يدعو العباد إلى الله، بحر يصبُّ عذب المذاق، ضياء البلاد، القمر الزاهر وافى تمامَه لاتّساق (عمرو بن الفُحيل)، النور (عامر)، رسول الرحمة، الهادي، نور يستضاء به، مبارَك الأمر، ذو حزمٍ وإرشاد، مصدِّق للنبيين، أبذل الناس للمعروف، خير البرية (حسَّان)، بدر، نور يستضاء به، أبٌّ سهل خليقته، محض الضريبة والأعراق والنسب، رجاؤنا، بَرٌّ، رحيم، أعظم الناس في البرية، سيد الناس، نورٌ ساطع، صفوة الله، المرتضى للهدى والتقى، الطاهر، المرسل، المجتبى، المصطفى بالنور، كريم الخِيم، أروع، مَضرحيّ، طويل الباع، منتجب، نديب، ثِمال المعدمين، مأوى كل مضطهد، موفّق في كل أمر، المصطفى، فاتح، خاتم، رحيم، رؤوف، صادق القيل، طيب الأثواب، مشفق، ناصح، رحمة من إلهنا، رحمة، خير رشيد، طيب العود والضريبة والشِّيم، محض الأنساب، واري الزناد، أبلج، صادق السجيّة، عَفّ، صادق الوعد، منتهى الرواد، بَرٌّ، نُهبة المرتاد (صفيَّة)، الفاضل، السيّد، المصطفى، (عاتكة بنت زيد)... ».

هذه الإفاضة في نعوت النبيّ ﷺ وصفاتِه اشتبكت فيها نعوتُه الدينيّة بنعوته البشريّة؛ فلعلَّ الذين أكثروا من النعوت البشريّة أكثروا منها إمَّا لبُعدهم عن رسول الله ﷺ فلم يمسسهم من روح الدين ما مسَّ إخوانَهم، وإمَّا لأنَّ بعضهم كان لمَّا يزل بعدُ أسيرًا لصيغ الشعر القديمة، ولا سيَّما في مقام الثناء والمديح كسالم الغطفانيّ، أو كانوا ممن قرُب منه جدًّا فعرف من صفاتِ الجِبلَّةِ فيه مثلَما عرف من آثار الوحي فيه؛ فاستوت النعوتُ لديه، وهؤلاء

(١) هذا سوى نعته ﷺ بالنبيّ والرّسول؛ فإنه منطقيٌّ كثير، ولا معنى لحصره.

كعمتـه صفيَّـة رضي الله عنهـا . ولكنَّ بقيَّة النعـوت خلا ذلك نعوتٌ تَمُتُّ إلى الإسـلام بصلة.

وسائر ألفاظ المراثي النبويَّة إنما مَثَلُها كَمَثل هذه الألفاظ التي مرَّت ألفاظٌ قريبةٌ سهلة، قصيرةُ المبنى، مألوفةٌ، واضحةٌ بنفسها أو بجملتها.

وإن ألفاظًـا كهذه الألفاظ: الفُواق، البِكار، يـزدهي[1]، قُبَّ (البطون)، النَّهْي[2]، التِّمام[3]، العَـبَر، يُحـيَّن[4]، القَيْل[5]، تَرداد، جَنـاب، مُمْرِع[6]، تسـتكُّ، أزِمَّة، مَحَجَّة[7]، الشَّـنآن، قِيعة، قَدْفَـد[8]، المتـلدِّد[9]، العِفْوَة[10]، أَلِّية، إفناد، الجادي، الصادي، المُسـوح[11]، العُـلاَّم[12]، نَبَذُ، مَـذْق، تُفْـروق[13]، هنْبَثـة[14]، قَصرْة[15]، كبـا، مُكْتَنِع، الحَـين[16]... ؛ إن تكـن غريبةً هي أو بعضُها في عصرنا، فإنها ليسـت بغريبةٍ ولا معيبةً في عصر المخضرمين؛ لأن غرابة الألفاظ

---

(١) مرثية مُرَّان.

(٢) مرثية عمرو بن العاص العينيَّة.

(٣) مرثية الزبرقان.

(٤) مرثية عبد الحارث بن أنس.

(٥) مرثية عبد الله بن مالك الأرحبي.

(٦) مرثية سواد.

(٧) مرثية عبد الله بن أُنيس.

(٨) مرثية أبي الهيثم.

(٩) مرثية عديّ بن حاتم.

(١٠) مرثية سالم الغطفانّي.

(١١) مرثية حسَّان (إفناد).

(١٢) مرثية شدَّاد.

(١٣) مرثية مسروق.

(١٤) مرثية صفية (الخطب).

(١٥) مرثية صفية (جافيا).

(١٦) مرثية عاتكة بنت زيد.

ودلالتها تختلف باختلاف العصور والبِقاع والأزمنة.

فثمّة ألفاظٌ قد يغيب عنّا معناها لأنّنا لم نألفها في بيئتنا المدنيّة كالبِكار جمع بَكرٍ، وهو الفَتِيُّ من الإبل، أو لم نألفها في بيئتنا الدينيّة كالمسوح، وهي لباس الرّاهبات. وألفاظٌ قد لا نعرف معناها لابتعادنا عن الدّقة في استعمال أسماء الأشياء وأوصافها، كالعِقوة وهي باحة المنزل، والفَدفَد المكانُ المرتفع الذي فيه غِلَظ وصلابة، والعُلاَّم الحِنّاء، والفُواق المدة بين الحلبتين. وألفاظٌ عَزَبت عنا لندرة الاستعمال أو انقطاعه منذ زمن مديد، كمُكْتنِع: وهو المتشنّج المنقبض، وقَصرة: أي دون الناس. وألفاظٌ خاصّةٌ ببلدٍ من العرب دون بلد، كالقَيْل: الملك بلغة اليمن.

إنّ غرابة الألفاظ في عصرٍ من العصور ينبغي أن توكل إلى أبناء ذلك العصر من العلماء والنقّاد، ليقولوا هم فيها. وليس بمَدخلٍ أن يقال: إنَّ القدماء كانوا يعرفون اللغةَ كلَّها؛ فهذا غير صحيح؛ فإنَّ العلماء من القدماء كانوا يستغربون بعض الألفاظ، كبعض ألفاظ للهُذليّين[1]، وألفاظٍ للبيد بن ربيعة مثلاً[2]، ويختلفون في معانيها.

ومما يُرصد في هذه المراثي ذيوعُ أسماء الأعلام، فمن الصحابة من انقضَّ عليه النبأ فكاد يُلجم لسانَه ويقطع بيانه، فلما أراد الشروع في الشعر ثقُلت قريحتُه ولم يجد من مدخل سوى شخص الناعي الماثل أمامَه؛ فتعلَّق باسمِه، وانصرف إلى لفظِه، إمّا معاتبًا ومبكِّيًا كابن ذي أصبح في قوله:

صَدَعَ القَلْبَ أَهْوَدُ إِذْ نَعَى لِي مُحَمَّدَا
لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ رَأَيْـ ـتُ أَخَا الأَزْدِ أَهْوَدَا

وإمّا مكتفيًا بجعل اسمه بابًا لمرثيته كما فعل عمرو بن العاص في ابتداء كلمته:

---

(١) انظر: شعر الهذليين، للدكتور أحمد كمال زكي ص٣٠٨-٣٢١.

(٢) انظر: طبقات فحول الشعراء ١/١٢٣.

صَـدَعَ القُلُـوبَ مَقَالَـةُ الحُـدَّانِي وَنَـعَى النَّـبِيَّ خُمِيصَـةُ بْـنُ أَبَـانِ

والحدّانيُّ هو خميصة بنُ أبان نفسُـه، ولكنَّه اعتلال القريحة لاعتلال القلب. أوكما فعل امرُؤ القيس بن عابس في ابتداءته بذكر « جهبل »:

شَـمِتَ البَغَايَـا يَـوْمَ أَعْلَـنَ جَهْبَـلٌ بِنَـعِيِّ أَحْمَـدِ النَّـبِيِّ المُهْتَـدِي

ومنهم من فتح مرثاته بخطاب الثواكل من آل بيت النبيّ ﷺ، كسالمٍ في قوله:

أَفَاطِـمُ بَكِّـي وَلاَ تَسْـأَمِي لَصُبْحِـكِ مَـا طَلَـعَ الكَوْكَـبُ

ومنهم من جعل هذا الخطاب حَشْوَ قصيدته كأبي سفيان بن الحارث في قوله:

أَفَاطِـمُ إِنْ جَزِعْـتِ فَـذَاكِ عُـذْرٌ وَإِنْ لَـمْ تَجْـزِعِي فَهُـوَ السَّـبِيْلُ

وصفيَّة في قولها:

أَفَاطِـمُ صَـلَّى اللهُ رَبُّ مُحَمَّـدٍ عَلَى جَـدَثٍ أَمْـسَى بِيَـثْرِبَ ثَاوِيَـا

وعمرِو بن سالم في قوله:

فَيَـا حَفْصُ إِنَّ الأَمْـرَ جَلَّ عَنِ البُكَا غَـدَاةَ نَـعَى النَّـاعِي النَّـبِيَّ فَأَسْـمَعَا

عساه يريد إذ رخَّم حفصةَ بنتَ عُمَر أمَّ المؤمنين.

ومنهم من أدخل اسمَه في سبيل رثاء النبيّ ﷺ تصغيرًا من شأن نفسه، وتحقيرًا منها وقد مات رسولُ الله، كعمرو بن العاص في هذه الأُمنيَّات:

يَـا لَيْتَـنِي أَبْـصَرْتُ وَجْـهَ مُحَمَّـدٍ قَبْـلَ الوَفَـاةِ وَبُلَّـتِ الكَفَّـانِ
أَوْلَيْـتَ عَمْـرًا مَـاتَ قَبْـلَ مُصَابِـهِ وَثَـوَى مَـدًى فِي القَـرِّ وَالأَكْفَـانِ

أو كأُمنيَّة سوادٍ أن يفديَه لو كان أحدٌ يفديه:

هَـذَا وَهَـذَا لاَ يَـرُدُّ نَبِيَّنَـا لَـوْ كَانَ يَفْدِيـه فَـدَاهُ سَـوَادُ

أي فما سوادٌ في رأي سوادٍ إلا شيئاً هيِّناً في جنب رسول الله ﷺ.

من المعاجم [فحسب] »[١].

فذكر فاطمة مثلاً يذهب بنا إلى مشهد الحزن الشديد؛ ويذيقُنا من المرارة التي تجرَّعتها السيّدةُ الفضلى ذلك اليوم، أوَليست هي القائلة لأنس بعد دفن أبيها ﷺ: « يا أنس، أطابت نفوسكم أن تَحْثُوا على رسول الله ﷺ التراب ؟ » فبكى أنس لقولها شفقةً وتحنانا[٢] ؛ ويذهب بنا إلى أولئك النسوة الملتفَّات حول بنت الرَّسول الثّكلى وهنَّ يعزّينها ويبكين بكاءين: بكاءً لفقد الرَّسول، وبكاءً لبكاء فاطمة، وهي - على ذلك - تنظر إليهنَّ صابرةً محتسبةً صامتة، فإذا أتاها أبو سفيان ابنُ عمِّ الرَّسول، وأتتها صفيَّة عمتُه يسلّيانها ويعزّيانها؛ رَقًّا لحالِها.

وإنّ ذكر أسماء القبائل ليخُطُّ في أذهاننا صورة واضحةً للجحافل من الفريقين: الفريقِ الذي ثبت بعد وفاة الرَّسول وتأهَّب للدفاع دينه، والفريقِ الذي تخاذل بعدها وانتكس[٣].

وممَّا يسترعي الانتباه في معرض الحديث عن المفردات ورود لفظ « الغداة » عند أربعةٍ من شعراء المراثي، فقد ورد في مراثي: عمرو بن سالم، وعبد الله بن سلمة، وعبد الله بن أُنيس، وسواد بن قارب. وتَوْقيتُ علمهم نبأ الوفاة أغلبَ الأمر بالغداة علامةٌ على فَجْأتهم، وصدمتهم من أول النهار، وكأنهم كانوا لم يُفيقوا من نومهم بعدُ، وهذا ممَّا يضاعف من الصدمة. وعلامةٌ أيضًا على سرعة انتشار الخبر، وطيرانِ النُّعاة به. وعلامةٌ على الوقع الغائر الذي أحدثته تلك اللحظةُ الأليمةُ في نفوسهم، فلم ينسَوْها، وسجَّلوها في مراثيهم.

---

(١) تشريح النص، للدكتور عبد الله الغذّامي ص١٢ (دار الطليعة، بيروت، ط١/١٩٧٨م).

(٢) انظر: صحيح البخاري ٢/٨٩٢.

(٣) يقول الدكتور شوقي ضيف: « إن الألفاظ التي ترمز إلى معان حقيقية هي الأخرى... رمزيةٌ؛ لأنها تعبر عن معانٍ عاطفية غير محدودة الدلالة... وقد جعلها ذلك سيَّالة، أو بعبارة أدق: جعلها مُشعَّةً، أو قل: جعلها مُوعزةً؛ فإن معناها لا ينحصر، وإيحاءاتها لا تنقطع، وما أشبهها في ذلك بالكلمات التاريخية، فنحن حين نقول: ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ تفيد علينا سيولٌ من معاني حركتنا الوطنية وأحداثها... وقد نفكر في حركات وطنيةٍ أخرى... » (في النقد الأدبي ص١١١-١١٢، دار المعارف بمصر، ط٣).

أمَّا عن الأسـاليب اللغوية والتراكيب التي حملت في طيَّاتها مهمَّةَ التعبير عن لغة المراثي ودلالاتها؛ فقد دارت في المراثي النبويَّة ألوانٌ شتًّى من الأساليب والصِّيَغ.

منهـا أسـلوب (الشرط)، وهو كثير في المراثي. والأصل في عمـل الشرط التوصيلُ والربط بين طرفي الجملة[١]. وقد جاء الشرط على الأصل في نحو قول أبي سفيان بن الحارث:

أَفَاطِـمُ إِنْ جَزِعْـتِ فَـذَاكِ عُـذْرٌ

ولكنه يجيء في مواضع أخرى مفيدًا معانيَ زائدةً على عمل الربط، كالدلالة على العزاء في الأمثلة الكثيرة التي مرّت بنا قريبًا، وكان من أحسن الصحابة بيانًا في العزاء بالله - سبحانه وتعالى - عبدُ الله بنُ مالك الأرحبي في كلمته يرثي النبيَّ ﷺ، إذ بدأ فيها مقسِمًا على الشرط فقال:

لَعَمْـرِي لَـئِنْ مَـاتَ النَّـبِيُّ مُحَمَّـدٌ لَمَـا مَاتَ يَـا ابْـنَ القَيْـلِ رَبُّ مُحَمَّدِ

ثم ثنَّى فجعل الغاية من حياة النبيّ ﷺ الدين، فمتى ما تم الدين تَمَّت للنبي حياتُه وكُتب عليه الموت، فلماذا نجزع وهذا قَدَرُه، قدَرُه أداء الأمانة:

وَمَا كَانَ إِلاَّ مُرْسَـلاً بِرِسَـالَةٍ لِيُبْلِـ ـغَهَـا ، وَالحَادِثَـاتُ بِمَرْصَـدِ

وقـد جاء القصر في هذا البيت قاطعًـا مُبِينًا عن هذا المعنى الذي يفسر موقف كثير من شعراء المراثي في تصبرهم وسلوانهم. ثم إن الرّسول إذا هو بلَّغ رسالته كان الموت أكرمَ له من الحياة، فما عند الله خير له وأبقى، ومن اختاره الله ودعاه إلى لقائه فلا أسًى عليه، ولا خوف عليه، وهذا معنى لطيفٌ صبَّه الشاعر في جملة شرط أخرى، فقال:

وَلَمَّـا قَضَى مِـنْ ذَاكَ مَـا كَانَ قَاضِيًا وَلَـمْ يَبْـقَ شَيْءٌ فِيـهِ إِلْحَـادُ مُلْحِـدِ
دَعَاهُ إِلَيْـهِ رَبُّـهُ فَأَجَابَـهُ فَيَـا خَـيْرَ غَـورِيّ، وَيَـا خَـيْرَ مُنْجِدِ

---

(١) انظر: من نحو المباني إلى نحو المعاني: بحث في الجملة وأركانها، للدكتور محمد طاهر الحمصي ص٣٥٥ (دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١/١٤٢٤هـ).

من المعاجم [فحسب] »(١).

فذكر فاطمة مثلاً يذهب بنا إلى مشهد الحزن الشديد؛ ويذيقُنا من المرارة التي تجرَّعتها السيِّدةُ الفضلى ذلك اليوم، أوَليست هي القائلة لأنس بعد دفن أبيها ﷺ: « يا أنس، أطابت نفوسكم أن تَحْثُوا على رسول الله ﷺ التراب؟ » فبكى أنس لقولها شفقةً وتحنانا(٢)؛ ويذهب بنا إلى أولئك النسوة الملتفَّات حول بنت الرَّسول الثَّكلى وهنَّ يعزِّينها ويبكين بكاءين: بكاءً لفقد الرَّسول، وبكاءً لبكاء فاطمة، وهي - على ذلك - تنظر إليهنَّ صابرةً محتسبةً صامتة، فإذا أتاها أبو سفيان ابنُ عمِّ الرَّسول، وأتتها صفيَّة عمتُه يسلِّيانها ويعزِّيانها؛ رَقًّا لحالِها.

وإنّ ذكر أسماء القبائل ليخُطُّ في أذهاننا صورة واضحةً للجحافل من الفريقين: الفريق الذي ثبت بعد وفاة الرَّسول وتأهَّب للدفاع دينه، والفريق الذي تخاذل بعدها وانتكس(٣).

وممَّا يسترعي الانتباه في معرض الحديث عن المفردات ورود لفظ « الغداة » عند أربعةٍ من شعراء المراثي، فقد ورد في مراثي: عمرو بن سالم، وعبد الله بن سلمة، وعبد الله بن أُنيس، وسواد بن قارب. وتَوْقيتُ علمهم نبأ الوفاة أغلبَ الأمر بالغداة علامةٌ على فَجْأتهم، وصدمتهم من أول النهار، وكأنهم كانوا لم يُفيقوا من نومهم بعدُ، وهذا ممَّا يضاعف من الصدمة. وعلامةٌ أيضًا على سرعة انتشار الخبر، وطيرانِ النُّعاة به. وعلامةٌ على الوقع الغائر الذي أحدثته تلك اللحظةُ الأليمةُ في نفوسهم، فلم ينسَوْها، وسجَّلوها في مراثيهم.

---

(١) تشريح النص، للدكتور عبد الله الغذَّامي ص١٢ (دار الطليعة، بيروت، ط١/١٩٧٨م).

(٢) انظر: صحيح البخاري ٨٩٢/٢.

(٣) يقول الدكتور شوقي ضيف: « إن الألفاظ التي ترمز إلى معان حقيقية هي الأخرى... رمزيةٌ؛ لأنها تعبر عن معانٍ عاطفية غير محدودة الدلالة... وقد جعلها ذلك سيَّالة، أو بعبارة أدق: جعلها مُشعَّةً، أو قل: جعلها مُوعزة؛ فإن معناها لا ينحصر، وإيحاءاتها لا تنقطع، وما أشبهها في ذلك بالكلمات التاريخية، فنحن حين نقول: ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ تفِد علينا سيولٌ من معاني حركتنا الوطنية وأحداثِها... وقد نفكر في حركات وطنيةٍ أخرى... » (في النقد الأدبي ص١١١-١١٢، دار المعارف بمصر، ط٣).

أمّا عن الأساليب اللغوية والتراكيب التي حملت في طيّاتها مهمّةَ التعبير عن لغة المراثي ودلالاتها؛ فقد دارت في المراثي النبويّة ألوانٌ شتّى من الأساليب والصّيَغ.

منها أسلوب (الشرط)، وهو كثير في المراثي. والأصل في عمل الشرط التوصيلُ والربط بين طرفي الجملة[1]. وقد جاء الشرط على الأصل في نحو قول أبي سفيان بن الحارث:

أَفَاطِمُ إِنْ جَزِعْتِ فَذَاكِ عُذْرٌ

ولكنه يجيء في مواضع أخرى مفيدًا معانيَ زائدةً على عمل الربط، كالدلالة على العزاء في الأمثلة الكثيرة التي مرّت بنا قريبًا، وكان من أحسن الصحابة بيانًا في العزاء بالله - سبحانه وتعالى - عبدُ الله بنُ مالك الأرحبي في كلمته يرثي النبيّ ﷺ، إذ بدأ فيها مقسِمًا على الشرط فقال:

لَعَمْرِي لَئِنْ مَاتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ... لَمَا مَاتَ يَا ابْنَ القَيْلِ رَبُّ مُحَمَّدِ

ثم ثنّى فجعل الغاية من حياة النبيّ ﷺ الدين، فمتى ما تم الدين تمّت للنبي حياتُه وكُتب عليه الموت، فلماذا نجزع وهذا قَدَرُه، قدَرُه أداء الأمانة:

وَمَا كَانَ إِلاَّ مُرْسَلاً بِرِسَالَةٍ لِيُبْلِـ ... ـغَهَا ، وَالحَادِثَاتُ بِمَرْصَدِ

وقد جاء القصر في هذا البيت قاطعًا مُبِينًا عن هذا المعنى الذي يفسر موقف كثير من شعراء المراثي في تصبرهم وسلوانهم. ثم إن الرّسول إذا هو بلّغ رسالته كان الموت أكرمَ له من الحياة، فما عند الله خير له وأبقى، ومن اختاره الله ودعاه إلى لقائه فلا أسًى عليه، ولا خوف عليه، وهذا معنى لطيفٌ صبَّه الشاعر في جملة شرط أخرى، فقال:

وَلَمَّا قَضَى مِنْ ذَاكَ مَا كَانَ قَاضِيًا ... وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ فِيهِ إِلْحَادُ مُلْحِدِ

دَعَاهُ إِلَيْهِ رَبُّهُ فَأَجَابَهُ ... فَيَا خَيْرَ غُورِيٍّ، وَيَا خَيْرَ مُنْجِدِ

---

(١) انظر: من نحو المباني إلى نحو المعاني: بحث في الجملة وأركانها، للدكتور محمد طاهر الحمصي ص٣٥٥ (دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١/١٤٢٤هـ).

وقد يحمّل الشعراءُ الشرط وعدًا ووعيدًا، فمن الوعد قولُ مُرَّان:

إِنْ تَكُنْ جَوْلَـةٌ فَنَحْـنُ لَـكَ اليَـوْ مَ مَـلاَذٌ إِلَى ذُرَاهُ تَـؤُولُ

ومن الوعيد قولُ أبي الهيثم:

فَـإِنْ يَـكُ هَـذَا اليَـوْمَ مِنْهُمْ شَـمَاتَةٌ فَـلاَ يَأْمَنُـوا مَـا يُحْـدِثُ اللهُ فِي غَـدِ

ومن الوعد والوعيد معًا هذا البيت الذي أتقنه يزيدُ بنُ ذي المشعار لكونه يجري مجرى المثل:

فَمَـنْ يَقْـذِفِ الدُّرَّ مِـنْ حُقِّنَـا عَلَى بَاطِـلٍ أَوْ لِجَـاجٍ دَمَـغْ

ومنهم من اتَّخذ الشرط سبيلاً ليفدّيَ رسول الله ﷺ، وقد مرت الشواهد على ذلك في الحديث عن الفداء، ومن أبلغه قول سوادٍ حين فدّاه مرتين: بضمير الجماعة مرةً، وبالبدار بنفسه المفردة مرّةً أخرى:

لَـوْ قِيـلَ: تَفْـدُونَ النَّـبِيَّ مُحَمَّـدًا ؟ بُذِلَـتْ لَهُ الأَمْـوَالُ وَالأَوْلاَدُ
وَتَسَـارَعَتْ فِيـهِ النُّفُـوسُ بِبَذْلِهَـا هَـذَا لَهُ الأَغْيَـابُ وَالأَشْـهَادُ
هَـذَا، وَهَـذَا لاَ يَـرُدُّ نَبِيَّنَـا لَـوْ كَانَ يَفْدِيـهِ فَـدَاهُ سَـوَادُ

وربما اتكؤوا على الشرط ليعبروا عن فداحة المصيبة، كقول عمرو بن العاص وقد وَجم غيرَ مصدّقٍ صوت خميصة الناعي:

لَمَّـا نَعَـاهُ، وَالحَـوَادِثُ جَمَّـةٌ يَبِـسَ اللِّسَـانُ وَفَاضَـتِ العَيْنَـانِ

وقولِ عبد الله بن سلمة وقد ضاقت الدنيا به فنزع إلى الزهد والتنحّي عن الخلق، منكرًا أن يطيب لهم العيش هانئين في الديار وقد مات رسول الله ﷺ:

فَلَـئِنْ جَنَـتِ المَنُـونُ عَلَيْـهِ مَـا لَنَـا فِي الدِّيَـارِ بَعْـدُ قَـرَارُ

ومثـل هذا التعبير عـن المصيبة في جملة الشرط تراه في مراثي عمرو بن سـالم، والعتكيّ، وعبد الحارث بن أنس.

لقـد استحسـن الصحابة أسـلوبَ الشرط لِمَـا وجدوا فيه مـن بُحبوحةٍ نفَّسـوا فيها عن كربتهـم؛ فجملـة الشرط الأولى حَمَّلوها أسـاهم، وجملة الشرط الثانيـةُ حَمَّلوها موقفهم من هذا الأسى.

ثم إنَّ في جملة الشرط الأولى إثارةً لفضول المستمع أن يعرف ماذا هم فاعلون إزاء موت صاحبهم، أقلقون هم أم راسخون، أصابرون أم جزعون، أمؤمنون أم دبَّ إلى قلوبهم الشك؛ حتى إذا جاء جزاءُ الشرط قرَّ في يقين المنتظر جوابُهم قاطعًا كلَّ سوءٍ قد يظنه به. وقد كان ما أرادوا من التبليغ عن إيمانهم؛ إذ لم نجد في رثاء الصحابة تهالكًا مُتصنَّعًا، ولا غُلوًّا مَشـينًا، ولكن وجدنا صدقًا وإيمانًا وسكينة.

وفي قصيدة سـالم الغطفاني خمسُ جملٍ من الشرط. وهو يسـلك به مسـالكَ ندب الميت إغراءً لعينه كيلا تفتُرَ عن الدمع، فليس أحدٌ بعد الرَّسـول ﷺ حَقيقًا البكاءُ عليه، وها هو يناجي عينَه الكليلة مبكِّيًا ثم مغريًا فيقول:

فَيَـا عَـيْنُ وَيْحَـكِ لاَ تَسْـأَمِي ... وَمَـا بَـالُ دَمْعِـكِ لاَ يُسْـكَبُ
وَمَـنْ ذَا لَـكِ الوَيْـلُ بَعْـدَ الرَّسـول ... يُبَـكَّى مِـنَ النَّـاسِ، أَوْ يُنْـدَبُ
فَـإِنْ تَبْكِـهِ تَبْـكِ خَـيْرَ الأَنَـامِ ... كَثِيرِ الفَوَاضِـلِ، لاَ يُجْـدِبُ
وَإِنْ تَبْكِـهِ تَبْـكِ سَـهْلَ الجَنَـا ... بِ، مَحْـضَ الضَّرَائِـبِ، لاَ يُؤْشَـبُ
وَإِنْ تَبْكِـهِ تَبْـكِ نُـورَ البِـلاَ ... دِ، ضَخْـمَ الدَّسِـيعَةِ، لاَ يَحْسِـبُ
وَإِنْ تَبْكِـهِ تَبْـكِ خَـيرَ الأَنَـامِ ... سَرِيعًـا سَـوَابِلُهُ، مُخْصِـبُ
وَإِنْ تَبْكِـهِ تَبْـكِ وَارِي الزِّنَـادِ ... صَـدُوقَ المَقَالَـةِ، لاَ يَكْـذِبُ

لقد أراد الشـاعر أن يحتال بحيلةٍ فنّيةٍ تكون سببًا للإفاضة في نعوت النَّبِيِّ ﷺ، والثناء

عليـه، فوجـد في الشرط بُغيتَه، فهو يظْهر لنا بمظهر مـن تتمنع عينُه عليه فلا تطاوعه كلما دعاها إلى البكاء؛ وهو يحاول مع كل بيتٍ، أو مع كلّ جملة شرطٍ استدراجَها إليه.

ومـن تلك الأسـاليب التي دارت في الرثـاء (التَّكرار)، ومن مثاله تكـرارُ جملة الشرط « إن تبكـه تبـك » خمس مرّات في أبيات سـالمِ المارَّةِ توًّا، ثـم زاد على ذلك فكرَّر فعلَ البكاء عشرَ مراتٍ تكرارًا ملأ القصيدةَ بالنشيج والعويل، فكلُّ شيءٍ يبكي، وكلُّ باكٍ يقود إلى باكٍ غيرِه، وكأنْ قد غدا بكاء الكائنات شيئًا لا محيصَ للكائنات عنه:

وَتَبْـكِي الرَّسـول، وَحُقَّـتْ لَهُ ... شُـهُودُ المَدِيْنَـةِ، وَالغُيَّـبُ
وَتَبْـكِي لَهُ الصُّـمُّ صُـمُّ الجِبَـالِ ... وَشَرْقُ المَدِينَـةِ، وَالمَغْـرِبُ
وَتَبكِيـهِ شَـعْثَاءُ مَـضْرُورَةٌ ... إِذَا حُجِـبَ النَّـاسُ لاَ تُحْجَـبُ
وَيَبْكِيـهُ شَـيْخٌ أَبُـو وُلْدَةٍ ... تُطِيـفُ بِعِقْوَتِـهِ، أَشْيَبُ
وَيَبْكِيـهِ أَهْـلُ النُّـهَى وَالحِجَـا ... مِـنَ النَّـاسِ، وَالطَّـارِقُ الأَخْيَبُ
وَيَبْكِيـهِ ضَيْـفٌ جَفَـاهُ الصَّدِيقُ ... وَذُو النَّسَـبِ الدَّاخِـلِ، الأَقْـرَبُ
وَيَبْكِيهِ شُـعْثٌ خِمَـاصُ البُطُونِ ... أَضَرَّ بِهِـمْ زَمَـنٌ أَنْكَـبُ
وَيَبْكِيـكَ رَكْـبٌ إِذَا أَرْمَلُـوا ... فَلَـمْ يُلْـفَ مَـا طَلَـبَ الطُّلَّـبُ
وَتَبكِي الأَبَاطِـحُ مِـنْ فَقْـدِهِ ... وَتَبْكِيـهِ مَكَّـةُ وَالأَخْشَـبُ
وَتَبْـكِي وُعَـيْرَةُ مِـنْ فَقْـدِهِ ... بِحُـزْنٍ، وَيُسْـعِدُهَا المِيثَـبُ
فَعَيْـنِيَ مَالَـكِ لاَ تَدْمَعِـينَ ... وَحُـقَّ لِدَمْعِـكِ يُسْتَسْـكَبُ

كأنَّ الشاعر يقول: أجل، فعيني ما لَكِ لا تبكين، ولم يبقَ لم يبكِ إلا أنتِ ؟!

وهذا النمط من خلط التَّكرار بالتَّعداد يوحي بأن الخلق لم يتملَّكهم في تلك الساعة إلا شـعور واحدٌ، هو شـعور الحزنِ والأسى، وكأن الشاعر بخلطه الحاذق هذا يريد لقلبه مع كل بيتٍ جَدَّ أنْ لا ينسى، ولعينه أنْ لا تكفكف دموعها.

ويَرِد تَكرار التمنّي في مرثيّة عمرو بن العاص، ولسان حاله: « يا ليتني فعلتُ كلَّ شيء ثم لم أشهد موته »:

يَا لَيْتَنِي أَبْصَرْتُ وَجْهَ مُحَمَّدٍ   قَبْلَ الوَفَاةِ وَبُلَّتِ الكَفَّانِ
أَوْ لَيتَ عَمْرًا مَاتُ قَبْلَ مُصَابِهِ   وَثَوَى مَدًى فِي القُرِّ والأَكْفَانِ
أَوْ لَيْتَنِي لَمْ أَبْقَ بَعْدَ وَفَاتِهِ   ذَهَبَ القَضَاءُ بِمُنْيَةِ الإِنْسَانِ

ويُشعر تَكرار مسروقٍ بالدَّوام والتجدُّد:

فَعَلاَنِي بَعْدَ الهُمُومِ هُمُومٌ   وَبِقَلْبِي بَعْدَ الحَرِيقِ حَرِيقُ

إذ همومه لا تنقضي، ونارُ قلبه لا تنطفئ.

ويدل تَكرار « الدهر » عند عمرو بن سالم على زيادة طول حزن نفسه:

فَيَا لَكَ نَفْسًا لاَ يَزَالُ يَزِيدُهَا   عَلَى الدَّهْرِ طُولُ الدَّهْرِ إِلاَّ تَصَدُّعَا

ويتلذَّذ مُرَّان بتكرير اسم « الرَّسول » تلذُّذ المحب الذي غاب عنه حبيبُه:

إِنَّ حُزْنِي عَلَى الرَّسُول طَوِيلُ   ذَاكَ مِنِّي عَلَى الرَّسُول قَلِيلُ

ويستعظم البقاء بعد الرَّسول ولو قليلاً مُدَّةَ فواق، فالقليل في حال فقد الرَّسول طويل جليل:

لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ بَقِيتُ فُوَاقًا   بَعْدَهُ، وَالفُوَاقُ مِنِّي طَوِيلُ

ويأتي التَّكرار في موضع آخر من قصيدة مُرَّان مُعْلِمًا بقوة شكيمة الإمام، وشدَّة إمساكه بالأمر:

لَيْسَ لِلنَّاسِ يَا إِمَامُ مِنَ الأَمْـ   ـرِ فَتِيلٌ، وَأَيْنَ عَنْكَ الفَتِيلُ ؟!

ويركن العتكيُّ إلى اسم الأمير « عمرو »، فيكرره للتنبيه، والفصل، والتوكيد:

يَـا عَمْـرُو، إِنْ كَانَ النَّـبِيُّ مُحَمَّـدٌ أَوْدَى بِـهِ الأَمْـرُ الَّذِي لاَ يُدْفَـعُ
فَلَقَـدْ أُصِبْنَـا بِالنَّـبِيِّ، وَأَنْفُنَـا وَالرَّاقِصَـاتِ إِلَى البَنِيَّـةِ، أَجْـدَعُ
يَـا عَمْـرُو، إِنَّ حَيَاتَـهُ كُوَفَاتِـهِ فِينَـا، أَتُبْـصِرُ مَـا نَقُـولُ وَتَسْـمَعُ ؟
فَأَقِـمْ فَإِنَّـكَ لاَ تَخَـافُ، وَجَارُنَـا يَـا عَمْـرُو، ذَاكَ هُـوَ الأَعَـزُّ الأَمْنَـعُ

ففي الأولى يُخبره بأساهم لفقد الرَّسول، وفي الثانية يهدِّئ رَوعه من جهة صبرهم، وأدائهم ما عليهم من الحقوق كما لو كان الرَّسول حيًّا، وفي الثالثة يجدِّد له الولاء والجوار، وكان تكرار « يا عمرو » في هذه المواضع دليلَ ثقةٍ وتمكُّنٍ من العتكيِّ فيما يقول، وكأنَّ الشاعر يؤكِّد بهذا التَّكرارِ صدقَه في قوله مُذكِّرًا عمرًا به كلما تباعد الكلام واختلفت معانيه. وكأن هذه الألفاظ المكرَّرةَ الفاصلة في الكلام أعلامٌ ترفرف على مفاصيل الجمل[1].

ويُعزِّي عبدُ الله بنُ سلمة نفسه بأن الموتَ حَتْم، ويعجبُ ممن يفكر في الهَرَب منه، ويضيِّق بالتكرار عليهم فيقول:

وَفَدَتْـهُ النُّفُـوسُ، لَيْـسَ مِـنَ المَـوْ تِ فِـرَارٌ، وَأَيْـنَ أَيْـنَ الفِـرَارُ ؟ !

ثم يُكرِّر عبدُ الله النفيَ طمْسًا لظنِّ أن يكون المهاجرون والأنصارُ أصيبوا بالرَّسول ﷺ دون مَنْ سواهم من إخوانهم المسلمين، وهو معنى في الذِّروة من الحنان والرِّقَّة، زاده حرفُ النفي القاطع « لا » إخلاصًا والتياعًا:

مَـا أُصِيبَـتْ بِـهِ الغَـدَاةَ قُرَيْـشٌ لاَ ! وَلاَ أُفْـرِدَتْ بِـهِ الأَنْصَـارُ؛
دُونَ مَـنْ وَجَّـهَ الصَّـلاَةَ إِلَى اللَّـ ـهِ وَقَـدْ هَنِئَـتْ بِـهِ الكُفَّـارُ

(١) انظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ٧٢/١ (دار القلم، دمشق، ط١/١٤١٦هـ).

على أن التكـرار سـجيَّةٌ في رثاء العربيّ؛ ولعلهم حرَّضهم على ذلك نساؤهم اللائي كنَّ ينُحْن على الموتى، فيرجِّعن صيغًا بعينها وكلماتٍ بعينها، ويعدِّدن المآثر والصفات، ثم آل ذلك إلى مراثيهن بعد ذلك(١).

وممَّا يـدلُّ على تشـتُّت الصحابـة واضطـراب نفوسـهم جنوحُهـم إلى أسـلوبٍ آخر من الأسـاليب، هو (الالتفـات). والالتفات إجمالاً: انصراف المتكلم عـن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك(٢).

« وهـذا النوع خلاصـةُ علم البيـان التي حولها يدنـدن، وإليها تسـتند البلاغة... ويُسـمَّى أيضًا: شـجاعة العربية؛ وإنما سُـمِّي بذلك لأن الشـجاعة هي الإقدام؛ وذلك أن الرجـل الشـجاع يركـب ما لا يسـتطيعه غيرُه، ويتورَّد ما لا يتورَّدُه سـواه، وكذلك

(١) انظر مثلًا إلى قول أوس بن حُجْر:

أبـا دليجـة مـن يُـوصى بأرملـةٍ ... أمْ من لأشـعث ذي طِمريـن طِمْلالِ

أم من يكون خطيب القوم إن حفَلوا ... لدى ملـوكٍ أولي كيـدٍ وأقـوالِ

أم مَـنْ لقـومٍ أضاعوا بعـضَ أمرهم ... بـين القُسـوط وبـين الدِّيـن دلدالِ

أم مَـنْ لأهـل لَوِيّ في مُسَـكَّعةٍ ... في أمرهـم خالطـوا حقًّـا بإبطـالِ

أم مَـنْ لعاديَّـةٍ تُـرْدي مُلَمْلَمَـةً ... كأنهـا عارضٌ مـن هَضْـب أوعالِ

(ديوانه ص١٠٣-١٠٤، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت ط٣/١٣٩٩هـ). ومن شعر النساء انظر - مثلاً - قولَ هذه الأمّ تبكي طفليها القتيلين، وهي زوج عُبيد الله بن العباس بن عبد المطلب:

يـا مَـنْ أَحَـسَّ بُنَـيَّيَّ اللذَيـن هـمـا ... كالوردتـين تشـظَّى عنهمـا الصَّدَفُ

يـا مَـنْ أحـسَّ بُنَـيَّيَّ اللذَيـن همـا ... قلـبي وطـرْفي، فقلبي اليـوم مختطَف

يـا مَـنْ أحـسَّ بُنَـيَّيَّ اللذَيـن همـا ... مُـخُّ العظـام، فمـخي اليـوم مزدهفُ

(الكامل في اللغة والأدب، للمبرّد، محمد بن يزيد ٢٢/٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣/١٤١٧هـ).

(٢) انظر: البديع، لعبد الله بن المعتز ص٥٨ (اعتنى بنشره وتعليق المقدّمة والفهارس إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط٣/١٤٠٢هـ).

هـذا الالتفـات في الـكلام»[1].

مـن ذلـك أن صفيَّة كانت أقبلت بالخطاب على رسـول الله كأنما ذهُلت عن موته، ثـم رجعت إلى نفسـها وقد أدركـت موتَه، فانحرفـت بالقول إلى الإخبـار عنه بضمير الغائـب، ولكنَّهـا مـا لبثـت أن عادت في عجُز البيـت الثاني إلى ديـدن الخطاب كرَّةً أخـرى،وذلـكقولهُـا:

أَلاَ يَـا رَسُـولَ اللهِ كُنْـتَ رَجَاءَنَـا ... وَكُنْـتَ بِنَـا بَـرًّا وَلَـمْ تَـكُ جَافِيَـا
وَكَانَ بِنَـا بَـرًّا رَحِيمًـا نَبِيُّنَـا ... لِيَبْـكِ عَلَيْكَ اليَـوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيَا

وفي كلمـةٍ أخرى لها يضطرب لُبُّها بين بُعْده وقُربه، فتضطرب ضمائرُها تبعًا له، وتتنازع بين غيابه وخطابه، فهي تقول: إنها شابت وما شابت لِداتها؛

لِفَقْـدِ المُصْطَـفَى بِالنُّـورِ حَقًّـا ... رَسُـولِ اللهِ، مَـا لَـكَ مِـنْ ضَرِيـبِ
كَرِيـمِ الخِيـمِ، أَرْوَعَ، مَـضْرَحِيٍّ ... طَوِيـلِ البَـاعِ، مُنْتَجَـبٍ، نَدِيـبِ
ثِمَـالِ المُعْدَمِـيْنَ وَكُلِّ جَـارٍ ... وَمَـأْوَى كُلِّ مُضْطَهَـدٍ غَرِيـبِ
فَإِمَّـا تُمْـسِ فِي جَـدَثٍ مُقِيمًـا ... فَقِدْمًـا عِشْـتَ ذَا كَـرَمٍ وَطِيـبِ

ومن ذلك قولها في أخرى:

فِـدًى لِرَسُـولِ اللهِ أُمِّي وَخَالَـتِي ... وَعَـمِّي، وَنَفْـسِي قَـصْرَةً، وَعِيَالِيَـا
صَـبَرْتَ وَبَلَّغْـتَ الرِّسَـالَةَ صَادِقًـا ... وَمِـتَّ صَلِيـبَ العُودِ، أَبْلَـجَ، صَافِيَا

ويندب الزِّبرقان[2] رسولَ الله ﷺ مخاطبًا إياه:

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، أبي الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي ٣/٢ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٩٥م).

(٢) انظر: مراثي النبي ﷺ، للدكتور محمد أبو المجد ص١٠٦-١٠٧.

يَا مُبْلِغَ الأَخْبَارِ عَنْ رَبِّه فِينَا، وَيَا مُحْيِيَ لَيْلِ التِّمَامْ
وَهَادِيَ النَّاسِ إِلَى رُشْدِهِمْ وَشَارِعَ الحِلِّ لَهُمْ وَالحَرَامْ
أَنْتَ الَّذِي اسْتَنْقَذْتَنَا بَعْدَمَا كُنَّا عَلَى مَهْوَاةِ جُرْفٍ قِيَامْ

ثم يخبر عنه:

فَاسْتَأْثَرَ اللهُ بِهِ إِذْ وَفَى أَيَّامَهُ عِنْدَ حُضُورِ الحِمَامْ

فجعل ضمير المخاطبة للذي عَمِله الرّسول في الحياة، وضميرَ الغائب للإخبار عن موته، مُلْمِعًا إلى أن علمه بحياة الرّسول وآثاره أكبرُ من علمه بما يكون له بعد موته، وإن كان يوقن بتشريف الله إيّاه إذ عبّر بكلمة « استأثر »، والإيثار حَدَبٌ على النفيس الغالي.

وأشار أيضًا بانتقاله من ضمير الخطاب بعد تفصيلٍ إلى الإخبار؛ إلى ما عرفوه من فضل الرّسول ﷺ وجميله عليهم في الحياةِ ثم إنه مات على ذلك، وكأن الزِبرقان يوجز لنا قصّة الدعوة النبيلة.

وينوح أبو سفيانَ على الرّسول ﷺ نَوْحًا طويلاً؛ ومن نَوْحِه قوله:

نَبِيٌّ كَانَ يَجْلُو الشَّكَّ عَنَّا بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ وَمَا يَقُولُ
فَلَمْ نَرَ مِثْلَهُ فِي النَّاسِ حَيًّا وَلَيْسَ لَهُ مِنَ المَوْتَى عَدِيلُ

ثم انتزع نفسه من شكواها، والتفت بالخطاب إلى من كانت المصيبة عليه أوقع، وهي فاطمة، حيث يقول لها مسليًّا:

أَفَاطِمُ إِنْ جَزِعْتِ فَذَاكِ عُذْرٌ وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِي فَهُوَ السَّبِيلُ

إن الالتفات « فنٌّ بديعٌ من فنون القول، يُشْبِهُهُ تحريكُ آلات التصوير السينمائيّ، بنقلها من مشهدٍ إلى مشهد آخر في المختلفات والمتباعِدات التي يُرادُ عَرْضُ صُوَرٍ منها، ومفاجأة الْمُشَاهِدِ بلَقَطاتٍ منها متباعدات، ولكنّها تدخُلُ في الإطار الكُلِّي الذي يُراد عرض طائفةٍ

من مشاهده تدلُّ على ما يُقْصد الإعلامُ به»[1].

وربما هامت أنفُس الصحابة إلى الالتفات تعظيمًا للنبي وتبجيلاً، فما إن يرد اسمه حتى تلهج ألسنتُهم بالدعاء له والثناء عليه، انظر كيف أخَّر سوادُ بن قاربٍ الإسنادَ في جملته لكي يصليَ على النبيِّ ﷺ:

أَبْـقَى لَنَـا فَقْـدُ النَّـبِيِّ مُحَمَّـدٍ ... صَـلَّى الإِلَهُ عَلَيْـه - مَـا يُعتَـادُ

ويؤخِّر عمرو بن العاص الفاعلَ ليصليَ عليه:

إِنْ كَانَ أَوْدَى بِالنَّـبِيِّ مُحَمَّـدٍ ... صَـلَّى الإِلَهُ عَلَيْـهِ دَهْـرٌ فَاجِـعُ

ولمثل هذا تأخَّر المسندُ عند عبد الحارث بن أنس:

لَعَمْـرِي لَـئِنْ كَانَ النَّـبِيُّ مُحَمَّـدٌ ... عَلَيْـهِ سَـلاَمُ اللهِ - أَوْدَى بِـهِ القَدَرْ

وهذا الأدب من الصحابة عند ذكر اسم النبيِّ ﷺ كان داعيًا من دواعي أسلوبٍ آخر هو (الاعتراض). وكان الاعتراض أسلوبًا شائعًا في المراثي النبويَّة.

ومن دواعيه الأُخَر الاعتراضُ من أجل الاحتراز، كقول عبد الحارث:

وَقَـلَّ لَهُ مِنَّـا الفِـدَاءُ، وَهَـذِهِ ... وَإِنْ بُذِلَـتْ - لاَ يُسْـتَرَدُّ بِهَـا بَشَرْ

والاعتراضُ من أجل الإعجاب والحثّ، كقول شدَّاد بن مالك بن ضَمْعَج محرِّضًا الخليفة أبا بكرٍ كي يعزِّرَ البغايا الشامتات:

فَاقْطَـعْ - فُدِيـتَ - أَكُفَّهُـنَّ بِصَارِمٍ ... كَالْـبَرْقِ أَوْمَـضَ فِي مُتُـونِ غَمَـامِ

والاعتراضُ من أجل تِبيان العزم مهما بلغت المشقَّة، كقول عديّ:

---

(١) البلاغة العربية، للميداني ١/ ٤٨٠.

وَإِنَّا - وَإِنْ جَاشَتْ فَزَارَةُ كُلُّهَا وَذُبْيَانُ فِي مَوْجٍ مِنَ البَحْرِ مُزْبِدِ
وَأَجْرَى لَهُمْ فِيهَا ذُيُولَ غُرُورِهِ طُلَيْحَةُ مَأْوَى كُلِّ غَاوٍ وَمُلْحِدِ -
نُغَادِرُهُمْ بِالخَيْلِ حَتَّى نُقِيمَهُمْ بِصُمِّ العَوَالِي وَالصَّفِيحِ المُهَنَّدِ

وهو اعتراض مُطْنبٌ في التهويل مما بيَّته الأعادي، حتى إذا انتهت جملة الاعتراض أتى الخبرُ راسخًا، حاسمًا كلَّ شك.

وقد يعترضون حرصًا على استقامة الجملة لإيقاع الشعر، وهو لونٌ من التقديم والتأخير، وذلك لأن قول سواد مثلاً:

إِنْ حَلَّ مِنْهُ مَا يُخَافُ فَأَنْتُمُ لِلأَرْضِ - إِنْ رَجَفَتْ بِنَا - أَوْتَادُ

إنْ نحن رتَّبناه على صورته العاديَّة فقلنا: فأنتم أوتادٌ للأرض إن رجفت بنا؛ جفَّ ماؤه، وذهبت طلاوته. ومن قَبيله قولُ العتكيِّ:

فَلَقَدْ أُصِبْنَا بِالنَّبِيِّ، وَأَنْفُنَا وَالرَّاقِصَاتِ إِلَى البَنِيَّةِ - أَجْدَعُ

وقريبٌ من ذلك الالتفاتِ ضربٌ من البيان آخرُ أسمَوْه (بالتجريد). ومعناه «إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك»(١). وقد وقع في المراثي في إخبار الشعراء عن أنفسهم كأنهم يخبرون عن غيرهم، كقول سواد بن قارب:

هَذَا وَهَذَا لاَ يَرُدُّ نَبِيَّنَا لَوْ كَانَ يَفْدِيهِ فَدَاهُ سَوَادُ

ولم يقل: فديتُه، احتراسًا من أن يكون في الكلام بضمير المتكلم شُبْهةُ إكبارٍ أو تفضُّل منه، فجرَّد من نفسه شخصًا آخر ليُحقِّر من شأن نفسه، وليظهرَ من طرْفٍ خفيٍّ أنّ نفسه ليست مِلكًا له.

وكقول عمرو بن العاص:

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١/٤٠٥.

من مشاهده تدلُّ على ما يُقصد الإعلامُ به»[1].

وربما هامت أنفُس الصحابة إلى الالتفات تعظيمًا للنبي وتبجيلاً، فما إن يرد اسمه حتى تلهج ألسنتُهم بالدعاء له والثناء عليه، انظر كيف أخَّر سوادُ بن قاربٍ الإسنادَ في جملته لكي يصليَ على النبيّ ﷺ:

أَبْقَى لَنَا فَقْدُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ   صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْهِ - مَا يُعتَادُ

ويؤخِّر عمرو بن العاص الفاعلَ ليصليَ عليه:

إِنْ كَانَ أَوْدَى بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ   صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَاجِعُ

ولمثل هذا تأخَّر المسندُ عند عبد الحارث بن أنس:

لَعَمْرِي لَئِنْ كَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ   عَلَيْهِ سَلاَمُ اللهِ - أَوْدَى بِهِ القَدَرْ

وهذا الأدب من الصحابة عند ذكر اسم النبيّ ﷺ كان داعيًا من دواعي أسلوبٍ آخر هو (الاعتراض). وكان الاعتراض أسلوبًا شائعًا في المراثي النبويَّة.

ومن دواعيه الأُخَر الاعتراضُ من أجل الاحتراز، كقول عبد الحارث:

وَقَلَّ لَهُ مِنَّا الفِدَاءُ، وَهَذِهِ   وَإِنْ بُذِلَتْ - لاَ يُسْتَرَدُّ بِهَا بَشَرْ

والاعتراضُ من أجل الإعجاب والحثّ، كقول شدّاد بن مالك بن ضَمْعَج محرّضًا الخليفة أبا بكرٍ كي يعزِّرَ البغايا الشامتات:

فَاقْطَعْ - فُدِيتَ - أَكُفَّهُنَّ بِصَارِمٍ   كَالبَرْقِ أَوْمَضَ فِي مُتُونِ غَمَامِ

والاعتراضُ من أجل تِبيان العزم مهما بلغت المشقَّة، كقول عديّ:

---

(١) البلاغة العربية، للميداني ١/٤٨٠.

وَإِنَّـا - وَإِنْ جَاشَـتْ فَـزَارَةُ كُلُّهَـا ... وَذُبْيَـانُ فِي مَـوْجٍ مِـنَ البَحْـرِ مُزْبِدِ
وَأَجْـرَى لَهُـمْ فِيهَـا ذُيُـولَ غُـرُورِهِ ... طُلَيْحَـةُ مَـأْوَى كُلِّ غَاوٍ وَمُلْحِـدِ -
نُغَادِرُهُـمْ بِالخَيْـلِ حَـتَّى نُقِيمَهُـمْ ... بِصُـمِّ العَـوَالِي وَالصَّفِيـحِ المُهَنَّـدِ

وهو اعتراض مُطْنبٌ في التهويل مما بيَّته الأعادي، حتى إذا انتهت جملة الاعتراض أتى الخبرُ راسخًا، حاسمًا كلَّ شك.

وقد يعترضون حرصًا على استقامة الجملة لإيقاع الشعر، وهو لونٌ من التقديم والتأخير، وذلك لأن قول سواد مثلاً:

إِنْ حَـلَّ مِنْـهُ مَـا يُخَـافُ فَأَنْتُـمُ ... لِـلأَرْضِ - إِنْ رَجَفَـتْ بِنَـا - أَوْتَـادُ

إنْ نحـن رتَّبنـاه على صورتـه العاديَّة فقلنا: فأنتم أوتـادٌ للأرض إن رجفت بنـا؛ جفَّ ماؤه، وذهبت طلاوته. ومن قَبيله قولُ العتكيِّ:

فَلَقَـدْ أُصِبْنَـا بِالنَّـبِيِّ، وأَنْفُنَـا ... وَالرَّاقِصَـاتِ إِلَى البَنِيَّـةِ - أَجْـدَعُ

وقريـبٌ من ذلك الالتفاتِ ضربٌ من البيان آخرُ أسـمَوْه (بالتجريد). ومعناه «إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسَـك»[1]. وقد وقع في المراثي في إخبار الشـعراء عن أنفسهم كأنهم يخبرون عن غيرهم، كقول سواد بن قارب:

هَـذَا وَهَـذَا لاَ يَـرُدُّ نَبِيَّنَـا ... لَـوْ كَانَ يَفْدِيـهِ فَـدَاهُ سَـوَادُ

ولـم يقل: فديتُه، احتراسًـا من أن يكـون في الكلام بضمير المتكلم شُـبْهةُ إكبارٍ أو تفضُّل منه، فجرَّد من نفسـه شـخصًا آخر ليُحقِّر من شأن نفسه، وليظهرَ من طرْفٍ خفيٍّ أنّ نفسه ليست مِلكًا له.

وكقول عمرو بن العاص:

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١/٤٠٥.

إنكاريًّا، ويراد به النفي، مع الإنكار على المثبت كيف أثبت ما هو ظاهر النفي، وكان الواجب عليه أن ينفي »[1].

وكقولِ مُرَّان متأسفًا على جميل خلق النبيّ ﷺ:

يَا لَهَا رَحْمَةٌ أُصِيبَ بِهَا النَّا ... سُ تَوَلَّتْ، وَحَانَ مِنْهَا الرَّحِيلُ

أي أتعجَّب منها كيف شمَلت الناسَ فأنجتهم من العذاب، ثم أتعجَّب كيف سيصبر الناس على رحيلها عنهم، وهو يتعجَّب أيضًا من هذه الرحمة المحمدية التي لم يشهد الخلقُ في سابق عهدهم مثلَها. وفي مثل هذا قال الزمخشريّ: « ومعنى التعجب تعظيمُ الأمر في قلوب السامعين؛ لأن التعجب لا يكون إلا من شيءٍ خارجٍ عن نظائره وأشكاله »[2]، وكذلك كانت رحمة النبيّ ﷺ بهؤلاء الناس.

وكذلك يتعجب عبد الله بن مالك الأرحبيُّ من إكرام الله لنبيه وهو يقبضه إليه:

دَعَاهُ إِلَيْهِ رَبُّه فَأَجَابَهُ ... فَيَا خَيْرَ غَوْرِيٍّ وَيَا خَيْرَ مُنْجِدِ !

فالنبيُّ ﷺ خيرُ الخلق المستحقين للإكرام والإنعام، واللهُ الإله الحقُّ خيرُ إلهٍ يُنعم ويَتفضَّل على عباده في رؤيتهم.

وكانوا يتعجَّبون تعجُّبًا يزيد من مرارة الحزن، ويُنمي إلينا بفداحة ما خلَّفه الموت، فيشكو عمرو بن سالم من نفسه التي تتأبَّى إلا على الوجع، ويَعجب من حالها:

فَيَا لَكِ نَفْسًا لاَ يَزَالُ يَزِيدُهَا ... عَلَى الدَّهْرِ طُولُ الدَّهْرِ إِلاَّ تَصَدُّعَا !

ويَعجب سوادٌ من نفسه كيف يتَّفق لها أن يكون لها فؤادٌ وقد فارقه حبيبُه:

(١) البلاغة العربية، للميداني ١/٢٧١.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل، للزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر ٤/٥٢٣ (تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت).

حُزْنًا – لَعَمْرُكَ – فِي الفُؤَادِ مُخَامِرًا ... أَوْ هَلْ لِمَنْ فَقَدَ النَّبِيَّ فُؤَادُ ؟ !

وتستعجب عاتكة بنت زيدٍ من حالها إن هي عاشت بعده:

فَكَيفَ حَيَاتِي بَعْدَ الرَّسولِ ... وَقَدْ حَانَ مِنْ مِيتَةٍ حِينُهَا ؟ !

وكانوا يُطْرون أقوامَهم الذين لم يتزحزحوا عن الإسلام، بل ثبتوا عليه ودافعوا المرتدِّين؛ وجعلوا من التعجُّب سبيلاً إلى ذلك، فيقول ابن ذي المشعار مفتخرًا بأصله الذي فيه رضع الوفاء والنَّجدة:

صُبِغْنَا عَلَى ذَا وَآبَاؤُنَا ... فَأَكْرِمْ بِصِبْغَتِنَا فِي الصِّبَغْ !

وفي صيغة (أفعِل به) دعوةُ المستمع إلى مشاركة المتعجِّب في تعجُّبه، كأن المتعجَّب منه بلغ من الشهرة ما جرَّأ الشاعرَ على دعاء الناس إلى التَّعجب معه.

ويَعْجب مُرَّان من صفة الهمدانيين في الحرب، وكيف يكونون جلالاً وبأسًا وجمالاً:

أَيُّ قَومٍ هُمُ إِذَا نَزَلَ المَو ... تُ وَصَارُوا كَأَنَّهُمْ إِكْلِيلُ

ثُمَّ نَادَوْا بِأَنَّهُمْ قَهَرُوا النَّا ... سَ كَمَا يَقْهَرُ البِكَارَ الفُحُولُ !

وهما تعجُّبان وإن كان ظاهرهما منافاةَ الرثاء؛ إلا أنهما محمودان في هذا الموقف، موقفِ أداء حقّ الرَّسول كأنْ لم يمت.

لقد غدا التعجب أرضًا مِهادًا لشعراء الصحابة ساعةَ اضطرمت مشاعرُهم فلم يجدوا من الكلام ما يعبِّر عنها تعبيرًا دقيقًا، أو ينقلها نقلاً كُفئًا لما انثنت عواطفهم عليه. ومن أجل ذلك قال الرُّمَّانيُّ: « المطلوب في التعجُّب الإبهام؛ لأن من شأن الناس أن يتعجَّبوا مما لا يُعرف سببه. وكلما استبهم السبب كان التعجُّب أحسن... »[١].

---

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر ٣١٧/٢ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركائه).

ومن مُعاد أسلوبهم في المراثي (الطباقُ) أو التطبيق كما سمَّاه الشيخُ عبدُ القاهر(١).

وقد أدرجه البلاغيُّون في أنواع المحسِّن المعنويّ، فظُنَّ من علم البديع، وهو إلى المعاني أقرب وبه ألصق؛ لما فيه من اختزالِ المواقف بالجمع بين النقيضين، والعبارةِ الوجيزة عن غايات النفس الموزَّعة بين بلاء اليوم وذكريات الأمس.

ولعل العنصر الجماليَّ في الطباق ما فيه من التلاؤم بينه وبين تداعي الأفكار في الأذهان، باعتبار أنّ المتقابلات أقربُ تخاطراً إلى الأذهان من المتشابهات والمتخالفات(٢).

وكان غالب المطابقة التي أوردها شعراء المراثي المطابقةَ بين حياة الرَّسول ﷺ وموته؛ إظهارًا لحقائق الأمور، وتنبيهًا على المفارقة المُرَّة بين الحالين الشتيتين.

فلقد كانت حياة الرَّسول رحمةً لهم، لَمّا مات زالت عنهم، والرحمة إذا زالت حلَّ محلَّها بؤسٌ وشقاء ويأس، وهذا يظهر في قول ذي الكَلاع واصفًا الرِّزاية التي عليها قومُه لوفاة الرَّسول، ثم مطابقًا بين موته وبقائه:

قَدْ أَتَى حِمْيَرَ أَمْرٌ شَامِلٌ ... قَاطِعٌ لِلظَّهْرِ مُزْرٍ بِالأَمَلْ
مَوْتُ مَنْ كَانَ بَقَاهُ رَحْمَةً ... كُلُّ شَيْءٍ مَاخَلا هَذَا جَلَلْ

ولِمَ لا يَلُفُّهم هذا الشعور وهم قد رأوا بين حياتيهم بَوْنا: حياتِهم وهو حيّ، وحياتِهم وهو ميت. ألم يكن يحجُزهم عن النار، ويذود عنهم الموبقات، وهو الذي أنقذهم وقد أوشكوا على الهلاك، وأخذ بأيديهم وقد أنهكتهم ويلاتُ الضلالة، وشتَّان ما بين مضلٍّ وهاد، يقول أبو سفيان يذكر مآثِرَه:

وَيَهْدِينَا فَلاَ نَخْشَى ضَلاَلاً ... عَلَيْنَا، وَالرَّسول لَنَا دَلِيلُ

---

(١) انظر: أسرار البلاغة، للشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ص٢٠ (قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، القاهرة، ط١/١٤١٢ هـ).

(٢) انظر: البلاغة العربية، للميداني ٢/٣٧٨.

لذلك هو عند أبي سفيان خيرُ الأحياء، وخيرُ الموتى؛ إذ لا نظيرَ له:

فَلَمْ نَرَ مِثْلَهُ فِي النَّاسِ حَيًّا ... وَلَيْسَ لَهُ مِنَ المَوْتَى عَدِيلُ

وهم مهما حزنوا عليه - كما يقول مسروق - فإن حزنهم غيرُ بالغٍ قدرَ المصيبة بوفاته؛ فهي أمر عظيم، يقول:

كُلُّ أَمْرٍ وَإِنْ تَعَاظَمَنِي الصَّبْـ ... ـرُ عَلَيْهِ بَعْدَ النَّبِيِّ دَقِيقُ

لقد أدركوا أنهم لو تَركوا أنفسَهم لهواها اشتطَّتْ بهم، وأساؤوا أمراً، فآبُوا إلى ربهم، وجعلوا عزاءهم في موت النبيِّ ﷺ اللهَ الحيَّ الباقي، فكان الله - تعالى - خيرَ عزاءٍ ثبَّتهم وربط على قلوبهم. انظر إلى قول ذي الكَلاع يتقوَّى بربه مطابقًا بين النبيِّ الذي مات، واللهِ الحيِّ الذي لا يموت:

إِنْ يَكُنْ مَاتَ فَهَذَا رَبُّنَا ... لَمْ يَمُتْ، وَاللهُ حَيٌّ لَمْ يَزَلْ

والرَّسول إذا مات فإن الدين عندهم لا يموت بموته، فهو محميٌّ بحماية الله له، وهذا معنًى مَرَّ كثيرًا، فقد قال عبد الله بن أُنيس مطابقًا بين موت الرَّسول وحياة الدين:

فَإِنْ مَاتَ فَالإِسْلَامُ حَيٌّ، وَرَبُّنَا ... لِذَا الدِّينِ مِمَّا كَادَهُ اليَوْمَ مَانِعُ

وهذا هو المحَكُّ الذي عنده تظهر معادنُ الناس، الدّين، فمن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، ومن أطاع دينَ النبيِّ ﷺ حقَّت له الطاعة، ومن عصاه فما له إلا الإباء، وقد جمع عبد الحارث بن أنس هذا المعنى في هذه المقابلة:

وَنَحْنُ عَلَى دِينِ النَّبِيِّ نَرَى الَّذِي ... نَهَانَا حَرَامًا مِنْهُ، وَالأَمْرُ مَا أَمَرْ
نُطِيعُ قُرَيْشًا مَا أَطَاعُوا فَإِنْ عَصَوْا ... أَبَيْنَا، وَلَمْ نَشْرِ السَّلَامَةَ بِالغَرَرْ

ودين الله منصورٌ أبدًا، وإن عجِل عليه العاجلون أو ظنُّوا به الظنون، كذلك آمن الصَّحابة، وردُّوا على المنافقين والكفار واليهود الشامتين، بأن ما أصابهم في هُنَيْهَةِ اليومِ؛

اللهُ كاشفُه غدًا، قال أبو الهيثم:

فَـإِنْ تَـكُ هَـذَا اليَـوْمَ مِنْهُمْ شَـمَاتَةٌ فَـلاَ يَأْمَنُـوا مَـا يُحْـدِثُ اللهُ فِي غَـدِ

وبذلـك وجد الصحابةُ في الطباق خيرَ مُعـين على الإعراب عن تقلُّب أمرهم بين اليأس والرجاء، والخوفِ والأمل، والوعدِ والوعيد.

ولا يخلـو تدبُّـرُ الصحابـة بالجمع بـين النقيضين في السـاعة الحرجة من عقـلٍ وحكمة مَنَعَاهم من الانسـياق خلف عواطفهم الجارفة، ولم يقفوا عند ذلك، بل ربما عزَّزوا المراثي بشيءٍ من (حكمة خالصةٍ) لعلَّهم يغالبون بها أَلَمهم، ويطفئون ببردها لوعةَ صدورهم، فمنها قول أبي الهيثم يهدهِدُ فؤاده ويصبِّرُه:

أَلاَ قَـدْ أَرَى أَنَّ المُـنَى لَـمْ تُخَـلَّدِ لأَنَّ المَنَايَـا لِلنُّفُـوسِ بِمَرْصَـدِ

وهنا تعمَّد الشـاعرُ المجانسـةَ بـين المُنَى والمنايا ليشـير إلى أن المنيَّة ليسـت ببعيدٍ عن الأُمْنيَّة، وأن الإنسان يعيش في قلق دائم على مصيره، ويسعى في الحياة حتى في أسعد لحظاتها متوجِّسًا من هذا الموت الذي يهدم لَذَّاتِه، ويستلِبُ الأحبَّة منه.

ومن الحكمة قولُ عبد الله بن سلمة يُذَكِّر نفسه أن الموت حقٌّ، وأنه لا فرار منه:

وَفَدَتْـهُ النُّفُـوسُ، لَيْـسَ مِـنَ المَـوْ تِ فِـرَارٌ، وَأَيْـنَ أَيْـنَ الفِـرَارُ ؟!

ليـس من الموت فـرارٌ: الحقيقةُ الإنسـانيَّة الكبرى الـتي أقرَّت لها البشريَّـةُ جميعًا مهما اختلفت ألسنتُهم وألوانهم وأديانهم، وخضعوا لويلاتها خضوعَ المستسلم العاجز أو خضوع الجَزِع، والعقلاء على أنها ما دامت لا مناص منها، فالتسليم أولى.

ومنها قول الزِّبرقان بن بدر يذْكرُ فعل الموت بالأوَّلين والآخرين، وكيف يغتال بهجتَهم:

وَأَيُّ قَـوْمٍ أَدْرَكُـوا غِبْطَـةً دَامَـتْ لَهُمْ مِـنَ آلِ حَامٍ وَسَـامْ!

يريـد أن يقول: لا أحد، فليسـت مصيبة المـوت بِدْعًا فينا وحدنـا، ولكنها المصيبة التي ينتهي إليها الخلق جميعًا.

والشاعر لا يسعى بمثل هذه المعاني إلى القعود من الناس مقعد الحكيم، ولكنه إنما «يريد أن يربـط موقفه الخاصّ بموقفٍ أعمَّ وأشـمل... وكأنه يضـع تجربته الخاصَّة أمام معيارٍ عامّ لدى المتلقي؛ ليدرك المفارقة فيها أو الموافقة... وهذا - لا ريب - انفراجٌ بالقول، وانفسـاحٌ بخصوصياته إلى أُطُرٍ إنسانية أوسع »[1].

وفي المراثي (حذفٌ)، والحذف من بلاغة العرب، وقد كانوا يفضلون الإيجازَ ويقدِّمونه[2]، والحذف نوع إيجاز، وهو أحقُّ بالشـعر وأهلٌ له؛ لأن فيه غموضًا محمودًا يسـتوقف القارئ، ويسـتحثُّ ذكاءه[3] لملء الفراغ المعنوي الذي تركه المحـذوف. ومِنْ حذف أصحاب المراثي قول سواد:

هَـذَا، وَهَـذَا لاَ يَـرُدُّ نَبِيَّنَـا لَـوْ كَانَ يَفْدِيـهِ فَـدَاهُ سَـوَادُ

أي: لو كان يفديه أحدٌ، فحذف الفاعل لقرينة لفظية هي ذكر اسم سـوادٍ بعده، وسـوادٌ أحدٌ من الناس. وقد حذف الشاعرُ هنا إبهامًا لشأن المحذوف كي يعبِّر عن السَّعة والكثرة؛ فكلُّ أحدٍ من الناس عظُم شأنه أو وضُع يتمنَّى لو كان يفدي رسولَ الله ﷺ.

ومنه قول العتكي:

يَـا عَمْـرُو، إِنَّ حَيَاتَـهُ كَوَفَاتِـهِ فِينَـا، أَتُبْـصِرُ مَـا نَقُـولُ وَتَسْـمَعُ ؟

أي: أتبـصر مـا نفعـل، وتسـمع مـا نقـول ؟ وقـد يحملـه قـومٌ على مـا يُسـمَّى

(١) دراسات في الشعر الجاهلي، لأستاذنا الدكتور فوزي محمد أمين ص٤٤٢ (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٢م).

(٢) انظر: الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ص١٠ (دار الغصون، بيروت، ط٣/١٤٠٥هـ).

(٣) انظر: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، للدكتور صلاح الدين عبد التواب ص١٤٩ (الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط١/١٩٩٥م).

بـ (تراسـل الحواسّ)[1]، ولا بأس به؛ فالشـعر يحتملُـه، والمعنى: أنه بلغ قولُنا الذي تسـمعه بأذنك من الصدق مبلغًا كأنه تمثَّل أمامك فأبصرْتَه بعينيك.

ومنه قول عمرو بن سالم:

فَلَـمْ أَرَ يَوْمًـا كَانَ أَعْظَـمَ حَادِثًـا وَلَـمْ أَرَ يَوْمًـا كَانَ أَكْـثَرَ مَوْجِعَـا
وَلَـمْ أَرَ مِـنْ يَـوْمٍ أَعَـمَّ مُصِيبَـةً وَلاَ لَيْلَـةٍ كَانَـتْ أَمَـرَّ وَأَفْظَعَـا

أي: من ذلك اليوم، يومِ الوفاة، وقد حذفه لذيوعه واتِّساع العلم به، وحَذفَه تهويلاً لأمره، ولـلذي جرى فيه، وكأنه بهـذا الحذف يفتح أمامنا أبوابًا من المعـاني التي يجوز لنا تصوُّرها، والتي مثَّل الشاعر لبعضها، كعِظم الحوادث، وكثرة المواجع، وعموم البلوى... وهَلُمَّ جرّا.

وقول أبي سفيان:

أَفَاطِـمُ إِنْ جَزِعْـتِ فَـذَاكِ عُـذْرٌ وَإِنْ لَـمْ تَجْـزَعِي فَهُـوَ السَّـبِيلُ

أي: السـبيل المأمـولُ المرجوُّ منكِ. وهو حذف للنعت تفخيمًـا له وثناءً عليه، وكأن هذا السبيل المحمود قد عُرف فضلُه في الأذهان، فرأى الشاعر أنْ لا حاجة إلى ذكر نعوته سواء عند السامع أو المُعَزَّى.

وقولُه:

وَقُـولِي فِي أَبِيـكِ، وَلاَ تَمَـلِّي وَهَـلْ يَجْـزِي بِفِعْـلِ أَبِيـكِ قِيـلُ ؟!

أي: قولي فيه ما شـئت. وقد ترك الشـاعر مقولَ القول لصعوبة اسـتيفائه عليه؛ فمن ذا الذي يسـتطيع أن يثـنِيَ على الرَّسـول بما هـو أهلُه ؟ لقد كان الشـاعر بليغًا حين تخفَّف من

---

(١) تراسل الحواس هو خلْع وظيفةِ حاسَّةٍ على حاسة أخرى (انظر: الصورة الفنية معيارًا نقديًّا، للدكتور عبد الإله الصائغ ص٤١٥، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١/١٩٨٧م)، وقد يسمى تبادلَ الحواس، وهو قديم مأثور في شعر العرب (انظر: تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، للدكتور عبد الرحمن محمد الوصيفي، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠٠٨م).

مؤونـة هذا الحِمـل الثقيل، وترك لكل أحدٍ أن يقول في الرَّسـول ما يحـب. عند هذا الحذف تتفتَّق المعاني، ويتروَّى القارئ قليلاً ليُطِيفَ بخياله ما يذْكُره من فضائل الرَّسول ﷺ وصالح أعماله، فتواتيه هِزَّةٌ يُحدثها حبُّه له، وحزنُه على موته.

وكان الشـاعر بليغًا مَرَّةً أخرى حين أكَّد كثرة ما يسـتحقُّه الرَّسـول من الثناء بـ(النهي) بعد ما أبانه بالحذف؛ أعني نهيَ القائلين عن المَلل من تمجيد الرَّسول ﷺ؛ فإن حقَّه كبير لا ينبغي أن يُملَّ من ذكره وترداده.

ولمثل ذلك كان الجرجانيُّ محقًّا في نعته الحذف بأنه « بابٌ دقيقُ المسـلك، لطيفُ المأخذ، عجيـبُ الأمر، شـبيهٌ بالسِّـحر؛ فإنَّك ترى به تـركَ الذِّكْر أفصحَ من الذِّكـر، والصمتَ عن الإفـادة أزيـدَ للإفـادة، وتجـدُك أنطقَ ما تكـونُ إذا لم تنطِـقْ، وأتمَّ ما تكون بيانـاً إذا لم تُبِنْ»[1].

ولو تكلَّف الشـاعر ذكرَ مدائح النبيّ ﷺ لشـقَّ على نفسه، ولَنـزل بالكلام عن درجته السـامقة؛ ذلـك أن « مـن علامات الحذف البليـغ الذي يرفع قيمـة الكلام، أنَّـه إذا أُظْهِرَ المحذُوفُ زالَ ما في الكلام من بهجةٍ وطلاوة وجمالٍ فنّيّ وإبداع »[2].

ذلـك، وفي المـراثي أبيات عليهـا (طبائعُ النَّثر)، جرَّ إلى شيء كثير منها إنشـادُها في مقام الخطابة، وإنّ قارئًا لمرثية عديّ بن حاتم يَلْقَى فيها أبياتًا كأنها النَّثر؛ لبنائها المنطقيّ الذي لا تقديم فيه ولا تأخير، ولسهولتها، وطولِ جملتها، كثلاثة هذه الأبيات:

أَلاَ إِنَّ هَـذَا الأَمْـرَ أَصْبَـحَ أَهْلُـهُ ... عَلَى مِثْـلِ حَـدِّ السَّـيْفِ بَعْـدَ مُحَمَّدِ
وَلاَ ذَاكَ مِـنْ ذُلٍّ وَلاَ مِـنْ مَخَافَـةٍ ... عَلَى الدِّيـنِ والدُّنْيَـا لإِنْجَـازِ مَوْعِـدِ
وَلَكِـنْ أُصِبْنَـا بِالنَّـبِيّ، فَلَيْلُنَـا ... طَوِيـلٌ كَلَيْـلِ الأَرْمَـدِ المُتَـلَدِّدِ

فإنَّـك لـو لم تَفصِلْ بين الشـطرين، وقرأْتَها كلَّها كأنها قطعةٌ واحدة؛ سـاغ لك عدُّها في

(١) دلائل الإعجاز ص١٤٦ (قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٤م).

(٢) البلاغة العربية، للميداني ١/٣٣٠.

النثر من غير ما غضاضة. وهذه الأبيات ألقاها عديٌّ وهو يخطب في قومه، فخرجت واضحة عاديَّة سلسة، موافقةً لمقام الخطيب.

والخطابة سبيلها الإقناع والصراحة، وها هو يقول في المرثيّة وهو يخطب بضمير الجمع في قومه المتحلِّقين حوله:

وَقَـدْ سَرَّنِي مِنْكُـمْ مَعَـاشَرَ طَيِّءٍ ... حِمَايَـةُ هَـذَا الدِّيـنِ مِـنْ كُلِّ مُعْتَدِي
وَبَيْعُكُـمُ أَمْوَالَكُـمْ وَنُفُوسَـكُمْ ... رَجَـاءَ الَّذِي يَجْـزِي بِـهِ اللهُ فِي غَـدِ
وَإِعْطَاؤُكُمْ مَا كَانَ مِنْ صَدَقَاتِكُمْ ... بِغَـيْرِ جِهَـادٍ مِـنْ لِسَـانٍ وَلاَ يَـدِ

وقولُه هذا كأنه النَّثر إلا أنه قفَّاه وضمَّنه قصيدته.

على أنه استَحبَّ فريقٌ للشعر أن يخرج «خروج النثر سهولةً وانتظامًا»(١)؛ لأنه أيسر على التلـقِّي، وأقـرب إلى ما اعتاده الناس في كلامهم. وهذا النمط من الشـعر لعله أكثرُ ملاءمة لطبقة العامَّة منهم دون الخاصَّة.

ومـن آثـار الخطابـة في المراثي التوجُّـهُ بالخطاب إلى الأمـراء، وهذا ينحرف بالشـعر من الإيحاء إلى التَّقرير كقول مسروق بن ذي الحارث:

أَيُّهَـا القَائِـمُ المُعَصِّـبُ بِالأَمْـ ... ـرِ لأَنْـتَ المُصَـدَّقُ الصِّدِّيـقُ
إِنَّ ذَا الأَمْـرَ فِيكُـمُ فَخُـذُوهُ ... ثُـمَّ قُـودُوا إِلَى النَّجَـاةِ وَسُـوقُوا

ومن مناجاة القلوب إلى البرهان للعقول، كقول ذي الكَلاع مستشهدًا في صدقهم بمعاذ ابن جبل:

قَـدْ أَجَبْنَـاهُ وَقُلْنَـا قَـوْلَهُ ... وَرَأَى ذَاكَ مُعَـاذُ بْـنُ جَبَـلْ
قَـالَ: قُولُـوا، وَإِذَا مَـا قُلْتُـمُ ... فَاعْمَلُـوا فَالدِّيـنُ قَـوْلٌ وَعَمَـلْ
فَأَطَعْنَـاهُ، وَهَـذَا دِينُنَـا ... ظَاهِـرُ الصِّحَّـةِ مَـا فِيـهِ دَغَـلْ

(١) عيار الشعر، لابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي ص٨٩ (تحقيق وتعليق الدكتور محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، ط٣).

ومن آثارها الانصرافُ عن حديث الرثاء إلى تجديد العهد والمفخرة بالأقوام، كانصراف العتكي من بكاء الرَّسول ﷺ إلى طمأنة عمرو، وإسداء النصح له؛ انصرافًا غيَّر مجرى القصيدة:

يَا عَمْرُو، إِنَّ حَيَاتَهُ كَوَفَاتِهِ ... فِينَا، أَتُبْصِرُ مَا نَقُولُ وَتَسْمَعُ
فَأَقِمْ فَإِنَّكَ لاَ تُخَافُ، وَجَارُنَا ... يَا عَمْرُو، ذَاكَ هُوَ الأَعَزُّ الأَمْنَعُ
إِنَّ العُرَيْبَ لَهَا وَشِيكًا نَفْرَةٌ ... فَانْظُرْ وَأَنْتَ تَعُولُهُ مَا يَفْعَلُ

ومن نثريَّةٍ في بعض مواطن المراثي المحاورةُ بِقالَ وقُلْتُ، كمحاورة الغائب المفترض في قول عبد الحارث بن أنس:

وَلَوْ قِيلَ: تَفْدُونَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ؟ ... لَقُلْنَا: نَعَمْ، بِالنَّفْسِ وَالسَّمْعِ وَالبَصَرْ

وهذا أسلوبٌ من الحوار يرمي إلى تطهير ما قد يعلَق بأنفس الآخرين من شكوك، وانظر إلى الإفاضة في الفداء بعد الإجابة بنعم إذ لم يقتصر عليها، بل فصَّل تفصيل الواثق القويّ بأنهم سيفدونه بأغلى ما يملكون، وهو نوعٌ من الإطناب البليغ اصطلحوا على تسميته (الإطناب بالزيادة) بذكر الخاصّ بعد العام استهانةً ببذل أخصِّ النفائس، وأحبّها إلى القلب، والتي تكون الحياةُ بغيرها منغَّصةً لا لذّة فيها، ثم ترقَّى درجةً في توكيد الفداء فجعل بذل هذه الجوارح مع غلاوتها قليلاً إذا ما قورن بفضل الفقيد، وبذلك تمَّحي عوالقُ شكٍّ في صدقهم إنْ هي علقت بنفسٍ من النفوس.

أما سوادٌ فلم يُجب عن سؤال الفداء المفترض بنعم؛ لأنه رأى في الإجابة عنه بنعم تراخيًا وخمولاً، ولكنه أوجز فبادر إلى ضروب من الفداء، فقال:

لَوْ قِيلَ: تَفْدُونَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ... بُذِلَتْ لَهُ الأَمْوَالُ وَالأَوْلاَدُ
وَتَسَارَعَتْ فِيهِ النُّفُوسُ بِبَذْلِهَا ... هَذَا لَهُ الأَغْيَابُ وَالأَشْهَادُ
هَذَا وَهَذَا لاَ يَرُدُّ نَبِيَّنَا ... لَوْ كَانَ يَفْدِيهِ فَدَاهُ سَوَادُ

فبمثل هذه الحماسة ينطرح الصحابة في مهاوي الرَّدى، ويتسارعون إلى إنفاق أرواحهم لو ردَّ ذلك إليهم نبيَّهم ؟ أجل، قد يقال: لِمَ قالوا ذلك وقد علموا أنه لا يرد إليهم نبيَّهم ؟ فيجاب: قالوه ترويحًا عن حُرقة قلوبهم، ذلك أنَّ تجاذب أطراف الحديث بالحوار يهوِّن من لواعج الصدر، ويفرِّج عن كرباته. وأنَّى لنا معرفة هذه الأحاسيس النبيلة لو لم يكونوا اتخذوا هذه المسالك المختلفة من التعبير.

ومن حوار الصحابة ما يمكن أن نسميَه: (حديث النفس)، وهو حديثٌ فيه مَسَحَات مما يُطلق عليه في النقد الحديث (أسلوب تيار الوعي)[1]، وقد جاء قريبٌ من هذا الحديث في قول مسروقٍ يحاور نفسَه:

قُلْتُ - وَالنَّفْسُ لِلْبَلاَءِ عَزُوفٌ: ... أَيْنَ يَهْوِي بِكَفِّهِ المَخْنُوقُ ؟

ثم تجيب نفسُه نفسَه بأن الحزن لا مفرَّ منه، ولا من انقباضَة الصَّدر:

لاَ إِلَى أَيْنَ - إِنْ سَأَلْتَ - سِوَى الْـ ... ـخَنْقِ، وَإِنِّي بِحَتْفِهِ مَخْنُوقُ

ثم يأتي صوت منه كأنه صوتٌ ثالث، أو كأنه الصَّوتُ الأول الذي سأل؛ فيعود بالحديث من الشُّرود إلى العقل وهو يقول:

لاَ يَرُدُّ النَّبِيَّ ذَاكَ عَلَى النَّا ... سِ، وَفِي طُولِ حُزْنِنَا تَخْنِيقُ

وعبدُ الله بن سلمة حين فدَّى رسولَ الله ﷺ حدَّثته نفسُه، فسقَّهها، وقال لها: ليس من الموت فرار، وإن كان فخبِّريني إن كنت ناصحةً - أيتها النفس -: أينَ أينَ الفرارُ:

إِنَّ فَقْدَ النَّبِيِّ صَرَّعَنَا اليَوْ ... مَ فَدَتْهُ الأَسْمَاعُ وَالأَبْصَارُ

وَفَدَتْهُ النُّفُوسُ، لَيْسَ مِنَ المَوْ ... تِ فِرَارٌ، وَأَيْنَ أَيْنَ الفِرَارُ ؟ !

---

(١) انظر: النقد الأدبي الحديث، للدكتور محمد غنيمي هلال ص٥١٨.

(٣)
مَعَانٍ إسلاميَّة

لـم تتَّبع المراثي النبويَّةُ سَـنَنَ المـراثي الجاهلية حَذْوَ القُذَّة بالقذة، بـل إنا لنجد فيها آثارًا ظاهرةً من آثار الإسلام في مصدريه الكبيرين: الكتاب والسنة.

من ذلك اقتباس الصحابة من كلمات الله - سبحانه وتعالى - في القرآن العظيم، كقول أبي الهيثم بن التَّيِّهان:

ثَلاَثَـةُ أَصْنَـافٍ مِـنَ النَّـاسِ كُلُّهُـمْ ... يَـرُوحُ عَلَيْنَـا بِالشَّـنَانِ وَيَغْتَـدِي

فإن الخاطر يذهب بنا عند استماعه إلى قول الله - تعالى -: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لا تَعْدِلُواْ﴾ [المائدة:٨]. أقول الخاطر؛ لأنه قد يُفهم على مجرَّد الموافقة، ولكنَّ قوله:

وَأَوْعَـدَ كَـذَّابُ اليَمَامَـةِ جُهْـدَهُ ... فَأَجْلَـبَ عَـوْدًا بِاللِّسَـانِ وَبِالْيَـدِ

أدعى إلى الذهـاب بنـا إلى قـول الله تعـالى : ﴿وَأَجْلِـبْ عَلَيْهِـم بِخَيْلِـكَ وَرَجِلِـكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، فقد قسَّـم البيتَ تقسيمَ الآية؛ فأورد فيه الإجلاب بقريبٍ من وروده في الآية، ثم أورد اللسـان واليدَ في مقابل الخيل والرَّجِل.

وأبو الهيثم في عجُز هذا البيت:

فَـإِنْ تَـكُ هَـذَا اليَـوْمَ مِنْهُمْ شَـمَاتَةٌ   فَـلاَ يَأْمَنُـوا مَـا يُحْـدِثُ اللهُ فِي غَـدِ

يقتـفي قـولَ المولى جلَّ وعلا: ﴿لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]؛ لأنه أتى على معنى الآية، وأتى على بعض ألفاظها.

ويتلو شاعرٌ كعبد الحارث بن أنس قولَ الله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]، فيستجيب له وينقله إلى مرثيته في قوله:

بِنَجْـرَانَ نُعْطِـي مَنْ سَـعَى صَدَقَاتِنَا   مُوَفَّـرةً، مَـا فِي الخُـدُود لَهَـا صَعَـرْ

وهـو نقـلٌ - على يـسره - يشـفُّ عن إيمـان من الشـاعر جعلـه معجبًـا بآيات الله، منصرفًـا إليهـا يسـتحضر منها المعـاني والألفاظ، ولـم يُلهه بُعْـدُه هنالـك في اليمن عن حفظها والاستشـهاد بها.

وهذا النقل له صورة أخرى عند عبد الله بن أُنيس، فهو لمَّا قرأ قول الله - سبحانه وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]؛ قال وهو يبكي النبيّ ﷺ:

وَلَكِنَّـنِي بَـاكٍ عَلَيْـكَ، وَمُتْبِـعٌ   مُصِيبَتَـهُ: إِنِّي إِلَى اللهِ رَاجِـعُ

فامتثـل لأمـر الله. وهذا أمـرٌ جديدٌ لم يكـن لمـراثي الجاهلية مثلُه مـن قبل، وهو أثرٌ صريـحٌ ومعنًى جليلٌ تركه القرآن في نفوس الصحابة، أعني الصبر على المصائب شـديدِها وهيِّنهـا.

ويـأتي تشـبيه الرَّسـول في القرآن بالنُّور في قـول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] [1] فيَثْبُت في خيال صفيَّة عمتِه، فتقول له وهي ترثوه:

---

(١) قال الطبريُّ في تفسير الآية: والنور محمدٌ ﷺ «أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك» (جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، أبي جعفر محمد بن جرير، حُقق بإشراف الدكتور عبد الحميد عبد المنعم مدكور، دار السلام، مصر، ط٢/١٤٢٨هـ).

قَـدْ كُنتَ بَـدْرًا وَنُـورًا يُسْـتَضَاءُ بِهِ   عَلَيْـكَ تَنْزِلُ مِنْ ذِي العِـزَّةِ الكُتُبُ

فكأنهـا تعمَّـدت ترتيب بيتهـا كترتيب الآية من وصـف النبيّ بالنور، ثـمَّ ذِكْر الكتب المنـزَّلة من الله، وكلُّ ذلك في الآية.

وتتلـو قـول الله – تعالى – يصـف نبيَّه: ﴿يَهْدِي بِـهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُـبُلَ السَّـلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ [المائدة: ١٦]؛ فَتُؤْثِره للبكاء به على النبيّ ﷺ في قولها:

عَلَى الْمُرْتَـضَى لِلْهُـدَى وَالتُّـقَى   وَلِلرُّشْـدِ وَالنُّـورِ بَعْـدَ الظُّلَـمْ

وكأنهـا فهمت من باء السـبب في قـول الله ﴿بِـهِ﴾ اختيارًا ورضًى مـن الله لنبيه لهداية الناس فذكرت « المرتضى للهدى »، ثم ذكرت الظلمات والنور مثلما ذكرتْهُما الآية.

أمَّا بيتُها هذا:

فَاتِـحٌ، خَاتِـمٌ، رَحِيـمٌ، رَؤُوفٌ   صَـادِقُ القِيـلِ، طَيِّـبُ الأَثْـوَابِ

فهـو مسـتخلَصٌ من بضـع آيات منها قـول الله – تعالى –: ﴿لَقَـدْ جَاءَكُمْ رَسُـولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقولُه – سبحانه وتعالى –: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

وأمَّا بيتُها:

رَحْمَـةً كَانَ لِلْبَرِيَّـةِ طُـرًّا   فَهَـدَي مَـنْ أَطَاعَـهُ لِلسَّـدَادِ

فمجموعٌ من غير آية كقوله – تعالى –: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقولِه – تعالى –: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وتنتشر في المراثي المعاني الإسـلاميةُ الجديدة، كالقول بتفضيل النبيّ محمدٍ ﷺ على سـائر البشر إيمانًا بقوله ﷺ: « أنا سيد ولد آدم »[(١)].

(١) كمرثية حسَّان بن ثابت (آليت حلفة برّ)، البيت الأول، ومرثية أبي سفيان بن الحارث، البيت الرابع عشر؛ ومرثية كعب بن مالك (يا عين فابكي)، البيت الثالث. والحديث في صحيح مسلم ٧/٥٩ (دار الجيل، بيروت).

ومـن هذه المعاني: الغيرة على عرضه، والتأذِّي من شـماتة الشـامتين بموته، والسـعي إلى الخليفة ليقتصَّ منهم(١).

ومنهـا القول بأنَّ الإيمـان قولٌ وعمل(٢)، وهذا المعنى تظاهـرت فيه الآيات والأحاديث، فقد قرن الله الإيمان بالعمل في آياتٍ كثيرةٍ من كتابه العزيز كقوله جلَّ وعلا : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا، وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ، وَأَقَامُوا الصَّـلاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ؛ لَهُمْ أَجْرُهُـمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلا هُـمْ يَحْزَنُـونَ﴾ [البقـرة: ٢٧٧]، وفي الحديث: « الإيمان بضع وسـبعون أو بضعٌ وستون شُعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان »(٣).

ومنها استعمال مصطلحاتٍ من صميم الدين كالنُّبوة(٤)، والرِّسـالة(٥)، والقضاء(٦)، والقـدر(٧)، والحـلال، والحـرام(٨)، والحياء(٩)، والثـواب(١٠)، والـوحي(١١)، والكتاب(١٢)،

(١) مرثيتا امرئ القيس بن عابس؛ وشدَّاد بن مالك بن ضَمْعَج.

(٢) مرثية ذي الكلاع، البيت الخامس.

(٣) صحيح مسلم ٤٦/١.

(٤) مرثية عديّ بن حاتم، البيت السابع.

(٥) مرثية عبد الله بن مالك الأرحبي، البيت الثاني.

(٦) مرثية عمرو بن العاص (صدع القلوب)، البيت الخامس.

(٧) مرثية عبد الحارث بن أنس، البيت الأول؛ ومراثي صفية بنت عبد المطلب: (لهف نفسي)، البيت الثالث؛ و(عين جودي وسهود)، البيت الثالث؛ و(ألا يا رسول الله)، البيت التاسع. وانظر: شعر صفية بنت عبد المطلب ، للدكتور محمد أبو المجد ص٩١.

(٨) مرثية الزبرقان بن بدر، البيت الرابع، ومرثية عبد الحارث بن أنس بن الديَّان، البيت التاسع.

(٩) مرثية عمرو بن سالم الخزاعي، البيت السادس.

(١٠) مرثية أبي سفيان بن الحارث، البيت السادس عشر.

(١١) مرثية أبي سفيان بن الحارث، البيت الثامن؛ ومرثية صفية (قد كان بعدك أنباءٌ)، البيت الرابع.

(١٢) مرثيتا صفية: (قد كان بعدك أنباءٌ)، البيت الثالث؛ و(عين جودي بدمعة تسكاب)، البيت الثالث؛ ومرثية عديّ بن حاتم، البيت السابع.

والغيب[١]، والبعث[٢]، والصلاة[٣]، والجهاد[٤]، والزكاة[٥]، والصدقة[٦]، وكلُّها أسماءٌ لأصول ثابتةٍ ذاتِ فروعٍ متشعِّبةِ الدلالة في الدين الإسلاميّ.

ولو تتبَّعنا ذلك في المراثي النبويَّة وجدناه كثيرًا، ولكنَّ الصحابة لم يقفوا عند حدِّ استعارة الألفاظ والمعاني الجزئية وحسب[٧]، بل كان لهم حظٌّ كبيرٌ في هذه المراثي من تمثُّل مقاصد الدين وغايات الشريعة، مثال ذلك قول عمرو بن سالم وهو يسلّي حفصة يوم الوفاة، ويذكِّرها بالله وبوعد الله، ويحذِّرها تحذير المؤمن البصير بدين الله:

تَعَزَّيْ بِصَبْرٍ، وَاذْكُرِي اللهَ، وَاعْلَمِي ... بِأَنْ سَوْفَ يَجْزِي كُلَّ سَاعٍ بِمَا سَعَى
وَلاَ تَـرْزَئِي مَحْضَ الحَيَاءِ فَتُفْجَعِي ... بِدِينِكِ وَالدُّنْيَا فَتَرْزَئِيهِمَا مَعَا

فإنَّ الحثَّ على الصبر، والتقوّي بذكر الله؛ خُلُقٌ إسلاميٌّ رفيع أثنى الله عليه في كتابه في سورة العصر، وإنَّ حُسْن الظنّ بعدل الله ورحمته في الآخرة لعباده الصالحين خلاصةٌ جامعةٌ مما جاء به الإسلام، وإنَّ محبَّة الحياء خصوصًا وقتَ الشدَّة، وقتَ يُنسي الحزنُ الإنسانَ نفسَه؛ عَمَلٌ من لُبِّ الدين وصميمه. وكلُّ أولئك ليست ألفاظًا متقاصرةً، وإنما هو منهاجُ حياةٍ تامٌّ أُشرِبَه قلب رجلٍ مؤمنٍ ثم أذاعه لسانُه. وكل أولئك لا عهد لرثاء الجاهليَّة به، نعم قد يقصِد الشاعر الجاهلي إلى شيءٍ من هذه المعاني، ولكنه لا يستطيعها كلَّها جملةً واحدةً، ولا يستطيع مثيلَها؛ لأنها أشياء من وحي السماء لا قدرة لبشرٍ من تلقاء أنفسهم عليها.

---

(١) مرثية أبي سفيان بن الحارث، البيت الثالث عشر.
(٢) مرثية عمرو بن العاص (يا قرُّ)، البيت الأول.
(٣) مرثية عبد الله بن سلمة الهمداني، البيت الرابع.
(٤) مرثية سواد بن قارب، البيت الثامن، ومرثية عديّ بن حاتم، البيت السابع.
(٥) مرثية عمرو بن العاص (يا قرُّ)، البيت الرابع.
(٦) مرثية عديّ بن حاتم، البيت العاشر.
(٧) انظر أيضًا: الإسلام والشعر، للدكتور سامي مكي العاني ص١٧٤ وما بعدها (سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ١٩٩٦م).

ونحوٌ من ذلك دماثةُ أبي سفيان بن الحارث وهو يعزّي فاطمة - رضي الله عنها، ولِينُه وهو يَحُضُّها على الصبر بقولٍ جميلٍ طيّبٍ يشي بمعرفته كلا الأمرين: مقامِ فاطمة، وحرمةِ الجزع؛ وكلاهما من شريعة الإسلام:

أَفَاطِمُ إِنْ جَزِعْتِ فَذَاكِ عُذْرٌ ... وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِي فَهُوَ السَّبِيلُ
فَعُوذِي بِالعَزَاءِ فَإِنَّ فِيهِ ... ثَوَابَ اللهِ، وَالفَضْلُ الجَزِيلُ
وَقُولِي فِي أَبِيكِ وَلاَ تَمَلِّي ... وَهَلْ يَجْزِي بِفِعْلِ أَبِيكِ قِيلُ؟!

ولقد بدا استلهام الصحابة للدِّين جليًّا في ثلاث ظواهر تكرَّرت في المراثي النبويَّة غيرَ مرَّة؛ هي: العزاء، والفداء، والدعاء للنبيّ.

أما العزاء فقد كان المعنى الفذَّ من معاني الإسلام المتفرِّدةُ به مراثي الصحابة للنبي دون ما سواها من المراثي؛ من حيث الصفةُ والكثرةُ اللتان بسببهما صار أكبرَ ظواهرها.

والذي امتاز به هذا العزاء وخُصَّ به أنهم كانوا يُعَزُّون أنفسهم بالله - عزَّ وجل، وبدينه ما دام باقيًا، ويرون أن النبيَّ ﷺ إنْ هو إلا رسولٌ بهذا الدين وليس هو الدين، فلا تلازُم بين موته وموت الدين، فإنْ مات النبيُّ فإنَّ الدين حيٌّ، وربُّ الدين حيٌّ، والعزاء في ذلك.

وهذا أثرُ صمودٍ وعزَّةٍ من آثار الإسلام الجليلة استلهمه الصحابة من قول الله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ فقال عمرو بن العاص رضي الله عنه خالطًا حزنه بثبات المؤمن الواثق من إيمانه:

إِنْ كَانَ أَوْدَى بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْهِ - دَهْرٌ فَاجِعُ
فَاللهُ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، وَدِينُنَا ... دِينُ النَّبِيِّ، وَلِلرِّجَالِ مَصَارِعُ

يقول: عزاؤنا في ربِّنا، وأنَّا لَمَّا نزل على ما يحب نبيُّنا من الإيمان والصبر، أمَّا النبيّ ﷺ فإن يكن قد مات فذلك كتابُ الله على الخلق.

وقال مَرَّةً أخرى مؤكِّدًا المعنى:

أَوْ كَانَ قَـدْ مَـاتَ النَّـبِيُّ فَدِينُنَـا دِيـنُ النَّـبِيِّ، وَمَـا هَـدَاهُ هَـدَانِي

إذ الدينُ هو المقصود، فما دام دين الله معافًى فصبَّرَنا الله على ما سواه.

وقال ذو الكلاع متسليًّا بتوحيده لربه:

إِنْ يَكُـنْ مَـاتَ فَهَـذَا رَبُّنَـا لَـمْ يَمُـتْ، وَاللهُ حَيٌّ لَـمْ يَـزَلْ

لأن الرَّسول في اعتقاده بشرٌ يموت كما يموت الناس، والعزاء في الله الحيّ الذي لا يموت.

وتعـزّى صحابـةٌ آخـرون بمثل ذلـك، كيزيدَ بن ذي المشـعار، وعبد الحـارث بن أنس، وكعبد الله بن أُنيس في قوله:

فَـإِنْ مَـاتَ فَالإِسْـلَامُ حَيٌّ، وَرَبُّنَـا لِذَا الدِّيـنِ مِمَّـا كَادَهُ اليَـوْمَ مَانِـعُ

فليس النبيّ هو الذي يحمي الدين، بل الله يحميه، وما على الرَّسول إلاّ البلاغ.

ومثـل هـذه الأبيات تدل على رباطة جأشٍ من الصحابة سـاعة الحـزن؛ لأنهم عرفوا حكمة الله من بَعْثِ رسوله، وهم إن كانوا حزنوا لفراق الرَّسول ﷺ وأمضَّهم الحزن؛ فإنَّ حزنَهـم لـم يكن ليُنْسـيَهم ربَّهم العليَّ فيكفـروا به، حتى لقد قـال قائلهم[1] وقد بصُر بالحقائـق واسـتوت عنده المقاديـر: مايكرهه من موت الرَّسـول، وما يحبـه من حياته؛ قـال:

إِنَّ النَّـبِيَّ وَفَاتُـهُ كَحَيَاتِـهِ: الحَـقُّ حَـقٌّ، وَالجِهَـادُ جِهَـادُ

إنها إذن قوّة المؤمن الحزين استمدَّها من وحي دينه، وأُشربها نفسَه فصبرت لوفاة الرَّسول ﷺ، وحزنت، ولكنه حزنٌ على مراد الدِّين لا يُورِد المهالك.

ومن آثار الإسـلام في معاني الرثاء أثرٌ آخرُ غير صريح، ولكنه يُستشـفُّ استشـفافًا، هو

(١) هو سواد بن قاربٍ في مرثيته.

التضحية بالغالي والنفيس لفداء الرَّسول ﷺ، وهو الظاهرة الثانية من الثلاث، وهذا المعنى يدلُّ على جليل قدر الرَّسول عند أصحابه؛ وإذا كان الدينُ أساسَ الأمر وموئلَه فهل الرَّسول إلا صاحب الدين الذي جاء به ؟ فتوقيرُه - على ذلك -، وحبُّه، وبَذْلُ المُهَج من أجله؛ آيةُ تمكُّنٍ لهذا الدين من قلوبهم، وحقًّا كان القدماء ربما يُفَدُّون موتاهم كقول غُدَيَّة ابن سُلْمِيّ بن ربيعة :

أَصَابَتْهُمْ حَمِيدِينَ المَنَايَا فِدًى عَمِّي لِمَصْبَحِهِمْ وَخَالِي[1]

وقولِ الآخر:

أَجَارِيَ لَوْ نَفْسٌ فَدَتْ نَفْسَ مَيِّتٍ فَدَيْتُكَ مَسْرُورًا بِنَفْسِي وَمَالِيَا[2]

بيد أنَّ الفداء الذي في المراثي النبويَّة لم يُسبق الصحابةُ إلى مثله كثرةً وإلحاحًا، فهذا عبد الحارث بن أنس يُفدّيه بنفسه وسمعه وبصره، وإنها في نظره لشيءٌ قليل:

وَلَوْ قِيلَ تَفْدُونَ النبيّ مُحَمَّدًا ؟ لَقُلْنَا: نَعَمْ، بِالنَّفْسِ وَالسَّمْعِ وَالبَصَرْ
وَقَلَّ لَهُ مِنَّا الفِدَاءُ، وَهَذِهِ وَإِنْ بُذِلَتْ لاَ يُسْتَرَدُّ بِهَا بَشَرْ

وهذا عبدُ الله بن أُنيس يودُّ لو كان يُجدي قتلُ نفسِهِ في إرجاع الرَّسول؛ إذن لقتلها فداءً للروح الطاهرة:

فَلَوْ رَدَّ نَفْسًا قَتْلُ نَفْسٍ قتَلْتُهَا وَلَكِنَّهُ لاَ يَدْفَعُ المَوْتَ دَافِعُ

وهذه صفيَّة تفديه بنفسها وبمن تحب:

فِدًى لِرَسُولِ اللهِ أُمِّي وَخَالَتِي وَعَمِّي، ونَفْسِي قَصْرَةً، وَعِيَالِيَا

(١) انظر: شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي ١/١٠٠٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/٩٠٧.

ومثل هـذا الفداء مرقومٌ في مرثية عبد الله بن سـلمة، وفي مرثية سـواد بن قارب. وهو معـنى ديـنيٌّ في أصله؛ فيه الدلالة على استهانة الصحابة بكل كبير في سـبيل حياة رسـول الإسلام ﷺ.

وإنـه لَلحبُّ التـامُّ أن تكره الحياةَ بعد فراق الحبيب، وتودَّ لـو عاش هو ومتَّ أنت، ولا تفسـير لهـذا الحـبِّ الذي قد يبدو لنـا مفرِطًا إلا أنهم امتثلـوا أوامر الله فأحبوا الرَّسـول - صلواتُ الله عليه - أكثرَ من حبِّهم أنفسَـهم، وأطاعوا رسـوله في قوله: « لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالدِه والناسِ أجمعين »[١].

ولا يظـنّن ظـانٌّ أن هذا الحب ينمو بين ليلة وضحاها، فإن الإنسـان ضنينٌ بنفسـه، ولا يحملُه على بذلها إلا إيمانٌ هو أحبُّ إليه منها، وهذا الإيمان - كهذا الحبِّ - لا يبزُغ فجأةً، وإنما هو شيءٌ كريمٌ لا يُنال إلا بعلاجٍ وممارسةٍ ودَأْب.

وعلى ذلك لا عجب أن كان هذا المعنى شائعًا في مراثي الصحابة؛ فهم أشد الناس إيمانا.

من أجل ذلك نختلف مع مَن قال: « وأكثر ما رُثي به رسول الله ﷺ على هذا النمط الذي يكـون أثـرُ الدين فيه غـيرَ واضح... وكل ذلك الشـعر لا يخرج عن أسـلوب الرثاء الجاهليّ في الحـسرة وذكر الفجيعة والجزع الشـديد »[٢]؛ نختلف معـه لأن الرثاء النبويّ خرج - من غير شـكٍّ - عن نمط رثاء الجاهلية في كثير من جوانبه، وبدت فيه آياتٌ من شـعائر الدّين الجديد، وليس من الإنصاف التجوُّز في الأحكام ثم طردُها مطلقةً على فنّ بأكمله، أو طائفةٍ برُمَّتها من الشعراء، « وإنَّ من الغبن للشعر العربيّ... أن نرى حركتَه حركةً عمياء تكتنـزُ الصـور القديمـة دون أن ترى غيرهـا، أو تعيشُ في الذكرى فتَعْمى عن سـواها، تجترُّ القديم

(١) صحيح مسلم، تصنيف أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ٤٩/١ (دار الجيل، بيروت).

(٢) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، للدكتور يحيى الجبوري ص٣٠٥ (منشورات مكتبة النهضة ببغداد، ط١/١٩٦٤م).

دون أن تستوعب الجديد »[١]، وكأنَّ هؤلاء الشعراءَ لم يَغْنَوا بالأمس من الدين الجديد، أو كأنهم لم يعيشوا يومًا في زمنٍ إسلاميّ الطابَع والطبيعة.

أمّا ثالثة الظواهر الثلاث فهي الدعاء للنبي ﷺ. ومن الحق أن العرب كانت في القديم تُصلّي وتسلم على موتاها، كقول عَبْدة بن الطَّبِيب:

عَلَيْكَ سَلاَمُ اللهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا[٢]

وقول مُويلك بن المَزْموم يرثي امرأته:

صَلَّى عَلَيْكِ اللهُ مِنْ مَفْقُودَةٍ إِذْ لاَ يُلاَئِمُكِ المَكَانُ البَلْقَعُ[٣]

سوى أن الصحابة أكثروا من ذلك في مراثيهم، وشدَّدوا عليه؛ رقَّةً وحنانًا من أنفسهم لفراق النبيّ، واتباعًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فقالت صفيَّة - رضي الله عنها - تُحيّيه:

عَلَيْكَ مِنَ اللهِ السَّلاَمُ تَحِيَّةً وَأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ العَدْنِ رَاضِيَا

وقالت تدعو له بالرحمة والخير مسلِّمةً عليه:

رَحْمَةُ اللهُ وَالسَّلاَمُ عَلَيْهِ وَجَزَاهُ المَلِيكُ حُسْنَ الثَّوَابِ

وقال امرُؤ القيس بن عابس كأنه يضِنُّ به، ويُكْبِره على القبر، وقد أَوْرَدَ ذِكْرَه منكَّرًا، فأيُّ قبرٍ هذا الذي سيسع جلالَ رسول الله ﷺ وهيبتَه وجمالَه:

صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْهِ مِنْ مُسْتَوْدَعٍ أَمْسَى بِيَثْرِبَ ثَاوِيًا فِي مَلْحَدِ

وصلَّى عليه أبو سفيان بنُ الحارث صلاةً دِيمةً لم يبغِ لها تحوُّلاً ولا نهاية:

(١) حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام، لأستاذنا الدكتور سعيد حسين منصور ص١٥٠.

(٢) انظر: شرح الحماسة، للمرزوقي ١/٧٩٠.

(٣) انظر: المصدر السابق ١/٩٠٣.

صَـلاَةُ اللهِ مِـنْ رَبٍّ رَحِيـمٍ عَلَيْـهِ، لا تَحُـولُ، وَلاَ تَـزُولُ

وصلاةُ عبدِ الله بن سلمة عليه صلاةٌ تمتـدُّ أَمَدَ الدهر:

فَعَلَيْـكَ السَّـلاَمُ مَـا هَبَّـتِ الرِّيــ ــحُ وَمَـدَّتْ جُنْـحَ الدُّجَى أَنْـوَارُ

لقد كانوا كَلِفين بسـلامته في الدنيا يتدافعون من حوله للذَّوْد عنه، وهم الآن لا يقدرون على شيء إلا أن يسألوا له اللهَ من فضله.

وإنّـه بِمَلْكنا أن نقول ههنا: إنَّ من فَتَق عادة الصلاة على النبيّ في الشـعر، وجعلها معنى ركينًا في مديحه أو رثائه هم الصحابة، لا المتأخِّرون كما قد يتبادر إلى ذهن[1].

وإنَّ هذا الدعاء وهذه الصلاةَ على النبيّ على هذه الصورة أثرٌ آخرُ من جديد آثار الإسلام في مراثي الصحابة والمخضرمين، وهو أثر إن يبدو لفظيًّا، إلاّ أنه لا يخلو من تعلُّقٍ بالدار الآخرة، ومـا يرجوه هؤلاء المسـلمون للنبيّ بعد وفاته عند ربـه، وكان اعتقاد الناس في الجاهلية على النقيض من ذلك، وكان أُحدهم إذا رثى قال غيرَ متعلق بأيّ سببٍ من أسباب الرجاء:

وَمَـا المَـرْءُ إِلاَّ هَامَـةٌ أَوْ بَلِيَّـةٌ يُصَفِّقُهَـا دَاعٍ لَهُ غَـيْرُ غَافِـلِ[2]

فذلـك كان نظرَهـم القـاصر إلى الموت بعد الحياة؛ موتًا شـقيًّا، ورثاءً يائسًـا بائسًـا لا أثرَ للحياة فيه، ولا معنى للإنسان في إبّانه.

---

(١) الذي قصر الصلاة على النبي ﷺ على المديح النبوي المتأخِّر الدكتور صلاح عيد في: المدائح النبوية في الشعر العربي من عصر النبوة حتى البوصيري ص٢١٥ (مكتبة الآداب، القاهرة، ط١/٢٠٠٨هـ).

(٢) هـذا البيـت لخداش بن زهير، وكانوا يعتقدون أن المرء إما أن يموت سريعًا فيصير هامةً، والعربُ تزعم أن عظام الموتى تصـير هامة فتطير، وإمَّـا أن يتأخر أجله فيتعذب بالهرم، فيكون كالبلية التي تعذب حتى تموت هُزالاً وضُرًّا. والبلية: الناقة تُعقل عند صاحبها فلا تعلف حتى تموت. (انظر البيت والتفسير في: كتاب المعاني الكبير في أبيـات المعـاني، لابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسـلم الدينوري ١٢١٠/٢٢، مجلس دائـرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدِّكَن، الهند، ط١/١٣٦٨هـ).

و« الحقُّ أن الشعر الجاهليَّ ما عدا أبياتًا قليلة جدًّا لا يصوِّر إلاَّ فلسفةً دنيويةً محضًا، خاليةً من اليقين الدينيّ الذي يفعل فعله العظيم في مداواة جروح الإنسان، وشفاء نفسه، وتصبيره على كرب الحياة، وتقليبها على رهبة الموت ولذعه. ومهما تقرأ في كتب التاريخ عن وجود بعض العقائد الدينية من سماوية وغير سماوية؛ فإن الشعر الجاهليّ نفسه يثبت أن هذه العقائد كانت ضعيفة التأثير في كثرتهم البالغة، ولم يكن في دياناتهم الوثنية السائدة ما يغني الإنسان في ذعره من الموت؛ لأن سلطة آلهتهم وأربابهم كانت مقصورة على الحياة لا تتعدَّاها لا إلى الخلق ولا إلى المعاد »(١).

ألا يُعدُّ رثاءُ الصحابة بعد ذلك انقراضًا لهذه العقائد القديمة في إيمانهم بربهم - عزَّ وجلَّ، وعزائهم به، وبذلهم أرواحَهم رخيصةً رجاء ما سيجزيهم الله به في الآخرة، وسؤالهم الله - عز وجل - أن يرحم نبيَّهم، ويعليَ قدرَه، ويسكنه جنته؛ أفلا يُعد كل ذلك منزعًا إسلاميًّا صحيحًا، جعل الصحابةَ المؤمنين بوعد الله وبلقاء الله يخلطون في رثائهم للنبي ﷺ حزنًا بأمل، ويخلعون رجاءً على خوف، ويستبدلون بيأس الفناء المُزري يقينَ الخلود الشريف؟

بلى؛ إذ ليس مطلوبًا أن ينقلب خطابُ الشعر إسلاميًّا خالصًا لنحكم بافتراقه عن شعر الجاهلية، ولكنه يكفي في مثل هذا أن يهذِّب الشعر حواشيَه من أدرانه الجاهلية، كالاعتقاد بالفناء وما يتولَّد منه من سُخطٍ وهَلَع، وكالتسليم لليأس المفضي إلى الكآبة المُطْلَقة، وكالطعن في الأنساب والتملُّق والفحش في غير الرثاء. وبعد ذلك فالشعر فنٌّ إنسانيٌّ بالدرجة الأولى لا موعظةٌ أو دعوةٌ إلى الدين.

إنَّ « من مظاهر الظلم العلميّ الذي ذاق منه الأدب العربيُّ ألوانًا في عصر صدر الإسلام؛

(١) الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه، للدكتور محمد النويهي ٤٢٦/١ (الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة).

رؤيةَ التأثير الإسلاميّ ضعيفًا لا يكاد يتعدى السطح، أو يعدو القشور »[١].

ونعم قد ينحو الشعراء المخضرمون في غير الرثاء نواحيَ جاهليةً لا تظهر فيها رؤيةٌ إسلاميَّةٌ كاملة[٢]، ولكنَّ الصحابة في رثائهم للنبيّ خلَّصوا الشعر من عيوبه المنافيةِ للإسلام أوَّلاً، ثم غَذَوه بأشياء من وحي الإسلام لم يكن للعرب عهدٌ بها من قبل. ولا بأس عليهم أن صاغوا عملَهم هذا في قوالبَ أو صورٍ وَرِثُوها من الجاهلية؛ فإن اللغة إرثٌ متداوَل، وإن « هذه التشبيهات الصغيرة، أو الصورَ الحسيَّة المفردة... ليست هي الأصلَ في الأمر »[٣]، بل الشعر بطبيعته امتدادٌ لما قبله، وهو « لا ينشأ في فراغ، ولا يظهر في فراغ »[٤]، والقصيدة كالإنسان من الناس؛ لها نسبها المتشعِّبُ من القصائد الآباءِ والأجدادِ والإخوة.

* * *

---

(١) رؤية جديدة في دراسة الأدب العربي في عصر صدر الإسلام، لأستاذنا الدكتور سعيد حسين منصور ص٣١ (الدوحة ١٩٨١م).

(٢) انظر: في شعر صدر الإسلام والعصر الأموي، للدكتور فوزي محمد أمين، ص٨٩- ١٠٨ (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٢م). والأدب في عصر النبوة والراشدين، للدكتور صلاح الدين الهادي ص٢٦٣-٢٨٣ (مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣/١٤٠٧هـ).

(٣) رؤية جديدة في دراسة الأدب العربي في عصر صدر الإسلام ص٩٥.

(٤) أفق الخطاب النقدي: دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، للدكتور صبري حافظ ص٤٩ (دار شرقيّات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١/١٩٩٦م).

(٤)
الصُّــورة

دَأَبَ الصحابةُ في المراثي النبويَّة على رسـم صُوَرٍ كبيرة بعينها، ذاتِ خطوط بارزةٍ ظاهرةٍ، ظلَّلَتْ لوحةَ المراثي من ورائها بظلالٍ من عواطفَ شـتَّى كانت تعتلج في صدور أولئك الملأ من الناس بعد وفاة النبيِّ ﷺ.

أكبر هذه الصور (صورة وقع المصيبة) التي نزلت عليهم كما تنـزل الصاعقة بالناس لا يحسب الناس لها حسابًا.

فمنهـم من شُـغِل ببلوى نفسـه فصوَّر ما اعـتراه من الهمّ والبؤس بصـورٍ مختلفةٍ. من هؤلاء صفيَّة عمةُ النبيِّ ﷺ التي أحسَّت كأن المكاويَ أُوقدتْ في فؤادها يوم مات محمدٌ، فأحرقتـه:

كَأَنَّ عَلَى قَلْـبِي لِذِكْـرِ مُحَمَّـدٍ ... وَمَـا خِفْتُ مِـنْ بَعْدِ النَّـبِيِّ المَكَاوِيَا

وفي مرثيةٍ أخرى تصوِّر سـوءَ حالها، وما أصابها من السـهر والبلوى والبَلبال، حتى إنها شاب رأسُها وهي بعدُ فَتِيَّة، فتقول:

أَرِقْـتُ فَبِـتُّ لَيـلِي كَالسَّـلِيبِ ... لَوَجْـدٍ فِي الجَوَانِـحِ ذِي دَبِيـبِ
فَشَـيَّبَنِي، وَمَـا شَـابَتْ لِدَاتِي ... فَأَمْـسَى الـرأْسُ مِنِّي كَالعَسِـيبِ

ويَصْعقُ الخبرُ يزيدَ بن ذي المشعار، فيُصِمُّه، ويمسك لسانَه:

فَسَـمْعِي - لَعَمْـرُكَ - مِـنْ بَعْـدِهِ ثَقِيـلٌ، وَفِي بَعْـضِ نُطْـقِي لَثَـغْ

وجعلتْ المصيبةُ مسروقًا يستهين بكل مصيبة - وإن عظمت - بعد مصيبته الكبرى بالرّسول، فيمضي قائلاً وقد غرق في دموعه:

قُلْـتُ وَالدَّمْـعُ كَالجُمَـانِ عَلَى النَّحْـ ـرِ وَقَـدْ لاَحَ فِي السَّـمَا العَيُّـوقُ:

كُلُّ أَمْـرٍ وَإِنْ تَعَاظَمَـنِي الصَّبْـ ـرُ عَلَيْـهِ بَعْـدَ النَّـبِيّ دَقِيـقُ

والعَيُّـوق: كوكـبٌ يطلُـع مع الثُّريَّـا، يُضرب به المثـل في البُعد، كما أنَّ بـه كانوا يعرفون القبلـة؛ وكأن الشـاعر يرمز بهـذا الرمز إلى قُـرْب كلِّ شيء وانقلاب أحـواله؛ ألم يكونوا يقولـون: أبعـدُ من العَيُّوق ؟[1] فهذا هـو العيوق البعيد يلوح أمام ناظريْ الشـاعر، كموت الرَّسـول الذي كان مسـتبعدًا فها هو ذا قد صار شيئًا حقيقةً، ووقع ما لم يكن في الحسبان، وعلى ذلك تجري سُنَّةُ الأقدار.

وفي العيُّوق أيضًا رمز إلى رفعة النبيّ ﷺ وعلوّ قدره.

وتسـتدعي هدايةُ العيُّوق إلى القبلة آثارَ الرَّسـول فيهم، فهو الذي علَّمهم الصلاة، ودلَّهم على الله، وهداهـم إلى الديـن؛ فإذا كُتب عليه المـوت وهو مَنْ هو عند ربه وعند الناس؛ فإن كل مصيبة بعده وإن جَلَّت تدِق.

ثم يصوِّر الشاعر حاله البئيسة وقد أطبقت عليه جوانحُه، واضطربت نفسُه وعافت كلَّ شيء:

قُلْـتُ وَالنَّفْـسُ لِلْبَـلاء عَـزُوفٌ: أَيْـنَ يَهْـوِي بِكَفِّـهِ المَخْنُـوقُ ؟

لاَ إِلَى أَيْنَ - إِنْ سَـأَلْتَ - سِـوَى الْـ ـخَنْـقِ، وَإِنِّي بِحَتْفِـهِ مَخْنُـوقُ

---

(١) انظر: جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري ٢٣٨/١ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد الحميد قطامش، دار الفكر، ط٢/١٩٨٨م).

أما عامر بن الطُّفيل الصحابي فيرى أن الدهر قد شدَّ قوسه عليه بوفاة الرَّسول ﷺ، ورماه بسهمٍ أصاب حبَّة قلبه:

وَتَّـرَ الدَّهْـرُ قَوْسَـهُ فَـرَمَى القَلْـ ـبَ فَلَـمْ يُخْطِـهِ، فَصِرْنَـا هَمَاجَـا

وقد يُقرأ البيت قراءةً أخرى: فالرَّسول من الأُمَّة كالقلب من الجسد، إذا أُصيب تهاوى؛ أو أن الرَّسول كالقلب من الجيش، إذا أُصيب انهزموا.

وعلى نحـوٍ مـن هـذا المنهاج مضى جمعٌ من شـعراء المراثي يصـوِّرون ما نال العشـائر من الضعف والاستخذاء، فيحكي مُرَّان بهذه الصورة عن همْدانَ قومِه:

جَدَعَـتْ قَـوْمِي الأُنُـوفَ، وَأَجْـرَتْ دَمْـعَ عَـيْنِي، فَلِلْجُفُـونِ هُمُـولُ

ويحكي العتكيُّ ما أحاط بالناس من الهوان والمسكنة:

فَلَقَـدَ أُصِبْنَـا بِالنَّـبِيِّ، وأَنْفُنَـا وَالرَّاقِصَـاتِ إِلَى البَنِيَّـةِ، أَجْـدَعُ
وَقُلُوبُنَـا قَـرْحَى، وَمَـاءُ عُيُونِنَـا جَـارٍ، وَأَعْنَـاقُ البَرِيَّـةِ خُضَّـعُ

فقـد لحقـت آثارُ الحزن كلَّ شيءٍ منهم حتى الأجزاء الصغيرة، فأنفهم مجدَّع كنايةً عن الحزن الشديد، وقلوبهم كَلْمَى، وعيونهم دامعةٌ لا يغيض ماؤها، تلك صورتهم هم، أما بقيَّة الخلق فقد اكتفى بالإشـارة إلى مبلغ حزنهم بخضوع أعناقهم، من غير أن يفصِّل كما فصَّل في حـال قومه؛ لأن خضـوع الأعناق صورة موحيةٌ تخفي خلفها مشـاعرَ مختلفات، ظاهرُها السكينة والإطراق والصمت، وباطنها التسليم والأسى واليأس.

ورأى أبو سفيان الناسَ إثْرَ المصيبة عُمْيًا يخبطون في الأرض، فقال:

كَأَنَّ النَّـاسَ إِذْ فَقَـدُوهُ عُـمْيٌ أَضَرَّ بِلُـبِّ حَازِمِهِـمْ عَلِيـلُ
وَحُـقَّ لَتِلْـكَ مَرْزِيَـةٌ عَلَيْنَـا وَحُـقَّ لَهَـا تَطِـيرُ لَهَـا العُقُـولُ
وَأَضْحَـتْ أَرْضُنَـا مِمَّـا عَرَاهَـا تَكَـادُ بِنَـا جَوَانِبُهَـا تَمِيـلُ

وهي رؤيــة أخــرى لقومٍ آخرين من الناس، لعلهم مَن كانـوا بالمدينة، وهؤلاء لم يكونوا كإخوانهـم في الأقطـار الأخرى مبهوتين مُقْعَديـن، ولكنهم لمَّا صعقهم النبـأ انتفضوا كما ينتفض الأعمى إن ضلَّ وعزب عنه الهادي، فراح يخبط في الأرض هائمًا على وجهه، مرتاعًا لا يلـوي على شيء؛ وَهـو حيْران لا يعقل أطائشٌ عقلُه هو أم إن الأرض هي التي مادت به؟ وقـد حكى خميصةُ بـن أبان لليمنيّين حـال إخوانهم بالمدينة فقال: «تركـت الناس بالمدينة يغلون غلَيانَ القدر»(١).

وتصوّر صفيَّة حال الناس بعد الرَّسول بالبيت الذي انقضَّ وانهدم:

فَقَـدْ هَدَّنَـا فَقْـدُ الرَّسـول فَأَعْـولِي ... بِحُـزْنٍ طَوِيـلٍ آخَـرَ الدَّهْـرِ دَائِـمِ

ولم يكونوا وحدَهم المهدودين، ولكنَّ الأرض هُدَّت - كما قال سالمٌ - أيضًا:

فَقَـدْ هُـدَّتْ الأَرْضُ لَمَّـا ثَـوَى ... وَأَيُّ البَرِيَّـةِ لاَ يُنْكَـبُ ؟!

ونحـن نفهـم من تلـك الصـور أن الصحابة رأوا الحزنَ اسـتشرى فجـاوز الناسَ إلى الكائنـات، وكأنما جزِعت هي الأخـرى لفقد النبيّ ﷺ، أو كأن الصحابة غامت الدنيا في وجوههـم فأبصروا وجـهَ الحياة أغبرَ مُرْبَدًّا قاتمًا، أبصره على ذلـك عبد الحارث بن أنس، فقـال:

لَقَـدْ كَسَـفَتْ شَـمْسُ النَّهَـارِ لِفَقْـدِهِ ... وَبَكَـتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ، وَانْكَسَفَ القَمَرْ

وَبَكَتْـهُ آفَـاقُ السَّـمَاءِ وَمَـا لَهَـا ... وَلِـلأَرْضِ شَـجْوٌ غَـيْرُ ذَاكَ وَلاَ عِـبَرْ

وأحسَّه عبدُ الله بن سلمة من السماء حين شَخَص إليها ببصره مثلَما أحسَّه من الأرض:

مَـنْ بَكَتْـهُ السَّـمَاءُ تُسْـعِدُهَا الأَرْ ... ضُ، وَبَكَـتْ بَعْـدَ القِفَـارِ البِحَارُ

وَسَرَافِيـلُ قَـدْ بَكَـاهُ، وَجِبْرِيــ ... ـلُ، وَمِيـكَالُ، وَالمَـلاَ الأَطْهَـارُ

قِيـلَ: مَـاتَ النَّـبِيُّ فَانْصَـدَعَ القَلْـ ... ـبُ، وَشَـابَتْ مِـنْ هَوْلِهَا الأَشْـعَارُ

---

(١) الإصابة ٢/٣٤٥.

لقـد هال الجميعَ المـوتُ، موتُ النبيّ محمد ﷺ، وروَّعهـم، وأدمى قلوبَهم، فانقلب الكونُ بأناسه وسماواته وأرضه وملائكته إلى بكاءٍ خالص، وألَمٍ مستمرّ.

وكان من أحسـن أخلاقهم في هـذه المراثي أدبُهم وهم (يصوّرون مـوتَ النفس الشريفة، وصعودَها إلى باريها)، وهي صورة كبيرة أخرى، وفيها اتَّقَوْا ما استطاعوا ذكرَ كلمة « الموت » بعينهـا، فلـم يصرّحوا بلفظها، وإنما لجؤوا إلى فنونٍ أخرى من القول لتصوير تلك الفاجعة، كأنهم عزَّ عليهم أن يكون الرَّسول ﷺ يموت موتًا كما يموت الواحد من الناس.

فذهبت صفيَّة إلى أنه مات مختارًا؛ فقد « ولَّى » عنهم بنفسه، ولم يُكرَه على الموت:

ثُـمَّ وَلَّى عَنَّـا فَقِيـدًا حَمِيـدًا   فَجَـزَاهُ الجِنَـانَ ربُّ العِبَـادِ

وبقولها قال عمرو بن سالم:

جَزَى مِنْكَ رَبُّ النَّاسِ أَفْضَلَ مَا جَزَى   نَبِيًّـا هَدَانـا ثُـمَّ وَلَّى مُـوَدِّعَا

وبه قال ابن ذي المشعار:

فَـإِنْ يَـكُ وَلَّى فَـذَا دِينُـه   وَإِنْ نَابِـغٌ بَعْـدَ هَـذَا نَبَـغْ

ويزيـد مُـرَّان من رِفْق الصـورة ولُطفِها وهو يوغل في التصوير فيصفُ الرَّسـول ﷺ بأنه رحمة، ثم يجوز بهذه الرحمة في التصوير فيجعلُها هي التي « تولَّت » منـزِّهًا إياها هي أيضًا عن الموت، وكأنه ينأى بالرَّسـول ﷺ عن لفظة الموت أبعد ما يكون النأي، وينـزّهه عن ذكرها أشدَّ ما يكون التنـزيه، فيقول:

يَـا لَهَـا رَحْمَـةٌ أُصِيـبَ بِهَـا النَّـا   سُ تَوَلَّـتْ وَحَـانَ مِنْهَـا الرَّحِيـلُ

ويخلُـص عمرو بنُ العاص في صورته إلى أنَّ الرَّسـول ﷺ كان أمانةً مسـتردَّةً يحرص على

رجوعها صاحبُها، وصاحبُها وربُّها هو الله العزيز الذي إذا قضى أمرًا كان:

كَانَ النَّـبِيُّ أَمَانَـةً مَضْمُونَـةً ... فِينَـا إِلَى أَجَـلٍ وَحَـدٍّ أَوَانِ

فَارْتَدَّهَـا مَـنْ كَانَ يَمْلِـكُ رَدَّهَـا ... هَـذَا - لَعَمْـرُ أَبِيـكَ - فِي الفُرْقَـانِ

والأمانة من وجه آخر يحوطها الأمين برعايته، ويشـملها بما يسـتطيع من الحفظ والدفاع والصيانـة حـتى يبلـغ بهـا صاحبَها، وكذلـك كان الرَّسـول ﷺ في الصحابة؛ يخافـون عليه، ويؤذيهم أن يمسَّه أحدٌ بسوء.

والإنسان ميَّالٌ بالطبع إلى الاستحواذ لنفسه على مثل هذه الأمانات، بيد أنه تردُّه الأخلاق والدين والشيم عن نوازعه، وبذا يفترق الناس، فكأن عَمرًا يقول: إن الرضى بقضاء الله هو الشيمة المحمودة في هذا الموطن، حيث يعود كلُّ صاحب حقٍ إلى حقِّه فيأخذُه.

أو إنَّ الرَّسـول ﷺ - في صـورة الزِّبرقـان بـن بـدر - شيءٌ أحبَّـه الله فحبـاه واجتبـاه، و« استأثر به »:

فَاسْـتَأْثَرَ اللهُ بِـهِ إِذْ وَفَى ... أَيَّامَـهُ عِنْـدَ حُضُـورِ الحِمَـامْ

أو إنَّ الله - عـزَّ وجـل - أراد أن يكافئـه على صالح عمله « فـدعاه » إليه دعوة المثيب الشـاكر، المجزل في العطاء، والله شـاكر عليم، فما أجدر المرتحل! وهو الرَّسـول، وما أكرم المرتَحَل إليه! وهو الإله. تلك صورة عبد الله بن مالك الأرحبيّ في مرثيته:

دَعَاهُ إِلَيْـهِ رَبُّـهُ فَأَجَابَـهُ ... فَيَا خَـيْرَ غَـورِيٍّ، وَيَا خَـيْرَ مُنْجِدِ!

غـير أنَّ لفظـة « الموت » إن هي وردت، فإنَّ عبد الله بنَ سـلمة يبـني فعلَ الرواية للمفعـول:

قِيلَ: مَـاتَ النَّـبِيُّ، فَانْصَـدَعَ القَلْـ ... ـبُ، وَشَـابَتْ مِـنْ هَوْلِهَا الأَشْـعَارُ

كأنــه يقــول: هم يقولون: « مــات »، وأنا بريء من ذلك، ولكــنَّ الذي حدث أنّ المنون ابتــدرت آمالَنــا « فجنت » عليــه، وفي لفظ الجناية هنــا باب من التأويــل، فكأنه يقول: إن المنون فعلت فعلاً نَبْغُضُه (ولقد كنا نحب له أنْ لا يموت):

فَلَـئِنْ جَنَـتِ المَنُـونُ عَلَيْـهِ مَالَنَـا فِي الدِّيَـارِ بَعْـدُ قَـرَارُ

وتَســمو صفيَّــة عمَّتُه بقدر ابــن أخيها فتروي أن الموت « أتاه » متأدِّبًــا، ولم يَرُعْه، لا ولم يفجأْه:

كِـدْتُ أَقْـضِي الحَيَـاةَ لَمَّـا أَتَـاهُ قَـدَرٌ خُـطَّ فِي كِتَـابٍ مَجِيـدِ

ثم إن الرَّسول ﷺ إذا كان مات وقضى اللهُ أمَرَه، فإنه (حيٌّ في موته) كالرجل « المقيم » في بيته، مثَّلته بذلك صفيَّة في قولها:

فَإِمَّـا تُمْـسِ فِي جَـدَثٍ مُقِيْمًـا فَقِدْمًـا عِشْـتَ ذَا كَـرَمٍ وَطِيـبِ

أو كالرجل « الثاوي » في تمثيل امرئ القيس بن عابس:

صَـلَّى الإِلَهُ عَلَيْـهِ مِـنْ مُسْـتَوْدَعٍ أَمْسَـى بِيَـثْرِبَ ثَاوِيًـا فِي مَلْحَـدِ

ولم يقولوا جميعًا: إنه مات؛ لِما عظُم في نفوســهم من أمر موته، ولِما عظُمت به منــزلتُه في نفوسهم.

ومــن الصــور الكبيرة التي امتــدت خطوطها على رقعة واســعةٍ من لوحــة المراثي كذلك؛ (صورةُ النبيّ الكريم محمد ﷺ في الحياة).

فقــد جعلــوه « نورًا »، وعسى ذلك أن يكون اقتفــاءً لقول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]؛ ممَّن صوره بذلك عامرُ بن الطُّفيل الأزديّ، فقال:

بَكَتِ الأَرْضُ وَالسَّمَاءُ عَلَى النُّو رِ الَّذِي كَانَ لِلْعِبَادِ سِرَاجَا

وصوَّرته صفيَّة بدرًا ونورًا:

قَدْ كُنْتَ بَدْرًا وَنُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ عَلَيْكَ تَنْزِلُ مِنْ ذِي العِزَّةِ الكُتُبُ

وهو عند الزِّبرقان بدرُ الظلام ومحيي ليل التِّمام، فقد آلى أنْ لن يأسى على أحدٍ:

بَعْدَ الَّذِي كَانَ لَنَا هَادِيًا مِنْ حَيْرَةٍ كَانَتْ، وَبَدْرَ الظَّلاَمْ

يَا مُبْلِغَ الأَخْبَارِ عَنْ رَبِّهِ فِينَا، وَيَا مُحْيِيَ لَيْلِ التِّمَامْ

ونور البدر هنا هو الذي أنقذهم عنده من السُّقوط في الهاوية:

أَنْتَ الَّذِي اسْتَنْقَذْتَنَا بَعْدَمَا كُنَّا عَلَى مَهْوَاةِ جُرْفٍ قِيَامْ

وهو عند حسَّان النورُ الذي يُستضاء به:

مَنِ الَّذِي كَانَ نُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ مُبَارَكَ الأَمْرِ ذَا حَزْمٍ وَإِرْشَادِ

وصورة النور من صور القرآن المكرَّرة فيه، وهي تجيء فيه للثناء على الدِّين أو على الرَّسول، وكيف أنهما أخرجا الناس من الظلمات وأضاؤوا لهم الطريق.

وتأسَّى الصحابةُ بالقرآن أيضًا في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ فجعلوا منه ﷺ رحمة للناس، قال مُرَّان:

يَا لَهَا رَحْمَةٌ أُصِيبَ بِهَا النَّا سُ تَوَلَّتْ، وَحَانَ مِنْهَا الرَّحِيلُ

وقالت صفيَّة:

رَحْمَةً كَانَ لِلْبَرِيَّةِ طُرًّا فَهَدَى مَنْ أَطَاعَهُ لِلسَّدَادِ

وصوَّروه بالإغداق والإمراع والخصب؛ فمثَّله حسَّان بالنهر العذب:

خَـيْرُ الْبَرِيَّـةِ، إِنِّي كُنْـتُ فِي نَهَـرٍ جَارٍ، فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الصَّادِي

وتلاحقـت صورٌ صغيرة عند عمرو بن الفُحيل الزبيـدي أثمرت صورةً واحدةً متراكبة فحواها: « كان رسول الله ﷺ الخيرَ كلَّه »:

كَانَ غَيْثًـا يَـجِيءُ لِلْبَـلَدِ المَحْـ ـلِ، وَشَمْسًـا تُـضِيءُ لِـلإِشْرَاقِ

وَدَلِيـلاً يَدْعُـو العِبَـادِ إِلَى اللَّـ ـهِ وَبَحْـرًا يَصُـبُّ عَـذْبَ المَـذَاقِ

وَضَيَـاءَ البِـلاَدِ، وَالقَمَـرَ الـزَّا هِـرَ وَافَى تَمَامَـهُ لاِتِّسَـاقِ

إنـه بمثـل هذه الصور تتبدَّى للناظر عواطفُ هؤلاء الشـعراء الموتورين؛ إذ العاطفة هي مثـير الخيـال الأكبر، والخيال أسـاسُ الصُّـور الفنية وباعثُهـا الكبير[1]. إنهـا عاطفة المحبَّة للرسول ﷺ، والفجيعةِ على موته، والحزنِ الشديد لفراقه.

ولعاطفـة الصَّحابة هذه مزايا: إحداها نبلُها وسـموُّها؛ فهي لـم يحرِّكها طمعٌ في دنيا، ولا رغبةٌ في ولاية، ما حرَّكها إلا حبُّ الرَّسول، والشفقةُ على أنفسهم من الحياة بعده.

وهي صادقة؛ إذ لم نرَ تناقضًا بينها وبين موقف الفقد، ولكنْ لمسنا لحُمةً بين ما يسري في وجـدان الشـاعر وسُـبُلِ تصويره، مثالُ ذلك ما سـلف مـن تصويرهم لوفاة الرَّسـول ﷺ تصويرًا ينِمُّ عن الصدق في التعظيم والإجلال، صدقٍ غيرِ مسِفٍّ ولا مُفْرِط.

وقد سـاعد على اشـتعالِ تلك العواطـف، وتوهُّجِها إلى نهاية القصيـدة في أغلب الأمر؛ قِصرُ الشعر، ومَولدُ معظمه في مَغْمَغَة الخبر القاسي.

ذلك، وقد رسم الصحابة صورَهم بكل لون من ألوان التصوير المعروفة، ولا سيَّما ألوان التصوير البيانيِّ.

ولعل أشـهر هـذه الألوان وأيسَرها على الشـعراء في أصله التَّشـبيه؛ لـما فيه من مجرَّد

(١) انظر: أصول النقد الأدبي، لأحمد الشايب ص٢٤٣ (مكتبة النهضة المصرية، ط١٠/١٩٩٤م).

التوفيق بين أمرين اشتركا في معنى[١]، فهو سرعةٌ في الفن كما يعبّر بعض الباحثين[٢]. ومع ذلك لم يكن التشبيه الوسيلةَ البيانية الكبرى في المراثي إذا ما قورن بغيره من الوسائل؛ فقد شبّه الصحابةُ نحو سبع وعشرين مرة، ولكنَّ ما سوى التشبيه من عناصر الصورة البيانية الأخرى كان نحوًا من سبع وستين: خمسين وثلاثين استعارةً بنوعيها، وتسع وعشرين كنايةً، وأربعةِ مجازات. ومعنى ذلك أن الصحابة لم يكتفوا بالمشابهة الظاهرة بين ركني التشبيه، بل قصدوا إلى التغلغل في أعماق الصورة فصيَّروها لسانًا يُسمِعون به الناس نبضَ قلوبهم.

ومن تشبيه الصحابة العاديّ التشبيهُ المرسلُ، وهو الذي ظهر فيه الحرف، كقول عديّ ابن حاتم:

وَلَكِنْ أُصِبْنَا بِالنَّبِيِّ، فَلَيْلُنَا طَوِيلٌ كَلَيْلِ الأَرْمَدِ المُتَلَدِّدِ

فالغرضُ من هذا التشبيه إيضاح صورة الشعور الذي أحسه الشاعر في جوانحه، بما يعانيه من قلقٍ ورهبةٍ وقلَّةِ حيلة؛ فهم حيارى في هذا الظلام الدَّامس بعد غياب نور النبوة عنهم، كما يحار الأرمدُ المتخبّط في الليل، أو الأرمدُ المتخبِّط في ليل عماء.

وقد يَضمُّون إلى حرف التشبيه حرفَ التوكيد «أنَّ»، كقول أبي سفيان في صورةٍ قريبٍ من هذه الصورة، ولكنه زادها قوةً بالتوكيد، دلالةً على صدقه التامّ في حكاية ما أصاب الناسَ يومئذٍ:

كَأَنَّ النَّاسَ إِذْ فَقَدُوهُ عُمْيٌ أَضَرَّ بِلُبِّ حَازِمِهِمْ عَلِيلُ

---

(١) انظر: التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القَزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن ص٢٣٨ (بشرح البرقوقي) دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) انظر: شعر الهذليين في الجاهلية والإسلام، للدكتور أحمد كمال زكي ص٣٧٣.

وكأني بالتوكيد يأتي هنا ليشدد على علاقة المشابهة بين حال الناس عشيَّة فقدوا النبيّ ﷺ وبين العُميان التائهين؛ لئلا يترك فرصةً لمنكر قد يستبعد من حال الناس أن تبلغ هذه الدرجةَ من الضياع والمسكنة والخوف.

وكثيرًا ما حذفوا حرف التشبيه إمعانًا في نسبة المشبَّه به إلى المشبَّه، وهذا هو التشبيه البليغ، وقد يطلق عليه المؤكَّد، وهو جديرٌ به. مثاله قول عمرو بن العاص:

كَانَ النَّبِيُّ أَمَانَةً مَضْمُونَةً فِينَا إِلَى أَجَلٍ وَحَدِّ أَوَانِ
فَارْتَدَّهَا مَنْ كَانَ يَمْلِكُ رَدَّهَا هَذَا - لَعَمْرُ أَبِيكَ - فِي الفُرْقَانِ

وقد أفلح عمرٌو في التقريب بين طرفي التشبيه، حتى لقد يُظن بهذا التشبيه الاستعارةُ؛ لما فيه من التناسي بالإيغال في الحديث عن خصائص المشبَّه به، والتفصيل فيها من حيث إنَّ الأمانة «مضمونةٌ»، وإنها «ارتدَّها من كان يملك ردَّها»، ولكن منع من جعله استعارة ذِكْرُ الطرف المشبَّه[1]. وسمَّاه عبد القاهر التشبيهَ المركَّب، وهو الذي يكون مركَّبًا من أمور مجتمعةٍ لو أخللت بواحدٍ منها لم يحصل الشَّبه[2]. ولقد يجوز أن ننعت هذا التشبيه بالتشبيه البليغ المرشَّح قياسًا على ضابط الاستعارة المرشَّحة «التي قُرِنت بما يلائم المستعارَ منه»[3].

وأعمقُ من هذا ما أسمَوْه التَّشبيه التمثيليّ، وهو ما كان فيه كلٌّ من المشبَّه والمشبَّهِ به صورةً خاصَّة[4]، كقول أبي الهيثم:

وَمَا نَحْنُ إِنْ لَمْ يَجْمَعِ اللهُ أَمْرَنَا بِخَيْرِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا بَعْدَ أَحْمَدِ
بِأَمْنَعَ مِنْ شَاءٍ بِقَفْرٍ مَطِيرَةٍ بِقِيعَةِ قَاعٍ، أَوْ ضَبَابٍ بِفَدْفَدِ

(١) انظر الكلام على (مراتب التشبيه) في: بغية الإيضاح، للصعيدي ٧٠/٣.
(٢) انظر: أسرار البلاغة ص١٦٩
(٣) بغية الإيضاح ١٢١/٣٣.
(٤) انظر:البلاغة فنونها وأفنانها، للدكتور فضل حسن عباس ٦٥/٢٢ (دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمَّان، ط٧/١٤١٢هـ).

فإنه شبه نفسه وقومه إن لم يجتمعوا على الخليفة القرشيّ بشاءٍ تُركت في مَهْمَهٍ أمطرتها السماء، فأظلمت ورَعَبَت وأوحلت، أو تُركت في جبلٍ أطبق الضَّباب عليه فلا يبصرون، والجامع: الهوان والأذى والضعفُ والهلع. وهذه صورة لا يمكن الاقتصار في تناولها على جزء من المشبَّه به أو جزءٍ من المشبَّه دون جزء، بل إن سبيل هذا النوع من التشبيه - كما يقول عبد القاهر - « سبيلُ الشيئين يُمْزَج أحدُهما بالآخر حتى تحدث صورةٌ غيرُ ما كان لهما في حال الإفراد؛ لا سبيلُ الشيئين يُجمع بينهما وتحفظ صورتُهما »[١].

وشبَّهوا وقع أمر الوفاة عليهم بسيفٍ يترصَّدهم[٢]؛ أو بسيفٍ حاسم بتَّ ظهورَهم، فقتلهم وبدَّد آمالهم[٣]؛ وشبَّهوا ألَمهم من شماتة الشَّامتين بموت رسول الله ﷺ، بالجمر المتَّقد في الجوانح[٤]؛ وقبَّحوا جولة المرتدين عليهم فشبَّهوها بالرجل المجدَّع الذي تنفرُ منه الطباع[٥]؛ واستهانوا بدعاء الداعي إلى الردَّة، وتنقَّصوا من حِيَلِه فشبَّهوها بعُواء الكلب أو وَلَغِه[٦].

وشبَّهوا شيوخَ الصحابة حين المحنة بالأوتاد للأرض إن رجفت بالناس[٧]، وتلك كانت نظرتهم إلى أولي النُّهى من أصحاب رسول الله ﷺ الذين رضي اللهُ عنهم، ورضي عنهم رسولُه. كانوا يرون فيهم الرسوخَ على الحق، ويرونهم أولي الحَل والعَقْد، فلمَّا أظلمت عليهم الأرض فجأةً بوفاة الهادي اعتصموا برأيهم، واستمسكوا بهداهم؛ فهم أخبر الناس بالطريق، وأدراهم بمسالكه اللطيفة.

على أن تشبيهات الصحابة أتت جزئيَّةً وقصيرة، شأنها شأن مجمل تشبيهات العرب في

---

(١) أسرار البلاغة ص١٠١.

(٢) مرثية عديّ بن حاتم، البيت الأول.

(٣) مرثية ذي الكلاع، البيت الأول.

(٤) مرثية امرئ القيس بن عابس، البيت الخامس.

(٥) مرثية مسروق، البيت العاشر.

(٦) مرثية ابن ذي المشعار، البيت الثامن.

(٧) مرثية سواد، البيت الثالث عشر.

المراثي قبلهم؛ بل إن التشبية نفسَه لَلْمرتبةُ القريبة من مراتب التصوير؛ وذلك لانشغال الشاعر فيه بالجمع بين الشيئين: المشبَّهِ والمشبَّهِ به، ثم الفصلِ بينهما فصلاً يدرك بأقل درجات النظر، دون أن يعيش بشعوره وكيانه في أعماق صورته إلا بقدر إجادته في التقريب بين ركني التشبيه، وهو حتى إن فعل ذلك يبقى ثَمَّ حاجزٌ - وإن دقَّ - بين عاطفته وصُوَرِه. هذا الحاجز هو الذي نزل بالتشبيه وقصَّر به.

كما اتَّخذوا من الاستعارة بنوعيها لونًا آخر صوَّروا به ما أضمرته صدورهم من الأحاسيس. والاستعارة بابٌ من المجاز، ولكنَّ علاقته المشابهة، والاستعارة « جوهر الأسلوب الأدبيِّ، وركيزته الأولى »[١]، وهي من أمثل الوسائل لسبر أغوار الشاعر، والكشف عن خبايا نفسه، ولقد رآها ريتشاردز « من أسمى المظاهر البلاغيَّة التي تستطيع أن ترقى إلى مستوى التصوير اللغوي، وإلى مستوى إيصال المعنى بكيفية تتكاثف فيها سياقاتٌ وتجاربُ متعدِّدة »[٢].

فهي تنفخ في الكلام روحًا جديداً بحذف أحد طرفي التشبيه؛ ذلك أن « المستعير يعمد إلى نقل اللفظ عن أصله في اللغة إلى غيره، ويجوز به مكانَه الأصليَّ »[٣]، ثم يدَّعي بعد ذلك نسبة المنقول إليه إلى المنقول، واتِّصافَه به[٤].

ومن جليل الاستعارة في المراثي قولُ حسَّان بن ثابت:

خَيْرُ الْبَرِيَّةِ إِنِّي كُنْتُ فِي نَهَرٍ جَارٍ، فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الصَّادِي

فإنه شبه فيه النبيّ ﷺ بنهرٍ مغدق غزيرٍ ماؤه، كان ينهل منه ويَرْوى، فلما مات النبيُّ ﷺ انقطع النهر فظمئ، وانكمش الخيرُ عنه. وإضفاء صفة النهر على النبيّ ﷺ دون ذكر اسمه

(١) البلاغة فنونها وأفنانها ٢/ ٢٣١.

(٢) انظر: البلاغة والاستعارة من خلال كتاب «فلسفة الاستعارة» لريتشاردز، مقالة للدكتورة سعاد أبقار ص١٧١ (مجلة عالم الفكر، العدد ٣، المجلد ٣٧ يناير ومارس ٢٠٠٩، الكويت).

(٣) أسرار البلاغة ص٢٤٠.

(٤) انظر: المصدر نفسه ص٢٤١.

سببٌ لبعث المعنى الجديد في نفس القارئ، وحثٌّ له على التدبُّر فيه وفي معانيه ومراميه التي من أبلغها إحياء الموات، ونشرُ البهجة في القلوب الآيسة. وهو يفصح عما يكنُّه الشاعر للنَّبيِّ من المعرفة بفضله، والحسرة على فقدانه، والشوق الشديد إلى أيَّامه.

وقولُ صفيَّة - رضي الله عنها :

فَقَدْ رُزِئْتُ أَبَا سَهْلاً خَلِيقَتُهُ   مَحْضَ الضَّرَائِبِ وَالأَعْرَاقِ وَالنَّسَبِ

استعارت فيه للنبيِّ ﷺ صفةَ الأب فألحقتها به مع أنه ابنُ أخيها، والمعاني التي تحملها كلمةُ « الأَبِ » كثيرةٌ جدًّا، منها الحنان، والذودُ عن الولد، والإشفاق عليه، وبذل المجهود لتعليمه وتأديبه والقيام بأمره، والسرورُ به إذا صلُح، والتباهي بذلك، والخوف عليه إن ضلَّ، والنَّصيحة له على ذلك... وحسبك بهذه المعاني وبما قد يرد إليك من غيرها شرفًا لهذه الاستعارة، والصورةُ إنما تحسُن إذا أنت كلما قلَّبتها وقعت على وجه جديدٍ لها، وهذه الاستعارة حقيقٌ بوصف عبد القاهر لها بأنها « أمدُّ مَيدانًا، وأشدُّ افتنانًا، وأكثر جريانًا، وأعجب حُسْنًا وإحسَانًا، وأوسع سَعَةً وأبعد غَوْرًا... نعم، وأسحرُ سحرًا، وأملأ بكل ما يملأ صدرًا، ويُمتِع عقلاً، ويؤنِس نفسًا... وأهدى إلى أن تُهدي إليك أبدًا عَذَارَى قد تُخيِّر لها الجمال، وعُنِي بها الكمال... وهي أجلُّ من أن تأتيَ الصفةُ على حقيقة حالها، وتستوفيَ جملةَ جمالها »[١].

ومن الاستعارة أيضًا قول سالمٍ الغطفانيِّ يحكي تمكُّن الحزن من قلبه:

جَوًى حَلَّ بَيْنَ الحَشَا وَالشَّغَافِ   فَخَيَّمَ فِيهِ فَمَا يَذْهَبُ

فإنَّ تشبيه مُكْث الجوى بقلبه، بالرجل الذي نصب خباءه، ورمى بجِرَانه على أرض ليستوطنها ؛ لَمُغنٍ عن طويلٍ من الكلام، عميقٌ في الدلالة على تغلغل هذا الحزن واستحواذه على قلبه.

وما أجمل تقبيحَ مسروقٍ صورةَ الردَّة حين استعار لها صورة غويٍّ عارية محلوقٍ رأسُها،

(١) أسرار البلاغة ص٤٢.

قبيحةٍ تشمئز منها القلوب؛ دُعُوا إلى زفافها:

إِنَّهَـا رِدَّةٌ تُـزَفُّ إِلَيْكُـمْ ... قَـدْ تَعَـرَّتْ، وَرأْسُـهَا مَحْلُـوقُ !

إنهـم لا ريـب مبغضوهـا، وصارفـو وجوهِهـم عنها ممَّـا قد تجـرُّه عليهم مـن الويلات والوضاعة والدَّنَس.

كما اسـتعاروا لديـن الله - سـبحانه وتعالى - الحبـل[١]، وهي صورة قرآنيَّـة؛ وللمصيبة أخًـا[٢]، وللجهـل أخًا[٣]، ولجموع المرتدين مـوجَ البحر المزبِد[٤]؛ ولعلوِّ قـدر أقوامهم هامةَ الحيوان وغُرَّتَه[٥]؛ ولحالهم بعد الرَّسـول ﷺ ومصابِهم به البيتَ المهدود[٦]؛ ولشدة الأمر بعد الوفاة عصفَ الرعود[٧]؛ ولخفَّة عقولهم أوانَ المصيبة طيرَ الطيور[٨].

واسـتعملوا ضربًا آخر من الاستعارة يسـمّيه النقاد المعاصرون (التشخيص)، « وهو ضربٌ مـن التعبـير يُعدُّ من أقوى أركان الصورة الشـعرية وأعمدتِها »[٩]، وقد أشـار إليه عبدُ القاهر فقال: فإنك ترى بالاستعارة « الجماد حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخُرْسَ مُبِينةً... إنْ شـئت أرتْـك المعـانيَ اللطيفة الـتي هي من خبايـا العقل، كأنهـا قد جُسِّـمت حتى رأتها العيون، وإن شـئت لطَّفَتْ الأوصافَ الجسـمانية حتى تعودَ رُوحانية لا تنالُها إلا الظُّنون »[١٠].

---

(١) مرثية مُرَّان، البيت الحادي عشر.

(٢) مرثية أبي سفيان بن الحارث، البيت الأول.

(٣) مرثية أبي الهيثم، البيت السابع.

(٤) مرثية عديّ بن حاتم، البيت الرابع.

(٥) مرثية عبد الحارث بن أنس، البيت السابع.

(٦) مرثية صفية (أكفكف من دمعي)، البيت الرابع؛ ومرثيتها الأخرى (يا عين جودي بدمع منك منحدر)، البيت الثاني.

(٧) مرثية سواد ب قارب، البيت الثاني عشر.

(٨) مرثية أبي سفيان بن الحارث، البيت السادس.

(٩) انظر فصل التشخيص من كتاب: قضايا في النقد والشعر، للدكتور يوسف حسين بكار ص٣٤ (دار الأندلس، بيروت، ط١/١٤٠٤هـ).

(١٠) أسرار البلاغة ص٤٣.

فمن ذلك ما خلعه الراثون للنَّبيِّ ﷺ من حُلَّةٍ كئيبة على الخلائق المُحدِقة بهم، ولا سيَّما صفة البكاء التي هي في الأصل صفةٌ من صفات الإنسان، كقول عبد الحارث:

لَقَدْ كَسَفَتْ شَمْسُ النَّهَارِ لِفَقْدِهِ وَبَكَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ وَانْكَسَفَ القَمَرْ
وَبَكَتْه آفَاقُ السَّمَاءِ وَمَالَهَا وَلِلأَرْضِ شَجْوٌ غَيْرُ ذَاكَ وَلاَ عِبَرْ

وقولِ عبد الله بن سلمة:

مَنْ بَكَتْهُ السَّمَاءُ تُسْعِدُهَا الأَرْ ضُ، وَأَيْضًا بَعْدَ القِفَارِ البِحَارُ
وَسَرَافِيلُ قَدْ بَكَاهُ، وَجِبْرِيـ ـلُ، وَمِيكَالُ، وَالمَلاَ الأَطْهَارُ

وقولِ سالم مكرّرًا مُؤكِّدًا:

وَيَبْكِي لَهُ الصُّمُّ صُمُّ الجِبَالِ وَشَرْقُ المَدِينَةِ وَالمَغْرِبُ
وَتَبْكِي الأَبَاطِحُ مِنْ فَقْدِهِ وَتَبْكِيهِ مَكَّةُ وَالأَخْشَبُ
وَتَبْكِي وُعَيْرَةُ مِنْ فَقْدِهِ بِحُزْنٍ، وَيُسْعِدُهَا المِيثَبُ

وفي هـذا النوع من الصور فائدتان: الوقوفُ على مدى حزن الشـاعر وكيف ينفلت منه فينطبع على ما تبصره عيناه، والإشـارةُ إلى سَـعة هذا الحزن واسـتشرائه؛ « ذلك أن الطبيعة يمكن أن تتحول بين يدي الشاعر إلى وعاءٍ يُفرغ فيه عواطفَه، بحيث يصبح أساه أو حزنُه جزءًا من طبيعةٍ آسِيَةٍ، أو مرآةً تنعكس عليها آلامُه شاءَ أو لم يشأ »(١).

ولو تركنا هذه الصورَ الجزئيَّة القصيرةَ لَقِيتُنا في دروب المراثي صورٌ أخرى كثيفةٌ متشعِّبة، أو متراصَّـةٌ كالبُنيـان، لا تكون إلا جملةً واحدةً؛ تقصر بالانفصال أو التقسـيم عن مبتغى الشاعر وما يمليه عليه ضميرُه.

(١) شعر الرثاء في العصر الجاهلي: دراسة فنية، للدكتور مصطفى عبد الشافي الشورى ص٢٩١ (الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٣م).

وخير مثالٍ لها قول سـواد بن قارب يصوِّر رغَد حياتهم مع الرَّسـول ﷺ، وشـقاءَهم بعد فقده:

كُنَّا نَحُلُّ بِـهِ جَنَابًا مُمْـرِعًا ... جَـفَّ الجَنَـابُ فَأَجْـدَبَ الـرُّوَّادُ
فَبَكَـتْ عَلَيْـهِ أَرْضُنَـا وَسَـمَاؤُنَا ... وَتَصَدَّعَـتْ وَجْـدًا بِـهِ الأَكْبَـادُ
قَـلَّ المَتَـاعُ بِـهِ، وَكَانَ عِيَانُـهُ ... حُلُمًـا تَضَمَّـنَ سُـكْرَتَيْهِ رُقَـادِ
كَانَ العِيَـانُ هُـوَ الطَّرِيـفَ، وَحُزْنُـهُ ... بَـاقٍ - لَعَمْـرُكَ - فِي النُّفُـوسِ تِـلَادُ

إنها لوحةٌ كبيرة فيها صورٌ متشـبِّثٌ بعضها ببعض، تؤول إحداها إلى صاحبتها فتسـتوي عليها كأنها البناءُ يرتفع رويدًا رويدًا، أو الطفل ينمو حتى يشتد على صورته فتبينُ قسماتُه، وتتميَّز ملامحُه.

فقد صوَّر الشـاعر الرَّسـول ﷺ في حياته بالأرض الطيبة الخصيبـة، الدَّانية التي يتقاطر إليها الناس والأنعام، فلما أن مات كان موته ﷺ إيذانًا بجفاف هذه الأرض، وإقفارِها كأن لـم تغنَ بالأمـس؛ فانصرف الناس عنها آيسـين مجدبين، ثم إن الكـون على جموده رقَّ لحال الناس البائسـة هذه، فبكت أرضه وسماؤه رثاءً وأسفًا على الناس وأرضهم التي كانت مريعةً آنفًا. وأَلِم الناسُ أنفسُـهم ألمًا تصدَّعت به أكبادُهـم، وروَّعهم أن قصُرت مُدَّةُ متاعِهم بهذا الخير العميـم الذي كان فيهم وقَلَّ، وكان بقاؤه كالحُلم فيهم، والحلـم في هذا المعنى حياةٌ بين رَقْدتـين: رقدةٍ قبل الرَّسـول مظلمةٍ من الضـلال والجهل، ورقدةٍ بعده رمـداءَ قَلِقةٍ للفراق ومـا سـيكون من خطـب، أو هو - كما يقول فرويـد - حياةٌ في موت، ونبضٌ في سـكون[1]. فكأنمـا انتاب الأمرَ طرافةٌ خاطفـةٌ، وخلود؛ فالطرافة الخاطفـة المقتضبة كانت رؤيةَ النبيّ ﷺ كالحلم، والخلود الباقي هو الحزن الذي لا انقضاء له. وقد أَمَّ الشـاعرُ إلى الطباق فأتى به في هذا الموضع إيضاحًا للمفارقة المُرَّة بين الحياة والموت.

ويدخل في الصُّوَرِ الكثيفة الصورةُ المجمَّعةُ أجزاؤها من صورٍ أصغر، كقول العتكيِّ يحكي

(١) انظر: تفسير الأحلام، لسيجموند فرويد ص٢٩١ وما بعدها (ترجمة الدكتور مصطفى زيور، دار المعارف).

صورة ما برّح بقومه يوم الوفاة:

فَلَقَـدْ أُصِبْنَـا بِالنَّـبِيِّ، وَأَنْفُنَـا ... وَالرَّاقِصَـاتِ إِلَى البَنِيَّـةِ، أَجْـدَعُ
وَقُلُوبُنَـا قَـرْحَى، وَمَـاءُ عُيُونِنَـا ... جَـارٍ، وَأَعْنَـاقُ البَرِيَّـةِ خُضَّـعُ

فهي صورة لا تُنال إلا جميعًا؛ لأننا لن نحسَّ إحساس الشاعر حقًّا إن نحن وقفنا عند جزءٍ واحد أو جزأين من أجزاء هذه الصورة الواسعة. فتقرُّحُ القلوب وحده مثلاً لا يُغني في نقل عاطفة الشاعر وتمثيل تجربته كما أَحبَّ لها أن تكون، بل هذه الصورةُ كُلٌّ كاملٌ أراد به الشاعر التعبير عن حال قومه الكاسفةِ الحزينة، وهو منهم، وهو أعلم الناس بهم؛ وعن حال الخلق من سواهم، كما ترقُّبهم عينُه الدامعة من بعيد.

وإذا استثنينا صورة سوادٍ التي حاول أن يطيلَها ويربطَ بين شُعبها؛ فإن هذا النوع من الصور وإن تعددت أجزاؤه وتكاثرت؛ فإنها لا تتشابك ولا تمتزج، بل تسير متوازية في خطوطٍ واضحةٍ من غير اختلاطٍ يغيِّرُ ألوان الصورة المعتادة، أو يَهَبُ شكلاً جديدًا لهيكلها وعناصرها. إنها صورٌ فطريَّةٌ بريئةٌ براءةَ الحياة العربيَّة الأولى من ترفِ المدنيَّة، وتعقُّدِ أطراف حضارتها المنمَّقة.

وحتى صورة سوادٍ لم تعْدُ أن تكون صورتين أيضًا: صورةَ الجناب الممرع، وصورةَ الحلم؛ فهما - وإن امتدَّتا - صورتان لا صورةٌ واحدةٌ متآلفة، صورتان تركت أخراهما أولاهما، فاستقلَّت كُلُّ واحدة منهما بنفسها على رابطٍ هيِّنٍ بينهما. ولكنها - على كلِّ حالٍ - أدخلُ في الصناعة من صورة العَتَكِيِّ التي مثَّلْتُ بها بعدها.

تلك الاستعارة في مراثيهم، أمّا المجاز فهو قليلٌ فيها، والمجاز ضربٌ من التصوير «علاقته غير المشابهة»[(١)]، ولعلَّ السبب في قِلَّته أنه أدخلُ في جانب العقل، والصحابة كانوا أبعد شيء عن النظر والصَّنعة يومئذٍ. من هذا المجاز قول صفيَّة:

أَفَاطِـمُ صَـلَّى اللهُ رَبُّ مُحَمَّـدٍ ... عَلَى جَـدثٍ أَمْـسَى بِيَـثْرِبَ ثَاوِيَـا

(١) البلاغة فنونها وأفنانها ٢/١٤٩.

فقولها: «على جدث» مجاز علاقته الحالِّية، إذ قصدت صاحبَ الجدث الذي حلَّ فيه، وهو النبيّ ﷺ. وفي هذه الصورة حَدَبٌ على الرَّسول ﷺ، وزيادةٌ في التكريم له؛ لأن أحدًا إذا توجه بالرعاية إلى ما يتعلَّق بك ويَمَسُّك؛ فُهِمَ من حاله رعايتُه لك بالضرورة.

ومن المجاز قولُ عبد الله بن أُنيس:

نَفَى النَّوْمَ مَالَا تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ وَخَطْبٌ جَلِيلٌ لِلْبَلِيَّةِ جَامِعُ

فإن قوله: «مالا تبتغيه الأصابع» مجازٌ علاقته الكُلِّيَّة؛ لأنه أراد «مالا يبتغيه المرْءُ»، وما ذَكر الأصابع إلا لأنها من أخصِّ جوارح الإنسان، وأقدرِها على معالجة الأشياء، وكأنه يشير إلى أنَّ الذي نزل بهم من البلاء والرَّزيّة لا يدَ لهم فيه ولا حيلة. ثم إن هذا المجاز يأخذ بك إلى تخيُّل صورة الأصابع متحرِّكةً ثم عاجزةً عن الحركة، فيقع في نفسك تصديقٌ بصورة العجز التي رام الشاعر دفعك إلى نوالها.

ومن المجاز قول أبي سفيان بن الحارث:

وَذَاكَ أَحَقُّ مَا سَالَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُ النَّاسِ، أَوْ كَرُبَتْ تَسِيلُ

أراد دماءَهم، وعبَّر عنها بالنفوس؛ لأن الدماء إذا نضَب الجسم منها أقفر من رُوحه. وهذا المجاز من صور البذل الرَّفيعة، إذ الشاعر كأنه يقول: إن الناس لا يجزئ عنهم إسالةُ الدماء في حق النبيّ ﷺ حتى يُتبعوها بإسالة النفوس؛ ردًّا لجميل رسول الله ذي المنَّة عليهم.

كما كانت الكناية صورةً ذات شأن في المراثي النبويَّة، دارت عليها رحى الشعراء، ورجَّعَتها أصواتُهم.

والكناية «لفظٌ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ»[1]، وهي لذلك «غايةٌ لا يَصل إليها إلا من لطُف طبعُه، وصَفَتْ قريحتُه»[2].

(١) بغية الإيضاح ٢/١٥٠.

(٢) الصورة الفنية عند النابغة الذبياني، لخالد محمد الزواوي ص١٤٩ (الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط١/١٩٩٢م).

وبهذا الحدِّ تقف الكناية وسطًا بين الصور المجازية والصور الحقيقية، ممتازةً عن النوعين باكتنافها في طيَّات صورتها سمةً بلاغيَّةً خطيرةً هي الإقناع؛ ذلك أن صاحب الكناية « لا يأتيك بالدعوى إلا ومعها دليلُها »[١]؛ « وكل عاقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أن إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابَها بما هو شاهد في وجودها؛ آكدُ وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتَها هكذا ساذجًا غُفْلاً؛ وذلك أنك لا تدَّعي شاهد الصفة ودليلَها إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يُشكُّ فيه ولا يُظنُّ بالمخبِر التجوُّزُ والغلط »[٢].

فقول عبد الله بن سلمة:

قِيلَ: مَاتَ النَّبِيُّ فَانْصَدَعَ الْقَلْـ ـبُ، وَشَابَتْ مِنْ هَوْلِهَا الأَشْعَارُ

فيه كنايتان، أريد بهما تصوير الهلع من هول المفاجأة، وقد يجوز فيهما أن تحقَّا وخاصة الثانية منهما، فدلَّتا إذن مع الصورة التي ارتسمت في الذهن على الشعور الصادق صدقًا لم يكتف الشاعر فيه بإدراك التَّجربة، بل زاد على ذلك الوقوعَ في حومتها.

وكناية جدع الأنف في قول مُرَّان بن عُمير:

جَدَعَتْ قَوْمِيَ الأُنُوفَ وَأَجْرَتْ دَمْعَ عَيْنِي، فَلِلْجُفُونِ هُمُولُ

تجمع بين الصورة والشعور بالحسرة والمذلَّة.

وقولُ ابن ذي المشعار:

فَسَمْعِي - لَعَمْرُكَ - مِنْ بَعْدِهِ ثَقِيلٌ، وَفِي بَعْضِ نُطْقِي لَثَغْ

صورةٌ تحكي الصدمةَ والذهولَ والكُرْبة. وهي فوق ذلك تلخّص شعورًا شاملاً يعتري الشاعر لا يقف عند ثِقَل السمع وعِيّ اللسان فحسب، بل إن هذين رمزان لا غيرُ لمشاعرَ أخرى من حزنٍ وألم وحسرة، وتلك مزيَّةٌ أخرى من مزايا الكناية: أنها تترك الباب واسعًا لتخيُّل

---

(١) البلاغة فنونها وأفنانها ٢/٢٦٦.

(٢) دلائل الإعجاز ص٤٣١.

ما وراء الصورة المعلَنة، وإشراك القارئ في بناء الصورة، فمَنْ قال: إن ثِقَل السمع لا يستتبعه شُغُل القلب وشرودُ البصر وضيقُ الصدر؟ ومَنْ يُنكر أن حُبْسة اللسان ليست إلا عن صدمةِ العقل وشِدَّةِ الألم الذي يكبُر عن الكلام، أو الذي لا يستطيع الكلامُ التعبيرَ عنه؟!

وكناية طِيب الثوب في قول صفيَّة:

فَاتِحٌ، خَاتِمٌ، رَحِيمٌ، رَؤُوفٌ صَادِقُ القِيلِ، طَيِّبُ الأَثْوَابِ

صورةٌ ذهنيَّة للعفَّة، أو للطهارة، أو للتجمُّل بكلِّ ما تحمله هذه الكلماتُ من معانٍ أو إشارات، وصورةٌ حقيقية في الوقت ذاته.

ومن هذا الضرب أيضًا كنايتُهم عن خسارتهم بفقد الرَّسول ﷺ؛ بالجواد المسبوق بعد أن كان يَبَذُّ الناس فيغلبَهم ويسبقَهم[(١)]؛ وعن فجأتهم من موته بيُبس اللسان[(٢)]؛ وبالتُّفْرُوق عن القِلَّة[(٣)]؛ وبالفَتيل[(٤)] والفُواق[(٥)] عنها؛ وبتقليب الكفِّ والأصابع عن الحياة[(٦)]؛ وبضيق الحلْق عن الكُربة[(٧)]؛ وببياض الشعر[(٨)] وشَيْبه[(٩)] عن الهول والرَّوعة؛ وبصعَر الخدود عن الكِبْر[(١٠)]؛ وباستكاك المسامع عن المفاجأة والخوف[(١١)]؛ وبالجدع عن الألم والتحسرُّ والصَّغار

(١) مرثية مسروق، البيت الرابع.
(٢) مرثية عمرو بن العاص (صدع القلوب)، البيت الثاني.
(٣) مرثية مسروق، البيت السابع عشر.
(٤) مرثية مُرّان، البيت الثامن.
(٥) مرثية مُرّان، البيت الثالث.
(٦) مرثية عمرو بن سالم، البيت الحادي عشر.
(٧) مرثية عبد الله بن سلمة، البيت الثامن.
(٨) مرثية عبد الحارث بن أنس، البيت العاشر.
(٩) مرثية عبد الله بن سلمة، البيت التاسع.
(١٠) مرثية عبد الحارث بن أنس، البيت الثامن.
(١١) مرثية عبد الله بن أُنيس، البيت الثاني.

والأسف[1]؛ وبسهولة الجناب، وضِخَم الدَّسيعة، والزِّناد الواري عن جُود الرَّسول ﷺ وانبساطه وكَرَمِه[2].

فكذلك إذن تختلف الكناية عن غيرها من الصور بقوَّتها على الجمع بين المجاز والحقيقة. وقد أبعد من ظنَّ أن « التفرقة بين التَّشبيه والاستعارة والكناية وما إليها تفرقةٌ شكليَّةٌ بحتةٌ؛ فكلُّها في نهاية الأمر [- في رأيه -] صور يُبدعها الخيال... »[3]؛ أبعد ونأى بنفسه عن كثير من فواتح اللغة وتجلّياتها.

فإذا غادرنا الكنايةَ بمكانها الوسط هذا، وغادرنا هذه الألوانَ البيانيَّة استقبلَنا لونٌ جديدٌ من ألوان الصور في المراثي النبويَّة، هو الصور الحقيقيَّةُ أو الذهنيَّة، وهذه ناشئةٌ عمَّا يسمّيه بعضُ النقَّاد (الخيال البصريّ)[4].

فالمذاهب الأدبية الحديثة لا تلتزم في الصورة « ضرورة أن تكون الألفاظ أو العبارات مجازيَّةً؛ فقد تكون العبارات حقيقيَّةَ الاستعمال، وتكون مع ذلك دقيقةَ التَّصوير، دالَّةً على خيال خصب »[5]، بل لقد ذهب بعض الباحثين إلى « أن كل ملفوظ - مهما تكن صيغتُه - قابلٌ لاكتساب مدى استعاريّ »[6]، وهذا النوع من الصورة « ترفِده دائمًا قدرةً على الملاحظة والتركيب، أي جمع العديد من الملاحظات الجزئيَّة في الحياة، ثم تركيبُها في صورة فنيَّة متكاملة »[7]، والناظر إلى قول عديّ يصف الخيل الغازية في سبيل الله:

---

(١) مرثية مُرَّان، البيت السابع؛ ومرثية العتكي، البيت الثاني؛ ومرثية أبي الهيثم، البيت الثاني؛ ومرثية صفية (لهف نفسي وبتُّ)، البيت الرابع؛ ومرثيتها الأخرى (أرقت فبتُّ) البيت الثاني.

(٢) مرثية سالم، الأبيات: العاشر والحادي عشر والثالث عشر.

(٣) دراسات في الشعر والمسرح، للدكتور مصطفى بدوي ص٢٤ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢/١٩٧٩م).

(٤) انظر: الشعر الجاهلي، للدكتور محمد النويهي ١/١٠٧.

(٥) النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال ص٤٣٢. وانظر أيضًا: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، للدكتور أحمد كمال زكي ص٢٧٣.

(٦) النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، للدكتور محمد الناصر العجيمي ص٦٥٧ (كلية الآداب، سوسة ط١/١٩٩٨م).

(٧) الأدب وفنونه، للدكتور محمد مندور ص٩٠ (مطبوعات معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٦١م).

إِنْ تَمْنَعُوهَا تَأْتِكُمْ مَبْثُوثَةً قُبَّ البُطُونِ مِنَ الفِجَاجِ طَوَالِعُ
يَعْلُونَ مِنْ عُلْيَا هَوَازِنَ نَهْيَهَا فِيْهَا المَنِيَّةُ وَالسِّمَامُ النَّاقِعُ

يجدُ فيه صورةَ هذه الخيل الضَّوامرِ قد تمثَّلت له وهي تحمل الجنود منبثَّةً من كل فجٍ، مصعِدةً في الجبل الوعْر، كي تقسوَ على جحافل المرتدين. وقد عُني الشاعر فيها بصفاتٍ بعينها، فضمور البطن دليلُ مُصابرة ومِراسٍ وشِدَّة، والفجاج دليل اقتحامٍ وفتحٍ وإحاطةٍ بالعدوّ، واختياره للنَّهي دون غيره - وهو الوعر من الجبل - إشارةٌ إلى تحمُّل المشاق، والعلوّ على القوم مهما جمحوا أو صعُبوا.

ولكنَّ الصورة الحقيقيّة التي لم تُمْحَ من كيان كثير من الشعراء هي صورة يوم الوفاة، فكلٌّ وقف بنفسه ذلك اليوم على ما أثَّر فيه أو هيَّج أحزانه. وكلٌّ تخيَّر له من ذلك اليوم صورةً عبَّر بها عن آلامه.

فحسَّان يأسو لما آلت إليه حال بيوتات النبيّ ﷺ وما نزل بأمهات المؤمنين من الجَهْد، فيلتقط هذه الصورة الشعريَّة بعينها بعيني خبير؛ لأنه وجد عليها سربالاً من الحزن ليس على غيرها:

أَمْسَى نِسَاؤُكَ عَطَّلْنَ البُيُوتَ فَمَا يَضْرِبْنَ فَوْقَ قَفَا سِتْرٍ بَأَوْتَادِ
مِثْلَ الرَّوَاهِبِ يَلْبَسْنَ المُسُوحَ وَقَدْ أَيْقَنَّ بِالبُؤْسِ بَعْدِ النِّعْمَةِ البَادِي

لقد أخذتنا صورةُ حسَّان هذه، فرأينا الأشياء هنالك موحشةً قد تراخت وقبع الوجوم على وجهها. وإن المدخل الكئيب بلفظة المساء في مطلع الصورة يضفي عليها هالةً من الرهبة والتوجُّس، ثم تمضي في الصورة فتراها مكفهرَّةً وهي تحكي عن بيوت النبيّ الخالية من نسائها اللاتي ما كُنَّ يبرحنها، وعن أبوابها المُشْرَعة بعد ما كانت مصونةً مغلقة، والأستارِ المرفوعة وكانت قبل مسدلةً تحجب الناظرين، لقد تحولت الحال بأمهات المؤمنين فصرن - لشديد حزنهن وبالغ مصابهنَّ - زاهداتٍ في مُتع الدُّنيا، ذاهلات. وأمسين وهن يلبسن

الثياب الخشنة وهذا البؤس البادي عليهن؛ كأمثال الرَّواهب اللائي رآهنَّ حسَّان في الشَّام أيام كان يغدو إلى الغساسنة. هذه الأوصاف المنتقاة بعناية مدعومةً بالجزء المجازيّ الأخير؛ أتمَّت صورةً بعينها سعى الشاعر إلى بثِّها عنهم، هي صورة الزهد وفقدان الأمل.

ولقد رِيعت عمَّتُه هي الأخرى لهذا المنظر الكئيب بعينه فآثرته على غيره، فقالت:

إِذْ رَأَيْنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَرِيعٌ ... فَأَشَابَ القَذَالَ أَيَّ مَشِيبِ
حِينَ رَيْنَا بُيُوتَهُ مُوحِشَاتٍ ... لَيْسَ فِيهِنَّ بَعْدَ عَيْشٍ حَبِيبِي
فَعَرَانِي لِذَاكَ حُزْنٌ طَوِيلٌ ... خَالَطَ القَلْبَ فَهْوَ كَالْمَرْعُوبِ

ولكن صفيَّة راعها أن لم تجد ابنَ أخيها محمدًا حيث كانت تجده وهي تزوره، لقد أوحش البيتُ من بعده، وقد كان هو يملؤه بصوته وشخصه وأُنسه ورحمته وحنانه، وهو الآن خِلْوٌ من ذلك كلِّه، وقد خاب ظنها هي والنسوةِ حين غالطن أنفسهن فغدون إلى البيت لعلهنَّ يجدنه، ولعلَّ الخبر - على انتشاره - غير صحيح، ولكنهنَّ حين رأين البيوت كذلك صُعقْن.

وتدخل عاتكةُ بنتُ زيد بن عمرو بن نفيل بيت الرَّسول ﷺ فتنقل لنا بغريزتها الشاعرة صورةً فريدة أبصرتها، لعلها لا يطَّلِع عليها إلا النساء، فتقول:

أَمْسَتْ مَرَاكِبُهُ أَوْحَشَتْ ... وَقَدْ كَانَ يَرْكَبُهَا زَيْنُهَا
وَأَمْسَتْ تُبَكِّي عَلَى سَيِّدٍ ... تُرَدِّدُ عَبْرَتَهَا عَيْنُهَا
وَأَمْسَتْ نِسَاؤُكَ مَا تَسْتَفِيقُ ... مِنَ الحُزْنِ يَعْتَادُهَا دَيْنُهَا
وَأَمْسَتْ شَوَاحِبَ مِثْلَ النِّصَا ... لِ قَدْ عُطِّلَتْ، وَكَبَا لَوْنُهَا
يُعَالِجْنَ حُزْنًا بَعِيدَ الذَّهَابِ ... وَفِي الصَّدْرِ مُكْتَنِعٌ حَيْنُهَا
يُضَرِّبْنَ بِالكَفِّ حُرَّ الوُجُوهِ ... عَلَى مِثْلِهِ جَادَهَا شُونُهَا

والذي في هذه الصورة من الإجادة أنَّ عاتكةَ لقطت من بيت النبوة لقطتين، لقطةَ دوابِّ النبيِّ ﷺ التي كان يركب، وقد دخل عليها المساء فزاد وحشتها وحشةً، وقد رأتها

عاتكة تبكي كما يبكي الناس حزنًا على الرَّسول، وهذا لا يُستغرب لأن الدوابَّ تألم وتبكي، لأنَّ الحزن لم يكن خاصًّا في الناس وحدهم يومئذ. ولقطةٌ أخرى لقطتها لنساء النبيّ، فهنَّ من شدة الحزن متعباتٌ منهَكاتٌ، ديدنهنَّ تذكُّر النبيّ ﷺ والبكاءُ عليه، حتى غُدْنَ كالنصال الشاحبة دِقَّةً وضعفًا وهُزالاً. فالأصل في هذه الصورة هو وصف أجزاء بعينها من المكان، أمدَّته الشاعرة بالتشبيه بهذه النصال المحيلة لتزيد من بؤس الصورة الذي قصدت إليه في الأصل.

وكان من جمال هذه الصورة إصرار الشَّاعرة على تكرار فعل (المساء) إصرارًا وطَّنَ الأسى في قلوب السَّامعين.

إن الصُّورة الفنيَّة قد تبعث في أنفسنا الرضى لما فيها من صدق؛ إذ ترى فيها محاكاةً واضحةً ناصعةً للوجود، حين تَلقَّفُ الصُّورةُ لحظةً كان يمكن أن تزول ويطويها النسيان[1].

وهكذا كانت الصور الحقيقيَّةُ قادرةً على جلاء صدق مشاعر هؤلاء الشعراء الصحابة خيرَ جلاء، ولقد أحزنتنا تلك الصور كما أحزنتهم، وأثارت فينا الشجون. إنَّ أصدق الشعر بحقٍّ أصدقُه[2] لا أكذبُه كما أُشيع، وإنَّ الشاعر المُجيد هو الذي يفلح في تصوير التجربة كما تمثَّلت له أو عايشها.

ورُبَّهَ شاعرٍ أفلح بحسن اختياره في إثارة صورةٍ كاملةٍ بلفظةٍ واحدةٍ؛ فقد تكون بعض الكلمات صورًا في ذاتها، مُشِعَّةً بدلالتها وأصواتها[3]، فكلمة « هنبثة » في قول صفيَّة:

قَدْ كَانَ بعدك أَنْبَاءٌ وَهَنْبَثَةٌ لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهَا لَمْ تَكْثُرِ الخُطَبُ

توحي بصورة كاملة فيها التَّناوش والاختلاف والتَّناجي، وهي تُفضي بنا إلى الصورة الموسيقية للكلمة لا محالة، ففي الهاء والثاء والتاء رخاوةٌ ووسوسة وصوتٌ خفيض، وفي النونين الساكنتين: النون الأولى ونون التنوين صوتٌ أعلى قليلاً بيِّنٌ نغَمُه، وفي الباء المفتوحة

---

(١) انظر: قصة الحضارة، لول ديورانت١/١٥٤ (ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة).

(٢) انظر: النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال ص٢١٩-٢٢١.

(٣) انظر: المصدر السابق ص٤٣٢.

جلجلةٌ تكاد تُسكت الأصواتَ الخافتةَ حولها[1]، وكأنها صورةٌ لأولئك المرجفين في المدينة، الشَّامتين بالمؤمنين أصحاب الأصوات الخاشعة المستكينة، ثم إن في تلاحق حركتي الباء والشاء سرعةٌ، لا بل طَيْشٌ أعقب سكونًا وجدناه في النون قبلهما. ولا غرابة في كل ذلك؛ فالموسيقى والصورةُ عينان في رأسٍ واحد، لا تُلفَى القصيدةُ جميلةً إلا بهما، أو فلنقل: رأسٌ في جسدٍ واحدٍ، هو الشِّعر، لا يكون الشعر حيًّا إلا به.

وكلمة « نُهْبة » في قولها:

عَاشَ مَا عَاشَ فِي البَرِيَّةِ بَرًّا وَلَقَدْ كَانَ نُهْبَةَ المُرْتَادِ

توحي بصورةٍ من البذل والحِلم والتصدِّي لأمور الناس.

وكلمة « يُعالجن » في قول عاتكة بنت زيد:

يُعَالِجْنَ حُزْنًا بَعِيدَ الذَّهَابِ وَفِي الصَّدْرِ مُكْتَنِعٌ حَيْنُهَا

ترسم صورةً من المعاناة والصبر والدَّأب؛ فقد زاد مبنى الكلمة في المعنى وصَوَّر الصورة؛ إذ يوحي بناءُ الكلمة الرباعيُّ تسبقه ياء المضارعة تتلوه نونُ النسوة؛ بالتلاحق والدأب في المعالجة، والصبرِ على ويلاتِ آلام الحزن مهما طال وبَعُد غَوره، ولقد زاد الصوت الممدود في وسط الكلمة في معناها طولاً وانتظارا.

وفي كلمة « مكتنع » من البيت نفسه - ومعناه المنقبض المتشنج المنضمّ - صورةٌ لهذا الحَيْن - وهو الفراق المؤلم - وقد تشبث بهنّ بكل سبيلٍ، وران عليهنّ.

وكأنَّ الشاعرة بصورتيها تقول: إنَّ هؤلاء النساء الكريمات يغالطن أنفسَهنَّ إذا يحاولن مداراةَ الحزن وعلاجَه، فقد تمكّن الحزن من قلوبهنَّ حقًّا حتى ليصعُبَ الفِكاكُ منه.

---

(١) وصف علماء الأصوات الهاء والثاء بالهمس والرخاوة، ووصفوا الباء بالجهر والشدة، ووصفوا النون بالتوسط بين ذلك (انظر: الصوتيات العربية، للدكتور منصور بن حامد الغامدي ص٨٩-٩١، مكتبة التوبة، الرياض، ط١/١٤٢١هـ).

لقد كانت الألفاظ في العهود القديمة صورًا فطريَّةً، وكانت توحي بما لم تعد توحيه ألفاظُ الشعر في الأزمنة المتأخرة؛ حيث فقد الإنسان « وبخاصَّة في العصور الحديثة قوَّةَ هذه الإشعاعات الفطريَّة للألفاظ اللغويَّة عن طريق التجريد »[1]، تجريدِ الألفاظ من الصورة.

لكأنَّ الصحابة ارتاحوا بفطرتهم إلى الصور الحقيقية؛ لانشغالهم بهذه المصيبة الكبرى عن تحبير القول وتنقيحه، والإيغالِ في دروب المجازات.

بل لقد يمَّموا في صورهم المجازيَّةِ وجوهَهم شطر (الإنسان) ليكون مصدرًا لكثير من تلك الصور، فأعقب ذلك شعورٌ بقرب هذه الصور المجازيَّة من الحقيقة أيضًا؛ ذلك أن الإنسان هو أدنى شيءٍ من أخيه الإنسان، وإن التوجُّه نحو هذا المصدر بالذات يجعل من الصورة شيئًا معتادًا قريبًا من ديدن الحياة.

فعلوا ذلك في تصويرهم لوفاة النبيّ ﷺ لمَّا ابتغَوا توقيره وتعظيمه، فجعلوا (الإنسان) في حالات شَرَفه وعِزِّه ومهابته مصدرهم لهذه الصور، مثلما سبق القول في تخيُّلهم ليتحاشَوا ذكر موتِ النبيّ ﷺ[2]. وجعلوا من صفات الإنسان مصدر صورتهم أيضًا حين أرادوا تصويرَ النبيّ ﷺ في حياته، فشبهته صفيَّة (بالأب الإنسان الرحيم) في قولها:

فَقَدْ رُزِئْتُ أَبَا سَهْلاً خَلِيقَتُهُ ... مَحْضَ الضَّرَائِبِ وَالأَعْرَاقِ والنَّسَبِ

وشبه أبو سفيان قبرَ الرَّسول (بالإنسان السيد):

فَقَبْرُ أَبِيكِ سَيِّدُ كُلِّ قَبْرٍ ... وَفِيهِ سَيِّدُ النَّاسِ الرَّسول

ذلك أن سيادة القبر مكتسَبةٌ مِنْ سيادة مَنْ فيه، وقد دعا الشاعرَ إلى الصورة في صدر البيت لفظةُ « سيِّدٍ » في حشو عجُزه، وكذلك هي لغة الشعر تفتح لصاحبها أبواب المعاني، أو تُؤدِّي به إليها؛ ليؤول بعضها إلى بعض.

---

(١) النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال ص٣٤٢-٣٤٥.

(٢) انظر ص٤٠٢ من هذه الدراسة.

واتَّخذوا من (الإنسان في أوقات بؤسه وضُرِّه) مصدرًا يصوّرون به ألمهم وأوجاعهم، وينشرون بصورته لوعتهم وشكواهم. ولعلَّ سبب هذا الاختيار أن الإنسان أنفعُ مصدرٍ في مجال الرِّثاء؛ لأن الشاعر الرَّاثيَ يجد فيه بغيته للتعبير وهو ضائقٌ حزينٌ أقربَ مما يجد في سواه من مصادر الصورة التي يحتاج فيها إلى نوع تدبُّرٍ وتوليف لما يصلُح لبناء صورته، وهذا ما لا صبرَ للشعراء عليه في هذا المقام، من ذلك قول أبي سفيان يُشبِّه تلَجْلُجَ الناس وحيرتَهم (بأناسٍ عُميان) قَعَدَ هاديهم عنهم:

كَأَنَّ النَّاسَ إِذْ فَقَدُوهُ عُمْيٌ ... أَضَرَّ بِلُبِّ حَازِمِهِمْ عَلِيلُ

وقولُ صفيَّة تُشبِّه نفسَها وقد ذهُلت (بالإنسان المسلوب ولدُه أو عقلُه أو مالُه)، فيسهر الليل لا ينام، ولا ينام له فؤاد:

لَهْفَ نَفْسِي، وَبِتُّ كَالْمَسْلُوبِ ... أَرْقُبُ اللَّيلَ فِعْلَةَ الْمَحْرُوبِ

وتُشبِّهُ قلبَها وقد خالطه الحزن (بالإنسان المرعوب):

فَعَرَانِي لِذَاكَ حُزْنٌ طَوِيلٌ ... خَالَطَ القَلْبَ فَهْوَ كَالْمَرْعُوبِ

وأيضًا (بالإنسان المعمود):

وَانْدُبِي المُصْطَفَى بِحُزْنٍ شَدِيدٍ ... خَالَطَ القَلْبَ فَهْوَ كَالْمَعْمُودِ

والمعمود هو الذي لا يستطيع الجلوسَ من مرضه حتى يُعمد من جوانبه بالوسائد[1].

ومَثَّل سالمُ الجوى الذي هجم على قلبه (بالضيف الثقيل أوالإنسان المستبدِّ) الذي استولى على أرض غيره وما يريد ارتحالا:

جَوىً حَلَّ بَيْنَ الحَشَا وَالشَّغَافِ ... فَخَيَّمَ فِيهِ فَمَا يَذْهَبُ

(١) تهذيب اللغة (عمد).

وهو مصدرٌ بدَويٌّ جلبه صاحبُه من الصحراء التي يقطن فيها.

وشَبَّه حسَّانُ شقاءَه بالفراق (بالإنسان الصَّدِي) الذي يخشى هلاكًا:

خَـيْرُ البَرِيَّـةِ، إِنِّي كُنْـتُ فِي نَهَـرٍ جَارٍ فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ المُفْرَدِ الصَّادِي

وجعل مسروق مصدر تحذيره لقومه (امرأةً خبيثةً مراودة) فاختارها لصورته:

إِنَّهَـا رِدَّةٌ تُـزَفُّ إِلَيْكُـمْ قَـدْ تَعَـرَّتْ وَرأْسُـهَا مَحْلُـوقُ

حتى إنهم استعاروا للجوامد أيضًا صفاتٍ من صفات الإنسان، كالبكاء في قول عبد الله ابن سلمة:

بَكَـتِ الأَرْضُ وَالسَّـمَاءُ عَلَى النُّـو رِ الَّذِي كَانَ لِلْعِبَـادِ سِرَاجَـا

وكالسمع في خطابهم للعيون حين صيَّروا منها أشخاصًا يُتصدَّى لهم، وهو كثير في المراثي، منه قول سالم:

فَيَـا عَـيْنُ وَيْحَـكِ لاَ تَسْـأَمِي وَمَـا بَـالُ دَمْعِـكِ لاَ يُسْـكَبُ

وقولِ صفيَّة:

عَـيْنُ جُـودِي بِدَمْعَـةٍ وَسُـهُودِ وَانْـدُبِي خَـيْرَ هَالِـكٍ مَفْقُـودِ

ومـا بقي من مصادر الصورة سـوى ذلك فهـو من المصادر التي تعوَّدنا عليها عند سـواد الشـعراء، كاتخاذهم الطبيعة مصدرًا للصورة، كالغيث والشمس والبحر والضياء والقمر في مرثيـة عمرو بـن الفُحيل الزَّبيدي يُشـبِّه بهن الرَّسـول ﷺ، والنهرِ الجاري في قول حسَّـان الفائت، والبرقِ الخاطف الذي يقطع جسم الغمامة في قول شدَّاد بن مالك بن ضَمْعَج:

فَاقْطَـعْ - فُدِيـتَ - أَكُفَّهُـنَّ بِصَارِمٍ كَالْـبَرْقِ أَوْمَـضَ فِي مُتُـونِ غَمَـامِ

وأرضُ اليمـن أرضُ مطر وجبال يقترب سـكانها من السـماء، فـيرون البروق وهي تخرق بطونَ السحائب بومضها الفتَّاك، الذي من سرعته يكاد يخطف الأبصار.

والعسيبِ في قول صفيَّة:

فَشَيَّبَنِي وَمَا شَابَتْ لِدَاتِي ... فَأَمْسَى الرَّأْسُ مِنِي كَالْعَسِيبِ

وهي صورة مدنيَّة، وكان النخيل قُوتَ أهل المدينة ومنه يتعيَّشون.

وكاتخاذهم الحيوان مصدرًا، كالشاءِ الضالة الفَزِعة في قول أبي الهيثم:

وَمَا نَحْنُ إِنْ لَمْ يَجْمَعِ اللهُ أَمْرَنَا ... بِخَيْرٍ قُرَيْشٍ كُلِّهَا بَعْدَ أَحْمَدِ

بِأَمْنَعَ مِنْ شَاءٍ بِقَفْرٍ مَطِيرَةٍ ... بِقِيعَةِ قَاعٍ، أَوْ ضَبابٍ بِفَدْفَدِ

والفرسِ ذاتِ الغُرَّة في قول عبد الحارث:

وَنَحْنُ بِحَمْدِ اللهِ هَامَةُ مَذْحِجٍ ... بَنُو الحارِثِ الخَيْرِ الَّذِينَ هُمُ الغُرَرْ

أو تكونُ مادَّة صورتهم ذيلَ الحيوان كقول عديّ بن حاتم:

وَأَجْرَى لَهُمْ فِيهَا ذُيُولَ غُرُورِهِ ... طُلَيْحَةُ مَأْوَى كُلِّ غَاوٍ وَمُلْحِدِ

وذيلُ الحيوان أحقرُ شيءٍ منه، وأهونُه على صاحبه، ولا نفع من ورائه إلا إخفاء السوءات وهشُّ الذِبَّان، وكأن الشاعر يقول لهم: ليس وراء غروركم الكاذب إلا القبح، ولا حول لكم إلا على الضعفاء أمثالِكم؛ فأفيقوا لنا، ولا تغترُّوا بنشوةٍ عابرة سيستبين عمَّا قليل وَهْيُها وخداعُها.

وكالطير في قول أبي سفيان بن الحارث:

وَحَقَّ لِتِلْكَ مَرْزِيَةٌ عَلَيْنَا ... وَحُقَّ لَهَا تَطِيرُ لها العُقُولُ

وكاتخاذهم بعضَ ما يستعملون، إمَّا في معاشهم وشؤونهم كالحبل في استعارة مُرَّان:

إِنَّ هَمْدَان يُمْسِكُونَ هُدَى اللَّـ ... ـهِ وَمُرَّانُ بِالوَفَاءِ كَفِيلُ

والوتِدِ في قول سواد:

إِنْ حَلَّ مِنْه مَا يُخَافُ فَأَنْتُمُ ... لِلأَرْضِ - إِنْ رَجَفَتْ بِنَا - أَوْتَادُ

والقربةِ المشقوقةِ في قول مسروق:

إنَّ فِي كَيْدَةِ المُلُوكِ سَغَابًا وَأُنَاسًا سِقَاؤُهُمْ مَشْقُوقُ

أو بعضِ ما يتنعَّمون به كالجُمان في قول مسروقٍ أيضًا:

قُلْتُ وَالدَّمْعُ كَالجُمَانِ عَلَى النَّحْـ ـرِ وقَدْ لاَحَ فِي السَّمَا العَيُّوقُ

والجُمان من ترف الحضارة التي كان يسقط عليها بَصَرُ مسروقٍ في اليمن.

وإمَّا مما يستعملون في حربهم، كالقوس المشدودة وهي ينطلق منها السهم المُرْدِي في صورة عامر بن الطُّفيل الأزديّ:

وَتَّرَ الدَّهْرُ قَوْسَهُ فَرَمَى القَلْـ ـبَ فَلَمْ يُخْطِهِ، فَصِرْنَا هَمَاجَا

والنِّصالِ القديمة المعطَّلة وقد خَفَتَ بَريقُها في بيت عاتكة بنت زيدٍ تُشبِّه أمهات المؤمنين:

وَأَمْسَتْ شَوَاحِبَ مِثْلَ النِّصَا لِ قَدْ عُطِّلَتْ وَكَبَا لَوْنُهَا

وكلُّ هذه المصادر من المصادر المحيطة بهم، ونَدُر أن يأتوا بمصدرٍ من سوى ذلك، ومثال هذا النادر قولُ حسَّان يشبه أمهاتِ المؤمنين بالرَّواهب المتصوفات:

مِثْلُ الرَّوَاهِبِ يَلْبَسْنَ المُسُوحَ وَقَدْ أَيْقَنَّ بِالبُؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَةِ البَادِي

والرَّواهب كن ينتشرن على تخوم الجزيرة من قِبل الشام، وكان حسَّانُ رُحَلَةً إلى تلك المواطن قُبيل إسلامه.

وصُور المراثي النبويَّةِ حسيَّةٌ، بصريَّةٌ غالبًا كالأمثلة السابقة، وقد تجيء سمعيَّةً، كقول سوادٍ مستعيرًا صوت الرَّعد الشديد:

أَنَّي أُحَاذِرُ وَالحَوَادِثُ جَمَّةٌ أَمْرًا لِعَاصِفِ رِيحِهِ إِرْعَادُ

أو سمعيةً بصريةً، كقول ابن ذي المشعار:

أَذَاعَـتْ بِـهِ رُوسُ أَرْمَاحِنَـا ... وَكَانَ كَكَلْـبٍ عَـوَى أَوْ وَلَـغْ

لكـنَّ مـا هو أقلُّ من ذلك أن يكون مصدرُ الصورة عقليًّا كتشـبيه سـوادٍ حياة النبيّ ﷺ بالحُلْم، وقد سـبق الحديث عن هذه الصورة، وكتشـبيه عمرو بن العاص حياة النبيّ ﷺ بالأمانة المضمونة، وقد سبق الحديث عنها أيضًا.

وقد تجيء الصورة تقابليَّةً قائمةً على استحضار حالين متناقضين[1] كقول مسروقٍ يقابل بين عِزَّتهم في حياة النبيّ ﷺ وضعفِهم بعده:

وَجَـوَادًا كُنَّـا نَبَـذُّ بِـهِ النَّـا ... سَ، فَهَـذَا جَوَادُنَـا مَسْـبُوقُ

وقولِ صفيَّة تقارن بين حياته وموته:

فَإِمَّـا تُمْـس فِي جَـدَثٍ مُقِيمًـا ... فَقِدْمًـا عِشْـتَ ذَا كَـرَمٍ وَطِيـبِ

وقول الزِّبرقان مقابلاً بين فضل الهداية وسوء الضلالة:

أَنْـتَ الَّذِي اسـتَنْقَذْتنا بَعْدَمـا ... كُنَّـا على مَهْـوَاةِ جُـرْفٍ قِيَـامْ

وفائدةُ هذا النوع من الصور بَعْثُ الشَّجَن سريعًا في ضمير مَنْ يُلقى إليه الشعر، ووضْعُهُ مرةً واحدةً في حَوْمَة الحادثة المفجعة، عن طريق استدعاء الصور القديمة المُفْرِحَة، ونصبِها أمـام الصور المؤلمة المضادَّة لها؛ لتَحدُثَ درجةُ الفُجاءة المُرَّة التي يسـعى الشـاعر إليها. وقد عرض البحث لشيء من هذا في الحديث عن اللغة[2].

لقد استوحى شعراء المراثي صورَهم من كل ما استطاعوا النفاذَ إليه ببصرهم أو بصيرتهم، ولم يخالفوا في معظم الأمر ما صدر عنه سلفُهم الجاهليون من مصادر الصورة.

***

(١) انظر: مراثي النبي ﷺ، للدكتور محمد أبو المجد ص١١٥-١١٦.

(٢) انظر ص٤١١ من هذه الدراسة.

(٥)
الموسـيقَى

ليسـت الموسـيقى أقلَّ شـأنًا من غيرهـا من عناصر الشـعر، فهي - كالصـورة - « ظاهرةٌ طبيعيـة لتصويـر العاطفـة »(١)، والـوزن - في زعم ابن رشـيق - « أعظمُ أركان حدِّ الشـعر، وأولاهـا بـه خصوصيَّةً »(٢). وإنَّ أثـر القافية مثلاً - وهي جزءٌ صغيرٌ من أجزاء الموسـيقى - « لا يقف عند حدِّ النظام الموسيقيّ الصوتيّ، وإنما نجده وثيقَ الصلة بِالنُظُم الصرفية والنَّحويَّة والأسلوبيَّة، وحتى بمعجم الشعر وكلماته »(٣).

وليسـت الموسـيقى وزنًا وقافيـةً فقط، ولكنهـا إيقاعٌ وجـرسُ ألفاظ أيضًا، والشـعر في اسـتعانته بهذه الموسـيقى الكلامية إنما يستعين بأقوى الطرق الإيحائية؛ لأن الموسيقى طريق السموِّ بالأرواح، والتعبيرِ عما يعجز التعبيرُ عنه(٤).

وليس الوزن بالوعاء الذي يُسكب فيه ماء الشعر وكفى، بل هو عنصرٌ فاعلٌ من عناصر هذا الماء. والحقُّ أنه لا وعاء في الشـعر ولا ماء؛ لأن الشـعر بكل يُسْر هو هذه الكأس كما تراها مترعةً بمائها.

(١) أصول النقد الأدبي، للشايب ص٢٢٩.

(٢) العمدة، لابن رشيق ١/١٣٤.

(٣) نظرية البنائية في النقد الأدبي، للدكتور صلاح فضل ص٨١-٨٢ (دار الشروق، القاهرة، ط٢).

(٤) انظر: النقد الأدبي الحديث لغنيمي هلال ص٣٦٠، ويقول جون كوين: « الوزن... ليس عنصرًا مستقلًا عن القصيدة يضاف على محتواها من الخارج، لكنه جزءٌ لا ينفصل من سياق المعنى » انظر: بناء لغة الشعر ص٤٥ (ترجمة الدكتور أحمد درويش، مكتبة الزهراء، القاهرة).

ولو شـبَّهنا القصائد بالنَّبات، فإن الصور والموسيقى الأغصانُ، والعواطفَ الجذورُ، تدلُّك الأغصان على الجذور.

هـذا التواصل بين الموسيقى والعاطفة لا يُفضي بالضرورة إلى عَقدٍ بين وزن القصيدة وغرضها كما ذهب إليه بعض أهل الأدب(١).

وكان إمامُ هذا المذهب أرسطو يوم أن استحسن للملاحم اليونانيَّة الوزن البطوليَّ لا غير، فقال: « والتجربة تدلُّنا على أن الوزن البطوليَّ هو أنسب الأوزان للملاحم. ولو أن امرءًا استخدم في المحاكاة القصصية وزنًا آخر أو عِدَّة أوزان لبدت نافرةً؛ لأن الوزن البطوليَّ هو الأرزنُ والأوسع، ولهذا يتلاءم مع الكلمات الغريبات والمجازات كلَّ التلاؤم... أمَّا الوزن الإيامبيُّ [الهجائيُّ]، والوزنُ الرباعيُّ الجاري (التَّروكيُّ)؛ فمليئان بالحركة: فأحدهما أنسب للرقص، والآخر أنسب للفعل »(٢).

واحتذى حذوَ أرسطو قومٌ فاستحسنوا للمديح أوزانًا، وللهجاء أوزانًا، وللغزل أوزانًا، وللرثاء أوزانًا، وربما خلَّطوا بين أوزان كلٍّ(٣).

« والحقُّ أن القدماء من العرب لم يتَّخذوا لكل موضوع... وزنًا خاصًّا، أو بحرًا خاصًّا من بحور الشعر القديمة، فكانوا يمدحون ويُفاخرون ويتغزَّلون في كل بحور الشعر، وتكاد تتَّفق المعلَّقات في موضوعها، وقد نُظمت من الطويل والبسيط والخفيف والوافر والكامل. ومراثيهم في المفضَّليات جاءت من الكامل والطويل والبسيط والسريع والخفيف... »(٤).

ولماذا نبعد وهذه المراثي النبويَّة قد نُظم الصحيح منها من الكامل والخفيف والرمل والوافر والطويل والمتقارب والسريع والبسيط والرجز ومجزوء الخفيف.

---

(١) انظر مقدمة تعريب إلياذة هوميروس، لسليمان البستاني ص٧٧، ٩١ (المجلس الأعلى للثقافة عن طبعة دار الهلال ١٩٠٤م).

(٢) فن الشعر، لأرسطوطاليس ص٦٨ (ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣م).

(٣) انظر: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، لعبد الله الطيب ٩٣/١ (الكويت ط٣ ١٤٠٩/٣هـ).

(٤) النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال ص٤٤١-٤٤٢.

بيد أن المراثيَ النبويَّة خالفت ما كاد يكون شائعًا عند العرب من غلَبة النظم في بحورٍ من الشعر دون غيرها. ولنضرب «المفضَّليات» مثلاً على ذلك، فإن عدد أبياتها سبعةٌ وتسعون وستُّمئةٍ وألفا بيت (٢٦٩٧)، جاء الطويل أولاً بواحد وتسعين وثمانمئة بيت (٨٩١)، ثم الكامل بثلاثة وثلاثين وخمسمئة بيت (٥٣٣)، ثم الوافر بستة وسبعين وثلاثمئة (٣٧٦)، ثم البسيط باثنين وستين وثلاثمئة (٣٦٢)، ثم الرَّمل بواحد وعشرين ومئتي بيت (٢٢١)، ثم المتقارب بثلاثة وسبعين ومئة (١٧٣)، ثم الخفيف بخمسة وعشرين بيتًا...[1]

وقد صنع الدكتور إبراهيم أنيس إحصاءً كان نتاجه أن الطويل « قد نظم منه ما يقرب من ثلث الشعر العربي، وأنه الوزن الذي كان القدماء يؤثرونه على غيره، ويتَّخذونه ميزانًا لأشعارهم، ولا سيَّما في الأغراض الجِديَّة »[2].

ولنستبين مدى المخالفة يكفي أن نعلم أن الخفيف الذي حلَّ في «المفضليات» في المرتبة السابعة؛ جاء في المراثي أولاً بعشر مراثٍ سوى ثنتين زائفتين: واحدةٍ لصفيَّة وأخرى لأمّ أيمن. وكاد الطويل يغلبه على عادته لولا تلك القصائد الضعيفة التي نظمت عليه، فقد صحَّ مما نظم على الطويل ثماني مراثٍ، وضعُفت عليه ستُّ مراثٍ ضعفًا جازمًا: واحدة لعُمر بن الخطاب، وأخرى لصفيَّة، واثنتان لحسَّان، وأخريان لعليٍّ، هذا سوى مرثيَّتين لعاتكة لا تصحَّان لها، ولكن تردَّد القول في نسبتهما إلى صفيَّة.

ولو لم نسلك بالمراثي سبيل التوثيق لحكمنا للطويل بالغلبة وسارت الأمور على عاداتها.

ومثلُ ذلك في الكامل، فقد صحَّ مما نُظم عليه من المراثي ستٌّ، وضعُف عليه تسعٌ ضعفًا لا شبهة فيه: ثلاثٌ لفاطمة، واثنتان لحسَّان، وواحدة لكلٍّ من: أبي بكرٍ، وعُمر بن الخطاب، وعليٍّ، وكعب بن مالك.

وقد نُظمت المراثي على صور البحور تامَّةً إلا في مرثيَة ابن ذي أصبح التي هي من مجزوء

(١) انظر: الجملة في الشعر العربي، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ص٢٩ (مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/١٤١٠هـ).

(٢) موسيقى الشعر، للدكتور إبراهيم أنيس ص١٨٧ (دار الفكرة للطباعة والنشر، القاهرة).

الخفيف، وفي هذا علامةٌ على حرص الصحابة على تحميل الأوزان من الشعر أقصى ما تُطيق.

على أن البحور جميعًا قادرةٌ على احتواء تجربة الشاعر إذا أحسن التأتّي إليها. والأمر راجع في هذه المسألة لا إلى البحور نفسها، بل إلى قدرة الشاعر وتمكُّنه من القول، وراجعٌ إلى خفقات قلبه وتأجُّج عاطفته التي تملي عليه من الأوزان ما يكون صادقًا في التعبير عنها. وهذا الزِّبرقان قد نظم مرثيّته على السريع، ولم نشعر بخلل في القصيدة من قِبل الوزن، فكلُّ بحر « قالَبٌ عامٌّ يستطيع الشاعر أن يضفيَ عليه الصِّبغة التي يريد، بما يصف فيه من عبارات وكلمات ذات طابع خاص »(١).

ولعناية العرب بالبيت الأوّل من الشعر زادوا فيه صوتًا موسيقيًّا خاصًّا به هو التصريع، ولمّا كان في التصريع دِلالةٌ على قصْد تجويد الشعر لم يأبه الصحابة في جُلِّ المراثي له؛ للنازلة الشديدة التي نزلتْ بهم، فأتى قليلاً في مراثيهم.

ولعلَّ مجيء بعض المراثي ضمن الخُطبة يوم أن وقف الشعراء في أنديتهم ينعَون النبيَّ ﷺ، ويثبِّتون أقوامهم على الدّين؛ كان سببًا من أسباب إهمال التصريع(٢).

والذين صرَّعوا فهم إمّا شعراء من أهل صَنعة الشعر يخبرون مآتيَه ومخارجه، وهؤلاء كعمرو بن سالم، وعبد الله بن أُنيس، وكعب بن مالك، وأبي سفيان بن الحارث، وعمرو بن العاص، وصفيّة بنت عبد المطلب.

وإمّا تأخرت مراثيهم زمنًا عن وفاة الرّسول ﷺ فجاوزوا صدمة الموت الأولى إلى شيء من الهَدْأة والتروّي، وهذا تراه في بعض مراثي صفيَّة التي لا يُعقل أن تكون أنشدت مراثيَها كلَّها إثر وفاة النبيّ ﷺ، بل لعلَّ بعضها كان متأخرًا عن ذلك شيئًا ما، ولعله هذا الذي دخله التصريع.

---

(١) النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال ص٤٤٢.

(٢) ممّا أُنشد في مجال الخُطبة: مرثية مُرَّان، ومرثية عديّ بن حاتم، ومرثية عبد الله بن سلمة، ومرثية مسروق وغيرها.

ومن مطالع صفيَّة الموشَّاة بالتصريع قولُها:

أَعَيْنَيَّ جُـودَا بِدَمْـعٍ سَـجَمْ يُبَـادِرُ غَرْبًـا بِمَـا مُنْهَـدِمْ

وقافيتُه كما ترى مقيَّدةٌ. وقد تطلقها مع التصريع، وهو الأكثر، كقولها:

أَرِقْـتُ فَبِـتُّ لَيْـلِي كَالسَّـلِيبِ لِوَجْـدٍ فِي الجَوَانِـحِ ذِي دَبِيـبِ

وفي مثـل هذا العمل الموسـيقيّ موافقةٌ لعادة النياحة التي تركن إليها النسـاءُ الموتورات، حيث تتعلَّق الشاعرة من البيت بهذين الصوتين المُعادَيْن في منتهى شطريه، تشكو عندهما بثَّها، وتبثُّ فيهما أنينَها.

وما لم ترنِّمْه صفيَّةُ بالتصريع فهو إمَّا من قصيدة سقط رأسُها ظنًّا، وهو قولها:

قَـدْ كَانَ بَعْـدَكَ أَنْبَـاءٌ وَهَنْبَثَـةٌ لَوْ كُنْتَ شَـاهِدَهَا لَمْ تَكْثُرِ الخُطَبُ

وإمَّا من قصيدة شـاكل شـطرُها الأولُ شـطرَها الثانيَ في النَّغَم فـكان قريبًا من التصريع، وهو قولها:

أَلَا يَـا رَسُـولَ اللهِ كُنْـتَ رَجَاءَنَـا وَكُنْـتَ بِنَـا بَـرًّا وَلَـمْ تَـكُ جَافِيَـا

فإن الألف الأولى أدنت البيتَ من التصريع حين أوهمت بناءَ القصيدة على رويّ الألف لا على الياء المطْلَقة، فلمَّا قرأ القارئ البيت الثاني:

وَكَانَ بِنَـا بَـرًّا رَحِيمًـا نَبِيُّنَـا لِيَبْـكِ عَلَيْكَ اليَـومَ مَـنْ كَانَ بَاكِيَا

نَسِيَ ما كان من أمر إغفال التصريع في البيت الأول. وكلُّ ذلك دليلُ حرصٍ من الشاعرة على استلاب الأسماع منذ البيت الأول في مراثيها بهذه الأسجاع المردَّدةِ المُدرَّةِ للدموع.

وكان الصحابـة يصنعـون مثلَ ذلك في مطالعهم، فتراهم وهم يتْلُون الرويَّ من قصائدهم يتْلونه مطْلَقًا من غير تقييد إلا في بضع قصائد معدودات، كأنهم وهم يمدُّون بهذه الأحرف أصواتهم ينفِّسـون عن حُرقةٍ مكبوتةٍ يتحرَّجون من الإعـلانِ بها، ويتأثَّمون من الإفصاح

بالألفاظ عن معانيها.

ومتى استمع مستمعٌ إلى هذا المقطع من قصيدة عمرو بن سالم وقد بناه على رويّ العين - وفي صوت العين مرارةٌ -، ثم أتبعه بصوت مدٍّ طويل مفتوح أدعى إلى التأوُّه المسموع؛ متى استمع إلى هذا المقطع المتهدّج لم يصعبْ عليه تخيُّلُ عمرو بن سالم وهو يبكي فَرَقًا من فراق محمد ﷺ، وحسرةً على موته:

إِذَا ذَكَـرَتْ نَفْـسِي فِـرَاقَ مُحَمَّـدٍ　　تَهَيَّـجَ حُـزْنِي وَالفُـؤَادُ تَقَطَّعَـا
فَيَـا لَـكِ نَفْسًـا لاَ يَـزَالُ يَزِيدُهَـا　　عَلَى الدَّهْـرِ طُـولُ الدَّهْـرِ إِلاَّ تَصَدُّعَا
جَزَى مِنْكَ رَبُّ النَّاسِ أَفْضَلَ مَا جَزَى　　نَبِيًّـا أَتَانَـا ثُـمَّ وَلَّى مُـوَدِّعَا
فَـوَاللهِ لاَ أَنْسَـاكَ مَادُمْـتُ ذَاكِـرًا　　لِـشَيءٍ، وَمَـا قَلَّبْـتُ كَفًّـا وإِصْبُعَـا

وممّا هو طريفٌ وقوعُ حرف الغين رويًّا لإحدى المراثي، وهي مرثية يزيد بن ذي المشعار، وحرف الغين من أندر الحروف التي تُبنى عليها القصائد العربيّة(١)، وفي نظم الشاعر عليه جسارةٌ جعلت المستمع يصغي متوجّسًا خِيفةً أن يعثر الشاعر فيسقط في الاجتلاب، أو تخونَه جرأتُه فيغلبَه القصيدُ ويحجُزَه عن التمادي في إتمام القصيدة، ولكنَّ قدرة الشاعر على الشعر أسالت القصيدة له، فغدت بين يديه هيّنة منسابة، وكان الشاعر موفَّقًا وهو يتخيَّر لقافيته الألفاظَ القصيرة السهلة التي لا تتلكّأُ عليها الألسنة، بل تمرُّ عليها مرًّا سريعًا، فإذا بلغت في الغاية حرفَ الرويّ لم تُنكر غرابتَه لِمَا رأت من ليونة إخوته. وسبب سهولة هذه الألفاظ راجعٌ إلى كونها ثلاثيَّةً لا أكثر؛ وهي على الترتيب: « بَلَغْ، وَتَغْ، فَرَغْ، مَلَغْ، لَثَغْ، دَبَغْ، نَبَغْ، وَلَغْ، دَمَغْ، صِيَغْ، صِبَغْ ».

وللرويّ ميزةٌ أخرى امتازت بها المراثي النبويَّة، فقد كان حرف الدَّال أكبرَ حرفٍ دارت عليه المراثي من أجل اسم النبيّ « محمد » أو « أحمد »، إمَّا ليذكروه صراحةً، وذلك في مراثٍ

(١) انظر: موسيقى الشعر، لإبراهيم أنيس ص٢٤٤.

ستٍّ، كقول عبد الله بن مالك الأرحبيّ:

لَعَمْـرِي لَـئِنْ مَـاتَ النَّـبِيُّ مُحَمَّـدٌ لَمَـا مَاتَ يَـا ابْـنَ القَيْـلِ رَبُّ مُحَمَّدِ

وقولِ أبي الهيثم:

لَقَـدْ جُدِعَـتْ آذَانُنَـا وَأُنُوفُنَـا غَـدَاةَ فُجِعْنَـا بِالنَّـبِيِّ مُحَمَّـدِ

وقول قيسٍ يرتجز:

أَلاَ لِيَ الوَيْـلُ عَلَى مُحَمَّـدِ

وإمَّا لأن طيف الاسـم رفرف في جنبات أرواحهم، فأغراهم بهذه الدال من طرف خفيّ، وذلك في خمس مراثٍ أُخَر.

وفي مثل هذا يقول بعض النقاد: إن الشعر يلجأ إلى بعض الكلمات التي قد تكون داخل الجملـة فيبرزُها، ويلفت الانتبـاه إليها، وتصبح هذه الكلمات معالـم صوتيةً في القصيدة لا يمكن إغفالها عند محاولة التفسير(١).

وثَمَّةَ جَرْسٌ موسـيقيٌّ يمكن ترصُّدُه داخل بيت المراثي، كتكرُّر صوت السـين الهامس في بيتي حسَّان(٢):

أَمْـسَى نِسَـاؤُكَ عَطَّلْنَ البُيُـوتَ فَمَا يَضْرِبْـنَ فَـوْقَ قَفَـا سِـتْرٍ بِأَوْتَـادِ
مِثْلَ الرَّوَاهِبِ يَلْبَسْـنَ المُسُوحَ وَقَدْ أَيْقَـنَّ بِالبُـؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَـةِ البَادِي

تكرُّره تَكرُّرًا صَوَّرَ خشوعَ الشاعر ومسكنتَه التي شكا منها في أبيات المرثية، والسِّين على ما فيها من صفيرٍ ضعيفةٌ، وصفيرُها خافتٌ يريد ليجهرَ بالأنين ويرفعَ الصوتَ بالشكوى، ولكنه لا يلبث حتى ينقلبَ همسًا يبوح بالشكوى خيرًا مما يبوح بها الجهرُ في هذا الموطن.

(١) انظر: الجملة في الشعر العربي، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ص٤٥.

(٢) انظر: مراثي النبيّ ﷺ، للدكتور محمد أبو المجد ص١١١.

« إن الموسيقى الكاملة للشعر لا تصدر عن مجرَّد الصوت بقيمته الصوتية المجرَّدة، بل تنشأ عن براعة الشاعر المجيد في التوحيد بين خصائص اللفظ الصوتية، وبين ظلال معانيه ونبرات عاطفته »(١).

ومثلُ هذا الهمس تجدُه في شطر صفيَّة الثاني من قولها:

أَفَاطِمُ صَلَّى اللهُ رَبُّ مُحَمَّدٍ ... عَلَى جَدَثٍ أَمْسَى بِيَثْرِبَ ثَاوِيَا

فبعد ما ظننَّا جهارةً في أصواتها حين بدأت بصاد « صلَّى » مطمئنةً إلى مغفرة الله؛ لم تلبث حتى خَفَتَ صوتُها لَمَّا جاء ذكر الموت كأنها حنَّت على رسول الله ﷺ؛ فتتابعت الثاء والسين بين أصوات مدٍّ ضاعفت من إخبات البيت، وصوَّرت بوضوح عاطفةَ صفيَّة المشفقةَ الحزينة.

فالموسيقى تصويرٌ بالأنغام لا بالكلمات؛ عمَّا يُحسُّه الإنسان.

وخيرُ فعلةٍ للأصوات في الشعر أنها تترفَّع عن أداء المعنى وحده إلى أن تكون هي نفسُها جزءًا من المعنى؛ فأصوات المدِّ التي تكرَّرت في مرثيَة مُرَّان مثلاً نحوَ عشر مرَّاتٍ ومئة مرَّةٍ في سبعةَ عشر بيتًا؛ لم تكن أصواتًا في كلماتٍ فحسب، بل إنَّ القصيدة صارت بها كالنحيب المتواصل الذي تُحس فيه بدموع الشاعر، وتسمع تهدُّجَ صوته؛ أو صارت كاللحن الرَّخيم المستكين الذي ينكأُ الجرح ويستعيد الذكريات. لقد جعلت هذه الأصواتُ الممدودةُ الآسية القصيدةَ أقربَ إلى أن تكون جملاً موسيقيَّةً هادئةً منها إلى جملٍ لغويةٍ، أعني أنك تسمع أصواتَها أبلغَ مما تسمعُ معانيها.

وفي المراثي شيء من جناس، وفي الجناس نوع تكرار يُحدِث وقْعًا موسيقيًّا يَلفت الانتباهَ إلى الكلمات المجانسة دون غيرها من كلمات البيت، فقول حسَّان مجانسًا بين كلمتي « بَرّ » بفتح الموحَّدة، و« بِرّ » بكسرها جناسًا محرَّفًا(٢):

(١) الشعر الجاهلي، للدكتور محمد النويهي ١/٦٩.

(٢) وهو الذي اتفقت فيه الحروف واختلف الحركات (انظر: فن الجناس، لعلي الجندي ص٨٧، دار الفكر العربي ١٩٥٤م).

آلَيْتُ حِلْفَةَ بَرٍّ غَيرِ ذِي دَخَلٍ مِنِّي أَلِيَّةَ بِرٍّ غَيْرِ إِفْنَادِ

أراد بـه الشـاعرُ توكيـدَ أن البِرّ حقٌّ واجبٌ أوجـبَ شيءٍ للرسـول ﷺ، وأنبهنا إلى ذلك بالجنـاس؛ فقـد كان لقعقعة الباء ورنين الرَّاء من « بَرّ » الأولى، ثم تجاوبِ « بِرّ » الثانية معها بقعقعتهـا ورنـين رائها؛ كان لهما دَقَّةٌ كدقَّة التَّنبيه بالقـرْع، أحدثتها الأصواتُ المكرَّرةُ على وقْعٍ موسيقيٍّ واحد.

وكذلك قول مسروق مثنيًا على أبي بكر:

أيُّهَا القَائِمُ المُعَصِّبُ بِالأَمْـ ـرِ، لأَنْتَ المُصَدِّقُ الصِّدِّيقُ

جانس بين « المصدِّق » و« الصِّدِّيق » توكيدًا، وهو جناس اشتقاق فيه الإيحاء بالطاعة التامَّة. وكأني بهذا الجناس يوحي أن صفات الشاعر كلَّها تؤول إلى الصدق. ثم إن في تكرار هذه الأصوات المرتَّبة على جذر الكلمة الذي اشـتقت منه - سـوى تثبيت المعنى في النفس - نَسَقٌ موسيقيٌّ ليس يخفى.

ومنه قول صفيَّة:

فَإِمَّا تُمْسِ فِي جَدَثٍ مُقِيمًا فَقِدْمًا عِشْتَ ذا كَرَمٍ وطِيبِ
وَكُنْتَ مُوَفَّقًا فِي كُلِّ أَمْرٍ وَفِيمَا نَابَ مِنْ حَدَثِ الخُطُوبِ

جانست فيه بين كلمتي « جَدَثٍ » و« حَدَثٍ » ما يسمَّى بجناس التَّصحيف، وهو ما تماثَل ركنـاه خطًّا واختلفا لفظًا[١]، ومنهم مَنْ يسـميه جناس الخَطِّ لشـبهه بتحريف النُّسَّـاخ في صورة الكلمة، وخلْطِهم بين الحروف. ولعلَّ الشـاعرة لم يقصد عقلُها إليه، بل انساقت وراء عاطفتها، فكرَّرت بالأصوات والحركات ما تكرَّر في نفسها من الخواطر المشتبكة بين دلائل الكلمتين وما تسـتدعيهما من المعاني. وكانت صفيَّـةُ - رضي الله عنها - مهمومةً مع حزنها

(١) انظر: تحرير التحبير ص١٠٥.

على وفاة الرَّسـول ﷺ بما سيكون بعده من الخطوب، وإنَّ في حكايتها عن توفيق الرَّسول ﷺ في الماضي تعريضًا بما تخافه الشاعرةُ من يومها وغدِها.

و« أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقُّه بالحسن وأولاه؛ ما وقع من غير قصدٍ من المتكلم إلى اجتلابه »[1]. وما يعطي التجنيسَ فضيلةً « أمرٌ لم يتمَّ إلا بنُصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحدَه لما كان فيه إلا مستحسَـنٌ، ولما وجد فيه معيبٌ مسـتهجن. ولذلك ذُمَّ الاسـتكثارُ منه والولوعُ به »[2].

والصحابـة كانوا أبعد ما يكون عن هذا التكلُّف اللفظيّ؛ لموقفهم الشـديد، ولفطرتهم الشـعريَّةِ الصافية. على أن الجناس نفسَـه كان قليلاً في هذه المراثي، ولا غرابة في قِلّته لذلك العصر، فهو « أقلُّ الحُلَى ورودًا في القرآن الكريم »[3]، والقرآن إنما نزل بلغة هؤلاء.

وفي تَكـرار الألفـاظ عمومًا[4] إيقـاعٌ يدور على الانتظام والمعاودة، وفيه بيان اسـتيلاء الأصوات المكرَّرة وما تدلُّ عليه على مكانٍ أكبرَ من وجدان الشـاعر صرفه إلى التعبير عنها بتكرارها[5]؛ ليمثِّل شأنَها في بيته كما تمثَّلت هي في نفسِه أَثَرًا ومقدارا؛ فقول مسروق:

فَعَـلاَنِي بَعْـدَ الهُمُـومِ هُمُـومٌ وَبِقَلْـبِي بَعْـدَ الحَرِيـقِ حَرِيـقُ

صورةٌ ماثلةٌ لما يضطرم به قلب الشـاعر، إذ أوحى تكراره هاتين الكلمتين مع ما فيهما مـن حرفي المـدِّ الواو واليـاء؛ بتمكُّن الهموم مـن قلبه وتوسُّـعِها، وامتـدادِ الحريق بصدره وإضراره، أوحى بذلك مصحوبًا بأثر الشجن الموسيقيّ الناشئ من تتابع الأصوات والنَّبَرات.

---

(١) أسرار البلاغة ص١١.

(٢) أسرار البلاغة ص٨.

(٣) فن الجناس ص١٨.

(٤) انظر ما مرَّ من أمثلة التكرار في الحديث عن اللغة.

(٥) تقول نازك الملائكة: « فالتكرار يسلط الضوء على نقطةٍ حساسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا ذو دلالة نفسية قيمة » قضايا الشعر المعاصر ص٢٤٣ (مكتبة النهضة، القاهرة، ط٣/١٩٦٧م).

وهـذا النمـط من التكـرار يسـمّيه بعض البلاغيـين: المجـاورة، «وهي أن تـرِد لفظتان متماثلتان في البيت، تقع كلٌّ واحدة منهما بجنب الأخرى أو قريبًا منها، من غير أن تكون لَغْوًا لا يُحتاج إليه»(١).

ومن أنواع الإيقاع القائمة على التوازن الموسـيقيّ والتماثل الصوتيّ حسنُ التقسيم، وهو نوع محكومٌ بالسـجع، أو ما يطلق عليه القافيةُ الداخليّةُ(٢) في فواصل أجزاء البيت الواحد، كالبيت الثاني من قول العتكيّ:

إنْ يَسْـتَقِيمُوا كُنْـتَ أَوَّلَ رَاكِـبٍ ... أَوْ يَرْجِعُـوا فَلَـكَ الخِصَـالُ الأَرْبَـعُ:
حَـقُّ الأَمِـيرِ، وَذِمَّـةٌ يَمَنِيَّـةٌ ... وَمَهَابَـةٌ، وَإتَـاوَةٌ لا تُرْفَـعُ

فـفي الكلمـات الأربع الـتي توالت في قـوله: « وَذِمَّـةٌ، يَمَنِيَّةٌ، وَمَهَابَـةٌ، وَإِتَـاوَةٌ » توافقٌ في النهايـات بالتـاء المربوطة المختومة بالنـون العَروضية، وتوافُـقٌ في التفعيلة، فكلُّها على وزن (متفاعلن) إن ألحقنا بالكلمة الأولى حرف الراء من التي قبلها، وعلى ذلك فقد جعل الشاعر أربـع تفعيلات من سـتة الكامـل الذي عليه القصيـدة؛ جعل كلَّ تفعيلة كلمـة، فجمع بين الصـورة العروضيـة لبحر البيت والصـورةِ اللفظية لكلماته جمعًا حاذقًـا، غادر إيقاعًا صافيًا متسلسل الحركات والسكنات، وألفاظًا قويَّةً واضحة المعالم والمعاني.

ومن الموسيقى الداخليَّة في المراثي « الرَّصف، وفيه تتتابع مجموعة من الصفات أو الأخبار يغلب عليها السَّجعُ واتفاقُ الوزن الصرفيّ في نَسَق واحدٍ، دونما عطف بينها بأيّ من حروف العطف. وهي سـمة قديمة لازمت الشـعر منذ العصر الجاهلي، واستُغلَّت في صدر الإسلام اسـتغلالاً واسعًا بان من ورائه رغبةُ شـعراء تلك الفترة في إثراء الموسيقى الداخلية للشعر،

(١) كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكريّ، الحسن بن عبد الله ص٣٢٩ (تصحيح محمد أمين الخانجي، مكتبة صبيح، القاهرة).

(٢)انظر : موسيقي الشعر العربي : دراسة فنية وعروضية ، للدكتور حسني عبد الجليل يوسف ص ١٧١ (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ م)

ومنح الإيقاع نوعًا من السرعة والتدفُّق يتناسبان وطبيعة العصر. ومنه على سبيل التمثيل... قولُ صفيَّة:

فَاتِحٌ، خَاتِمٌ، رَحِيمٌ، رؤُوفٌ   صَادِقُ القِيلِ، طَيِّبُ الأَثْوَابِ
مُشْفِقٌ، نَاصِحٌ، شَفِيقٌ عَلَيْنَا   رَحْمَةٌ مِنَ إِلَهِنَا الوَهَّابِ »[1]

ومنها الإرصاد أو التسهيم، وهو « توقُّع القافية والنطق بها قبل الوصول إليها، بتمهيد الشاعر لها عن طريق الترادف أو التضاد، أو الجمع والإفراد ونحوها، وهو سمة خطابية تتفق وازدهار الخطابة... وإلقاءهم لبعض هذا الشعر... في المحافل »[2].

والوجه الموسيقيُّ في الإرصاد هو المساعدة على التغنّي بالشعر، فإذا أنشد سوادٌ كلمتي « الحق » و« الجهاد » الأُوليين من قوله:

إِنَّ النَّبِيَّ وَفَاتُهُ كَحَيَاتِهِ:   الحَقُّ حَقٌّ، وَالجِهَادُ جِهَادُ

وجد المستمع لسانَه يردّد كلمتي « حق » و« جهادٍ » الثانيتين قبل أن ينطق الشاعر بهما.

وإذا عَلِم المستمع من الشاعر الهمْداني في قوله:

فَعَلَانِي بَعْدَ الهُمُومِ هُمُومٌ   وَبِقَلْبِي بَعْدَ الحَرِيقِ حَرِيقُ

إذا عَلِم منه إتباعَ الهموم بالهموم؛ توقَّع منه إتباعَ الحريق بالحريق مثلَ ذلك.

وإذا استمع لأول بيت ذي الكَلاع:

قَالَ: قُولُوا، وَإِذَا مَا قُلْتُمُ   فَاعْمَلُوا، فَالدِّينُ قَوْلٌ وَعَمَلْ

توخَّى آخره، وردَّ عجُزَه على صدره؛ إذ القول في الإسلام قرينٌ للعمل.

(١) مراثي النبيّ ﷺ الدكتور محمد أبو المجد ص١٢٣.

(٢) المرجع السابق ص١٢٤.

فهـذا الوجه من الموسـيقى وَجْهٌ إنشـاديٌّ في أصله، مقصودٌ به هـوَى الجمهورِ المُصيخ إلى الشاعر. وكانت تلك الأيَّام التي تلت وفاة رسول الله ﷺ أيامَ حشْدٍ لألباب الناسِ وأفئدتهم.

ذلك، ومن أرقِّ ما وقَّعه الشعراء الصحابةُ من لحنٍ، وأشجاه؛ لحنٌ صغيرٌ لا تخطئُه أذن من يصغي إلى نشـيد المراثي، هو التدوير، فبه كسر الشاعرُ رتابة الوقفتين على رؤوس الشطرين، وشدَّ من أسر البيت المنقاد للنغم.

وقد كان في التدوير إيماءَةٌ موسـيقيَّةٌ رفيعةٌ في مرثية عبد الله بن سـلمة الهَمْدانيّ، حين ضاقت نفسـه بمهجته فكادت تلفظها، فضاق الشـطر عن أن يمسـك بالصَّدر الذي انفلت منه إلى العَجُز، فخرج البيت على هذه الصورة:

إنَّ فَقْـدَ النَّـبِيِّ صَرَّعَنَـا اليَـو ... مَ، فَدَتْـهُ الأَسْـمَاعُ وَالأَبْصَـارُ
وَفَدَتْـهُ النُّفُـوسُ لَيْـسَ مِـنَ المَـو ... تِ فِـرَارٌ، وَأَيْـنَ أَيْـنَ الفِـرَارُ

حتى إنَّ البيت الذي بعدهما:

مَـا أُصِيبَـتْ بِـهِ الغَـدَاةَ قُرَيْـشٌ ... لاَ، وَلاَ أُفْـرِدَتْ بِـهِ الأَنْصَـارُ

إنَّـه وإن اسـتقلَّ شـطراه عِيانًـا، فإنهمـا لم يسـتقلاَّ إنشـادًا؛ لأنَّ في كلمة « لا » في مسـتهَلّ الشـطر الثاني توكيدَ معنى النفي في الصَّدر، فكان من براعة الإنشـاد أن يوقَف عليها لا على « قريـش »؛ فـهي أوفق في نقل شـديد إنكار الشـاعر. إنَّ « حُسـن اختيار موضع السـكتة يسـاعد كثيرًا في نقل ما شـحنها به المبدعُ من أحَاسـيس »[١]؛ ذلك أن « موسـيقى الشعر لا تنفكُّ عن معناه »[٢].

ثم إنَّ الشاعر أظهر فَزَعَه من هذه الكلمة « مات النَّبِيُّ » فقال:

---

(١) البنية الإيقاعية في شعر شوقي، لمحمود عسران محمد إسماعيل ص٦٧ (رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ٢٠٠٥م).

(٢) النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي هلال ص٤٤١.

يَـا لَهَـا كِلْمَـةٌ يَضِيـقُ بِهَـا الحَلْـ ـقُ أَتَانَـا بِنَقْلِهَـا السُّـفَّارُ

فأوقفها في حَلْق البيت معرِّضًا بالغُصَّة التي خلَّفتها كلمة « مات النَّبِيُّ » في حلقه.

وتوكيـدًا لهـذه الطريقة من وضْـع ألفاظٍ بعينها في موضع السـكت من البيت تشـديدًا عليها، وحثًّا على التدبُّر فيها؛ وَضَعَ الشاعر لفظة « القلب » في قلب بيته التالي:

قِيلَ: مَـاتَ النَّـبِيُّ؛ فَانْصَـدَعَ القَلْـ ـبُ، وَشَـابَتْ مِـنْ هَوْلِهَا الأَشْـعَارُ

ومـا كان هـذا من الشـاعر خبطَ عشـواء، ولكنَّه يتَّخـذ من التدوير مـرآةً لما يجيش في صدره.

أما عمرو بن الفُحيل الزُّبيديُّ، فبعدما تمالك نفسه فاستهلَّ استهلالاً مصرَّعًا ذا شطرين:

أَسْـعِدِينِي بِدَمْعِـكِ الرَّقْـرَاقِ لِفِـرَاقِ النَّـبِيِّ يَـوْمَ الفِـرَاقِ

طغى حزنُه عليه، وأفرط في البَوح بما يفيض في وجدانه إفراطًا أسـاغه له التدوير الذي ألان البيت وسهَّله، وجعله رَحْبًا مغريًا بالإقدام والتمادي:

قُلْـتُ وَاللَّيْـلُ مُطْبِـقٌ بِعُـرَاهُ: إِنَّ حُـزْنِي عَلَى الرَّسـول لَبَـاقِي
لَيْتَـنِي مِـتُّ يَـوْمَ مَـاتَ وَلَـمْ أَلْـ ـقَ مِـنَ الـرُّزْءِ مَـا أَنَـا لاَقِ
كَانَ غَيْثًـا يَـجِيءُ لِلْبَـلَدِ المَحْـ ـلِ، وَشَمْسًـا تُـضِيءُ لِـلإِشْرَاقِ
وَدَلِيـلاً يَدْعُـو العِبَـادَ إِلَى اللَّـ ـهِ، وَبَحْـرًا يَصُـبُّ عَـذْبَ المَـذَاقِ
وَضِيَـاءَ البِـلاَدِ، وَالقَمَّـرَ الزَّا هِـرَ وَافَى تَمَامَـهُ لاِتِّسَـاقِ

وهذا ما نجده في أبيات عامر بن الطُّفيل الخاشعات:

بَكَـتِ الأَرْضُ وَالسَّـمَاءُ عَلَى النُّـو رِ الَّذِي كَانَ لِلْعِبَـادِ سِرَاجَـا
مَـنْ هُدِينَـا بِـهِ إِلَى سُبُلِ الحَـقْـ ـقِ وَكُنَّـا لاَ نَعْـرِفُ المِنْهَاجَـا
وَتَّـرَ الدَّهْـرُ قَوْسَـهُ فَـرَمَى القَلْـ ـبَ فَلَـمْ يُخْطِـهِ فَصِرْنَـا هَمَاجَـا

إن هذه الألفاظ التي جرفها التدوير لألفاظٌ تحُلُّ محلّ اللُّبّ من البيت، فـ« النُّور » كلمةٌ يدور عليها البيت الأول وهو الرَّسول ﷺ الذي بدّدت بعثته الظلمات، و« الحقُّ » كلمةٌ يدور عليها البيت الثاني وهو الدين الذي أمسك الناس أن يَضِلُّوا، و« القلب » كلمةٌ يدور عليها البيت الثالث، وهو إمَّا الرَّسول ﷺ، وقد مات، وإمَّا قلب الشاعر نفسه، وقلب المرء منبع حياته.

ومن المرصود أن هذه المراثيَ المدوَّرة، ومعها قصيدة مُرَّان وهي مدوَّرةٌ أيضًا، موقَّعةٌ كلها على البحر الخفيف، كأن الشعراء لمَّا وجدوا في الخفيف نوعَ قِصَرٍ احتالوا له حيلةَ التدوير هذه، فجعلوا البيت كأنه شطرٌ واحدٌ ليُفرغوا فيه زفراتهم وآلامهم.

وقد تنبَّه ابن رشيق إلى مثل ذلك، فقال: « أكثر ما يقع ذلك [أي التدوير] في عَروض الخفيف، وهو حيث وقع من الأعاريض دليلٌ على القوة، إلا أنه في غير الخفيف مستثقَلٌ عند المطبوعين، وقد يستخفُّونه في الأعاريض القصار... »[(١)].

تلك إذن ذائقةُ العرب في موسيقى الخفيف، وَرِثها عنهم شعراء المراثي، وورَّثوها.

وكان من ضيق الأبيات أن تسع زفرات النفوس شيءٌ عدُّوه في عيوب القافية هو التضمين، وهو « تعليق قافية البيت بصدر البيت الذي بعده »[(٢)]. وهو إن يكن عيبًا في الاصطلاح فليس بعيب في الفن، بل إنه شأنه شأن التدوير مزيَّةٌ تدل على فرْط العاطفة، وتؤدي إلى لُحمة القصيدة[(٣)].

ومن أمثلة التضمين قول يزيد بن ذي المشعار:

---

(١) العمدة ص١٧٧-١٧٨.

(٢) شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل للأستاذ محمود مصطفى، شرحه وضبطه نعيم زرزور ص١٨٨ (دار الكتب العلمية، بيروت).

(٣) انظر ما كتب جون كوين عن التضمين في: بناء لغة الشعر ص٨٠، وثناءَ المترجم الدكتور أحمد درويش على هذه الظاهرة في هوامش الصفحات ٨٠-٨٧.

أَلاَ كُلُّ أَمْـرٍ وَإِنْ جَلَّـتْ ... مُصِيبَتُـهُ بَالِغَـا مَـا بَلَـغْ؛
خَفِيـفٌ عَـلَيَّ لَمَّـا انْطَفَـتْ ... مَعَـاشِرُ كَانُـوا مِـنَ اهْـلِ الوَتَـغْ
لِهُلْـكِ النَّـبِيِّ، وَمَـا أَسْبَلَـتْ ... إِلَيْـهِ المَنِيَّـةُ حَـتَّى فَـرَغْ؛
مِـنَ امْـرِ الإِلَهِ إِلَى خَلْقِـهِ ... وَكَانَ إِذَا أَمَّ رَأْسًـا مَلَـغْ

فأربعة الأبيات هذه جملةٌ واحدةٌ في الحقيقة، لم يثن الشاعرَ عن إتمامها نظامُ البيت وأنه ينبـغي تمـامُ المعنى بتمامه عنـد العروضيين، وقد فعل لأنه لم يجد في البيت الواحد متَّسَـعًا يخفِّف فيه من لواعجه، فأكمل في البيت الذي يليه علَّه يظفر بهذه السَّـعة. وفي هذا ما فيه من تماسك الشعر واتصاله وتدفُّقه.

ومـن الذيـن ضمَّنوا أيضًا عـديُّ بن حاتـم، وابنُ النعمـان العتكيّ، وعبـدُ الله بن مالك الأرحبيّ، وعبد الله بن سلمة الهمدانيّ، وعبدُ الحارث بنُ أنس بن الديَّان.

وشبيهٌ بالتضمين في قوَّة العاطفة وغلبتها الإقواءُ، وهو تحريك الرويّ بحركةٍ مخالفةٍ للرويّ الذي قبله(١). وهو معدود في عيوب القافية أيضًا. وليس على إطلاقه؛ فإنَّ في الإقواء دلالةً ما، لأن صفيَّة إذا كانت روَّت مرثيَتها بالباء المضمومة في قولها:

قَـدْ كَانَ بَعْـدَكَ أَنْبَـاءٌ وَهَنْبَثَـةٌ ... لَوْ كُنْتَ شَـاهِدَهَا لَمْ تَكْثُرِ الخُطَبُ

ثم سهت لمَّا شغلها الألم والجهد عن التفكير في مدار القصيدة فكسرت الرويّ:

إِنَّـا فَقَدْنَـاكَ فَقْـدَ الأَرْضِ وَابِلَهَـا ... فاخْتَلْ لِقَوْمِكَ، فَاشْهَدْهُمْ وَلاَ تَغِبِ

ثم إنها استفاقت فرجعت إلى الضمِّ في بيتين:

قَـدْ كُنْتَ بَـدْرًا وَنُـورًا يُسْـتَضَاءُ بِهِ ... عَلَيْـكَ تَنْزِلُ مِنْ ذِي العِـزَّةِ الكُتُبُ
وَكَانَ جِبْرِيـلُ بِالآيَـاتِ يَحْضُرُنَـا ... فَغَـابَ عَنَّـا، وَكُلُّ الخَـيْرِ مُحْتَجِـبُ

(١) انظر: العيون الغابرة على خبايا الرامزة، للدماميني، بدر الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ص ٢٤٥ (تحقيق الحساني، حسن عبد الله، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢/ ١٤١٥ هـ

ولكنَّها غفلت أُخرى لمَّا عاودتها التَّوبة، نوبةُ التعب والألم، فكسرت الرويَّ كَرَّةً أُخرى وهي تقول:

فَقَـدْ رُزِئْـتُ أَبَـا سَـهْلاً خَلِيقَتُـهُ   مَحْـضَ الضَّرِيبَةِ وَالأَعْرَاقِ وَالنَّسَـبِ

إذا كانت فعلت ذلك، أليس في فعلها صورةٌ لما يجوس في جوانحها من اللهفة، وما يعتري قلبَها من مشقَّة الثُّكل ؟ أيُنكَرُ بعد ذلك إقواؤها، ويُحسَبُ منقصةً في حقِّها ؟

إن إقـواءً كإقـواء صفيَّة لَمِن عمل سـيطرة العاطفة وهيمنة الحزن، وهما - كالغشـاوة - جديران بإعشاء العقل عمَّا تقتضيه مقالد الشعر.

الخَاتِمةُ

أرادت هـذه الدراسـةُ توثيق المراثي النبويَّة في أشـعار الصحابة بجمعها، وتصحيح نسـبة أشعارها إلى أصحابها، ثم إظهار الخصائص الفنية للصحيح منها، فخرجت بنتائج تفصيليَّة مذكورةٍ في سياقاتها، ونتائج عامَّة يمكن تلخيصُها كما يلي:

في جمع الشعر: •

• بلغ عدد شعراء المراثي النبويَّة في الدراسات السابقة **ثمانيةً وعشرين شاعرًا**، زادت فيه هذه الدراسة اثني عشر شاعرًا ليصير مجموع الشعراء أربعين.

• بلغ مجموع الأبيات في الدراسـات السـابقة نحو **تسعمئة وأربعين بيتًا** ، فيها الصحيح وضعيف النسـبة، زادت عليه هذه الدراسـة بأكثر من مئتي بيتٍ جُلُّها من الصحيح، وذلك ما يرفع قيمتَها، وهذه الزوائد إمَّا مراثٍ جديدة وهي **سبع عشرة مرثيَةً**؛ وإمَّا أبياتٌ زائدة،

وهذا بيان كلٍّ :

أولاً: (المراثي الجديدة):

	صاحب المرثية	عدد أبياتها
١	لبيدة بن ربيعة	١٨
٢	مسروق بن ذي الحارث الهَمْداني	١٧
٣	عبد الحارث بن أسد بن الديَّان	١٤
٤	ابن ذي المشعار الهَمْداني	١١
٥	أبو الهيثم بن التَّيِّـهان	١١
٦	عديٌّ بن حاتم	١٠
٧	عمرو بن العاص « يا قُرُّ »	٨
٨	عمرو بن العاص « أتاني ورحلي »	٧
٩	علي بن أبي طالب	٧
١٠	ابن ذي الكلاع	٦
١١	قيس بن غُنيم المازنيّ	٥
١٢	ابن أبي عزَّة	٤
١٣	شدَّاد بن مالك بن ضَمْعَج	٣
١٤	فاطمة بنت النبيّ ﷺ « ما فاض دمعي »	٣
١٥	فاطمة بنت النبيّ ﷺ « أمسى بخدي »	٣
١٦	علي بن أبي طالب	٢
١٧	أم رَعلة	١

***

ثانيًا: (المراثي المزيدة):

	صاحب المرثية	الأبيات المزيدة
١	مُرّان بن عمير	١٥
٢	سالم الغطفانيّ	١١
٣	عبد الله بن سلمة الهمداني	٩
٤	عمرو بن العاص	٧
٥	عمرو بن سالم الخزاعيّ	٦
٦	سواد بن قارب	٥
٧	ابن النعمان العتكيّ	٥
٨	عبد الله بن مالك الأرحبيّ	٤
٩	امرؤ القيس بن عابس الكنديّ	٤
١٠	عمرو بن الفُحيل الزبيديّ	٤
١١	أبو سفيان بن الحارث	٣
١٢	حسّان بن ثابت « نبّ المساكين »	٢
١٣	أبو بكر الصدّيق « يا عين فابكي	١
١٤	ابن ذي أصبح	١
١٥	عامر بن الطُّفيل	١

* * *

في بابَي توثيق مراثي الصحابة:

• ضَعْفُ كلِّ المراثي النبويَّة المنسوبة لأبي بكر، وهي أربع مراثٍ.

• صِحَّة مرثيَةٍ واحدةٍ لحسَّان بن ثابت من جملة تسع مراثٍ تنسب إليه، وهي قوله: «آليت حلفة بَرٍّ غير ذي دخلٍ... »، دون بقيَّة مراثيه.

• صحَّة مرثيَتين لكعب بن مالك من ثلاث.

• ضَعْفُ كل ما نسب إلى عليٍّ، وهي أربع.

• صحَّة مرثيتين لعمرو بن العاص من ثلاث.

• ضَعْفُ المرثيتين المنسوبتين لعمر بن الخطَّاب.

• صحَّة كلِّ مراثي اليمنيين: عامر بن الطُّفيل، وسواد بن قارب، وابن ذي أصبح، وامرئ القيس بن عابس، وعبد الله بن مالك الأرحبيّ، وعبد الحارث بن أنس بن الدَّيَّان، وعبد الله بن سلمة الهَمْدانيّ، وابن ذي المشعار، ومسروق بن ذي الحارث الهَمْدانيّ، وعمرو بن الفُحيل الزبيدي، وذي الكَلاع، ومُرَّان بن عمير، وشدَّاد بن مالك بن ضَمْعَج.

• صحَّة مراثي: سالم الغطفانيّ، وأبي الهيثم مالك بن التيّهان، وقيس بن غُنيم المازنيّ، وعديّ بن حاتم الطائيّ، وعبد الله بن أُنيس، وعمرو بن سالم الخزاعيّ، وأبي سفيان بن الحارث، والزِبرقان بن بدر.

• ضَعْفُ مراثي: أبي ذؤيب الهُذَليّ، وابن أبي عزَّة، ولبيدِ بن ربيعة.

* * *

في باب توثيق مراثي الصحابيات:

• صحَّة عشرٍ من مراثي صفيَّة بنت عبد المطَّلب، وتضعيفُ واحدةٍ، وتردُّدَ القولُ في اثنتين.

• صحَّة مرثية عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل.

• ضَعْفُ مرثية أمّ أيمن.

• ضَعْفُ المراثي المنسوبة إلى فاطمة بنت النبيّ ﷺ، وهي خمسٌ.

• ضَعْفُ مرثيتين لعاتكة بنت عبد المطلب، وتردَّدَ القول في نسبة الثالثة إلى صفيَّة أختها.

• ترجيح نسبة مرثية أروى بنت عبد المطَّلب إلى صفيَّة أختِها.

• ترجيح نسبة مرثيتي هند بنت أُثاثة إلى صفيَّة بنت عبد المطَّلب.

• التوقُّف في نسبة مرثية أمّ رَعلة، ومرثية هند بنت الحارث بن عبد المطَّلب.

* * *

في باب الخصائص الفنية:

في البناء:

• ذهب الصحابة بمطالع مراثيهم مذاهب مختلفةً، لم يقعوا فيها فيما يعيبه النقاد في المطالع، بل ربما بلغ بعضُهم ما يُسمَّى ببراعة الاستهلال.

• كما ذهبوا بالمقاطع مذاهب متنوّعةً أيضًا، وكان أكثر ما يختمون به الدعاءَ للنبيّ ﷺ.

• أُقيمَ بناءُ المرثيَة النبويَّة على غرض واحدٍ هو رثاء النبيّ ﷺ، دون انحرافٍ إلى غيره من الأغراض، خلافًا لما قد يبدو أحيانًا من خروجٍ عليه.

• المراثي النبويَّة الصحيحة قصائدُ أكثر منها مقطَّعات، ومع ذلك فهي قصائد تميل إلى القِصر.

• لم يطوّل الصحابة مراثيَهم لأسبابٍ منها ما يتعلَّق بطبيعة الشعر العربيّ، ومنها ما يتعلَّق بسبب إنشاد بعض المراثي النبويَّة نفسها، ومنها ما يتعلَّق بالصحابة أنفسهم من حيث أن كثيرًا منهم لم يكونوا من الشعراء الذين يقصِّدون القصائد، ومنها ما يتعلَّق بضياع كثيرٍ من مصادر هذه المراثي، ومنها ما يتعلَّق بالرثاء نفسه ففيه قد تنحصر المعاني ولا تتشعَّب.

في اللغة:

• دارت في المراثي مجاميع من الألفاظ، أبرزها: ألفاظ الدموع والبكاء التي لاءمت موقف الفقد. وألفاظ نعوت النبيّ ﷺ التي جاءت على قسمين: نعوت دينيَّة متوقَّعة، ونعوت بشريَّة نعَتَه بها من بعُدَ عنه جدًّا فلم يمسسه من الدين ما مسَّ إخوانه، أو قرُبَ منه جدًّا فعرف من نعوته البشريَّة مثلما عرف من نعوته الدينيَّة. ومن هذه المجاميع أيضًا مجموعة ألفاظ أسماء الأعلام التي سيقت لإفادة معانٍ

متفرِّقـة.

• ألفاظ المراثي جزلةٌ واضحةٌ لا يكاد الغريب يوجد فيها.

• أمَّا الأساليب اللغوية والتراكيب، فكان أبرز الأنماط السائدة منها في المراثي النبويَّة: الشرط، والتَّكرار، والالتفات، والاعتراض، والتجريد، والقَسَم، والتعجُّب، والمطابقة، والحذف، وكان فيها أشياء من آثار النثر كانطلاق الأسلوب، والمحاورة. وقد جاء كلٌّ من ذلك مفيدًا ضروبًا مختلفةً من المعاني والدلالات.

في المعاني الإسلامية:

• اختلفت المراثي النبويَّة عن المراثي الجاهليَّة، فظهرت فيها آثارٌ واضحةٌ من ألفاظ القرآن ومعانيه وتراكيبه، ومن ألفاظ السُنَّة ومعانيها، وظهرت فيها مصطلحاتٌ مما أثمره الدين الإسلاميُّ الجديد.

• ولقد نفت المراثي النبويَّةُ عن نفسها - علاوةً على ذلك - عوائدَ الجاهليَّة ومذاهبَها الوثنيَّة، ثم أفاضت على أبياتها في العموم من روح الإسلام ومقاصده.

• وأثر الإسلام يبدو جليًّا في ثلاثٍ من الظواهر الشائعة في المراثي، وهي: عزاء الصحابة في وفاة النبي ﷺ بالله سبحانه وتعالى، وبيقاء دينه. وفداؤهم النبيَّ ﷺ بكل ما يملكون، وتشقيقُهم القول في ذلك. ثم دعاؤهم له ﷺ بالمغفرة والرحمة وأن يسكنه الله الجنة. ويمكن القول: إن الذين فتقوا الصلاة على النبيّ ﷺ في الشعر النبويّ، مدائحِه ومراثيه؛ هم الصحابة رضوان الله عليهم.

في الصورة:

• أكبر الصور التي نحتها الصحابة في المراثي ثلاث صور: صورة وقع المصيبة عليهم، وصورة موت الرَّسول ﷺ وكيف فاضت روحه الطاهرة إلى باريها، وصورة النبيّ محمد ﷺ

في الحياة.

* وقد استعملوا في إخراج صورهم وسائل التصوير البيانية: التشبيهَ بأنواعه، والاستعارةَ بنوعيها، وشيئًا من المجاز المرسل، والكنايةَ؛ واستعملوا من وسائله الأخرى الألفاظَ المُشِعَّة، والصورَ الحقيقية.

* كانت صور الصحابة في غالبها جزئيةً، قصيرةً، متوازيةً غيرَ معقَّدة ولا متشابكة.

* وكان الإنسان أكبرَ مصادر صورهم، تبعه في ذلك المصادر المعتادة الأخرى: الطبيعة، والحيوان، والأشياء المستعملة، وهي مصادر من بيئتهم. ونَدُر أن يخرجوا عن ذلك.

* وكان الأصل في صورهم أنها حسيَّةٌ، بصريَّةٌ غالبًا، وقد تجيء سمعيَّةً، وقلَّما أتت عقليَّةً، وفي بعض صوَرهم قصدٌ لإثارة التناقض بالتضادِّ والمقابلة.

في الموسيقى:

* لم تلتزم المراثي النبويَّةُ وزنًا بعينه، ولا أوزانًا بعينها؛ بل نُظمت في تسعةٍ من بحور الشعر.

* كان للخفيف الغلَبةُ في أشعار المراثي، خلافًا لما هو شائعٌ من غلبة الطويل على الشعر قبل ذلك.

* الأصل في بحور المراثي أنها أتت تامَّةً.

* الأصل في المراثي ترك التصريع بسببٍ من النازلة الشديدة التي ألمَّت بالصحابة، أو بسبب إنشادها في سياق الخطابة، أو بسبب تأخُّر زمن إنشائها.

* والأصل في رويّها الإطلاقُ لا التقييد.

* والغلبة في حروف رويّها لحرف الدال لأسباب نفسيَّة تعود إلى انتهاء اسم النبي محمدٍ ﷺ به.

* وقـد سُـمع في المـراثي النبويّة جرسٌ في داخـل الأبيات، كتكرار الأصـوات والكلمات، والجنـاس، والرصـف، والإرصاد. وقـد أحدث هذا الجرسُ توافقًا بـين الإيقاع والمعاني التي أراد الشاعر إرسالَها.

* وكان للتدوير عملٌ موسـيقيٌّ باهرٌ في المراثي النبويّة؛ إذ صارت الكلمة التي وقع التدويرُ فيها النواةَ التي يقوم البيتُ عليها.

* كمـا تمكّن الصحابة من اسـتغلال بعـضِ ما عُدَّ عيبًا عَروضيًّـا كالتضمين والإقواء؛ استغلالاً فنيًّا بليغًا شدَّ من لُحمة القصيدة، أو وَشَى بفَرْط العاطفة وتمكُّن الحزن.

****

وإن كان في آخر هذا الكتاب من وصايا واقتراحات فإني أجملها فيما يلي:

* توكيد ضرورة توثيق الشـعر العربيّ القديم ولا سـيَّما في عصر صدر الإسـلام، وإقامةِ دراسته على ذلك.

* المنهجُ الأسلم لدراسة أصول شعرنا القديم؛ هو منهج الاستقراء القائم على بذل المجهود في التتبُّع والسَّبْر والمقارنة.

* أصل الأحكام في أيّ فنّ راجعٌ إلى المختصّين في ذلك الفنّ، وإلى كتب ذلك الفنّ؛ فينبغي أنْ لا يُقتصر في تراجم الرجال على كلام المحدِّثين وأحكامهم إذا تعلّق الأمر برواية الأدب، بل يُنظر أيضًا في أقوال المؤرّخين والأدباء.

* نحـن في حاجـةٍ إلى تأليف منهجٍ يسـتقصي مقاييسَ العـرب وقواعدَهم في نقد أصول الشـعر؛ فيسـتخرجُها، ويصنّفُها، ويَنْظِمُها، ويوفّق بين المختلف منها، ثم يفيد من دراسات المحدَثين من المستشرقين، ويقارن بين منهجهم ومنهج العرب.

• يعتمد كثيرٌ من الباحثين في الأدب على مصادر بعينها لا تكاد تختلف، ويهملون كتبًا لها خطرُها في الدراسة الأدبيَّة، ككتب الأنساب التي لا يُستغنَى عنها في رواية الشعر وتصحيحه، وهي جديرةٌ أن يعتنى بها مثلما يُعتنى بكتب الأدب.

• أحيا البحث في المراثي النبويَّة ذكرَ شعراء مغمورين أو منسيّين، يمكن أن يكون ما وَرَدَ في كتابنا هذا بداية لجمع أشعارهم ودراستها. من هؤلاء الشعراء عمرو بن العاص، الذي لو جُمع شعره على ما ينبغي كان ديوانًا تامًّا. ومنهم شعراء لهم الأبيات المنثورة كأبي سفيان بن الحارث، وعمرو بن سالِم الخُزاعيّ، وسَميفع ذي الكَلاع، وعديّ بن حاتم الطائيّ، وابنِ النعمان العَتَكِيّ، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل.

• كثيرٌ من الأشعار والأخبار والعلم لم يرَ النور بعد، فهو لا يزال مخطوطًا في خزائن الكتب، وعلى الباحثين واجبُ إخراجه، والتنقيبُ عنه، والرجوعُ إليه. وإلاَّ يفعلوا تبقَ أعمالُهم منقوصةً قَلِقة.



المصادر والمراجع

أولاً: المصادر المخطوطة:

١.الاستدراك على أبي عُمر ابن عبد البر في كتابه «الاستيعاب»، للحافظ الطُّليطلي، إبراهيم بن يحي (محفوظة بدار الكتب المصرية: تيمورية ٨٩ تاريخ).

٢.إمتاع الأسماع فيما للرسول من الأبناء والأموال والحفَدَة والمتَاع، للمَقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المصريّ (دار الكتب المصرية: ٦٣ تاريخ، وهي من مصورات معهد المخطوطات العربية بالقاهرة).

٣.أنوار العقول من أشعار وصيّ الرّسول، المنسوب لعلي بن أبي طالب (مصوَّرة بمكتبة الإسكندرية عن المكتبة البريطانية **OR 6578 /2**).

٤.أنوار العقول من أشعار وصيّ الرّسول، المنسوب لعلي بن أبي طالب (ضمن مجموع المعراج الرازي، جامعة طهران، المكتبة المركزية ١٠٣٥، مصوَّرة بمكتبة الإسكندرية، ومعهد المخطوطات العربية برقم ٤١).

٥.السيرة النبويّة، للكازروني، ظهير الدين عليّ بن محمد بن محمد (معهد المخطوطات العربية ف ٥٩ كتاب ٣٥٨، مصوَّرة بمكتبة الإسكندرية ضمن مجموعة المعهد برقم ٢٣٢).

٦.قطعة من كتاب السيرة النبويَّة، لمحمد بن إسحاق بن يسار (مصوَّرة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٣٢٤ عن الأصل المحفوظ بخزانة جامعة القرويين بفاس برقم ٢٢٠/٨٠).

٧.كتاب الزّهرة في الأدب، للأصفهاني، محمد بن داود بن علي (مصوَّرة بمكتبة الإسكندرية من محفوظات: **Biblioteca Reale Torino Orientau 68**).

٨.كتاب سيرة النبيّ المصطفى وآثار من بعده من الخلفاء، للحافظ علاء الدين بن قِليط مُغُلْطاي (المكتبة الأزهرية: ج٩٣٢١، ع ٩٣٥٤٨ تاريخ).

٩.إيضاح المدارك في الإفصاح عن العواتك، للسيد محمد مرتضى الزَّبيدي (المكتبة الأزهرية: تاريخ ٦٤٠٥/٧٠٢٣١).

ثانيًا: المصادر المطبوعة[1]:

١.إتحاف السائل بما لفاطمة من المناقب، للمُنَاوِيّ، محمد عبد الرؤوف بن علي (تحقيق عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة).

٢.الإتقان في علوم القرآن، للسيوطيّ، جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م).

٣.أحكام القرآن، لابن العربيّ، أبي بكر محمد بن عبد الله (تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي).

٤.الأخبار الطوال، لأبي حنيفة الدينوري، أحمد بن داود ص ١٩٩ (تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ط١/١٩٦٠م)

٥.الأخبار الموفقيات، للزبير بن بكار (تحقيق الدكتور سامي مكي العاني، ط٢/١٤١٦ هـ).

٦.أساس البلاغة، للزمخشريّ، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣/١٩٨٥م).

٧.الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البرّ، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة).

٨.أُسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، عزّ الدين علي بن محمد الجزريّ (تحقيق علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت).

٩.أسرار البلاغة، للجُرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، القاهرة، ط١/١٤١٢ هـ).

١٠.أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، لمحمد بن حبيب (ضمن نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١/١٤١١هـ).

١١.الاشتقاق، لابن دُريد، أبي بكر محمد بن الحسن الأزديّ (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١/١٤١١هـ).

١٢.الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١/١٤١٢هـ).

---

(١) أهملت ذكر كلمة (دون تاريخ فيما لم يرو له تاريخ طباعة) .

١٣.الأصنام، لابن الكلبي، أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب (تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية ١٩٩٥م).

١٤.الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (دار الغصون، بيروت، ط٣/١٤٠٥هـ).

١٥.الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، علي بن الحسن بن محمد (دار الكتب المصرية ١٣٦٩هـ).

١٦.اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، لإدوارد فنديك (دار صادر، بيروت ١٨٩٦م)

١٧.الاكتفا بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، للكَلاعيّ، أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم (تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢٠هـ).

١٨.الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، للهَمْداني، الحسن بن أحمد (تحقيق محمد بن علي الأكوع، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ١٤٢٥هـ).

١٩.الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، للهَمْداني، الحسن بن أحمد (الجزء العاشر بتحقيق محب الدين الخطيب، الدار اليمنية، ط١/١٤٠٧هـ).

٢٠.الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، لابن ماكولا، علي ابن هبة الله بن علي (اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه عبد الرحمن بن يحيى المعلّمي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢/١٩٩٣م).

٢١.إكمال الإعلام بتثليث الكلام، لابن مالك، محمد بن عبد الله الطائيّ (تحقيق سعد بن حمدان الغامدي، منشورات جامعة أمّ القرى ١٤٠٤هـ).

٢٢.الإماء الشواعر، لأبي الفرج الأصفهاني، علي بن الحسن بن محمد (تحقيق الدكتور جليل العطية، دار النضال، ط١/١٤٠٤هـ).

٢٣.إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، للمقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (تحقيق وتعليق محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢٠هـ)، و(الجزء الأول فقط تحقيق محمود محمد شاكر، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤١م).

٢٤.الإملاء المختصر في شرح غريب السير، للخُشَني، أبي ذر مُصعب بن أبي بكر محمد بن مسعود (تحقيق ودراسة الدكتور عبد الكريم خليفة، دار البشير).

٢٥.الإنابة في معرفة المختلف فيهم من الصحابة، للحافظ علاء الدين بن قِليط مُغُلْطاي (اعتنى به قسم التحقيق بدار الحرمين: السيد عزت موسى وآخران، مكتبة الرشد، الرياض).

٢٦.أنساب الأشراف، للبَلاذُريّ، أحمد بن يحيى (تحقيق محمد حميد لله، دار المعارف ١٩٨٧م).

٢٧.إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، لإسماعيل بن محمد أمين البغداديّ (عُني بتصحيحه محمد شرف الدين بالتقايا ورفعت بيلكه الكليسي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣هـ).

٢٨.بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، لمحمد باقر المجلسي (مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٣/١٤٠٣هـ).

٢٩.البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشيّ، محمد بن بهادر بن عبد الله (حرره الدكتور عبد الستار أبو غدة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ط٢/١٤١٣هـ).

٣٠.البداية والنهاية، لابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (مكتبة المعارف، بيروت ط٢/١٤١١هـ).

٣١.البديع، لعبد الله بن المعتز (اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط٣/١٤٠٢هـ).

٣٢.البرهان في علوم القرآن، للزركشيّ، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركائه).

٣٣.البصائر النُّصيرية في علم المنطق، للسّاوي، زين الدين عمر بن سهلان (تقديم وضبط الدكتور رفيق العجم، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١/١٩٩٣م).

٣٤.البصائر والذخائر، للتوحيديّ، أبي حيّان علي بن محمد بن العباس (تحقيق الدكتورة وداد القاضي، دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ).

٣٥.بُغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، للضبّي، أحمد بن يحيى (دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧م).

٣٦.بلاغات النساء، لأحمد بن طيفور (صححه وشرحه أحمد الألفي، مطبعة والدة عباس الأول ١٣٢٦هـ).

٣٧.بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، لابن عبد البرّ، يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي (تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية).

٣٨.البيان والتبيين، للجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر (تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت).

٣٩.تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الزَّبيدي (مطبعة الحكومة بالكويت).

٤٠.تاريخ أبي زُرعة الدمشقي، عبد الرحمن بن عمرو (وضع حواشيه خليل منصور، بيروت، ط١/١٤١٧هـ).

٤١.تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبيّ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/١٤٢٤هـ).

٤٢.تاريخ الأمم والملوك، للطبري، أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٦).

٤٣.تاريخ خليفة بن خياط، لأبي عمر خليفة بن خياط الليثيّ العصفريّ (تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، دار القلم، دمشق، ط٢/١٣٩٧هـ).

٤٤.تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، للدِّيار بكريّ، حسين بن محمد بن الحسن (مؤسسة شعبان، بيروت).

٤٥.التاريخ الكبير، للبخاريّ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدِّكَن ١٣٦٠هـ).

٤٦.تاريخ المدينة المنورة = أخبار المدينة النبويَّة، لعمر بن شبّة النميري البصري (علَّق عليه وخرَّج أحاديثه علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٧هـ).

٤٧.تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قُطَّانها العلماء من غير أهلها ووارديها، للخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي (تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١/١٤٢٢هـ).

٤٨.تاريخ مدينة دمشق، وذكرُ فضلها، وتسمية مَنْ حلَّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها على ورديها وأهلها، لابن عساكر، عليّ بن الحسين بن هبة الله الشافعي (تحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت، ط١/١٤١٩هـ).

٤٩.تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الأصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المصري (تقديم وتحقيق الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي).

٥٠.تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، للخُزاعيّ، علي بن محمد بن سعود (تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢/١٤١٩هـ).

٥١.تذكرة الحفاظ، للذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (تصحيح عبد الرحمن بن يحيى

المعلمي، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت، عن طبعة الهند).

٥٢.تذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة، لسبط ابن الجوزي، يوسف بن فرغلي البغدادي (مكتبة نينوى الحديثة، طهران).

٥٣.التذكرة الفخرية، للإربلي، علي بن عيسى بن أبي الفتح (تحقيق الدكتور نوري حمودي القيس والدكتور حاتم الضامن، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٤هـ).

٥٤.التعازي والمراثي، للمبرّد، محمد بن يزيد (تحقيق إبراهيم الجمل، دار نهضة مصر).

٥٥.التلخيص في علوم البلاغة، للقزوينيّ، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب -بشرح البرقوقي- (دار الكتاب العربي، بيروت).

٥٦.تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، للطبريّ، أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد (تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة).

٥٧.تهذيب التهذيب، لابن حجر، أحمد بن علي العسقلانيّ (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة)

٥٨.تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمِزّيّ، جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف (تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/١٤١٣هـ).

٥٩.تهذيب اللغة، للأزهريّ، أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي (تحقيق عبد السلام محمد هارون وعبد الحليم النجار، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة).

٦٠.توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، لابن ناصر الدين محمد بن عبد الله الدمشقي (تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).

٦١.الثقات، لابن حبّان، محمد بن حبّان بن أحمد التميميّ (تحقيق السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، ط١/١٣٩٥هـ).

٦٢.جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبريّ، أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد (حُقق بإشراف الدكتور عبد الحميد مدكور، دار السلام، مصر، ط٢/١٤٢٨هـ).

٦٣.الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري (دار الغد، القاهرة، ط٢/١٤١٦هـ)

٦٤.جزء أحاديث الشعر، لعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (تحقيق إحسان عبد المنان الجبالي، المكتبة الإسلامية، عمّان، ط١/١٤١٠هـ).

٦٥.جزء من عاش مئةً وعشرين سنة من الصحابة، لأبي زكريا يحيى بن مَنْده (قدم له مشهور حسن سلمان، مؤسسة الريان، بيروت، ط١/١٤١٢هـ).

٦٦.جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، للقرشي أبي زيد محمد بن أبي الخطاب (تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة).

٦٧.جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد الحميد قطامش، دار الفكر، ط٢/١٩٨٨م).

٦٨.جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، علي بن سعيد الأندلسي (تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٥)، و(تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر ١٩٤٨م).

٦٩.جمهرة اللغة، لابن دُريد، أبي بكر محمد بن الحسن الأزديّ (طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط١/١٣٤٥هـ).

٧٠.جمهرة نسب قريش وأخبارها، للزبير بن بكّار (تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة ١٣٨١هـ).

٧١.الجواهر والدرر في ترجمة الحافظ ابن حجر، للسخاويّ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (حققه وعلق عليه حامد عبد المجيد وطه الزيني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٨٦م).

٧٢.حَـذْفٌ من نسب قريش، لأبي فَيد مؤرّج بن عمرو السدوسيّ (تحقيق صلاح الدين المنجد، دار العروبة، القاهرة ١٩٦٠م).

٧٣.الحماسة البصرية، للبصريّ، صدر الدين علي بن أبي الفرج (تحقيق وشرح ودراسة الدكتور عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/١٤٢٠هـ).

٧٤.الحماسة المغربية مختصر كتاب: صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، للجراويّ، أحمد بن عبد السلام التادليّ (تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/١٤١١هـ).

٧٥.الحور العين، لنشوان الحميريّ (تحقيق كمال مصطفى، مطبعة السعادة، محافظة مصر ١٩٤٨م).

٧٦.خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حِجَّة أبي بكر علي الحمويّ (شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١/١٩٨٧م).

٧٧.خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر بن عمر البغداديّ (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤/١٤١٨هـ).

٧٨.الدرة الثمينة، لمحب الدين النجار (تحقيق محمد زينهم عزب، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد).

٧٩.دلائـل الإعجـاز، للجرجانيّ، عبـد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (قـرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٤م).

٨٠.دلائـل النبـوة ومعرفة أحـوال صاحب الشريعة، للبيهقيّ، أحمد بن الحسـين (تخريـج الدكتور عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٠٥هـ).

٨١.دُمية القصر وعُصرة أهل العصر، للباخَرْزيّ، علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب (تحقيق ودراسة الدكتور محمد التونجي، دار الجيل، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).

٨٢.ديـوان إبراهيم بن العبـاس الصوليّ، صنعة ابن أخيه محمد بن يحـيى (تحقيـق عبد العزيز الميمني، ضمن الطرائف الأدبية، ط١/١٩٣٧هـ).

٨٣.ديوان أبي بكر الصدّيق (تحقيق راجي الأسمر، دار صادر، بيروت).

٨٤.ديوان أوس بن حُجْر (تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت ط٣/١٣٩٩هـ).

٨٥.ديـوان حسّـان بـن ثابت (تحقيـق الدكتور وليـد عرفـات، دار صـادر ١٩٧٤م، مصـوَّرة عن طبعة منشورات جب التذكارية ١٩٧١م)، و(تحقيق الدكتور سيّد حنفي حسنين، دار المعارف ١٩٧٤م).

٨٦.ديوان زهير بن أبي سـلمى - بشرح ثعلب - (دار الكتب المصرية ١٣٦٣هـ، مصوَّرة عن دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ١٤٢٣هـ).

٨٧.ديوان علي بن أبي طالب (مؤسسة الأعلمي ببيروت)، ونشرة الدكتور علي مهدي زيتون (دار الجيل، بـيروت، ط١/١٤١٦هـ)، ونـشرة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي (دار ابـن زيدون، بيروت)، ونشرة محمد عبد الرحمن عوض (دار الكتب العلمية بالقاهرة).

٨٨.ديوان الهُذليين (دار الكتب المصرية، ط٢/١٩٩٥م).

٨٩.الذخائـر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق، لأبي الحسـن سـلام بن عبد الله بن سـلام الباهلي الإشبيلي (المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٩٨هـ).

٩٠.ذمُّ الهـوى، لابـن الجوزيّ، عبد الرحمن بن علي بن محمد (صححه وضبطه أحمد عبد السـلام عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢/١٤١٣هـ).

٩١.الذيـل والتكملـة لكتـابي الموصـول والصلة، لمحمد بـن محمد بن عبـد الملك الأنصـاري (تحقيق الدكتورين محمد بن شريفة وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت).

٩٢.ربيع الأبرار وفصوص الأخبار، للزمخشريّ، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر (تحقيق عبد المجيد دياب، دار الكتب المصرية ١٤٢٩هـ).

٩٣.الرجال = رجال النجاشي، لأبي العباس أحمد بن علي النجاشيُّ (تحقيق محمد جواد النائيني، دار الأضواء، بيروت ١٤٠٨هـ).

٩٤.الرسالة، للإمام الشافعيّ، محمد بن إدريس المطَّلبيّ (تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت).

٩٥.الروض الأُنف، للسُهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله (تحقيق عبد الرحمن الوكيل، مكتبة ابن تيمية، القاهرة).

٩٦.زهر الآداب وثمر الألباب، للحُصري، إبراهيم بن علي القيرواني (تفصيل وضبط الدكتور زكي مبارك، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٤).

٩٧.الزَّهرة، للأصبهاني، أبي بكر محمد بن داود الظاهري (تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن ط٢/١٩٨٥م).

٩٨.سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، للصالحيّ، محمد بن يوسف بن علي الدمشقي (تحقيق الشيخين عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت)، و(تحقيق عبد المعز عبد الحميد الجزار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٤٢٧هـ).

٩٩.سلوة الكئيب بوفاة الحبيب، لابن ناصر الدين محمد بن عبد الله الدمشقي (تحقيق الدكتور صالح يوسف معتوق، دار البحوث والدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي).

١٠٠.السنن الكبرى، للبيهقي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي (مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن، ط١/١٣٤٤هـ).

١٠١.سير أعلام النبلاء، للذهبيّ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (حُقق بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١١/١٤١٧هـ).

١٠٢.السيرة النبويَّة، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحِميريّ (تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢/١٩٥٥م).

١٠٣.السيرة النبويَّة، لمحمد بن إسحاق بن يسار (تحقيق محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، تونس ١٣٩٦هـ).

١٠٤.شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (دار المسيرة، بيروت، ط٢/١٣٩٩هـ).

١٠٥.شرح التبصرة والتذكرة، للعراقيّ، زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين (حققه عبد

اللطيف الهميم وماهر ياسين الفحل، دار الكتب العلمية، بيروت ط/١٤٢٣هـ).

١٠٦.شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن (نشره أحمد أمين وعبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١/١٤١١هـ).

١٠٧.شرح علل الترمذي، لابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (حققه وكمّل فوائده نور الدين عتر، دار الملاح للطباعة والنشر، ط١/١٣٩٨هـ).

١٠٨.شرح كافية ابن الحاجب، لمحمد بن الحسن الإستراباذي المعروف بالرّضيّ (دراسة وتحقيق الدكتور يحيى بشير مصري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ط١/١٤١٧هـ).

١٠٩.شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، عزّ الدين عبد الحميد المدائنيّ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ط١/١٤٠٧هـ).

١١٠.شرح هاشميات الكُميت بن زيد الأسديّ، تفسير أبي رياش أحمد بن إبراهيم القيسي (تحقيق الدكتورين داود سلام ونوري حمّودي القيسي، عالم الكتب، بيروت، ط١/١٤٠٤هـ).

١١١.الشريعة، للآجُرّي، محمد بن الحسين (تحقيق محمد بن نبيه سيف النصر، مؤسسة قرطبة، ط١/١٤١٧هـ).

١١٢.الشعر والشعراء، لابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري (تحقيق محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢/١٤٠٧هـ)

١١٣.شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ، لابن، محمد بن عبد الله بن مالكالطائي (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار العروبة بالقاهرة).

١١٤.الصبح المنير في شعر أبي بصير ميمون بن قيس بن جندل الأعشى، والأعشَيْن الآخرين (مطبعة أدلف هلز هوش، بيانة ١٩٢٧م).

١١٥.صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، للبخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (جمعية المكنز الإسلامي ١٤١٢هـ).

١١٦.صحيح مسلم = الجامع الصحيح، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (دار الجيل، بيروت).

١١٧.الطبقات الكبير، لمحمد بن سعد بن منيع الزهري (تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/١٤٢١هـ).

١١٨.طبقات المفسرين، للأدنروي، أحمد بن محمد (تحقيق سليمان الجزي، مكتبة العلوم والحكم،

المدينة المنورة، ط١/١٩٩٧م).

١١٩.طبقات فحول الشعراء، للجمحيّ، محمد بن سلام (قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، النشرة الثانية التي ارتضاها المحقق، دار المدني، القاهرة).

١٢٠.طبقات فقهاء اليمن، لعليّ بن سمُرة الجعدي (تحقيق فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥٧م).

١٢١.العقد الفريد، لابن عبدِ ربّهِ، أحمد بن محمد الأندلسي (تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٣٧٢هـ).

١٢٢.العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق، أبي علي الحسن القيرواني (حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت).

١٢٣.العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبيّ ﷺ، لابن العربيّ المالكيّ، محمد بن عبد الله (دار الجيل، بيروت، ط٣/١٤١٤هـ).

١٢٤.عيار الشعر، لابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي (تحقيق وتعليق الدكتور محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، ط٣).

١٢٥.عيون الأخبار، لابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (دار الكتب المصرية ١٩٩٦م).

١٢٦.العيون الغامزة على خبايا الرامزة، للدمامينيّ، بدر الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (تحقيق الحسّاني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢/١٤١٥هـ).

١٢٧.غريب الحديث، لأبي عُبيد القاسم بن سلام (تحقيق عبد المعين خان، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١/١٣٩٦هـ).

١٢٨.غريب الحديث، للخطّابي، أبي سليمان حمد بن إبراهيم البُستيّ (تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوي، خرّج أحاديثه عبد القيوم عبد رب النبي، منشورات جامعة أمّ القرى ١٤٠٢هـ).

١٢٩.الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشريّ، محمد بن عمر (تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط٢).

١٣٠.الفاضل، للمبرّد، محمد بن يزيد (تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، ط٢/١٩٩٥م).

١٣١.فتح الباري شرح صحيح البخاريّ، لابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (رقّمه محمد فؤاد عبد الباقي، قرأ أصله تحقيقًا وتصحيحًا عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر).

١٣٢.فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، ألفه السخاويّ، محمد بن عبد الرحمن (تحقيق الشيخ علي حسين علي، مكتبة السنة، القاهرة، ط١/١٤١٥هـ).

١٣٣.فتوح الشام، للواقدي، محمد بن عمر بن واقد (دار الكتب العلمية، ط١/١٤١٧هـ).

١٣٤.فحولة الشعراء، للأصمعي عبد الملك بن قُريب (شرح وتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، وطه محمد الزيني، المطبعة المنيرية بالأزهر).

١٣٥.فن الشعر، لأرسطوطاليس (ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣م).

١٣٦.الفهرست، لأبي الفرج محمد بن إسحاق النديم (تحقيق رضا تجدد بن علي بن زين العابدين الحائري المازندراني، طهران ١٣٩١هـ).

١٣٧.فهرسة ابن خير الإشبيلي، أبي بكر محمد بن خير بن عمر الأموي (تحقيق محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ).

١٣٨.القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (رتَّبه ووثَّقه خليل مأمون الشيخ، دار المعرفة، بيروت، ط٣/١٤٢٩هـ).

١٣٩.الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عَديّ، أحمد بن عبد الله (تحقيق عادل عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، ط١/١٤١٨هـ).

١٤٠.الكامل في اللغة والأدب، للمبرّد، محمد بن يزيد (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣/١٤١٧هـ).

١٤١.كتاب الأزمنة والأمكنة، للمرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن (ضبطه وخرج آياته خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٧هـ).

١٤٢.كتاب الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة، للخطيب البغداديّ، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت (أخرجه الدكتور عز الدين علي السيد، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢/١٤١٣هـ).

١٤٣.كتاب التنبيه على حدوث التصحيف، لحمزة بن الحسن الأصفهانيّ (تحقيق محمد أسعد طلس، دار صادر، بيروت، ط٢/١٤١٢هـ).

١٤٤.كتاب الردَّة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنَّى بن حارثة الشيبانيّ، المنسوب للواقديّ، محمد بن عمر بن واقد (تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، دار الغرب، بيروت ١٤١٠هـ).

١٤٥.كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، لأبي حاتم الرازيّ، أحمد بن حمدان (عارضه بأصوله وعلق عليه حسين بن فيض الله الهَمْداني اليعبري الحرازي، مركز الدراسات والبحوث اليمني،

ط١/١٤١٥هـ).

١٤٦.كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، الحسن بن عبد الله (تصحيح محمد أمين الخانجي، مكتبة صبيح، القاهرة).

١٤٧.كتاب الطبقات الكبير، لمحمد بن سعد بن منيع الزُّهريّ (تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط/١٤٢١هـ).

١٤٨.كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني، لابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوريّ (مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدِّكَّن، الهند، ط١/١٣٦٨هـ).

١٤٩.كتاب المغازي، للواقديّ، محمد بن عمر بن واقد (تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط٣/١٤٠٤هـ).

١٥٠.كتاب ذيل الأمالي والنوادر، لأبي علي القالي، إسماعيل بن القاسم (دار الكتب المصرية، ط٣/٢٠٠٠م).

١٥١.كتاب شرح أشعار الهذليين، صنعة السُّكريّ، أبي سعيد الحسن بن الحسين (حققه عبد الستار أحمد فراج، وراجعه محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة).

١٥٢.كتاب وقعة صِفِّين، لنصر بن مزاحم المِنْقريّ (تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط٣/١٤٠١هـ).

١٥٣.الكشاف عن حقائق التنزيل، للزركشيّ، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت).

١٥٤.كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة (دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣هـ).

١٥٥.الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (تحقيق أبي عبد الله السورقي وإبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية، المدينة المنورة).

١٥٦.لسان العرب، لابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرّم بن علي (تحقيق عبد الله الكبير ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف).

١٥٧.لسان الميزان، لابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٤٠٦هـ، تحقيق دائرة المعارف النظامية بالهند).

١٥٨.المؤتلف والمختلف، للآمدي، أبي القاسم الحسن بن بشر (تحقيق عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي)، القاهرة ١٣٨١هـ).

١٥٩.المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، أبي الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٩٥م).

١٦٠.مجاز القرآن، صنعة أبي عبيدة معمر بن ا لمثنى (عارضه بأصوله وعلق عليه الدكتور محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بالقاهرة).

١٦١.مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثميّ، نور الدين علي بن أبي بكر (تحرير الحافظين العراقيّ وابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ).

١٦٢.مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، لمحمد طاهر الصدّيقي الكجراتي (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢/١٤١٣هـ).

١٦٣.المحبَّر، لأبي جعفر محمد بن حبيب البغداديّ (تحقيق الدكتورة إيلزه ليختن شتيتر، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكّن ١٣٦١هـ).

١٦٤.المحمَّدون من الشعراء، للقِفْطي، علي بن يوسف (اعتنى بتصحيحه محمد عبد الستار خان إيم، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند ١٣٨٥هـ).

١٦٥.المحيط في اللغة، للصاحب إسماعيل بن عبَّاد (تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار عالم الكتب، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).

١٦٦.مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تصنيف ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرَّم بن علي (دار الفكر، دمشق، ط١/١٤١٧هـ).

١٦٧.المذكر والمؤنث، لأبي بكر محمد ابن الأنباريّ (تحقيق الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ١٤١٩هـ).

١٦٨.مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعوديّ، علي بن الحسين (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط٥/١٣٩٣هـ).

١٦٩.مسائل الانتقاد، للقيروانيّ، محمد بن شرف (دراسة وشرح وتحقيق الدكتور النبوي شعلان، مطبعة المدني، القاهرة).

١٧٠.المستدرك على الصحيحين في الحديث، للحاكم، أبي عبد الله محمد النيسابوريّ (مكتبة النصر الحديثة، الرياض).

١٧١.المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهيّ، شهاب الدين بن أحمد (شرحه ووضع حواشيه إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة).

١٧٢.المسند، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني (تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢/١٤٢٠هـ).

١٧٣.المصباح المضيّ في كتاب النّبيّ الأميّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجميّ، لمحمد بن علي بن حديدة الأنصاريّ (تحقيق محمد عظيم الدين، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٥هـ).

١٧٤.المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تصنيف أحمد بن محمد بن علي الفيوميّ (المكتبة العلمية، بيروت).

١٧٥.معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لياقوت بن عبد الله الحمويّ الروميّ (تحقيق مرجليوث، دار المأمون)، و(تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/١٩٩٣م).

١٧٦.معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحمويّ الروميّ (دار الفكر، بيروت).

١٧٧.معجم الشعراء، للمَرزُباني، محمد بن عمران بن موسى (تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الذخائر ٩٣).

١٧٨.معجم الصحابة، للبغوي، عبد الله بن محمد بن عبد العزيز (تحقيق محمد الأمين بن محمد محمود أحمد الجكني، دار البيان، الكويت).

١٧٩.المعجم الكبير، للطبرانيّ، سليمان بن أحمد (تحقيق حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة).

١٨٠.معرفة الصحابة، لأبي نُعيم الأصبهانيّ، أحمد بن عبد الله بن إسحاق (تحقيق عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط١/١٤١٩هـ).

١٨١.المغازي النبويّة، للزُّهريّ، محمد بن مسلم بن عبيد الله (مستخرج حققه الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، دمشق ١٤٠١هـ).

١٨٢.المُغرِب في حُلَى المَغرِب، لابن سعيد المغربي (تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، ط٤).

١٨٣.المفضَّليات، للمفضَّل بن محمد بن يعلى الضبّي (تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٦).

١٨٤.مقدمة ابن الصلاح، عثمان بن الصلاح الشافعيّ (تحقيق الدكتورة بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة).

١٨٥.مَن اسمه عمرو من الشعراء، لمحمد بن داود الجرَّاح (تحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٧م).

١٨٦.مناقب آل أبي طالب، لابن شهراشوب، محمد بن علي المازندراني (نشرة الراشد بن علي المحلاتي الحائري، طهران ١٣١٣هـ).

١٨٧.منال الطالب في شرح طوال الغرائب، لابن الأثير، المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجزري (تحقيق الدكتور محمود الطناحي، القاهرة، ط٢/١٤١٧هـ).

١٨٨.مِنَح المِدَح، أو شعراء الصحابة ممن مدح الرَّسول ﷺ أو رثاه، لابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله (تحقيق عفت وصال حمزة، دار الفكر، دمشق، ط١/١٤٠٧هـ).

١٨٩.المُنَمَّق في أخبار قريش، لمحمد بن حبيب البغداديّ (صححه وعلق عليه خورشيد أحمد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط١/١٣١٤هـ).

١٩٠.الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتريّ، للآمديّ، أبي القاسم الحسن بن بشر (تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف ١٩٦٥م).

١٩١.المواهب اللدنية بالمنح المحمدية - بشرح الزرقانيّ -، للقسطلاّنيّ، أحمد بن محمد بن أبي بكر (تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت).

١٩٢.الموشَّح: مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، للمَرْزُبانيّ، محمد بن عمران بن موسى (تحقيق علي البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة).

١٩٣.ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبيّ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (تحقيق علي البجاوي، وفتحية علي البجاوي، دار الفكر العربي).

١٩٤.نزهة الألِبّاء في طبقات الأدباء، لابن الأنباريّ، عبد الرحمن بن محمد (تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي. مكتبة المنار، الأردن، الزرقا، ط٣/١٤٠٥هـ).

١٩٥.نسب قريش، لمصعب بن عبد الله الزبيريّ (تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ط٣/١٩٨٢م).

١٩٦.نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، للمَقَّريّ، أحمد بن محمد التلمساني (تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ).

١٩٧.النكت على مقدمة ابن الصلاح، للزركشيّ، محمد بن عبد الله بن بهادر (تحقيق الدكتور زين العابدين بلا فريح، دار أضواء السلف).

١٩٨.نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويريّ، أحمد بن عبد الوهاب (مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والإرشاد، المؤسسة المصرية العامة).

١٩٩.النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجزري (تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت).

٢٠٠.الوافي بالوفيات، للصفديّ، صلاح الدين خليل بن أيبك (اعتناء س ديدرينغ، دار النشر فرانز شتاير، شتوتغارت ١٤١١هـ).

٢٠١.الوافي بمعرفة القوافي، للعنابيّ، أبي العباس أحمد بن علي الأصبحيّ الأندلسيّ (تحقيق الدكتورة نجاة بنت حسن نولي، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤١٨هـ).

٢٠٢.الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي عبد العزيز الجرجاني (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا).

٢٠٣.الوفا بأحوال المصطفى، لابن الجوزيّ، عبد الرحمن بن علي (تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت).

٢٠٤.وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خَلِّكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر (تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت).

ثالثًا: المراجع:

١.الأدب في عصر النبوة والراشدين، للدكتور صلاح الدين الهادي (مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣/١٤٠٧هـ).

٢.الأدب وفنونه، للدكتور محمد مندور (مطبوعات معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٦١م).

٣.الإسلام والشعر، للدكتور سامي مكي العاني (سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ١٩٩٦م).

٤.أصول النقد الأدبي، لأحمد الشايب (مكتبة النهضة المصرية، ط١٠/١٩٩٤م).

٥.الأعلام، لخير الدين الزركلي (دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥/٢٠٠٢م).

٦.أعيان الشيعة، لمحسن الأمين (حققه وأخرجه حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٤٠٣هـ).

٧.أفق الخطاب النقدي: دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، للدكتور صبري حافظ (دار شرقيَّات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١/١٩٩٦م).

٨.إقليد الخزانة أو فهرس عناوين الكتب التي رجع إليها أو أخذ عنها عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب، لعبد العزيز الميمني (جامعة البنجاب، لاهور ١٩٢٧م).

٩.الإليـاذة، لهومـيروس (تعريـب سـليمان البسـتاني، المجلـس الأعلى للثقافة عن طبعـة دار الهلال ١٩٠٤م).

١٠.امرؤ القيس بن عابس الكنديُّ وما تبقى من شعره، للدكتور محمد أبو المجد علي (مستلَّة من مجلة كلية دار العلوم، العدد الحادي عشر، يونيو ٢٠٠٤م).

١١.البحث الأدبي، للدكتور شوقي ضيف (دار المعارف، ط٩).

١٢.البلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنونها، لعبد الرحمن حسن حبنَّكة الميداني (دار القلم، دمشق، ط١/١٤١٦هـ).

١٣.البلاغـة فنونهـا وأفنانهـا، للدكتـور فضل حسـن عبـاس (دار الفرقان للنـشر والتوزيـع، عَمَّان، ط٧/١٤١٢هـ).

١٤.بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، للدكتور يوسـف حسـين بكّار (دار الأندلس، بيروت، ط٢/١٩٨٢م).

١٥.بناء لغة الشعر، لجون كوين (ترجمة الدكتور أحمد درويش، مكتبة الزهراء، القاهرة).

١٦.بيت الأحزان في ذكر أحوال سيرة نساء العالمين فاطمة الزهراء، لعباس القمّي (دار التعارف، بيروت ١٤١٩هـ).

١٧.تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، للدكتور شوقي ضيف (دار المعارف بمصر، ط٧).

١٨.تاريـخ الأدب العـربي (في العصر الإسـلامي)، للسـباعي السـباعي بيومي (مكتبة الأنجلـو، القاهرة ١٩٥٢م).

١٩.تاريخ الأدب العربي، لبلاشير (ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق ١٤١٩هـ).

٢٠.تاريـخ الأدب العـربي، لـكارل بروكلمان (أشرف على الترجمـة الدكتور محمود فهـمي حجازي، الهيئة المصريـة العامـة للكتـاب ١٩٩٣م)، وأيضًا الجـزء الأول (تحقيـق الدكتور عبد الحليـم النجار، دار المعارف، ط٥).

٢١.تاريخ التراث العربي، للدكتور فؤاد سزكين (ترجمة الدكتور محمد فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض ١٤١١هـ).

٢٢.التاريخ العربي والمؤرخون: دارسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، لشاكر مصطفى (دار العلم للملايين، بيروت، ط٣/١٩٨٧م).

٢٣.تراسل الحواس في الشعر العربي القديم، للدكتور عبد الرحمن محمد الوصيفي، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠٠٨م).

٢٤.تشريح النص، للدكتور عبد الله الغذّامي (دار الطليعة، بيروت، ط١/١٩٧٨م).

٢٥.تفسير الأحلام، لسيجموند فرويد (ترجمة الدكتور مصطفى زيور، دار المعارف).

٢٦.الجملة في الشعر العربي، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف (مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/١٤١٠هـ).

٢٧.حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام، لأستاذنا الدكتور سعيد حسين منصور (دار القلم، الكويت، ط١/١٩٨١م).

٢٨.حسَّان بن ثابت: حياته وشعره، للدكتور إحسان النَّصّ (دار الفكر، دمشق، ط٣/١٤٠٥هـ).

٢٩.حُسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة، لعلي فهمي الموستاري (دار سعادت، إسطنبول ١٣٢٤هـ).

٣٠.دراسات في الشعر الجاهلي، للدكتور فوزي محمد أمين (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٢م).

٣١.دراسات في الشعر والمسرح، للدكتور مصطفى بدوي (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢/١٩٧٩م).

٣٢.دراسة في مصادر الأدب، للدكتور الطاهر أحمد مكي (دار الفكر العربي، القاهرة، ط٨/١٩٤٨م).

٣٣.دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي (دار العلم للملايين، بيروت ط١/١٩٧٩م).

٣٤.دلالات التراكيب: دراسة بلاغيَّة، للدكتور محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، القاهرة، ط/١٤٢٩هـ).

٣٥.ديوان كعب بن مالك الأنصاري (دراسة وتحقيق سامي مكي العاني، منشورات مكتبة النهضة، بغداد ط١/١٣٨٦هـ).

٣٦.الذريعة إلى تصانيف الشيعة، لأقا بزرك الطهراني (دار الأضواء، بيروت).

٣٧.رؤية جديدة في دراسة الأدب العربي في عصر صدر الإسلام، لأستاذنا الدكتور سعيد حسين منصور (الدوحة ١٩٨١م).

٣٨.الرثاء، للدكتور شوقي ضيف (دار المعارف، ط٤).

٣٩.رواة محمد بن إسحاق بن يسار في المغازي والسير وسائر المرويات، لمطاع الطرابيشي، ص٣٩ (دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).

٤٠.شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل للأستاذ محمود مصطفى، شرحه وضبطه نعيم زرزور

(دار الكتب العلمية، بيروت).
٤١.شعر الرثاء في العصر الجاهلي: دراسة فنية، للدكتور مصطفى عبد الشافي الشوري (الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٣م).
٤٢.شعر الرثاء والصراع السياسي والمذهبي في صدر الإسلام، للدكتور محمد أبو المجد علي (دار الدعوة، الإسكندرية، ط١/١٩٩٤م).
٤٣.الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه، للدكتور محمد النويهي (الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة).
٤٤.شعر الكميت بن زيد الأسدي، جمع وتقديم الدكتور داود سلوم (عالم الكتب، بيروت، ط٢/١٤١٧هـ).
٤٥.شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، للدكتور يحيى الجبوري (منشورات مكتبة النهضة ببغداد، ط١/١٩٦٤م).
٤٦.شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، للدكتور أحمد كمال زكي (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٩هـ).
٤٧.شعر صفيَّة بنت عبد المطلب: جمعٌ وتحقيقٌ ودراسة، للدكتور محمد أبو المجد علي البسيوني (مكتبة الآداب، القاهرة، ط١/١٤٢٣هـ).
٤٨.شعراء همدان في الجاهلية والإسلام، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور حسن عيسى أبو ياسين (دار العلوم، الرياض، ط١/١٤٠٣هـ).
٤٩.الصوتيات العربية، للدكتور منصور بن محمد الغامدي (مكتبة التوبة، الرياض، ط١/١٤٢١هـ).
٥٠.الصورة الأدبية في القرآن الكريم، للدكتور صلاح الدين عبد التواب (الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط١/١٩٩٥م).
٥١.الصورة الفنية عند النابغة الذبياني، لخالد محمد الزواوي (الشركة المصرية العالمية للنشر -لونجمان، ط١/١٩٩٢م).
٥٢.الصورة الفنية معيارًا نقديًّا، للدكتور عبد الإله الصائغ (دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١/١٩٨٧م).
٥٣.الصورة والبناء الشعري، للدكتور محمد حسن عبد الله (دار المعارف ١٩٨١م).
٥٤.ضبط النص والتعليق عليه، للدكتور بشار عواد معروف (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٠هـ).

٥٥.ظلامات فاطمة الزهراء في السنة والآراء، لعبد الكريم العقيلي (دون مكان نشر!، ط١/١٩٩٦م).

٥٦.عبقرية الإمام (ضمن مجموع: إسلاميات) لعباس محمود العقاد (دار المعارف، ط٢/١٩٨٥م).

٥٧.عمرو بن العاص، لعباس محمود العقاد (نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع).

٥٨.فاطمة الزهراء والفاطميون، ضمن مجموع «إسلاميات»، لعباس محمود العقاد (دار المعارف، ط٢/١٩٨٥م).

٥٩.فن الجناس، لعلي الجندي (دار الفكر العربي ١٩٥٤م).

٦٠.في الأدب الجاهلي، للدكتور طه حسين (مطبعة فاروق الأول، القاهرة، ط٣/١٣٥٢هـ).

٦١.في الشعر الإسلامي والأموي، للدكتور عبد القادر القط (دار النهضة العربية، بيروت ١٤٠٧هـ).

٦٢.في الشعر الجاهلي، للدكتور طه حسين (دار الكتب المصرية، ط١/١٣٤٤هـ).

٦٣.في النقد الأدبي، للدكتور شوقي ضيف (دار المعارف بمصر، ط٣).

٦٤.في شعر صدر الإسلام والعصر الأموي، للدكتور فوزي محمد أمين (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٢م).

٦٥.قصة الحضارة، لول ديورانت (ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة).

٦٦.قصيدة الرثاء: جذور وأطوار: دراسة تحليلية في مراثي الجاهلية وصدر الإسلام، للدكتور حسين جمعة (دار النمير، دمشق، ط١/١٩٩٨م).

٦٧.قضايا الشعر المعاصر، لنازك الملائكة (مكتبة النهضة، القاهرة، ط٣/١٩٦٧م).

٦٨.قضايا في النقد والشعر، للدكتور يوسف حسين بكار (دار الأندلس، بيروت، ط١/١٤٠٤هـ).

٦٩.قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلاَّم، لمحمود محمد شاكر (مطبعة المدني، القاهرة).

٧٠.اللغة العليا (النظرية الشعرية)، لجون كوين (ترجمة الدكتور أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٥م).

٧١.مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمعها محمد حميد الله (دار النفائس، بيروت، ط٧/١٤٢٢هـ).

٧٢.المدائح النبويَّة، للدكتور محمود علي مكّي (الشركة المصرية العالمية للنشر، الجيزة، ط١/١٩٩١م).

٧٣.المدائح النبويَّة في الأدب العربي، للدكتور زكي مبارك (مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة

١٣٥٤هـ).

٧٤.المدائح النبويَّة في الشعر العربي من عصر النبوة حتى البوصيريّ، للدكتور صلاح عيد (مكتبة الآداب، القاهرة، ط١/٢٠٠٨م).

٧٥.مدخل إلى نشر التراث العربي، للدكتور محمود محمد الطناحي (مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/١٤٠٥هـ).

٧٦.مراثي النبيّ ﷺ: جمع وتحقيق ودراسة، للدكتور محمد أبو المجد علي (مكتبة الآداب، القاهرة، ط٣).

٧٧.المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، لعبد الله الطيب (الكويت، ط٣/١٩٨٩م).

٧٨.المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، للدكتور يحيي وهيب الجبوري (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/١٩٩٧م).

٧٩.مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، للدكتور ناصر الدين الأسد (دار الجيل، بيروت، ط٨/١٩٩٦م).

٨٠.مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، للدكتور أيمن فؤاد سيد (المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٧٤م)

٨١.مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، لجان سوفاجيه، وكلود كاين (ترجمة الدكتور عبد الستار حلوجي والدكتور عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨م).

٨٢.مصطلح التاريخ، للدكتور أسد رستم (المكتبة العصرية، صيدا، ط١/١٤٢٣هـ).

٨٣.مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، للدكتور عبد الحليم حفني (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م).

٨٤.معجم التاريخ: التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)، لعلي الرضا قرة بلوط، وأحمد توران قره بلوط (دار العقبة، قيصري، تركيا ١٤٢٢هـ).

٨٥.معجم المطبوعات العربية والمعربة، ليوسف إليان سركيس (منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، صوَّرتها مكتبة الثقافة الدينية ببورسعيد).

٨٦.المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي (ساعدت على طبعه جامعة بغداد، ط٢/١٤١٣هـ).

٨٧.من نحو المباني إلى نحو المعاني: بحث في الجملة وأركانها، للدكتور محمد طاهر الحمصي (دار سعد الدين

للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١/١٤٢٤هـ).

٨٨.منهج البحث التاريخي، للدكتور حسن عثمان (دار المعارف، ط٥).

٨٩.الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم (مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/١٤٠٦هـ).

٩٠.موسيقى الشعر، للدكتور إبراهيم أنيس (دار الفكرة للطباعة والنشر، القاهرة).

٩١.موسيقى الشعر العربي: دراسة فنية وعروضية، للدكتور حسني عبد الجليل يوسف (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م).

٩٢.النصّ الشعري وآليّات القراءة، للدكتور فوزي سعد عيسى (منشأة المعارف بالإسكندرية).

٩٣.نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، لديفيد بُشبندر (ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥م).

٩٤.نظرية البنائيّة في النقد الأدبي، للدكتور صلاح فضل (دار الشروق، القاهرة، ط٢).

٩٥.النظم الشفوي في الشعر الجاهلي، لجيمز مونرو (ترجمة الدكتور فضل بن عمار العماري، دار الأصالة، الرياض ١٤٠٧هـ).

٩٦.النقد الأدبي الحديث، للدكتور محمد غنيمي هلال (دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٩٦م).

٩٧.النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، للدكتور محمد الناصر العجيمي (كلية الآداب، سوسة، ط١/١٩٩٨م).

٩٨.نقض كتاب في الشعر الجاهلي، للشيخ محمد الخضر حسين (المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٥هـ).

٩٩.يمانيُّون في موكب الرّسول، لمحمد حسين الفرح (وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ١٤٢٥هـ).

100...ENCYCLOPEDIA OF ARABIC LITERATURE, Edited by Julie Scott Meisami and Paul Starkey, New York, 1998.

101...THE ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM, Leiden, E.J. Brill, new edition,1991.

102...THE DIWAN OF ABID IBN AL-ABRAS AND AMIR IBN AT-TUFAIL OF AMIR IBN SASAAH (edited by Sir Charles Lyall , Leyden, 1913).

رابعًا: الرسائل العلمية:

١.البنية الإيقاعية في شعر شوقي، لمحمود عسران محمد إسماعيل (رسالة دكتوراه رقم: ٧٧٥٥ س، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ٢٠٠٥هـ).

٢.مرويات البَلاذُري عن عصر الراشدين: دراسة تاريخية مقارنة للروايات المسندة المعاصرة، لوليد علي الطنطاوي (أطروحة ماجستير بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، بكلية دار العلوم بالفيوم ٢٠٠٤م).

خامسًا: الدّوريات:

١.مجلة معهد المخطوطات العربية (ربيع الأول وشعبان ١٤٠٢هـ، الكويت).

٢.مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء التاسع والأربعون (رجب ١٤٠٢ هـ - مايو ١٩٨٢م).

٣.مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (جمادى الأولى ١٤١٨هـ).

٤.مجلة عالم الفكر (العدد ٣، المجلد ٣٧ يناير ومارس ٢٠٠٩م، الكويت).

***

اَلْفَهَارِسُ اَلعَامَّةُ لِلْكِتَابِ

فهرس شعراء المراثي[1]

(١) أرقام صفحات مراثيهم .

* * *

فهرس المراثي(١)

(١) عدد الأبيات بالأرقام في أول الكلام .

* * *

فهرس الموضوعات

•••

تم بحمد الله